

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
الدراسات العليا
قسم الأدب والنقد

بركة البوصير وعارضاتها

في العصر الحديث
دراسة وتحليل وموازنة

١٦

بحث يقدمه

جابر عبد الرحمن سالم يحيى
المدرس المساعد بكلية اللغة العربية
ثبيل شهادة العالمية "الدكتوراه"
في الأدب العربي والنقد

إشراف

الدكتور: أحمد الشرباصي
أستاذ الأدب العربي والنقد
بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر



إهداء

إلى من أرسله الله تعالى رحمة للعالمين ، وجعل اسمه

خاتم الأنبياء والمرسلين .

إلى العبيب محمد (صلى الله عليه وسلم) ، أهدى هدية
الرسالة ، التي هي نبع من فيض مدائمه ، وعظيم شفاؤه ،
عسى أن تكون عنة أنسال بها ربي (سبحانه وتعالى)
وشفاعته نبوي (صلى الله عليه وسلم) .

يا سيد الكونين ، لي أمل	ألا يكون لغيرك إلا هداية
فأقبل هدية باحث في مدحك	هو (جابر) حباً لكم وفداية
أنا السعيد إذا قبلت هديتي	وأنا ابن (يحيى) جدتي الزهراء
لا تحرمني يا رسول شفاعته	يوم الزحام والقضاء قضاء
يا رب صل على النبي مسلماً	ما عورضت (برد قهقرياً)
واختم بغير يا كريم - تفضلاً -	للمسلمين ، فكلنا خطايا

الراجعي عفو ربي

وشفاعته رسول الله

صلى الله عليه وسلم

جابر عبد الرحمن سالم يحيى

شكركم وتقديري

إن شكركم الناصر على معروف قديموه ، أو جهل عنصوه ، أمر
تدعو إليه الطباع السليمة ، ونحث عليه الأخلاق الكريمة ، بكل
جملة الرسول (على الله عليه وسلم) من شكر الله فقسال :
* من لم يشكر الناس لم يشكر الله *

ولذا ، فإنني بعد شكرى الله (سبحانه وتعالى) على ما
أنعم به على وفقني في تلك الرسالة ، أرى أن من أوجب الواجبات
شكر أستاذى الفاضل الدكتور / أحمد الشرباصى ، الذى تفضل
شكورا بالإشراف على تلك الرسالة ، وعلى الرفق من ظروفه الصحية
القاسية ، فقد شملنى بمطقتيه ، وعسى بنصحه ، وفيرنى بثاقب
فكره .

كما أشكر من أزرنى حتى ظهرت تلك الرسالة فى هذه
الصورة الطيبة ، وبخاصة أخص الأستاذ / حسنى عبد الرحمن
سالم يحيى .

جزى الله الجميع عنى وعن الملم وأهله خير الجزاء *****



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين -
سيدنا محمد - وعلى آله وصحبه ، ومن اتبع هداه إلى يوم الدين .

ويعد : فإني أقدم هذه الرسالة - " بردة البوصيري ومعارضتها ، في المصير
الحديث ، دراسة وتحليل وموازنة " - أقدمها إلى كلية اللغة العربية
بجامعة الأزهر ، لنيل درجة العالمية " الدكتوراه " في الأدب العربي
والنقد .

ولقد جرى المصنف الجامعي علي أن يذكر الباحث في مقدمة رسالته ،
سبب اختيارها ، كما يشير إلى أهم المراجع التي رجع إليها ، ويقدم عرضاً
موجزاً لما اشتملت عليه الرسالة من أبواب وفصول ، وما تضمنه كل باب وفصل
ثم يذكر ما توصل إليه من نتائج ، وما رآه من مقترحات ، وسوف أشير إلى ذلك
فيما يأتي إن شاء الله .

فأما سبب اختياري موضوع هذه الرسالة فيرجع إلى شهر مارس سنة ١٩٦٧هـ إذ
مررت بجاري - في المنزل - بشلل أعجزه عن الحركة ، ولما ذهبت لعيادته
وجدت عنده شخصاً ، يقرأ - بصوت عالٍ - أبياتاً من الشعر في مدح الرسول
(صلى الله عليه وسلم) ، فاستنكرت هذا العمل منه لعدم مناسبته المقام .

وعندما انتهت من قراءته ، بينت له بعض آداب عيادة المريض ، فأخبرني
أنه كان ينشد بردة الإمام البوصيري ، عسى أن تكون سبباً في شفاء جاري ، كما
كانت سبباً في شفاء الإمام البوصيري من مرض يشبه ذلك المرض ، وأخذ يقص علي
بعض القصص عن الإمام البوصيري وبردته ، فكنت أستمع له بشغف لأنني لم أكسب
أعلم شيئاً عن ذلك الموضوع ، وأردت الوقوف على حقيقة ما سمعته ، ففسرت
عن البردة وصاحبها كثيراً ، إلا أنني وجدت من أعجب بالبردة لأنها في مدح
الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كما وجدت من لم يحجب بها لما نسج

حولها من بعض الخرافات ، والمبالغات فأعجبت أن أذكر رأيي وأنشئ سره
ولكن أنسى لي ذلك ، وأنا حينئذ - طالب بالسنة الرابعة الثانوية بمعهد
طنطا الديني ، فالتفت بما علمت ، فوضعا الأمر لله ، حتى تنهيا لمسئ
الأسباب .

ومرت السنون ، وواصلت دراستي ، حتى جاء يوم أبحث فيه عن موضوع
لرسالة الدكتوراة ، فتذكرت الأمل الذي راودني من قبل ، واستشرت في مسـ
أستاذي ، فوافق على أن يكون عنوانه ما ذكرته في أول المقدمة ، لكي يناسب
الدراسة الأدبية ، والبحث العلمي .

ولقد قرأت كتبا كثيرة ، ورجعت إلى مصادر عديدة ، ومنها :
المدائح النبوية ، والموازنة بين الشعراء للدكتور زكي مبارك ، والعمدة لابن رشيق
والموازنة للأمدى ، والوساطة للقاضي الجرجاني ، كما قرأت كثيرا من دواوين
الشعراء ، وغير ذلك من الكتب التي أشرت إليها في مراجع البحث ، بالإضافة
إلى بعض شروح البردة - وبخاصة شرح الشيخ الباجوري - ولقد انتفعت
ببعض هذه الشروح في دراسة البردة ، إلا أنني وجدت بها مليحة بكثير ممن
المبالغات التي لا دليل على صحتها ، ولا برهان على صدقها ، ومنها الإشارة إلى
أن هذا البيت لإزالة المنكر ، وذلك للجمع بين الأحباب وغير هذا كثير ، ولمحل
ذلك كان من الأسباب التي صدت بعض الناس عنها .

ومهما يكن من شيء ، فلقد كنت أظن أول الأمر سهولة الموضوع ، نظرا
للفكرة التي كانت لدي من قبل ، ولكن سرعان ما تبين لي أن الأمر جد جديد
ويختلف كل الاختلاف عما قرأت وبخاصة في ناحية تحليل البردة ومعارضاتها ،
كما قابلتني صعوبات في البحث عن معارضات البردة ، وبخاصة أن بعض أصحابها
غير مشهور ، وبعضهم قد توفى إلى رحمة الله ، وغير ذلك من الصعوبات التي
يخوضها كل من عمل في مجال البحث العلمي ، إلا أنني استمهل كل صعب
واستعذبت كل عناء ، لصلصة الموضوع بسيد المرسلين ، ونظام النبیین (صلى
الله عليه وسلم) ، الذي أشرفت عليه ، فبدلت الظلام نورا ، والجهل علما
والعفسه حامسا .

والحمد لله ، قد انتهيت من بحثي ، وها هو ذا يتكون من مقدمة أبين فيها
خطوات البحث ، وتمهيد ، وستة أبواب ضمت خمسة عشر فصلا ثم الخاتمة ومما
توصلت إليه من النتائج ، وما رأيته من المقترحات .

فأما التمهيد : فقد تحدثت فيه عن (المدائح النبوية قبل بردة البوصيري)
وبينت أهم سماتها من نشأتها حتى ظهرت (بردة البوصيري) التي جعلتها
عنوانا للباب الأول ، وتحدثت في الفصل الأول منه عن (البوصيري من مهده إلى
لحده) ، وفي الفصل الثاني تناولت (البردة بالدراسة والتحليل) ، ثم ذكرت
(أثرها) في الفصل الثالث .

ولقد أشرت إلى (معارضات البردة في العصر الحديث قبل شوقي) فسي
الباب الثاني الذي تحدثت في الفصل الأول منه عن (المعارضة ودوافعها) ومدى
انتشارها في الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى (العصر الحديث) الذي
جعلته موضوع الفصل الثاني ، وبينت أهم معالمه ، أما الفصل الثالث فقد
تحدثت فيه عن (معارضة الدرويش والتميمورية وأثرهما) .

وفي الباب الثالث : تحدثت عن (كشف الغمة في مدح سيد الأمة) وقسمته
إلى ثلاثة فصول ، ففي الفصل الأول أشرت إلى (حياة البارودي) كما اشتمل الفصل
الثاني على (دراسة كشف الغمة وتحليلها) ثم بينت (أثرها) في الفصل الثالث .

ثم انتقلت إلى الباب الرابع ، الذي تحدثت فيه عن (معارضة شوقي)
وجعلته ثلاثة فصول أيضا ، أشرت في الفصل الأول منه إلى (شوقي من مولده إلى
وفاته) وفي الفصل الثاني كانت (دراسة نهج البردة وتحليلها) ، أما الفصل
الثالث فقد أشرت فيه إلى (قيمة معارضة شوقي) .

ثم أفردت الباب الخامس للحديث عن (معارضات البردة بعد شوقي) ،
وجعلته فصلين ، أشرت في الفصل الأول إلى (عرض موجز لمعارضات البردة بعد
شوقي) واكتفيت بالحديث عن سبع معارضات ، وصدرت كل معارضة منها بحديث
موجز عن حياة صاحبها ، أما الفصل الثاني فذكرت فيه (أثر هذه المعارضات)

وتحدثت في الباب السادس عن (الموازنة بين بردة البوصيري ومعارضاتها) فسي
العصر الحديث ، واقتصرت على الموازنة بين البردة ومعارضة البارودي وشوقي
لمكانتهما بين النقاد ، وأثرهما في نهوض الشعر العربي .

ثم أشرفت على أهم أفكار الرسالة في (الخاتمة) وما توصلت إليه من نتائج ، وما رأيته من مقترحات .

ويجد : فإن هذه هي الأبواب والفصول التي اشتملت عليها رسالتي ، فإني أكن قد وفقت ففضل من الله ، وإن كانت الأخرى ، فحسبي ما بذلت من جهد وجاء التوفيق - خلال أوسع سنوات - تقريبا - كانت كلها عملا متواعلا ، وبحثا مستمرا ، أضف إلى ذلك أنها لم تحصل من أحداث تعكر الصفو ، وتبعث الأسى وأهم ما وقع لي من أحداث وفاة والدي (رحمه الله) (١)

ولا شك في أن مثل هذا الأمر يدعو القارىء أن يفض الطرفه عما يكون قد وقع في رسالتي من تقصير أو نقص ، وأن يتذكر أن الكمال إنما هو لله وحده الذي أحسن كل شيء خلقه .

ولمست أزعج أنني قد بلغت فيها كل مدى ، ووصلت فيها إلى كل غاية ، فهذا ما لم يتفق لأعد ، ولكنني أعتقد أنني مهدت الطريق للسير في هذا الميدان ،

هذا وبالله التوفيق ، وعلى الله وعلى سيدنا وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) توفي والدي (رحمه الله) في يوم السبت ٢٦ من فبراير سنة ١٩٧٧ .

تمهيد

• ((المدائح النبوية قبل بريدة البوصيري)) •

لما كانت بريدة البوصيري في مدح رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم - كان من المناسب أن أبدأ هذه الرسالة بتمهيد عن المدائح النبوية ، يوضح معالمها ويصور ملامحها ، من يوم نشأتها إلى يوم أن ظهرت البردة •

جرت عادة الأمم - وخاصة الأدباء من أبنائها - أن تلهج بالثناء على عظمائها وتشير بالفخر إلى كريم خلقهم ، وعظيم عطيمهم ، من علم نافع نشره ، أو عمل صالح قدمه ، أو واجب أدوه فأتقوه •

ولهذا •• لم يكن بدعا من الأدباء - وغيرهم - أن يمدحوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولم يكن عجب في ذلك ، بل المجد كل المجد أن لا يمدحوه ، وهو صاحب الفضل الكبير الذي لا ينسى ، والأثر الكريم الذي لا يمحي ، والخلق العظيم الذي مدحه الله تعالى - به في القرآن الكريم بقوله :

((وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقَيْ عَظِيمٍ)) (١)

لقد كان الناس داخل شبه الجزيرة العربية - قبيل البعثة المحمدية - في جهالة جهلاء ، وضلالة عمياء ، صور بعضها جعفر بن أبي طالب (٢) رضى الله عنه - بقوله :

كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأمن الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسى الجوار ، وأكل القوى منا الضعيف ••• (٣)

وأما خارج شبه الجزيرة العربية - فكانت دولتا الفرس والروم قد تردتا في أعماق الهاوية - على اختلاف في الصور والأشكال - بسبب الحروب التي استمرت بينهما سنين عددا ، والظلم الذي جعل السيادة والسلطان والثراء المرض وقفا على الحكام ، ومن يماثلونهم من أصحاب السياح والإقطاع ، ومن ورائهم وتحت أقدامهم الملايين من البشر الذين يمشون في السذل والحرمان (٤)

(١) سورة القلم / ٤ (٢) هو / جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، أسلم وحسن إسلامه واشترك في كثير من الفزوات حتى استشهد سنة ٨ هـ • انظر - ابن الأثير أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ١ ص ٣٤١ طبعة دار الشعب بالقاهرة سنة ١٩٧٠ •

(٢) ابن هشام : سيرة النبي ج ١ ص ٣٥٩ بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد طبعة دار التحرير للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٨٣ هـ •

(٤) الدكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٦٨ الطبعة الخامسة ، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٢ •

وقد أهملت - هنا وهناك - حصرن الشرائع ، وعماليم السماء ، وفقى فارس وما وراءها - وجدت المجوسية ، وتعددت الآلهة ، وفي الروم - وما حولها - انتشرت المسيحية التي لم تبرا من أخلاط الوثنية ، وأتباعها يخبطون خبط عشواء (١) .

على هذا . . . أوعلى أسوأ من هذا ، كانت تحيا أم العالم وشعوبه ، ونفسى مختلف أقطار الأرض ، إذ شبت الحرب ، وشنت النارات ، وسلبت الحقوق (٢) .

ومن ثم . . . من الله على عباده فيبعث فيهم رسولا منهم . . . يعرفون نبيه وصدقته ، وحقه وأمانته ، دعاهم إلى الله ليوحيدوه وعبدوه ، وخلصوا ما كانوا يعبدون - هم - وأبائهم ، من دونه ، من الحجارة والأوثان ، وأمرهم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهاهم عن الفواحش وقبول الزور ، وأكث مال اليتيم . . . (٣) .

والحق أن هذه الدعوة كانت بمثابة شمس الهداية التي سطعت على العالم ففسرت الإنسانية يفهي من الجادى السليمة ، وأيقظت دعائم الفضيلة ، وأنارت القلوب بنور الله ، وأصبحت بذلك كله - عظيمة الأثر فى القلوب شديدة التأثير فى النفس النفيسى .

وقد انقسم الناس - كما دنتهم - أمام تلك الدعوة إلى فريقين : فريق . . . كذب واستكبر ، لا لشيء إلا لأن العناد ملك لبيه ، والحق قد قتل قلبه ، فاستولت العصبية البغيضة على تفكيره وإحساسه ، واتخذ إليه هداه ، فطمس الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

وفريق . . . فكر وقدر . . . ولما وجد فى تلك الدعوة صلاحه ، وفلاحه ، آمن بهيها مطمئن القلب ، فشرح الصدر ، بل أشاد بتماليمها ، وودح من أرسله الله بها : ودح محمدا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المثل الكامل للإنسان الظاهر قلبا ، والف لسانا ، الفصيح بيانا . . . الذى استطاع بكل هذه الصفات الحميدة أن يحقق آثارا عظيمة ، دلت على عظمته ، كما شهد بذلك كاتب ليس على دين محمد ، بقوله : . . . وإذا حكنا على المظمة

(١) المرجع السابق عن ٢٥ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق عن ٦٧ وما بعدها .
(٣) سيرة النبي ج ١ ص ٣٥٩ بتصرف .

بما كان للعظيم من أثر في الناس ، قلنا : إن محمدا كان من أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والخلقي لشعب ألفت به في ذباجسير الهمجية حرارة الجو ، وجذب الصحراء ، وقد نجح في تحقيق هذا الفؤى نجاحا لم يدانسه فيه أى صلاح آخر في التاريخ وقيل أن تجد إنسانا غيره حقق كل ما كان يحلم به ، واستطاع في جيل واحد أن ينشئ دولة عظيمة وأن تنقسي إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم (١)

وهكذا كانت شهادة رجل - لم يؤمن بدين محمد - صلى الله عليه وسلم - وأسائل ما الذى دعاه إلى ذلك القول الصادق ؟ فأجد الجواب : إنه ضوء الفجر الذى طال ليله ونور الصباح الذى يبدد حجب الظلام ، فمن ذا الذى يستطيع إنكاره ، ولا يحترف بآثاره ؟

ومن هنا من موقف المؤيدين للدعوة المحمدية ، والمعارضين لها ، نشأت المدائح النبوية ، إذ هب كل فريق يدافع عن معتقده ، ويناصح عن سلكه ، مستخدما أىضى الأسلحة فى ذلك الوقت ، وهو سلاح الشعر ، الذى اتخذته الناس - حينئذ - سجل حياتهم ، وأداة تفاخرهم فانبهرى الشعراء الممارضون يخوضون فى الإسلام ورسوله ، هدفاً وإجزاً ، كما انطلق الشعراء المؤيدون يشيدون بالرسالة المحمدية وسعاليها ، ومدحون الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى من الله عليهم ببخشته ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وبدل سفهم حلما ، وجهلهم علما ، وصدق الله العظيم يقول :

لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم
يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا
من قبل لفي ضلال مبين (٢)

أجل مدح الشعراء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا أن مدائحهم - وإن اختلفت فى الهدف - قد اختلفت فى طريق الوصول إليه ، فلم تأخذ شكلا

(١) اندكسور (ول ديوانت) : قصة الحضارة ، المجلد الرابع ج ٢ ص ٤٧
ترجمة محمد بدران بتصرف ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .

(٢) سورة آل عمران / ١٦٤ .

معيننا ولم تلبس ثوباً واحداً ، يتضح ذلك من خلال مدائح بعض الشعراء الذين
سأحدث عنهم فيما يلي (١) :

١- لقد أمعنت النظر إلى معظم القصائد التي مدح بها الرسول - صلى الله عليه وسلم
- إن لم تكن كلها - فوجدت أن من أقدمها قصائد كثيرة (٢) عزاهها المؤرخون
وأصحاب السير (٣) إلى أبي طالب بن عبد المطلب (٤) ، ومن تلك القصائد قصيدته
التي أنشأها عندما تحالفت قريش على النبي ونبي هاشم ، وفيها يمدح ولده الرسول
- صلى الله عليه وسلم - مؤكداً أنه لن يتركه ولن يسلمه ، ثم يفصح عن حبه للرسول
صلى الله عليه وسلم - فيمدحه بقوله :

لعمري لقد كلفت وجداً بأحمد	وأخوته دأب المحب المواصل (٥)
فبلا زال في الدنيا جمالا لأهلها	وزينا لمن ولده ذب المشاكيل (٦)
فمن مثله في الناس ، أي مؤمئيل	إذا نسه الحكام عند التفاضل
حليم ، رشيد ، عادل وغير طائش	يوالي إليها ليعرخته بخافس (٧)

(١) سأحدث عن هؤلاء الشعراء مرتبين على حسب تاريخ وقاتهم .

(٢) ذهب إلى ذلك أيضا الدكتور / علي صافي حسين - ولكنه استشهد بقول أبي طالب :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوارى في التراب دفيناً
فأصدع بأمرك ما عليك غضاضة
وأبشر وتقر بذلك منك عيوننا

والملاحظ أن المديح غير ظاهر فيما ذكره الدكتور مثلما هو ظاهر في الأبيات التي
ذكرتها ، انظر : الدكتور علي صافي حسين : المديح النبوية في القرن الأول
الهجري ص ١٤ ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية سنة ١٩٦٨ .

(٣) انظر : الشيخ محمد خليل الخطيب : غاية المطالب في شرح ديوان أبي طالب ص : ٢٠ ،
٧٠ ، ٥٥٠ ، مطبعة الشعراوي بطنطا سنة ١٩٥٠ .

(٤) هو : عبد مناف بن عبد المطلب عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - كلفه وهو صفيير
ودافع عنه بعد بحدته ، وكان شاعراً جيد الكلام ، توفي قبل الهجرة النبوية بثلاث سنوات
، وقيل : غير ذلك ، انظر : أسد الغابة ج ١ ص ٣٩ ، ابن سلام : طبقات الشعراء ص ٩
المطبعة المحمودية بالقاهرة (غير مؤرخ) ، الزركلي : الأعلام ج ٤ ص ٣١٥ المطبعة
الثانية بمطبعة كوستاتسوبا من شركاه سنة ١٩٥٤ .

(٥) إخوته : أراد بهم - أبو طالب - أبناءه - مثل : علي وجعفر وعقيل - رضي الله عنهم -

فهم إخوة للرسول ، لأن الصم والد - عند العرب - وأولاد الصم إخوة .

(٦) ذب المشاكيل : حلها .

(٧) غير طائش : ثابت رزين .

فأبو طالب يحب الرسول - صلى الله عليه وسلم - حبه لأولاده أو أشده . لأن الرسول أهل لكل ثناء ، جدير بكل حبه ، إذ ليس في الناس من يماثله في حل المشكلات ، وكثرة الهبات ، كما أنه حلِيم في فعله ، وشديد في رأيه ، عادل في حكمه ، ثابت في كل أحواله ، يراقب ربه ولا يشغل عنه .

٢- ونظم الأعشى (١) قصيدة ، قال فيها بعض الكتاب (٢) : إنها أقدم قصيدة مدح بها الرسول - صلى الله عليه وسلم - . . . ومثلها : (٣)

الم تفتن عينك ليلة أرمدا وهادك ما عاد السليم المشهدا (٤)

وفي تلك القصيدة يتحدث الشاعر عن ناقته ممرجا على مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله :

فأليت لا أرض لها من كلالسة ولا من حفى حتى تمزور محمدا (٥)
نبي يرى ما لا ترون وذكيره أظار لمصرى في البلاد وأنجدا (٦)
لسه صدقات ما تخبونائل وليس عطاء اليوم مانمه غدا

فالأعشى يصف الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه يرى ما لا يراه غيره ولعل به يقصد بذلك الوحى مثلا ، كما يشير إلى شيوخ ذكره وانتشار خبره ومدحه بكرمه الذى يفيض ولا يخفى ، والاحظ أن هذه صفات يمدح بها رؤساء القبائل والملوك وليس من أن يمدح بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . ويبدو أن الشاعر متأثر بطريقة المدح فى الجاهلية ، مما جعله يل بعض الكتاب يذهب إلى القول بأن " هذه

(١) هو : ميمون بن قيس بن جندل ينتهى نسبه إلى ربيعة ، من فحول شعراء الجاهلية ، توفي سنة ٦٢٩ هـ - انظر : جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ١٠١ الطبعة الثالثة ، دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩٣٠ .

(٢) انظر محمد حمودة عبد الرحمن : المدائح النبوية فى المصر الحاضر وأثرها فى الأدب - ص ١٨ ، وهى رسالة ماجستير فى الأدب العربى من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ولعل ذكرى مدائح أبى طالب السابقة تصحح ذلك القول .

(٣) الأعشى الكبير : ديوانه يشرح الدكتور محمد حسين ص ١٣٥ وأبعدها فى المطبوعة النموذجية بالقاهرة سنة ١٩٥٠ - وسيرة النبى ج ١ ص ٤١٣ باختلاف فى بعض الألفاظ .

(٤) الأرمدا : الذى يشتكى وجعا فى عينه . السليم : الذى لدغته الحية سمى بذلك تقاولا .

(٥) أليت : حلفت . لا أرض : لا أشفى كلالسة : البراد تيب وشقة .

(٦) أظار : سار إلى النور وهو المنخفض من الأرض . أنجد : سار إلى النجاة وهو المرتفع من الأرض ، وهذا كتابة عن شيوخ خبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى كل مكان . تخب : تبطى ، وتقطع .

القصيدة ليست من المدايح النبوية في شيء، لأنها ليست أثرا لمطابقة دينية قوية، وما هي إلا محاولة كسائر محاولات الشعراء الذين يكسبون بالمديح (١) واستشهد على صحة قوله " بأن الأعشى رجع عن قصده عندما أعطته قريش بعض الإبل، ولو كان صادقا ما تحول عن قصده (٧) " .

ولكنني لا أرى بأسا من عدم هذه القصيدة ضمن قصائد المديح النبوية ولا يخفى من شأنها، أو يضح من قدرها رجوع ناظميها عن قصده .. فلو أن شاعرا ليس علي دين محمد - صلى الله عليه وسلم - قد مدحه بتقصيدة، أفلا تعد تلك القصيدة من المدايح النبوية؟ إنني لا أرى مانعا من ذلك، أما قول بعض الكتاب " إن القصيدة ليست أثرا لمطابقة دينية قوية .. " .

فهذا مردود بما نفي القصيدة من أبيات دينية، جعلت بعض النقاد يشككون في نسبة القصيدة كلها إلى الأعشى، يقول الدكتور / شوقي ضيف (٢) :

(١) الدكتور زكي مبارك : المدايح النبوية ص ١٩ وما بعدها طبعة دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالظهرة سنة ١٩٦٧ .

(٢) يشير الكاتب بذلك إلى قصة الأعشى : إذ عندما أراد أن يذهب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - لينشد قصيدته التي نظمها من أجله، علمت قريش أمره فوجدوه على الطريق .. ثم سألوه عن مقصده، فقال : إنه يريد محمدا ليسلم فأفهموه أنه ينهي عن الزنا والقمار والربا والخمر، فقال : لقد تركت الزنا وما تركته، وأبدي زهدك في القمار، فقال : ما دعت ولا أدبت، وأبدي جزعه عند ذكر الخمر، فقالوا له : نحن الآن في هذنة .. فخذ مائة من الإبل، ثم ارجع إلى بلدك سنتك هذه، وانظر ما يصير إليه أمرنا، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفا، وإن ظهر علينا أنته، فقال : ما أكره ذلك، ثم أخذ مائة ناقة من قريش ورجع إلى بلده، ولكن بمسيره ربي به فقتله عند بلدة تسمى (قاع منقوخة) وهي قرية من نواحي اليمامة انظر : الأصمعي : الأغاني ج ١ ص ١٢٥ يتصرف طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي مطابع كوستاتسوما وشركاه بالظهرة سنة ١٩٦٣ .

(٣) تاريخ الأدب العربي (٤) (العصر الجاهلي) ص : ٣٤١ وما بعدها الطبعة الخامسة دار المعارف بالظهرة سنة ١٩٧١ .

• ومجرد أن تقرأ القصيدة - قصيدة الأعشى السابقة - قوله فيها :

- | | |
|-----------------------------------|-------------------------------------|
| (١) إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى | ولا قيت بعد الموت من قد تزودا |
| ندمت على أن لا تكون كمثلهم | وأنت لم ترصد لما كان أرصدًا (٢) |
| فإياك والميتات لا تأكلنما | ولا تأخذن سهما حديدا لتقصدا (٣) |
| وذا النصب المنصوب لا تستكبه | ولا تمجد الأوثان ، والله فاعجدا (٤) |

إذا قرأت ذلك . . . تعرفوا أنها موضوعة ، لا لأنه فيها يدعو إلى تعاليم إسلامية فحسب ، بل لأنه ينظم فيها آيات قرآنية من مثل قوله تعالى :

((وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)) (٥)

في البيت الأول ، وقد نظم في البيتين الثالث والرابع قوله تعالى :

((حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَلَحْمُ الْخْتَلِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ . . .)) (٦)

وواضح من هذا كله أن القصيدة منتحلة ، وهي لا تتفق في شيء ونفسية الأعشى وما كان لسمع القرآن ، وهو من بتعاليمه على هذا النحو ، ثم ينصرف عن الرسول الكريم وهديه . . . (٧)

وعلى أي حال ليس المجال هنا في البحث عن القصيدة ، أم موضوعة أم غير موضوعة ولكن كل ما يهمني ، أنه لا ضير من أن تعد تلك القصيدة - إن صحت نسبتها - إلى الأعشى - من قصائد المديح النبوية ، حتى لو كان الشاعر لم يمدح الرسول

(١) ديوانه ص ١٣٦ وما بعدها .

(٢) أرصد : أعد وهياً .

(٣) يشير إلى أنه لا بد من الذبح كما تقضى - بذلك - تعاليم الإسلام

(٤) النصب : (بضمين) قيل : مفرد ، وقيل جمع واحد : نصاب ، وقيل : واحد ، نصب

(يفتح فسكون) : الأصنام التي كانت تنصب حول الكعبة وثق من ، وقيل : هسي

الأوثان وهي ما تتخذ من حجر أو خشب ، والصنم ما يتخذ من معدن ، وقيل : غير

ذلك ، وانظر : الفيومي : المصباح المنير - مادة صنم (ج ١ ص ٤٧٧) الطبعة

السابعة - المطبعة الأهلية بالقاهرة سنة ١٩٢٨ .

(٥) البقرة / ١٩٧ .

(٦) المائدة / ٣ .

(٧) يمكنني أن أقول للدكتور شوقي ضيف : إن سماع الأعشى للقرآن وانصرافه عنه وعن مدى

الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليس دليلاً قاطعاً على وضع القصيدة ، إذ وجسد

من أسلم وقرأ القرآن ، وسمعه ، بل كان يسكبته للرسول - صلى الله عليه وسلم -

- ثم ارتد عن الإسلام ، مثل : عبد الله بن سعد بن أبي السرح المتوفى سنة

٢٦ هـ . وقيل غير ذلك ، انظر أسد الغابة ج ٣ ص ٢٥٩ .

صلى الله عليه وسلم - بصفات تتفق مع شأنه كفى ، لأن الشاعر متأثر بطبيعة المديح
الجاهلي ، وليس من السهل أن تُخبر الطبائع بين عشية وضحاها ، كما أنه لم
يتصق في الدين الإسلامي حتى يحرف صفات النبي - صلى الله عليه وسلم مفيد
بها ، على أنني لا أطلب من الشاعر أن يقدّر بهذا اللون من الشعر قزّة واحدة
تترفع إلى درجة من الكمال تنزع من يأتي بعده من الشعراء أن يهذيهم
وينقحهم ، ويكفى أن القصيدة - على فرض صحتها - قد قيلت في وقت كانت
شمس الإسلام فيه لم تزال في خدر أمها ، ويكفى - أيضا - أنها كانت لبنة فسسى
هذا الفن . ثم أتت بعدها لبنات (١) .

٣ - وإذا كان الشك قد حام حول قصيدة الأعشى ، فإن قصيدة كعب بن زهير (٢)
التي مطلعها (٣) :

بانث سعاد فقلبي اليوم متبول مقيم إثرها لم يفد مكبول (٤)
لم يتطرق إليها أدنى شك في نسبتها إلى الشاعر ، ولقد بدأها يفزل تقليدي
تشوق فيه إلى محبوبته التي وصف محاسنها ، ثم تخلص إلى وصف ناقه ، ومرجسا
على مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - محتذرا إليه عما بدر منه ، ملتصقا المقصود
عما صدر عنه ، إذ قيل (٥) :

إن كعبا قد هجا أخاه بُجيرا عندما علم خبر إسلامه ، كما هجا الرسول - صلى
الله عليه وسلم - والمسلمين ، ولما علم الرسول ذلك أهدر دمه ، فأرسل إليه أخسوه :
أن اتت الرسول - صلى الله عليه وسلم - مسلما ثابتا ، حتى لا تُثقل كما قُتل غيرك ممن
أهدر الرسول دما ، ولما بلغ الكتاب كعبا ضاقت به الأرض ، وأهفق على نفسه
فأتجه إلى المدينة ، حيث نزل على رجل من الصحابة فغدا به إلى رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - حين صلى الصبح ، فقال له : هذا رسول الله ، قم إليه ،

-
- (١) المدائح النبوية في العصر الحاضر وأثرها في الأدب ص ١٩ وما بعدها .
(٢) هو : كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني شاعر فحل ونشأ في بيت من بيوت الشهر
العصرية أسلم وحسن إسلامه ، وتوفي سنة ٢٤ هـ ، انظر : أسد الغابة ج ٤ ص ٤٧٥
(٣) كعب بن زهير : ديوانه يشرح السكري ص ٦ ، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠ .
(٤) بانث : فارقت . متبول : سقيم أضفاه الحب . مقيم : دليل مستحب . لم يفد : لم
يخلص من الأمر . متبول : مقيد .
(٥) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١١٦ وما بعدها ، وأسد الغابة ج ٤ ص ٤٧٥ باختلاف يسير
في بعض الروايات .

فاستأنفه ، فقام حتى جلس أمامه ، فوضع يده في يده - وكان الرسول لا يعترفه - فقال : يا رسول الله ، إن كعب بن زهير قد جاء يستأذك ، تأتيها مسلماً ، فهم يسئل أنت قبل منه ، إن أنا جئتكم به ؟ فقال الرسول : نعم ، فقال : أنا يا رسول الله كعب بن زهير ، فوثب إليه رجل من الأعمصار يريد قتله ، ولكن الرسول قال له : دعوه ، لأنه قد جاء ، تأتيها ، ثم أنشد كعب قصيدته .. ومنها قوله :

أنهت أن رسول الله أوعد نسي
 مهلاً هذاك الذي أعطاك ناقته السقي
 والعقود عند رسول الله بأمسول (١)
 رآن فيها موايعظ وتخصيئس (٢)

وقوله :

إن الرسول لنور محتضاً به مهنند من سيفوا لله مسلول (٣)

ولما انتهى من إنشائها ، خلق عليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - برد تمه مكافأة له ، ومن ثم سميت بالبردة (٤) ، ما كانت سبباً في انتشارها ، واهتمام العلماء والأدباء بها (٥) ، كما ترجمت إلى كثير من اللغات وبخاصة اللغة الفرنسية (٦) .

ومع كل ما باعته تلك القصيدة من عناية العلماء وتكريم الشعراء ، يقول عنها بعض الكتاب (٧) : " إنها ليست من المدائح النبوية في شيء ، إنما هي من قصائد المديح ، يقولها الرجل حين يرجو أو يخاف ، وكعب بن زهير لم يمدح الرسول إلا لينجس من الموت ، ومن كان في مثل حاله لا ينتظر منه صدق في الثناء ، ولم يظلمها وهو مأخوذ بحاطفة دينية قوية ، تسور به إلى روح التصوف .. " .

نعم : إن القصيدة جرت على نسق المديح في الجاهلية ، فتمددت أغراضها وتنوعت أفكارها ، ولكن هذا لا يضمنها من أن تعد ضمن قصائد المديح النبوية .

(١) أوعدني : أئذني بإهدار دمي .

(٢) الناقته : المراد هنا : الحظية . هذاك : زادك الله هدى أو هذاك للصفح عني .

(٣) المهنند : السيف المطبوع من حديد الهند - أو المصنوع فيها - وهو من خير السيف .

(٤) الدكتور شوقي صيف : تاريخ الأدب العربي ج ٢ (المصر الإسلامية) ص ٨٥ طبعة دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٣ .

(٥) انظر : المدائح النبوية ص ٢٦ وما بعدها ، الدكتور عبد السلام سرحان : قطوف من ثمار الأدب بالقسم الثاني ص ١٧٩ وما بعدها الطبعة الثانية بمطبعة دار القومية العربية للطباعة بمصر سنة ١٩٧٢ . الدكتور : أحمد كحيل : دراسات عربية ص ١٣ وما بعدها مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٦٩ . (٦) المدائح النبوية ص ٢٨ .

(٧) المرجع السابق ص ٢٣ .

لأن الشاعر أشهدنا أمام الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما جاءه تائها معلما ،
 فمما عنه الرسول ، بل لقد استخ إليه وهو ينشدنا ، ثم ثأناه عليها ، فأدناه بسرته
 ولم يشترط النقاد على من يمدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن تكون لديه عاطفة
 دينية قوية تمدو به إلى روح التصوف ، وسواء تكن سببا في نجاه الشاعر من الصوت
 كما يزعم بعض الكتّاب بل أن نجاه من الموت إسلامه عندما شن اللعنة ، ويكفي أنها
 اشتملت على ملامح جديدة لم يكن شعرا يمدحون بثلاثها في الجاشلية ، كجديته عن
 القرآن الكريم ، ومن بداية النبي - صلى الله عليه وسلم - للناس وتأيدده منزهة (١) .

٤ - ثم يأتي شاعر آخر له في مجال المدائح النبوية باح وأى باح ، وشاح ذكره في كثير
 من الألفاظ ، إنه شاعر الرسول - صلى الله عليه وسلم - حسان بن ثابت (٢) - رضي
 الله عنه - كان من أكبر شعراء الرسول ، وامتازت مدائحه بالصدق والإخلاص (٣) ويمكن
 تقسيم شعره الخاص بالمدائح النبوية إلى قسمين :

القسم الأول : لم يكن مديحا مباشرا ، بل كان ردا على عجايب المشركين للرسول -
 صلى الله عليه وسلم - ومظلومة خصومه على الشرائع الجاشلية ، ولذا لك
 أمره الرسول (٤) - صلى الله عليه وسلم - بأن يتسلم الأنساب من أبي بكر (٥) ،
 ليكون شعره أوجه في المهجاء ، كما دعا له بقوله :
 اللهم أيد به روح القدس (٦) ، بل إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد بنى له
 مبرا في المسجد ينشد عليه (٧) الشعر ، كما شجعت على هجاء المشركين بقوله برز
 أعجبهم وجبريل ومك (٨) وأكد ذلك مرة ثانية بقوله : إن الله هو يسد
 حسان بنو القدس ما نافع عن رسول الله (٩) .

- (١) المرجع السابق ص ٢٣ .
 (٢) شو : أمير الوليد ، وفيل : أبو عبد الرحمن : حسان بن ثابت الأنصاري ، شاعر مخضرم
 - أدرك الجاشلية والإسلام - أسلم وحسن إسلامه ، ودائع بشعره من الدين توفي سنة
 ٥٤ هـ . وفيل : غير ذلك أسد الغابة ج ٢ ص ٥٥ .
 (٣) الدكتور : أحمد الحوفي الإسلام في شعر شوقي ص ٣٦ ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية
 بالقاهرة سنة ١٩٦٢ . (٤) الأغاني ج ٤ ص ١٣٦ .
 (٥) شو : عبد الله بن أبي نخاعة بن عامر القرشي ، أول من أسلم من الرجال ، وأول خليفة
 للمسلمين بعد وفاة الرسول ، ومناقبه كثيرة ، توفي سنة ١٣ هـ انظر أسد الغابة
 ج ٣ ص ٣٠٦ . (٦) الإمام البخاري : صحيحه ج ٥ ص ٤٥ طبعة دار الشهاب
 بالقاهرة سنة ١٩٦٨ . (٧) ابن رجب : المصنف ج ١ ص ٢٧ طبعة دار الجبيل
 بيروت - بتعليق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد . الطبعة الرابعة سنة
 ١٩٧٢ .
 (٨) صحيح البخاري ج ٥ ص ٤٥ .
 (٩) أسد الغابة ج ٢ ص ٥٥ .

ومن هذا القسم ما أنشده ردا على شاعر وقد بنى تيمم الزهقان بن بدر (١) الذي قال مفتخرا (٢) :

نحن الكرام فلاحى يمسد لنا منا الملوك وفينا يقسم الريح (٣)

فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - لحسان : قم يا حسان ، فأجاب الرجسلى فيما قال ، فقال حسان : (٤)

إن الذوائب من فہسر وإخوتهم
يرضى بها كل من كانت سريرته
قد بينوا سنة للناس تتبسح (٥)
تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا (٦)
أوحا وأرا النفع فى أشياعهم نفعوا (٧)

فحسان - رضى الله عنه - يمدح من أسلم من سادة قريشى - وإخوتهم ممن الأنصار بأنهم بينوا أخلاقا للناس جديدة بالاتباع ، وهذه الأخلاق يرضى عنها ، ويمتدح بها كل تقى القلب ، نفسى الإيمان ، كما أن هؤلاء القوم أصحاب بأس شديد ، ينفخ الأتباع ، ويضر الأعداء ، ثم يمدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه نبى السبر والهداية فيقول :

أعطوا نبى الهدى والبر طاعتهم فما وسانرهم عنه وما نزعوا

ويلاحظ أن مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى تلك القصيدة لم يكن ظاهرا كمدح الصحابة الذين انصبت عليهم القصيدة ، ولعل ذلك لاقباله قصيدة الزهقان السابقة التى كان يصف فيها قومه بالشجاعة والقوة ، فكان لزاما على حسان أن يقارع الحجة بالحجة ، ولو اقتصر الزهقان على مدح رئيس تيمم فخصيب لاقتصر - أيضا - حسان على مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - مما جعل بعض

(٧) هو : الحصين - وقيل غير ذلك - ابن بدر بن امرئ القيس التميمي السعدي كان سيدا فى الجاهلية عظيم القدر فى الإسلام ، وتوفى نحو سنة ٤٥ هـ ، أسد الغابة ج : ٢ ص ٢٤١ ، الأعلام ج ٣ ص ٧٢ . (٦) حسان بن ثابت : ديوانه يشرح عبد الرحمن البرقوقى ص ٢٤٥ المطبعة الرحمانية بالقاهرة سنة ١٩٢٩ .

(٢) الريح : يريد ربح الفئمية ، وهو نصيب الرئيس خالصا دون أصحابه ممن يكسبون الحرب ويسمى أيضا المرباع . (٤) ديوان حسان : ص ٢٤٨ .

(٥) الذوائب : الأعالي والبراد بهم السادة ، فہسر : أصل قريش ، وهو فہر بن غالب وقريش كلها تنسب إليه ، والمراد بإخوتهم : الأنصار .

(٦) السريرة : كالمس أو عمل السر من خير أو شر .

(٧) حاولوا : راهوا وطلبوا الأشياء : جمع شبيحة وهم الأتباع .



النقاد يقولونها :

”... إنها تعجيد لأتباع الرسول ، والشاعر يدفوع إليها بقوة المصيبة (١)“

وهذا واضح كل الوضوح في قصيدته التي هجا فيها أبا سفيان (٢) ، لأنه هجا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفيها يقول له : (٣)

هجوت محمدا فأجبت عنه	وعند الله في ذاك الجراء (٤)
أتهجوه ولست له بكسفا	فشركما لخيركما الفداء (٥)
هجوت مباركا سرا حنيفسا	أمين الله شيمته الوفاء (٦)
فمن يهجو رسول الله منكم	ويهدحه وينصره سوا
فإن أبي ووالده وعرضي	لعرض محمد منكم وقاء (٧)

ففي هذه القصيدة تظهر مدائح الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهو المبارك والحنيف والأمين والوفى ، مما جعل بعض الكتاب يقول (٨) :

إن في هذه القصيدة " تظهر بوادر التصوف ، لأن الشاعر كان ينتظر الجزاء من الله حين أجاب عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - " . . . ويمكن عند هذه القصيدة من بذور المدائح النبوية . . . "

وأما القسم الثاني : فهو ما كان مديحا مباشرا ، وليس ردا على هجاء المشركين مثل قوله (٩) :

أغر عليه للنسوة خاتمم	من الله مشهود يلوح ويشهد (١٠)
وضم إليه اسم النبي إلى اسمه	إذا قال في الخمس المؤمن أشهد (١١)

(١) المدائح النبوية ص ٣٢ . هو : أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن هاشم ، ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأخوه من الرضاعة ، كان يؤذي الرسول قبل إسلامه ثم أسلم وحسن إسلامه ، وشهد بعض الغزوات توفي سنة ٢٠ هـ وقيل : غير ذلك انظر : أسد الغابة ج ٦ ص ١٤٤ وما بعدها . (٢) ديوان حسان ص ١ وما بعدها . (٣) الجزء : المكافأة . (٤) الكفا : النظير .

(٦) الحنيف : المراد هنا المائل عن الباطل إلى الحق . (٧) العرض : موضع المدح والذم من الإنسان والمراد هنا : النفس ، الوقت : الوقاية .

(٨) المدائح النبوية ص ٣٥ . (٩) ديوان حسان ص ٧٨ .

(١٠) أغر : من الغرة وشي بياض في الوجه ، المراد : كريم الأفعال وأصحابها عليه للنسوة خاتم : يجوز أن يكون عليه طابع النبوة من حسن الخلق ، وعظيم السجايا ، ويحتمل أن يكون الخاتم الحقيقي الذي كان في ظهر الرسول ، وكان عبارة عن سلمة مثل بيض الحمامة ، أو كان عبارة عن شعر مجتمعت عند كتفه ، انظر : ابن سعد في الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٣١ طبخة دار التحرير بالقاهرة سنة ١٩٦٨ . (١١) الخمس : المراد الصلوات الخمس ، ورواية ديوان (إذا قال) وفي بعض الكتب (إن قال) انظر : الإسلام في شعر شوقي ص ٣٧ .

وشق له من اسمه ليجلسه
نبي أتانا بعد ياس وفسترة
فأمسى سراجا مستنيرا وهاديا
وأندرنا سارا وشمر جنسة
نشدو المرش محمود وهذا محمد
من الرسل والأوثان في الأرض محمد (١)
يلوح كعلاج الصقيل المهتد (٢)
ولمنا الإسلام فالله نعمد (٣)

ففي هذه القصيدة وأمثالها (٤) بلغ حسان ذروة المديح النبوي ، فالرسول
- صلى الله عليه وسلم - كريم في أفعاله ، محمود في خصاله ، وهو خاتم الأنبياء ، كرمه
الله ، فقرن ذكره بذكره في الأذان والصلاة إذ يقول المؤذن والمصل : أشهد أن لا إله
إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، أرسله الله على حين فترة من الرسل
فنشر الإسلام ، وكسر الأصنام .

وتجد مثل هذا المديح النبوي في كثير من قصائد حسان ، حتى التي أنشأها
بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مثل قوله (٥)

وهل عدلت يوما رزية هالك
تقطع فيه منزل الرحي عنهم
إمام لهم يهديهم الحق جاهدا
عقوب عن الزلات يقبل عذرهم
عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى
رزية يوم مات فيه محمد (٦)
وقد كان ذا نور يشر ويتجد
معلم صدق إن يطيموه يمدوا
وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
حريمص على أن يستقيموا ويهدوا (٧)

-
- (١) الفترة : المراد : المدة بين كل رسولين .
(٢) سراجا مستنيرا : لصلته اقتباس من قوله تعالى : " .. وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا
منيرا " الأحزاب / ٤٦ . الصقيل : السيف اللامع .
(٣) أندرنا : حذرنا .
(٤) ديوانه : ص ١٠ ، ٨٦ ، ٩٩ .
(٥) المرجع السابق ص ٩٢ .
(٦) عدلت : ساوت . هالك : المراد ميت .
(٧) في هذا البيت إشارة إلى قوله تعالى :
" لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريمص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم "
التوبة / ١٢٨ ، ومثل هذا يدل على أن المدائح النبوية قد تأثرت - بالقرآن
الكريم - في وصف الرسول - صلى الله عليه وسلم .

٥ - ولقد مدح النابغة الجعدي (١) رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قصيدة طويلة مطلعها (٢) :

خليل عوجا ساعة وتهجرا
ولو ما على ما أحدث الدهر أو ذرا (٣)

ثم عرج على مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - فوصفه بأنه جاء بالهدى كما أشار إلى القرآن الكريم . فذكر أنه نور يبين طريق الخير والشر، وبحث على التقوى كل ذلك في قوله :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى
أتيم على التقوى وأرضى بفعلها
ويتلو كتابا كالمجرة نيرا (٤)
وكت من النار المخوفة أحذرا

ويقال : إنه عندما أنشد ذلك البيت :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا
وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرنا

قال له الرسول - صلى الله عليه وسلم : (إن كان ينشدها أمامه) فأين المظهر يا أبا ليلي ؟ قال : الجنة ، فقال الرسول : إن شاء الله ، ولقد أعجب به الرسول - صلى الله عليه وسلم - رآية ذلك أنه عندما انتهى النابغة من إنشادها دعا له الرسول - صلى الله عليه وسلم - قائلا : " لا يفض الله فاك (٥) ."

ومدح : رأيت كيف نشأت المدائح النبوية ، التي ظهرت أول ما ظهرت في شوب المدح التقليدي ، الذي يمدح به رؤساء القبائل والملوك ، ولا عجب في قلنسك ، لأن

(١) اختلف المؤرخون في اسمه ، فقيل : هو عبد الله بن قيس ، وقيل : قيس بن عبد الله وقيل : حيان بن قيس ، شاعر مخضرم ، قيل : إنه كان من الموحدين في الجاهلية ولما جاء الإسلام ، أسلم وحسن إسلامه ، وتوفي سنة ٦٥ هـ . انظر : تاريخ الأدب العربي ج ٢ (العصر الإسلامي) ص ١٠٢ .

(٢) الأغاني ج ٥ ص ٩ ، أسد الغابة ج ٥ ص ٢٩١ .

(٣) عوجا : انزلا وأقيما ، تهجرا : اسكنا وقت الهجرة : وهي شدة الحر في وقت القيولة ، ذرا : اتركا .

(٤) المجرة : مجموعة من النجوم الصغيرة ، ينتشر ضوءها ، فيرى كأنه بقعة بيضاء .

(٥) أسد الغابة ج ٥ ص ٢٩١ ، الأغاني ج ٥ ص ٩ .

هو "الشمراء" الذين اتصفت مدائحهم بذلك . كانت شاعرتهم - قبل الإسلام - مطبوعة بطابع الشعر الجاهلي . . ولم يكن من السهل أن تتحول عن ذلك الاتجاه بسبب عشية وضحاها ، لأن " المذاهب الأدبية لا تتغير في عام أو عامين ، ومن الإسراف أن نتنظر ذلك (١) ."

لقد كانت مدائح "الشمراء" غير متأثرة - في أفكارها - بروح الإسلام من حيث أسلوب التعبير ، وطرق الأداء ، ونسق القصيدة ، أو منهجها المصنوع ، اللهم إلا في النثر اليسير من حيث المعاني ، فكانت تلك القصائد تستهمل بالفضل ، وذكر الديار ، ومكان الأطلال ، ووصف الناقة ، ثم مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولم يخرج عن ذلك الإحسان بين ثابت في بعض قصائده (٢) ، وكذلك بعض الصحابة الذين مدحوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واتسم ذلك المسند بأنه في أبيات ممدودة ، قصيرة النفس ، مثل تلك الأبيات التي نسبت إلى المباس ابن عبد المطلب (٣) ، ومنها قوله يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم (٤)

وأنت لما ولدت أشرقت الأرض
فنحن في ذلك الضياء وفي السمر
أرض وضاعت بنورك الأفتق
نور ، وسهل الرشاد نخترق
وكذلك الأبيات التي نسبت إلى عبد الله بن رواحة (٥) ، وفيها - أيضا - يخاطب الرسول (٦) قائلا :

إني تفرست فيك الخير أعرفه
أنت النبي ومن يحرم شفاعته
والله يعلم أن ما خانني البصر
يوم الحساب فقد أزي به القدر

(١) المدائح النبوية ص ٢٣ .
(٢) انظر ص ١٢ من هذه الرسالة .
(٣) هو المباس بن عبد المطلب بن هاشم عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وولد قبله بستين ، أسلم وحسن إسلامه ، ودافع عن الرسول كثيرا ، ولذلك أحبه ، وقسال له : " أنت آخر المهاجرين ، كما أنني آخر الأنبياء " . توفي سنة ٢٢ هـ - (أسد الغابة ج ٣ ص ١٦٤) .
(٤) المرجع السابق ج ٢ ص ١٢٩ وما بعدها .
(٥) هو : عبد الله بن ثعلبة الأنصاري ، صحابي جليل ، شهد كثيرا من الغزوات واستشهد بعد جهاد كبير سنة ٨ هـ . (أسد الغابة ج ٣ ص ٢٣٤ وما بعدها) .
(٦) المرجع السابق .

وإذا كانت هذه الأبيات قيلت في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهنالك أبيات قيلت بعد موته ^(١) - صلى الله عليه وسلم - واتسمت بالسمة المابقة نفسها ، ومن ذلك ما نسب إلى كعب بن مالك ^(٢) الذي يقول ^(٣) :

يا عيين فابكي بدمع ندى	لخير البرية والمصطفى
ويكى الرسول ، وحق الهكساء	عليه لدى الحرب عند اللقاء
على خير من حملت ناقصة	وأثقى البرية عند التقى

وإذا كانت الأبيات السابقة كلها قد نسبت إلى رجال من الصحابة ، فيها هيى لى بعض الأبيات التى نسبت إلى السيدة صفية بنت عبد المطلب ^(٤) التى تقول فيها ^(٥) :

عين من تدبين بعد نهى	خصه الله ربنا بالكسب
فاتح ، خاتم ، رحيم ، رؤوف	صادق القيل ، طيب الأثواب
مشفق ، ناصح ، شفيق علينا	رحمة من إلهنا الوهب
رحمة الله والسلام عليه	وجزاه الطيبك حسن الثواب

نعم ، هذا رثاء ، مقرون بالوفاء ، وهو أيضا مديح لخاتم الأنبياء ، . . . إنسه لفظ رقيق ، ومعنى سح ، آثاره الحب ، ونضده الشوق إلى النبي الكريم ، صاحب الخلق العظيم ، الذى امتدحه كل من رآه ، وإن لم يكن شاعرا ، كالسيده خديجة ^(٦) - رضى الله عنها - التى تقول للرسول : " والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقوى الضيف ، وتمين على نواب الحق ^(٧) .

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٤٩ وما بعدها .

(٢) هو : كعب بن مالك بن أبى كعب الأنصارى ، صحابى جليل ، أسلم وحسن إسلامه ، ودافع عن الإسلام بشعره ، وشهد كثيرا من الغزوات ، وتوفى سنة ٥٠ هـ (أسد الغابة ج ٤ ص ٤٨٢) .

(٣) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٩٢ .

(٤) هى السيدة : صفية بنت عبد المطلب بن هاشم عممة الرسول - صلى الله عليه وسلم - " أسلمت وحسن إسلامها وتوفيت سنة ٢٠ هـ - رضى الله عنها - (أسد الغابة ج ٢ ص ١٧٢ وما بعدها) .

(٥) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٩٦ .

(٦) هى السيدة الجليلة : خديجة بنت خويلد ، أم المؤمنين ، وزوج الرسول - صلى الله عليه وسلم - أول من أسلمت من النساء ، وكانت تدعى فى الجاهلية الطاهرة . : توفيت قبل الهجرة بخمس سنوات وقيل بأربع ، وقيل بثلاث (أسد الغابة ج ٢ ص ٧٨) .

(٧) المرجع السابق ج ٢ ص ٨٢ .

بل إنها لتصرح لمحمد - صلى الله عليه وسلم - قبل ارسالة - عندما أرادت أن تتزوجه - بقولها : " إني قد رغبت فيك ، لقربتك مني ، وشرقت في قومك ، وأمانتك عندهم وحسن خلقك ، وصدق حديثك (١) " وكذلك مدحه علي بن أبي طالب (٢) { كرم الله وجهه } بقوله : " عترته خير المتر ، وأسوته خير الأسر ، إمام من اتقى ، ومصيرة من اعتدى ، سراج لمع ضوءه ، وشهاب سطع نوره ، كلامه الفصل وحكمه العدل (٣) - صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان الشعراء - وغيرهم - قد مدحوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما رأينا ، فإنهم قد مدحوا - أيضا - آل بيته الأطهار (٤) ، وصوته الأبرار ، وذريته الأخيار ، وذلك لقربهم من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولحنه على جبهتهم .

(١) المرجع السابق ج ٧ ص ٨٠ .

(٢) هو : علي بن أبي طالبين عبد المطلب ، ابن عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصهره ، وأسلم وهو صغير ، وتربى في بيت النبوة ، وجهاده في الإسلام لا ينكسر ، ورايع الخلفاء الراشدين ، قتل سنة ٤٠ هـ . (المرجع السابق ج ٤ ص ٩١ وما بعدها) .

(٣) الإمام علي بن أبي طالب : نهج البلاغة ص ١١٧ وما بعدها بشرح الإمام محمد عبده تحقيق محمد عاشور وغيره ، طبعة دار الشعب بالقاهرة سنة ١٩٦٨ .

(٤) اختلف في المراد بآل البيت : فقيل : هم زوجات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقيل : هم الذين حُرِّموا الصدقة أي (آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس) وقيل : هم فاطمة بنت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وزوجها - علي ابن أبي طالب - وابناهما : الحسن والحسين - رضي الله عنهم جميعا - ويبدو أن هذا الرأي هو الراجح لقوة دليل أصحابه . انظر في ذلك :

أ - النعماني : فضل آل البيت (بتحقيق محمد عاشور) ص ٢٥٩ ٢٥٥ ٦٨ ٤٨ ٧٨٤
دار الاعتصام بالقاهرة سنة ١٩٧٣ .

ب - ابن كثير : تفسير القرآن العظيم بتحقيق عبد العزيز غمير وآخرين ج ٦ ص ٤٤٥
وما بعدها طبعة دار الشعب بالقاهرة سنة ١٩٧١ .

ج - الإمام مسلم : صحيحه بشرح النووي (تحقيق عبد الله أبو زينة) ج ٥ ص ٢٨٧
ج ٢ ص ١٢٢ طبعة دار الشعب بالقاهرة سنة ١٩٧١ .

د - صحيح البخاري : ج ٥ ص ٢٦ .

وإمامهم (١) .. ما جمن الشعراء - وغيرهم - يحرضون على مدحهم والإشادة بمكارمهم •
 وخاتمة • بمد تلك الأحداث التي انتهت بحقتل إمام على - ثم الله وجهه - وابنته
 الإمام الحسين (٢) - رضي الله عنه - فأثار شعور كثير من المسلمين - إن لم يكن كله -
 وألهمت عاطفتهم • فوقف كثير من الشعراء - ونظم أرفع الناس حسا - بمدحون هذه المأساة
 الطاغية - ويظهرون مآثرهم فير مبالين بما يلقونه من أذى وانضهاد من بني أمية • الذين
 كانوا يمدحون مدح بنو هاشم • غروجا على سياستهم • يستحق صاحبه كل عنوان وعذاب •
 ١- ومن هؤلاء الشعراء : الفرزدق (٣) • الذي قيل : إنه مدح زين العابدين (٤) - رضي
 الله عنه - أمام هشام بن عبد الملك (٥) بعدما أنكر هشام معرفته فقال الفرزدق
 قصيدة طويلة • • ومنها (٦) :

عذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحمر (٧)
 عذا ابن خير عباد الله كلهم عذا التقى التقى الطائر المطير (٨)
 عذا ابن فاطمة إن قت جاملسه بجهه أنبياء الله قد غصصوا (٩)

(١) المراجع السابقة •

- (٢) أبو الحسين بن علي ، جده الصفي - صلى الله عليه وسلم - وأمه فاطمة الزهراء - رضي
 الله عنها - ولد بعد الهجرة النبوية بأربع سنوات ، قتل سنة ٦١ هـ (أسد الغابة ج ٢
 ص ١٨ وما بعدها) •
- (٣) شو : أبو فراس عمام بن غالب التميمي الدارقي • أحد نحول الشعراء • في عهد بني أمية
 مات سنة ١١٠ هـ • (انظر : ابن خلکان : وفيات الأعيان بتحقيق الشيخ محمد جواد الدين
 جواد الحميد ج ٥ ص ١٢٥ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٤٨ •
- (٤) هو : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ولد سنة ٢٨ هـ وتوفي سنة ٤٤ هـ •
 وقيل غير ذلك • انظر المرجع السابق ج ٢ ص ٤٢٦ وما بعدها •
- (٥) شو : هشام بن عبد الملك بن مروان أحد خلفاء بني أمية توفي سنة ١٢٥ هـ • (الأعلام ج ٩
 ص ٨٤) •
- (٦) ديوانه مشرح عبد الله الصاوي ج ٢ ص ٨٤٨ وما بعدها • المطبعة التجارية الكبرى
 بالقاهرة - غير مؤرخ •
- (٧) البطحاء : البهبل الواضح فيه دقان الحمى •
- (٨) ابن خير عباد الله : يقصد الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنه جده • والمرب يطلقون
 على الجد لفظ الأب •
- (٩) ابن فاطمة : يقصد فاطمة بنت الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنها جدته • والمرب
 يطلقون لفظ الأم على الجدة : والسيدة فاطمة زوج الإمام علي • وأم الحسن والحسين
 رضي الله عنهم - توفين بعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بستة أشهر وقيل بثلاث
 (انظر أسد الغابة ج ٢ ص ٢٢٠) •

فهذه القصيدة - إن صحت نسبتها إلى الفرزدق (١) - تدل على غاية الصدق في حب الرسول - صلى الله عليه وسلم - وآل بيته - بل هي كما قيل :
" بداية الصدق في المدائح النبوية " ذلك بأن مدائح حسان وقعت فمسي أيام كان مدح النبي فيها ينفخ الشاعر ولا يضره ، أما مدح النبي وأهله فمسي أيام الفرزدق فكان بابا من الشر يفتح للمسادحين ، لأن تلك المدائح ما كانت تروق خلفا " بنى أمية " (٢)

ولذلك حبس هشام الفرزدق بمدح إنشادها (٣) ، ولما أرسل إليه زين العابدين هدية وهو في السجن ردها قائلا : " مدحته لله تعالى لا للعطاء " ولكنسه اضطر إلى قبولها بمدح أن قال زين العابدين : " إنا أهل بيت إذا وهبنا شيئا لا نستعيده " (٤)

٢- وموقف الفرزدق هذا - يذكركم بموقف الكميث (٥) الذي مدح آل البيت بقصائد كثيرة أطلق عليها (القصائد الهاشمية) (٦) ومنها قصيدته التي يقول فيها (٧) :

(١) ذكرها ابن خلدان في كتابه وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٤٥ صبوحة بقوله : لما حج هشام في أيام أبيه وطاف بالبيت جهداً أن يصل إلى الحجر استلمه فلم يقدر لكسرة الزحام ، فنصب له - بسبر - وجلس عليه ينظر إلى الناس ، ومعه جماعة من أعيان الشام ، فبينما هو كذلك إذ أقبل (زين العابدين) وكان من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرجاء ، فطاف بالبيت ، فلما انتهى إلى الحجر تنحى له الناس حتى استلمه فقال رجل من أهل الشام : من هذا الذي قد هابه الناس هذه الهيئة ؟ فقال هشام : لا أعرفه - مخافة أن يرغب فيه أهل الشام فيملكونه - وكان الفرزدق حاضراً فقال : أنا أعرفه ، فقال الشامى : من هو يا أبا فراس ؟ فقال : قصيدته وهي ثابتة في ديوانه كما ذكرت سابقاً ، إلا أن بعض الكتاب في شك من ذلك - انظر مجلة الأزهر - المجلد الثلاثين - أكتوبر سنة ١٩٥٨ - ج ٤ ص ٢٧٢

(٢) المدائح النبوية ص ٥٦ . (٣) وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٤٦

(٤) المرجع السابق .

(٥) هو : الكميث بن زيد الأسدي الملقب بالمستهل ، ولد سنة ٦٠ هـ وكان خطيباً وشاعراً وتشيع لبرني هاشم ومات سنة ١٢٦ هـ (تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٦٢)

(٦) انظر : الدكتور شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٢٦٨ وما بعدها الطبعة الخامسة طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣ .

(٧) الكميث : الهاشميات ص ١٥ وما بعدها مطبعة الموسوعات بالقاهرة سنة ١٣٢١ .

- طربت وما شوقا إلى البيض أطرب
ولم تلهيني دار ولا رسم منزل
ولكن إلى أهل الفضائل والنهي
إلى نفر البيض الذين بحبهم
بنى هاشم رهط النبي فإني
ولا لصبا منى وذو الشوق يلصب (١)
ولم يقطري منى بنان مخضب (٢)
وخير بني حواء والخير يطلب (٣)
إلى الله فيما نالني أتقرب (٤)
بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب (٥)

فالشاعر يستنكر أن يشغل نفسه عن آل البيت بالفنل في النساء . . . أو بالبقاء على الأطلال ، وإنما يشغل نفسه ، ويوجه بقلبه إلى آل البيت ، أهل الفضائل العظيمة ، والمقول الراجحة ، والخلق الحسن ، وحبهم يتقرب إلى الله ، إذ هم آل بيت النبي - صلى الله عليه وسلم - فلا يهمله إلا ما يرضيهم ، ولا يوجه إلا ما ينضجهم ، وهذا يكفى للدلالة على أن مدح آل البيت عند هذا الشاعر - وغيره - فرج من المدائح النبوية (٦) ، التي لم تنظم من أجل العطاء ، كما يفصل كثير من الشعراء ، يشهد لذلك ما روى أن الكمي دخل على جعفر بن محمد فأعطاه ألف دينار وكسرة ، فقال له الكميته والله ما أحببتكم للدنيا . . . ولو أردت الدنيا لأتيت من هي في يديه ، ولكني أحببتكم للأخرة ، فأما الثياب التي أصابت أجسامكم ، فأنا أقبلها لبركتها وأما المال فلا أقبله . (٧)

- (١) البيض : المراد النساء الحسنات (لا رسم منزل : أثره .
البنان - جمع بنانة - أطراف الأصابع - وبنان مخضب : كناية عن المرأة .
(٢) النهي : جمع نهية (بهضم النون في الجمع والمفرد) وهي الحقل .
(٣) نفر البيض : المراد الأشراف الكرام .
(٤) رهط النبي : أهله وعشيرته .
(٥) المدائح النبوية عن : ١٠٧ .
(٦) هو : أبو عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي - رضي الله عنهم - توفي سنة ١١٧ هـ . وقيل : غير ذلك أنظر . السمودي : مروج الذهب ج ١ ص ١٧٢ - تحقيق الشيخ محمد مجيب الدين عبد الحميد - طبعة دار التحرير للطبع والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦١ م .
(٧) البغدادي : خزائن الأدب ج ١ ص ٧٠ المطبعة الأميرية سنة ١٢٩٩ هـ .

٣- ويأتي دهبيل (١) فيمدح آل البيت مدحا مشوها بالحزن والحسرة *
- علي ما أصابهم - وخير دليل على ذلك قصيدته التي مطلعها: (٢)

مدارس آيات خلت من تنسلاوة ومنزل وحى مقفر الحرصات (٣)

وحى تلك القصيدة يتحدث عن آل بيت النبي - صلى الله عليه وسلم -
فيقول :

هم أهل ميراث النبي إذا اعتزوا	وهم خير قادات وخير حماة
ملايك في أهل النبي فإنهم	أحبساي ما عاشوا وأهل ثقاتسي
تخيرتهم رشدا لأمرى فإنهم	على كل حال خيرة الخسيرات
فيارب زدني من يقيني بصيرة	وزد حبهم ياربني حسناتسي

٤- وتتوالى مدائح آل البيت حتى يأتي أبو فراس الحمداني (٤) *
فيمدحهم ، بأنهم أسباب نجاته يوم القيامة ، وحبهم يرتجى تحقيق
آماله . . . فيقول (٥) :

لست أرجو النجاة من كل ما أخشاه إلا بأحمد وعلي (٦)
وولنت الرسول فاطمة الطهر وسبطيه والإمام علي (٧)

إلى أن يقول :

فيهم أرتجى بلوغ الأمانسي يوم عرضي على إله العليسي

-
- (١) هو : أبو جعفر محمد بن علي شاعر مطبوع توفي سنة ٢٤٦ هـ (وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٤)
(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ١١ ص ١٠٣ مطبعة دار المأمون بالقاهرة سنة ١٩٣٧ هـ
(٣) الحرصات : جمع عرصة : وسط الدار أو كل بقعة بين الدور لابناء فيها .
(٤) هو : أبو فراس الحارث بن سميد الحمداني التفليحي كان شاعرا مجيدا وفارسا مفوارا
قتل سنة ٣٥٧ هـ . (انظر : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٩) .
(٥) أبو فراس : ديوانه بشرح نخلة قفاط ص ٤٥ مكتبة الشرق ببيروت سنة ١٩١٠ هـ .
(٦) أحمد وعلي : أي الرسول - صلى الله عليه وسلم - وابن عمه علي بن أبي طالب - كرم الله
وجبه .
(٧) سبطيه (مثني سبط) : ولد الولد يريد الحسن والحسين - رضي الله عنهم .

٥ - وإذا كانت أبيات أبي فراس شبيهة بالنظم المظروفي بمهملة

تعدد الأسماء التي اشتملت عليها ، فإن مدائح الشريف الرضي (١) قد نظمت عليها
العصبية في بعض الأحيان ، فنقلتها من رقة الوفا إلى الفخر والخيلاء (٢) . . . ومن ذلك
قوله : (٣)

وما المدح إلا في النبي وآلِهِ
وأولى بمدحهم من أعز بفخره
أرى الشعر فيهم باقياً كأنما
وقالوا : عجيب عجيب مثلي بنفسه
لمرك ما أعجبت إلا بمدحهم
أعد لفخري في المقام معسداً
بمرام ، ويحض القول ما يتجنب
ولا يشكر النعماء إلا المهذب
تحلقوا لآل شعار عنقاء مفسررب
وأين على الأيام مثل أبي أبي
وبحسباني بالقصائد معجسب
وأدعو علياً للملاحين أركسب

٦ - لكن مدائح مهبّار (٤) يظهر فيها الولاء الصادق لآل البيت ، وآية ذلك :
أن الشاعر يعتمد على كل ما أصابه من محن واضطهاد بسببهم ، كما
يظهر أنه لن يتخلى عن حبهم . . . فيقول (٥) :

هل يبلغنيك يا أبا الحسن الذي
ومن معشر لما مدحتك عظمتهم
لما رأوا ما غاظ مني شتموا
لا كان إلا ميتاً ميتاً
جوزيت فيك وكان ضد جزاءي (٦)
فتناوشوا عرضي وشانوا شاني
حاشاك - أنسى قلت فيك مداحي
من سره أن كان بمدحك باقياً

ولم يكف مهبّار بذلك الحسب الصادق الذي كان سبباً في تعذيبه ، بل
إنه لوكثر من التوجع والتحسر على فقد الحسين ، ويرى أن قتله
قريب من الشرك فيقول (٧)

(١) هو : أبو الحسن محمد بن الحسين الرضي العلوي ، نقيب أشراف بغداد ومن أكابر
شعراء بني هاشم ، توفي سنة ٤٠٦ هـ (وفيات الأعيان ج ٤ ص ٤٤)
(٢) المدائح النبوية ص ١٤٢ .

(٣) الشريف الرضي : ديوانه ج ١ ص ٨٩ وما بعدها . مؤسسة الأعلى للمطبوعات بيروت
غير مؤرخ .

(٤) هو : أبو الحسن مهبّار بن مرزويه الديلمي ، كان مجوسياً وأسلم - وتشيع لآل البيت
توفي سنة ٤٢٨ هـ (وفيات الأعيان ج ٤ ص ٤٤١) .

(٥) ديوانه ج ٤ ص ٢٠٢ وما بعدها . الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٣١ .

(٦) يريد بقوله (يا أبا الحسن) علي بن أبي طالب . كرم الله وجهه .

(٧) ديوانه ج ٢ ص ٢٦٥ .

أرى الدين من بعد يوم الحسين
وما الشرك بالله من قبله
وما آل حـربـجـفـوا إنـمـا
سـيـلمـن (فاطم) خصمه
ومن ساء (أحمد) عيا سبطه
فداؤك نفسى بين لى بسدا
عليلا له الموت بالموصد
إذا أنت قست بمستمسدا
أعادوا الضلال على من بسدى
بأى نكـال غـدا يـرتـسـدى
فها بقتلك ماذا يسدى؟
ك لو أن مولى بعد فسدى

لقد أشار مهبيار فى تلك الأبيات إلى ما تعرض له آل البيت من قتل وغدر وألقى اللوم على آل حـربـ بنى أمية - الذين سيلقون جزاء ما فعلوه يوم القيامة •

وهكذا ضرب مهبيار على أوتار ثلاثة اتسمت بها غالبية مدائح آل البيت وهى : (١)

أولا : مدح رھط النبي - صلى الله عليه وسلم - والإشادة بمكانتهم •
ثانيا : هجاء بنى أمية وغيرهم ممن آذوا آل البيت هجاء يبرز مساوئهم وينشسر
مثالبهم •

ثالثا : التأوه الشديد والحزن العميق على صرع الهاشميين شهيدا خلف
شهيد •

٦ - وزعم بعض الكتاب (١) أن مدائح آل البيت استمرت على ذلك الحال إلى أن ظهر الشاعر عبد الرحيم الهرعى (٢) - الذى اتجه بالمدائح النبوية اتجاهها جديدا ، إذ تحدث عن مولد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ونشأته وصفاته ومعجزاته •• (٤) •

٧ - ولكن الحقيقة أن الشاعر عبد الرحيم الهرعى قد سبق فى ذلك بالشاعر

- (١) انظر : مجلة ضمير الإسلام السنة (١٢) العدد (٩) ص ٣٤ باختصار سنة ١٩٥٥ •
(٢) مجلة الأزهر العدد (٣) ص ٣٣٧ - السنة (١٨) سنة ١٩٦١ •
(٣) هو : عبد الرحيم بن على الهرعى اليمانى - شاعر متصوف توفى سنة ٨٠٣ هـ •
انظر : الأعلام ج ٤ ص ١١٨ •
(٤) ديوانه : ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٦٩ - دار الطباعة المحمدية بالقاهرة سنة ١٣٩٢ •

الصرصرى (١) وغيره ، ولعل الذى دعى بعض الكتاب إلى هذا التزم شعوبهم
تحقيقهم سنة وفاة البرص (٢) .

ومن مدائح الصرصرى قوله مخاطبا الرسول - صلى الله عليه وسلم (٣) - :

ياسيد البشر المقارن ذكره ذكر المهيمين ، وسو فضل كافى (٤)
أنت الثغرى من المدائح بالذى فى الفتح والأحزاب والأعراف (٥)

ومعد هذه الجولة فى حديقة المدائح النبوية الغناء . . . التى التقينا فيها
بأكثر من عشرين شاعرا ، مدحوا خاتم الأنبياء - صلى الله عليه وسلم - وآل بيته ، أشير
إلى الملاحظات التالية :

أولا : إننى لم أرى الاستقصاء بذكر شعراء المديح النبوية ، وإنما أردت الإشارة
إلى اللمازئين منهم فى هذا المجال الرحب .

ثانيا : إن تلك المدائح ظهرت أول ما ظهرت فى ثوب المديح التقليدى ، ولكنها
ما لبثت أن تأثرت بالدين الجديد فظهرت فيها الصفات الدينية .

ثالثا : إن هذه المدائح كانت محدودة الانتشار قبل الهجرة النبوية ، ولعل ذلك
يرجع إلى سرية الدعوة من جهة ، والاشتغال بنشر مبادئ الإسلام ، وحفظ
القرآن الكريم من جهة ثانية .

رابعا : انتشرت تلك المدائح بعد الهجرة بسبب الرد على شعراء المشركين والدفاع
عن الإسلام والمسلمين ، والإشادة بسأخلاق الرسول - صلى الله عليه وسلم -
وصفاته .

(١) أبو زكريا يحيى بن يوسف الأنصارى جمال الدين الصرصرى . قتل سنة ٦٥٦ هـ . انظر
الأعلام ج ٩ ص ٢٢٥ .

(٢) انظر ديوانه ص ١٦٨ والدكتور : محمد عبد المنعم خفاجى : دراسات فى التصوف
الإسلامى ج ٢ ص ٥٢ مطبعة دار الطباعة المحمدية بالقاهرة (غير مؤرخ) .

(٣) ديوانه مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر - قسم الأدب ببحث رقم ٢٤٨١ / السقا / ٢٨٢٥٤
ص ١١٢ .

(٤) ولعل الشاعر عينا ناظر إلى قول حسان (ونم الإله اسم النبى إلى اسمه) انظر ص ١٢
من هذه الرسالة .

(٥) يشير إلى ما ورد ذكره من صفات النبى - صلى الله عليه وسلم - فى سورة الفتح وخاصة
فى الآيات رقم ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢٦ ، وفى سورة الأحزاب الآيات رقم ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٦ ، وفى
سورة الأعراف الآيات رقم ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٦ .

خامسا : تحول المديح بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى آل البيت ، وظهر بصورة جديدة ، متأثرة بالناحية السياسية أيام الأمويين والعباسيين .

سادسا : ظهر بعض الشعراء الذين اتجهوا بالمديح النبوية اتجاهها جديدا ، فتح آفاقها ، إذ تحدثوا عن مولد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومعجزاته

سابعا : بالرغم من ذلك كله ذهب بعض النقاد ^(١) إلى أن المديح النبوية فن استحدثه المصريون في القرن السابع الهجري ، وأما ما وجد فيه ذكر الرسول (صلى الله عليه وسلم) من القصائد والأشعار في صدر الإسلام وبخاصة في الفترة التي عاشها الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد الهجرة . . . فإنها لا تعد من الوجهة الفنية في عداد قصائد المديح ، ولأن الشعراء الذين أنشدوا تلك القصائد لم يقصدوا بها مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بل قصدوا الدفاع عن الدين الجديد ، وودع الأباطيل التي أثارها المشركون وغيرهم - ضد الإسلام - وكذلك ما وجد من قصائد على لسان المشيعين في العصر الأموي كهاشميات الكميث وغيره ، وفي العصر العباسي كقصائد دجبل وغيره ، فإنها - وإن عدت من الوجهة الفنية ضمن قصائد المديح - لم تكن في مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإنما كانت في مدح علي والأئمة من بنيته وما جاء فيها من ذكر الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يكن مقصودا لذاته ، وإنما جاء ذكره عرضا بقصد تفضيل المدوح من الهاشميين - بانتسابه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - على غيره من الخلفاء أو الأئمة - عباسيين كانوا أو أمويين .

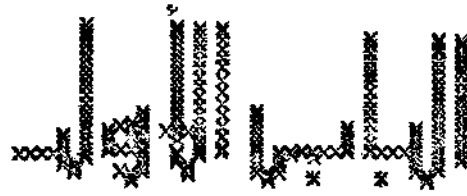
وهذا القول - في الحقيقة - يحتاج إلى مراجعة ، لأن المديح النبوية التي ظهرت قبل القرن السابع الهجري ، كانت على الأقل ، من الأسباب التي أدت إلى إحياء أغلبية شعرائها في القرن السابع الهجري ، وبخاصة من شاعر كالبحصيري ، الذي أشار إلى أثره بعض النقاد بقوله " . . . وفي الحديث لم يحسن مدح السيد الأمين - صلى الله عليه وسلم - غير الإمام البوصيري في برده وهمزته " ^(٢)

والآن . . . أسأل : من هو البوصيري الذي يشهد له بعض النقاد بذلك؟ وهل هذه الشهادة صادقة؟

وهذا ما سأتحقق عنه في الباب التالي إن شاء الله . . .

(١) الدكتور علي صافي هعيعين : الأدب البصوفي في مصر في القرن السابع الهجري ص ٢١٦ وما بعدها طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤ .

(٢) انظر مقدمة ديوان حسان بن ثابت ص (و) .

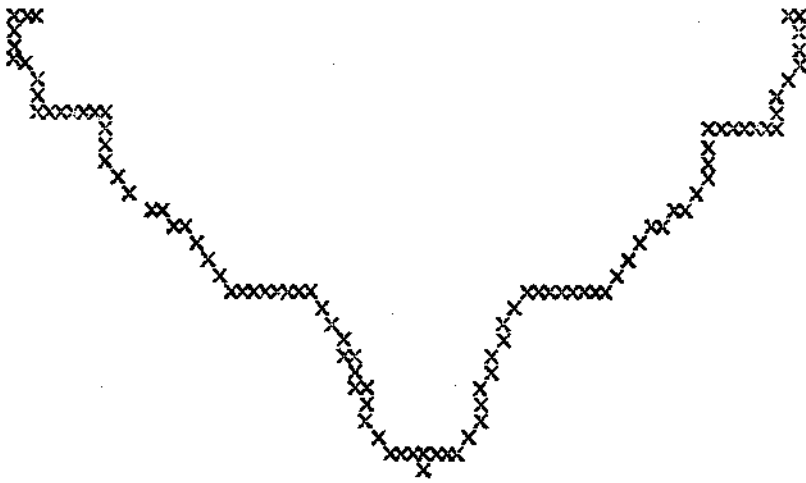


• ((برده البوصيري)) •

الفصل الأول : البوصيري من مهده إلى لحده

الفصل الثاني: دراسة البردة وتحليلها

الفصل الثالث : أثر البردة



« (الفصل الأول) »

« (البوصيري من مبيته إلى لحده) »

لعل من نافلة القول أن أشير إلى أثر البيئة في الإنسان ، وأن أتحدث عن تأثير الإنسان في بيئته ، لأن ذلك أصبح أمرا جليا للعيان ، واضحا ونوح النهار ،

وليس يصح في الأفهام شي ، إذا احتاج النهار إلى دليل

إن صلة الإنسان ببيئته وثيقة ولذا قيل : " الإنسان ابن بيئته لا يستطيع أن يفصل منها ولو بعد عنها ، ولا يمكنه التخلص من آثارها - غالباً - ولو خرج من إطارها " (١) .

ولقد أدرك معظم الكتاب والنقاد أثر البيئة الكبير في الإنسان وخاصة في الشعراء فأكدوا ضرورة الوقوف عليها ، والإلمام بجوانبها ، يقول بعضهم : " إن معرفة البيئة ضرورية في نقد كل شعر ، في كل لغة ، في كل جيل ، ولكنها ألزم في مصر على التخصيص " (٢) .

ومن هنا وجدت أن من الحكمة إلقاء الضوء على بيئة البوصيري ، مبتدئاً بحصره ، محاولاً - قدر الطاقة - الربط بين العصر والشاعر من ناحية تأثيره به ، وتأثيره فيه ، وخاصة أن ذلك العصر كان مليئاً بالأحداث العظيمة ، والحروب الأليمة التي شنها كل من الصليبيين (٣) والتتار (٤) على المسلمين بنياً وعمداً

(١) الدكتور أحمد الشرباصي : الدين والمجتمع ص ٢٥ بتصرف المطبعة العربية بالقاهرة سنة ١٩٧٠ .

(٢) الأستاذ عباس العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٧ مطبعة دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩٧٢ .

(٣) الصليبيون : قوم من الأوربيين المسيحيين الذين شنوا الحرب على المسلمين في الشرق لاستخلاص بيت المقدس من أيديهم ، وسُموا بذلك لأنهم اتخذوا الصليب شارة لهم ، انظر : الدكتور جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ج ٢ ص ١ وما بعدها مطبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٧ . والدكتور : محمد عاشور الحركة الصليبية ج ١ ص ١٨ وما بعدها ، مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة سنة ١٩٦٣ .

(٤) التتار : أم وثنية جاهلية من الجنس المغولي - مساكنهم الأولى الأطراف الشمالية لهلال الصين ، عاشوا في الأرض فساداً . انظر محمد فريد وجدى : دائسرة معارف القرن العشرين (الرابع عشر) المجلد الثاني ص ١٨ مطبعة الواعظ بمصر سنة ١٩١١ .

" يُرِيدُونَ لِيطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١) "

فإذا حدثنا معظم المصادر التاريخية أن البوصيري ولد سنة ٦٠٨ هـ ، وتوفي سنة ٦٩٥ هـ على الراجح - كما سيأتى - أدركنا أنه لبث في دنيا الناس ما يقرب من تسعين عاما ، قضى شطرها الأول - تقريبا - في آخر حكم الدولة الأيوبية التي استمر حكمها ما يقرب من ثمانين عاما (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ) كما قضى شطرها الآخر في أول حكم دولة المماليك التي أرسى حكمها على قرنين ونصف من الزمان (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ) (٢) .

الحالة السياسية في عصر الشاعر :

يبدو أن أعظم حدث تم قبل مولد الشاعر هو انتصار المسلمين على الصليبيين في دوقسة (حطين) سنة ٥٨٢ هـ (٣) ، بقيادة صلاح الدين (٤) الذي توج هذا النصر المبين باسترداد بيت المقدس الحبيب إلى كل مسلم ومسلمة - رده الله إليها .

والجدير بالذكر أن صلاح الدين لم يستطع تحقيق ذلك كله إلا بتوحيد المصنوف بين مصر والشام ، ولكن هذه الجدة لم تلبث أن انفصمت عراها ، وتفككت أواصرها بموت ذلك القائد ، إذ قُسمت الدولة الموحدة إلى دويلات يحكمها أولاد صلاح الدين وإخوته (٥) ، فحكم مصر ابنه العزيز (٦) كما حكم حلب بسبب

(١) سورة الصف / ٨ . (٢) محمد رفعت ومحمد أحمد حسونة : تاريخ

الإسلام ومصر الإسلامية ص ١٥٠ ، طبعة دار القاهرة للطباعة سنة ١٩٥٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٨٤ .

(٤) (حطين) - بكسر أوله وثانيه المشدود ويا ساكنة - قرية بين أرسوف وقيسارية ،

وقيل : موقع بين وبين طبرية نحو فرسخين . انظر يا قوت الحموي : معجم البلدان

ج ٢ ص ٢٩٨ وما بعدها مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٠٦ .

(٥) هو : أبو المنظر يوسف بن أيوب بن شاذي الملقب بالملك الناصر صلاح الدين توفي

سنة ٥٨٩ هـ (وفیات الأعيان ج ٦ ص ١٢٩) .

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٦ وما بعدها ، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٣٢ .

(٧) هو : عماد الدين أبو الفتح العزيز بن يوسف بن أيوب ، توفي سنة ٥٩٥ هـ (وفیات

الأعيان ج ٢ ص ٤١٤) .

ابنه الظاهر (١) ، ودمشق وما حولها ابنه نور الدين (٢) ، كما تسولي حكم بعض بلاد الشام أخوه الملك العادل (٣) . وهكذا تفتت الدولة الفتية ، ولو وقف ههنا الخطب عند ذلك الأمر لهان ، ولكن سرعان ما دب الخلاف بين العزيز الذي أراد أن ينشر نفوذه على مصر والشام ، وبين أخويه الظاهر ونور الدين ، اللذين عارضوا فكرة أخيهم ، ورفضوا هاشدة ، ورغم ذلك حقق العزيز هدفه ، وانتصر على أخويه بمساعدة عمه الملك للعادل .

وأغلب الظن أن العزيز لو علم ما يخبئه له القدر ، ما صنع ما صنع ، إذ فاجأه الموت بعد مدة قصيرة من نشر نفوذه على مصر والشام ، فترك كل شيء لشيره ، وهو كما لنا قول الشاعر :

قد يجمع المال غير آكله
وساكني المال غير من جمعه

وكانت وفاة العزيز فرصة لعمه العادل الذي استطاع أن ينشر نفوذه على مصر والشام ، واتسم عهده بالاستقرار ، ولما توفي خلفه أولاده الذين اتفتت كلمتهم -- أول الأمر -- فملكوا ، ثم دب الشقاق بينهم فملكوا : إذ كان اختلافهم سببا في ضعف قوتهم ، وذهاب شيبتهم ، مما جعل الفرنج يطعمون في البلاد ، إلا أن الملك الكامل محمد استطاع أن يكون جيشا قويا كبح جماح الأعداء وردهم على أديبارهم ، ولما توفي سنة ٦٣٥ هـ خلفه ابنه العادل الثاني الذي لم يستمر حكمه طويلا ، إذ خلعه أخوه الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٧ هـ ثم سجنه حتى مات ، وقيل : هو الذي قتله سنة ٦٤٠ هـ (٤) .

ولقد توالى بهجمات الصليبيين على البلاد في عهد الملك الصالح ، وكان

(١) هو : غياث الدين غازي الملقب بالملك الظاهر ، توفي سنة ٦١٣ هـ (المرجع السابق

السابق ج ٣ ص ١٧٨ .

(٢) هو : نور الدين ، أبو الحسن علي الملقب بالملك الأفضل ، توفي سنة ٦٢٢ هـ

(المرجع السابق ج ٣ ص ٩٥) .

(٣) هو : أبو بكر محمد بن أيوب بن شادي الملقب بالملك العادل

سيف الدين ، توفي سنة ٦١٥ هـ (المرجع السابق ج ٤ ص ١٦٦) .

(٤) ابن إياس : تاريخ مصر المعروف بهدائح الزهور في وقائع

الدور ج ١ ص ٨٤ المطبعة الأميرية سنة ١٣١١ هـ .

أشدها تلك الحملة التي قادها لويس التاسع (١) وفخر الجيش المصري لمقابلتها سنة ٦٤٢ هـ إلا أن الملك الصالح توفي في أثناء النحام الجيشين في دمياط (٢) وقيل: في المنصورة (٣) فأخفت زوجته - شجرة الدر - نبأ وفاته عن الجيش حتى لا يتفسرق شمله ، أو تنصف عزمته ، ثم أرسلت إلى توران شاه - ابن الملك الصالح - الذي كان يقيم في حصن كيفا - من أعمال الموصل - ليتولى حكم البلاد وهذا التصرف من شجرة الدر - إن صح - يوجب لها كل تقدير .

ومهما يكن من شيء فلقد أتى توران شاه على عجل ، واشترك في محاربة لويس التاسع ، وهزمه هو وجنوده هزيمة منكرة ، وتوجت بأسر كثير منهم وعلى رأسهم لويس التاسع نفسه الذي سجن بدار ابن لقمان (٤) في المنصورة ولم يطلق سراحه إلا بغدية كبيرة .

والجدير بالذكر أن الهوسيري أشار إلى تلك المعركة في قصيدة طويلة ، وصور فيها ما كان بجنود الأعداء من عار وشنار ، وما أحباط بلويس من ذلة وهوان ، ومن ذلك قوله (٥) :

وليس لهم إلا إلى الأسر ملجأ وإلا إلى ضرب الرقاب مصير

ثم يستمر في ذلك الوصف المشوب بالتهكم والسخرية من هؤلاء الجنود الذين تركهم لويس مأسورين وفدى نفسه بالمال ورجع إلى فرنسا ، فيقول الهوسيري في ذلك :

فدى نفسه بالمال والآل وانثنى
نظير به من حيث جاء طيور

(١) هو : ريدا فرنسيس ولد سنة ١٦١٤ ، وتولى حكم فرنسا من سنة ١٢٢٦ إلى أن توفي سنة ١٢٧٠ هـ انظر : محمد شفيق غزال مع غيره : الموسوعة الميسرة ص ١٥٨٥ - مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٥ .

(٢) دمياط (بكسر الدال) مدينة قديمة بين تينس ومصر على زاوية يمين بحر الروم المطبق والنيل (معجم البلدان ج ٤ ص ٨٥) وهي الآن إحدى محافظات جمهورية مصر العربية بالوجه البحري .

(٣) المنصورة : بلدة أنشأها الملك الكامل بين دمياط والقاهرة على الشاطئ الشرقي لفرج دمياط عتقاؤلا بانتصاره على الصليبيين (المرجع السابق ج ٨ ص ١٧٨) .

(٤) ابن لقمان : هو القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان ، كاتب السر في ذلك الوقت توفي سنة ٦٩٢ هـ (الأعلام ج ١ ص ٥٣) .

(٥) ديوانه ص ٩٧ بتحقيق : محمد سيد كيلاني ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٩٥٥ م .

والقصيدة مهلهلة النسخ ، وضميفة التعبير ، إلا أنها تشير إلى حدث عظيم وقع في عصر الشاعر فسجله في تلك الأبيات التي تدل دلالة صادقة على تأثير الشاعر بأحداث عصره .

ولقد فسح المصريون بهذا النصر العظيم على الصليبيين ، إلا أن (توران شاه) ، قد حدثته نفسه بذلك الانتصار ، فطفق وخصى ، وطمس ماليك أبيه بشدة ، وقسوة ، كما أساء إلى زوجة أبيه - شجرة الدر - ناسيا أنها السبب في حكمه البلاد ، ما جعلها ترسل إلى أمراء المظليين قائلة لهم : " .. اقتلوا (توران شاه) ، وعلى رضاكم بكل ما يمكن " .. ويبدو أن ذلك الأمر صادف هوى في نفوسهم ، وحرك غفينة في قلوبهم ، فقتلوه سنة ٦٤٨هـ (١) ثم أجمعوا أمرهم على أن تتولى شجرة الدر حكم البلاد ، يساعدها في ذلك عز الدين أيبك ، ولكن الخليفة العباسي - حينما علم ذلك - أرسل إلى أمراء المماليك قائلاً لهم : " .. إن لم يكن عندكم في مصر رجال يصلحون للسلطنة فأعلمونا نرسل لكم من يصلح لها " .. (٢)

وكان لسراى الخليفة أثره ، إذ اتفق الأمراء والقضاة على أن تتزوج شجرة الدر عز الدين أيبك وتتنازل له عن الحكم ، بعد أن تخلع نفسها منه - وتم ذلك فعلاً - وبذلك انتهت دولة الأيوبيين ، وطويت صفحاتها بعد فسترة حافلة بالاضطرابات ، مليئة بالحروب - كما رأينا ذلك سابقاً عند الحديث عن بعض أمرائهم ، وأهم الحوادث التي وقعت في عهدهم .

وهما يكن من شئ ، فقد بدأ عصر المماليك سنة ٦٤٨هـ ، بعدما تولسى حكم البلاد عز الدين أيبك الذي لقب باسم (المعز) . ولكن زوجته - شجرة الدر - قتلت بمساعدة بعض المماليك سنة ٦٥٥هـ ، عندما رآته قد مال إلى غيرها من النساء ، فضضب أمراء المماليك ، وخاصة ماليك المعز - على شجرة الدر ، ودبروا خطة انتهت بقتلها سنة ٦٥٦هـ (٣) .

وانتقلت السلطنة إلى علي بن أيبك - بعد مقتل أبيه المعز - ولقب بالملك

(١) تاريخ مصر ج ١ ص ٨٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٩١ .

المنصور ، ونظرا لصغر سنه قام بمعاونته سيف الدين قطز ، الذي تمكن بمساعدة قصيرة من الاستيلاء على السلطة سنة ٦٥٨ هـ (١) .

ويبدو أنه لم توجد معارضة أمام هذا التصرف من قطز ، لأن الأحداث مكنته من ذلك ، إذ جاءت الأخبار - بعد استيلائه على السلطة مباشرة - تحل نهباً هجوماً التتار على مصر بعدما دخلوا بغداد وغربوها فأسرع الجيش المصري بقيادة قطز لصد هؤلاء الطففة .

والتحم الجيشان في (عين جالوت) سنة ٦٥٨ هـ (٢) ، وصاح قطز " وإسلاماه - اللهم انصر عبدك قطز على التتار " (٣) فكانت صيحة لها أثرها في القائمين وجنوده ، فقاتلوا قتالا عنيفا ، ولم تلبث الحرب أن وضعت أوزارها معلنة انتصار الجيش المصري على هذا العدو الأثيم ، وفرح المصريون ، بل فرح المسلمون بذلك النصر الجين ، وازينت القاهرة وارتفعت أعلامها ، وخرج الناس يستقبلون الجيش المنظر بقيادة قطز ، إلا أنهم فوجئوا بمن يعلن :

" ترحموا على الملك قطز ، وادعوا بالنصر للملك الظاهر بيبرس " (٤) .

فدششوا من هذا الخبر . ولم يصدقوا ما سمعوا إلا عندما ثبت لهم فحسب ، إلا أن الظاهر بيبرس قتل الملك قطز ، عندما رفض أن يوليه إحدى الإمارات - ما أشار مشاعرهم ، وألهب فيظهم على بيبرس ، ولكن ماذا يفعلون ؟ لقد تولى بيبرس حكم البلاد (٥) ، وأراد أن يكسب ثقة الناس وينال رضاهم ، فأعاد الخلافة العباسية مرة ثانية إلى الوجود سنة ٦٥٩ هـ بعدما قضى عليها التتار في بغداد سنة ٦٥٦ هـ (٦) وذلك بتعيين أبي القاسم أحمد خليفة (٧) ، مما أدى إلى رضا الناس عنه طول مدة حكمه التي استمرت بضع عشرة سنة (٦٥٩ - ٦٧٦ هـ) كانت كلها نشاطا ضد الصليبيين الذين عاودوا هجومهم من حين لآخر ، إلا أن النصر كان حليف بيبرس فسي

(١) المرجع السابق .
(٢) (عين جالوت) ويقال لها : (عين الجالوت) أيضا - بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين : انظر معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥٤ .
(٣) تاريخ مصر ج ١ ص ٩٧ بتصرف . (٤) المرجع السابق ج ١ ص ٩٨ ، والمقرئزي الخطط ج ٢ ص ٢٢٠ طبعة دار التحرير بالقاهرة سنة ١٩٦٨ .
(٥) المرجع السابق .
(٦) الخطط ج ٢ ص ٢٧٥ . (٧) هو : المستنصر بالله ، أحمد بن محمد بن الناصر لدين الله العباسي توفي سنة ٦٦٠ هـ (الأعلام ج ١ ص ٢١١) .

كل ممارسه ، وعندما توفي سنة ١٧٦ هـ . خلفه ابنه (بركة خان) ولكنه كان شابا نابضا ، فاضطر الأمراء إلى خلعه - وفي مقدمتهم صهره (قلاوون) وعينوا أخاه الأصغر (سلامش) ملكا وساعده في الحكم (قلاوون) نظرا لصغر سنه ، ولكن (قلاوون) لم يلبث أن عزل (سلامش) وتولى حكم البلاد سنة ١٧٨ هـ (١) وعنى بالاصلاحات الداخلية ، فأقام عدة منشآت - على الرغم من وقوفه في وجه الهجمات الصليبية وغيرها وانتصاره عليها - ومن أهم هذه المنشآت :
البيمارستان (٢) والدرسة التي دُفن فيها سنة ٦٨٩ هـ .

ولقد أشاد البوصيري ببعض هذه المنشآت في قصيدة طويلة (٣) ، ومنها
في وصف مئذنة القبة يقول :

فمئذنة في الجوتشرف في الدجى عليها هدى للعالمين ونور
يمد إليها الحاسد الطرف حسرة فيرجع عنها الطرف وهو حسير (٤)

ويتحدث عن المدرسة ومكانتها ، بقوله :

مدينة علم ، والمدارس حولها قري ، أو نجوم بدرهن منسير

والأبيات سهلة المضمون ، سطحية الفكرة ، إلا أنها تشير إلى تأثر الشاعر بالحياة السياسية والاجتماعية في عصره ، ولعل ما يؤكد ذلك أنه عندما خرج (الأشرف خليل) بن (قلاوون) - لفتح عكا سنة ٦٨٩ هـ (٥) ، رأى البوصيري في منامه من يقول : " أخذ المسلمون عكا .. " فقام من نومه وأنشد :

(١) تاريخ مصر ج ١ ص ١٠١ وما بعدها . (٢) البيمارستان : كلمة فارسية بمعنى (مستشفى) وهي مركبة من (بيمار) بمعنى مريض أو مرضى ، و (ستان) بمعنى مكان . انظر أحمد عطية الله ، دائرة المعارف الحديثة ص ٨٤ . مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥١ . وله أيضا القاموس الإسلامي ج ١ ص ٤١٢ . مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٣ . (٣) ديوانه ص ١٠٢ وما بعدها .

(٤) بيدو تأثر الشاعر في نظمه بألفاظ القرآن الكريم مثل : ((هدى للعالمين)) سورة آل عمران ٩٦ / و ((ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير)) الملك ٤ / .
(٥) عكا (عكا) ، بالالف كما تكتب بالتاء (عكة) ، (يفتح أوله وتشديد ثانيه المفتوح أيضا) - اسم بلد على ساحل بحر الشام - البحر الأبيض المتوسط الآن - من أعمال الأردن ، وهي من أحسن بلاد الساحل ، (معجم البلدان ج ٦ ص ٢٠٥) .

قد أخذ المسلمون عكسًا
 وأشبهوا الكافرين صكسًا (١)
 وساق سلطاننا اليهم
 خيلا تدك الجبال دكسًا

وثان سدا بشابة الهشوى ، إذ لم تلبث الأنباة أن وصلت بانتصار الأشرف على الصليبيين في (عكا) ولحق أمراء المماليك حقدوا على الأشرف ، فهدموا مؤامرة انتهت بقتله سنة ٦٦٣ هـ (٢) ، فتولى الحكم بعده (بيدرا) لأنه هو الذى نسج غيوط المؤامرة فكفوفه باختياره سلطانا ولقب بالملك الأوحده إلا أن عين الله لاتقام ، فكسلن جزاؤه من جنس عمله ، إذ قتل على يد الأ مير (كنهفا) ، وأسند الحدم بحسده إلى محمد بن (قلدوون) الملقب بالناصر (٣) ، ونالت مدة حكمة سنة واحدة ٦٦٣ - ٦٦٤ هـ استأثر (كنهفا) بحسدها بالحكم بسد أن قتل منافسه (سنجر الشجاعى) الوزير (٤) .

ولكن الأمور لم تسر كما أراد (كنهفا) إذ غضب عليه الشعب بسبب المجاعات التى حدثت ، والأوبئة التى انتشرت (٥) ، فانتهز نائبه (لاجين) تلك الظروف وصمم على قتله ، إلا أن (كنهفا) استطاع أن يفر إلى دمشق سنة ٦٦٦ هـ عندما علم بما يحاك ضده ، وبقى بهما إلى أن توفى سنة ٧٠٢ هـ (٦) وحدم الهدد - بحسده قراره - (لاجين) سنة ٦٦٦ هـ ، ولم يستمر فى الحكم طويلا إذ قتله أحد المتآمرين وهو يهودى صلاة النساء سنة ٦٦٨ هـ (٧) ، وعلى السنة التى توفى فيها البوصيرى عيسى أرجع الآرا - كما سأتى (٨) .

الحالة الاقتصادية :

أتمت الحالة السياسية فى عصر الشاعر بالقتل وفلاضطراب - كما رأينا - ولمصل ما ساعد على ذلك تلك الحروب التى شنها الصليبيون والتتار إلى جانب التمسك

- (١) تاريخ مصر ج ١ ص ١٢٤ ، ديوان البوصيرى ص ١٢١ .
 (٢) تاريخ مصر ج ١ ص ١٢٨ . (٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٢٧ .
 (٤) المرجع السابق ج ١ ص ١٢١ .
 (٥) تاريخ مصر ج ١ ص ١٢١ ، القزيرى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ص ٣ .
 (٦) تحقيق محمد مصطفى زيادة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٠ .
 (٧) تاريخ مصر ج ١ ص ١٢٥ .
 (٨) المرجع السابق ج ١ ص ١٢٨ .
 (٩) انظر ص ٥٦ من هذه الرسالة .

والمنازعات بين الأمراء الذين فتك أقواهم بأضعفهم من أجل الاستيلاء على مقاليد الحكم .

ومن البدهى أن مثل هذه الحالة تؤدي - ظاهرا - إلى حالة اقتصادية سيئة ، نعم كانت هناك فترات انتعاش اقتصادي وخاصة في عهد بعض الأيوبيين وبعض المالكي ، إلا أن الطابع العام يشير إلى أنها كانت سيئة بل كانت منخفضة في السوء ، لأن السلاطين انصرفوا عن الاهتمام بمصالح الشعب إلى مصالحهم ، فلم يوفروا له العيش الرغيد ، والحياة الطيبة ، بل إنهم ظلموا الناس بفرض الضرائب الباهظة ، واحتكار أموالهم ، وإهمال شؤونهم ^(١) ، فكان ذلك سببا في انتشار الفقر والجوع ، واضطر الناس إلى أكل الميتة ^(٢) ، وزاد الأمر سوءا انخفاض منسوب ماء النيل عدة سنوات ^(٣) ، مما ساعد على ارتفاع الأسعار ، وكثرة اللصوص الذين عظم خطرهم ، ولم يتورعوا عن نهب القبور ، وبخاصة مشاهد آل البيت ^(٤) .

وما يندى له الجبين أن بعض المالكي تخلوا عن صفاتهم الحربية ، وانغمسوا في الفساد ، واستمروا البطالة ، وعاشوا عالة على غيرهم ، حتى وصفوا بأقبح الصفات ، وأغص السمات ، ولذا قال عنهم بعض المؤرخين : ٠٠ لم يكن لهم صناعة إلا نهب البضاعة ، يتقوون على الضعيف ، ويشبهون حتى في الرغيف ^(٥) " ٠٠٠ . . . و (٠٠ ليس فيهم إلا من هو أذى من قرد ، وألمى من فأرة ، وأفسد من ذئب ^(٦)) .

ولقد كان لذلك كله أثر كبير في حياة الناس ، فانتشرت الرشوة بين الموظفين ، وكثر السلب والنهب بين المستخدمين ، وتحكوا في أقوات غيرهم ^(٧) ، ولعل هذا هو الذي دفع البوصيري إلى الحملة عليهم بمثل قوله ^(٨) :

-
- (١) تاريخ مصر ج ١ ص ٩٦ وما بعدها . (٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٣٣ .
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٠٣ . (٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٠٦ .
(٥) ابن تينري يروي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٧ ص ٣٢٦ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٨ .
(٦) الخطط ج ٢ ص ٣٤٨ .
(٧) المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة (أو تاريخ المجاعات في مصر) ص ٢٨ وما بعدها طبعة دار ابن الوليد بمصر سنة ١٩٥٦ .
(٨) ديوانه ص ٢١٨ .

فلم أر فيهم حرا أميننا
بهم ، فكأنهم سرقوا العيوننا

فقدت طوائف المستخدمين
فكس سرقوا الغلال وما عرفنا

ولم يقف الشاعر عند ذلك الحد ، بل صور أثرهم السيء ، وجشعهم الفظيع
بقوله (١) :

على غير الصراط المستقيم
لصارت منهم نار الجحيم
عليها كل شيطان رجيم

أرى المستخدمين مشوا جميعا
محاشر لو ولوا جنات عدن
فما من بلدة إلا وضهم

وهكذا كانت الحالة الاقتصادية في ركود تام ، وأصبح الشعب أضعف من الأيتام
على مائدة اللثام ، مما أدى إلى عظم الكرب ، وانتشار البؤس ، وكان نصيب الشاعر ،
- من ذلك البؤس - كبيرا ، فالفقر يلزمه ، والصدم لا يكاد ينفك عنه ، مما دفعه
إلى كثرة الشكوى في كثير من شعره ، ومن ذلك قوله (٢) :

يرجى لدفع العظام
ولا لبذل المكارم

ما نسى الزمان جواد
ولا لنيسل مبراد

الحالة الاجتماعية :

كان سوء الحالة الاقتصادية سببا من أهم أسباب سوء الحالة الاجتماعية ،
ومما زادنا سوءا - أيضا - أن المجتمع في ذلك العصر كان يتألف من عناصر
شتى أصنافها (٣) : العرب ، والقبط ، واليهود ، والأتراك ، وكانت هذه العناصر
تنقسم إلى ثلاث طبقات هي :

طبقة الحكام (ومن عاشق في ركابهم ، من أصحاب النفوذ والسلطان) وهو لا
- على قلتهم - استحوذوا على أوقات الشعب وعاشوا على الثراء الفاحش ، والغنى
المفقوت (٤) .

(١) المرجع السابق ص ٢٠٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٨ .

(٣) المخطوط ج ١ ص ٢٦٥ .

(٤) المرجع السابق .

وطبقة الرعية : وهي التي تشمل التجار ، والنزاع ، وأرباب الحرف ، وهو « لا »
- على كثرتهم - عانوا شدة الفقر ، وضجوا من البؤس ، ومع ذلك كانوا يكيدحسون
من أجل لقمة عسيب من تقيم أودهم ، وملهم يوارى سواتهم على الرغم من
الضرائب الباهظة التي كانت تفرض عليهم ظلما وعدوانا (١) .

وأخيرا طبقة أهل الذمة : من اليهود والنصارى - وهو « لا » كانت حالتهم
المالية لا بأس بها ، إذ شغلوا مناصب هامة في الدولة ، كانت تدر عليهم
الأموال ، ولكنهم كانوا ينتهزون الفرص لإثارة الشغب والاضطراب ، مثل الحرائق
التي أشعلوها في القاهرة سنة ٦٦٣ هـ (٢) ، ويبدو أنهم طفوا ونفوا ، مما
جمل السلطان (قلاوون) يصدر مرسوما بعدم استخدام أحد من أهل الذمة
سنة ٦٨٩ هـ (٣) ، كما يبدو أن مشاحنات نشبت بين الطوائف الثلاث - المسلمين
، والنصارى ، واليهود - في ذلك العصر يشير إلى ذلك البوصيري في بعض
قصائده ، مثل قوله (٤) :

يقول المسلمون : لنا حقوق	بها ، ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط : نحن ملوك مصر	وأن سواهم هم غاصبوننا
وحملت اليهود : بحفظ سبت	لهم مال الطوائف أجمعينا

ومما يؤسف له أن بعض رجال القضاء ، وبعض الفقهاء ، ساروا في ركاب الأمراء ،
ووافقهم على بعض تصرفاتهم الجائرة تقربا إليهم (٥) ، ولعل هذا هو الذي دفع الشاعر
إلى أن يحمل عليهم حملة شعواء ، بمثل قوله (٦)

(١) تاريخ مصر ج ١ ص ٩٦ وما بعدها . (٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٣٥ .
(٣) المرجع السابق ج ١ ق ٣ ص ٧٥٣ . (٤) ديوانه ص ٢١٨ ، والضمير في قوله : (بها) .
يعود إلى مصر التي أشار إليها في أول القصيدة .
(٥) السبكي : معيد النعم وجميد النقم ص ١٠١ طبعة دار الكتاب العربي بمصر
سنة ١٣٦٧ هـ .
(٦) ديوانه ص ٢١٨ .

تفقيمت القضاة ، فخان كل
وكم جعل الفقيه العدل ظلما
وما أخشى على أموال مصر
أمانته ، وسموه الأمهنا
وصير باطلا حقا مبينا
سوى من معشر يتأولوننا

والأبيات - وإن كانت ضعيفة النسيج - يصور بعض ما شاع في عصر الشاعر من مفساد ما جعل بعض الكتاب يجيب بهذة القصيدة (١) . وخاصة قول الشاعر :
(وما أخشى ٠٠ البيت) وعلق عليه قائلا : " فانظر إلى البيت الأخير من تقديمه
مصلحة مصر على كل اعتبار ، فلم يذكر مصلحة تهمة ، وإنما ذكر مصلحة مصر في وقت
لم تعرف فيه سوى المصلحة الذاتية ، وهذه من غير شك وثبة من وثباته ، لا يسعنا
إلا أن ننحني أمامها إجلالا وإكبارا . . . (٢) "

ولم يكن البوصيري ينقد المستخدمين القريبين من نفسه ، لسوء معاملتهم إن شاء الله
كما سيأتي (٣) - بدليل أنه نقد مستخدمي (أسوان) (٤) مع بعد المسافة بينه وبينهم
، فما الذي دفعه إلى ذلك ؟ لابد أنه سمع ما وقع على الرعية من أذاهم وظلمهم
، وشارت نفسه ، وجاشت عاطفته ، بقصيدة طويلة ، كشف فيها عن مساوئهم ، وولفت
نظر السلطان إليهم ، ومن ذلك قوله : (٥)

انظر بحقك في أمر الدواوين

فالكل قد غيروا وضع القوائن

اكشف بنفسك (أسوانا) ومن معها

من الصعيد بلا قوم ساكنين

بل إن الشاعر ليعلن في صراحة وجرأة - في قصيدة أخرى - استمداده

لجهاد هؤلاء المستخدمين بنفسه ، إذا نصرته الرعية ، وعاونته ، فيقول (٦) :

وإن تنصروني فمت فيهم مجاهدا

فإنهم لله أعصى وأكفر

(١) المدائح النبوية ص ١٧٣ (٢) مقدمة ديوانه ص ٤١
(٢) انظر ص ٥٢ من هذه الرسالة . (٤) (أسوان) بضم فسكون ، وورد (سوان)
بغير الهمزة وضم السين - مدينة كبيرة فرعونية في آخر صعيد مصر وأول بلاد النوبة على النيل
(معجم البلدان ج ١ ص ٢٤٨) . بينها وبين القاهرة ٨٧٩ كم تقريبا .
(٥) ديوانه ص ٢١٦ و (بلا) أصلها (بلا) . حذف الهمزة للوزن .
(٦) المرجع السابق ص ١١٢ .

إن شعر البوصيري - في الحقيقة - يوضح كثيرا من فساد الإدارة في عصره ، وبين جشع الموظفين ، وسوء معاملتهم للشعب ، وبخاصة أنه قد رأى ذلك منهم عن تجربة فاكوتى بنارشم ، وبالطبع ما جرى له جرى لغيره من أفراد الشعب المشلوب على أمره في ذلك العهد الذي فسدت فيه الأخلاق ، وانهار صرحها ، ولعل مما ساعد على ذلك كثرة الحروب والاضطرابات الاقتصادية والسياسية - كما سبق -

ويبدو أن سلاطين الماليك أرادوا صرف الناس عن التفكير في شؤون الدولة ، فمهدوا لهم طريق الفساد ، مما ساعد على انتشار " عدوى الترف والإسراف بين القادرين من الناس ، وصحب ذلك ما هو محتوم من أمراض اجتماعية ، وتمسوا في أحضان الترف واللذات ، من شرب الخمر ، واعتناق المنكرات ، وفعل الموبقات ، كما شاع الفس ، وانتشر الدجل (١) . " وما يؤكد ذلك قول بعض المؤرخين " ٠٠ " ثم رحلت سنة ٦٦٥ هـ ، فيها أبطل السلطان - بيبرس - ضمان الخيشية ، وأمسر بإحراقها ، وأخرب بيوت المسكرات ، وكسر ما فيها من الخمر وأراقها ، وضيّع العانات (٢) . " واستطرد ذلك المؤرخ في ذكر كثير من الفاسد التي أجل بحضى عن ذكرها ، ومن أراد المزيد فليطالع بكتب التاريخ التي أرخت لذلك العصر (٣) .

الحالة الثقافية :

ولعل ما يشير إليه المصنف أن تكون معظم شؤون الحياة في ذلك العصر لا تشرح صدرا ، ولا تسر خاطرا ، وأن تكون الحالة الثقافية على جانب كبير من النهوض والتقدم ويبدو أن سبب ذلك يرجع إلى عوامل كثيرة ٠٠ منها :

١- طغيان جهافل التتار على آفاق الشرق الإسلامي ، ودخولهم بخداد سنة ٦٥٦ هـ هجرية ، ولم يتركوها إلا بعد ما أصبحت قاعا صفصفا ، لا ترى فيها كتابا إلا مزق أو حرق ولا تبحث عن عالم إلا تجده إما قتل وإما شرب (٤) ، ومن

(١) جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ج ١ ص ٣٢٠ مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٨٨٩ .

(٢) تاريخ مصر ج ١ ص ١٠٤ .

(٣) المرجع السابق ، والهداية والنهاية ج ١٣ ص ١٤٣ وما بعدها .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٠ وما بعدها .

استطاع الهروب قصد القاهرة التي أصبحت مركزا علميا لنشر الثقافة العربية والإسلامية^(١) ومن أشهر هؤلاء العلماء : الصدر البكري^(٢) .

٢- عندما هاجر العلماء من بغداد إلى القاهرة ، وجدوا إخوانهم العلماء ممن الأندلس^(٣) قد سبقوهم فرارا من بطش الفرنجة الذي أتى على الأخضر واليابس في بلادهم ، ومن أشهرهم : ابن مالك النحوي^(٤) .

٣- شمر هؤلاء العلماء بأن عليهم واجبا إنسانيا كبيرا يدعوهم إلى إعادة تلك الثروة العلمية التي قضى على معظمها في بغداد ، وشوهدت معالمها نسي الأندلس ، فمكفوا على التأليف والتصنيف في جميع ألوان العلوم والفنون ، مما كان سببا في ظهور المؤلفات الضخمة التي تعد موسوعات جامفة ، أو دوائر معارف عظيمة القدر ، عالية الشأن ، كما أنهم لم يتركوا كتب العلماء السابقين ، بل أولوها عنايتهم إما بالشرح ، وإما بالتلخيص ، وإما بالتنقيح والتهديب^(٥) ، وخاصة الكتب القيمة منها .

٤- تشجيع كثير من الأمراء لهؤلاء العلماء ، وتوفير سبل الحياة الكريمة لهم ، بل كان منهم من يجالسهم ، مثل الملك العادل ، وابنه الكامل^(٦) .

٥- تنافس الأمراء وتسبقهم إلى إنشاء كثير من المساجد والمدارس ، وذلك ولو بما يتخلد ذكركم ، ونشر الجليل من أعمالهم ، كما أنهم حبسوا عليها الأوقاف ، وأجروا الرواتب والإعانات لمدرسيها وطلابها^(٧) .

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٤٥ طبعة دار الشعب بمصر سنة ١٩٧١ .

(٢) هو : أبو علي الحسن محمد النيسابوري الطوسي سنة ٦٥٦ هـ .

(٣) انظر : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٢٤ وما بعدها طبعة دار

الهلال سنة ١٩٣٦ .

(٤) هو : جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك ، صاحب كتابي التصهيل والكافية

في النحو توفي سنة ٦٧٢ هـ . انظر السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣١٥ مطبعة

إدارة الوطن بمصر سنة ١٢٩٩ هـ .

(٥) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٢٤ .

(٦) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٣٠ .

(٧) خطط المقرئ ج ٣ ص ٣٢٢ وما بعدها .

والحق أن بعض أمراء المالكية كان لهم ميل إلى العلم والعلما ، وكانوا يتمسكون بالدين ويمظنون أهله ، لأنهم شعروا بأنهم حماة الإسلام ، وأن من واجبه المحافظة على تراثه ، كما أن بلادهم أصبحت ثوى الفكر الإسلامى ، والثقافة العربية بمد فطائح التتار فى بغداد - ولعل هذا هو الذى دفعهم إلى جعل اللغة الرسمية للبلاد هى : اللغة العربية .

٦ - انتشار حركة التصوف ، وانضمام كثير من المريدن إلى ميدانها الفسح وبخاصة عندما وقد بعض المتصوفين من خالغ مصر إليها ، وذلك بسبب المعاملة الطيبة لإخوانهم ، وكان من أظهر رجال التصوف فى ذلك العصر :

ابن الفارض^(١) وأبو الحسن الشاذلى^(٢) ، والمزبن عبد السلام^(٣) ، والسيد البدوى^(٤) وإبراهيم الدسوقى^(٥) ، وأبو العباس المرسى^(٦) ، وابن عطاء الله السكندرى^(٧) وغيرهم كثير .

٧ - كثرة الجدل الدينى بين المسلمين والأقباط واليهود فى ذلك العصر ، ويبدو أن الحركة الصليبية حركت دقاتهم ، وأظهرت مكون صدورهم ، فانطلق العلماء والشعراء المسلمون يجادلونهم ، ومن خير ما يصور لنا ذلك الجدل الدينى قصيدة البوصيرى اللامية ، التى تتنازل بأسلوبها الضطقى ، وجدلها المصنوع بالسخرية اللاذعة ، والتبكيت الشديد ، ومنها قوله^(٨) :

جاء المسيح من إله رسولا	فأتى أقل العالمين عقولا
قوما رأوا بشرا فادعوا	من جهلهم لله فيه محلولا
وعصابة ما صدقته فأكسرت	بالإفك والبهتان فيه القميلا

(١) هو : أبو خضر عمر بن على بن المرشد ولد سنة ٥٧٦ هـ وتوفى سنة ٦٣٢ هـ (حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٩٦) .

(٢) هو : أبو الحسن على بن عبد اللطيف عبد الجبار ولد سنة ٥٩٣ هـ وتوفى سنة ٦٥٦ هـ (المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٨) .

(٣) هو : عبد العزيز بن عبد السلام ولد سنة ٥٢٧ هـ وتوفى سنة ٦٦٠ هـ (المرجع السابق ج ١ ص ١٧٦) .

(٤) هو : أبو الفتيان أحمد بن على بن إبراهيم ولد سنة ٥٩٦ هـ وتوفى سنة ٦٧٥ هـ (المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٩) .

(٥) هو : أبو العينين إبراهيم بن أبى المجد ولد سنة ٦٣٣ هـ وتوفى سنة ٦٧٦ هـ (انظر ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج ٥ ص ٣٥٠ مكتبة القدسى سنة ١٢٥١) .

(٦) هو : أبو العباس أحمد بن على المرسى ولد سنة ٦١٦ هـ وتوفى سنة ٦٨٦ هـ (حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٠٠) .

(٧) هو : تاج الدين أحمد بن محمد بن عطاء الله السكندرى ولد سنة ٦٥٩ هـ وتوفى سنة ٧٠٩ (المرجع السابق ج ١ ص ٣٠١) . (٨) ديوانه ص ١٢٧) .

وقد سماها الشاعر " المخرج " أو " الدرر ولد في الرد على النصارى واليهود " وقد قدم لها بقوله : (١) " رأيت كتب النصارى واليهود مشحونة بما ينكرون من بصوت النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وفيها القول بخلاف ما يدعونه من الرهية عيسى وصلبه .. " .

فمرضت في هذه القصيدة إلى ذكر ما سهل نظمه من ذلك .. " . ولقد أهجبت بهذه القصيدة بعض الكتاب فقال عنها : " قد لا نرى في الشعر العربي - كله - قصيدة جدلية عمد فيها الشاعر إلى القرح بالحجة ، والدفع بالدليل ، وكان نفسه فيها طويلا طول نفس الهوصيري .. " (٢) .

وإذا كانت الثقافة قد نهضت في ذلك العصر ، فإن إحياء العلوم كان أكثر من إحياء الآداب (٣) - ولعل منشأ ذلك ومرداه إلى أن حاجة العصر إلى العلم كانت أكثر من حاجته إلى الأدب ، بالإضافة إلى أن روح الأدب لم تجد سبيلها إلى الملوك والأمراء الذين شغلوا بالحروب الخارجية والفتن الداخلية ، كما كان منهم أعاجم ، لم يتوافر لهم الحس اللغوي ، ولا التدقيق الجمالي للشعر ، ومن ثم لم ينصتوا للشعراء ، ولم يصفقوا عليهم ، مما جعلهم يحترفون سدا لحاجتهم ، وحفظا لرمقهم (٤) ، فكان منهم الوراق (٥) ، والجزار (٦) ، والكحال (٧) وغير ذلك ، ومن هنا .. هانت على كثير من الشعراء صناعة الشعر ، فترك أسلوبه ، وتفه معنياه ، وكرر فيه السقط والسخف ، وتجد هذا ظاهرا بوضوح في شعر الهوصيري ، فإذا قرأت قوله وهو يصف حال أولاده (٨)

(١) المرجع السابق .

(٢) دراسات في التصوف الإسلامي ج ٢ ص ١٩٥ .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٤ .

(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ١٧٧ .

(٥) من أطلق عليه هذا اللقب : عمر بن محمد حسن الوراق توفي سنة ٦٩٥ هـ .

(٦) من شيمه بذلك اللقب : أبو الحسن الجزار جمال الدين يحيى بن عبد العظيم توفي

سنة ٦٧٩ هـ .

(٧) من عرف بذلك اللقب : شمس الدين محمد بن دانيال توفي سنة ٧١٠ هـ .

(٨) ديوانه ص ١١٨ .

صاموا مع الناس ولكنهم صاموا
وأقبل العيد وما عندهم قمع ولا خبز ولا فطرة
كانوا لمن أبصرهم عسيرة

إذا قرئت ذلك الوصف ثم تأملت قوله وهو يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم (١)
هو الحبيب الذي ترجى شفاعته لكل هول من الأحوال مفتحس
دعا إلى الله فالمستمسكون به مستمسكون بحبل غير منقوص

يخول إليك أن القولين لشاعرين مختلفين ، ثم يملكك العجب وما خذك
الدهش ، إذا تيسرت أنهما لشاعر واحد ، ولكنه عاش في عصر كله حروب واضطرابات
سياسية ، وأزمات اقتصادية وتفاوت بين الطبقات الاجتماعية ، فانتشرت الفاقة ،
وعم البؤس بين أفراد الشعب ، وضعهم الشاعر الذي اضطرت إليه شكواه إلى
بعض أمراء عصره ، لعله يجد عندهم ما يزيل عسره ، أو يخفف كاهله .

فكان عليه أن يلجأ إلى مثل هذا اللون من الشعر الذي يقرب إلى أفهام
الأمراء الذين لا يظرب أكتفهم للشعر الجزل بسبب ضعف عروقتهم .

أما حينما اتجه إلى مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - فكان يوتر الشعر
الجزل ، والحكمة الصادقة ، والتول الرصين ، لأنه يمدح الصبح الرب وصاحب
جوامع الكلم ، صلى الله عليه وسلم .

وحد : •• نلعل هذا الثقلوت في شعر الشاعر أثر من آثار البيئته ،
ولعله دليل صادق على أن الإنسان ابن بيئته ، ودافع قوى إلى الاستمرار في
الحديث عن بيئة الشاعر والإلمام بمعظم نواحيها .

نسبه :

اختلف المؤرخون وأصحاب التراجم في سلسلة نسب البوصيري بالتقديم والتأخير
والزيادة والنقصان ، إلا أن معظمهم كاد يتفق على أنه : الشاعر الإمام (٧) مداح

(١) المرجع السابق ص ١٩٣ وما بعدها .

(٧) خلع عليه ذلك اللقب كثير من الكتاب ، وخاصة المحدثون منهم ، ويبدو أن شهرته بعدائه
النبوية كانت السبب في ذلك ، انظر : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٣٠ ، دراسات
في التصوف الإسلامي ج ٢ ص ١١٧ وما بعدها ، ابن حجر العسقلاني : شرح الهزبة ص : ٣
الطبعة البهية بمصر سنة ١٣٠٩ ، الزبيدي : تاج العروس ج ٣ ص : ٤٩ الطبعة
الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦ هـ .

الرسول (عليه الصلاة والسلام) . محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله
ابن صنهاج بن هلال الصنهاجي ، المكنى بأبي عبد الله ، والملقب بشرف الدين (١) .

مولده :

ولم يكن مولد الشاعر أسعد حظا من سلسلة نسبه ، إذ اختلف فيهم
المؤرخون كذلك ، فذهب إلى أنه ولد في يوم الثلاثاء قرة شمال
سنة ٦٠٨ هـ (٢) الموافق ٧ من مارس سنة ١٢١٢ م (٣) ، وذلك في قرية : دلا ص
(بفتح الدال) (٤) ، وقيل : (بكرها) (٥) - وهي قرية بصعيد مصر تقع غربي
النيل ، منها : حسان بن غالب (٦) راوي الحديث عن مالك بن أنس (٧) ، والليث
ابن سعد (٨) (رضي الله عنهم) .

ونشأ في (بوسير) - بكسر الصاد بعدها ياء ساكنة - وتسمى

-
- (١) ابن شاعر : فوات الوفيات ج ٢ ص ٤١٢ بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد
مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥١ هـ والدكتور / عبد الحميد يونس بالاشتراك
مع غيره : دائرة المعارف الإسلامية المجلد الرابع ص ٣٢٨ طبعة دار الشعب
بمصر سنة ١٩٧١ .
- (٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٠٤ ، والدكتور إبراهيم عبده بالاشتراك مع غيره : الموسوعة
الذهبية ج ١ ص ٥٣ مطابع البلاغ بمصر سنة ١٩٦٣ .
- (٣) اللوات محمد مختار : التوفيقات الإلهامية ص ٢٠٤ المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣١١ هـ
- (٤) معجم البلدان ج ٤ ص ٦٦ .
- (٥) شرح الهمزية ص ٣ .
- (٦) هو : أبو القاسم حسان بن غالب الدلا ص ، توفي سنة ٢٢٣ هـ (معجم البلدان
ج ٤ ص ٦٦) .
- (٧) هو : الإمام مالك بن أنس بن مالك ، إمام دار الهجرة توفي سنة ١٧٨ هـ على الصحيح
(وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٨٤) .
- (٨) هو : أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن ، إمام أهل مصر
في الفقه والحديث توفي سنة ١٧٥ هـ . (المرجع السابق ص ٣ ص ٢٨)

الآن (بوضير الملق) (١) ، كما تراك عليها الهمزة فيقال لها : (أبووضير) (٢) -
وهي قرية بصعيد مصر ، وتقرب من دلاص . ومنها هبة الله بن علي (٣) وخاتمان
القرنجان - (دلاص) و (بوضير) تتبعان محافظة بني سويف ، إحدى محافظات
جمهورية مصر العربية .

وذهب بعض المؤرخين إلى أن الشاعر ولد في (بهشيم) بوزن - تمليم
- قرية من أعمال البهنسا ، ونشأ في (دلاص) (٤) سنة ٦٠٦ هـ أو سنة ٦٠٨ هـ ،
أو سنة ٦١٠ هـ (٥) ، وقد ذهب بعض الكتاب إلى أنه ولد في سنة ٦٩٤ هـ ، وهذا
الرأي أشد الآراء غرابة (٦) . إلا أن الرأي الأول هو أرجح الآراء ، لأخذ كثير
من المؤرخين به . وسيل أغلبهم إليه ، ولعل ما يقوى ذلك - أيضا - أن أحد

(١) وتسمى أيضا (بوضيرونا) وكانت تسمى قديما (بوضير قوريدس - أو - كوريدس)
وقيل : إنها إحدى قرى أربع في القطر المصري تسمى بهذا الاسم وهي : بوضير
السدر بالقرب من الجيزة ، وبوضير دنون بالقرب من الفيوم ، وبوضير بنا بالقرب من
سنود التابعة لمحافظة الغربية ، انظر : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٠٦ ، وفيات
الأعيان ج ٥ ص ١١٢ - وقيل : إن البوضيرات سبع : الأربع السابقة ، وفي
مديرية البحيرة قرية درست وثبت آثارها على سلسلة الجبال المتصلة بالإسكندرية
وفي محلها الآن قلعة بوضير ، قرب الإسكندرية ، وفي الصعيد الأعلى
بلدة بهذا الاسم في جهة (ققط) ، وفي القليوبية قرية تسمى بوضير شرقى
بركة الحاج ، انظر : محمد أمين : جغرافية مصر ص ٦٢ مطبعة وادي النيل
سنة ١٢٩٦ هـ .

(٢) تاج الصروس ج ٣ ص ٤٩ .
(٣) هو : أبو القاسم هبة الله بن علي أحد رجال الحديث توفي سنة ٥٩٨ هـ انظر : معجم
البلدان ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٤) ابن تفرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ١٥٨ بتحقيق أحمد نجاشي ، مطبعة
دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٦ ، والأعلام ج ٧ ص ١١ .

(٥) القسريزي : المقفى ج ١ ص ٢٥٠ مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم
٥٣٧٢ تاريخ .

(٦) لانفراد قائله به ، مع عدم ذكره المصادر التي استقى منها رأيه
كما أنه لم (يعاصر) الشاعر . انظر : جغرافية مصر
ص : ١١٣ .

أبو الشاعر كان من (دلاص) . وكان الآخر من (بوسير)^(١) ، ومنهما تمت
الشاعر لنفسه نسبة مركبة فقال : (الدلاصيري)^(٢) .

كما قيل له : (الدلاص) ، ولكنه شهر بالهوسيري والأبوسيري والأباصيري^(٣)
ومن الطريف أن بعض الشعراء أشار إلى ذلك بقوله^(٤) :

في صادق الشعر أعيت كل نحر باليمن والأمن تنفيذ القيد ومنهما جاء تركيب (الدلاصيري) وحى القبول على لحد (الأباصيري)	(محمد بن سعيد) حاز منزلة ميلاده (بدلاص) ثم غادرها وقد ترعرع في (بوسير) بلدته هواتف الحق نادتنا مؤرخة
--	---

(١) لم تحدد المصادر التي ترجمت للشاعر بلدة أبيه وبلدة أمه ، إلا المقرئ الذي قيل
: إن أباه من بوسير ، وأنه من دلاص ، وتبعه في ذلك محقق ديوان الشاعر انظر :
المقتضى ج ١ ص ٢٥ ، مقدمة ديوان الهوسيري ص ٤ ، وقد ذهب الزركلي في كتابه
الأعلام ج ٧ ص ١١ إلى عكس ما ذهب إليه المقرئ سابقا .

(٢) المنهل الصافي ج ٣ ص ١٥٨ حيث قال مؤلفه : " إن الهوسيري كان مفرسًا
بمثل هذه المنحوتات حتى لقد سعى كسائه (كساطا) ولما سئل عن سبب ذلك قال
: لأنني أردت به كسائه وأفرشه بساطا " وهذا إن صح - يدل على فقر الشاعر
كما يشير إلى أنه سمع عن النحت في لغة العرب مثل قولهم (حوقل) إذا قال :
لاحول ولا قوة إلا بالله ، ومن المعلوم أن النحت سماعي ، وليست له قاعدة
مطردة إلا في النسب إلى المركب الإضافي ، فيبنى منه على تركيب كلمة واحدة
من اللفظين على وزن (فعمل) - بفتح الفاء وسكون العين وفتح اللام - يأخذ
الفاء والعين من كل لفظ ثم يضيف اللفظ الجديد مثل (عهسي) في عهد شمس .
انظر : السيوطي : المزهج ج ١ ص ٢٨٥ وما بعدها مطبعة السعادة بمصر
سنة ١٣٢٥ هـ .

(٣) وشهرته بدلاً باصيري مخالفة للنسب القياسي ، لأن بلدته تسمى (بوسير) لا (أباصير)
وكذلك شهرته بالأبوسيري مخالفة للنسب القياسي - أيضا - لأن زيادة الهمزة
على (بوسير) بناء على أنها مركبة من : (أبو) و (صير) كما ذكر ذلك الزبيدي
في تاج الصروس ج ٣ ص ٤٩ ، والنسب إلى المركب الإضافي يكون بحذف صدره والنسب
إلى عجزه : انظر : ابن عقيل : شرحه على ألفية ابن مالك ص ٤٤٦ طبعة الشركة
المصرية للطباعة والنشر سنة ١٩٧٦ .

(٤) محمد كامل عبد العظيم : طراز البردة ج ١ ص ٤٣ مطبعة مصر
سنة ١٩٥٧ .

ومهما يكن من شيء فإن الشاعر مصري المولد والنشأ ، مغربي الأصل ، إذ أن قبيلة صنهاجة التي ينسب إليها الشاعر توجد ببلاد المغرب ، واختلاف النسابون في أمرها أبررية أم عربية ؟ ولكن ابن خلدون ^(١) رجح أنها عربية ، ولقد أشار الشاعر إلى مغربيته في إحدى قصائده بقوله ^(٢) :

وإن كان مثلي مغربيا فما في صفة الأجناس من بأس

ولم تذكر كتب التاريخ - المصتدة - من الذي قدم من أصول الشاعر من المغرب إلى صعيد مصر إلا أن بعض الكتاب ^(٣) وهم أن أبويه هما اللذان قدما ، ولم يشير إلى مصدره في ذلك ، كما أنه لم يكن (محاصرا) للشاعر حتى يكون عجة في كلامه ، مما جعل بعض الكتاب ^(٤) يقول عن صاحب هذا الرأي :

" .. ولنا منه على ثقة " .

أسرته :

يبدو أن أسرة الشاعر كانت رقيقة الحال ، متواضعة الشأن ، لم تتميز بشيء عن غالبية الأسر المصرية - في ذلك الوقت - حتى يتجه المؤرخون بسبب ذلك الأمر - إلى الحديث عن تلك الأسرة ، أو يلفت نظرهم إليها ، ولمل ما يقوى ذلك أنهم اختلفوا في سلسلة نسب الشاعر ومولده - كما سبق - هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية أن الشاعر لم يتفنن في شعره بمآثرة من مآثر أبائهم ، ولو كان لهم ما يستحق الإشارة إليه ، أو الفخر به ، لما تردد في ذلك ، وكيف يتردد ، وهو الذي فخر بشعره مرة ، ومرة نفسه وكرامته مرة أخرى ، فسي بعض قصائده ويشهد بذلك قوله ^(٥) :

وما خلقت مدح اللثيم وإن علت
ولا أبتغى الدنيا ولا عرضا بها
به رتباء لا أنى متكسبر
بمدحى ، فاني بالقناة مكر

(١) هو : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي - مؤرخ عربي ، توفي سنة ٨٠٨ هـ .
(٢) ديوانه ص ١٢٦ ، وقوله من (باس) أصلها من (باس) فخفت بتسهيل الهمزة .
(٣) ابن الكوهن : جامع الكرامات الطلية ص ٨١ المطبعة الحلاجية بصر سنة ١٣٤٧ هـ .
(٤) حامد الأشقر : شرف الدين البوصيري (الشاعر المصري) ص ٦ مطبعة الضيرة بصر سنة ١٣٢٥ هـ .
(٥) ديوانه ص ١١

ليعلم أغنى المالين ٠٠ أنه
 وأبسط وجهي حين يقطب وجهه
 أنظم هذا الدر في جيد جاهل
 إلى كلمي منه لدنياه أفقر
 في حسابي موسر وهو ممسر
 وأظلمه ؟ إني إذا لمبذر

نشأته وتعليمه :

وليس من المرتقب أن يتحدث المؤرخون عن نشأة البوصيري وتعليمه هولا
 عن فترة حياته الأولى ، بعد أن رأينا موقفهم من أسرته واختلافهم في سلسلة
 نسبه ومولده ، ولحسن عذرهم في ذلك أن الشاعر ولد كما يولد المشرات بسبل
 العشاق من فئات الشعب المختلفة الذين يولدون فلا يحس بمولدهم أحد ، كما
 أن أباه لم يكن أميراً ولا وزيراً ، أو ذا منصب كبير يجعل المؤرخين يشهدون
 مولد ابنه ، ويكتبون - عن قريب - كيف قضى فترة حياته الأولى وكيف نشأ .

ولئن يمكن القول : إن الشاعر - الذي ولد كما يولد غيره - نشأ كما
 ينشأ مثله في ذلك العصر ، فبعد أن شب جسمه ، واشتد عوده ، ذهب
 إلى كتاب قريشه ، فتملم مبادئ القراءة والكتابة ، ثم حفظ القرآن الكريم ، وأحاط
 ببعض مبادئ الحساب ولما أراد الاستزادة من العلم ذهب إلى القاهرة - مركز
 الإشعاع العلمي في ذلك الوقت ^(١) فتلقى في معاهدها المتعددة ، ومدارسها
 المنتشرة كثيراً من العلوم الدينية والعربية وغيرها ، ومن العجيب أن المصادر
 التاريخية التي بين يدي - على كثرتها - لم تحدد مسجداً معيناً درس فيه
 الشاعر ، إلا أن محقق ديوانه ذكر في مقدمة إحدى قصائده أنه درس في
 مسجد الشيخ عبد الظاهر ^(٢) ، ويبدو أن هذا المسجد كان مغموراً في ذلك الوقت ،
 فلم تشر إليه المراجع التاريخية ، وذكر محقق الديوان قصة تؤكد ذلك ، وهي :
 إن الملك الصالح نجم الدين أيوب أمر بتوزيع ثلاثة آلاف دينار على طلاب العلم ،
 إلا أن مسجد الشيخ عبد الظاهر لم يكن لطلابيه نصيب في ذلك المال ، مما أثار

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٤ (٢) مقدمة الديوان ص ٦ ، وقال محقق الديوان
 " إنه لم يشر على أي إشارة إلى هذا المسجد بين الكتب التاريخية " ، ولقد رجعت
 إلى كثير من الكتب التاريخية فلم أجد أي إشارة إلى هذا المسجد - أيضاً - وإنما
 وجدت إشارة إلى مسجد ابن عبد الظاهر ، وهو مقام بعد عهد الشاعر بمسدة
 انظر : المقرئ : الخطط ج ٣ ص ٣١٤ .
 (٣) ديوانه ص ٢١٢ .

حفيظة الشاعر ، فقال على لسان المسجد قصيدة يملن فيها سخطه
وغضبه ومنها قوله (١) :

لو صمت شعري - ما يقتضى حرمانى	دون غيرى ، والألف للرحمن ؟
أترانى لا أستحق لكونى	جامعا شمل قارئ القرآن ؟
أم لكونى فى إثر كل صلاة	بى يدعى لدولة السلطان ؟
وبأى الأسباب يعطى مكان	صدقات السلطان دون مكان ؟

ومن البدهى أنه لن يثور تلك الثورة الشديدة إلا إذا كان ذا نصيب فى
هذا المال الذى حرم منه ذلك المسجد ، ولن يكون له نصيب فيه إلا إذا كان
من طبقة العلم فيه (٢) .

وتيل : إن الشاعر " دخل الأزهر " وحضر على مشايخ المصر حتى
كملت معالمة (٣) .

ولكن بعض الكتاب أنكروا ذلك قائلا " ٠٠ من الخطأ أن يقال : إنه تعلم الأزهر
، لأن الأزهر فى هذا الوقت كان مفضى عنه ومكروها من الأيوبيين - حكاه ذلك الوقت (٤) -
وهذا رأى وجهه إلا أنه لا يمنع تعلم الشاعر فى الأزهر الذى فقد مظهره
الرسى فى الدولة الأيوبية ، وعطلت فيه صلاة الجمعة نحو مائة عام تقريبا من سنة
٥٦٢ هـ إلى ٦٦٥ هـ (٥) ولكن الدراسة لم تعطل فيه ، بل ظلت حلقات العلم
متصلة ، وإن كانت مصابة بالركود والضعف ، وما يدل على ذلك ما ذكرته بعض
المصادر التاريخية : من أن علماء ممتازين ، درسوا فى الأزهر فى تلك السنة (٦)
مثل عبد اللطيف البغدادي وغيره .

ويلوح لى من اشتغال البوصيرى بالشعر ، وولوقه فيه مملحا لا بأس به ، وأنه
كان ذا شغف بالأدب ، وإقبال على كتبه ، كما يبدو أن حظا من العلوم الدينية

-
- (١) ديوانه ص ٢١٦ .
(٢) شرف الدين البوصيرى (الشاعر المصرى) ص ١٠ .
(٣) جامع الكرامات العلية ص ٨١ .
(٤) شرف الدين البوصيرى ص ٩ . (٥) القريزى : الخطط ج ٣ ص ١٦١ .
(٦) دكتور : أحمد عوف : الأزهر فى القمام ص ٧٠ مطبعة الأزهر سنة ١٩٢٠ .
(٧) هو : عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي ولد سنة ٥٥٥ هـ ، وتوفى
سنة ٦٢٩ هـ . انظر تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٩٠ .

كان متوسطا باستثناء الحديث الذي قالت عنه بعض المصادر : إنه اشتهر
 بالتحقق فيه (١) ، كما أن نصيبه من المعلوم العربية كان متوسطا كذلك ، ويظهر لي
 أنه لم يصب حظا كبيرا من الدراسة المنظمة بدليل عدم ذكر أحد من المؤرخين
 - الثقات - أنه درس أو أفتى على كثرة المدارس في عهده ، إلا أن بعض
 الكتاب يرمون أن الشاعر : " حضر على مشايخ المصر حتى كملت معالمه ، فأجازوه ،
 فأفتى ودروس ، وصارت له هيبة عظيمة (٢) . . . " ، ولما كان صاحب هذا التوسم
 لم (يحاصر) البوصيري حتى يكون تأريخه عن قرب لما يؤرخ له من حوادث
 ، بالإضافة إلى أنه لم يشر إلى مصدره فيما رآه - كل هذا قد جعل بعض
 الكتاب يقول عنه : " إنه ممن يكيلون القول جزافا لأبناء هذه الطائفة - يقصد
 الصوفية - ويضيف إليهم كل مفخرة متحصلا لهم (٣) ، ومهما يكن من شيء فإن إمام
 الشاعر بالسيرة النبوية ، وإحاطة بها كان واسعا ، مما ساعده على الإجابة فسي
 مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويبدو أنه درس بحناية كبيرة كتب أهل الكتاب
 فمكث ذلك من مجادلتهم ، ومجادله قوية ، اتسمت بالفكر السليم ، والمنطق القويم
 ، المدعم بالنصوص المقدسة ، وقد أشرت - فيما سبق - إلى أن الشاعر قد ظهر
 في عصره الجدل الديني وأسهم فيه بنصيب كبير (٤) .

- (١) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الرابع ص ٢٢٨ . ويبدو أن هذا القسوسول
 قد جانبه الصواب ، لتفرد قائله به ، مع عدم إشارته إلى مصدر ذلك ، ولعل
 الذي تحقق في الحديث عالم آخر اشترك مع الشاعر في اللقب (البوصيري)
 وهو : أبو القاسم هبة الله بن علي البوصيري - سبق التعريف به في هامش ص : ٤٥
 من هذه الرسالة - أمام رقم (٣) ولقد قيل عنه : إنه " تفرد في زمانه - أي
 في الحديث - " وذكره بعض المؤرخين في طبقة المحدثين الذين لم يبلغوا
 درجة الحفظ وللمنفردين بعلوم الإسناد ، انظر حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٣ .
- (٢) جامع الكرامات العملية ص ٨١ .
- (٣) شرف الدين البوصيري ص ١١ .
- (٤) انظر ص ٤١ من هذه الرسالة .

ولعل مما يشير الدخشة ، أن المصادر التاريخية - على كثرتها - لم تشير إلى شيخ البوصيري الذين نهل من مورد هضم ، واغترف من بحر علمهم ، وأشارت إلى بعض تلاميذه ^(١) اللهم إلا إشارة خفيفة إلى شيخه في التصوف وهو الشيخ أبو العباس الرسي تلميذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي ^(٢) - رضى الله عن الجميع - ومن تلامذة البوصيري : أبو حيان الأندلسي ^(٣) ، وابن سيد الناس ^(٤) ، والمعز ابن جماعة ^(٥) ، إلا أن تلامذة هؤلاء الأئمة الأعلام على البوصيري يثير تساؤلا فسي النفس : أمتنى ذلك أن البوصيري قد بلغ في العلم مرتبة جعلته أهلا لجلوس رواية نوادره وشعره ، وبخاصة مدائحه النبوية - التي عرف بالإجادة فيها - وما يؤكد ذلك أن لأبي حيان الأندلسي بعض القصائد في المدائح النبوية ^(٦) ، أما العلوم الأخرى - دينية وعربية - فكانوا فيها الأئمة الأعلام الذين لا يشفق لهم فيها غار ، بل يمكن القول : لعل الشاعر أخذ عنهم عطا من تلك العلوم أثناء اتصالهم به ، إذ كان ديدن السابقين من علمائنا أن يأخذوا ويمطسوا ولا يرون غضاغة في جلوسهم في علم إلى من يجلس إليهم في علم آخر ^(٧) .

عمله :

يبدو أن البوصيري بعد أن تلقى قدرا من العلم ، ونال قسطا من المعرفة ، دفعته قلة ماله ، ورقة حاله إلى العمل ، فاتجه أول الأمر إلى كتابة شواهد القبور ^(٨) ، معتقدا . في ذلك على حسن خطه ^(٩) ، إلا أن هذا العمل

- (١) شرح الهمزية ص ٣ وما بعدها ، و طراز البردة ج ١ ص ٢٦ ، ودراسات في التصوف الإسلامي ج ٢ ص ١٨٥ .
- (٢) سبق التصريف بهما في ص ٤١ من هذه الرسالة ، وانظر الموسوعة الميسرة ص ٤٢٦ .
- (٣) هو : أمير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الفرناطي الأندلسي ، توفي سنة ٧٤٥ هـ (انظر حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٩) .
- (٤) هو : أبو الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس البصري الأندلسي ، توفي سنة ٧٣٤ هـ (المرجع السابق) .
- (٥) هو : عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن بدر بن جماعة ، توفي سنة ٧٧٣ هـ (فوات الوفيات ج ٢ ص ١٧٤) .
- (٦) ابن حجر : الدرر الكاوية في أعيان المشائفة الثامنة ج ٤ ص ٣٣٠ وما بعدها . بتحقيق الشيخ : محمد سيد جاد الحق - مطبعة المدني بمصر سنة ١٩٦٧ .
- (٧) شرف الدين البوصيري ص ١١ ، ومقدمة ديوان البوصيري ص ٧ .
- (٨) مقدمة الديوان ص ١١ .
- (٩) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الرابع ص ٣٢٨ .

لم يسد فائقته ، ولم يكف حاجته ، وخاصة بعد أن تزوج ، وأصبح رب أسرة ، فأتجه إلى التكسب بالشعر ، ما دحا الأمراء والوزراء . وكان ينتهز الفرصة وأثناء مدحهم فيشير في ذلك إلى ضيق حالته ، وشدة عسرتة ، مثل قوله :

أيامه طائفة أموره ^(١)	يا أيها المولى الوزير السدى
حاشالك - من قوم أولى عسرة	إليك نشكو حالنا ، إننا
عائلة في غاية الكسرة	في قلعة نحن ، ولكن لنا

ما عمل الأمراء والوزراء يعطفون عليه ، ويرسلون عطاياهم إليه ، إلا أن هذه العطايا - التي لم تدم - ما كانت لتكفي الشاعر وأسرته ، فاضطر إلى البحث عن عمل حكومي ذي راتب يخفيه عن ذل التكسب بالشعر ، ويقوم بحاجته ، ويمد مدة من البحث عمل الشاعر مباشرة^(٢) في بلبيس^(٣) ، وكانت فرحته يوم ذهب إلى عمله ، فرحة من عشر على ضالته بعد طول نشدان ، إلا أن تلك الفرحة لم تدم ، إذ وجد المستخدمين الذين يحملون معه يسرقون الخلال ، وينهبون الأموال ، ويرتكبون أقيح الأعمال التي يأبأها الدين . ولا يرضى عنها رب العالمين ، فثارت عاطفته ، وانطلق لسانه محبوا عن تلك المفاسد في قصائد كثيرة^(٤) .

وكما قيل "لكل فعل رد فعل" - كان لثورة الشاعر أثر كبير في الموظفين فكروا ، واضطهدوه ، وخاصة من كان منهم من النصارى - وانتهزوا فرصة قلبة معرفته الحساب الذي هو أصل تقوم عليه وظيفته -^(٥) فأشاعوا أنه لا يصلح للعمل ، فلم يزد ذلك إلا استهزاء بهم ، والسخرية من معتقداتهم الفاسدة ، فأشار إلى ادعائهم التثليث في قوله :

إذا أوجب الملقى وألقى الموجبا ^(٦)	يغالطني بعض النصارى جهالة
بأعلم مني بالحساب وأكثرا	وما كان من عد الثلاثة واحدا

(١) ديوانه ص ١١٨ . (٢) الموسوعة الميسرة ص ٤٣٦ - المباشر هو الذي يأمر بزرع ما علاه النيل ، ويصرف ما يحتاج إليه الزراع من البذور فإذا حصد المزرع أخذ منهم ما عليهم من ديون مقابل ما أخذوه من التقاوى وغير ذلك = انظر النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب السفر الثامن ص ٢١٧ وما بعدها - مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣١ . (٣) بلبيس (بكسر الباء) بين بينهما لام ساكنة) إحدى مدن مديرية الشرقية (معجم البلدان ج ٢ ص ٦٦٦) (٤) انظر ص ٣٨ من هذه الرسالة . (٥) الحلقى ج ١ ص ٢٥٠ . (٦) ديوانه ص ٤٩ .

ولاشك في أن مثل هذا الشعر قد أغضب هؤلاء الموظفين ، فبیتوا النيــــة على التخلص من الشاعر بإبعاده عن العمل أو فصله من وظيفته ، وفعلا تم لهم ما أرادوا ، بعد أن وشوا به إلى رؤسائه في العمل (١)

ماذا يصنع البوصيرى بعد فصله من العمل ؟ ولو كان الأمر يتعلق بنفسه لهان الخطب ، ولكنه مشغول عن أسرة كثيرة المدد ، مما ضاعف همومه ، فأصبح كما قال :

أبحت من حلى همومهم على همسى ، كأتى حامل الأهرام (٢)

ثم فكر الشاعر في أمره ، وهداه تفكيره إلى العودة من بلبيس إلى القاهرة ، لينشئ كُتاباً يحلم فيه الأطفال (٣) ، ولعله حقق بذلك رغبة كانت في نفسه ، وأفصح عنها بقوله :

ما زلت أرقب أن أكون محلياً فيكون فضلى مكل الأعلام (٤)

لقد كانت حياة الشاعر مشوبة بالهموم ، وزاده شقا أن دُخل الكتاب لم ينف بحاجته وحاجة زوجته الولود ، ولذلك تنى أحد أمرين : إما أن تكون زوجته عقيماً ، وإما أن يجد عملاً ذا أجر ثابت ، وراتب معلوم ، ويؤكد ذلك قوله :

يأليتها كانت عقيماً يا ثــــمــــا أو ليتنى من جملة الخدام (٥)

ولما ساءت حالة الشاعر المالية ، لم يجد بداً من أن يلجأ إلى الوزير : صاحبها الدين (٦) ، يستجده ، وشبعمه على ذلك صديقه : الشيخ شهاب الدين الحلبي (٧) ، الذى طلب منه أن ينظم قصيدة يبين فيها حالته ، ثم يرفعهما هو - إلى مسامح الوزير ، فعلاً ، فنظم الشاعر قصيدة طويلة ٠٠ ومنها قوله :

أيها صاحب المومل أدمــــو ك دعا استفاضة واستجارة (٨)

لا تكلنى إلى سواك فأغيبــــا ر زهائى لا يمنحون (خياراً)

- (١) عبد الحليم القباني : البوصيرى حياته وشعره ص ٢٩ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨
(٢) ديوانه ص ٢٠٧ (٣) مقدمة الديوان ص ١١ وما بعدها .
(٤) ديوانه ص ٢٠٦ (٥) المرجع السابق .
(٦) هو : بهاء الدين بن محمد بن سليم الوزير المصرف بابن حنا توفى سنة ٦٧٧ هـ .
(٧) هو : شهاب الدين أبو القناح محمود بن سليمان الحلبي ، توفى سنة ٧٢٥ هـ .
(٨) ديوانه ص ٨٥

ثم وفسى الصديق بوجهه ، و فرمها - القصيدة - إلى الوزير الذي رقى لحاله
وعمل على تخفيفها ، ويبدو أنه عرض عليه وظيفة الحسبة (١) ، إلا أن الشاعر
رفضها ، إما تحرزا من وزرها • وإما خوفا من عدم القيام بحقوقها ، ومخاصمة
أنه قد كبرت سنه ، يدل على ذلك قوله في إحدى قصائده يعرض فيها بأحد
المحتسبين :

لا تظلموني وتظلموا الحسبة فليس بيني وبينها نسبة (٧)
غيري في البيع والشراء درب وليس في الحالتين لى درسة
إني امرؤ حرفتي الحساب فسلا يدخل ريب علي في حسبة

ويبدو أنه عرضت على البوصيري وظيفة ماهر بالمحلة الكبرى (٧) ، فقبل
ذلك العمل ، إلا أنه لم يتخل عن نقد الموظفين لسوء أخلاقهم • ومخاصمة
النصارى منهم • فقطحوا عنه راتبه عدة أشهر ، ذات خلالها ألم الجوع ، وشدة
المؤس ، ولكنه كان ينتهز الفرصة ليهجوهم ، ويكشف عما يدور بخلد هم ونحو
غيرهم من المسلمين • ومن ذلك قوله :

إن النصارى بالمحلة ودهم لو كان جامعها يكون كيسا (٤)

ولما ضاقوا به ذرعا ، عطلوا على نقله إلى بلدة أخرى ، ولكنه شعر بما يدبر
له في الخفاء ، فأرسل إلى بعض أصحابه يستصطفهم قائلا :

إن كان يرضيكم - وحاشا فضلكم - غسرى ، فحسى زلقة الحمام (٥)

إلا أن شوكة الموظفين كانت قوية ، فنقل إلى (سخا) (٦) ، وكان الحاصل
في تلك القرية أشد من العمل في المحلة الكبرى إرهاقا ، مما دعا الشاعر إلى
نظم قصيدة يصور فيها مأساته ، ويشير فيها إلى سوء معاملة زوجته له ، بالإضافة

(١) الحسبة : وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويقوم من يسند إليه
ذلك العمل بالبحث عن المنكرات وتحذير فاعليها وتأديبهم على قدرتها كما يحمل الناس على
المصالح العامة ••• انظر : مقدمة ابن خلدون ص ٢٠١ • (٢) ديوانه ص ٥٨ ، وواضح ما في
عبارة الشاعر من الناظ أشبه بالعامية • (٣) المحلة الكبرى : مدينة مشهورة بالديار
الشرقية ، وتسمى محلة شرفيون ، وتتبع الآن محافظة الغربية • (مجمع البلدان ج ٧ ص ٣٩٧
بتصرف) (٤) ديوانه ص ٨٣ • (٥) المرجع السابق : ص ٩٧ ويشير الشاعر بقوله :
(زلقة الحمام) إلى أن رجله قد أصيبت وهو في مدينة المحلة الكبرى •
(٦) سخا : قرية تقع ضمن محافظة كفر الشيخ الآن • انظر (مجمع البلدان ج ٥ ص ٤٤ بتصرف)

إلى بُحده عن أولاده ، ومن ذلك قوله :

من لشيخ ذى علة وعيال ثقلت ظهره بخير ظهير^(١)
 وعتت أمهم عليّ ولجّست فى عنو - من كبوتى - ونفسي
 ونهتني عن المير إليهم شدة البأس من (سحا) في حسي

ومع هذه الشكوى الصارخة ، لم يجد الشاعر أدنا صاعية ، فسلم أمره إلى الله . وحاد إلى القاهرة - تاركا عمله فى (سحا) - لكن يحميد تعليم الأطفال فى كتابه مرة ثانية^(٢) ، ويبدو أن انصراف الشاعر عن عمله ورجوعه إلى القاهرة كان مقدمة لخير كبرسيّاته ، إذ انصرف عن مدح الأمراء والوزراء ، واتجه إلى مدح خاتم الأنبياء - صلى الله عليه وسلم - ولكن كيف تمّ له ذلك؟

لقد تهيأت له أسباب الاتصال بالشيخ أبى العباس المرسي - تلميذ الشيخ أبى الحسن الشاذلى - وانتظم فى سلك الصوفية ، بل أصبح يدعو إلى التصوف ويؤكد ذلك قصيدته التى يمدح فيها أبا الحسن الشاذلى ومنها قوله :

إن الإمام الشاذلى طريقه فى الفضل واضحة لصين المبتدى^(٣)
 فانقل ولو قدما على آثاره فإذا فعلت ، فذاك أخذ باليد

وفيها - أيضا - يقول عن أبى العباس المرسي :

فأصحب أبا العباس أحمد أخذاً يد عارف بهوى النفوس منجد

ويبدو أن الشاعر حقق بانتسابه إلى الصوفية ، أمنية كان يتناهاها ، وأما لا كان يرجوه ، وهو ما يفهم من قوله :

ولو أنى وحدى لكتت مرسداً فى رباط أوعابدا فى مفارقة^(٤)

وربما يسأل القارىء : وكيف عاش الشاعر بعد تصوفه ، مع أن دخل الكتاب ضئيل لا يكفى حاجته ، وحاجة أسرته ؟

(١) ديوانه ص ١٠٧ ، وواضح تأثر الشاعر فى نظمه بقوله تعالى (بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ)

سورة الملك / ٢١ .

(٢) الميرسي . الميسرة ص ٤٣٦ .

(٣) ديوانه ص ٧٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٨٥ و٨٦ .

والجواب عن ذلك : يبدو أن الشاعر عندما تصوف ، لزم شيخه أبا المباس ، وأصبح - بذلك - من القر بين إليه ، فجذبت إليه القلوب ، وخاصة عندما ذاعت مدائحه النبوية ، وطار خبرها ، فكان كل ذلك سببا في توالي هدايا أبناء الطريقة الشاذلية إليه ^(١) ، بالإضافة إلى دخل الكتاب ، ولعل الشاعر قد خفت مسئوليته بكون أولاده - الذين لم تذكر المصادر التاريخية عنهم شيئا - وامتناعهم بطلب الرزق ، فكفوا بذلك والدهم مطالب الحياة ومتابعيها التي لازمتهم مدة طويلة ^(٢) .

وفاتة البوصيري :

وكما اختلف المؤرخون في عام مولد الشاعر ^(٣) ، اختلفوا كذلك في سنة وفاته ، وهذا أمر غريب حقا ، لأن الاختلاف في سنة المولد له عبره ، وخاصة إذا كان المولود من أسرة مشهورة ، لا منصب لها ولا سلطة ، وهذه ظاهرة يلحظها المشتغلون بالدراسات التاريخية ، وهذا ما أشار إليه بعض الكتاب بقوله : " . . . إن معظم الأبطال والعظماء في التاريخ تتصف الأدوار الأولى من سيرهم بالشموخ ، وتضاربا لآراء ، وعدم التحديد ، وظالما ما تظل السنوية التي يولد فيها البطل أو العظيم موضع حدس وتخمين ، في حين أن المصوّل عليه - دائما - هو عام وفاة ذلك البطل أو الكبير ، وذلك لأن الفرد لا يولد بطلا ولا عظيما ، وإنما يولد طفلا صغيرا ضعيفا ، شأنه شأن مئات الأطفال الذين يولدون . . . " ^(٤) .

أما الاختلاف في عام الوفاة فلا مبرر له إلا إذا كان الشخص خامل الذكر ، يعيش بضآل عن الناس - ظالما - ويح أن البوصيري لم يكن كذلك - وخاصة في آخر حياته - نجد المؤرخين وأصحاب التراجم قد اختلفوا في عام وفاته ، فمنهم من قال : إنه توفي سنة ٦٩٤ هـ ^(٥) ، ومنهم من ذهب إلى أنه توفي سنة ٦٩٥ هـ ^(٦) .

- (١) البوصيري : حياته وشعره ص ٣٩ . (٢) دراسات في التصوف الإسلامي ج ١ ص ١٨٦ .
(٣) انظر ص ٤٤ من هذه الرسالة . (٤) الدكتور : سميد عاشور : السيد البدوي ص ٢٨ وما بعدها . مطبعة دار مصر للطباعة سنة ١٩٦٦ .
(٥) الموسوعة الذهبية ج ١ ص ٥٣ ، شرح البهزية ص ٤ .
(٦) تاج العروس ج ٣ ص ٤٩ ، المقفى ج ١ ص ٢٥٠ ، محسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٨ ، تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٣٠ .

ويبدو أن هذا التاريخ هو الراجح ، لاتفاق كثير من المؤرخين عليه ^(١) ، وبعضهم تردد فقال : إنه توفي سنة ٦٩٦ هـ ، أو سنة ٦٩٧ هـ ، أو سنة ٦٩٨ هـ ^(٢) ، وإذا كان هذا محتملا ، فقد أغرب من قال : إنه توفي سنة ٧٨١ هـ ^(٣) .

والغريب - أيضا - أن يختلف المؤرخون في المكان الذي توفي فيه الشاعر ! إذ قال بعضهم : توفي البوصيري في البيمارستان المنصوري بالقاهرة - ودفن فيها ^(٤) ولمل ما يؤكد ذلك أن بعض الرحالة ذكر أنه قد زار القاهرة سنة ١٠٧٣ هـ ، وزار قبر البوصيري ^(٥) بمقابر الإمام الشافعي ^(٦) - رضي الله عنه - بالقاهرة .

ويلاحظ أن المصادر التاريخية القديمة التي أشارت إلى البوصيري لم تذكر مكان وفاته ، ما عدا صاحب كتاب المقتفى ، الذي أشار إلى أنه توفي بالمارستان المنصوري بالقاهرة - كما سبق ^(٧) ، وأخذ عنه كل من مؤلفي دائرة المعارف الإسلامية ^(٨) ، ومؤلفي الموسوعة الميسرة ^(٩) ، ولكن كثيرا من الكتاب المحدثين ^(١٠) ذكروا أن البوصيري دفن في الإسكندرية ^(١١) ، في مسجد يحمل اسمه ^(١٢) ، وهذا هو المشهور بيننا الآن .

ويبدو أن الذي قال : إن البوصيري دفن بالقاهرة هو الأقرب إلى السببي

-
- (١) انظر المراجع المذكورة أمام رقم (٦) في هامش الصفحة السابقة من هذه الرسالة .
(٢) المنهل الصافي ج ٣ ص ١٥٨ ، الأعلام ج ٧ ص ١١ .
(٣) جغرافية مصر ص ١١٣ ، وانظر تعليلا لذلك في هامش ص ٤٥ من هذه الرسالة أمام رقم ٦ / .
(٤) المقتفى ج ١ ص ٢٥٠ ، دائرة المعارف الإسلامية المجلد الرابع ص ٣٢٨ ، الموسوعة الميسرة ص ٤٣٦ .
(٥) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الرابع ص ٣٢٨ ، مقدمة الديوان ص ١٦ .
(٦) هو : الإمام محمد بن إدريس الشافعي صاحب المذهب المشهور توفي سنة ٢٠٤ هـ .
(٧) انظر : ص ٢٥٠ (المقتفى ح ١) . (٨) المجلد الرابع ص ٣٢٨ .
(٩) انظر ص ٤٣٦ من تلك الموسوعة .
(١٠) انظر المدائح النبوية هامش ص ١٧١ وفتح عثمان : الإمام البوصيري ص ٢٣ مطابع الأعرام التجارية بمصر سنة ١٩٧٠ ، وأحمد الإسكندري مع غيره : الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص ٣١٢ المطبعة السلفية بمصر سنة ١٩٢٤ .
(١١) الإسكندرية : إحدى مدن جمهورية مصر العربية ، تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط .
(١٢) انظر : علي مبارك : الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٧٠ المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣٠٥ .

الصواب^(١) ، إذ ليس وجود ضريح في الإسكندرية ، يحمل اسمه دليلا قاطعا على أنه دفن فيه ، فهناك بعض الأضرحة المقامة وتحمل أسماء بعض الأعلام ، ومع ذلك لم يدفنوا فيها ، ومن ذلك ضريح ابن عطاء الله السكندري^(٢) المقام بمدينة الإسكندرية مع أنه قد دفن بحفح جبل المقطم بالقاهرة ، وهذا ما ذكرته كثير من المصادر التي تحدثت عنه^(٣) والجدير بالذكر أن ابن عطاء الله كان زميلا البوصيري ، إذ تتلمذ كل منهما في وقت واحد على أبي العباس المرسى^(٤) .

ومهما يكن من شيء فإنني أخشى أن يقام ضريح آخر للبوصيري بقريته (بوسير) ، إذ أعلنت محافظة بني سويف " أنها أعدت مشروعا لإقامة مسجد جامع ومعهد ديني يضم المراحل الثلاث .. باسم الإمام البوصيري بقريته (بوسير) تخليدا لذكرى هذا العالم العارف بالله عظمى أن تكون هذه المؤسسة الدينية نواة لتروع جامعة الأزهر بمحافظة بني سويف^(٥) .. "

صفاته وأخلاقه :

ذهب واصفوه إلى أنه " .. كان ساخرا من حياته الماثلية ، مفرقا في وصف بؤسها ، سريع الهجاء ، مبالغا في هجائه ، مكروها ..^(٦) " ولمسل ذلك الوصف يرجع سببه إلى ما أشرت إليه^(٧) من بؤس الشاعر الشديد ، وفقره المدقع الذي دفعه إلى مر الشكوى ، شارحا لذوى المروءة ما يقاسيه من آلام ، وما يحوط به وأسرته من جوع وحرمان .

(١) السبغفي ترجيح ذلك الرأي أن صاحبه - وهو القريزي - أقرب من غيره - زينا - إلى عصر البوصير ، إذ توفي سنة ٨٤٥ هـ . والكتاب المحدثون لم يذكروا مصادرهم فيما ذهبوا إليه ، ولعلهم اعتمدوا في ذلك على وجود الضريح . وهذا ليس بحجج قاطعة على وجود صاحبه فيه . (٢) سبق التصريف به في ص ٤١ من هذه الرسالة . (٣) الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٧٠ والموسوعة الميسرة ص ٢٣ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٣٠١ . (٤) الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٨ . (٥) انظر صحيفة الأهرام المصرية ص ٦ العدد رقم (٣٢٨٣١) السنة (١٠٢) الصادرة في ٢٠ / ١٠ / ١٩٦٦ .

(٦) الموسوعة الميسرة ص ٤٣٦ .

(٧) انظر ص ٥٢ من هذه الرسالة .

ولقد طالت محنته ، فكثرت شكايته التي أشرت في نفسه الشاعرة ، وحسسه المرهف ، تأسيراً بليفاً ، ويبدو أنه تلمس لبؤسه ضغداً ، ولشقاؤه مسجداً ، فلم يجد إلا القدرة الفائقة على الفكاهة الحلوة ، والنادرة المستحضرة ذات الطابع المصري ، التي انتشرت في هذا العصر ، وهي " ندلنا على ما كان يمانيه الأدباء " . من فاقة وإجمال ، وقلة إكراث ، لأن مواردهم ضيقة . . . (١) :

وعلى هذا . . . فلم يكن البوصيري بدعاً في وصف بوئمه وصفاً ساخراً مزوجاً بالسخرية والتهكم ، ولعله " رأى أن ذلك أجدى - في استرضاء القلوب ، واستدراار ما في الجيوب ، وإثارة العواطف - من طريق الجد ، لا سيما عند المماليك الذين ثقل عليهم الشمر الجزل ، وأساليب المربية العالية (٢) . . . " على أن هذا الشمر الدعابي - على إسفافه - سيار بين الناس ، ويتفهمه الصام والخاص ، في هذا الوقت - ويظنون له فتطير شهرة صاحبه محلقة في كسل مكان ، ومن أقوى ما يمثل ذلك ، قصيدته التي أنشدها على لسان (أثانه) التي أخذها منه ناظر الشرقية في ذلك الوقت . . . ومنها قوله :

ما كان ظني يبعثني أحسد	قط - ولكن صاحبي جاهل (٣)
أقصى مرادى ، ولو كنت في بلدى	أرضي بها في جوانب الماحل
ويحد هذا ، فما يحل لكم أخذى	لأنسى من سيدي (حاملاً)

فهذه الأبيات - على ما فيها من سخف - قد أشرت . . . فعندما وصلت إلى مسامع ناظر الشرقية ، رد الأتان إلى الشاعر .

ومهما يكن من شيء ، فإن البوصيري قد شارك في هذا اللون من الشمر شعراء عصره ، ومنهم : البهاء زهير (٤) ، الذي يقول - أيضاً - على سبيل

(١) الدكتور : أحمد الحوفي : الفكاهة في الأدب ج ١ ص ١١٠ ، مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥٦ .

(٢) البوصيري الشاعر المصري ص ٢٥ .

(٣) ديوانه ص ١٨٩ ، ويلاحظ أن الشاعر وضع لفظ (قط) في غير مكانه ، لأنسيبه ظرف لاستخراق الماضي ، لا المستقبل ، انظر : البوصيري الشاعر المصري ص ٥٨ ، محمد عبد العزيز النجار : مشار السالك إلى أوضاع المسالك ج ١ ص ٦٢ مطبعة الفجالة الجديدة بمصر غير مؤرخ .

(٤) هو : أبو الفضل زهير بن محمد علي المهلبى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

لك يا صديقي بنـلـسـة ليست تساوى خردلسـة
 تـمـشـى فتـحـسبها الميـو ن على الطيرىنى مشكـلـة
 أشبهتها ، هل أشبهتـك كـان بينكما صلـة

هذا من ناحية كثرة شكواه ، أما من ناحية هجائه ، فكان أكثره
 فى المستخدمين - كما مر بنا - وأقله فى غيرهم ، ولعل ضماً قوته فيه ، وكثرته
 منه ، ما كان عليه من حدة الطبع ، وجرأة فى قول الحق ، وعدم تهيبه للمواقب
 ، ولا غرور فهو عربى ، مغربى ، مصرى ، صميدى ، بالإضافة إلى ضيق صدره بسبب
 فقره وكثرة أولاده ، وكهر سنه ، وتحدد علله (١) ، كل هذا جعله يثور ، ويحتدم
 غيظه لكل منكر يراه ، وغير مثال لذلك موقفه من سلوك الموظفين ، الذى
 كان سبباً فى فصله من عمله الأول ، ونقله من عمله الثانى ، كما جعل الموظفين
 يكرهونه ، وهذا ما يفسر لنا قول شهاب الدين ابن التناج محمود : " إن البوصيرى
 كان على غزارة فضله ميقوتا ، لإطلاق لسانه فى الناس بكل قبيح ، وذكرهم
 بالسوء فى مجالس الأمراء والوزراء (٢) . . . "

وإذا كان الهجاء مكرها - غالباً - فإن مثل هذا النوع من الهجاء - هجاء
 الموظفين - قد مدحه بعض الكتاب ، لأنه بمثابة الشاهد على عيوب الإدارة فى
 ذلك العهد ، والموضع حال الأسرة المصرية المتوسطة الدخل ، التى تمثلت
 فى أسرة الشاعر (٣) ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أن هذا النوع من الشعر قد
 سلك الشاعر فى زمرة شعراء الشعب - فى هذا العهد - الذين عناوا بالآلام
 وآماله ، وهجروا عن كل ذلك فى سخرية حيناً ، وفى رمز غريب حيناً آخر ، وتلك
 هى وظيفة الشعر الصادق الذى يعكس التيارات التى يمج بها المصر ، والصر
 التى تزخر بها الحياة . . . كما رأى بعض الكتاب أن هذا الشعر يرها ن على
 شجاعة البوصيرى ، فى مثل هذا الزمن الذى ندرت فيه شجاعة الشعراء
 فلم يتناولوا الموظفين أو المسيطرين على شؤون الرعية بنقد أو شكوى (٤) .

(١) ديوانه ص ١٠٥ المطبعة المحمودية بمصر سنة ١٣١٤ هـ .
 (٢) شرف الدين البوصيرى الشاعر المصرى ص ٣ .
 (٣) المققى ج ١ ص ٢٥٠ . (٤) المدائح النبوية ص ١٧٢ .
 (٥) محمود رزق سليم : الأدب العربى من عهد الفاطميين إلى اليوم ص ١٠٦ مطبعة
 صالح الدين بالإسكندرية سنة ١٩٣٨ .

وأما هجاءه غير الموظفين فهو - على ندرته - يمتاز بدعابته الخفيفة ،
وظرفه المصرى ، ومن ذلك ما أنشده ردا على أحد الأدباء الذى سخر منه
لقصره ونحافته (١) ، فقال :

ورب أديب ذى لسان كسبرد بدا من فم كالكبير أو هو كبير (٢)
إذا ما رأنى عافى واستقلبنى كأنى فى قمر الزجاجة سرور (٣)

ولاشكفى أن هذا الهجاء " يختلف فى طابعه وخصائصه ومادته عن الهجاء
التقليدى .. (٤) " الذى يمتاز بالفاظه المقوَّعة ، وأفكاره القبيحة .

ومهما يكن من شيء " فإن " الهجاء " من الموضوعات التى كثر فيها القسول
فى هذا العصر ، ولعل اضطراب الحالة الاجتماعية ، وسوء أمور الناس وفقدهم
مضا دفع إلى ذلك (٥) .. "

وهذا يجعلنى أقول : إن هجاء الشاعر لم يكن متصلا عنده ، حتى يكون
سبة فى خلقه ، أو شيئا فى صفاته ، يشهد لذلك كرمه الذى أشار إليه المؤرخون (٦)
الذين تحدثوا عنه ، ويؤكد ذلك أيضا اعتزازه بنفسه (٧)

وما تجدر الإشارة إليه أن الشاعر عندما تصوف " .. ليس ثوب التقوى ،
فأضحى حسن السيرة ، صادق السريرة (٨) ، حتى قيل عنه ؟ " .. كانت تشم
منه الرائحة الطيبة فى أثناء سيره فى الطريق ، كما كان يرتدى الملابس الحسنة ،
منور الشبيبة ، بسام الثغر ، طلق الوجه ، جميل اللقاء ، متواضعا ، زاهدا ،
ذا عفة ووقار ، تتدلق الناس نحوه مسلمين عليه ، مقبلين يديه ، طالبين منه الدعاء ،

-
- (١) المقتضى ج ١ ص ٢٥٠ (٢) ديوانه ص ١٠٠
(٣) لفظ (سور) أصله (سرور) فسهلت الهمزة للتخفيف ، ومعناه : ما تبقى من
الشرايفى آخر الإنا .
(٤) الدكتور : محمود زقلول سلام : الأدب فى عصر صلاح الدين ص ٢٧٢ مؤسسة الثقافة
الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٥٩ . (٥) المرجع السابق ص ٢٧٣ .
(٦) الصفدى : الوافى بالوفيات ج ٣ ص ١١١ - المطبعة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٥٣
(٧) مجلة الرسالة العدد (٧٦٤) ، السنة (١٦) ص ٢٧٧ .
(٨) جامع الكرامات المليحة ص ٨٢ .

وهذا - إن صح - يدل على سمة فضل الله ، الذي يوحى به من يشاء . . .
والله ذو الفضل العظيم .

شاعريته :

كان الهوصيري شاعرا كبيرا في عصره (١) ، ولقد فضله ابن سيد الناس على الجزار والوراق (٢) ، وشعره في جملة من الشعر المقبول ، الذي يسلم فيه اللفظ - غالبا - من الغريب والنافر ، وأسلوبه سهل - بصفة عامة - ومعانيه جميلة (٣) ولكنها لا تبهر باختراع أو ابتكار ، ومعظمها مستقى من البيئة .
ومن يتصفح ديوانه ، يبر أنه طرق كل الأغراض الشعرية تقريبا ، إلا أن المديح هو الغرض المفضل عنده ، والمستحون على معظم شعره كما صرح هو بذلك في أثناء شعره بنفسه بأنه :

لا ينظم الشعر إلا في المديح وما غير المديح له سؤال ولا وطير (٤)

والملاحظ أن مدائحه تنقسم إلى قسمين :

أ - مدائحه في الأمراء والوزراء ، وهي متوسطة الجودة ، يخلب عليها الطابع الصوفي ، وذلك مثل قوله عن صاحب بن محمد بن علي يمدحه في قصيدة طويلة ومنها :

وصل النهار بليله في طاعة وصلاته موصولة بصيبام (٥)
كحلت بتقوى الله مقلته التي لم تكحل أجفانها بضمام

فالشاعر يصف ممدوحه بصفات تنطبق على الزهاد والمتصوفة الذين يصلون نهارهم بليلهم في طاعة ربهم ، وما يؤكد ذلك أنه يقارن بين ذلك الممدوح وأبي يزيد البسطامي (٦) بقوله في القصيدة نفسها :

(١) دراسات في التصوف الإسلامي ج ٢ ص ١٨٧ .
(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٨ ، وقد سبق التحريف بهؤلاء الأعلام في ص ٤٢ و ص ٥١ من هذه الرسالة .
(٣) الأعلام ج ٧ ص ١١ بتصرف .
(٤) ديوانه ص ٩٥ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٠٢ .
(٦) هو : طيفور بن عيسى بن آدم البسطامي ، كان من الزهاد المتصوفين توفي سنة ٢٦١ هـ وقيل : غير ذلك (وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢١٣) .

بسم زاد عنك (أبو يزيد) وقد غدت

(١) - مصر - مفضلة على بسطام

ومهما يكن من شيء ، فإن الشاعر قد أنشأ هذا النوع من المدائح في
بدا حياته ، وكان الدافع الأساسي هو فقره الذي لازمه معظم حياته .

٢- مدائحه في الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد بلغ في هذا النوع
درجة عالية من الفصاحة والبالغة ، وطارت شهرته - بها - في كثير من
البلاد ، حتى لقد غطت - هذه المدائح - على سائر شعره ، وربما
ظن بعض الناس أنه لم ينظم إلا في المدائح النبوية ، بينما ديوانه يدل
على أنه قال الشعر في أغراض كثيرة : من مدح وهجاء ، وشكوى واستعطاف
ودعابة وجدل ديني ، وغير ذلك من الأغراض التقليدية ، ويبدو أن إبداعه
في المدائح النبوية هو الذي صرف الناس عن بقية شعره (٢) .

ويرجع تفوقه في تلك المدائح ، وبلوغه فيها مبلغا حسنا ، إلى عدة عوامل
منها : قوة استعداده لقرض الشعر ، وسلامة طبيعته ، وتوفره على العناية
بموضوعه (٣) وانتظامه في سلك الصوفية على يد شيخه أبي العباس المرسي .

أضف إلى ما سبق أنه مسلم ، يؤمن بالله ، خالق الكون ، عظيم القسدره
ويتوجه إليه بالدعاء :

فيا سامع الشكوى ويا كاشف الهلا
ويا من يزجي النلك في البحر لطفه
إذا نزلت في العالمين الشدائد (٤)
وهن جوار ، هل وهن رواكس

كما أنه يوقن بأن كل شيء خاضع لقدرة الله وإرادته :

وعحكك ما ضسى في الخلائق نافذ
إذا شئت أمرا ليس من كونه بد (٥)

(١) بسطام : بلدة من أعمال قوس - وقيل : إنها أول بلاد خراسان من جهة العراق .
المرجع السابق .

(٢) سأكتفي بالحديث عن مدائحه النبوية ، لصلتها بموضوع الرسالة ، أما بقية شعره
فانظر : مقدمة ديوانه ، شرف الدين البوصيري (الشاعر المصري) ص ٣٧ وما
يحيدها ، البوصيري : حياته وشعره ص ٦٣ وما بعدها .

(٣) شرف الدين البوصيري (الشاعر المصري) ص ١٧ .

(٤) ديوانه ص ٦٣ .

(٥) المرجع السابق .

وهو يمتاز بدينه ، ويشيد بكتاب الله :

الله أكبر إن دين محمد
لا تذكروا الكتب السوالف عنده
وكتابه أقسى وأقوم قيلا (١)
طلوع الصباح فأطفئوا القنديلا

أضف إلى ذلك كله ، حبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي صرح
به في مثل قوله :

إني امرؤ قلبي يحب محمدا
أرؤيه وأمل من ذكرى لسه
ويلوم فيه لاثما وعدولا (٢)
ليس المحب لمن يحب بل لا

ولاشك في أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - جدير بكل حب ، وحقيق بكل
ثناء ، فهو الرحمة الهداة ، والنعمة المرسلة ، وهو الشفيع يوم القيامة :

وما محمد إلا رحمة بعثت
هو الشفيع إذا كان المهاد قدا
للعالمين ، وفضل الله مبذول (٣)
واشتد للحشر تخويفا وتهويل

وإذا كان الشاعر قد أحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإنه قد أحب
- أيضا - آل بيته الأطهار ، يدل على ذلك قوله :

إن السوداء في قرسي النبي غسني

لا يستحيل فوادي عنه تحوي غسل
وهوكد ذلك الحب مدحه السيدة (نفيسة) (٤) - رضي الله عنها - فسي
قصيدة طويلة .. ومنها قوله :

(١) المرجع السابق ص ١٤٥ . (٢) المرجع السابق ص ١٧٥ .

(٣) ديوانه ص ١٦٠ .

(٤) هي السيدة : نفيسة بنت أبي الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي
طالب - رضي الله عنهم جميعا - توفيت بمصر سنة ٢٠٨ هـ ،
(وفيات الأعيان ج ٥ ص ٥٦) .

سليبة خير العالمين (نقيصة) سميت بك أعرابي وطابت محاسنك (١)
بما يواكب الأظهار زينت الملا فحبات عقد المجد منهم فرائسك

إن شاعرا هذا مسلكه ، وذلك نهجه ، جدير بأن تمده العناية الإلهية بتوفيق كبير ، وفيض عظيم ، جعله يصرح ببعض ذلك في قوله - مخاطبا الرسول - صلى الله عليه وسلم :

ولقد حنانى الله فيك محبة قلبي بها إلا عليك شحيح (٢)

ولاشكفى أن هذه العوامل قد صقلت تجربة الشاعر الشعرية ، وبخاصة في المدائح النبوية ، فأنشأ فيها قصائد كثيرة ، امتازت بطولها ، وعرفت بفصاحتها ومن تلك القصائد ، قصيدته التي مطلعها :

أمدائح لى فيك أم تسييح لولاك ما قر الذنوب يديح (٣)

وقد بلغت تلك القصيدة خمسين بيتا تقريبا .

وكذلك قصيدته المسماة (نخر المعاد) وهي التي على نهج قصيدة كعب بن زهير المسماة (بانث سعاد) ، وقد بلغت أبياتها نحو مائتى بيت مع العلم بأن قصيدة كعب بلغت ستين بيتا تقريبا (٤) ، ولم يكف البوصيرى بزيادة عدد الأبيات ، بل خالف كعبا في مطلع قصيدته ، إذ بدأها بلموم نفسه وتقريبها ، لا بالفضل كما فعل كعب ، وأول هذه القصيدة :

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مشغول (٥)

فى كل يوم ترجى أن تتوبفدا وقد عزمك بالتسوف حل رسول

وعندما ظهرت بالمدينة المنورة سنة ٦٥٤ هـ نار إثر هزة أرضية ، وصادف أن شبت النار فى المسجد النبوى بسقوط الممرجة (٦) أنشأ البوصيرى قصيدة سماها (تقديس الحرم من تدنيس الضرم) ، بلغت أبياتها نيفا وتسعين بيتا ، وأولها :

إلهى على كل الأمور لك الحمد فليس لما أوليت من نعم حد (٧)

لك الأمر من قبل الزمان ومحمد وما لك قبل كالزمان ، ولا بعد

(١) ديوانه ص ٥٨ - (٢) المرجع السابق ص ٥٥ (٣) التراجع السابق .

(٤) انظر ص ٨ من هذه الرسالة - وديوان كعب ص ٦ وما بعدها .

(٥) ديوانه ص ١٧٢ (٦) تاريخ مصر ج ١ ص ١٠٠

(٧) ديوانه ص ٦٣

والجدير بالذكر أن تلك المدائح التي ذكرتها تراثنا لها الشاعر قبل أن يحج (١) ،
 وعندما قدر له حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول - عليه الصلاة والسلام -
 وقف أمام القبر الشريف ، وأنشد قصيدة ، زادت أبياتها على مائة بيت ، وأولها :

وافاك بالذنب العظيم المذنب حجلاً يعنف نفسه ويؤسب (٢)
 ضاقت مذاهبه عليه ، فما لسه إلا إلى حرم بطيئة مهسب

وعندما بدأ رحلة العودة من الأراضى الحجازية منظم قصيدة زادت أبياتها
 على تسمين بيتا ، ومطلعها :

أزحموا البين وشدوا الركابا فاطلب الصير وخل المتابا (٣)
 ولما وصل إلى مصر ، أنشأ قصيدة بلغ عدد أبياتها أكثر من مائة بيت ،
 ومطلعها :

بمدح المصطفى تحيا القلوب وتفتخر الخطايا والذنوب (٤)

على أن أطول قصائد الشاعر في المدح النبوي قصيدته (أم القرى نسى
 مدح خير الهوى) والمشهورة بالهمزية - لأن حرف رويها همزة - ولقصيد
 زادت أبياتها على أربع مائة بيت ، وقد اهتم بها العلماء والأدباء فشرحوها
 ونسجوا على نوالها (٥) ، وأول تلك القصيدة :

كيف ترقى رفيعك الأنبياء يا أسماء ما طاولتها مساء (٦)
 لم يساووك في علاك وقدحها ل سنى منك دونهم وسنا

وإذا كانت الهمزية أطول مدائح البوسيري ، فإن أروع وأبدع قصائده ،
 تلك القصيدة المسماة (الكواكب الدرية في مدح خير البرية) والمعروفة بالبردة .

(١) مقدمة الديوان ص ٢٦ .

(٢) ديوانه ص ٤١ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٥ .

(٥) أنظر حاجي خليفة : كشف الظنون ج ٢ ص ٢٢٥ وما بعدها مطبعة العالم بصر

(٦) ديوانه ص ١

سنة ١٣١١ هـ

إن هذه القصيدة تعد أعظم قصائد الشاعر وأنفسها ، ولذلك غطت شهرتها
الآفاق ، وجمت الهقاع والأصقاع ، وشغلت كثيرا من الملما ، والأدبا ، والباحثين
.. إلى يومنا هذا ..

أما لماذا بلغت تلك القصيدة هذه المنزلة الكبيرة في قلوب الناس على اختلاف
مشاربهم ، وتنوع اتجاهاتهم ، وتعدد فنونهم ؟ ولماذا أصبحت أشهر من نار
على علم ؟ ولماذا إذا تحدث عن المدائح النبوية كانت من أولى القصائد التي
تذكر على اللسان ؟ ولماذا أضحت من معالم التعريف بالبرصيري ، فيقال :
هو صاحب البردة (١) .

إن كل هذه التساؤلات سوف توجد الإجابة عنها في الفصل التالي
إن شاء الله .

(١) الدكتور : أحمد الشرباصي : الشاعر - سليل المحمديين ص ٨٨ - لم تدون عليه
اسم المطبعة ، وطبع ١٩٧٢ . والوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص ٣١٠ .
(٢) تاج العروص ج ٣ ص ٤٩ ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٣١٨ .

الفصل الثاني

دراسة البردة وتحليلها

بعدما تحدثت عن البوصيري من مهده إلى لحدده - في الفصل السابق - سأتحدث هنا عن البردة ، وذلك بدراستها وتحليلها ، إلا أنني سأمهيد لذلك بحديث موجز عن أصل كلمة البردة ، وعن أول قصيدة سميت بذلك ، ثم أبين كيف أطلق ذلك الاسم على قصيدة البوصيري .

أصل كلمة البردة :

١- البردة - في الأصل - كساء أسود مربع تلبسه الأعراب (١) ، وقيل : قطعة من الصوف تتخذ عباءة بالنهار ، وغطاء بالليل ، وتتمثل هكذا منذ العصر الجاهلي (٢) وجمعها : برد (بضم الباء وفتح الراء) .

أول قصيدة أطلق عليها البردة :

٢- ومن المشهور أن أول قصيدة أطلق عليها لفظ البردة ، هي : قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) وهي التي مدح فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعدما علا عنه (٣) . وقد أعجب بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) فألقى على كعب برده ، مكافأة له على تلك القصيدة ، ومن هنا سميت بالبردة .

ويذكر بعض المؤرخين أن كعب بن زهير أخذ البردة وضع عليها بناجذيسه ،

(١) ابن منظور : لسان العرب ج ٤ ص ٥٤ مادة (برد) المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣٠٠ هـ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد السابع ص ٣٠ وما بعدها .

(٣) انظر ص ٨ من هذه الرسالة ، والشيخ إبراهيم الهاجوري في حاشيته الهاجوري على البردة ص ٤ - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٥١ .

وحفظها بين عينيه ، وآيبت ذلك أن معاوية بن أبي سفيان (١) أراد أن يشتريها منه فرفض ، ولما عرض عليه مالا كثيرا أبى ، وذلك حيا فيمن أهداها إليه ، ويقال : إن معاوية استطاع أن يبتاعها من أولاد كعب بعد وفاته (٢) ، وقيل : إن البردة التي حصل عليها معاوية فسير البردة التي كانت عند كعب (٣) .

إطلاق لفظ البردة على قصيدة البوصيري :

٣- والبردة - كذلك - اسم عرفت به قصيدة البوصيري التي مطلعها : (٤)

أمن تذكر جيران بندي سلم
موجت دمعاً جرى من مقلّة بدم

وإذا كنا قد عرفنا كيف سميت قصيدة كعب بالبردة ، فأولى بنا أن نحرف لما إذا أطلق على قصيدة البوصيري لفظ البردة - كذلك - وخاصة أن مطلعها قد خلع عليهما اسم " الكواكب الدرية " في مدح خيبر البرية " عندما نظمها (٥) .

٤- يبدو أن سبب تسمية قصيدة البوصيري بالبردة يرجع إلى ما نسبته كثير من المؤرخين والكتاب إلى البوصيري من أنه قال : " كنت قد نظمت قصائد في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني فالج (٦) أبطل نصفي . . . فكرت في عمل قصيدتي هذه - أي البردة - فمطعتها ، واستشفعت به - أي بالرسول - إلى الله تعالى في أن يحافيني ، وكسرت إنشادها ، وكيت ، ودعوت ، وتوسلت ، ونمت . فرأيت النبي (صلى الله عليه وسلم) فصيح على وجهي - وقيل : على وجهي - بيده المباركة ، والسقي على بردة ، فانتبهت ، ووجدت في نهضة ، فممت وخرجت من بيتي ،

(١) هو : معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية صحابي جليل ، توفي سنة ٦٠ هـ على الصحيح . انظر : أسد الغابة ج ٥ ص ٢٠٩ . (٢) أحمد تيمور : الآثار النبوية ص ١٦ وما بعدها ، طبعة دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٥٥ .

(٣) المرجع السابق ، وجرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ٩٤ مطبعة الهلال بمصر سنة ١٩٠٢ . (٤) هذا هو مطلعها الحقيقي ، أما ما شاع بين الناس من أن مطلعها : الحمد لله منشى الخلق من عدم . . . ثم الصلاة على المختار في القدم فهذا غير صحيح ، وليس من نظم البوصيري ، انظر : ديوانه ص ١٩٠ ، وحاشية الهاجوري على البردة ص ٥٥ . (٥) مقدمة الديوان ص ٢٩ ، دائرة المعارف الإسلامية

المجلد السابع ص ٣٠ ، القاموس الإسلامي ص ٢٩٨ .

(٦) الفالج : مرض أشبه بالشلل في هذه الأيام .

ولم أكن أعلمت بذلك أحداً ، فذهبتني بعض الفقراء (١) فقال لي : " أرسد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقلت : أي قصيدة تريد ؟ فإني مدحته بقصائد كثيرة ، فقال : التي أنشأتها في مرضك وذكر أولها ، وقال يوالله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ورأيت الرسول يتميل عند سماعها ، وألقى علي من أنشدها بردة " فأعطيته إياها . . . وذكر الفقير ذلك ، وشاح المنام إلى أن اتصل بالصاحب بها ، الدين بن حنا ، فانتسخها ، وحلف أن لا يسميها إلا قائماً حافياً مكشوف الرأس ، وكان يحب سماعها هو وأهل بيته ، ثم إنه بعد ذلك أدرك سعد الدين الفارقي - الموقع - ربه ، وأشرف منه على العمى ، وترأى في المنام قائلاً يقول له : اذهب إلى صاحب ، وخذ البردة ، واجعلها على عينيك ، تصاب بإذن الله - (عز وجل) فأتى إلى صاحب ، وذكر منامه ، فقال صاحب : ما أعرف عندي من أثر النبي (صلى الله عليه وسلم) بردة ، ثم فكر ساعة ، وقال : لعل المراد قصيدة البردة للبوصيري ، ثم أمر خادمه بأن يفتح صندوق الآثار ، ويأتي بقصيدة البوصيري ، ثم أخذها سعد الدين ، ووضعها على عينيه ، فعرفى . . . ومن ثم سميت بالبردة ، والله أعلم (٢) .

٥- هذا ما أشارت إليه بعض كتب التاريخ والأدب ، وتحدثت عنه بمضى كتب التراجم ، مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ ، إلا أن مؤلف " كشف الظنون " نسي أن القصة السابقة كانت في المنام : إذ قال مضيفاً إلى ما سبق ذكره : " . . . فلما استيقظ - أي البوصيري - وجد بدنه صحيحاً كله ، ووجد تلك البردة على عاتقه ، ففرح بها ، وخرج (٣) . . . فكيف تكون القصة منامية ، وكيف يجد الشاعر البردة على عاتقه . . .

-
- (١) المراد بالفقراء هنا : الصوفية وهم يطلقون على أنفسهم ذلك الوصف ، انظر دراسات في التصوف الإسلامي ج ١ ص ٣٩ .
- (٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٤١٧ ، المقفى ج ١ ص ٢٥٠ ، الوافي بالوفيات ج ٣ ص ١١٢ ، دراسات في التصوف الإسلامي ج ٢ ص ١٩٢ .
- (٣) ج ٢ ص ٢٢٥ وما بعدها .

كما ذكر - أيضا - رواية أخرى تبين سبب تسمية قصيدة البوصيري بالبردة ،
وهي : " . . . أن بعض الكبراء أصابه مرض ، فطلب القصيدة . . . فجاها بها
صاحبها ، وقراها فشفاه الله (سبحانه وتعالى) من ساعته فأعطاه بردة ، . . .
فسميت تلك القصيدة بالبردة . . . (١) " ومعنى ذلك أن هذه القصة كانت يقظة ،
وقد انفرد بها صاحب هذا الكتاب .

٦ - موقف بعض الكتاب من تلك القصة التي نسبت إلى البوصيري :

لقد اختلف آراء الكتاب حول هذه القصة ، وأستطيع حصرها في ثلاث -
آراء هي :

أ - إنكار ثم إقرار :

أما الرأي الأول فصاحبه الدكتور : زكي مبارك (٧) ، ويتلخص في إنكاره هذه
القصة - أولا - لما لاق عليها بعد ذكرها بقوله : " . . . وفي هذه القطعة
- المراد القصة - دلالة على عقلية البوصيري ، فهو رجل فيه طيبة وسذاجة
كأكثر الصوفية ، فليس من المحقول أن يبرأ مريض من مرضه لآية يتلوها ،
أو قصيدة ينشدها ، كما برئ البوصيري بقصيدته ، ولو مرض مفتي الديار
الوصرية - لا سمح الله - ما استغنى بالبردة عن الطبيب . . . (٨) " ولكنه
رجع - ثانيا - وأجاز وقوعها ، إذ قال في كتاب آخر : " . . . ونرى الآن -
أن البوصيري صادق في رؤياه ، لأن قوة الإيمان توهم أبلغ التأثير على الجسم
ولا سيما إذا تذكرنا أنه لم يزد على أن قال : إنه وجد في جسمه نهضة
وذلك أقل ما ينتظر لرجل مؤمن ، يرى الرسول (صلى الله عليه وسلم) نفسى
النام . . . (٩) " .

(١) المرجع السابق . (٢) هو : الدكتور : زكي بن عبد السلام بن مبارك ، من
 كبار الكتاب المشتغلين بالأدب ، توفي سنة ١٩٥٢ . (الأعلام ج ٣ ص ٨١) .

(٣) الدكتور زكي مبارك : الموازنة بين الشعراء ص ١٨١ مطبعة مصطفى البابي الحلبي
بمصر سنة ١٩٣٦ .

(٤) المدائح السنوية هاشم ص ١٧٩ .

ب- إنكار وإصرار :

وإذا كان الدكتور ركي مبارك قد أنكر وقوع القصة ثم أترها ، فإن محقق ديوان البوصيري قد تزعم الرأي الثاني الذي ينشئ وقوع تلك القصة ، ويصر على ذلك النفي بقوله : " .. والملاحظ أن عصر البوصيري كان يزخر بالخرافات ، وكان الصوفية أجمعون يدعون أنهم يرون النبي (صلى الله عليه وسلم) يقظة وناما ، ويخاطبهم ويخاطبونه .. (١) " ثم ينفي إصابة الشاعر بالفالج ، ذاكرا أنه - الشاعر - قد أصيب بكسر في ساقه معتدا فسي ذلك على بيت من الشعر يخاطب الشاعر فيه بعض أصحابه ، إثر وقوعه في الحمام وكسر ساقه ، وهو في مدينة المحلة ، فيقول :

ما ضركم جبر الكبير وحسبه ما يلتقى في الجبر من آلام (٢)

ويستشهد محقق الديوان بقول ابن حجر (٣) .. ، عندما ذكر قصة البوصيري السابقة ، وأردفها بقوله : " .. وقيل إنه - البوصيري - اشتد رده بعد نظمها ، فرأى النبي (صلى الله عليه وسلم) في النوم فقرأ عليه شيئا منها ، فتد في عينه ، فبرى لوقته (٤) .. " فقال - محقق الديوان - : " .. وإذا أخذنا بهذه الرواية انتهينا إلى أن البوصيري لم يصب بفالج ، وأن ما يقال من أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ألقى عليه بردة لسم يحدث (٥) "

الرد على محقق الديوان :

ولعل مما يشير الدهشة أن يزعم محقق الديوان أن الصوفية أجمعين كانوا يدعون رؤيا النبي (صلى الله عليه وسلم) يقظة وناما .. بنفيهم أن يذكر دليلا على صحة ، أو مصدرا لادعائه ، ولا يخفى ما في زعمه من مبالغة هذا من جهة ، ومن

-
- (١) مقدمة الديوان ص ٢٧ .
(٢) ديوانه ص ٢٠١ .
(٣) هو أحمد بن حجر الميمني السعدي المتوفى سنة ٩٧٤ هـ . (الأعلام ج ١ ص ٢٢٣)
(٤) شرح الهمزية ص ٥ بتصرف .
(٥) مقدمة الديوان ص ٢٨ .

جهة ثانية : أنه اعتمد نفسى نفي إصابة الشاعر بالفالج على كسر ساقه - كما صرح بذلك شعره - سابقا - وأسأل محقق الديوان : هل كسر الساق ينفي الإصابة بالفالج ؟

ومخاصة أنك تعترف بأن الشاعر كان مصابا بكثير من الأمراض ثم عقببت على ذلك الاعتراض بقولك : " .. فلو كانت البردة تصلح للعلاج من الأمراض لكان الأولى أن يتعالج بها صاحبها .. " (١) .

ولاشك فى أن كسر ساق البوصيرى لا يمنع إصابته بالفالج . هذا من ناحية الشاعر ، وأما من ناحية ما ذكره ابن حجر ، فهو مجرد رواية ليست قاطعة فى دلالتها ، إذ تطرق إليها الاحتمال ، ومعلوم أن ما تطرق إليه الاحتمال لا يصح به الاستدلال ، والدليل على تطرق الاحتمال إلى تلك الرواية قول شيخ الإسلام : محمد الحنفى (٢) تعليقا على ما ذكره ابن حجر : " .. إن الذى رأته نفسى كلام غيره - ابن حجر - أن الذى اشتد رمده غير الناظم - فالذى أصابه الرمد سعد الدين الفارقى - الموقع - ويمكن تعديده الواقعة ، بأن حصل رمد لناظمها فشفى بما ذكره الشارح ، وقد حصل لسعد الدين ، فشفى بوضعها ، فلا منافاة ولا معارضة .. " (٣) .

ولعل الأمر قد وضع أمام القارىء ، وظهر له ما فى كلام محقق الديوان من تناقض تارة ، وإلقاء القول كيفما اتفق تارة أخرى ، وفى الحقيقة ، لقد لست فى آراء محقق الديوان حملا على البوصيرى لا مبرر له ، ولا دليل عليه (٤) . بل إن ما يؤسف حقا أنه يحمل على غيره من الصوفية ، كما أنه يتهم المسلمين بما هو أبشع وأفظع !! وهل رأيت أبشع من اتهام المسلمين بالهروب من الحرب ضد أعداء الإسلام ؟ وهل سمعت أفظع من هذا الافتراء ؟

(١) المرجع السابق .

(٢) هو : محمد بن سالم الحفناوى المعروف بالحنفى توفى سنة ١١٨١ هـ (الأعلام ج ٧

ص ٤) .

(٣) انظر شرح الهمزية هامش ص ٤٤ .

(٤) مقدمة الديوان ص ٢١ .

يقول ذلك المحقق ، وهو يتحدث عن الحروب الصليبية : " .. كان المسلمون يهربون من الحرب ، ويرغون عنها ، وينفرون من حمل السيف ، ولكنهم لا ينفرون من حمل القلم ، ظانين أن الجهاد بالقلم يقوم مقام الجهاد بالسيف .. ومن المسلم من كان يستبدل بجهاد الأعداء كثرة الصلاة والصيام ودوام الذكر والتسبيح معتقدين أن هذا يقربهم إلى الله ، زلفى ، ويغنيهم عن متاع الكفاح ومشاق القتال .. (١) "

وأعتقد أن هذا القول غير مطابق للحقيقة ، ويكفى أن يقرأ القارئ عن جهاد المسلمين بحماسة والصفوة بخاسة ضد الصليبيين ، ليتأكد من أن هذا وهم مفترى (٢) ج - تفويض :

أما الرأي الثالث فأصحاب يفوضون الأمر إلى الله .. يقول بعض الكتاب بعدما ذكر قصة البوصيري : " .. ومعد فهل كان البوصيري كاذباً في دعوى الرُّيا ؟

هذه مسألة يذ من ينصف نفسه أن يجازى بالحكم فيها على غير ظاهرها وخاصة أن البوصيري يعلم " أن من كذب على النبي محمد فليتبوأ مقعده من النار .. "

وليس هناك كذلك ما يمنع من أن يشفى من فالجه بسبب قصيدته .. وقصيدة البردة .. لا تشفى ولا تبرئ من سقم ، فالله (سبحانه وتعالى) هو واضع البر والشفاء ، ولكن إذا أخلص المريض النية ، واتجه إلى الله بقلبه من دعاء واستشفح بالنبي .. أو بتلاوة القرآن ، أو قراءة البردة ، أو نحوها ، فليس هناك ما يمنع من أن يستجيب الله الدعاء بالمريض في حاجة ماسة إلى مثل هذه المعنوية ، يعين بها طبيبه على علاجه .. (٣) "

(١) محمد سيد الكيلاني : الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام ص ٢٥ . مكتبة الفجالة بمصر سنة ١٩٤٩ .
 (٢) انظر : تاريخ مصر الإسلامية ج ٢ ص ٦٧ ، ١٣٤ ، ٣١٥ ، الدكتور إبراهيم الهدوى : العرب والتاريخ ص ٧٢ وما بعدها ص ١٠٣ وما بعدها مطابع دار القلم بمصر سنة ١٩٦٣ .
 (٣) مجلة الرسالة العدد (٧٩٩) السنة (١٦) - ١٩٤٨ - ص ١٢٠٧ .

رأى الباحث :

إننى أميل إلى هذا الراى - الأخير - الذى يفوض الأمر فى صحة القصة أو كذبها إلى الله ، وخاصة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول : " من تحلم بحلم لم يره كلف أن يحقد بين شميرتين ولن يفعل (١) " ، ويقول : " إن من أعظم النجوى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه ، أو يرى عينه ما لم تره ، أو يقول على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما لم يقل (٢) " .

وإذا كنت قد اخترت هذا الراى ، فليس معنى ذلك أن القصة مستحيلة الوقوع ، لا . . . بل هى جائزة . . . والدليل على ذلك يتطلب بيان أمرين :
الأمر الأول : الإجابة عن هذا السؤال : أرويا الرسول جائزة شرعا . . . أم لا ؟
الأمر الثانى : الإجابة عن هذا السؤال أيضا : أيجوز التداوى بالماديات والمعنويات أم بالماديات فحسب ؟

أما الأمر الأول : وهو روى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فهى جائزة شرعا لقوله صلى الله عليه وسلم : " من رأى فى المنام فقد رأى فإن الشيطان لا يتمشى به " (٣) ونسى رواية أخرى : " من رأى فى النوم فقد رأى ، فإنه لا يتمشى للشيطان أن يتشبه به " (٤) . وقد أجمع على جوازها الكثير من العلماء والفقهاء ، ويؤكد ذلك قول الإمام النووى (٥) - معلقا على الحديثين السابقين : " . . . إن رؤياه - الرسول - صلى الله عليه وسلم - صحيحة ، ليست بأضغاث ولا من تشبيهات الشيطان (٦) " ثم يذكر قول بعض العلماء : " إن الله تعالى خص النبى - صلى الله عليه وسلم - بأن روى الناس إياه صحيحة ، وكلها صدق ، ومنع الشيطان أن يتصور فى خلقه ، لئلا يكذب على لسانه فى النوم (٧) " .

-
- (١) صحيح البخارى ج ٩ / ص ٥٥٤ (٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٢٠
(٣) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٢٣ .
(٤) المرجع السابق ج ٥ ص ١٢٤ .
(٥) هو : أبو زكريا محبى الدين أو يحيى بن شرف الدين الملقب بالنووى ، توفى سنة ٦٧٦ هـ
(٦) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٢٣ .
(٧) المرجع السابق .

وإذا كان حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) عاما ، لم يقصر الرؤيا على قوم محصورين أو على جيل بعينه ، فلاحجة لرأى بعض الكتاب الذين ذهبوا إلى جواز أن تكون رؤيا الرسول مقصورة على صحابته الذين رأوه حيا^(١) لأن تخصيص العام بدون مخصص عبث وتكلف ، والواقع يثبت وقوع الرؤيا للصحابة وغيرهم : فمن الصحابة : ابن عباس^(٢) (رضي الله عنهما) ، الذي نقل عنه : أنه قال : رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما يرى النائم ، نصف النهار ، وهو قائم أشعث أغبر ، بيده قارورة فيها دم ، فقلت : يا بني أنت وأص ، يا رسول الله : ما هذا الدم ؟ قال : هذا دم الحسين ، لم أزل ألتقطه منذ اليوم . . . فوجدت - ابن عباس - أن قد قتل الحسين (رضي الله عنه) في ذلك اليوم^(٣) .

وأينما قيل : إن الإمام الحسين (رضي الله عنه) قال : " رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في المنام ، فأمرني بأمر فأنا فاعل ما أمر (٤) " .

وكذلك قيل : إن أم المؤمنين (السيدة أم سلمة) (٥) رضي الله عنها - قالت " رأيت الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المنام ، ولى رأسه ولحيته الستراب فقلت : مالك يا رسول الله ؟ قال : شهدت قتل الحسين آنفا " (٦) .

ولا يحسن القارئ أن تلك الأخبار من وضع الرواة لخدمة الشيعة - الذين يتشيعون للإمام علي ونبيه - لأن هذا مردود بإقرار بعض العلماء الذين رأوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المنام ، وهم من غير الصحابة ، ومنهم الشيخ

(١) البوصيري : حياته وشعره ص ١٢٠ .

(٢) نحو : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، توفي سنة ٦٨ هـ . وقيل : غير ذلك . انظر : أسد الغابة ج ٣ ص ٢٩٠ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٤٠ . الإمام أحمد بن حنبل - مسنده - بتحقيق الدكتور محمد تاشور ج ٢ ص ٤٧ دار الاعتصام بدمشق سنة ١٩٧٧ (٤) أسد الغابة ج ٢ ص ٢٤٠

(٥) هي السيدة : هند ، وقيل : رمة بنت أبي أمية بن المغيرة - زوج رسول الله ، توفيت سنة ٥٩ هـ جريدة على الراجح : المرجع السابق ج ٧ ص ٢٨٩ .

(٦) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٢٣ .

أحمد حجاب^(١) ، والشيخ محمد خليل الخطيب^(٢) ، ومن قبلهما الشاعر : محسود
سامي البارودي^(٣) الذي أشار إلى أنه رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المنام
وأعطاه عصاه ، وغير هؤلاء كثير ، ويكفي من القلادة ما أحاط بالمنق .

ولعل هذا القدر كاف للإجابة عن السؤال الأول ، المتعلق برؤيا الرسول
(صلى الله عليه وسلم) ، أما الأمر الثاني ، وهو العلاج بالماديات والتمنويات ، فهو
ظاهر ملموس ، لأن الله تعالى خلق الإنسان - في هذه الحياة - وجعله عرضة
للصحة والسقم ، ولكنه أمره بأن يحافظ على صحته قدر وسعه ، وهذا ما يفهم من
قوله تعالى : " وَكُلُوا وَشَرِبُوا وَلَا تُسْرِفُوا " . . .^(٤) بل لقد أمره بالمحافظة على نفسه
وهذا ما يدل عليه قوله تعالى : " وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ " . . .^(٥) وكسل
هذا من باب " الوقاية خير من العلاج " ولكن إذا مرض الإنسان فهل يتداوى ؟
نعم : يجب عليه أن يتداوى بأمر الشرع ، ومن ذلك قول الرسول (صلى الله عليه
وسلم) : " ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً " . . .^(٦) ويؤكد ذلك في حديث آخر ،
يقوله : " لكل داء دواء ، فإذا أصاب دواء الداء برى ، بإذن الله (عز وجل) " . . .^(٧)
إلا أن في قول الرسول : " فإذا أصاب دواء الداء " . . . إشارة لطيفة إلى الأخذ
بالأسباب ، فإذا أراد الله الشفاء وجدت الأسباب ، وصادفت المسببات ، وإذا لم
يرد الله الشفاء ، فمهما كان الدواء ، وأيا كان الطبيب ، فلا شفاء ، ولعل
في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام :

(١) هو الشيخ : أحمد بن محمد حجاب بن علماء الأزهر الشريف ، ولد بإحدى قرى محافظة
الشرقية سنة ١٨٩٨م ثم دخل الأزهر ونال شهادة العالمية سنة ١٣٢٧هـ ، ولزم عبادة ربه
ولم يلتحق بالوظائف الحكومية ، ذهبت إليه شخصياً للتأكد من رؤياه الرسول ، التي ذكرها في كتابه
الغنية والاعتبار ص ٧١ ، ص ٢٠٩ مطابع الأهرام التجارية بمصر سنة ١٩٦٩ . فأكد لي وقوع ذلك
الأمر له شخصياً أكثر من مرة .

(٢) سيأتي التعميق به في ص ١٣ من هذه الرسالة ولقد أشار إلى رؤياه الرسول في مقدمة
قصيدته (بشري الماشقين) ص ٢ مطبعة الشعراوي بطنطا سنة ١٣٧٧هـ .

(٣) سيأتي التعميق به في ص ٣٢٧ من هذه الرسالة ، وانظر ص ٤٦ من هذه الرسالة أيضاً
حيث توجد إشارته إلى رؤياه الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

(٤) الأعراف / ٣١ . (٥) البقرة / ١٩٥ .

(٦) صحيح البخاري ج ٧ ص ١٥٨ .

(٧) صحيح مسلم ج ٥ ص ٥١ .

" وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (١) " ما يشير إلى تلك الإشارة اللطيفة ، والملاحظة الدقيقة ، وفي هذا ما يؤكد أن الأمر كله متعلق بإرادة الله ، فإذا تهيأت الأسباب وأراد الله الشفاء ، وتحقق . . . ، وإذا لم يرد الله لم يتحقق ، تهيأت الأسباب أولم تتهيأ ، وأعتقد أن هذا أمر لا جدال فيه ، فكم من مريض حار الأطباء فسي أمره ، وأصبح علاجه مستحيلًا عندهم ، وأضحى موته محققًا لديهم ، ولكن أتسي شفاؤه من حيث لا يدري ، ولا عجب لأن من خلق السبب قادر على أن يشفي بخيره وليس هذا الكلام دعوة إلى نهد الأسباب المادية كأخذ الدواء ، لا ، ولكنه دعوة صريحة إلى الأخذ بالأسباب المادية ، والأسباب المعنوية ، ومن هنا كان الدعاء ، وكم كان للدعاء من أثر ! (ألم تر إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي كان يمسد الجيش ثم يدعو الله أن يرزقه النصر (٧) .

وانظر إلى هذا الرجل الذي جاء إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) يشكو وجعا في جسده منذ أسلم ، فقال له الرسول (صلى الله عليه وسلم) : : ضح يدك على الذي تألم من جسدي ، وقل : باسم الله (ثلاثا) ، وقل سبع مرات : أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر (٢) . وأعتقد أن في ذلك الحديث ما يدل دلالة قوية على اتجاه الرسول إلى المعنويات في العلاج . أما اتجاهه إلى الماديات فتبدل عليه قصة ذلك الرجل الذي أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم قال له : إن أخي استطلق بطنه ، فقال رسول الله : اسقه عسلا ، فسقاه ، ثم جاءه ، فقال : إنسي سقيته عسلا ، فلم يزد ، إلا استطلقا ، فقال له - ثلاث مرات - اسقه عسلا ، ثم جاء الرابعة ، فقال : اسقه عسلا ، فقال : لقد سقيته فلم يزد ، إلا استطلقا ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : صدق الله ، وكذب بطن أخيك ، فسقاه ، فسبرئ الرجل (٤) .

ولعل مما يؤكد أهمية العلاج المعنوي مثلا في الدعاء قول الدكتور الفخاوي (٥)

-
- (١) الشصرا / ٨٠ .
(٢) حياة محمد ص ٢٦٣ وما بعدها .
(٣) صحيح مسلم ج ٥ ص ٥٠ .
(٤) المرجع السابق ج ٥ ص ٦٢ .
(٥) هو الدكتور : حامد عبد الرحمن الفخاوي ، ولد في إحدى قرى محافظة الدقهلية سنة ١٩٠٨ ، واشتغل بجهنة الطب حتى توفي سنة ١٩٦٠ . انظر كتابه : بين الطب والإسلام ص ٥ وما بعدها طبعة دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٦٧ .

" لو نظرنا إلى الدعاء وأثره في النفس من الوجهة الطبية ، لوجدنا أنه يتيح للإنسان أن ينفس عن مشاعره في حضرة الحلي القدير ، فيشعر أنه إنما يناجسي بدعائه من إذا أراد أمرا فإنما يقول له : كن فيكون ، فيحس بالهدوء والطمأنينة ، ويشعر أن هناك ملاذا يلوذ به إذ انقطع من الدنيا ملاذ ، فيزيد ذلك قوة نفسه المعنوية ، ويقوى عزيمته ، ويجعله بمنجاة من الأمراض النفسية والصحية ، ولقد أصبح من أسس العلاج الحديث تقوية الروح المعنوية ، والدعاء من أهم الوسائل لذلك ، إذ هو إحياء نفسى يجد فيه الداعي لورحه غذاء ، ولنفسه دواء ، يدعم كيانها ، ويقوى بنيانها ، ويجعلها تتغلب على كل ما يثير فيها اليأس أو الضعف (١) . . . "

ومعد هذه السياحة الطويلة ، أرجو أن يكون قد تأكد أن العلاج يكون ماديا يتناول الدواء الذي يصفه الطبيب ، كما يكون معنويا ، بالالتجاء إلى الله ، وقراءة القرآن والصلاة ، ولعل من ذلك - أيضا - مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو ما فعله البرصيري حينما أصيب بالفالج ، وكانت قصيدته - كما قيل - سببا في شفائه ، إذ رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المنام ، ومسح على وجهه ، وألقى عليه بردة ، كانت سببا في تسمية تلك القصيدة بالبردة ، إلا أن محقق الديوان ما زال في شك من ذلك إذ يقول : " ولقد تعود الشاعر أن يطلق على مدائحه النبوية أسماء معينة ، فقصيدة اسمها (فخر الحاد ٠٠) وثانية اسمها (أم القرى في مدح خير النور) ، وثالثة اسمها (تقديس الحرم من تدنيس الضرم) وهكذا . . . وواضح أن هذه الأسماء لا تخفى وراءها أسرار ، ولم يقصد بها - الشاعر - أكثر من معناها الشاعر . . . " ثم يقول : " أترى سميت البردة بعد الرؤيا التي رآها الشاعر كما ذكرت ، أم سميت البردة لاشتمالها على مناقب الرسول (صلى الله عليه وسلم) - وليس بهميد حينئذ أن يكون الشاعر قد قصد المعنى المجازي لا أكثر (٢) "

ولقد شبه البرصيري مدائحه النبوية بالبردة ، لأنها حوت مجاسن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومن ذلك قوله :

حاك من صنعة القريش برودا لك لم تحك وشيها صنعا (٣)

(١) المرجع السابق ص ١٢٧ وطبع بعدها بتصريف . (٢) مقدمة الديوان ص ٢٩ .

(٣) ديوانه ص ٢٨ .

بل لقد شبه نفسه بكعب ، وكعب قصيدة اسمها (البردة) فمن المراجع أن يكون البوصيري أراد أن تكون له قصيدة تحمل اسم قصيدة كعب وذلك من باب التبرك (١) .

وهكذا يظهر التناقض في كلام محقق الديوان ، وأسأله : لو أراد الشاعر أن يسمى قصيدته بالبردة تشبها بكعب وتبركا - كما تزعم - لم لم يطلق عليها ذلك بادي الأمر عندما نظمها ، وأنت تعلم أنه أطلق عليها (الكواكب الدرية في مدح خير البرية) أولا ، ثم سميت فيما بعد بالبردة ؟ ثم ألم يكن الأول بهذه التسمية قصيدته التي نهج فيها نهج كعب (٢) ؟

أسماء قصيدة البوصيري :

ومهما يكن من شيء فإن قصيدة البوصيري التي مطلعها (أمن تذكر جيران .. البيت) والتي أطلق عليها (الكواكب الدرية في مدح خير البرية) كما أطلق عليها (البردة) قد أطلق عليها - أيضا - اسم (البراة) إشارة إلى أن الشاعر قد برى من علة بسببها (٣) كما عرفت أيضا باسم (قصيدة الشدائد) ؛ لأنها في زعم بعض الكتاب تقرأ لتفريج الشدائد (٤) .

وزنها ورويتها :

ولو اطلعت على قصيدة البردة هذه لوجدتها من بحر البسيط التام الذي تتكون تفعيلاته من (مستعملن فاعلن) أربع مرات ولكن الخين^(٥) يدخل على (فاعلن) فتصير (مستعملن فاعلن) ، كما أن حرث رويها ميم مكسورة .
عدد أبياتها :

تعددت الآراء حول عدد أبياتها ، فمن الكتاب من ذهب إلى أنها اثنان وستون ومائة بيت (٦) ، ومنهم من قال : إنها واحد وستون ومائة بيت (٧) ، ومنهم من زعم أنها : اثنان وثمانون ومائة بيت (٨) ، ومنهم من ذكر أنها ستون ومائة بيت (٩) .

- (١) مقدمة الديوان ص ٢٩ . (٢) انظر ص ٦٥ من هذه الرسالة .
(٣) حاشية الباجوري على البردة ص ٤ . (٤) مقدمة الديوان ص ٢٩ والإمام البوصيري ص ٥٣ .
(٥) الخين : هو حذف الثاني الساكن : انظر : كامل شاهين - اللباب في العروض والقافية ص ١١٣ وطلب سجل العرب بمصر سنة ١٩٧٦ .
(٦) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٣٠ وما بعدها ، كشف الظنون ج ٢ ص ٢٢٥ .
(٧) طراز البردة ج ١ ص ٤٧ . (٨) المدائح النبوية ص ١٨٣ .
(٩) البوصيري : حياته وشعره ص ١٣٦ ، الأدب العربي من عهد الفاطميين إلى اليوم ص ١٠٥ .

وهذا هو الصحيح الموافق لما في الديوان المحقق (١) .

ويبدو أن سبب الاختلاف في عدد أبيات البردة ، هو عدم الرجوع إلى المصادر الأصلية كالديوان المحقق ، وما ساعد على ذلك أيضا أن تلك القصيدة طبعت منفردة عن الديوان ، وقد زيدت عليها بعض الأبيات (٧) التي سوف أتنبه عليها في مواضعها - إن شاء الله .

ولعل ما يشير إليه المجيب أن يختلف رأى محقق الديوان في عدد أبيات البردة ، فذهب في أحد مؤلفاته إلى أنها اثنتان وستون ومائة بيت (٢) ، بينما ذهب نفس الديوان الذي حققه إلى أنها ستون ومائة بيت (٤) ، ولعله ذهب إلى الرأى الأول قبل تحقيقه الديوان ، وإلى الثاني بعد التحقيق (٥) إلا أنني كنت أحب أن يشير إلى ما ذهب إليه أولا ، مبينا عدم صحته حتى لا يدع مجالا للشك في آرائه .

أهم ما اشتملت عليه البردة من أفكار :

والبردة تدور حول عدة أفكار يجمعها غرض واحد هو : مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) . والإشادة برسالته ، وقد بدأ الشاعر قصيدته بالفزل على عادة الشعراء القدامى من العرب ، ثم انتقل إلى الحديث عن النفس وهوانها ، والطريق إلى عداها ، وتحدث بعد ذلك عن بعض صفات الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ثم أشار إلى مولده وما صاحبه من أحداث ، كما تكلم على دعوته وأثرها ، ثم ذكر بعض معجزاته (صلى الله عليه وسلم) ومنها : القرآن الكريم ، والإسراء والمهاج وانتقل إلى الحديث عن جهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وأخيرا

(١) ديوان الموصيري ص ١٩٠ وما بعد ها .

(٢) من هذه الطبعات : طبعة شركة الشمولي بمصر (غير مؤرخة) ، طبعة محمد عاطف وشركاه بمصر (غير مؤرخة) وطبعة المطبعة المحمودية التجارية بمصر سنة ١٣٥٦ هـ .

(٣) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام ص ٢٤٤ .

(٤) ديوانه ص ١٩٠ وما بعد ها .

(٥) وهذا هو الحق لأنني وجدت رأسه الأول في كتابه (الحروب الصليبية) ص ٢٤٤ .

وقد طبعت الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩ (كما سبق) - أما تحقيقه الديوان

فكان في سنة ١٩٥٥ (وهو ما ذكر فيه رأيه الثاني) ص ١٩٠ .

يختم الشاعر قصيدته بطلب المغفرة من الله ، والطمع في شفاعته رسول الله
(صلى الله عليه وسلم) .

ولقد علق بعض الكتاب على هذه الأفكار بقوله : " . . . وإذا كانت معظم
أفكار القصيدة منشورة في كتب السيرة ، فمن الجدير بالذكر أن الشاعر قد
صاغ هذه الأفكار في تركيب جميل ، ومعنى سام ، فأصبحت القصيدة بذلك آية
من آيات الفن ، وكوكبا في سماء الإبداع " . (١)

وإذا كان هذا هو رأي بعض الكتاب في القصيدة ، فإن طبيعة البحث
العلمي تتطلب دراسة النص وتحليله ، ثم الحكم له أو عليه ، وهذا ما سأقوم
به على الصفحات التالية (إن شاء الله) .

يتأجج الحبون شوقا ، وياتهب الماشقون حبا ، عند تذكرهم أيام أنسهم
التي مننت ، ووؤيتهم ديار أحبابهم التي خلقت ؛ فيكون ويستكون ؛

قلنا نبيك من ذكرى حبيب ورفيقان

ورسم عفت آياته منذ أزمان (٧)

بل إن منهم من يتمنى أن تعود تلك الأيام بما كان فيها من صبايسة وهيام
وحب ووثام ؛

تذكرت أياما لنا ولياليها

مننت ، فجرت من ذكرهن دموع

الأهل لنا يوما من الدهر أوبة

وهل إلى أرض الحبيب رجوع ؟

فيبدو - أول الأمر - أن البوصيري سلك هذا المسلك ، ونهج ذلك المنهج
في مطلع قصيدته - البردة - إلا أنه استطاع - ببراعته - أن يخفي حبه ، ويستر
عشقه ، عندما جذب الانتباه ، وشد الأسماع - بتخيله شخصا يقف معه - كمادة

(١) حصين مثلوم ؛ رياض البردة ص ١ وما بعدها المطبعة المحمودية بمصر (غير مؤرخ)

(٧) عرفان ؛ ما عرف من علامات الديار . عفت ؛ تغيرت . آيات ؛ جمع
آية) وهي العلامة .

الشعراء - ثم سأله : (١)

أم تذكّر جيران بذي سلم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة

مزجت دمعاً جرى من مقلّة بدم
وأومض البرق في الظلماء من إضم

لله دره مطلقاً !! حرك الفكر بهذا الاستفهام الذي خرج عن معناه
الأصلي - طلب الفهم - إلى معنى آخر يطلق عليه علماء البلاغة : تجاهل العارف (٤)
لأن الشاعر يعلم سبب بكاء صاحبه ، ولكنه تجاهل ذلك ، مهالفة في إظهار شدة
الحيرة ، ثم سأله : ما سبب بكائك الحار ، ودموعك الفزار ، أما جفستك ذكرى
الأحبة ، أم هبت نسائم عطرهم ، أم لمعت نورا - في ظلام الليل - بسنخ
من ناحيتهم ، أسأل عبرتك ، وأدسى مقلتك ؟

لقد أحسن الشاعر عندما استفهم بالهمزة ، ثم أتى لها بمعاد لها أم ، فهين
بذلك قد خلصت للتصور (٥) ، وهذا ما يتلوه مع حالة الشاعر ، الذي أدرك
دمع مخاطبه فلم يشك فيه ، وإنما شك في سببه ، ويؤكد ذلك الإتيان بقولسه :

(١) ديوانه ص ١٩٠ .
(٢) جيران : جمع جار ، بمعنى مجاور ، من الجوار وهو القرب في المنزل وغيره ، ومن
ذلك قول الرسول : (صلى الله عليه وسلم) - " ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى
ظننت أنه سيورثه " صحيح البخاري ج ٨ ص ١٢٠ ذو سلم : واد ينحسدر
على الذنائب يقع على طريق البصرة إلى مكة (معجم البلدان ج ٥ ص ١١٦)
باختصار) - الدمع : اسم جنس ، واحده دمة : وهي ما تقطر من العين .
المقلّة : شحمة العين التي تجمع السواد والبياض .

(٣) هبت : هاجت . تلقاء : جهة . كاظمة : مكان في طريق البحرين من البصرة
(المرجع السابق ج ٧ ص ٢٠٨) أومض : لمع . إنضم (بكسرة فتح) واد بجبال
تهامة تقع فيه المدينة المنورة على الراجع (المرجع السابق ج ١ ص ٢٨١) .
والفحائن (هب وأومض) مؤولان بمصدرين معطوفين على (تذكر) ، وإن لسم
يسبقا بحرف مصدرى ، فذلك جائز في اللغة ، قال صاحب التوضيح : إن ذلك
يلتزم في باب التسوية شأن في غيرها . (خالده الأزهري في التصريح على التوضيح
ج ١ ص ١٥٤) وما بعدها طبعة دار إحياء الكتاب العربية بمصر (غير مؤرخ) .

(٤) هو : سوق المعلوم مسبقاً غيره لنكدة . انظر : القزويني : التلخيص في علوم
البلاغة ، بشرح عبد الرحمن البرقوقى ، ص ٢٨٥ وما بعدها . المطبعة الرحمانية
بمصر سنة ١٩٣٢ .

(٥) هو : إدراك الفرد ، مع كون النسبة معلومة ، انظر : عبد القاهر الجرجاني :
دلائل الإعجاز بشرح ، الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ص ١٤٢ . مكتبة القاهرة
بمصر سنة ١٩٦٩ .

(من تذكر) بعد الهزة ، وهي لا يليها إلا المشكوك فيه (١) هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فتقديم (من تذكر) على (مزجت) يشمر بأن المقدم بهم الشاعر لأن " الحرب يقدمون الذي بيانته أهم لهم ، وهم بشأنه أعنى . " (٢)

وإذا تأملت هؤلاء الذين بكى الشاعر من أجلهم ، وجدته قد وصفهم بأنهم (جيران) فلماذا وصفهم بذلك ؟ للدلالة على شدة قربهم منه ؟ أم لأنه أراد بهم (الأحاب) مصبرا بالمعنى المجازي ، فأطلق الملزوم وأراد به اللازم ، ولا شك أن المعنى المجازي أبلغ من المعنى الحقيقي ، لأن الأول كالمدعى بدليلها ، بخلاف الثاني ولذا قال بعض علماء البلاغة : " وقد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتمريض أوقع من التصريح . " (٣) والمجاز أبدا أبلغ من الحقيقة (٤) .

وشمت نكتة لطيفة في لفظ (جيران) أيضا ، فلعل الشاعر راعى حقوق الحب وواجب المحبة ، فأشار إلى محبوبه تلويحا لا تصريحاً ، ولكن لماذا عبر بالجمع ؟ يبدو أن ذلك كان عظيماً له من جهة ، كقوله تعالى " والأرض فرشناها فنعم الماهدون " (٥) وللمبالغة في ستر حبه من جهة ثانية .

ولعلك ترى دموع الشاعر وهي تنهمر بشدة ، يدل على ذلك لفظ (جرى) ومؤكدته تنكير لفظ (دمعاً) - لأن من أغراض التنكير البلاغية : التكرير والتعظيم (٥) - ويزيده تأكيداً تلك الكناية المفهومة من مزج الدمع بالدم ، وكل هذا يدل على أن هؤلاء الأحاب لهم شأن عظيم عند الشاعر .

ولا يخفى أثر المجاز المرسل لعلاقة الجزئية في قصر الشاعر جرى الدمع على المقلة ، وهو إنما يجرى من العين ، ولعله ذكر ذلك لاعتقاده أن المقلبة أهم جزء في العين ، وفي ذلك زيادة تأكيد على شدة البكاء ، كما لا يخفى أثر الإيجاز بالحذف في قول الشاعر : (الظلماء) فهو صفة لموصوف محذوف

(١) المرجع السابق شامش ص ١٤٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٩ .

(٤) الذارعات / ٤٨ .

(٥) دلائل الإعجاز ص ٤٤٧ والتلخيص في علوم البلاغة ص ٦٨ .

والأصل : (الليلة الظلما) ، وفي منارة الشاعر موسيقى عذبة مشوها الجنس (١) بين قوله : (دم ودم) والتنوين في قوله : (جيران ودمع ، ومقلة) ، إلا أن لفظ (دم) غير مستحسن وخاصة في مطلع القصيدة (٢) ، كما قيل : إن لفظ (مقلة) يمدح حشوا ، لأن الدمع لا يسيل إلا من العين (٣) ، ويبدو أن الشاعر عبر بذلك من باب التأكيد كقولك : سمعت بأذني ورأيت بعيني ، بالإضافة إلى ضرورة الوزن .

ومهما يكن من شيء ، فإن أول القصيدة رائع العبارة ، بارح الإشعار ، مكن الشاعر من مواصلة حوار مع مخاطبه ، واستمرار سؤاله عن سبب بكائه ، ونفى غضون ذلك يشير الشاعر إلى بعض دلائل الحب في قوله :

فما لمينيك إن قلت : أتفظ هنا وما لقلبك إن قلت : استفقوهم (٤)

بدو أن الشاعر حينما سأل مخاطبه عن سبب بكائه ، ولوح له بتذكر أحبابه ، أنكر ذلك المخاطب به ، ولكن هيهات ، لن يجدي الأفكار مع وضوح الآثار ، فللحب أمارات تشير إليه ، وعلامات تدل عليه ، ومن ذلك : الدمع المنهمر مع ظهور آثار القلب المستمر .

(١) هو : تشابه اللفظين في عدد الحروف ونوعها وهيئتها وترتيبها مع اختلافهما في المعنى وهذا هو الجنس التام أما هنا فقد اختلف اللفظان في عدد الحروف ، أيما فيسعى ذلك جناسا ناقصا : التلخيص في علوم البلاغة ص ٣٨٨ وما بعدها .

(٢) عباس حسن : المتنبي وشوقي وإمارة الشعر ص ١٥٣ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣ .

(٣) المرازنة بين الشعراء ص ١٨٩ .

(٤) ديوانه ص ١٩٠ اكفا : أمسكا عن البكا . همتا : من التهمير : وهو الإنحدار والسيلان ، والمراد هنا : زادت في البكا . استفق : أفاق وأرجع إلى رشدهم : مضارع هيام علو وجهه يهيم ، إذا قام به الهيام وهو من المراتب العالية في الحب ، ويسمى جنون المحقق - فلا يدري أين هو .

والملاحظ أن البوصيري أشار إلى علامتين من علامات الحب وهما : الدمع
الضهور والقلب المستحرق - كما سبق - ولكنه ليس أول من أشار إلى ذلك ، بل
سبقه غيره من الكتاب والشعراء ، مثل ابن حزم^(١) الذي يقول : " .. البكاء
من علامات الحب ، ولكن المحبين يتفاضلون فيه ، فمنهم غزير الدمع ، هامل
الشؤون .. ومنهم جمود الحين .. " ^(٢) ، ومثل العباس بن الأحنف^(٣) الذي
يقول :

لا جزى الله دمع عيني خيرا وجزى الله كل خير لسانى^(٤)
نمّ دمعى فليس يكتم سرا ووجدت اللسان ذا كتمان

إلا أنك إذا تأملت قول البوصيري ، وجدته أحسن أيما إحسان ، إذ جمع
دليلين على الحب في بيت واحد ، بينما لم يشر كل من : ابن حزم والعباس
ابن الأحنف إلا إلى دليل واحد ، وهو الدمع ، أضف إلى ذلك أن قول البوصيري
قد اشتمل على استقفاهم ، دال على التعجب من حالة ذلك المخاطب الذي
يضمن في الإنكار .

ويبدو أن الشاعر ضاق صدرا بهذا الإنكار ، فصبر نصيرا موجزا ، تسدلي
عليه هذه الفاء ، وهي تسمى (فاء الفصيحة) ؛ لأنها أفصحت عن كلام مقدر ، والأصل
: (إذا كنت تنكر الحب فما لعينيك ..) .

وهما يكن من شيء ، فبيت البوصيري : الفاظه سهلة ، وموسيقاه عذبة ،
منشؤها اللطاف^(٥) بين قوله : (أكفا وهنا) ، وبين قوله : (استفق وبهم)
أنف إلى ذلك ما بين شطري البيت من تقسيم ، جعل رنينه جذابا ، وتأثيره
خالبا .

(١) هو : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، توفي سنة ٤٥٦ هـ .

(٢) ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاف بتحقيق : محمد محمد عبد اللطيف -
بالاشتراك مع غيره . ص ١٩ بتصرف . مطبعة المدني بمصر سنة ١٩٧٥ .

(٣) هو : أبو الفضل العباس بن الأحنف بن الأسود توفي سنة ١٩٢ هـ . (الأعلام
ج ٤ ص ٣١) .

(٤) الأغاني ج ٨ ص ٣٥٤ ، التالي : الأمالي ج ١ ص ٢٥٤ طبعة الهيئة المصرية العامة
للكتاب سنة ١٩٧٥ . مع الاختلاف في بعض اللفاظ .

(٥) هو : الجمع بين معنيين متقابلين (التلخيص في علوم البلاغة ص ٣٤٨) .

ولا يخفى ما فى عبارة الشاعر من تأكيد ، كان طريقه المجاز المرسل ،
إذ أسند الهى إلى العين ، وذلك لملاقة المحلية ، فالمراد الدموع والعيون
محلها ، وهو يوحى بفزارة الدمع ، وشدة البكاء .

ومع كل هذا وقع الشاعر فى خطأ صرفى فى قوله : (أنفعا) ، إذ فك
إدغام المضمف الثلاثى عند إسناده إلى ألف الاثنين ، وهذا مخالف للقواعد
الصرفية (١) ، والصواب (كفا) ، ولعل الشاعر فك الإدغام لضرورة الوزن .

من علامات الحسب:

ويبدو أن الهوصيرى لم يجد من مخاطبه إلا إيماناً فى الأفكار ، فأكد
المعنى السابق ، يمكن فى حكمة بارعة ، وعبارة رائعة ، ويوجهها لكل المحبين
عن طريق مخاطبه ، وذلك بقوله (٢) :

أحسب الصب أن الحب منكمم ما بين منسجم منه ومضطرم (٣)

لقد صدر الشاعر هذا البيت باستفهام إنكارى مشوب بالتهكم من هذا
المخاطب ، ومن على شاكلته - الذى يظن أن فى استطاعته كم غرامسه ،
وستر شيامه ، مع وجود الدلائل الناطقة ، والبراهين الصادقة على هذا
الحب ، ومنها : الدمع المنسكب ، والقلب المتهيب .

وهل يستطيع المرء كتمان لوعة ينم عليها مدمع وزفسير

ولقد فصل الشاعر هذا البيت عن سابقه لأنه ذكره على سبيل التأكيد لما
سبق ، أو للاستئناف ليكون قاعدة عامة فى عالم المحبين .

(١) أحمد الحملاوى : هذا العرف فى فن الصرف ص ٦٠ طبعة شركة مكتبة ومطبعة
مصطفى البابى الحلبي بمصر الطبعة التاسعة عشرة سنة ١٩٧٢ .

(٢) ديوانه ص ١٩٠ .

(٣) الحب : المراد به المحبة وهى " ميل فى القلب يدفع إلى اتصال بين أجزاء النفوس
المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل غنيرها الرفيع " طوق الحمامة ص ٧ . منكمم : مستتر
منسجم : سائل من قول العرب : انسجم الماء . إذا سال . منطرم : مشتعل . من
قولهم (أيضا) : انطرمت النار ، إذا اشتعلت .

ولا يخفى أن قوله : (يحسب) يدل على الظن . وفي ذلك دلالة على أن المحب في حقيقة أمره يعلم أن سره مصروف ، وخفى أمره مكشوف ، ولكنه ينكر ذلك الحب ، بل يمعن في النكران ، متوهماً أنه يستطيع إخفائه ، مقنانياً أن الهوى غلاب .

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ويبدو أن الشاعر أراد أن يشير الانتباه فالتفت من الخطاب في البيت السابق إلى الغيبة هنا بقوله : (الصب) . وهذا هو سر الانتفات العام ، ولعل الشاعر أراد - إلى جانب ذلك - أن يشير من طرف خفي إلى أنه لا فائدة في إنكار الحب الذي لا تحت دلائله ، وظهرت براهينه ، وهذا ما يفهم من مدلول لفظة (الصب) ، إذ هو من (صب الماء) لأن المحب لما كان كثير البكاء فكانت عينه يصب الدمع ، أو من (الصباية) وهي رقة العشق وحرارته وهذا أقرب .

وحسب هذا البيت أنك إذا أمنت في النظر إليه وجدته قولاً صادقاً ، فسي شئون المحبة والهيام ، بحثته التجارب وصدقته الأيام ، مع إيجاز لفظه بالحذف في قوله : (منسجم ومنظوم) إذ هما في الأصل وصفان لموصوفين محدوفين والتقدير : (منسجم ، وقلب منسجم) كما حذف الجار والمجرور من الثاني لدلالة الأول عليه من ناحية ، ولضرورة الوزن من ناحية ثانية ، والأصل (منسجم منه) .

وفي البيت تأكيد بأن الجملة الاسمية ، تتطلبه مقام إيمان المخاطب في الإنكار ومع كل هذا . . لم يسلم الشاعر من الخطأ الصرفي في قوله : (منكم) ، لأنه كما قال بعض الكتاب (١) : لم يوجد في معاجم اللغة - المحتمدة (٢) - هذا اللفظ ، إذ لا يصح أن يصاغ من (كنتم) (انكم) على مهيل المطاوعة ، لأنه لا يدل على علاج كما ذكر ذلك الصرفيون (٣) والصواب : منكم ، وهو مساو (لمنكم) في الوزن إلا أن صاحب كتاب " أقرب الموارد " ذهب إلى أن (انكمم الشيء مطاوعكم) (٤)

(١) شرف الدين البوصيري (الشاعر المصري) ص ٤٤ .

(٢) انظر لسان العرب ج ١٥ ص ٤٠٩ ، وتاج الصروس ج ٩ ص ٣٨٠ .

(٣) هذا الصرف في فن الصرف ص ٤٤ . (٤) سعيد الخوري : أقرب الموارد في فصح

الغريبة والشوارد ج ٢ ص ١٠٦٦ مطبعة مرسلتي اليسوعية - بيروت سنة ١٨٨٩ .

ولكن لم يذكر دليلا على ذلك من كلام المرب .

ولا عجب إذا رأينا المخاطب ينكر حبه ، ويصر على إنكاره ، فهذا من سمات المحبين . ومن لوازم الحب ، يقول ابن حزم : " إن من صفات الحب الكتمان باللسان ، وجهود المحب إن سئل ، والتصنع بإظهار الصبر . . . " بل إن الكتمان أو الإنكار " من دلائل الوفاء وكرم الطبع " يدعوا إليه " تصاون المحب على أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس . أو إبتاء المحب على محبوبته . . . أو توقى الحب على نفسه من إظهار سره لجلالة قدر المحبوب (١) . . .

ومع كل هذا يواصل البوصيري الإتيان بالدلائل بعد الدليل على حب مخاطبه ، لكن يعترف بحبه ، ويهجو بسره ، فيقول له (٢) :

لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل ولا أرقى لذكر البان والعلم (٣)

نعم ، لولا حبك وفرامك ، وعشقك وهيامك ، ما سكبت كل هذه الدموع ، وحرمت جسمك لذة الهجوع ، ولمجرد رؤيتك هذه الأماكن ، ووقوفك على تلك المنازل . والبيت - كما ترى - مفصول عن سابقه : لأنه تأكيد له ، وقد جذب الشاعر الانتباه بالتفاتة من الشبهة - في البيت السابق - إلى الخطاب - هنا - كأنه أراد أن يواجه مخاطبه بهذا الأمر ، الواضح الأثر ، المؤكد بالدليل ، ولا شك أن الحديث المباشر ، أشد وقعا من غيره في النفس .

(١) طوق الحمامة ص ٣٩ .

(٢) ديوانه ص ١٩٠ .

(٣) الهوى : (بالقصر) مصدر : هوى (بفتح أوله وآخره مع كسر وسطه) ، إذا أحب . لم ترق : لم تسكب . طلل : ما بقي من آثار الديار مرتفعا . أرقى : سهرت . البان : شجر طيب الرائحة واحده (بانه) . الكلم : يطلق على معان كثيرة منها : الجبل والرمح والمراد بالبان والعلم هنا : موضحان بالحجاز . انظر معجم البلدان : ج ٢ ص ٥٢ . ج ٦ ص ١١٠ . وقيل : يحتمل أن الشاعر أراد بهما معنا التشبيهي أي تشبيه المحبوب بهما في طيب الرائحة وحسن الهيئة وطول القامة - انظر حاشية الباجوري على البودة ص : ٩ - ولكن الرأي الأول أرجح ، لمناسبة ذكره .

وإذا كان الشاعر - في الأبيات السابقة - قد ذكر من علامات الحب :
الدمع المنسكب ، والقلب الملتهب ، فإنه أكد ذلك أيضا في هذا البيت ، ثم
زاد علامة ثالثة هي : الأرق ، وقد سبقه إلى ذلك شعراء وكتاب كـسـيـرون
، فمن الشعراء : عمر بن أبي ربيعة ^(١) الذي يقول :

أرقت وام أملك لهذا الهوى ردا
وأورثني حبي وكمانه جهدا ^(٢)
كمت الهوى حستي براني وشفتني

وهزيت قلبا لا صبروا ولا جلدنا

ومن الكتاب : ابن حزم الذي يقول : " . . . والسهر من أعراض
المحبين ^(٣) . . . "

ولا يخفى ما في بيت البوصيري من موسيقى هادئة ، كان مصدرها
الجناسي الشبيه بالمشق ^(٤) بين قوله : (لم ترق وأرقت) ، بالإضافة إلى
التنوين في قوله : (دما) ، ويبدو أن الشاعر فكره إشارة إلى غزواته
، بينما نكر (طلالا) إشارة إلى قلعة شأنه ، ومع هذا الحوار الطريف ، وإقامة
الأدلة على حب المخاطب ، لم يعترف المخاطب بحبه ، وكيف يعترف ، والمتيم
بالهوى لضنين ، ويبدو أن ذلك الإنكار والتماذي فيه أثر في نفس الشاعر ،
وتستطيع أن تلمس هذا الأثر في قوله ^(٥) :

-
- (١) هو : أبو الخطاب عمر بن أبي ربيعة بن المغيرة القرشي شاعر مصر ، وتوفي سنة ٩٣ هـ
انظر وفيات الأعيان ج ٣ ص ١١١ . (٢) عمر بن أبي ربيعة : ديوانه بشرح محمد
المناني ص ١٥٢ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٠ هـ . (٣) طوق الحمامة ص ١٧ .
(٤) هو أن يجمع بين اللفظين ما يشبه الاشتقاق (التلخيص في علوم البلاغة ص ٣٩٢) .
(٥) ديوانه ص ١٩٠ ذكر بعض الكتاب بيتا بعد البيت السابق ونسبه إلى الشاعر وهو :
ولا أعارتك لوني عبرة وصنني ذكري الخيام وذكري ماكن الخيم
ويبدو أنه ليس من نظم الشاعر ، لأنه : غير مذكور في ديوانه المحقق كما أنه ضعيف
الصبارة ، بالإضافة إلى أن فكرته قد أشار إليها البوصيري في قوله : (وأثبت الوجد
. . . البيت) انظر حاشية الباجوري على البردة ص ٩٨ أعارتك : أعطتك على سبيل
العارة ، وهي ما يعطى ثم يُسترد . العبوة : (بفتح العين وسكون الباء) المراد
الدمج . الصنني : الضعف والمهزول .

فكيف تنكر حبا بعدما شهدت به عليك عدول الدمع والسقم (١)
وأثبت الوجد خطى عبرة وضنى مثل البهار على خديك وأنعمتم (٢)

إنك إذا أمّنت في النظر إلى عبارة الشاعر وجدت صدره قد ضاق ، وغيطه قد اشتد ، بتكرار إنكار مخاطبه ، بل بإيمانه في هذا الإنكار ، مع وجود الدلائل الظاهرة ، والبراهين الساطعة على حبه ، وما يؤكد حالة الشاعر النفسية هذه (الفاء) التي تسمى " فاء الفصيحة " لأنها تفصح عن كلام مقدر - والأصل : (إذا وجدت الدلائل الواضحة الدالة على حبه فكيف تنكر . .) ففى التعبير إيجاز بالحذف ناسب حالة الشاعر ، ويؤكد ذلك أيضا : هذا الاستفهام التمجى المشوب بالإنكار (فكيف) .

ولقد اختار الشاعر الفاظا موحية بالمراد مثل : (تنكر) وفى ذلك إشارة إلى أن المخاطب يعلم الحقيقة ، ولكنه يحاول إخفاءها ، ولعل فى تنكير لفظ (حبا) ما يشير إلى أن ذلك الحب قد عظم أمره ، وشاع خبره .

ولا يخفى أثر إسناد الشهادة إلى شهود عدول فذلك أمكن فى إثبات المراد لأن الشهود عدول فلا محل للظن فى شهادتهم ، وفى هذا الإسناد استعارة تصريحية تسمية ، أكدت المعنى وزادته وضوحا ، أضف إلى ذلك هذا الميزان العقلى فى إسناد الإثبات إلى الوجد ، وذلك من قبيل الإسناد السببى .

وتتأكد تلك الصورة التى رسمها الشاعر بهذا الوصف الرائع ، والتصوير البهيم ، إن شبه خطى العبرة بالعمم فى الحمة ، وأثر الصنى بالبهار فى الصفرة ، إلا أنه قد سبق فى هذا التشبيه ، إذ أشار إلى ذلك ابن حزم

(١) تنكر : عجز ، شهدت : أخبرت . عدول : (جمع عدل بمعنى عادل) والمراد هنا بالجمع المثنى ، لئلا ما بعده أو أن الجمع على بابهِ والمراد بالدمع الدموع ، وبالسقم : الأقسام .
(٢) الوجد : الحزن مطلقا أو بسبب الحب . خطى : مثنى خط . البهار : ورد أصفر اللون ، طيب الرائحة . الحنم : شجر له أغصان حمراء وقيل : ورد أحمر يشبهه به البنان المخضوب .

فسي قوله : " . . . ولا بد لكل محب صادق العودة ، ممنوع الوصول - إياهم -
وإما بهجر وإما بكتمان - من أن يؤول إلى حد السقام والضمي والتحول ، وربما
أضحى ذلك . . . (١) " ، كما أشار إلى ذلك أيضا عمر بن أبي ربيعة فسي
البيتين السابقين (٢) .

كان الشاعر موفقا في ألفاظه ، مشرقا في عبارته ، ساعده على ذلك تشبيهه
المنعوى بالمحسوس - ما وضع المعنى وقرره ، أضف إلى ذلك هذا اللون الوديحي
المسمى : اللف والنشر المشوش (٣) في قوله : (عبرة وصنني) ثم قوله بمسند
ذلك : (البهار والعنق) ، إن كل هذا جعل سؤال الشاعر موجها لمخاطبه في صورة
قوية مفحمة : كيف تنكر حبا قد شهد به عليك شاهدا عدل هما : دمك المنحدر
، وضفك المتشعر ، أليس كمثل ذلك دليلا على حبك وهيامك ، وعشقك وفراغك ؟

وأثبت ما يكون الأمر يوما بلا شك إذا وضع الدليل

ولذلك لم يجده المخاطب أمامه إلا الإقرار . . . قائلا (٤) :

نعم سرى طيف من أهوى فأرقصني

والحب يعترض اللذات بالألم (٥)

لقد غلب المخاطب على أمره ، فاعترف بحبه ، ولكنه يحاول أن لا يعترف بكل
شيء ، ولذلك أخفى اسم محبوه ، الذي عبر عنه باسم الموصول (من) وهذا التعبير
يشير إلى تعظيم المحبوب وإيهامه ، كما أن قوله : (فأرقصني) يسدل
على سرعة تأثر المخاطب بخيال ذلك المحبوب ، تلح ذلك في هذه الفاء التي تسدل
على الترتيب والتعقيب .

-
- (١) طوق الحمامة ص ١١١ (٢) انظر ص ٩٠ من هذه الرسالة .
(٣) هو ذكر متعدد على التفصيل والإجمال ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بشأن
السامع يرده إليه . وسى مشوشا ، لأنه النثر أتى على غير ترتيب باللف . (التلخيص
في علوم البلاغة ص ٣٦١ وما بعدها) .
(٤) ديران الهزصيري ص ١٩٠ .
(٥) سرى : السير بالليل . الطيف : خيال المحبوب . يعترض : يحول أو يدفع
اللذات : جمع لذة وهي ما يفتنح به ، والمراد هنا : ما كان فيه مسن النسيوم
وغيره .

وإذا كان الشاعر قد وفق في اختيار ألفاظ تناسب مقام أسف المخاطب وحزنه وضيق صدره ، فقد كان أكثر توفيقاً في هذه الحكمة الصادقة ، التي يُعرف قدرنا في عالم الحب والمحبين (والحب يمتدّص اللذات بالألم) بالإضافة إلى ما فيها من تشخيص وإيحاء يبين أثر الحب ونتيجته .

لوم واعتذار :

(١) ولما باح المخاطب بمكون سره ، واعترف بخفى أمره ، استشعر من يلومه فقال :

يا لائى فى الهوى العذرى ممسذرة
منى اليك ولو أنصفت لم تلمم (٢)

عدتلك حالى لاسرى بمستتر
عن الوشاة ، ولا دالى بمنحسم (٣)

يا من تلوننى على هذا الحب الحفيف ، والهوى الشريف ، اعذرتنى ولا تعذلىنى ، لأنك لم تدق طعم الهوى ، ولم تحس بألم الجوى ف :

دع عنك تعذلىسى وذق طعم الهوى
وإذا عشقت فبمد ذلكهنسف

وأرجو ألا تُبتلى بما ابتليت به ، من سر قد ظهر وفشا ، ودا ، قد وصل إلى الحشا .

لقد صدر الشاعر قوله بهذا " يشمر بالاستمطاف وقبول العذر (بالائى) كما يدل على

(١) ديوان البوصيرى ص ١٩٠ .

(٢) اللائم : الماقل . الهوى العذرى : الحب الشديد المفرط المقيم ، نسبة إلى بنى عذرة - بنى العيين - وهى قبيلة من رفة باليمن ، نزحت إلى بلاد الشام ، شمال شبه الجزيرة العربية ، عرف رجالها برقة القلب ، ونسائنا بفسرط المغاف ، ويؤدى بهم المشق إلى الموت ، لصدقهم فى حبهم العفيف ،

وأصبح الفزل العذرى - اصطلاحاً يطلق على كل شمر يصف عاطفة الحب الصادق ، وإن لم يكن أصحاب هذه العاطفة من (بنى عذرة) . انظر : الدكتور محمد غمى هلال : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ص ١٣ وما بعدها مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٠ . معذرة : مصدر عذرته إذا صفحت عنه وصحت إسمه ، وتطلق أيضاً على ما يدفع به الإنسان عن نفسه ما عيب عليه فعله .

(٣) عدتلك حالى : جاوزتك حالى فلم تُبتل بمثلها ، كما تقول لغيرك " لا أراك الله حالى " وعلى هذا فالجملة دعائية ، ويحتمل أن تكون الجملة خبرية ، والمراد : الإخبار بأن حالته قد جاوزته ولم يصب بمثلها ، كما يجوز أن يكون مهنى =

بعد ما بين الشاعر والمخاطب بالأول يلوم والثاني يعتذر ، ويرر حبه بأنسه
حسب عذري ، أي حب عفيف ، أو حُب قد استولى على القلب ، ومن شأنه أن
يقبل عذر صاحبه لإحاطته به إحاطة الظرف بالمظروف - وهذا ما يشيهر
إليه لفظ (في) - كما أن دخولها على (الهوى العذري) يجعل الوقوع
في الهوى ظرفاً للعلامة لأنه سببها ، فكانه محشها ، كما في قوله تعالى
" ولكن في القصاص حياة .. (١) "

إن المخاطب حزين ، وماله لا يحزن ، وقد حاول كتمان حبه ففشل ،
ولما اعترف به ، تعرض للوم ، فشاق عليه نفسه ، بذلك على هذا تسميته
للألمه بأن لا يرى ما هو فيه ممن أسى ولوعة ، ودا ، عقال لا يبرأ (عذتك
حالي ..) ، فالبيت الثاني مسبب عن البيت الأول ، ولذلك فصل عنه .

ولا يخفى ما في تكرار حرف النفي (لا) من تأكيد ، بالإضافة إلى زيادة (الباء)
أيضاً في قوله : (بمستر - بضمهم) ، وموسيقى البيتين موحية بحالة المخاطب
وساعد على ذلك اختيار لفظي (يلائي ، ولم تلم) إنفيهما لون بديهي يسمى
رد المعجز على الصدر (٢) ، كما أن في قوله : (العذري ومعدرة) جناساً شبيهاً
بالمشتق ونشأ عن تكرار حروفهما وقع موسيقى أضفى على التعبير لون الحزن ، وأكد
مفهوم قوله : (لا سرى بمستر ، ولا دائي بضمهم) إذا تألفت الكلمات وتمانقت
فأخرجت لنا صورة شعورية مؤثرة ، تدركها القلوب ، وتتأثر بها المشاعر

= (عذتك حالي) تعدت إليك أي وصلت إليك ، والمراد بالحال : ما عليه
الإنسان من خير أو شر ، انظر حاشية الهاجوري على البردة ص ١٧٠ السر
: ما يكتمه الشخص عن غيره ، الوشاة : (جمع واش) وهو الذي يشي الحديث
أي يزينه ويخرفه للإفساد بين المحبين ، وهو من آفات الحب كما ذكر ابن حزم
في كتابه طوق الحمامة ص ٥٨ . الداء : المرض . مضم : منقطع البقرة / ١٧٩
(٢) أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في آخر
البيت والآخر في صدر المصراع الأول أو آخره أو صدر الثاني (التلخيص
في علوم البلاغة ص ٣٩٣)

إرشاد وإعراض :

ولما كان اللوم في الحب معدودا من الحسد ، قال الشاعر لمخاطبه :
أنا لا ألومك ، ولكني أهدى إليك نصحي ، فرد عليه المخاطب قائلا : (١)

محضتني النصح لكن لسنتها أسامة

إن المحب عن العمدال في صمم (٢)
إني اتهمت نصيح الشيت في عدل

والشيت أبعد في نصح عن التهم (٣)

نعم : أخلصت لي نصحك . وأهديت إلي إرشادك ، ولكن - من عظم محبتى ، وشدة صوابتى - لن أسمع نصح ناصح (لكن لست أسمع) .

ولقد فصل بين الشطر الأول والشطر الثاني من البيت الأول لأن الشطر الثاني إجابة عن سؤال مقدر ، وأثاره الشطر الأول والأصل : إذا كنت قد اعترفت بخالص نصحي لك ، فلماذا لم تسمعه وتعمل به ؟ فكان الجواب : (إن المحب عن العمدال في صمم) . وفي هذا الجواب تلميح إلى قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - " جهك الشيء يعمى ويصم " (٤) كما أن فيه اعترافا صريحا بالحب ، ولا يخفى ما في قوله : (في صمم) من مخالفة ، لأنه لم يرد منه المعنى اللغوي وهو عدم السمع ، وإنما أراد أنه لا يصير عادله أدنى اهتمام ، أضف إلى ذلك أن التفسير (يفى) يدل على أن الصمم محيط بالمخاطب إحاطة الظرف بمظروفه ، وفي ذلك زيادة تأكيد للمعنى المراد ، ولفظ (محضتني) يشير إلى نزاعة الشاعر عن الإفساد ، كما أن لفظ (النصح) يدل على أنه أراد بالمخاطب خيرا ، لأن النصح لا يكون غالبا إلا فيما يفيد ، فالألفاظ مناسبة للمعنى ، ملائمة للفكرة .

(١) ديوانه ص ١٩٠ . (٢) محضتني النصح : أخلصته لي . العمدال : جمع

عادل (وهو اللأم في الحب . الصمم : ضعف في قوة السمع .

(٣) اتهمت : من التهمة وهي الحمل على غير المقصود ، وإضافة (نصيح) إلى (الشيب) للبيان ، أي نصيحا هو الشيب ، أو من إضافة الصفة للموصوف ، أي شيبانا صحا ، ونصحه يكون بلسان حاله القائل لصاحبه : استعد فقد أرف الرحيل ، لمقابلة الملك الجليل .

(٤) عبد الرحمن الشيباني : تمييز الطيبين الخبيثين يدور على السنة الناس من الحديث

ص ٦٥ مطبعة محمد علي صبيح بمصر سنة ١٩٦٣ .

ولقد أراد المخاطب أن يذكر دليلا آخر يبرر به عدم ساعه نصح الناصح
مهما كان خالفا عفتى بالبيت الثاني مؤكدا وبينما البيت الأول ولذلك فصله
عنه ، كما صوره . (بيان) زيادة في التأكيد قائلا : إني اتهمت كل ناصح حتى
الشيبي الذي هو أبعد النصح عن الشك والريبة ، لأنه كجزء متصل بجسد
الإنسان ، وينذر - غالبا - بقرب الأجل ، ويحذر من طول الأمل ، ومع ذلك
تصاديت في اتهامه ، إذ الحب سلطان جبار ، وسيف بتار .

وفي البيت أكثر من مؤكد ، وفي الإضافة إلى ما سبق ذكره ، تجد لفظ
(نصيح) صيغة مهالفة ، لا يخفى ما فيها من زيادة تأكيد ، كما أن إضافتها
إلى الشيب زاد الأمر بيانا ووضوحا - كما كرر لفظ الشيب واضحا المظهر موضع
المضمر إشارة إلى بيان خطره ، وعظم قدره .

ولقد ختم الشاعر هذا البيت بقوله صادق حكيم : " والشيب أبعد في نصح
عن التهم " - اتسم بوضوح معناه مع إيجاز لفظه ، إذ حذف منه المفضل عليه
والأصل (. . . أبعد في نصح عن التهم منك أو من أي ناصح آخر مهما كان شأنه)
وفي البيت من المحسنات البديعية رد الحجز على الصدر في قوله : (اتهمت -
التهم) ولا يخفى أثره في تأكيد المراد .

وهكذا استطاع البوصيري أن يصور لنا صورة حية لما يجري في عالم
المحبين من ظهور علامات حبهم ، ودلائل غوامضهم ، ولكنهم مع ذلك يحاولون
الإنكار ، ثم يعترفون - ببعض أمرهم - إذا انقطعت حيلتهم ، ووهنت عزيمتهم
، فيتعرضون للوم والعتاب ، والنصح والإرشاد ، ولكنهم يشكون في صدق ناصحهم ،
لأن الحب سلطانه عظيم ، وأثره كبير .
النفس الأمسارة :

بعد أن بدأ البوصيري قصيدته بالفزل ، انتقل انتقالا جميلا
من نفس سهولة ويسر ، وخفة ولفظ - إلى الحديث عن النفس⁽¹⁾ ، ولعل القارئ

(1) النفس : لفظ يطلق على معان كثيرة ، ولعل المراد به هنا : المعنى الجامع
للصفات المذمومة وهي القوى الحيوانية والمضادة للقوى العقلية : (أبو حامد الغزالي
: معارج القدس ، في مدارج معرفة النفس ص ١٠) وما بعدها ، مطبوعة
الاستقامة بمصر - غير مؤرخ .

يتساءل : وما العلاقة بين الفكرة الأولى - الغزل وشكوى الضرام ، ودلائل الحساب والهيام - وبين الفكرة الثانية - النفس وما يتصل بها - ؟ ولكن الأمر سهل ، والخطب يسير جدا ، إذ بين الفكرتين ارتباط وثيق ، واتصال عميق ، فهل الحب والهيام إلا خاطر من خواطر النفس ، وأثر من آثار الحس ، وهل الإنسان إلا بفكره وحسه ونفسه ، فإن سما بالجميع عن كل ما يشين ، ارتقى وارتفع ، وكرمت نفسه ، وتألأت شمس ، وإلا اضطرب أمره وانخفض شأنه ، ولذا قال الشاعر (١)

فإن أمارتي بالسوء ما اتعظت	من جهلها ينذير الشيب والهرم (٧)
ولا أعدت من الفعل الجميل قرى	ضيف ألم برأسي غير محتشم (٨)
لو كنت أعلم أنى ما أوقره	كتمت سرا بدالى منه بالكتم (٩)

يرسم لنا البوصيرى - فى هذه الأبيات - صورة ناطقة بالندم ، مليئة بالأسى ، بسبب نفسه الأمارة بالسوء التى لم تتعظ - من جهلها - بنذيرى الشيب والهرم ، اللذين يندران بقرب انتهاء الأجل - غالبا - ويظالمان بإحسان العمل ،

(١) ديوانه ص ١٩٠ .

(٢) أمارة : صفة لموصوف محذوف أى نفس ، وهى التى تزين لصاحبها المواقف . السوء : اسم جامع للمفاسد . اتعظ : مطاوع وعظ ، يقال : وعظته فاتعظ أى قبل النصيحة . نذير : إما بمعنى الإنذار ، فتكون الإضافة فى (نذير الشيب) من إضافة المصدر لفاعله ، وإما بمعنى النذر فتكون الإضافة من إضافة الصفة للموصوف ، أو من قبيل الإضافة الهميانية ، إلا إذا نظرنا إلى المشابهة بين النذير والشيب ، فتكون الإضافة من قبيل إضافة المشبه به للمشبه . الهرم : (بفتح الهاء والراء) ويجوز كسر الأول (رفع الثانى) : تناهى الشيب وما يصحبه من ضعف القوة وذهاب الفتوة .

(٣) أعدت : شيأت . الفعل الجميل : المراد العمل الصالح ، وهو بيان لقرى ، وقدم عليه للوزن . قرى : (بكسر القاف مع القصر) مصدر قرئت الضيف أى أحسنت إليه ، ويطلق على المصدر وهو الإطعام ، كما يطلق أيضا على الحاصل به وهو الطعام . ألم : (بفتح الهمزة واللام وتشديد الميم مع فتحها) حلى ونزل . وخصص الشيب بالمراسم مع أنه يظهر فى غيرها - كاللحية مثلا - لأنها أول ما يظهر فيها الشيب غالبا . غير محتشم : غير مستح .

(٤) أوقره : أحترمه وأعظمه ، والمراد بقوله : سرا : الشيب ، وسماه سرا ، لأنه قبل ظهوره يكون خفيا : الكتم : (بفتح الكاف والتاء) نبت يخلط بالحناء ، ويخضب به الشعر ، وقيل : نبت يخضب به الشعر كالحناء .

كما أن هذه النفس لم تراخ حق هذا الشيب وما يتطلبه من بعد عن الدنيا ساء
واقبال على الطاعات ، وصرح الشاعر بأنه لو علم - قبل حلول الشيب - أن نفسه
لن ترفى له حومة ، ولن تحفك له عهدًا ، لستر ما ظهر منه ، يخضب يخفيه
، وطلاء يستره ، حتى يكون بمنجاة من اللوم ، وبعد عن العتاب .

ولمك تلاحظ أن الشاعر أراد أن يربط بين البيت العابق - السدى
اتهم فيه نصيح الشيب - وبين هذا البيت - الذى يتحدث فيه عن نفسه الأمانة
- فأتى بالقاء الدالة على السببية ، فكأنه أراد أن يقول : اتهمت نصيح
الشيب لا لشيء إلا بسبب هذه النفس الأمانة .

ولما كان الحديث عن النفس الأمانة يتطلب التأكيد لشدة خطرهما أكده الشاعر
(بيان) وزاده تأكيدًا بوصف هذه النفس بصيغة المبالغة (أمانة) إشارة
إلى كسرة نزقاتها ، وتمدد حماقاتها ، وهارة الشاعر فيها إيجاز بالحذف ؟
إن حذف الموصوف وهو : (النفس) وذكر الصفة وهى : (الأمانة) ولمل ذلك
يبين أن الشاعر أراد أن يحقر نفسه ، ويضع قدرها ، فحرب صفحا عن ذكرها .

وإذا تأملت لفظ (أمانة) وجدته يقتضى أمرا وأمورا ، فمن الأمر ومن
المأمور ؟ قيل : الأمر النفس باعتبار تعلقها بالمخالفة ، واعتبار تعلقها
بالصواب تكون هى المأمور ، فهما مختلفان على هذا التفسير ، وربما كان الأمر
: النفس ، باعتبار أنها منج الأهواء ، والمأمور : العقل (١) ، والشاعر يلتمس
إلى قوله تعالى : : " إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ... " (٢) .

ولعل فى تعبیر الشاعر بلفظ (اتعمت) ما يشير إلى أنه حاول تهذيب
نفسه وزجرها ، إلا أنها زادت فى غيرها ، وتمادت فى عصيانها ، وقد أحسن
الشاعر عندما وضع علة هذا العصيان ، وسبب ذلك التمرد ، فقال : (من
جهلها) وكأنه أراد أن يوضح أن هذه النفس لم ترفض الوظ كثيرا ونسادا
، فيكون علاجها عسيرا ، وإنما رفضته جهلا وحمقا ، وربما قبلته بالتنليم
مثلا .

(١) حاشية الهاجورى على البردة ص ١٣ بتصرف .

(٢) يوسف / ٥٢

والملاحظ أن الشاعر لم يقل : (ينديرى الشيب والههم) ، وإنما قال :
(بنذير) ولعله عبر بذلك لأن الإضافة للجنس فيصدق النذير على التمسدد ،
أو لأنه حذف من الثاني لدلالة الأول عليه ، فيكون في الكلام إيجاز بالحذف
، والأصل : (بنذير الشيب ونذير الههم) ، وقد يكون الحذف لضرورة الوزن .
وفي عبارة الشاعر نكت لطيفة ٠٠ منها : اختياره (الشيب والههم) إشارة
إلى أنهما من أبلغ المواعظ وأقوى النصائح المحسوسة الملموسة ، فلا شيبك
في عظمها ، ولا ارتياب في إرشادهما ، كما أن في عطف الههم على الشيب
دفعاً لما يتوهم أن الشيب قد حل به وهو في كامل قوته ، ونضارة فتوته ، وربما
قيل : قدم الشيب على الههم من أجل القافية .

ولا يخفى تأثر الشاعر بالصوفية وعبادتها ، ولقد أشرت إلى أنه قد لزمهم
مدة من عمره (١) ، والصوفية يُحذرون - دائماً - من النفس وهواها ، كما أنهم
يقسمونها إلى : أمارة ، ولوامة ، وملهمة ، ومطمئنة ، وغير ذلك من الأقسام (٢)
ولعل في حديث الشاعر عن النفس رداً قوياً على من زعم أن الشاعر قد أخفق
في أن يكون متصوفاً (٣) ، وعلى من زعم - أيضاً - أن البردة خالية من التصوف (٤) .

ولقد وصل الهوصيري البيت الثاني بالبيت الأول ، لأنه استمر في الحديث
عن نفسه بكشف مساوئها ، وبيان عيوبها ، وإن كان البيت الأول قد اشتمل
على تلك الفكرة ، فيكون البيت الثاني من قبيل عطف الخاص على العام للتأكيد .

ويبدو أن الشاعر أحسن عندما أطلق على (الشيب) لفظ (ضيف) وذلك
على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، وقد رشح الشاعر تلك الاستعارة بقوله :
(قرى) كما ذكر قرينتها في لفظ : (ألم) ، ولعل الشاعر وصف الضيف بأنه
(فسير محتشم) لأنه حل بدون استئذان ، وهذا مخالف لما تعارف عليه الناس ،
أولاً ، أنه قد يستمر مدة طويلة مع صاحبه ، وشأن الضيف أن لا يقيم طويلاً

(١) انظر ص ٥٥ - هذه الرسالة .

(٢) معارج القدس ص ١٠ وما بعدها .

(٣) مقدمة الديوان ص ٢١ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص ٣٠ .

أولاً لأنه ينغمس على صاحبه حياته ، إذ هو كاللذئير يقرب انتهائها .
ومهما يكن من شيء ، فإن في هذه الاستعارة وفي ذلك الوصف ، تشخيصاً
موحياً بأثر الشيب ، وما يدعو إليه ، ويبدو أن الشاعر نظر إلى قول المتنبي (١) :

ضيف ألم برأسى غير محتشم

والسيف أحسن فعلاً منه باللمس (٢)

إذ شطر المتنبي الأول هو نفسه شطر البوصيري الثاني ، ولكن البوصيري
ذكر ما تناسب المقام من مثل قوله : (قرى) كما سبق .

وأخيراً - في البيت الثالث - يرسم الشاعر صورة لما يجيش في صدره
من حزن ، وما يحس به من ندم ، كان سببه هذا التفريط ، ولعل ما يشير
إلى ذلك هذا اللون البديع المسمى " رد المسجز على الصدر " في قوله :
(كمت - والكم) ففي حروف ذلك المحسن ما يشمر بالكآبة والحزن .

البحث عن صلح :

ولما أرجع الشاعر عصيان نفسه وحقاقتها إلى جهلها وطيشها ، لم يساس
من إصلاحها ، ولم يقف من علاجها ، فطلب من يهذب تلك النفس بقوله : (٣)

من لى برد جماح من غوايتها كما يرد جماح الخيل باللجم (٤)

يتمنى الشاعر - في هذا البيت - أن يجد من يتكفل له بإرجاع نفسه
إلى رشدها ، وإخراجها من ضلالها ، وكبح جماحها ، كما يكبح جماح الفرس
باللجام .

(١) هو : أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن الكوفي الكندي - توفي سنة

٢٥٤ هـ . انظر : الأعلام ج ١ ص ١١٠ .

(٢) ديوان المتنبي بشرح الدكتور عبد الوهاب عزام ص ٢٨ . مطبعة لجنة التأليف

والترجمة بمصر سنة ١٩٤٤ .

(٣) ديوانه ص ١٩٠ . (٤) من لى : من يتكفل لى . برد : بصرف

جماح : جمع جموح وهو من الخيل الشديدة التي لاتضبط لشدها وقوتها ، وعلى

هذا ففي عبارة الشاعر استعارة ويجوز أن يكون (جماح) مصدر جمع ، بمعنى

الشدة والقوة ، والتنوين عوض عن المضاف إليه والأصل : جماح نفسى ، وعلى هذا

فتكون عبارة الشاعر حقيقة لا مجاز فيها . غوايتها : (بفتح الغين) ضلالتها

والضمير راجع إلى النفس . اللجم : جمع لجام (مصرطكام) وقيل : عربي (انظر

المزهر ج ١ ص ١٦٨ وما بعدها) وهو ما يوضع في فم الفرس ليكون قائده قادراً - به

- على توجيهه .

وإذا تأملت هذا الاستفهام - الذى بدأ به الشاعر - وجدته يشير إلى الاستعطاف والتمنى ، وهذا يوحي بأن الشاعر صادق فى إصلاح نفسه ، ولكن من ذا الذى يقوم بهذه المهمة الشاقة ، التى لا قبل لأحد بها إلا لعاقل حكيم ، وهذا هو سر استفهامه (بمن) الدالة على العاقل .

ويبدو أن الشاعر يشير من طرف خفى وهو الذى تلقن تماثيل الصوفية إلى أن السلوك المستقيم لا يتم إلا على يد مجرب حكيم ، له خبرة بمشئون النفس وطرق علاجها . إذ تزكية النفس كعلاج البدن ، فكما لا يجوز للمريض استعمال الدواء إلا بإرشاد الطبيب الحاذق ، كذلك النفس لا تتم تزكيتها إلا على يد شيخ راضٍ نفسه - ولا شك فى أن رد النفس عن هواها أساس الإصلاح وعباد النجاح فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى " .. وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَيَٰنَ الْجُنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ .. " (١) ، وقال جلست قدرته : " .. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا .. " (٢) .

إن النفس تحتاج إلى جهاد كبير ، ولذلك أحسن الشاعر حينما وصفها بأنها جماع ، فهذا يدل على شدة بطشها ، ورعونتها التى تشبه جسم الفرس ، ويؤكد ذلك لفظ (اللجم) الذى يحمل معنى القسوة والشدة .

ولا يخفى أن فى العبارة تشبيها أكد الفكرة ووضحها ، أضف إلى ذلك تلك المحسنات البديعية التى أضفت عليها حسنا ، مثل التناسب^(٣) بين (الثيل واللجم) ، والجناس بين (يرد ، ويرد) وتكرار لفظ (جراح)

(١) النازعات ٤٠ / ٤١ .

(٢) الشمس : ١٠ ، ٩ .

(٣) هو : جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد ، (التلخيص فى علوم البلاغة ص ٢٥٤)

داء النفس ودواؤها :

يبدو أن الشاعر كان صادقاً عندما طلب من يصلح نفسه ويهذبها ، إذ لم يلبث إلا مدة قصيرة حتى سمح - على سبيل التجريد (١) - من يقول له نفس عبارة رائعة ، وحكمة بارعة (٢) :

فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها	إن الطعام يقوى شهوة النهيم (٣)
والنفس كالطفل إن نهمله شبلى	حب الرضاع وإن تظطه ينظم (٤)
فأصرف هواها وحاذر أن توليته	إن الهوى ما تولى يصم أو يصم (٤)

تضمنت هذه الأبيات بعض ما تعالج به النفس الأمانة بالسوء ، ومن ذلك :

أ - البعد عن المعاصي .

ب - ومخالفة الهوى - إلا أنك إذا قرأت تلك الأبيات تملكك العجب ، وأخسذك الدهش ، لما اشتملت عليه من علاج حاسم لداء النفس العضال ، وما يزيدك دهشاً صياغتها في هذا الأسلوب السهل ، والحكمة الرائعة .

تأمل هذه الفاء (فلا) التي تشير إلى كلام مقدر ، لم يرد الناصح ذكره ، إشارة إلى نكته لطيفة ، وهي الإسراع إلى تقديم الدواء قبل أن يستشري الداء ، والأصل : (إذا كنت تريد كبح جماح نفسك ، والبعد عن فيك فلا ترم .) .

أرأيت كيف تعانقت الأبيات السابقة بالأبيات اللاحقة ، وأخذ بعضها بزمام بعض مما يجاز في اللفظ كل ذلك عن طريق الفاء التي تسمى فاء الفصيحة .

وكان من الطبيعي أن يأتي الناصح بأسلوب النهي ، لأنه وجد نفسه في موقع الطبيب الذي يعالج مرضاه ، ومن حقه عليهم أن يأمرهم بكذا ، وينهاهم عن كذا ، عرضاً على ما ينفعهم .

(١) هو : أنواع والمراد هنا : أن ينتزع الشاعر من نفسه شخصاً آخر يخاطبه (التلخيص ص ٣٦٨ بتصرف) . (٢) ديوانه ص ١٩١ .

(٣) لا ترم : لا تقصد ولا تطلب ، كسر : المراد صرّف ، والضمير في (شهوتها) عائد على النفس في الأبيات السابقة . النهيم : (بفتح النون وتشديد هاء مع كسر الهاء) الجريص على الأكل والشرب ، وعلى كثرتهما .

(٤) اسرف هواها : رده . توليه : تعطيه الولاية والسلطان عليك . تولى : ملك وحكم ، يصم (بنم اليا ، بعدها صاد ساكنة) ، مضارع أصم بمعنى : قتل وهلك . يصم (بفتح اليا ، بعدها صاد مكسورة) مضارع وصم بمعنى : غابوشان .

وما زاد التمييز روعة تقديم (بالمعاصي) ولعل في ذلك ما يشير إلى التحذير من خطرها ، والتنبيه على عظيم ضررها ، والإشارة إلى الأخذ بغيرها وهو الطاعة .

وليتك تتأمل العنف والقوة في قوله : (كسر شهوتها) أفلا يدل ذلك على ما يجب أن يكابده الإنسان من مصاعب تجاه أهوا ، النفس وشهواتها ، والوقوف أمام نزواتها ، وأرى أن هذه العبارة تهدم ما شاع وذاع من أن الغاية تبرر الوسيلة ، إذ هي تنبه على أن الوسيلة يجب أن تكون مشروعة .

ولم يقف الناصح عند ذلك الأمر ، بل لقد لفت النظر إلى فكرة خاطئة ، ربما مال إليها بعض الناس وهي : التماهي في الشهوات ، والغلب من الملذات يجعل النفس تبعده عنها رويدا رويدا ، وتأنف من فعلها شيئا فشيئا ، ولكن هيهات هيهات ، إن من شب على شيء شاب عليه ، ومن ألف أمرا مال إليه ، وأصبح من العسير الإقلاع عنه ، وارتكاب المعاصي ، والإقبال على المفسد كالماء الملح ، كلما شربت منه ازدادت عطشا ، ولما كانت هذه الفكرة - تبدو غريبة عند بعض الناس ، وضحها الناصح بحكمة صادقة ، وقول حكيم ، وتجربة محسوسة (إن الطعام يقوى شهوة النهم) وهذا حق ، لأن حرص النهم على الأكل يزيده نهما على نهم وحرصا على حرص ، فكذلك من يقبل على المعاصي ، كلما فعل محصية فكر في أخرى من دون وازع أو رقيب ، فما أروع تلك الحكمة ، ومسا أصدق ذلك القول ، وحق على الناصح أن يؤكد ، بأكثر من مؤكده ، ولذلك أكد ، بأن أولا ، وبتكرار الإسناد الناشء عن تمبيره بالجملة الإسمية ثانيا ، ولا يخفى أن الشاعر قد فصل الشطر الثاني عن الشطر الأول لاختلاف جملتيهما خبرا وإنشاء .

ولما كان أمر النفس عظيما ، وخطرها جسيما ، لم يكف الشاعر بهيئتها الإيضاح ، بل أرفده ببيان أوضح ، وتشبيه أظهر ، فشبه المعنوي (النفس) بالمحسوس (الطفل) حتى تكون الصورة واضحة محسوسة ، وواقعة ملموسة ، فتأكد في النفس وترسخ في الذهن كما يقول عبد القاهر : " إن أنسى النفس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكثي ، وأن تردها نفس الشيء ، تعلمها إياه إلى شيء ، آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به نفس المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالإحساس والطبع ، لأن المعلم المستفاد من طرق الحواس ، أو المركز

فيها من جهة الطبع ، وعلى حد الضرورة ، ويفضل الاستفادة من جهة النظر
والفكر في القوة والاستحكام ، ولوغ الثقة فيه غاية التمام . . . (١) .

وإذا قيل (٢) : إن البوصيري ناظر في ذلك البيت إلى قول أبي ذؤيب
الهذلي (٣)

والنفس راغبة إذا رغمتها

وإذ ترد إلى قليل تقنع (٤)

فلا تضاعة على البوصيري ، إذ تصرف في الفكرة تصرفاً حسناً ، وأتسى
في بيته بما لم يأت به سابقه ، ويظهر ذلك في هذا التشبيه (المحسوس)
الذي زاد الأسر وضوحاً ، والتجربة بياناً ، وهذا التأثير - إن صح - لا عيب فيه
عند النقاد ، يقول ابن رهيوق (٥) . . . إن المتبسم إذا تناول معنى فأجسده
، بأن يختصره إن كان طويلاً ، أو يبسطه إن كان كزاً ، أو يبينه إن كان غامضاً ،
أو يختار له حسن الكلام إن كان سفاسفاً ، أو رقيق الوزن إن كان جانياً ، فهو
أولى به من مبتدعه . . . (٦) .

ولعل بيت البوصيري زاد على بيت سابقه وضوح الفكرة ، وبيانها ، وخاصة
أنه قيل في مقام الإرشاد والتوجيه ، وهذا المقام يحتاج إلى الإيضاح والبيان أكثر
من غيره .

ولقد قال بعض الكتاب : " إن في هذا البيت خطأ لغوياً ، في قول الشاعر
: (ينظم) إذ لم يرد هذا اللفظ في معاجم اللفظة (٧) . ولكن هذا القول
مردود على صاحبه إذ وجدت هذا اللفظ في بعض معاجم اللفظة الموثوق بها (٨) .

- (١) عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة بشرح الدكتور محمد عبد النعم خفاجي ج ١
ص ٢٣٤ دار الطباعة المحمدية بصرى سنة ١٩٧٢ .
- (٢) قطوف من ثمار الأدب في الجاهلية والإسلام ج ٢ ص ١٣٩ .
- (٣) هو : خويلد بن خالد بن محرث الهذلي ، شاعر فحل مخضرم ، توفي نحو سنة ٢٧ هـ
(الأعلام ج ٢ ص ٣٧٣) .
- (٤) ديوان الهذليين - ص ٢ الدار القومية للطباعة والنشر بصرى سنة ١٩٦٥ ، ويلاحظ
أن قول الشاعر (وإذا) يروى بالفاء في بعض الروايات .
- (٥) هو : أبو علي الحسن بن رشيقلقيرواني ، توفي سنة ٤٦٣ هـ (الأعلام ج ٢ ص ٢٥٤) .
- (٦) المعجم ج ٢ ص ٢٩٠ .
- (٧) شرف الدين البوصيري (الشاعر المصري) ص ٤٤ ، ص ٥٣ .
- (٨) انظر تاج الصروس : ج ٩ ص ١٣ ، الفيروز ابادي : القاموس المحيط ج ٤ ص ١٦١
المطبعة اليمنية بصرى سنة ١٣١٩ هـ .

ولما كان اتباع هوى النفس يؤدي إلى الضلال ، نبه الشاعر إلى عصيانه
ولعله تأثر في ذلك بالقرآن الكريم ، إذ نهى الله (سبحانه وتعالى) نبيه بلود
(عليه السلام) عن أن يتبع الهوى بقوله : " وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ .. (١) " . وبين عاقبة من يتبع هواه بقوله : " وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ
هَوَاهُ .. (٢) " .

ومن هنا حسن إرشاد الشاعر إلى هذا الأمر ، في إيجاز وصرح ببطل
أكد ذلك بقوله : (وحاذر) وهذا القول يتطلب من الإنسان الحذر الدائم ،
من هذا الأمر الخطير .

ولم يكن ، الشاعر بالتحذير من هوى النفس ، بل زاد الأمر تأكيدا ، فذيتل
الهيبت بحكمة صادقة ، تبين عاقبة اتباع الهوى التي لا تخرج عن أحد أمرين :
إما الفتك والهلاك ، وإما الميب والنقصان ، وأحلاها مر ، وصدق الشاعر نفس
قوله : (إن الهوى ما تولى يصم أو يصم) ، فما أحسن من يعصم نفسه من
هذين الأمرين ، وذلك بالبعد عن هواها .

ملاحظة النفس عند العمل الصالح :

وإذا كان الشاعر قد حذر من هوى النفس ، ونبه على البعد عن المخاصي
، كملاجين حاسمين لبعض عائلها ، فإنه أشار إلى دواء تلك ، وهو ملاحظة
النفس عند فعلها العمل الصالح ، مخشبة أن يشوبه رياء^(٣) يبطل ثوابه .. فيقول^(٤) :

(١) ص ٢٦ /

(٢) القصص / ٥٠

(٣) هو : إظهار العمل للناس ليبروه ويظنوا بفاعله خيرا .

(٤) ديوانه ص ١٩٢ .

وراعها وهى فى الأعمال سائمة

(١) وإن هسى استحلست المرعى فلا تسم

كم حسنت لذة للمرء قاتلة

(٢) من حيثلم يددر أن السم فى الدسم

إن العمل الصالح إذا لم يكن خالصاً لوجه الله فلا فائدة فيه ولا ثواب لصاحبه على فعله، لأن الله تعالى لا يقبل من الأعمال الصالحة إلا ما كان خالصاً لوجهه يقول تعالى " فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا " (٣) ويؤكد ذلك الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله: " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصفر، قالوا: وما الشرك الأصفر يا رسول الله؟ قال: الرياء. يقول الله يوم القيامة - إذا جزي الناس بأعمالهم - اذهبوا إلى الذين كنتم ترءون فى الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء " (٤).

ومن هنا أمر الشاعر بملاحظة النفس عند فعلها العمل الصالح، فخالطه رياء فلا تركها فى هذا العمل ولمدم الفائدة من فعله.

ولقد أحسن الشاعر فى قوله: (راعها وهى فى الأعمال سائمة... البيت) إذ لقى الضوء على حقيقة النفس بهذه الاستمارة التى تدل على أن النفس كالحيوان الذى يرى، فإذا لم يكن له راع يرشده ويذره، فلا بد من وقوع ما يعكس الصفو، ولعل الشاعر تأثر فى ذلك بقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته...) (٥).

إن فكرة الشاعر واضحة، ولقد ساعد على ذلك بعض المحسنات الهمجية التى أكسبت اللفظ وقعا موسيقيا منشؤه: رد المجز على الصدر فى قولـه: (سائمة وقسم) والتناسب بين (راعها، وسائمة، والمرعى).

-
- (١) راعها: أمر من راعى يراعى أى لاحظها. الأعمال: المراد بها الأعمال الصالحة السائمة: الحيوان الذى يرمى فى كالمباح. استحلست المرعى: وجدته حلوا. لا تسم: من أسام الماشية أى تركها ترمى: لا تحكها من الرعى.
 - (٢) كم: خبرية بمعنى كثيرا. السم (بتثنية السين): الشيء القاتل. الدسم: (بفتح الدال والسين): الودك من لحم وشحم.
 - (٣) الكهف / ١١٠ وانظر تفسير القرآن العظيم ج ٥ ص ٢٠٠.
 - (٤) مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٤٢٨.
 - (٥) صحيح البخارى ج ٢ ص ١٠٠.

ولقد أراد الشاعر أن يؤكد نصيحته السابقة ويقويها ، فقال : (كم حسنت
٠٠ الحبيت) . وإذا تأملت ذلك القول وجدته سهل العبارة ، واضح الفكرة ، فهو
يبين أن النفس كثيرا ما جلبت لصاحبها الهلاك ، وذلك عن طريق الإقبال
على اللذات القاتلة ، والشهوات المهلكة ، التي لم يشعر الإنسان بأثرها لإقباله
عليها ، إقبال النهم على طعام دسم ، قد دس فيه السم وهو لا يشعر ، فتكون
نهايته في ذلك الطعام .

وكذلك شأن من يقبل على الطاعات - التي هي بمثابة الطعام الدسم - ثم
لا يريد بها وجه الله ، وإنما يفعلها رياء - وهو بمثابة السم - فيفسدها
ذلك الرياء ويحيط ثوابها ، ويصبح صاحبها كبير السيئات - وهو يظن عكس
ذلك - فينج به في النار .

وإذا تأملت لفظ (كم) وجدته يدل على الكثرة ، وفي ذلك إشارة إلى
أن النفس تفعل ذلك الأمر الخبيث كثيرا - لأن هذا من طبيعتها - إذا لزم
يهذبها صاحبها .

ولعل ما يؤكد ذلك لفظ (حسنت) فإنه فعل مضغف يدل على التكرار (١)
، وفي إسناد التحسين إلى ضمير النفس ما يشعر بدورها الكبير في ذلك العمل .
ويبدو أن الشاعر فكر لفظ (لذة) إشارة أن اللذات لا تنتهي ، وكما
ظن الإنسان إشباع نفسه من لذة ، فإذا هو أمام لذة أخرى وهكذا كما يدل
تكرار ذلك اللفظ أيضا على حقارة تلك اللذات وخستها ، ومع ذلك وصفها الشاعر
بأنها : (قاتلة) وهذا يشير إلى نتيجتها المهلكة ، وعاقبتها الوخيمة ،
والإنسان في غفلة عنها (حيث لا يدري) أن حثفه فيما يجري وراءه ، - حسا ولا
الحصول عليه .

ولا يخفى أثر المجاز في قول الشاعر : (٠٠ أن السم في الدسم) إذ
في لفظ (السم) استعارة تصريحية ، وفي لفظ (الدسم) استعارة تصريحية
أيضا ، لأنه شبه الرياء بالسم ، وشبه الطاعة بالطعام الدسم ، وهاتان الاستعارتان
قد وضحتا المعنوي بالحسوس ، وجعلناه ملموسا أمام الإنسان ، فكان أوقع في النفس
، وأشد تأثيرا في القلب .

(١) هذا المعنى ص ٤٣ .

التحذير من الجوع والشبع المفرطين :

يستمر الشاعر في إهداء نصائحه التي تصلح النفس وتهذبها فيقول (١) :

واخش الدسائس من جوع ومن شبع

فرب مخصصة شر من التخيم (٢)

إنه يحذر من الجوع والشبع المفرطين ، لما لهما من أثر سيء في النفس ، وعلى العاقل أن يكون وسطاً في ذلك ، وصدق الله العظيم إذ يقول : "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" (٣) .

ولعلك تلاحظ لفظ (اخش) وما يدل عليه من إثارة الانتباه ، واليقظة التامة ، لأن الحذر لا يكون إلا من أمر خطير ، فهياً الشاعر العقل لتقبل ما يحذر منه وهو لفظ (الدسائس) الذي يشير إلى أن أثر الجوع والشبع المفرطين يكون شديداً ، يدل على ذلك صيغة الجمع من جهة ، وقوة اللفظ من جهة ثانية .

ويبدو أن الشاعر قدّم الجوع على الشبع ، لأن أثر الجوع يكون شديداً ، وربما أدى الجوع الشديد إلى ما لا تحمد عقباه . . . وليس معنى ذلك أنه لا حذر من الشبع ، لا . . . إن الشبع - وخاصة المفرط - ينشأ عنه الكسل عن العبادة والميل إلى الشهوات ، مما يؤدي إلى قسوة القلب ، ولذا عبر الشاعر بلفظ (رَبِّ) الدال على التقليل .

(١) ديوانه ص ١٩٦ .

(٢) أخش : من الخشية بمعنى الخوف والحذر أي احذر الدسائس : (جمع دسيصة) وهي الفتنة الخفية من الدساسة وهي الكيد والمكر الخفي المخصصة : شديدة الجوع . التخيم : جمع تخمة (بضم التاء وفتح الخاء والميم) : فساد الطعام في المعدة من شدة الامتلاء ، أو فساد المعدة بالطعام الكثير - وذهب بعض الكتاب إلى جواز أن يكون لفظ (مخصصة) كناية عن قلة العبادة ، ولفظ (التخيم) كناية عن كثرتها ، ولعل ذلك بعيد ، والرأي الأول أقرب ، لذكر لفظي (الجوع والشبع) قبل ذكر لفظي (مخصصة والتخم) . انظر : حاشية الباجوري على البردة ص ١٨ .

(٣) الأعراف / ٣١ .

وإذا تأملت قول الشاعر : (رب مخصصة شر من النخم) ، أدركت أنسه يؤكد أن كلا من شدة الجوع وشدة الشبع شر ، إلا أن شدة الجوع تكسبون أشد من شدة الشبع أثرا ، وهذا ما يدل عليه أفضل التفضيل وهو (شر) الذي يدل - بأصل وضعه - على اشتراك أمرين في صفة ، وزيادة أحدهما على الآخر في تلك الصفة (١) .

ولا يخفى ما في البيت من محسنات بديفية زادت المعنى قسوة ووضوحا ، مثل الطباق بين (جوع وشبع) ، وبين (مخصصة وتخم) .

التوبة :

بهدما حذر الشاعر من الجوع والشبع المفرطين - في البيت السابق - ذكر هنا علاج آخر للنفس ، وهو : التوبة ، إذ يقول (٢) :

واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت من المحارم والنم حمية الندم (٣)

يا من كثرت ذنوبك ، وعظمت خطاياك ، تب إلى ربك ، وارجع إلى مولاك .

يطلب الشاعر من مخاطبه أن يقلع عن المحاص بالتوبة الصادقة التي من أهم أركانها الندم ، " والندم " كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : توبة (٤) * ولمصل لفظ (استفرغ) يدل على ذلك إنه هو فعل أمر ، والأمر يدل على الطلب ، بل إنه قد صدر ببعض الحروف الدالة على الطلب أيضا ، وفي ذلك تأكيد ظاهر، وحث كبير على الأخذ بأسباب النجاة . والشاعر يلجأ باستفراغ الدمع إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) حينما سئل عن : النجاة ، فقال : " أمسك عليك لسانك ، وليسحك بيتك ، وابك على خطيئتك . (٥) "

(١) منار السالك إلى أوضح المسالك ج ٢ هامش ص ٥٩ .

(٢) ديوانه ص ١٩٢ .

(٣) المحارم : (جمع محرم) بمعنى حرام وهو ما لا يحل فعله ومنه قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) " اتق المحارم تكن أعبد الناس " انظر سنن الترمذي المعروف بالجامع الصحيح بشرح عبد الرحمن عثمان - ج ٣ ص ٣٧٧ ، مطبعة الفجالة الجديدة بمصر سنة ١٩٦٧ . الحمية : (بكسر الحاء وسكون الميم) ما يحض ما يضر .

(٤) مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٣٧٦ .

(٥) سنن الترمذي ج ٤ ص ٣١ .

ويبدو أن الشاعر نكر لفظ (عين) تحقيرا لها ، لعدم مراعاتها أمر ربها ،
ويؤكد ذلك أنه وصفها بأنها (قد امتلأت من المحارم) وفي إسناد الامتلاء
إليها مجاز مرسل علاقته الجزئية ، إذ المقصود الإنسان ، ولكنه خص المسيئين
بالذكر لأنها مفتاح الخير إذا وجهت إليه ، يدل على ذلك قول الرسول (صلى
الله عليه وسلم) : عيان لانصهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت
تحرس في سبيل الله ^(١) كما أنها - العين - باب الشر إذا تطلعت إليه ،
ولذلك أمر الله بخضها في قوله تعالى : " قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَخُضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ..
الآية (٧) " .

وأراد الشاعر أن يؤكد قيمة التوبة فقال : (والزم حمية الندم) . أي السزم
التوبة التي تحميك من عذاب الله ، بل إنها تقربك من الله ، وتجعلك أهلا
لرحمة الله ، يقول تعالى : " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ^(٢) " وقبول
الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " لله أفرح بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته
إذا وجدناه ^(٣) " .

عصيان النفس والشيطان :

بعدما حث الشاعر على التوبة و ملازمتها ، لأنها تقرب الإنسان من ربه ،
أكد الحذر من النفس والشيطان ، مبينا بعض طرق خداعهما فقال ^(٤) :
وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فانهم ^(٥)
ولا تطع منهما خصما ولا حكما فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
ولا تطع هوى نفسك ، ولا تتبع خطوات الشيطان ، لأنهما - مهما أظهرا
لك النصح - لا يريدان بك إلا شرا ، ولا يرجوان لك إلا هلاكا .

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ٩٦ .

(٢) النور : ٣٠ .

(٣) البقرة : ٢٢٢ .

(٤) سنن الترمذي ج ٥ ص ٢٠٢ مع ملاحظة أن للحديث عدة روايات . (٥) ديوانه ص ١٩٢ .

(٦) الشيطان : كل عات متعمد من الجن والإنس والدواب ولعل المراد هنا (إبليس
لعنه الله) - وهو من (شطن) إذا بعد ، لبعده عن الخير والرحمة فوزسه
(نكحال) ، أو من (شاط) إذا بطل أو احترق ، فوززه (فقلان) . انظر
المصباح النير ج ١ ص ٤٢٦ مادة (شطن) .

تأمل كيف بدأ الشاعر نصحه بقوله : (وخالف) إنه فعل أمر يحمل دلالة
كسيرة منها : الإكثار من مخالفة النفس والشيطان بل المداومة على تلك المخالفة
، لأنك إن عصيتهما في جولة ، تربصا بك في جولات .

ولقد بدأ الشاعر أمره بالحث على مخالفة النفس ، ولعل في ذلك إشارة
إلى شدة مكرها ، وعظيم خطرهما ، يؤكد ذلك قوله تعالى : " إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ
بِالسُّوءِ . . . (١) " ، كما أن الشيطان يستعين بهما في نسج خيوطه ، ونصب
شباكه ، لأنها عدو داخلي ، وتظهر أحيانا في صورة صديق ، والإنسان - غالبا
- لا يتوقع الأذى من الصديق ، ولكن عندما يأتي الأذى من جهته ، يكون
أثره كبيرا ، وخطره عظيما ، وليس معنى ذلك قلة ضرر الشيطان . لا . . . إنه
كما قال تعالى : " إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢) " بل إنه أقسم على
الفساد والإفساد ، ألم يقل لربك جل جلاله : " . . . لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ
الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَأَنْتِهَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ
وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (٣) . . . " .

ولم يكف الشاعر بالحث على مخالفة النفس والشيطان بل أمر بعصيانهما
أيضا ، ولعل ذلك من قبيل عطف الخاص على العام ، أو من قبيل العطف
بالمرادف للتأكيد على مخالفة هذين العدووين ، بل إن الشاعر لبأمر بما هو
أكثر من المخالفة والعصيان ، تأمل قوله : (فاتهم) ألا تجده عصيانا وزيادة ؟

لقد أمر الشاعر بمخالفة النفس والشيطان وعصيانهما ، بل اتهمهما - في
البيت الأول - ثم أكد ذلك كله - في البيت الثاني - ولكن بطريق آخر غير
الأمر ، إنه طريق النهي ولا شك في أن النهي يحظى - دائما - باهتمام
الإنسان ، ويجعله - غالبا - في حذر من المنهي عنه ، وبخاصة إذا كان من
ناصح أمين .

(١) يوسف / ٥٢
(٢) المرجع السابق / ٥
(٣) الأعراف / ١٦ ، ١٧٤ .

وإذا تأملت قول الشاعر : (ولا تطع منهما خصما ولا حكما) وجدته ينهى عن طاعتها في كل أحوالهما ، ولا يفرونك ارتداءً أحدهما ثوب المدل ، ووقف الآخسر منك موقف الخصم ، فلا يفيب عن ذهن الأريب (كيد الخصم والحكم) إذا كان منهما .

إن هذين البيتين قولٌ حكيمٍ مجرب ، عنده خبرة بحيل النفس ، ولديسه دراية بدروب الشيطان ، أضف إلى ذلك أنه قد وفق في صياغتهما في أسلوب سهل ، وألفاظ تناسب المقام مثل : (خالف ، اعصهما ، اتهم ، ولا تطسبع ، كيد الخصم والحكم) .

ومع ما انتهى الشاعر من نصائحه التي أهداها إلى مخاطبه لكي يصلح بها نفسه ، وجد نفسه هو لم تعمل بها ، فخاف أن يدخل مع الذين خاطبهم الله تعالى بقوله (..كَبْرًا مَّقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ (١)) فرجع عن التجريد - وقال (٢) :

أستغفر الله من قول بلا عمل	لقد نسبت به نسلا لذي عقم (٣)
أمرتك الخير لكي ما ائتمرت به	وما استقمت فما قولى لك استقم
ولا تزودت قبل الموت نافلة	ولم أصل سوى فرض ولم أصم

لقد اعترف الشاعر بذنبه ، وطلب العفو من ربه ، إذ كيف يأمر غيره بأمر لم تأتمر به نفسه ، وكيف يحظ سواء بموعظة لم يتحظ هو بها ، إن فاقد الشيء لا يعطيه .

ولا شك في أن عبارة الشاعر مائة للفكرة التي يتحدث عنها ، قبدأ بالاستغفار (أستغفر الله) لأن الرجوع إلى الحق خير من التمادى في الباطل ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه ، ولعلك تتأمل نكتة الرجوع عن التجريد ، فلعل الشاعر رأى أن في الحديث بضمير المتكلم أشد اعترافا ، وأعظم بيانا لخطأ نفسه ، حتى لا يدخلها الفرور .

(١) الصف / ٣ . (٢) ديوانه ص ١٩٢ . (٣) نسبت : عزوت . نسلا : ذرية . عقم : (يضم الميم والقاف) : أى المقيم : وهو الذى لا يولد له .

وأحسن الشاعر عندما ذكر أن من لم يعمل بقوله، لن يعيره أحد أذنا واعية،
مثل من ينسب الولد إلى عقيم، أترى أحدا يصدق أو يهتهم بكلامه .

ويبدو أن الشاعر أحب أن يفصل ما أجمله في البيت الأول، فقال في
البيت الثاني : (أمرتك الخير) - ويلاحظ أن الشاعر حذف حرف الجر والأصل
(أمرتك بالخير) - وأتى به مفصلاً عن سابقه لأنه بيان وتأكيد له، وكان من
الطبعي أن من يأمر بالخير يكون قد اعتزم به أولاً، وهذا ما يسبق إلى الذهن
، ولما كان الأمر بخلافه، استدرك الشاعر بقوله : (لكن ما اعتصمت به) ولمل
الشاعر يلح بذلك إلى قوله تعالى : " أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ (١) ..
الآية " .

ولقد زاد الأمر تأكيداً بقوله : (وما استقمتم فما قولي لك استقم) ولعله
خص الاستقامة بالذكر، لأنها أمر جامع لكل أبواب الفلاح والنجاح، ويؤكد ذلك
أن الله قد أمر نبيه محمداً (صلى الله عليه وسلم) بها في قوله تعالى : " فَاسْتَقِمْ
كَمَا أُمِرْتَ .. (٢) .. الآية " .

وواضح أن هذا الاستفهام الذي اشتملت عليه العبارة يفيد التوبيخ والإنكار،
ولعل الشاعر قد نظر إلى قول أبي الأسود الدؤلي : (٣)

يأيها الرجل المعلم غسيره هلاً لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى
كيساً يصح به وأنت سقيم
أبدأ بنفسك فأنهها عن غيرها
لا ته عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم (٤)

(١) البقرة : ٤٤ (٢) هود / ١١٢

(٣) هو : ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي توفي سنة ٦٩ هـ . (الأعلام ج٣ ص ٣٤)

(٤) ديوانه : بتحقيق وشرح عبد الكريم الدجيلي ص ٢٣٣ . مطبعة شركة النشر
والطباعة العراقية ببغداد سنة ١٩٥٤ .

ويبدو أسف الشاعر وحزنه في البيت الثالث ، لأنه لم يتزود قبل موته
بالنوافل التي تقربه من ربه ، وتجعله أهلاً لحبه ورضاه ، وإنما اكتفى بأداء
الفرض من الصلاة والصيام ، ولعله اقتصر عليهما دون الزكاة لأنه كان فقيراً ، مع
الملم بأنه أدى فريضة الحج ، ويبدو أنه سكت عن ذكره لعدم استطاعته الحج
مرة ثانية ولعله يلح بذلك إلى الحديث القدسي : " وما يزال عبدي يتقرب إلي
بالنوافل حتى أحبه ... (١) " .

ولا يخفى أن الأبيات قد اشتملت على بعض المحسنات اليديمية الستى
ساعدت على زيادة موسيقاها روعةً وجمالاً ، مثل : المناسبة بين (نسبت ،
نسلاً - عقم) وبين (نافلة ، لم أصل ، لم أصم) ، والطباق بين (نافلة ،
وفرض) .

مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

ويحد ما أعلن الشاعر أسفه وأظهر ندمه ، لاقتصاره على أداء الفرائض ، وتركه
النوافل ، عرج على مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلاً (٢) :

ظلمت سنة من أحياء الظلام إلى	أن اشتكت قدماه الضرمين ورم (٣)
وشد من سفبأحشاءه وطوى	تحت الحجارة كشحا مترف الأدم (٤)
وراودته الجبال الشم من ذهب	عن نفسه فأراها أيما شمس (٥)

يمدح الشاعر الرسول (صلى الله عليه وسلم) في هذه الأبيات بقيامه الليل ، وصيامه
النهار وزهده في هذه للحياة ، وإشاراً لما يبقى على ما يقنى .

(١) صحيح البخارى ج ٨ ص ١٣١ .

(٢) ديوانه ص ١٩٢ . (٣) ظلمت : من الظلم وهو وضع الشيء في غير
موضعه . السنة : (بتشديد السين مع ضمها) فى اللغة الطريقة والبراد هنا
ما نسب إلى الرسول قولاً أو فعلاً أو تقريراً دون وجوب

(٤) شد : عصبيريط . السفب : الجوع أو شدته : وهو الراجح . الأحشاء : (جمع
حشا) وهو : ما انضمت عليه النلوع ، وقيل : الأمعاء . طوى : ثنى . الكشح : ما
- بين الخاصرة إلى الضلع . مترف : من الترف وهو النخومة المفرطة والمراد
اللين . الأدم : (جمع أديم) وهو الجلد .

(٥) راودته : من الراودة وهى المطالبة ، والمراد دعته إلى نفسها بإغراء . الشم :
المراد : العزة .

ولعل الصلة وثيقة بين الأبيات السابقة وتلك الأبيات ، إذ في الأبيات السابقة ندم الشاعر على تركه النوافل ، وهنا يبين أنه ظلم نفسه لتفريطه في تلك النوافل فحرم ثوابها الكبير ، وأجرها العظيم .

وإذا تأملت قوله : (ظلمت سنة ٠٠٠) وجدته نسب الظلم إلى نفسه وأوقعه على السنة ، وفي هذا التعبير مجاز ، إذ عبر الشاعر بالمعزوم وأراد اللازم وهو الترك ، ولا يخفى ما في ذلك الإسناد من نكت لطيفة منها : اعتراف الشاعر بجرمه الذي ارتكبه ، وتقريع نفسه وتوبيخها ، لعدم اقتدائها بالرسول (صلى الله عليه وسلم) في الإكثار من النوافل التي واظب عليها مع أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

والملاحظ أن الشاعر لم يصحح باسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بل عبر باسم الموصول (من) ولعل في ذلك إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ في تلك الصفة - إحياء الظالم - حدا لا يشاركه فيه أحد ، فلا لیس ولا إبهام ، بالإضافة إلى ما في ذلك التعبير من إثارة للحس ، وتشويق للنفس .

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (أحيأ الظالم) تعبيراً مجازياً - استعارة تصريحية تسمية في (أحيأ) أو مكية في (الظالم) - عن قيام الليل ، وهذا التعبير يشير إلى أثر الصلاة بعامة ، وقيام الليل بخاصة ، إذ المراد (أنوار الليل) ، وهذا ما يؤكد قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - " .. والصلاة نور .. " (١) .

ويدو أن الشاعر أراد بقوله : (الظالم) الليل المظلم ، وفي ذلك إشارة إلى ما يكابده الإنسان من مشقة وجهاد عند قيامه الليل ، كما أن الفأية نفسى قوله (إلى أن ٠٠٠) ليست على بابها ، أضف إلى ذلك أن في قوله : (اشتكت قدماء النمر من روم) كناية لطيفة تشير إلى طول قيام الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعرضه على فعل ما يزيد قرباً من الله وحبا لله ، كما أشار إلى ذلك الحديث القدسي : " وما يزال عدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه .. " (٢) ، ولا شك نفسى أن قيام الليل من أفضل القربات ، ولذلك أمر الله به رسوله (صلى الله عليه وسلم)

(١) سنن الترمذى ج ٥ ص ١٩٧ .

(٢) صحيح البخارى ج ٨ ص ١٣١ .

في قوله تعالى : " وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَجَدَ بِهٖ نَافِلَةً لِّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا " (١) كما حث عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) في كثير من الأحاديث (٢) .

وهذا البيت يلح إلى ما روى من أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قسام الليل حتى تورمت قدماه ، فقيّل له : " لم تصنع هذا ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا (٣) " .

هذا عن قيامه (صلى الله عليه وسلم) - أما عن صيامه (صلى الله عليه وسلم) وتحمله الجوع ، فقد أشار إليه الشاعر إشارة لطيفة ، بكناية ظريفة ، في البيت الثاني وهو في هذا البيت يرسم لنا صورة دقيقة لأشرف إنسان ، وأكرم مخلوق ، إنه يشد على بطنه حجرا من شدة الجوع ، ولكن الشاعر اختار ألفاظا ناسيت الفكرة ووضحتها ، فهو مثلا قال : (من سغب) ولم يقل من جوع ، إذ السغب أشد من الجوع ، أضف إلى ذلك أنه عبر بالجمع فقال : (تحته الحجارة) ولم يعبر بالمفرد وذلك لتأكيد شدة الجوع .

ولو تأملت ذلك كله لظننت أن صاحب هذا الجهاد بلغ جلده مهلحا كهيرا في السوء ، ولكن الشاعر اللبيب يحترس عن ذلك بقوله : (مترف الأدم) فيزول كل ما علق بالأفهام ، ويؤكد حفظ الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) من كل سوء .

ولعل الشاعر يلح في ذلك البيت إلى الحديث الشريف : " عن جابر (رضي الله عنه) قال : إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدبية شديدة ، نجأوا والنسي (صلى الله عليه وسلم) فقالوا : هذه كدبية عرضت في الخندق ، فقال : أنا نازل ثم قام ومطنه معصوب بحجر ... فأخذ النبي (صلى الله عليه وسلم) المعول فضرب فساد كتيبا أعيل ... (٤) " .

(١) الإسراء : ٥٦ .

(٢) انظر : سنن الترمذي ج ٥ ص ٢١٢ وما بعدها - صحيح البخاري ج ٢ ص ٦٠ وما بعدها .

(٣) صحيح البخاري ج ٦ ص ١٦٩ .

(٤) الكدبية : هي الصخرة الشديدة .

(٥) صحيح البخاري ج ٥ ص ٣٣٨ .

وأحسن الشاعر حينما أشار إلى أن هذا الصيام أو هذا الجوع كان الدافع إليه زهده (صلى الله عليه وسلم) في متاع هذه الحياة الدنيا ، وليكون قدوة طيبة لأمته تنهج نهجه ، وتقو أثره ، ولعل مما يؤكد ذلك قول البوصيري : (رواودته الجبال الشم من ذهب .) رأيت عظيمًا تراوده الجبال أن تكون له ذهبًا فياهى زهدًا مثل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ؟

تأمل لفظ (رواودته) تجده يوحى بالإغراء الشديد ، ويؤكد ذلك لفظ (الجبال) بصيغة الجمع ، وليست جبلًا واحدًا ، وزاد التأكيد أنها (شم) فهي ضخمة فخمة وليست من رمال بل (من ذهب) ومع كل هذه الأمور التي تجعل الإنسان لا يريد لها عرضًا ، ولا يرفض لها طلبًا ، أباهها الرسول - صلى الله عليه وسلم - إباءً سريعًا دون تردد ، يدل على ذلك هذه الفاء التي تبدل على الترتيب والتعقيب ، (فأراها أيما شميم) وكيف لا يأساها وهو الذي علمنا أن " الفنى ليس عن كثرة العرض ولكن الفنى غنى النفس . " (١)

صلح لى أن الشاعر يشير بحديثه عن مراودة الجبال . . إلى أحد عاملين من أهم عوامل الإغراء في هذه الحياة ، وهو المال ، أما العامل الثانى : فهو النساء ، وقد أشار إليه القرآن الكريم ممثلًا في قصة امرأة العزيز مع نبي الله يوسف (عليه السلام) حيث قال الله تعالى : " رواودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك قال : معاذ الله . . الآية " (٢) .

ولعلك تعجب من أن المراودة في الأمرين (المال والنساء) قد انتهت بالرفض القاطع ، ما يشير إلى عظمة رسل الله الذين اصطفاهم الله واجتباهم .

وإن تعجب فمجب أمر هذا الكاتب الذى قال : " أما حديثه - البوصيري - عن الجبال التي عرضت على رسول الله أن تكون له ذهبًا ، فإنه مسن بالغات المتصوفة ، وليس له سند من التاريخ الصحيح ، ولا ذكر لهذا نفس سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى ، على أن زهد الرسول (صلى الله عليه وسلم)

(١) صحيح البخارى ج ٨ ص ١١٨ بتصريف .

(٢) يوسف : ٢٣ .

أجل من أن يؤكده بحثل هذا الإغراق (١) مع أن القصة قد وردت في حديث
تهوى شريف ولفظه : .. أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " عرض
علّي ريس لي جعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يارب ، ولكن أشبع يوساسا
و أجمع يوماً . أو قال ثلاثاً - أو نحو هذا - فإذا جمعت تضرعت إليك وذكرتك ،
وإذا شبعت شكرتك وحمدتك (٢) ."

وأراد الشاعر أن يؤكده زهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال (٣) :

وأكدت زهده فيها ضرورته إن الضرورة لا تعدو على المحصم (٤)
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

إن ما يؤكده زهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) رفضه أن تكون جبال مكة
له - ذهباً مع أن قلة ماله ، كانت مهراً لقبول ذلك العرض ، وهذا ما تشيّر
إليه كلمة (ضرورته) إذ من المعلوم أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن
يملك من حطام الدنيا إلا اليسير ، فلقد روى أن السيدة عائشة (رضی الله عنها)
قللت : " كان فراش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من آدم وحصىه من ليف (٥) ،
وقالت : ما أكل آل محمد (صلى الله عليه وسلم) أكلتين في يوم إلا إحداهما تفر (٦)
" ومع كل هذا رفض ما عرض عليه من جعل الجبال له ذهباً !!

لقد أحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عيشة الزهد والكفاف ليقبض
به أصحابه ، ولتتخذ أمته ذلك نهراً سائلاً لها ، فتملك الدنيا في أيديها لا نفس
قلوبها ، حتى لا تفتنهم كما فتنت من قبلهم ، يؤكده ذلك الرسول (صلى الله
عليه وسلم) بقوله : " والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط

(١) الإسلام في شعر شوقي ص ٦٥ .

(٢) سنن الترمذي ج ٤ ص ٦ " وقال عنه الترمذي : حديث حسن ."

(٣) ديوانه ص ١٩٢ .

(٤) الضرورة : المراد : الحاجة . المحصم : (جمع عشمه) وهو في الأصل : ملكة تمنع

صاحبها من فعل ما يلام عليه ، والمراد هنا حفظ الله رسوله من فعل ذلك .

(٥) صحيح البخاري ج ٨ ص ١٢١ .

(٦) المرجع السابق .

عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنا فسوها كما تنافسوها ساء
وتلهيكم كما ألهمهم (١) .

أما قوله تعالى : " وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٢) " فقيل : إن المعنى " كنت
ذا عيال فأغناك الله عن سواءه ، فجمع لك بين مقامى الفقير الصابر ، والفقير
الشاكِر (٣) .

ولما كان فى عبارة الشاعر ما يشير العجيب ، إذ من المعلوم أن الضرورات تبيح
المحظورات ، أما هنا فإن الضرورة أكدت زهد الرسول (صلى الله عليه وسلم)
لما كان ذلك مثار عجب أكده الشاعر بقوله : (إن الضرورة لا تمدو على المعصم)
، أى إذا دفعت الضرورة الإنسان العادى إلى فعل محظور ، فليس لها أن
تستولى على أصحاب المعصمة (عليهم الصلاة والسلام) وتدفعهم إلى مثل ذلك
، لأن الله اصطفاهم واجتباهم .

وإذا كان هذا التحليل - (إن الضرورة) - قد شمل جميع الأنبياء ، فلقد
أراد الشاعر أن يخص الرسول (صلى الله عليه وسلم) بشئ آخر ، فأشار إلى أن
الضرورة لا تستطيع أن تدفع الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى حب الدنيا
والانخداع بمظاهرها وبهاجتها ، وكيف يتأتى لها ذلك وهو - (الدنيا) - مدينة
فى خلقها للرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ كان سببا فى خلقها وفى خلق غيرها .

ويبدو أن الشاعر يلجأ بذلك إلى بعض الأحاديث التى لا يعلم سوى
صحتها إلا الله - إذ اختلف فيها العلماء (٤) - ومن هذه الأحاديث :
" أوحى الله إلى عيسى (عليه السلام) : آمن بمحمد ومز أمك
بأن يؤمنوا به ، فلولا محمد ما خلقت آدم ولا الجنة ولا النار . (٥) "

(١) المرجع السابق ج ٨ ص ١١٢ .

(٢) النسخ / ٨ . (٣) تفسير القرآن العظيم ج ٨ ص ٤٤٨ .

(٤) انظر : أمين محمود خطاب ، الاتحافات الإلهية ببيان المقامات الطلية هامش
ص ٣٥٥ طبع سنة ١٢٧٣ هـ (لم يدون عليه اسم المطبعة) .

(٥) شرح الزرقانى المالكن على المواهب اللدنية ج ١ ص ٤٤ وما بعده
المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٢٢٥ هـ .

ولا يخفى ما فى قول الشاعر من إطناب مناسب مقام المدح ، إذ أتى بذكر
الخاص - (الثقيلين) - بعد العام - (الكونين) - ، كما أتى بتوشيح (١) فى قوله : (من
عرب ومن عجم) بعد قوله : (والفريقين) وكل هذا يؤكد المعنى ويقرره فى النفس .
ثم يؤكد الشاعر فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعلو منزلته فيقول (٢) :

هو الحبيب الذى تُرجى شفاعته

لكل هوى من الأحوال مقتحم (٣)

دعا إلى الله فالمستمكون به

مستمكون بحبل غير منقسم (٤)

إنه الحبيب الذى تقبل شفاعته يوم الدين ، " يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ (٥) " ولقد دعا إلى الإيمان بالله والعمل بما فى كتاب الله ،
والاستمسك به ، فمن استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى التى لا تنضم عراها .

وإذا تأملت قول الشاعر : (هو الحبيب) وجدته أسلوب قصر وطريقه تعريف
الطرفين ، فعلام يدل ذلك التعبير ؟ إنه يدل على أنه هو الحبيب انسدى
لا حبيب سواه ، فهو أولى بالحب دون غيره ، أليس هو القائل : " لا يؤمن أحدكم
حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين (٦) " .

وكيف لا يكون كذلك وهو صاحب الشفاعة يوم القيامة يوم يقول كل نبي " نفسى
نفسى " ويقول عو : " يارب أمتى ، يارب أمتى " (٧)

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (دعا إلى الله) إيجاز بالحذف ، إذ حذف
المفعول به ، لتذهب النفس فيه كل مذهب أى دعا القريب والبعيد ، والماحب
والمدو . وهكذا ، وفى ذلك عموم وشمول ، كما حذف المضاف والأصل : (دعا

(١) هو : أن يرتقى فى عجز الكلام بمعنى مفسر باسمين ، ثانيهما معطوف على الأول : التلخيص
فى علوم البلاغة ص ٢٢٢) . (٢) ديوانه ص ١٩٣ .

(٣) الحبيب : إما بمعنى (محب) فيكون اسم فاعل ، وإما بمعنى (محبوب) فيكون اسم
مفعول . الهول : الشدة والبلاء . مقتحم : من الاقتحام وهو الوقوع فى شدة .

(٤) المنقسم : المنقطع .

(٥) المطففين : ٦ .

(٦) صحيح البخارى - ج ١ ص ١٠ .

(٧) المرجع السابق ج ٩ ص ١٨٠ ، وصحيح مسلم ج ١ ص ١٢٧ وما بعدها طبعة دار
التحرير بجزر سنة ١٣٨٣ هـ .

إلى دين الله مثلا) وفي ذلك دليل على نزاهة دعوته ، ووضح طريقها ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ۝ الأية (١))

ولعل في التعمير بلفظ الاستمسك ما يشير إلى أنه لا يكفي مجرد قبسول الدعوة بل لابد من العض عليها بالنواجذ ، وتحمل مشاق تكاليفها .

ولا يخفى ما تشير إليه الكناية اللطيفة التي في قول الشاعر : (بحبل غير منقسم) ففيها معنى القوة المستمدة من هذا الدين الحق .

ولعل الشاعر تأثر في عبارته بالقرآن الكريم من مثل قوله تعالى :
((وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا (١)) ، وقوله تعالى : (۝ قَدْ اسْتَمْسَكَ
بِالصُّرُورِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ۝ (٢)) .

ثم اتجه الشاعر إلى بيان منزلة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بين بقية الرسل فقال (٣)

فأق النبيين في خلق وفي خلق	ولم يدانوه في علم ولا كسرم (٥)
وكلهم من رسول الله ملتمس	غرفا من البحر أورشاقم الديم (٦)
وواقفون لديه عند حدهم	من نقطة العلم أو من شكلك الحكم (٧)

يبين البوصيري أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد حظى من الله بفضل كبير ومقام عظيم ، ففأق النبيين في كل أموره ، وسما عليهم في كل أحواله . يؤكد ذلك لفظ (فأق) وما يحمل من معنى العلو والرفعة ، كما أن التشبيه في قوله : (في خُلُق) وفي قوله : (في خُلُق) وكذلك في قوله : (في علم ولا كرم) يدل على العموم والشمول والجلال والكمال .

(١) آل عمران / ١٠٣

(١) يوسف / ١٠٨

(٢) ديوانه ص ١٦٣

(٢) البقرة / ٢٥٦

(٣) خلق : (بفتح الخاء وسكون اللام) أي الخَلِقة - خلق : (بضم الخاء واللام) .
الطبيعة والسجية .

(٤) ملتمس : من الالتصاق ، وهو في الأصل : الطلب من ماثل والمراد هنا : الأخذ (فملتصم أي أخذ) .
غرفا : (بفتح الغين وسكون الراء) مصدر : غرف أي أخذ
رشقا : مصدر رشف بمعنى مهق . الديم : (بوزن الحيز) جمع ديمة : وهي المطر الدائم الذي ليس معه رعد ولا برق .

(٥) الحد : المراد الغاية - الشكلة : العلامة يشكل بها الكتاب - الحكم : (جمع حكمة)
وهي وضع الشيء في موضعه .

وأراءه الشاعر أن يؤكد تلك المنزلة الكبيرة فقال : (ولم يدانوه في علم ولا كرم)
ولعله خص (العلم والكرم) بالذكر ، لأنها أساس كل خير ، وأصل كل صفات
الجدال والكمال ، والشرف والرفعة .

ويكفي دليلاً على حسن أخلاق النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله تعالى : " وَإِنَّكَ
لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ " (١) كما يدل على حسن خلقه (صلى الله عليه وسلم) ما ذكرته
بعض كتب السيرة والتاريخ مثل : " كان (صلى الله عليه وسلم) ظاهر الرضاة ، . . .
وسيمًا تسيماً . . . كما كان فخماً فخماً ، يتألاً وجهه تألاً القمر ليلة البدر " (٢) .

وإذا تأملت قول الشاعر : (وكلهم من رسول الله ملتمس . . البيت) . وجدته
يؤكد فضل رسول الله ، وعظيم منزلته ، كما يبين غزارة علمه ، وسعة كرمه ، وحتى
لقد ذهب الشاعر إلى أن الأنبياء (عليهم السلام) قد أخذوا من فضائله بقدره
فضهم من أخذ كبيراً (غرقاً من البحر) ، وضهم من اقتبس قليلاً (رشفاً من الدير)
وعرفوا منزلتهم بالنسبة إلى منزلته (ووافقون لديه عند حدهم) وأدركوا ضآلة علمهم
بالنظر إلى علمه (من نقطة العلم أو من شكلة الحكم) . فعلمهم كالنقطة إلى
جوار بحر علمه الخبير ، أو كالشكلة إلى جانب جوامع كلمه (صلى الله عليه وسلم) .

ولا يخفى أن الشاعر ذكر لفظ (النقطة) ولفظ (الشكلة) كناية عن الضآلة ،
وهو في هذا قد تأثر ببعض ما كان يستعمله في عمله الأول عندما عمل خطاطاً
يكتب شواهد القبور - كما سبق (٣) .

ولعل سائلاً يسأل : كيف يبين الشاعر أن الأنبياء قد اقتبسوا من رسول
الله (صلى الله عليه وسلم) مع أنه خاتمهم ؟

والجواب عن ذلك : يبدو أن الشاعر تأثر في ذلك القول ببعض الأحاديث
التي يروى فيها نفاها سبق الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثل قوله : (صلى الله
عليه وسلم) " إنسى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لضعف في طينته " (٤) .

(١) القلم : ٤ (٢) أسد الغابة ج ١ ص ٤٥٢ بتصرف .

(٣) انظر ص ٥١ من هذه الرسالة .

(٤) رواه أحمد والبيهقي والحاكم وقال عنه الحاكم " صحيح الإسناد " انظر : شرح
الزرقاني على المواهب اللدنية ج ١ ص ٣١ ، طبقات ابن سعد ج ١ القسم الأول ص ٩٥ وما
يتمدها ، ومعنى (ضعف) هضم العيم وسكون النون - أي ملقى على الجبال وهسي
الأرض الصلبة .

وقوله (عليه الصلاة والسلام) في حديث آخر عندما قيل له : يا رسول الله متى وجهت لك النبوة ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد (١) .

ويبدو أن مثل هذه الأحاديث مؤولة على أن نبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كانت مقدرة قبل خلق آدم (عليه السلام) وغيره ، إذ من الثابت أن الله (عز وجل) قد قدر المقادير قبل خلق العالم كله على حسب علمه الأزلي ، وهذا ما يؤكد الحديث الشريف ، فمن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وكان عرشه على الماء " (٢) ، وفي حديث آخر قال (صلى الله عليه وسلم) " إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، قال : رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء ، وحتى تقوم الساعة " (٣) .

بالإضافة إلى ذلك يبدو أن الشاعر سلك مسلك كثير من الصوفية الذين يذهبون إلى القول بسبق النور المحمدي ، وأنه قد خلق منه ما عداه (٤) ، مستدين نسي ذلك إلى حديث ضعيف الإسناد وهو : عن جابر بن عبد الله قال : قلت يا رسول الله - بأبي أنت وأمي - أخبرني عن أول شيء خلق الله قبل الأشياء ، قال : " يا جابر ، إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره . . . " (٥) ، والصوفية الذين يتحسبون بهذا الحديث يقولون : " وبهذا ثبت تقدمه (صلى الله عليه وسلم) على الأنبياء جميعا في النشأة الروحية وأنهم منه أخذوا وارشفوا . . . " (٦) .

ومع كل هذا كت أحب أن يمدح الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بصفات لا تثير جدلا أو اعتراض بعض الكتاب ، الذين عقبوا على قول الهوصيري

(١) سنن الترمذي ج ٥ ص ٤٥٥ ، وقال عنه الترمذي " حسن صحيح " ، شرح الزرقاني

(٢) أخرجه الصحيح السابق .

(٣) علي المواهب ج ١ ص ٣٤ : (أبو داود) السجستاني : سننه ج ٢ ص ٢٨٨ بمطابق الشيخ أحمد سعد مطبعة البابي الحلبي بصر سنة ١٩٥٢

(٤) الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري ص ١٣٥ وما بعدها ، محمد ناصر الدرعي : النور المحمدي ص ٤ وما بعدها (لم يدون عليه اسم المطبعة) وطبع سنة ١٩٧٦ .

(٥) شرح الزرقاني على المواهب ج ١ ص ٢٧ ص ٤٦ .

(٦) مغازي عامر : الترياق للصمدى حول النور المحمدي ص ١٥ بتحقيق محمد النجاتي - (لم يدون عليه اسم المطبعة) وطبع سنة ١٩٧٦ .

(وكلهم من رسول الله ملتصق ٠٠) : * ولسنا نشك في أن النبي أفضل الأنبياء ، لأنه خاتمهم ، وناسخ شرائعهم ، ولكم لا ندري كيف اقتبسوا منه ، أو من شريعته ، وهم متقدمون عليه في الزمن ؟ ولو أن البوصيري قال : إن شريعته جاءت مكملة لشرائعهم ، وأنه بحث ليعلم ما كان ينقصهم لكان هذا هو المتفق مع الحقيقة ، ومع ما ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي ، وإذا كان قد أراد أن شرائعهم وأخلاقهم بالنسبة إلى شريعته وأخلاقه ، كأنها قبس منها ، فإن التعبير لم يسعفه ليدل على ما أراد (١) .

إن الشاعر قد بين فضل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على سائر الرسل (عليهم السلام) وليس معنى هذا أنه يضع قدرهم أو يقلل شأنهم - حاشا لله - إن الرسل جميعا (عليهم الصلاة والسلام) أطهر عباد الله قلبا ، وأزكاهم نفسا ، وأوفرهم علما ، وأرجحهم عقلا ، وأجملهم خلقا ، وأكملهم خلقا ، وأكرمهم حسبا ، وأهداهم سبيلا ، إلا أن حكمة الله قد اقتضت أن يجعل هؤلاء الصفوة درجات في الفضل ، ألم يقل (جلت قدرته) في القرآن الكريم : " وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ... (٦) " ألم يشر إلى ذلك أيضا في قوله تعالى : " تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (٧) " ولعل ذلك التفضيل يكون - والله أعلم - في المواهب السنية ، والخصائص العلمية ، والفضائل الكريمة ، والمناقب العظيمة ، أما في أصل النبوة فكلهم أنبياء الله (٤) ولعل هذا هو ما ينصب عليه قوله : (صلى الله عليه وسلم) : " لا تخيروا بيني وبين الأنبياء (٥) " وفي رواية أخرى " لا تفضلوا بين أنبياء الله ... (٦) " .

-
- (١) الإسلام في شعر شوقي ص ٦٥ ، الإمام البوصيري ص ٦٣ .
 - (٢) الإسراء / ٥٥ ، وانظر تفسير القرآن العظيم المجلد الخامس ص ٨٧٥ .
 - (٣) البقرة : ٢٥٣ ، وانظر تفسير القرآن العظيم المجلد الأول ص ٤٤٨ .
 - (٤) الشيخ حسين محمد مخلوف : شذرات من معجزات وخصائص الرسول ، ص ٢٨ وما بعدها مطابع الأهرام التجارية بمصر سنة ١٩٢٠ .
 - (٥) صحيح البخاري ج ٣ ص ١٥٨ وما بعدها .
 - (٦) صحيح مسلم ج ٥ ص ٢٢٥ .

ومهما يكن من شيء فإن البوصيري ما زال يمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم)
قائلا (١) :

فهو الذي تمّ معناه وصورته ثم اصطفاه حبيا باري النسم (٢)
منزه عن شريك في محاسنه فجوهه الحسن فيه غير منقسم (٣)
دع ما ادعته النصارى في نبينهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم (٤)
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف

وانسب إلى قدره ما شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له حد فيمر بعنه ناطق بفسم

يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى أن الله تعالى قد اصطفى الرسول - محمدا (صلى الله عليه وسلم) بمدح أن كمل باطنه وظاهره بالسمت الحسن، والخلق الكريم، وأصبح جامعا لصفات الجلال والكمال، التي لم يشاركه فيها أحد، فاستحق أن يمدح بما يناسب شرفه العظيم، ومقامه الجليل الذي لا يستطيع إنسان مهما أوتى من الفصاحة أن يحيط به.

وإذا تأملت قوله : (فهو الذي تم معناه وصورته) وجدته يدل على الإحاطة والشمول، كما أنه يؤكد قوله سابقا : (فإن النبيين في خلقه وفي خلق) بل إن فيه محسنا بدويا يسمى اللف والنشر المشوش، إذ المعنى يرجع للخلق (بضم الخاء) والصورة ترجع للخلق (بفتح الخاء) .

ولعل في قوله : (ثم اصطفاه حبيا) ما يدل على أن الله يصنع رسلا على عينه، قبل الاصطفاء، إلا أن قوله : (حبيا) يشمر بزيادة القرب.

(١) ديوانه ص ١٩٣ .

(٢) معناه : المراد باطنه أي سجيته . صورته : المراد ظاهره أي هيئته باري : خالق . النسم : (بجمع نسمة) وهي الإنسان أو كل ذي روح .

(٣) منزه : من التنزيه وهو التقديس والمراد هنا البعد .

(٤) النصارى : أتباع السيد المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام) . ولقد ادعى بعضهم أنه إله يقول تعالى : " لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ " (المائدة ٧٤) . كما ادعى بعضهم أنه ابن الله - حاشا لله - يقول تعالى : " وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ " . التوبة / ٣٠ .

وأراد الشاعر أن يؤكد كمال الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال : (منزّه عن شريك في محاسنه) ولكن لفظ (منزّه عن شريك) شاع استعماله بالنسبة لله سبحانه وتعالى - ولذا لم يحسن من الشاعر استعماله هنا ، وإن كان قوله : (في محاسنه) قد خفف من مؤاخذة الشاعر على ذلك الاستعمال بحض الشيء ، ويلاحظ أن محاسن جمع (حسن) على غير القياس .

ويبدو أن الشاعر كان يتوقع أن قوله : (منزّه عن شريك) سيعرضه للنقد فسارع قائلا : (دع ما ادعته النصارى في نبيهم) فهو بذلك يقول صنف الرسول بما شئت وادمحه بما شئت ، ولكن احذر أن تخلو في ذلك المديح ، فتصفه بصفات الله أو أن تدعى كما ادعى النصارى أن المسيح ابن الله ، أو هو إله ، ولعل في ذلك القول تلميحاً إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) :
" لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبده ، فقولوا عبد الله رسوله " (١)
وأكد الشاعر تلك الفكرة بقوله : (وانسبالي ذاته) البيت) ولا يخفى ما نسي البيت من وقع موسيقى جذاب مشوه تقسيم عباراته .

أضف إلى ما سبق أن الشاعر قد عبر بالظاهر موضع المضمرة في قوله : (فإن فضل رسوله الله) ولعل في ذلك استلذاً إذا وتبركا بهذا الاسم الشريف ، كما أن في قوله : (ناطقهم) عجازاً مرسلًا ، إذ أطلق المحل وأراد الحال فيه وهو اللسان ، وفي ذلك تأكيد لا يخفى أثره في توضيح الفكرة ، ويواصل الشاعر مدحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول (٢) :

لونا سبت قدره آياته عظمها	أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم (٣)
لم يمتحنا بما تحيا المقول بسه	حرصا علينا ، فلم نرتجولم نهيم (٤)
إن آياته (صلى الله عليه وسلم) - مع عظمها - لم تناسب قدره ، إذ لو ناسبته	

(١) صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٢) ديوانه ص ١٩٣ .

(٣) الرمم : جمع رمة (بكسر الراء وتشديد الميم) الحظم البالى أو أجساد الموتى .

(٤) ولم نهيم : من تمام الرجل في أمره إذا لم يدر له مخرجا .

لكان البيت يحيى عندما ينادى عليه باسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولمسل ذلك لم يكن من معجزاته ، حرصا علينا ، وشفقة بنا ، حتى لا نحميا عقولنا ، ولا تحير ألباننا في أمر نبوته ، أو الشك في بشريته .

وإذا تأملت قول الشاعر : (لونا سميت .. البيت) لوجهت فيه مبالغة ولمسل لفظ (لو) خفف منها كما يقول علماء البلاغة (١) :

ولا يخفى أن البيت الثاني تحليل للبيت الأول ، ولذا أتى به مفصلا عنه ، إن مقام الرسول كبير ، وشأنه عظيم ، يقول الهجيري ، مؤكدا ذلك (٢) :

أعيا الهوى فهم معناه فليس يسرى

(٣) في القرب والحمد منه غير منقحم

كالشمس تظهر للعينين من حمس

(٤) صغيرة ، وتكل الطرف من أمم

نعم ، عجز الخلاق عن الإحاطة بقدره الشريف ، وكل من حاول ذلك عن قرب أو بعد ، ظهر عجزه ، وغلبت حجته ، وهذا مثل الشمس التي تظهر للإنسان صغيرة من بعد ، وإذا حاول أن يهقق فيها النظر ، كلت عينه .

ولا يخفى أن في إسناد : (أعيا) إلى (فهم معناه) مجازا فقلبا دل على عظمة مقام الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ويؤكد ذلك المصوم والشول الذي أشار إليه الطباقي في قوله : (في القرب والحمد) ، وإن كان لفظ (منقحم) لم يرد استعماله في معاجم اللغة الموثوق بها (٥) فلمل عذر الشاعر في ذلك شيوع الألفاظ العامة في عصره ، ومنها يكن من شيء فإن فكرة الشاعر في البيت الأول واضحة ، وزادها وضوحا تشبيه المعنوي بالمحسوس في البيت الثاني .

(١) التلخيص في علوم البلاغة ص ٣٧٠ . (٢) ديوانه ص ١٩٣ .

(٣) منقحم : صحيحة (منقحم) من فحم الرجل إذا سكت عن المجادلة ولم يجيب ، مفلوب الحجة .

(٤) ككل الطرف : تنصبا لبصر . أم : (بفتح الأول والثاني) قرب .

(٥) انظر لسان العرب مادة (فحم) ج ١٥ ص ٣٤٤ وما بعدها .

تاج المروس مادة (فحم) ج ٤ ص ٩ وما بعدها .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يؤكد عظم مقام الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال (١) :

وكيف يدرك في الدنيا حقيقة
فمبلغ العلم فيه أنه بشـر
قوم نيام تسلوا عنه بالحلم (٢)
وأنه خير خلق الله كلهم

يتعجب الشاعر منكراً ، أن يدرك حقيقة الرسول (صلى الله عليه وسلم) قوم نيام ، وكل ما علموه عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه بشر ، وأنه خير خلق الله جميعاً .

إن الاستفهام في قول الشاعر : (وكيف يدرك . . .) يشعر بالإنكار ، كما أن قوله : (قوم نيام) يشعر بالاعتقار لهؤلاء القوم ، ولعل هذا هو ما دفعه إلى تنكير (قوم) ووصفهم بهذا الوصف المشعر بالأسى والحسرة (نيام) ويؤكد ذلك قوله : (تسلوا عنه بالحلم) .

ولا يخفى أن قول الشاعر : (فمبلغ العلم . . .) يدل على المجزوالجهل ، كما أنه قوله : (أنه بشر . . .) يلجح إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (٣) . وقوله : (وأنه خير خلق الله كلهم) ح - أيضاً - إلى قول الرسول : (صلى الله عليه وسلم) " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر (٤) " .

ولقد زعم بعض الكتاب أن هذا البيت : (فمبلغ العلم فيه . . . البيت) هو الذي أكله الرسول (صلى الله عليه وسلم) للشاعر عندما كان يقرأ القصيدة أمامه فسى الرويا ، فقرأ الشطر الأول ، وهجز عن الشطر الثاني . فقال له الرسول : قس : يا إمام ، فقال : عجزت عن المصراع الثاني يا رسول الله ، فقال له قل : " وأنسه خير خلق الله كلهم " . فحرص الإمام على ذلك المصراع ووضعه في بيت آخر زيد على القصيدة تبركاً بقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو :

مولاي صل وسلم دائماً أبداً
على حبيبك خير الخلق الله كلهم (٥)

(١) ديوانه ص ١٩٤ .

(٢) تسلوا : قنصوا ورضوا - الحلم (بضم الحاء واللام) : ما يراه الإنسان فسى النوم .

(٣) الكهف / ١١٠ . (٤) سنن الترمذي ج ٥ ص ٢٤٧ .

(٥) المدايح النبوية ص ١٨١ ، متن بردة الصديق المباركة ص ١ : المطبعة المحمدية بمصر سنة ١٣٥٦ هـ .

ولكن هذا الرفع مرفوض لحدّة أمر منهل:

أولا : إن الله تعالى عصم رسوله من قول الشعر ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : " وما علمناه الشعر وما ينبغي له ١٠٠٠ الآية " (١)

ثانيا : إن البوصيري قد نظم قصيدته كاملة قبل قصة الرؤيا ، فإذا كان قد عجز عن تكلمة البيت ، وأكمله الرسول - كما تزعم القصة فلماذا لم يذكر البوصيري فيما بعد الشطر الأصلي الذي كان قد نظمه ؟

ثالثا : إن هذا الشطر قد ورد كله تقريبا في قول الصرصري :
(محمد خير خلق الله كلهم) ، وهو الذي لفخار المجد ينتسب (٢)
ومعلوم أن الصرصري توفي قبل البوصيري بما يقرب من خمسين عاما (٣)

رابعا : إن هذا الشطر نفسه قد قاله البوصيري في بعض قصائده التي نظمها قبل البرزة مثل قوله (٤) :

والمصطفى خير خلق الله كلهم

له على الرسل ترجيح وتفضيل

خامسا : إن خلوات ديوان المحقق من هذا البيت :

مولاي صل وسلم دائما أبدا

علمى حبيبك خير خلق الله كلهم

يرجح أن القصة مؤرّومة ومنسوبة إلى البوصيري زورا وسهتا .

ومهما يكن من شيء فإن البوصيري يوالى مدحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (٥) :

-
- (١) بين / ٦٩ ، وتفسير القرآن العظيم ج ٦ ص ٥٢٤ وما بعدها .
 - (٢) ديوانه (مخطوط) ص ١٩ وما بعدها .
 - (٣) انظر هامش ص ٢٤ من هذه الرسالة .
 - (٤) ديوانه ص ١٢٢ وما بعدها .
 - (٥) المرجع السابق ص ١٩٤ .

وكل آى أتسى الرسل الكرام بهيها
فإنما اتصلت من نوره بهيهم
فإنه شمس فضل نعم دواكهمهيا
يظهرن أنوارها للناس فى الظلم

يشير الشاعر إلى أن كل معجزة تحققت على يد رسول من الرسل (عليهم السلام) • فإنما كان الرسول - محمد - (صلى الله عليه وسلم) سببا لوقوعها • فضله عليهم مثل فضل الشمس على سائر الكواكب التى تستمد نورها من الشمس وتظهر ذلك النور فى الظلام - إذا غابت الشمس - للناس • فالفضل اجمع إلى الشمس • إن شئ السبب فى ذلك النور •

ويحظ أن الشاعر هنا - يؤكده ما سبقت الإشارة إليه من سبق النسب المحمدي (١) وإذا تسألت قوله : (وكل آى •••) وجده يبدل على العموم • إن أضاف لفظ (كل) إلى جمع مفر (آى) • كما أن وصفه (الرسل) بالكرام يشمر بأدبه واحترامه لرسول الله أجمعين (عليهم الصلاة والسلام) •

ولا يخفى أن البيت الثانى توضيح وبيان للفكرة التى اشتمل عليها البيت الأول • وفيه دلالة على ثقافة الشاعر ومعرفة بعض الملوم الكونية إذ يشمر كذمه بأن الشمس مشيئة بذاتها، أما الكواكب فهى لا تنشئ بذاتها، وإنما تنعكس نور الشمس فكانها استمدت ذلك النور منها •

وقد اشتمل ذلك البيت على بعض المحسنات الهمدية التى ساعدت على إظهار الفكرة ووضوحها مثل : التناسب بين (شمس وكواكب) والطباق بين (أنور وظلم) • وأراد الشاعر أن يشير إلى بعض صفات الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال (٢) :

(١) انظر ص ١٢٤ من هذه الرسالة •

(٢) ديوانه ص ١٦٤ • ولقد ورد فى بعض الكتب بيت قبل تلك الأبيات وهو :

حتى إذا طلعت فى الأفق عم نندا ••• لنا للمالين وأحبت سائر الأمم
ويبدو أن أوليس من نظم البوصيرى • لضعفه من جهة الأداء • ولستم زوده فى الديوان
المحقق • أنت إلى ذلك قلة المراجع التى أشارت إليه • انظر حاشية الهاجسورى
على الجودة ص ٢٦ •

أكرم بخلق نبي زانه خلُق
بالحسن مشتمل بالبشر متسمم
كالزهر في ترف ، والبدر في شرف

والبحر في كرم ، والدهر في هم
كانه وهو فرد من جلالته
في عسكر حين تلقاه وفي حشم (١)

ما أعظم هذا النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي جمع بين حسن الخلق وهظيم الخلق كما جمع بين لطافة الزهر ونضارته . وبين البدر في علوه ورفعته وهدايته أضف إلى ذلك أنه أشبه البحر في كرمه ، وما مثل الدهر في همه ، وله مهابة وجلالة ، فإذا لقيته مفرداً هبتته كأنه محاط بالمسكر والحشم .

والملاحظ أن هذه التشبيهات كثيرة الدوران على الألسنة ، بل إن بعض الكتاب لم يقبل بعضها ، إذ قال " لا نستجود قوله : (كالزهر في ترف) لأن مقام الرسول والرسالة أجل من هذا التشبيه ، وأغلب الظن أن حرص البوصيري على الجناس بين (ترف وشرف) هو الذي زين له هذا التشبيه . . (٢) "

ولا يخفى أن الشاعر قد وفق في بعض عباراته مثل (بالحسن مشتمل) فهذا يدل على إحاطة الحسن به من كل جانب كما أن قوله : (بالبشر متسم) يلح إلى ما ذكرته بعض كتب السيرة والتاريخ من أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان طلق الوجه (٣) .

وأخيراً يختم الشاعر بمدحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (٤) :

كأنما اللؤلؤ المكنون في صدف

من معدن منطوقه ونبهتسم

لا طيب يعدل تريا ضم أعظمه

طوسي لمنتشق منه وملتسم

-
- (١) حشم : خدم .
(٢) الإسلام في شعر شوقي ص ٦٥ .
(٣) الطبقات الكبرى ج ١ ق ٢ ص ١٣٠ .
(٤) ديوانه ص ١٩٤ .

نعم : ما أعذب كلماتك وما أفصحها يا رسول الله ، إنها حين تخرج من فمك الظاهر كأنها اللؤلؤ في صفائه ونقاؤه ، بل إنها تخرج - أيضا - من بين ثنايا كاللؤلؤ ، وما أحسن طيبك الذي لا يدانيه أي طيبه وليس ذلك في حياتك فحسب ، بل بعد موتك أيضا إذ التزاي الذي تجسدك الشريف له غير لا يماثله غير ، فطوبى لمن شبه وقبله ، والشاعر في البيت الأول يشبه كلمات الرسول وأسنانه باللؤلؤ ، وهذا مقبول بالنسبة لكلماته ، إذ ورد ما يؤكد جوازه ، ومن ذلك ما ذكرته بعض كتب السيرة في وصف كلمات الرسول : " ۰۰۰ كان منطقه خرزات نظم يتحدثون " (۱) ، أما بالنسبة لوصف أسنان الرسول ، فرفضه بعض الكتاب بقوله : " لا نستجيد تشبيه أسنان رسول الله باللؤلؤ ، لأن هذا وصف جسدي لا يليق بالرجال فما بالنا بسيد الأبطال ؟ " (۲) .

وأرى أن الوصف الجسدي لا عيب فيه ما دام لم يتمرض لذكر ما لا يجوز ذكره - كالعورة مثلا - ولقد ذكرت كثير من كتب السيرة والتاريخ وصفا جسديا للرسول (صلى الله عليه وسلم) : ومن ذلك : كان (صلى الله عليه وسلم) : أزهر اللون ، واسع الجبين ، كمثل الحية ، ضامع الفم ، مفلج الأسنان ، عريض الصدر (۳) .

ويبدو أن الشاعر يلج في البيت الثاني إلى ما ذكره أنس بن مالك (رضي الله عنه) إذ قال : (ولقد شممت العطر فما شممت ريح شيء أطيب ريحا من رسول الله (۴)) .

ولا تخفى قيمة التشبيه في البيت الأول إذ وضع الفكرة وأظهرها ، كما أن فم قول الشاعر : (لا طيب ۰۰) عموما اكتسبه من دخول النفس على النكرة وهذا يؤكد الفكرة أيضا ، وفي قول الشاعر : (ضم أعظمه) مجاز مرسل علاقته الجزئية إذ المراد ضم جسده كله ، وكنت أود أن لا يعبر الشاعر بالمجاز هنا حسنتي لا يؤتمن أن الأرض أكلت اللحم ولم يبق إلا العظم وهذا يخالف ما ورد من أن الله حرم على الأرض (أن تأكل) أجساد الأنبياء (۵) .

(۱) أسد الغابة ج ۱ ص ۴۵۲ .

(۲) الإسلام في شعر شوقي ص ۶۵ .

(۳) الطبقات الكبرى ج ۱ ق ۲ ص ۱۲۹ .

(۴) المرجع السابق ج ۱ ق ۲ ص ۱۰۲ .

(۵) سنن أبي داود ج ۱ ص ۳۴ .

كما أن نفس قول الشاعر : (ملتئم) خطأ ؛ لأن معناه الذي يضع اللثام على فيه (١) ، ولا شك في أن الشاعر لم يرد ذلك المعنى وإنما أراد (اللثام) أي - القبيل .

مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

بعد ما ذكر الشاعر عدم وجود رائحة طيبة تمدل رائحة ذلك الشراب الذي ضم جسد الرسول (صلى الله عليه وسلم) - انتقل إلى الحديث عن مولده (صلى الله عليه وسلم) وهذا يدل على أن الشاعر لم يراع الترتيب الزمني في نظمه ، ومهما يكن من شيء ، فلقد بدأ حديثه عن المولد النبوي بقوله (٦) :

أبان مولده عن طيب عنصره	يا طيب مبتداً منه ومختتم (١)
يوم تفرس فيه الفرس أنهم	قد أنذروا بحلول البؤس والنقم (٢)
وبات إيوان كسرى وهو منصدع	كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم (٣)

(١) المصباح المنير ج ٢ ص ٧٥٢ طادة (لثم) (٢) ديوانه ص ١٩٤ .

(٣) أبان : أظهر وكشف مولده : يصح أن يكون مكان ولادته أو زمانه ولعل المراد هنا زمانه بدليل قوله في البيت الثاني : (يوم) . ولقد اختلف المؤرخون في يوم ولادة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فمنهم من ذهب إلى أنه ولد في يوم الإثنين ١٢ - ربيع الأول الموافق ٢٠ - أغسطس سنة ٥٧٠ م . ويسمى ذلك العام عام الفيل - وهذا هو الأرجح ، ومنهم من قال : إنه ولد في ١٠ من ربيع الأول ، وقيل : ٢ من ربيع الأول ، إلا أن العالم المصري الفلكي محمود حمدي الصوفي سنة ١٨٨٥ م ذهب إلى أن مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان في صباح يوم الإثنين ٩ من ربيع الأول - الموافق : ٢٠ من إبريل سنة ٥٧١ - وذلك بعد تحقيق فلكي - انظر في ذلك : طبقات ابن سعد ج ١ القسم الأول ص ٦٢ وما بعدها - حياة محمد ص ١٠٨ وما بعدها ، محمد الخضري : نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ص ٦ . مطبعة الاستقامة بصر سنة ١٩٣٥ . ومحمود حمدي : المولد النبوي ص ٨٥ مطبعة الأزهر بمصر سنة ١٩٦٩ .

عنصره : أصله ، والمراد آباؤه الذين تناسل منهم . وطيب عنصره : طهارته مما يشين . مبتداً الشيء : أوله ، مشتقته : آخره ، والمراد أنه (صلى الله عليه وسلم) طاهر من جميع نواحيه من لدن آدم (عليه السلام) وقيل : من هاشم - جد الرسول . (صلى الله عليه وسلم) إلى والده عبد الله .

(٤) تفرس : تفتن وتثبت من الفراسة : وهي قوة تمكن الإنسان من إدراك الأمور الخفية بالقرائن ، البرؤس : الشدة والعذاب . النقم (جمع نعمة) وهي العقوبة والهلاك .

(٥) إيوان : مخرج يطل على البيت المستطيل غير مسدود الوجه (كسرى) لقب كل ملك من ملوك الفرس وهو محرب (خسرو) ، والمراد بإيوان كسرى / قصره الذي كان بالحدائن ببلاد العراق .

والنار خادمة الأنفاس من أسف عليه ، والنهر ساهى الحين من سدم (١)

لقد كشف مولد محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) - وما صاحبه مسن حوادث لفتت الأنظار ، وشدت الأفكار - كشف كل ذلك عن رفعة هذا المولود ، وهو شأنه في ذلك الوجود ، كما دل على كريم عنصره ، وطهارة محتده .

أراد الشاعر أن يؤكد أثر هذا المولود فأسند الفعل (أبان) إليه ، ونسى هذا الاستناد مجاز عقلي ، لا يخفى أثره في توضيح الفكرة وتأكيدتها ، بالإضافة إلى ما فيه من تشخيص وإيحاء .

وجسرى الهوصيري على عادة العرب عندما يحجبون من شيء ينادونه ، وينزلونه منزلة من يحقل وينادي فقال : (يا طيب) ولا شك في أن هذا النداء المشوب بالتمجيب يشير الحس ، ويحرك النفس .

ولعل الشاعر يلح بقوله : (طيب عنصره) إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " إن الله - عز وجل - اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بنى إسماعيل كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم (٢) " وقوله (صلى الله عليه وسلم) : " .. خرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم ، حتى انتهيت إلى أبي وأمي ، فأنا خيركم ، وغيركم أبا (٣) " .

والبيت الأول واضح المبارة ، سهل الألفاظ ، مطى ببعض المحسنات الهمدانية مثل التكرار في (طيب ، يا طيب) وهذا يدل على التمجيب من أصله الطاهر ، ومعدنه الكريم ، مثل الطباقيين : (مبتداً ومختتم) وفيه دلالة على السمو والشمول .

وأحسن الشاعر عندما أجمل الحديث عن المولد النبوي في بيت واحد ، فأثار الشوق إلى توضيح ويان ، ولذا أتى بالبيت الثاني مفصلاً عن الأول ، ولا يخفى

(١) ساهى : غافل والمراد هنا ساكن غير جار لتضويعائه ، السدم : الحزن المصحوب بغيظ وقيل : الندم .

(٢) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٣٤ .

(٣) لجنة من العلماء : المنتخبين السنة (من مؤلفات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر) ج ١ ص ٦٧ مطابع الأهرام التجارية سنة ١٩٧٠ .

ما في تشكير (يوم) من تعظيم وتخميم ، وكيف لا يكون كذلك ، وقد أيقن
الفرس - فيه - أنه قد حل بهم الهلاك ، وكتب على دولتهم الفناء ، ولفسه
أحسن الشاعر عندما أكد ذلك الأمر بمؤكدتين - (أنهم ، وقد) - زادا المعنى بيانا
وتأكيدا .

ولقد وقعت في هذا اليوم حوادث هزت كيانهم ، وأنزلت الرعب في قلوبهم
ومن ذلك : تصدع إيوان ملكهم كسرى ، وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته ، ومقا
بعضها لاهبة والمظلة (١) .

وإذ تأملت قول الشاعر : (بات إيوان كسرى . . البيت) وجدته يشير إلى
سرفة أثر هذا المولد ، وعظم ذلك المولود ، إذ كان المولد صباحا - عيسى
الراجح - ولم يأت الصاء - يشير إليه لفظ (بات) - إلا تصدع الإيوان ، ولعل
ضمير الفصل (هو) يؤكد ذلك ، بالإضافة إلى ما في العبارة من تهكم واستهزاء
بهذا القصر المنيف وما طرأ عليه من تصدع وخلل ، لا يقل عن تفرق شمل أصحاب
كسرى الذين تفرق شملهم ، وتفكك جمعهم .

ولعل في هذا التشبيه : (كمثل أصحاب كسرى غير ملتئم) ما يشير إلى أن
هذه الأحداث كانت عظيمة الأثر ، فتأثر بها الجماد - (الإيوان) - كما تأثر به
الإنسان - (أصحاب كسرى) .

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، بل إن النار التي كان أهل فارس يحميونها
- من دون الله - قد خمدت أنفاسها - حزنا على تصدع الإيوان - وشاركها في
ذلك نهر الفرات ، الذي أخرجته الفيض والحزن عن طريقة الطمس - فصسب
ما في بادية السماوة (٢) .

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (والنار خامدة الأنفاس . .) وقوله (والنهر
ساحى الميمن . .) استمارة من مكنتين ، قد أكدتا عظم هذه الحوادث التي أضررت
فيها لا يعقل ، فما بالك بين يعقل !

(١) علي بن برهان الحلبي : إنسان الميمن في سيرة الأمين المأمون (المسيرة

الحمية) ج ١ ص ٨٦ المكتبة التجارية الكبرى بمصر (غير مؤرخ) .

(٢) بادية الصراق قريبة من نهر الفرات .

ولقد تمكن البوصيري من اختيار ألفاظ ترسم تلك الصورة المفجعة والشاعر
الحزينة . مثل : (أنذروا ، الهوس ، النقم ، متصدع ، غير ملتئم ، خامسدة
الأنفاس ، أسف ، ساهى العين ، سدم) .

وكل هذا أخرج صورة كاملة لتلك الأحداث التي واصل الشاعر الحديث عن
بقيتها بقوله (١) :

وساء ساوة أن غاضت بحيرتهم

ورد واردة بالفيظ حين ظمى (٧)

كان بالنار ما بالماء من سائل

حزنا ، والماء ما بالنار من حرم (٢)

والجن تهتف والأنوار ساطعة

والحقيظهم من معنى ومن كلم (٤)

ومن الحوادث التي صاحبت المولد النبوي الكريم أن بحيرة ساوة قد غاض ساؤها
وجفت معينها ، (٥) ، وعندما ذهب أهلها يستسقون ، رأوا ما أغضبهم ، وأشعل
نار الفيظ في قلوبهم ، فأصبحوا بين ظمأ قاتل ، وأسف مهلك .

ولعل مما يشير العجب أن الأمور قد انقلبت ، والأحوال قد تبدلت ، ومن
ذلك أن النار من شدة حزنها سألت دموعها ، وانهمرت عيونها ، قابلت
بها ثم انطفأت ، كما أن الماء من شدة حزنه قد اشتعل فتبخر (٦) .

لم تقتصر أحداث ذلك المولد النبوي الشريف على إيوان فتصدعت بمض
شرفاته ، ولا على أصحاب كسرى فتفرق شملهم ، ولا على النار فخدمت أنفاسها ،

(١) ديوانه ص : ١٩٤

(٢) (ساوة) مدينة بين الرى وعمدان ، ويقربها تقع بحيرة ساوة ، واردة : الذى
ذهب يظلم الماء للسقى . ظمى : أصلها (ظمى) فحذفت الهمزة للقافية .

(٣) الضرم : الاشتعال .

(٤) الجن : ضد الإنس الواحد (جنى) سموا بذلك لأنهم يتقون ولا يرون . تهتف :
التمرد تصرخ . الأنوار : المراد بها الأنوار التي ظهرت يوم ولادته (صلى الله
عليه وسلم) حتى أضاءت فيها قصور الشام (طبقات ابن سعد ج ١ القسم الأول ص ١٠٠) .

(٥) إنسان العين ج ١ ص ٧٨ وقيل : إن البحيرة التي غاضها بحيرة طيرية (انظر
المرجع السابق) .

(٦) الإسلام فى شجر شوقى . ص ٤٩ .

ولا على نهر الفرات فضل طريقه ، بل تعدى ذلك كله إلى الجن أيضا ففزعوا
عندما رأوا الأنوار الساطعة ، والأضواء اللامعة ^(١) ، فأيقنوا أن حدثا جلالا قد وقع
فصرخوا ، وهربوا في بطون الأودية وشمال الجبال . ^(٢)

ولعل في إسناد الشاعر الفحل (سا) إلى (ساوة) ما يشير إلى بيان شدة
الحزن التي أثرت في الجماد - (ساوة) - فما بالك بأهله ، فلا شك في أن الحزن قد
عمهم ، وأن الأسى قد ملك مشاعرهم ، وهذا الإسناد مجاز مرسل علاقته المحلية والأصل
(سا أهل ساوة) .

ولا يخفى أن في البيت الثاني مهالفة أكدت المعنى ، ووضحت الفكرة (كأن بالنار
ما بالما من بلل . . البيت) وإن كان التشبيه قد خفف من وقعها بعض الشيء فلا بأس .

ولقد بُدئ البيت الثالث بجملته اسمية (والجن تهتف . . البيت) أكدت المعنى ،
وما زاده تأكيدا تكرار الإسناد ، ويبدو أن الشاعر ألحق بالفحل تأنيضا في قوله :
(تهتف) على تقدير (جماعة الجن) مثلا .

وما هو جدير بالذكر أن البوصيري ليس أول من أشار إلى بعض الحوادث التي صاحبت
المولد النبوي نظما - إن سبقه الشاعر المرصري بقوله ^(٣) :

وكسرى أنوشروان زلزل قصره

وشق ، وتاج الملك فك نظامه

ونار مجوس الفرس أطفئ وقد هـا

ولم يك في الأعصار تخبو ضرامه

ولا يخفى أن البوصيري أجود منه نظما وأسلم منه عبارة .

(١) إنسان الحيون ج ١ ص ٨٨ ، ص ٨٩ ، السهيلي : الرض الأنف ج ١ ص ١٠٥

، ص ١١١ مطبعة الجمالية بمصر سنة ١٩١٤ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ديوانه المخطوط ، ص ١٩١ .

بحثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

ولقد انتقل الشاعر من الحديث عن مولد الرسول الكريم وعن ذكر بعض
الحوادث التي صاحبتة ، إلى الحديث عن بحثته (صلى الله عليه وسلم) فقال (١)

- عموا وصموا فإعلان البشائر لسم
(٧) تسمع ، وارقة الإنذار لم تسمع
من بعد ما أخسبر الأقوام كأنهم
بأن دينهم المصوح لم يقيم (٨)
ومهدما عاينوا في الأفق من شهب
منقضة وفق ما في الأرض من صنم (٩)
حتى غدا عن طريق الوحي منهم
من الشياطين يقفوا إثر منهم (١٥)

يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى هؤلاء الكفار الذين سموا أخسار
تلك الأحداث التي صاحبت المولد النبوي - ومنهم من رآها - وأثارت في نفوسهم
الأفكار حول شأن ذلك المولود ، ولما بحث الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنكروا
عليه ذلك .

(١) ديوانه ص ١٩٥ .

(٧) الضمير في (عموا وصموا) يعود على الكفار من الفرس وغيرهم ، البشائر : جمع بشارة
أو بشرى ، وهي الخبر السار . البارقة : اللامعة ، وهي في الأصل اسم للسيف
يقال بيده بارقة أي سيف لامع ، والتاء زائدة للمبالغة ، لم تسمع : لم تنظر ، يقال
شام البرق إذا نظر إلى السحابة ليحلم مقصدها .

(٨) الأقوام : (جمع قوم) خاص بالرجال على الصحيح ، والمراد بهم هنا : الكفار .
الكاهن : الذي يخبر عن المغيبات الماضية ، أو من كان له تابع من الجن يخبره
بخبر السماء لاستراق السمع فيحدث الناس بذلك ولكنه يزيد على كلمة الصدق مائة كذبة
انظر صحيح البخاري ج ٦ ص ١٥٢ .

(٩) عاينوا : شاهدوا ، الأفق : (بسكون الفاء) لغة في (الأفق) - بنصبها - والمراد نواحي
المصالح . الشهب : جمع شهاب ، والمراد به هنا : الشعلة من نار ماطعة تقذف بها
الشياطين الذين كانوا يسترقون السمع ويلقونه إلى الكهان ، فلما قرب صحت الرسول حيل
بينهم وبين ذلك انظر : سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٧ ، تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص
٢٦٧ . منقضة : من انقض السهم إذا أسرع بشدة ، وفق : بمعنى الموافقة والمصالحة .

(١٥) غدا : أصبح . الوحي : يطلق على الكلام الخفي والإشارة والإلهام ، وجبريل (عليه السلام)
والمراد بطريقه : السماء . منهم : المراد هارب .

وإذا تأملت قول الشاعر : (عموا وضموا ٠٠٠) وجدته كلاما مستأنفا بمثابة الإجابة عن سؤال مقدر أثاره قول الشاعر في البيت السابق : (والحق يظهر من معنى ومن كلم) فكان السؤال :

إذا كان الأمر كذلك فما بال هؤلاء الكفار قد جحدوا نبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ؟

فأتى جواب الشاعر ممزوجا بالاستهزاء بهم ، والسخرية منهم ، إجابة فقال : (عموا وضموا ٠٠٠) ومن المعلوم أنهم لم يكونوا عميا ولا صما حقيقة ، ولكن لما لم ينتقموا بما شاهدوا ، ولم يتعظوا بما سمعوا ، كانوا كالعصيان الذين لم يروا هذه البشائر ، وكالضم الذين لم يسمعوا هذه النفير .

وقد أحسن الشاعر عندما قال : (فإعلان البشائر ٠٠٠) وكيف لا تكون بشائر وهي تبشر بمولد المهدي ، ومبعث الرحمة ، كما أحسن عندما دلل على عناد هؤلاء الكفار واستكبارهم بأكبر من دليل : فكاهنهم اعترف لهم بالحقيقة ، وهو بهذا يلجح إلى هؤلاء الكهان الذين كان عندهم علم - عن طريق الكتب السابقة - بقرب مبعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) (١) .

وتبدو السخرية من هؤلاء القوم عندما وصف الشاعر دينهم بالاعوجاج ، كما أن في قوله : (لم يتم) نكتة لطيفة وهي الإشارة إلى أن هذا الدين لم تقم له قائمة صحيحة في الماضي ففي المستقبل من باب أولى .

ويلجح الشاعر بقوله : (وحدهما عاينوا في الأفق من شهب ٠٠٠ البيت) إلى قصة الشياطين الذين كانوا يسترقون السمع منهم من ذلك بدليل قوله تعالى * وَأَنَّا كُنَّا نَنقُدُّ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصْدًا * (٢) ، وقوله تعالى : * .. إِلَّا مَنْ خِطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثِقَابٌ * (٣) .

(١) إنسان العيون ج ١ ص ٩٠ وما بعدها .

(٢) الجن / ٨٠ / ٩٠ .

(٣) الصافات / ١٠ .

وتفسير القرآن العظيم المجلد السابع ص ٤ وما بعدها ،
صحيح البخاري ج ٦ ص ١٥٢ .

ولقد أشار الشاعر إلى أن الأصنام قد نكست (١) عندما انقضت الشهب على
الشياطين (٢) ، وأصل في لفظ (منقضة) ما يشير إلى القوة ، وفي ذلك دلالة
على أن دولة الحق - متصلة في الدين الذي بحث به الرسول (صلى الله عليه وسلم) -
ستنقى على الباطل وأهله ، والكفر وأتباعه .

إن هروب الشياطين أمر معنوي يحتاج إلى ما يوضحه ويؤكد ، ولذلك
أحسن الشاعر عندما قال : (٣)

كانهم هربا أبطال أبرهة أو عسكر بالحصى من راحته رمى (٤)
نبتا به بعد تسميح بهنظهما نبتد المسيح من أحشاء ملتقم

لقد عبرت الشياطين خوفا من الشهب المحرقة ، وكان هروبهم شبيها بهروب
أبرهة حينما سلب الله عليه طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم
كقصب مأكول (٥) أو كان هروبهم وفرارهم مثل فرار الكفار في غزوة (حنين) (٦) تلك
الغزوة التي رمى النبي فيها الكفار بالحصى الذي كان في يديه (٧) .

وإذا تأملت قول الشاعر : (كانهم هربا .. البيت) وجدته شبه الأمر المعنوي
- هروب الشياطين وفرارهم - بالأمر المحسوس - هروب جيش أبرهة أو هروب الكفار
وفرارهم - ولأن في ذلك توضيحا وبيانا ، وخاصة أن هذين الأمرين قد شاهدها
كثير من الناس .

(١) أبو نعيم : دلائل النبوة ص ١٨٠ وما بعدها - من مطبوعات وزارة المعارف المتطانية -
حيدرآباد الدكن سنة ١٩٥٠ .

(٢) إنسان العميون ج ١ ص ٧٨ .

(٣) ديوانه ص ١٩٥ .

(٤) كأنهم : الضمير يعود على الشياطين ، وقد أخطأ من قال : إنه يعود على المشركين
(انظر للإسلام في شجر شوق ص ٥) لأن الضمير يعود على أقرب مذكور ، والشياطين
هم آخر من أشار إليهم الشاعر في البيت السابق - كما أن المعنى يؤيد ذلك . الأبطال :
جمع بطل والمراد به الشجاع القوي أبرهة : كان ملكا على اليمن من قبيل نجاشسى
الحبشة قبل مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أراد أن يصرف الناس عن حج الكعبة
فبنى بيتا ليحج الناس إليه ، فدنسه أعرابي ، فضم أبرهة على هدم الكعبة انتقاما ،
فجهز جيشا قويا تتقدمه الفيلة ، ولكن الله سلط عليه الطير ترميه بالحجارة فشرده -
وأهلكه (انظر : حياة محمد ص ١٠١ وما بعدها) .

(٥) القيل : ٣ - ٥ .

(٦) بضم الحاء ، وقع الثوب وإسكان الباء - راد بينه وبين
(٧) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٠٦ .

مكة ثلاثيا

والشاعر قد ألح إلى ثلاث قصص :

الأولى : قصة جيش أبرهة الذي أراد هدم الكعبة ، فكان جزاءه الهلاك ، ولعل في تلك القصة - التي ولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) في العام الذي وقعت فيه - ما يشير إلى أن الله حافظ بيته ، وناصر نبيه .

ولعل في قول الشاعر : (أبطال أبرهة) ما يشعر بالاستهزاء والسخرية من هؤلاء الأبطال الذين مزقوا كل ممزق ، على الرغم من كونهم أبطالاً .

الثانية : قصة الحصى الذي رماه الرسول (صلى الله عليه وسلم) على الكفار في غزوة حنين ، فانكسرت فيها جحافل الشرك ، وانهمم فيها أصوان الباطل .

ولقد أشار الشاعر - في البيت الثاني - إلى أن الحصى الذي نبذه الرسول (صلى الله عليه وسلم) - عندما كان يحارب الكفار - قد سبح في يديه قبل نبذه ، ولكن يبدو أن تسبيح الحصى كان في مناسبة أخرى غير الحرب (١) ، ويؤكد ذلك : أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) - في غزوة حنين - قال للعباس ابن عبد المطلب : ناولني حصيات فناوله حصيات من الأرض ، ثم قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : شأمت الوجوه ، ورمى بها وجوه المشركين ، وقال : انهزموا ورب الكعبة (٢) فهذه الرواية لم تذكر أن الحصى سبح في يد الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ومهما يكن من شيء ، فإن البرهيري قد أشار إلى القصة الثالثة بقوله :

(نبذ المسيح من أحشا ، ملتم) والمسيح هنا هو : نبي الله يونس (عليه السلام) الذي كان يسبح الله في بطن الحوت قبل نبذه (٣) ، ولعل الشاعر يلح بتلمسك الإشارة إلى قوله تعالى : **فَأَلْقَاهُ الْحُوتَ وَهُوَ مُلِيمٌ ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَمْسُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ، فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ** (٤) .

-
- (١) انظر : شرح الزرقاني على المواهب ج ٥ ص ١٢٠ وما بعدها .
(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ق ١ ص ١٠٦ وما بعدها .
(٣) ابن كثير : تصحيح الأنبياء ج ١ ص ٢٨٦ وما بعدها بتحقيق مصطفى عبد الواحد - مطبعة دار التاليف بدمشق سنة ١٩٦٨ .
(٤) الصافات (٣٤٢-١٤٥) ، وتفسير القرآن العظيم ج ٧ ص ٣٢ وما بعدها .

ويبدو أن الشاعر قصد تشبيه نهذ الحصى بنهذ نبي الله يونس (عليه السلام) أي مجرد تشبيه النهذ لا النهود ، لأن سدا لا يليق بنبي من أنبياء الله تعالى .
 بعض معجزات (١) الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

وبعد ما ذكر الشاعر بعض الحوادث التي صاحبت مولد الرسول الكريم ، وهدما تحدث عن بعض الأمور الخارقة للمادة مثل : (تسبيح الحصى في يد الرسول - صلى الله عليه وسلم) ذكر معجزات أخرى للنبي (عليه الصلاة والسلام) فسيأتي قوله (٢) :

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة	تحشى إليه على ساق ولا قدم (٣)
كأنها سطرت سطراً لما كتبت	فروعها من بديع الخط في اللقم (٤)
مثل الضمامة أنى سار سائسرة	تقيه حر وطيس بالهجير حصى (٥)

إن من معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) تلك الشجرة التي دعاها فأنبتت ممثلة أمره ، ومن قبل ذلك قد ظلته الضمامة (٦) ،

وإذا تأملت قول الشاعر : (جاءت لدعوته ٠٠ البيت) وجدته يتحدث عن أمر حقيقي وغوالمجىء ، ولكنه استطاع أن يصوره بصورة ملفتة للأذهان ، تأمله مسرة ثانية تجد الامتثال المطلق والخنوع التام في (ساجدة) وإذا تأملت غلطة المجس ، وجدتها دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ومن ذا الذي يناديه الرسول فمناى ، ودعوته نللا يستجيب ، ولعل في تقديم لفظ (لدعوته) ما يدل

(١) المعجزة : على الأمر الخارق للمادة يظهره الله على يد مدعى النبوة - انظر شرح البيجورى على الجوهرة ج ٢ ص ٤٥ .

(٢) ديوانه ص ١٦٥ .

(٣) لدعوته : لندائه . ساجدة : المراد ضاممة .

(٤) سطرت : خطت ، فروعها (جمع فرع) المراد أعضائها . في اللقم (بفتح اللام والقاف) في وسط الطريق . وفتة رواية الديوان المسحوق ، بينما كتب (باللقم) في بعض طبعات البردة : انظر متن البردة ص ١٧ مطبعة الشربلى بمصر سنة ١٦٧٢ .

(٥) الضمامة : واحدة الضمام : أى السحاب . الوطيس : القنور ، والمراد شدة الحر . الهجير : نصف النهار ، إذا كان حاراً . حصى الوطيس : كناية عن شدة الحر - ورواية الديوان (بالهجير) ولقد ورد ذلك اللفظ في بعض طبعات البردة (الهجسير) انظر متن البردة ص ١٨ مطبعة الشربلى بمصر سنة ١٦٧٢ .

(٦) وتظليل الضمامة لم يصحبه تحد ويبدو أن الشاعر سيذكر من المعجزات ما صاحبه تحد ، وما لا يصحبه تحد ، فيكون من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه أو من عموم المجاز (انظر تحفة السريد على جوهرة التوحيد ج ١ ص ٣٢ .

(٧) شرح الزرقانى على المواهب ج ٥ ص ١٢٠ وعناك روايات أخرى توضح الفكرة (انظر صحيح مسلم ج ٥ ص ٨٥٦ - شرح الزرقانى على المواهب ج ٥ ص ١٢٢ .

على الاهتمام بها ، وتمظيم شأنها .
والمجيب أن هذا المسمى لم يكن مجيئا عاديا ، بل إنه (على ساق بسلا
قدم) ولملك تدرك ما في هذا التعبير من روعة ، إنه يشير الدهشة ، إذ كيف
يتأتى مجيء على ساق بلا قدم ، ولكنها قدرة الخالق العظيم ، الذي يقول للشيء :
كن فيكون .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يزيد الأمر وضوحا ، والمعجزة بيانا ، فذكر أن هذه
الأشجار لم تستل الأمر بالمجيء ، فقط بل إن فروعها خطت خطوطا جميلة على
الأرض وكان هذه الخطوط تسجيلا واعترافا برسالة النبي (صلى الله عليه وسلم)
ولا شك في أن ذلك الخيال قد أكد المعنى ووضحه .

والشاعر يلصق بتلك المعجزة إلى الأحاديث التي وردت في شأنها وهي كثيرة ،
ولعل الشاعر عبر بلفظ (الأشجار) جمعا ، إشارة إلى تعدد تلك الأحاديث .

ومنها ما روى أن رجلا جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال له : أرنى
آية ، فقال له النبي : أذهب إلى تلك الشجرة ، فقل لها : رسول الله يدعوك ،
فذهب إليها ، فقال : إن رسول الله يدعوك ، فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها ،
وبين يديها وخلفها ، فتقطعت عروقها ثم جاءت تخد (تشق) الأرض حتى وقفست
بين يديه ، فأمرها الرسول بأن ترجع ، فقام الرجل فقبل رأسه ويديه ورجليه (١) .

ولعل في وقوع مثل تلك المعجزة ما يحث على الإيمان بالدين الإسلامي ، كما
أن فيه تذكيرا للذين دعاهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) فأعرضوا عنه ، في حين
أن الشجرة استجابت لدائمه (صلى الله عليه وسلم) .

وفي البيت الثالث أشار الشاعر إلى أمر غارق للمادة - أيضا - وقسح
للمرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا أن ذلك كان قبل البهثة (٢) ، وهو : تظليل
الغمامة ، وثمة ظلالته الغمامة أكثر من مرة يؤكد ذلك ما فكرته بعض كسب

(١) شرح الزرقاني على المواهب ج ٥ ص ١٣٠ ، وهناك روايات أخرى توضح الفكرة (انظر

صحیح مسلم ج ٥ ص ٨٥٩ - شرح الزرقاني على المواهب ج ٥ ص ١٢٣ .

(٢) ويسمى الأمر الغارق للمادة إذا وقع قبل البهثة . إرشاد .

السيرة والتاريخ ، ومن ذلك ما ذكرته الشيماء - أخت الرسول من الرضاعة - أنها
رأت غمامة تظلل الرسول (صلى الله عليه وسلم) فإذا وقف ووقف وإذا سارت (١)
وكان ذلك في أثناء رضاعه من السيدة حليلة السعدية (٢) ، كما ظلمت الغمامة
أيضا عندما كان مسافرا مع عمه أبي طالب إلى الشام (٣) .

وإذا كان الشاعر قد أشار إلى حدث قد أشارت إليه بعض كتب السيرة
والتاريخ فإنه استدل أن يصفه في أسلوب شائق مؤثر ، تأمل قوله (أنى سار
سائرة) تجده يوحى بحماية الله تعالى بنبيه قبل البعثة ، كما يوحى أيضا بأن
هذا الشخص سيكون له شأن كبير ، بالإضافة إلى ما في العبارة من معنى
التعجب الذي يشير الانتباه ، وساعد على ذلك أيضا ما في الأبيات من موسيقى
رائعة كان سببها تكرار حرف السين (وهو من حروف الصغير) .

ويستمر البوصيري في ذكر بعض معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول (٤)

أقسم بالقمر الضئيل له من قلبه نسبة بهرورة القسم (٥)
وما حوى الفار من خير ومن كرم وكل طرف من الكفار عنه عصى (٦)
فالصدى في الفار والمد ينلم يرما

يوهم يقولونها بالفار ممن أرم (٧)

ظنوا الحمام وظنوا الحنكوت عيسى

خير البرية لم تنسج ولم تحمم

وقاية الله أنت عن مضاعفة من الدروع وعن عالي من الأطم (٨)

(١) شرح الزرقاني على المواهب ج ١ ص ١٤٨ .

(٢) هي حليلة بنت أبي ذؤيبين سعد بن بكر - أم الرسول من الرضاعة . عسرت ولم تصرف
سنة وفاتها . أسد الغابة ج ٢ ص ٦٧ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩١ . (٤) ديوانه ص ١٩٥ .

(٥) نسبة : المراد شبهها بهرورة : صادقة من بريمتها إذا أعضاها على الصدق .

(٦) الفار : المراد به غار ثور - وثور جبل بمكة - وهو الذي اختبأ فيه الرسول وهو
مهاجر إلى المدينة . لم يرما : لم يبرحها . ثم : المراد بهم الكفار . أرم : المراد أحد

(٧) وقاية الله : حفظه ورعايته .

(٨) الدروع المضاعفة : هي التي نسجت حلقتين لكي تكون قوية . الأطم : (بضم الهمزة -
والطاء) الحصون .

ابن الشاعر يشير - هنا - إلى معجزة انشقاق القمر ، وهي ثابتة بالقرآن الكريم في قوله تعالى : " اقتربت الساعة وانشق القمر " (١) ، ومؤكدة بالسنة الشريفة ومن ذلك ما روى : أن أهل مكة سألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يريهم آية ، فانشق القمر فرقتين ... (٧) .

وإذا تأملت قول الشاعر : (أقسمت بالقمر) وجدته يؤكد وقوع هذا الأمر بالقسم ، ولكنه في قسمه هذا خالف قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت " (٢) ويمكن أن يقدر مضافا والأصل : أقسمت برب القمر ، فلا تكون هناك مخالفة .

ولقد تحدث الشاعر عن شق صدر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد حديثه عن انشقاق القمر ، ويبدو أنه وجد بينهما صلة كبيرة - فكل منهما شق ، وكل منهما منبج للهداية والإرشاد - فجمع بينهما في سهولة ويسر ، وانتقل من الأول إلى الثاني انتقالا لينا جميلا ، لا يجعلك تحس بتفسير مفاجئ .

ولا يخفى أن شق صدر الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد وقع أكثر من مرة وهو ثابت بالأحاديث الصحيحة ، ومن ذلك قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : بينما أنا في الحطيم - حجر الكعبة - إذ أتاني آت فقد - وفي رواية - فشق ما بين هذه إلى هذه (مشير إلى صدره) ... (٤)

هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

وفي البيت الثاني وما بعده يتحدثنا الشاعر عن هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة ، إلا أنه في هذا الحديث يقف بنا مع الحتمات

(١) القمر / ١ وتفسير القرآن العظيم ص ٨ ص ١٢٩ .

(٢) صحيح البخاري ج ٦ ص ١٧٨ .

(٣) صحيح البخاري ج ٨ ص ١٦٤ .

(٤) المرجع السابق ج ٥ ص ٦٦ و ج ٩ ص ١٩٨ . صحيح مسلم ج ١ ص ١٠٢ وتفسير

القرآن العظيم ج ٥ ص ١٣ وما بعدها .

المظيعة التي وقعت في تلك الهجرة ، والتي تحمل في ثناياها ظهور أمر
خارق للمادة أكرم الله به نبيه (صلى الله عليه وسلم) .

لقد خرج الرسول سرا من مكة واختبأ في غار ثور حتى يياس الكفار
من اللحاق به ، وكان معه في الغار صاحبه أبو بكر (رضى الله عنه) ، الذي
أحسن بأقدام الكفار وحديثهم بالقرب من الغار فكانت ولما سأله الرسول عن سر
بكاؤه قال له : لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا ، فيقول له الرسول
: (في ثقة واطمئنان) ما ظنك يا نبي الله ثالثهما (١) . . . وفي ذلك يقول
جل جلاله : " إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ
إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا . . . (٢) " .

وكان ما قاله الرسول لصاحبه حقا ، إذ لم يلبث الكفار أن رجسوا سوادون
أن يروا الرسول وصاحبه مع أنهما بالقرب منهما في الغار ، ولكن الله أعمسى
أبصارهم عن رؤيتهما ، ولقد ذكرت بعض كتب السيرة أن الله أكرم نبيه وحفظه
فألهم حمايتين فوقتتا على باب الغار بالأضائة إلى أن العنكبوت قد نسج
خيوطه (٣) ، كل ذلك جعل الكفار يستبعدون وجود الرسول داخل الغار .

إن الشاعر لم يذكر أكثر مما ذكرته بعض كتب السيرة والتاريخ . ولكنه كان موقفا
في صوغ عباراته ، واختيار ألفاظه ، تأمل مثلا قوله : (وما حوى الغار من خير ومن
كرم) تجد الغار قد أحاط بالرسول وصاحبه إحاطة الظرف بالمظروف وهذا
بعض ما يفهم من قوله : (وما حوى) كما أن فيه تشبها وإيحاء بمدى اهتمام
الغار بالرسول وصاحبه ونهايته بهما ، ولعل أسناد الفصل (حوى) إلى (الغار)
كان سببا في ذلك المفهوم ، ونزله منزلة من يحقل ، ثم تأمل كيف وصف الشاعر

(١) حياة محمد ص ٢١٢ بتصرف .

(٢) التوبة / ٤٠ .

(٣) الروض الأنسف ج ٢ ص ٤ .

والطبقات الكبرى ج ١ القسم الأول ص ١٥٤ .

الرسول بقوله : (من غير ومن كرم) فاستعمل ذلك الوصف للدلالة على عظم من دخل النار ، وربما كان الموصوف بالخير هو الرسول والموصوف بالكفر هو أبو بكر ، ففيه إشارة إلى أن الكرم جزء من الخير ، إذ الخير أعم وأشمل وكون الرسول خيرا لا يحتاج إلى بيان ، أما كون الصديق ذا كرم ، فلا يخفى أنه انتدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بنفسه ، ولذا قيل : إن دخل النار قبله ليكشف عما فيه من حشرات (١) ، بالإضافة إلى موافقه الجليلة نفسى الإسلام ، ويؤكد ذلك قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " إن آمن الناس على نبي ماله وصحبه أبو بكر ، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام (٢) " .

ولعل قول الشاعر : (وكل طرف من الكفار عنه عصى) يوحي بالاستهزاء والسخرية من هؤلاء الكفار الذين أحاطوا بالنار إحاطة السوار بالمحصن ، وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) أمامهم ، ولكن عناية الله ورعايته - صرفت أبصارهم عنه ، فرجعوا خائبين ، يقولون ، (ما بالفار من أرم) مع أن (الصدق) - وهو الرسول - (والصدیق) داخل النار .

لقد أحسن الشاعر عندما أشار إلى سخافة عقول هؤلاء الكفار ، وسفاهة أحلامهم بقوله : (ظنوا الحمام وظنوا المنكبوت) فكرر لفظ (ظنوا) مرتين إشارة وتأكيدا إلى أن الأمر عندهم مجرد ظن .

ولما كان المقام مقام إشادة بقدرة الله ، حسن قول الشاعر : (وقاية الله أعتت ... البيت) ، ولعل في إضافة (وقاية) إلى لفظ الجلالة (الله) ما يشير إلى عظمة تلك الوقاية التي أعتت عن كثير من الحراس المسلحين بأسلحتهم المختلفة ، والله أكبر وحصونهم القوة ، إذ هي وقاية خالق القوى والقدور .

إن هذا البيت - الأخير - من الجوامع التي تلهي بالعرائم ، وتشحن الهمم وتقوى اليقين ، ولعل الشاعر حذف المفعول به للمصوم والشمول ، فيفيد أن الوقاية كانت لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وستكون لكل من سلك طريقه

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٩ . (٢) صحيح مسلم ج ٥ ص ٢٤٤ .

واتبع شريعة الله الذي أخذ على نفسه عهدا مؤكدا بقوله : " إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا
وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ " (١)

إلا أن خيال الشاعر في هذا البيت كان بدويا ، أو قريبا منه ، إذ اختار
: " الدروع المضطفة ، والحصون المالية " ولعل عذره في ذلك الاختيار أنه
عاش في عصر لم تكن الأسلحة الحديثة قد ظهرت فيه ، أو انتشرت فيه بشكل كبير
ويمكن القول بأن الشاعر أراد أن يصور الأحداث وقت وقوعها ، ولا شك فسي أن
وقت هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم تكن الأسلحة تتجاوز فيه - ظاهريا
الدروع والسهام ونحو ذلك .

ولا يخفى أن تلك الأبيات قد زينت ببعض المحسنات البديعية التي زادت
العبارة جمالا وجلالا ، ومن ذلك : (الجناس الشبيه بالمشقق بين (الصدق
والصديق) اللف والنشر المشوش في (ظنوا الحمام .. لم تحم) و (ظنوا
المنكبوت .. لم تتسج) ، ويبدو أن الشاعر أخطأ في قوله : (لم يرما) ولعل
الصواب : (يريما) إذ ليس هناك ما يدعو إلى حذف الياء عند إسناده إلى السيف
الاثنين . وأصل الفعل (رام يريم)

ولقد أراد الشاعر أن يبين مقام الرسول الكبير عند ربه ، وشأنه العظيم
عند خالقه فقال : (٢)

ما ساعى الدهر ضيما واستجرت به
إلا وفلت جوارا منه لم يضم (٣)

(١) ظفر / ٥١

(٢) ديوانه ص ١٦٥

(٣) سامني : من السوم بمعنى أذقني ، ومنه قوله تعالى : " يَسْمُونَكُمْ سِوَةَ الْعَذَابِ " البقرة : ٤٩ - الدهر / العواد به الزمن ، ضيما : ظلما ، استجرت به : من قولهم استجار فلان بفلان ، إذ اطلب منه النجاة والخلص ومنه قوله تعالى : " وَإِنْ أَحْسَدَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ " التوبة / ٦ وقيل : بمعنى الاستئمان ، والضمير في (به) عائد على الرسول (صلى الله عليه وسلم) . جوارا : (بكسر الجيم وضمها) بمعنى القربى مطلقا ، والمراد به هنا لزمه من الحماية والرعاية . لم يضم : المراد لم يحتقر .

ولا التمسته غنى الدارين من يسئده

(١) إلا استلمت الندى من خير مستلم

يبين الشاعر أنه لم يقع عليه ظلم ، ولم تحل به ضائقة ، وتوسل بالرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا أتى الفرج ، وأصبح في عز ومنحة ، وفقى ويسار :

وإذا تأملت قبوسه : (ما سامني الدهر ضيما ٠٠) وجدته يدل على كثرة الظلم الذي وقع عليه ، إلا أن إسناد (السوم إلى الدهر) منهي عنه شرعا لقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديث القدسي عن الله عز وجل : " لا تسبوا الدهر ، فأنا الدهر ... (٢) " .

فإذا كان الشاعر قد أسند الظلم إلى الدهر فإنه قد أسنده إلى الله (لأن الله هو الدهر كما في الحديث القدسي أو خالفه) والله لا يظلم أحدا ، يقول تعالى : " إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ٠٠ (٣) " . كما أنه تعالى لا يحب الظلم ، ولذا حرمه على نفسه وعلى عباده أيضا - ويؤكد ذلك الحديث القدسي : " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا . (٤) "

والشاعر قد توسل (٥) إلى الله تعالى بالنبي (صلى الله عليه وسلم) يشير إلى ذلك قوله : (واستجرت به ٠٠) وهو في هذا يسير على رأى بعض الملماء الذين أجازوا التوسل بالإشارة إلى الصوفية أيضا (٦) ، ولكن ابن تيمية (٧) قد ضمه (٨)

(١) التمسته : طابعت ، وأصله الطلب من المساوي ، ولكنه هنا الطلب بملقاً . استلمت :

المراد به هنا : أخذت المظالم . بمعنى تسلمت على حسب ما أراد الشاعر . الندى : المظالم الجزيل . مستلم : (بصيغة اسم المفعول) وحذف متعلقه للقافية والأصل (مستلم منه) .

(٢) صحيح مسلم : ج ٥ ص ١٠٢ وما بعدها .

(٣) النساء / ٤٠ .

(٤) صحيح مسلم ج ٥ ص ٤٣٩ .

(٥) المراد بالتوسل : أن يقول الشخص : اللهم حقق لي كذا بجاه النبي (صلى الله عليه وسلم) مشد ، فهو يدل على التقرب إلى الله بالنبي مثلا .

(٦) الصلوة والاعتبار ص ٣ ، ص ٢٢٩ ، دراسات في التصوف الإسلامي ج ٢ ص ٤٥ .

(٧) هو : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني - أحد علماء السلف مات سنة ٢٨ ٥٧ هـ (الأعلام ج ١ ص ١٤٠) .

(٨) ابن تيمية : عقيدة أهل السنة بتعليق عبد الرزاق عفيفي ص ٣٦ دار الطباعة المحمدية بدمشق (غير مؤرخ) .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يؤكد حصوله على مطلبه ببركة النبي (صلى الله عليه وسلم) فأعاد النقي في البيت الثاني بعد ما ذكره في البيت الأول ، وربما سأل سائل : كيف يصح للشاعر أن يقول : (غنى الدارين) مع أن الآخرة غيب لا يعلمه إلا الله ؟ . والجواب عن ذلك : إن الشاعر قد أخبر عن نيته (غنى الدارين) على سبيل التخليب والتحميم ، فإذا كان الله قد أكرمه في الدنيا بفضل مديحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فأمله كبير في الله - أيضا - أن يكرمه في الآخرة ، بفضل شفاعته النبي (عليه الصلاة والسلام) ، ولعل ما يؤكد ذلك قوله : (من يده) إذ في هذا التعبير مجاز مرسل من قبيل إطنافى السبب وإرادة السبب .

ولا يخفى أن البيتين قد اشتملا على بعض المحسنات الابداعية السنتي كان لها أثر كبير في وجود تلك الموسيقى الرائعة ، ومن ذلك : الجناس الشبيه بالمشفق في (استجرت وجوارا) ، ورد العجز على الصدر في قوله : (التمت ومستم) .

والشاعر قد خالف جمهور النحاة عندما أدخل الواو على الفعل الماضي الواقع حالا بعد إلا ، في قوله : (إلا ونلت) . والراجع (الإلت) (١) .

كما أن قوله : (استلمت) لم يرد في معاجم اللغة الغربية على المعنى الذي أراده الشاعر ، لأنه أراد به (أخذت) وهذا خطأ شائع في كلام الناس إذ يقولون (استلمت الشطاب) مثلا ، والصواب (تسلمت) ، أما (استلم) فهو بمعنى (لمس) تقول : (استلمت الحجر الأسود) أي لمستته بالقبضة أو باليد (٢) .

مقدمات الوجداني

انتقل الشاعر إلى ذكر بعض مقدمات الوحي بقوله (٣) :

لا تنكر الوحي من رؤياه وإن لم

قلبا ، إذا نامت العينان لم ينم

(١) مزار السالك ج ١ ص ٣٧١ . (٢) المصباح الضير مادة (سلم) ج ١ ص ٣٦٠ .

(٣) ديوانه ص ١٦٥ وما بعدها .

وذاك حين بلوغ من نبوته
فليس ينكر فيه حال محتلم (١)
تبارك الله ما وحى بمكسب
ولا نبى على غيب بقتهم

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن أولى مقدمات الوحي وهو الرؤيا الصادقة ، فكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح (٢) ، ولقد كانت هذه الرؤيا تمهيدا وإعدادا لمرحلة ثانية هي استقبال الملك ، وهذا الإعداد من قبل الله سبحانه وتعالى (٣) .

والفكرة هنا غير قوية الارتباط بالفكرة السابقة ، كما أن الحديث عنها لم يأت في وقته الطبيعي مما يدل على أن أفكار الشاعر لم تكن مرتبة .

ومهما يكن من شيء ، فالشاعر تصور أمامه شخصا فنصحه بعدم جحود رؤيا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وما يوحى إليه فيها ، لأن رؤيا الأنبياء حق ، وما يؤكد ذلك ما رآه نبي الله إبراهيم (عليه السلام) في المنام إذ رأى أنه يذبح ابنه إسماعيل ، فلم يملك إلا التسليم لأمر الله ، والرضا بقضاء الله ، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى : " قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي آرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى " . (الآيات) (٤) وفي ذلك تلميح إلى قول السيدة عائشة (رضي الله عنها) " أول ما بدئ به الرسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم " . (٥) .

ولما كان الأمر غريبا في ظاهره ، وضحه الشاعر وأكد به قوله : (إن له قلبا إذا نامت فلمينان لم يتم) فإذا تأملت تلك العبارة وجدت بها قد اشتملت على معنى أكثر من مؤكد ، ولعل الشاعر تصور مخاطبه جاحدا منكرا ، فأكد قوله به (إن) ،

(١) بلوغ : المراد وصول - من : بمعنى إلى والمراد بقوله (من نبوته) الوقت الذي كلفه الله فيه بالرسالة .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ القسم الأول ص ١٢٩ .

(٣) حاشية الباجوري على البردة ص ٥٣ بمصرف .

(٤) الصافات (١٠٢ - ١٠٥)

(٥) صحيح البخاري ج ٦ ص ٣ .

وتقديم الخبر (له) ولعل في ذلك التقديم إشارة إلى أن ذلك القلب بطلبك
الخصوصية لفئة معينة من الناس بهم الرسل (عليهم السلام) ، كما أن تنكير
قلبا (يدل على عظم شأن هذا القلب .

ولقد أسند الشاعر النوم إلى العيينين ، وفي هذا الإسناد مجاز مرسل
ولاقته الجزئية - يعبر بالجزء وأراد الكل - ، ولعل في ذلك دلالة على أن العيينين
هما أول ما يتأثران من الحواس وتظهر عليهما دلائل النوم ، وفي ذلك تلويح
إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " تنام عيني ولا ينام قلبي (١) " .

ثم بين الشاعر زمن تلك الرؤيا فقال : (وذاك حين بلوغ من نبوته) أي
حين وصل عليه الصلاة والسلام إلى سن الأربعين ، وهو سن بدء النبوة .

ولعل الشاعر أراد أن يؤكد ثبوت بدء الوحي بالرؤيا الصادقة فقال :
(وليس يُنكر فيه حال محتمل) . وإذا تأملت الفعل (ينكر) وجدته بيننا
للمجهول ، كان الشاعر حذف فاعله ليعين أن من ينكر بدء الوحي بالرؤيا
الصادقة ، لا عبرة بإنكاره ، ولا قيمة لوجوده ، بل لا وزن لوجوده ،
ومستحق إغفال ذكره ، وإخفاء أمره .

ثم ينتقل الشاعر إلى تأكيد شأن النبوة ، ويحان أن الله سبحانه وتعالى
هو الذي " يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ " (٢) . فقال : (تبارك
الله بما وحي بمكسب) ولطالك تدرك تعظيم الله وتقديسه في قول الشاعر : (تبارك
الله) . وكأنه أراد أن يمهّد بذلك لتلك القضية الكبيرة التي يزعمها بمض
الفلاسفة وهي : أن النبوة تنال بالاكساب ، وأن في إمكان العبد أن ينالها
بمباشرة أسباب معينة ويفسرونها بأنها : صفا ، وتجعل للنفس يحدث لها من -
(الرياضيات) بالتخلي عن الأمور الذميمة ، والتخلي بالأخلاق الحميدة . (٣)

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ٤٣٢ .

(٢) الحج / ٧٥ .

(٣) شرح البيهقي على الجوهرة ج ٢ ص ٣٩ .

والشاعر قد أحسن في قوله : (ما وحى بمكسب . .) فأتى بحرف النقي (ما)
وأدخله على التكرة (وحى) ليفيد المصوم والشمول ثم أكد ذلك المصوم بزيادة
الهاء على خير (ما) كل ذلك ليؤكد نفي اكتساب النبوة بحال من الأحوال ،
وهين أن الإنسان مهما علا شأنه لا يستطيع أن يكون نبيا ، وكيف يكون كذلك
والله جل جلاله : . . أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْمَلُ رِسَالَتَهُ . . (١) فيختار الأنبياء ، بعد
أن يضمنهم على عينه ، متصفين بصفات الكمال ، منزهين عن صفات النقص
وهذا ما أشار إليه الشاعر بقوله : (ولا نبى على غيب بينهم) فأكد أن كسل
الأنبياء منزهون عن أن يكونوا خاشعين ، ولعله يلح بذلك إلى قول الله
تمالئ : (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢) إذ قرئ (بِضَنِينٍ) أى بينهم (٣) .

ويدو أن الشاعر تذكر بعض مصجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) السنى
لم يشر إليها فيما سبق فقال (٤) :

وأطلقت أريا من ربة اللحم (٥)
حتى حكمت غرة في العصر الدهم (٦)
سبعين اليم أو سيل من العرم (٧)

كم أبرأت وصبا باللمس راحتها
وأحيت السنة الشهباء دعوتها
بمارض جاد أوغلت البطاح بها

(١) الأنعام / ١٢٤

(٢) التکویر / ٢٤

(٣) تفسير القرآن العظيم ج ٨ ص ٣٦٢

(٤) ديوانه ص ١٩٦

(٥) أبرأت : المراد : شفت . وصبا (بفتح الصاد) : المرض (وكسرهما) المريض

أطلقت : حلت . أريا : (بفتح الهمزة وكسر الراء) صاحب الحاجة

أى المحتاج إلى الشيء . ربة : (بكسر الراء) حبل له عقدة

اللحم : (بفتح الحين) الجنون : وصفار الذنوب ، والمراد هنا الأول .

(٦) أحيت : المراد أخصبت الشهباء : مومئاً شهب وهو الفرس الذى يخلب بياضه

على سواده . غرة (بضم الفين وفتح الراء مشددة) البياض فى الجبهة .

العصر : جمع عصر أى الزمان . الدهم : (بضمين وضم فسكون) جمع أدهم

وهو الأسود الشديد السواد .

(٧) عارض : المراد سحب . جاد : كثر مطره . السيب : الجرى

اليم : البحر . العرم : اسم لوادى ، وقيل : هو السيل الذى لا يطلق

دفعه ، وقيل : هو جمع غرمة بمعنى السد .

يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى أمرين خارقين للمادة قد ثبتا للرسول (صلى الله عليه وسلم) : أما الأمر الأول : فهو شفاؤه بعض المرض بوضع يده الشريفة على مكان الألم ، وأما الأمر الثاني : فهو حلول الخصب بمسسه الجذب ببركة دعوته (صلى الله عليه وسلم) .

وإذا تأملت قول الشاعر : (كم أبرأت وصبا باللمس راحته) وجدته ملائما للفكرة ، ويؤكد ذلك لفظ (كم) فهو يشير إلى كثرة من تم لهم الشفاء على يد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهذا يطابق ما ذكرته بعض كتب السير (١) ومن شفاهم الله ببركة الرسول (عليه الصلاة والسلام) قتادة بن النعمان (٢) الذي أصيبت عينه في إحدى الغزوات ، فحضر الرسول (صلى الله عليه وسلم) عند تقصيبه براحته ، فكان لا يدري أي عينه أصيبت (٣) .

ولا يخفى أن في إسناد (أبرأت) إلى (راحته) مجازا عقليا ، لأن الشافي في الحقيقة هو الله ، والرسول (صلى الله عليه وسلم) كان سببا ، كما عبر الشاعر بالجزء (راحته) وأراد الكل وهو (يده) وفي ذلك مجاز مرسل علاقته الجزئية ، ولعل في ذلك التعمير دلالة على سرعة الشفاء بمجرد وضع هذا الجسز من اليد .

ولقد أفر الشاعر الفاعل وقدم المفعول زيادة في التشويق إلى المؤخره وزيادة في الاهتمام بالمقدم ، ولعل في لفظ (باللمس) ما يوحي بقلعة الزمن الذي يستغرق حتى يأتي الشفاء بعده ، وفي ذلك إشارة إلى عظم فضل الله على رسوله (صلى الله عليه وسلم) .

ولمخ الشاعر بقوله : (وأطلقت أربا من ريقه للسم) إلى ما روى عن ابن عباس (رضي الله عنهما) : أن امرأة جاءت بولدها إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت : يا رسول الله ، إن به لعا ، وإنه يأخذه عند طماننا ، فيفسد

(١) أسد الغابة ج ٢ ص ٥١٢ ، ج ٤ ص ١٠٤ وما بعدها .

(٢) هو : قتادة بن النعمان بن زيد الأنصاري ، صاحب جليل توفي سنة ٢٣ هـ (المرجع السابق ج ٤ ص ٣٨٩) .

(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ٣٩٠ .

علينا طعامنا ، قال : نصح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صدره ، ودعا له ،
فتح تحفة ، فخرج من فيه مثل الجرو الأسود ، ونفى (١) .

ولعل في لفظ (أطلقت) إشارة إلى عظم أثر هذه اليد المباركة ، ونسى
الإسناد إلى ضميرها مجاز عقلي ، وهو يفيد التشخيص الموحى إلى منزلة اليد ،
وصاحبها عند الله تعالى مثل (أبرأت) ،

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (من رقة اللحم) استمارة تصريحه بجمسة ،
لا يخفى أثرها في بيان حالة من يصيبه اللحم .

ولقد أشار الشاعر بقوله : (وأحيت السنة الشهباء دعوته .. البيت) إلى
ما رواه أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال : أصابت الناس سنة على عهد
النبي (صلى الله عليه وسلم) فبينما النبي يخطب في يوم الجمعة قام أعرابي ، فقال
: يا رسول الله ، هلك المال ، وجاع الميال ، فادع الله لنا ، فرفع يديه ،
وما نرى في السماء قزعة ، فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار الحساب
أمال الجبال . ثم لم يخل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته (صلى
الله عليه وسلم) فطرنا يوماً ذلك ، ومن الغد ، ومعد الغد ، والذي يليه
حتى الجصة الأخرى ، وقام ذلك الأعرابي - أو قال غيره - فقال : يا رسول الله
: تهدم البناء ، وغرق المال ، فادع الله لنا فرفع يديه ، فقال : اللهم حوالينسا
ولا علينا ، فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت وصارت المدينسة
مثل الجومة ، وسان الوادي قناة شهرا ، ولم يجئ أحد من ناحية إلا حمدت
بالجود (٢) .

ولا يخفى أن الشاعر قد عبر عن الفكرة بأسلوب رائع ، أكد المراد ووضحه ،
ومن ذلك تلك الاستمارة التي في قوله : (وأحيت ..) فهي تدل على معنى أن
الأرض كانت هامدة جامدة ، مقفرة مجذبة ، وسبب تلك الدعوة المباركة فاست
فيها الحياة ، وأنبثت من كل زوج بهيج .

وما يؤكد أن الأرض كانت مجذبة قول الشاعر : (.. السنة الشهباء ..)
فهذا كناية ، مستمدة من الهيئة البدوية ، لأن الأرض إذا كانت خالية مسن
(١) معنيده الإمام أحمد ج ١ ص ٢١ وما بعدنا ، ومعنى فتح : قام ، والجرو : الصغير من ولد
الكلب ، ويطلق أيضا على ما استدار من الثمار كالحنظل ونحوه . (٢) صحيح البخاري ج ٢
ص ١٥ . ومعنى (قزعة) بثلاث فتحات : سحابة .

النبات غلب بياضها على سوادها، إذ شدة خضرة النبات تجعل لونه يميل إلى اللون الأسود ، يدل على ذلك قوله تعالى : " مَدَّحَامَتَانِ " (١) .

ولقد أحسن الشاعر عندما أسند (الإحياء) إلى (الدعوة) ، إذ في هذا الإسناد مجاز عقلى - من إسناد الشيء إلى سببه ، لأن الفاعل في الحقيقة هو الله - لا يخفى أثره في تشخيص الدعوة ، والتنويه بعظم شأنها ، إذ كانت سبباً في نزول المطر ، الذي جعل تلك السنة كالشجرة في جبين غيرها مسنن سنى الرخاء .

وأراد الشاعر أن يبين غزارة المطر الذي نزل ، فأشار إلى أنه كان (كسبب من اليم ، أو سيل من الحرم) .

ولقد اشتملت تلك الأبيات على بعض المحسنات الابداعية ، التي ساعدت على إبراز المعنى ، ووضوح الفكرة ، ومن ذلك : الطباق بين (أبرأ ووصها) ، والجناس الناقص في قوله : (سبب ، سيل) .

القرآن الكريم :

وإذا كان الشاعر قد ذكر بعض معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فإنه هنا يخص القرآن الكريم - تلك المعجزة الخالدة - بحديث رائع ، إلا أنه مهد لذلك الحديث بقوله (٢) :

دعنى ووصفى آيات له ظهرت

ظهر نار القيرى ليلا على علم (٣)

فالدريزداد حسنا وهو منتظم

وليس ينقص قدرا غير منتظم

(١) الرحمن / ٦٤ ، تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٤٨٢ .

(٢) ديوانه ص ١٩٦ .

(٣) وصفى : المراد نظمى .

فما تتناول آمال المديح إلى ما فيه من كرم الأخلاق والشيم (١)

يبدو أن الشاعر تخيل شخصيا يقول له : ما فائدة نظمك تلك المعجزات التي نسمع عنها ولم نرها ، وبعضها ثبت بطريق ضعيف ، بل إن بعضنا رأى بعضها - أيام الرسول - أنكروا ، وسجل القرآن الكريم عليهم ذلك في أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله تعالى : **وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمَرٌّ** (٢)

فكان حسنا من الشاعر أن يقول له : دعنى ونظم تلك المعجزات الواضحة والآيات البينة ، التي انتشر أمرها ، وثبت وقوعها ، ونظمها يزيدنا انتشارا ، ومع ذلك فعدم نظمها لا ينقص قدرها ، ولا قدر صاحبها ، الذي وصف بصفات لا يدرك لها غاية ، وصحبا حاول المادحون ، وصفه (صلى الله عليه وسلم) فلن يستطيعوا الإحاطة بما فيه من كرم الأخلاق وهنيم السجايا .

ويبدو أن البوصيري قد نهج نهج بعض الشعراء العرب القدامى الذين (٣) كانوا يتحدثون عن فكرة فإذا أرادوا الانتقال إلى فكرة ثانية قالوا : (دعنى - دع ذا) وأقرب مثال على ذلك قول زهير : (٤)

(١) تتناول : (فتح التاء ، وضم الواو) في الأصل : هذه المنقول لرواية شيبويه ، بعيد ، والمراد هنا طلب الوصول إلى الهى ، وإدراكه والإحاطة به - المديح : وجزور بإضافة (آمال) إليه - وهذا هو الصحيح الموافق لديوان المحقق - إلا أن بعض الكتاب يقول : إنها في بعض النسخ (آمالي) مضافة إلى يا المتكلم ، ونصب المديح إما بآمال أو بنوع الخافض ، وكل منهما غير مقيس ، لأن المصدر لا يحمل إذا كان جوهريا كما في الأول ؟ آمال) . وأما في الثاني (آمالي) فلأن النصب بنوع الخافض موقوف على السماع مع غير (أن - وأن - وكي) . انظر حاشية الهاجورى على السبورة ص ٨٥ ، التصريح على التوضيح ج ١ ص ٣١٢ .

(٢) القمر : ٢٠

(٣) الصعدة ج ١ ص ٢٣٩

(٤) هو : زهير بن أبي سلمى ، أحد فحول هخراة الجاهلية توفى سنة ٦٣١ م (تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٩٦) .

دع ذا وعد القول في هـرم
خير الهداة وسيد الحضرة (١)
ومثل هذا الانتقال الفجائي يسمى اقتضاباً (٢) وهو يجذب الانتباه
إلى الفكرة الثانية ولكنه يجعل الشاعر يترك الفكرة الأولى وينتقل إلى الثانية
بفسيرته بيد :

وإذا تأملت قول الشاعر : (دعنى ووصفى آيات له ظهرت) وجدته يشير
إلى عظمة تلك الآيات ويؤكد ذلك تنكير لفظ (آيات) والإتيان به جماعاً كما
أن فى لفظ (له) إشارة إلى اختصاص الرسول (صلى الله عليه وسلم) بهذه
المعجزات وأنه لم تأت معجزة منها لغيره (عليه الصلاة والسلام) .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يؤكد شيوع تلك المعجزات فوصفها بقوله (ظهرت)
ولا يخفى ما فى اللفظ من إيحاء بوضوحها ويؤكد ذلك أنه أسند ذلك الفعل إلى
ضمير الآيات وهذا الإسناد مجاز عقلي فيه تخصيص يؤكد وضوح هذه الآيات
التي أشبهت فى ظهورها (ظهور نار القرى ليلاً على علم) وهذا التشبيه يدل
على فائدة تلك الآيات الكثيرة ومنها : الهداية والدلالة على صدق الرسول
(صلى الله عليه وسلم) كما أن النار التي يوقدها الرجل العربي بالليل على الجبال
المالية يهتدى بها السائرون فى الظلام الحالك .

إن تلك المعجزات لها قيمة عظيمة تشبه قيمة الدر الذي إذا جمع ففسس
سلك واحد ازداد جمالاً وروعة ، وإذا لم يجمع لم يفقد من قيمته شيئاً ، لأن
حسنه طبعى فى أصله ، وكذلك المعجزات يزداد قدرها إذا نظمت ، وينتشر
خبرها إذا جمعت ولا ينقص قدرها ، أو يقلل قيمتها عدم نظمها ، وهذا ما أشار
إليه الشاعر بقوله : (فالدر يزداد حسناً وهو ينظم) .

(١) ديوان زهير بشرح الشيبانى ص ٨٨ مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٤ هـ وهم

هو هـرم بن سنان أحد أجواد العرب كان زهير يمدحه فيجزل له المحلا .

(٢) الموازنة بين الشعراء ص ٢٠٧

وإذا كان هذا شأن الآيات ، فما بالك بشأن صاحبها ، الذي تمت علمي
يديه ، إنه (صلى الله عليه وسلم) ضبح الأخلاق الكريمة ، والصفات الحميدة
التي يحجز عن الإحاطة بها الواصفون .

وهذا ما أشار إليه البوصيري بقوله : (فما تناول آمال المديح . . البيت)
ولعل في قوله : (. . إلى ما فيه من كرم الأخلاق والشيم) ما يوحي بأن هذه
الصفات الكريمة متكفية في الرسول (صلى الله عليه وسلم) تمكن الطرف بالمطروف ،
كما أن في ذكر لفظ (الشيم) بعد لفظ (كرم الأخلاق) ما يقوى المعنى ، ويؤكد
الفكرة .

ثم انتقل الشاعر إلى الحديث عن القرآن الكريم بقوله (١)

آيات حق من الرحمن محدثة	قديمة صفة الموصوف بالقدم (٧)
لم تقترن بزمان وهي تخبرنسا	عن المعاد وعن عاد وعن إرم (٨)
دم امت لدينا نقلت كل معجزة	من النبيين إذ جاءت ولم تدم

يصف الشاعر آيات القرآن الكريم في تلك الأبيات - بعدة صفات :
فهى آيات حق من عند الله أنزلها الله على نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) ،
وهى محدثة بالنظر إلى نزولها ، ولكنها قديمة بالنظر إلى أنها كلام الله ، كما
أنها ليست مقيدة بزمان ولا مكان ، وتحدثنا عن المستقبل وعن الماضي ، وتحدثنا عن
المستقبل مثلا في ذكر يوم القيامة وما فيه من أهوال لكي يستعد الإنسان ، ويتزود
لذلك اليوم بالأعمال الصالحة ، وتحدثنا عن الماضي - مثلا - في قصص الأمم
السابقة ، وما نزل بهم من بلاء ، ليأخذ الإنسان العبرة والعظة ، كما أن هذه

(١) ديوانه ص ١٩٦ .

(٢) آيات : (جمع آية) والمراد بها هنا القرآن الكريم ، محدثة : من الحدوث وهو
ضد القدم .

(٣) لم تقترن : من الاقتران وهو المصاحبة والمراد : لم تقيد المعاد : المراد يوم القيامة
عاد : اسم قبيلة - سميت باسم جدّها عاد بن إرم بن سام بن نوح (عليهما السلام) وهنم
الذين بعث الله إليهم نبيه هودا (عليهما السلام) : انظر تفسير القرآن العظيم
ج ٧ ص ٢٣٦ ، ٤١٦ ، إرم : مدينة بناها شداد بن عاد وزخرفها ، واليهما
أشار القرآن الكريم في قوله تعالى : " إرم ذات الجمل التي لم يخلق مثلها
في البلاد " . الفجر / ٧ ، ٨ .

المعجزة قد فاقت كل معجزات الأنبياء السابقين ، هـ بل فاقت معجزات النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) الأخرى لأنها باقية خالدة ، وكل المعجزات الأخرى انتهت بوقتها ومحده نبيها .

والشاعر قد وفق في اختيار ألفاظ دلت على المعنى المراد ، فمثلا : أتى بلفظ (آيات) جمعا منكرًا ليشير إلى عظيم شأنها ، ورفيع قدرها ، وأكد ذلك بإضافته إلى لفظ (حق) كأنه بذلك أراد أن يرد على المشركين الذين زعموا أن هذه الآيات من أمهات طير الأولين ، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى : " وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأُصِيلًا (١) .

ولعل في اختيار لفظ (الرحمن) ما يشير إلى أنها من عند من اتصف بالرحمة ومقتضى ذلك أنه يشرع لمبادئه ما يسعدهم في الدنيا والآخرة ، وهذا يتطلب الإيمان بالله والامتثال لأمره والعمل بكتابه .

وإذا تأملت لفظي (محدثة ، وقديمة) - اللذين وصف الشاعر بهما آيات القرآن الكريم - تملكك العجب ، إذ كيف يوصف شيء واحد بصفتين متضادتين ! ولكن سرعان ما يظهر الأمر ، وينزل العجب ، لأن الشاعر وصف آيات القرآن بأنها محدثة أي في نزولها منسجمة على حسب الوقائع والحوادث ، ولعله نظر في ذلك إلى قوله تعالى : " وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُجَدِّدًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٧) " ووصفها بأنها قديمة أي في مدلولها ، أو على أنها كلام الله ، فهو صفة من صفاته ، وصفات الله كلها قديمة (٢) . ويبدو أن الشاعر يلجح بذلك إلى تلك الممارك التي قامت حول القرآن الكريم أم مخلوق أم غير مخلوق ؟ (٤) وكانت تلك الممارك فتنة ابتلى بها كثير من علماء الأمة .

(١) الفرقان / ٥٥ (٧) الضمراء / ٥٥ .

(٢) شرح البيهقوري على الجوهرة ج١ ص ٦٦ .

(٣) موج الذهب ج٢ ص ٢٤٨ وص ٣٦٦ ، الدكتور : شوقي ضيف : المصر

العباسي الأول ص ٣٩ وما بعدها طبعة دار المعارف بمصر (غير مؤرخ) ،

والنجوم الزاهرة ج٢ ص ٢١٦ ، ص ٢١٨ .

ولعل الشاعر أرد أن يؤكد منزلة هذه الآيات فأسند إلي ضميرها الفعلية من
(تقترن وتخبرنا) وفي هذا الإسناد مجاز عقلي ويوحى بأثرها العظيم ، وكانتها
الرفيعة ، ويؤكد ذلك الإتيان بضمير النصل (وهي) . كما أن الشاعر كرر لفظ
(عن) ثلاث مرات وفي التكرار إطناب وهو محبوب في مقام المدح والثناء .

وفي البيت الثالث يبين الشاعر علة تفضيل هذه المعجزة على ما عداها
بقوله : (دامت لدينا - البيت) ولا يخفى أن في لفظ (دام) ما يوحى
بالاستمرار ، إشارة إلى أن هذه الآيات لن تأتي بعدها آيات أخرى ، كما أنها
محفوظة بلا تغيير ولا تحريف ، كما قال الله تعالى : **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ
وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** . . (١) . ولعل لفظ (فاقت) يوحى برفعتها وعلو شأنها ، على
غيرها من المعجزات مهما كان شأنها ، والعلة في ذلك أنها (جاءت ولم تدم) .

ولم يقف فضل آيات القرأت الكريم على دوامها فحسب بل إنها (٢) :

محكمات فما تبقيين من شبهه	لذي شقاي وما تبقيين من حكم (٣)
ما حوريت قط إلا عاد من حارب	أعدى الأعداى إليها ملقى السلم (٤)

(١) الحجر / ٩ .

(٢) ديوانه ص ١٦٦ .

(٣) محكمات : (بسكون الحاء وفتح الكاف) متقنات ، وفي بعض النسخ (محكمات) بفتح الحاء
وفتح الكاف مشددة . ولكن الأول أرجح لاتفاقه مع الوزن (انظر حاشية الباجوري على
البردة ص ٦١) . شبه (بضم الشين وفتح الباء) جمع شبهة : (بضم فسكون) والمراد
الالتباس . شقاي : خلاف . ورواية الديوان (تبقيين - تبقيين) والهاء وفي بعض النسخ
بالياء : انظر متن البردة ص ١٥ مكتبة تاج بطنطا غير مؤرخ .

(٤) الحرب : (بفتح الحاء والراء) السليبين قولك حربيت الرجل حربا إذا سلبته والمسراد
هنا : الشدة فكان من يمارضها يرجع مسلوب فكرة معارضته إياها من شدة بلاغتها .
الأعداى : (جمع أعداء ، وهو جمع عدو) وصحني (أعدى الأعداى) : أشد الغلبى
عداوة السلم : (بفتح السين واللام) الاستسلام - ومنه قوله تعالى : **وَالْقَوْلَ الْبِكْرُمِ
السَّلْمِ** . . النساء / ٩٠ .

ردت بلاغتها دعوى معارضتها رد الفيور يد الجاني عن الحرم (١)

يذكر الشاعر أن تلك الآيات قد بلغت النهاية في الفصاحة والبلاغة ، وليس فيها مطعن لطعن ، أو مغمز لكافر ، ولا تحتاج إلى حكم ينصفها ، أو إلى ذي لسان يدافع عنها ، فهي قوية بنفسها ، وآية ذلك أنها ردت كل من حاربها أو عارضها ، وجملته يحترف بفضلها ، ويشيد بأحكامها .

كان الشاعر موفقا في اختياره ألفاظا مناسبة للمعنى ، تأمل قوله : (محكمات) تجده يشير إلى أن هذه الآيات لا لهم فيها ولا غموض ولا تناقض ، وكيف يوجد فيها مثل ذلك وهي منزلة (مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (٧) . ويبدو أن الشاعر يلمح بذلك اللفظ إلى قوله تعالى : " هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ۝ ٥٠٠ ۝ الْآيَةُ (٢) " .

ولقد دل على هذا الأحكام أن هذه الآيات لم تبق شبهة لكافر أو منافق - (لذي شقاق) - إلا فندتها ، وكشفت عن زيفها ، ولعل في قول الشاعر : (ذي شقاق) إشارة إلى أن من يدعى أن في تلك الآيات شبهات ، ما هو إلا مشاqq الله ورسوله ، أو أنه في شق والإسلام في شق آخر .

وإذا تأملت قول الشاعر : (ما تبتغيين من شبه ٥٥ وما تبتغين من حكم) رأيته يؤكد قوة هذه الآيات ، وآية ذلك أن البوصيري صدر الجملتين بالنفي ، وسبر

(١) ردت : دفعت والمراد أبطلت . بلاغتها : الضمير يعود على الآيات

وصحني البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته . انظر : التلخيص في علوم البلاغة ص ٣٣ . المعارضة : المراد الإتيان بمثليها ، انظر ص ٢٤ من هذه الرسالة . الفيور : الشديد الفيرة - وهي صفة تجعل صاحبها شديد المحافظة على ما تحت يده وبخاصة النساء . الجاني : المعتدى بالحرم (بضم الحاء والراء) جمع (حرمة) - بضم فسكون - وهو ما لا يحل انتهاكها . والمراد به هنا : أهل الرجل .

(٢) فصلت : ٤٢ .

(٣) آل عمران / ٤٠

بالفصل المহার إشارة إلى أن هذا الأمر منفي في الحال والاستقبال ، كما أن نسي
إسناد كلا الفصلين إلى ضمير الآيات مجازا عقليا ، فيه تشخيص وإيجناسا .
يزيد أن من عظم الآيات ، وما يقوى ذلك أن الشاعر نزلها منزلة من يعقل
فأتى بضمير نون النسوة ، كما أتى بلفظ (شبه) جمعا منكرا ، وهذا
يشير إلى كثرة الشبه التي يزعمها أعداء الإسلام ، ومع ذلك تبطلها هذه
الآيات .

ولعل في قول الشاعر : (ما حوريت ..) ما يدل على أن من حاربها
بلغ من الحقارة والمهانة حدا لا يصح معه أن يذكر اسمه ، أو يصرح
بصفته ، ولذا كان الفعل مبنيا للمجهول ، وكنت أود أن لا يعبر الشاعر هنا
بلفظ الماضي ويؤكد بلفظ (قط) وكان الأولى به أن يعبر بلفظ المضارع
ليشمل الحال والاستقبال أيضا ، ولكن يبدو أنه أراد الإشارة إلى حادثنة
معينة ، أو وقت معين ، أو أراد أن تلك الآيات لم يستطع محاربتها المرب
الثحاء - وقت نزلها - فهيهات أن يستطع محاربتها من يأتي بمدشم - وهم
أقل منهم فصاحة ، وقد أحسن البوصيري عندما قال : (أعدى الأعادي) إذ في
هذا القول : بيان كثرة أعداء تلك الآيات - ولذا عبر الشاعر بجمع الجمع -
وبيان أن هؤلاء الأعداء ليسوا في درجة واحدة من المداوة ، وأخيرا بيان
فضل هذه الآيات التي جمعت (أعدى الأعادي) يعترفون بمظمتها ولو وجدوا
فيها مطعنا (وحاشا لله) ما سكتوا وما ألقوا سلاحهم - رآية ذلك أنهم أتوا
(ملقى السلم) ولا يخفى ما في هذه العبارة من استعمال تام ، وانقياد بمد
تمرد وعصيان .

ولعل في بيتي الشاعر ما يلح إلى قوله تعالى : " قُلْ لئن اجتمعت الإنس
والجن على أن يأتيوا بحث هذا القرآن لا يأتيون بمثله ولو كان بعضهم
بعضهم ظهيرا (١) " ، ولعل فيها أيضا - ما يشير إلى بعض هؤلاء الكفار الذين حاربوا

القرآن ، ولما سمعوا بعض آياته ، قالوا : " إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة " (١)

ولقد أتى الشاعر بالبيت الثالث مفصلاً عن سابقه ، لأنه تأكيد لما اشتمل عليه من الإشارة إلى عظمة آيات القرآن الكريم وقوتها ، وما يقوى ذلك قوله : (ردت بلاغتها ٠٠) ففي إسناد الفصل (رد) إلى (بلاغتها) مجاز عقلي يوحى بمعظم شأن تلك الآيات وقوتها التي ردت (دعوى معارضتها) ولمس الشاعر يلح بذلك إلى الرد على هؤلاء الذين يقولون : إن القرآن معجزة بالصرفه (٢) ، أي أن الله تعالى هو الذي صرف العرب عن الإتيان بمثله ، ولولا ذلك لتمكنوا من تحقيق هدفهم ، وهذا قول خاطئ لقوله تعالى : " قُلْ لِّسِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا " (٣)

ولما كان الرد أمراً معنوياً شبيهه الشاعر بـ (رد الخيوط الجاني عن الحرم) وهذا التشبيه - وإن كان ضعيفاً - يوضح فكرة الشاعر ويؤكددها ، ويوحى بقوة الرد وسرعته ، كما يشير إلى أن من يحاول معارضة القرآن الكريم فلن يستطيع ذلك ، وما هو إلا معتد أثيم .

إن تلك الأبيات تمتاز بسهولة ألفاظها ، ووضوح معانيها ، وتأثير موسيقاها ، ولعل ما ساعد على ذلك هذه المحسنات اللمعية التي اشتملت عليها ، ومنها : جناس الاشتقاق في قول الشاعر : (هوريت ، وحرب) وقوله : (أعدى الأعدى) ورد العجز على الصدر في قوله : (محكمات وحكم) ، إلا أن الشاعر قد عدى الفحلين (تقيين ، تخفين) بحر في جر في قوله : (من شبه ، من حكم) وهما يتحديان بنفسيهما ، ولعله قد زاد حرفي الجر للتوكيد .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٣ و ٢٨٤ ، تفسير القرآن العظيم ج ٧ ص ١٥٠ و ٨ ص ٢٩٢ .
(٢) الهاقلاني : إعجاز القرآن ص ١٠ وما بعدها .
المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٩ هـ ، ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ١ ص ٦٤ و ج ٢ ص ١٥ وما بعدها المطبعة الأدبية بمصر سنة ١٣٢٠ هـ .
(٣) الإسراء / ٨٨ .

ومهما يكن من شيء ، فلقد واصل الشاعر الحديث عن آيات القرآن الكريم فقال (١) :

لها ممان كموج البحر في مسدد
وفوق جوهرة في الحسن والقسيـم (١)
فما تعد ولا تحصى عجائبها
ولا تسام على الإكثار بالسام (٢)
قوت بها عين تاليها فقلت له
لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم (٣)

إن عجائب تلك الآيات لا تعد ، وسدائسها لا تحده ، فمعانيها كثيرة ، ودلائلها عظيمة ، وقارئها لا يمل ترددها ، ولا يسأم من كثرة تلاوتها ، وثوابها عظيم يقر العين ، ويشرح الصدر ، نجدد بهذا القارئ أن يتمسك بها ، ففيها نجاحه وفلاحه .

وأذا تأملت قول الشاعر : (لها ممان ..) وجدت فيه اختصاصا - منشؤه تقديم الخبر - يشير إلى أن تلك الآيات لها ممان ليست لغيرها من الكلام ، ويؤكد ذلك تنكير لفظ (ممان) وجمعه ، ويزيده تأكيداً أنها : (كموج البحر ..) ومعلوم أن موج البحر لا يمكن أن يحيط بمسده إنسان ، ولا يخفى أن الشاعر ذكر وجه الشبه (في مسدد) حتى لا يظن ظان ، أو يتوهم متوهم أن الشاعر شبه معاني الآيات بموج البحر في الاضطراب مثلاً . فكان هذا احتراساً قطع به الشاعر السنة المفرضين .

-
- (١) ديوانه ص ١٦٦ وما بعدها .
(٢) الممدد : الزيادة - القيم : (جمع قيمة) وهي ما يرفع بها من ثمن المثل والمراد هنا : ماله من القدر والشرف .
(٣) العجائب : (جمع عجيبة) وهي ما يتمجب منها . تسام : توصف . على : بمعنى (مع) السام : الملل .
(٤) قوت : المراد سرت .

إن هذا التشبيه (كعج البحر ٠٠) قد زاد المعنى وضوحا - وهذا شأن تشبيه المعنوي بالمحسوس غالبا - ولعل البوصيري رأى أن فيه غنا لتلك الآيات ، فقال : (وفوق جواهره في الحسن والقيم) مؤكدا صفا هذه الآيات ، ومشيرا إلى رفعتها وعلو شأنها ، ولكني كنت أود أن لا يشبه الشاعر كلام الله باللولؤ أو ما يماثله ، لأن كلام الله أرفع من ذلك وأعظم ، ويبدو أنه أتى بهذا التشبيه على وجه التقريب .

ولما كان البوصيري في معرض الإشادة بعظمة هذه الآيات كان قوله : (فتمد ولا تحصى عجائبها) مناسبا لتلك الفكرة ، لأن هذا القول يؤكد أن عظمة تلك الآيات لم تقف عند غزارة معانيها ، وسلامة معانيها فحسب ، بل جمعت فوق ذلك بدائع وروائع ، تميزت بها عما عداها ، فكلما تأملت نفسك ، أتاك معنى جديد ، لم يخطر - من قبل - على بالك ، ولم يتطرق إلى جنانك ، وهذه سمة من سمات تلك الآيات الكريمة .

ولعل في قول الشاعر : (فتمد ولا تحصى ٠٠) ما يؤكد مكانة هذه الآيات ، إذ في تكرار النفي ، والإتيان بالضمين - بعد النفي - مبهين للمجهول ما يشير إلى أن عجائب هذه الآيات لا يستطيع أن يحيط بها إنسان مهما كان قدره ، أضف إلى ذلك أنها (لا تسام على الإكثار بالسأم) فكلما قرأتها ، بكل ما أكثرت من تلاوتها ، شعرت بجلالها وعظمتها ، وقرت بها عينك ، وانشرح بسببها صدرك من دون أن تشعر بسأم أو ملل .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يحث القارىء على ملازمة هذه الآيات فقال : (لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم) إن من يوفقه الله لتلاوة هذه الآيات فقد نال خيرا كثيرا يجب أن يحرص عليه ، ولا يخفى أن في تأكيد الشاعر عبارته بسلام القسم وقد واختيار الفعل (ظفر) ما يوحي بعظمة هذه الآيات ، وأكد ذلك هذه الاستمارة اللطيفة في قوله : (بحبل الله) ، كما أن المضاف (حبل) اكتسب جلاله وعظمة من المضاف إليه (الله) ، فكان الشاعر موفقا في عبارته التي ختمها بهذه النصيحة القيمة (فاعتصم) ولا يخفى أن الاعتصام بحبل الله ، هو الطريق الوحيد للنجاة ، ولذا أمر الله بالاعتصام به فقال

جلت قدرته : " وَأَعْتَصَمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ ۝ الآية (١) ."

ويبدو أن البوصيري تسأثر في وصفه آيات القرآن الكريم ، بقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن القرآن : " فيه نها ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ۗ ۝ (٢) ."

ولما أقر الشاعر قارى تلك الآيات بأن يعتصم بها ، أراد أن يبين له بعض نواحيها ، فقال (٣) :

إن تتلها خيفة من حر نار لظى	أطفأت نار لظى من ردها الشيم (٤)
كأنها الحوض تبيض الوجوه بسبه	من العصاة وقد جاءه كالحمم (٥)
وكالصراط وكالميزان معدلة	فالقسط من غيرها في الناس لم يقم (٦)

نجم ٠٠ إن تتصل هذه الآيات - عاملا بأحكامها - خوفا من النار ، كانت تلاوتها سببا في إطفاء هذه النار ، فلا تمسك بسوء ، ولا ينالك منها أذى ، أضف إلى ذلك أنها تبيض وجه تاليتها ، وتوضح له طريق الاستقامة ، وتبين له أسس المعدل .

(١) آل عمران / ١٠٣ (٢) سنن الترمذي ج ٤ ص ٣٤٥

(٣) ديوانه ص ١٩٧

(٤) إن تتلها : إن تقرأها . خيفة : خوفا وخشية . لظى : اسم من أسماء النار ورواية الديوان (أطفأت نار) ورواية بعض النسخ (أطفأت حر) ولا يخفى أن رواية الديوان أبلغ لأنها تشير إلى أن تلك الآيات تطفى النار نفسها ، لا حرها انظر متن البردة ص ٢٢ طبعة الشهرلي - الشيم : العذب .

(٥) الحوض المراد به هنا : جسم مخصوص كبير متسع الجوانب يكون على الأرض المعدلة وهي الأرض البيضاء كالفضة ، من شرب منه لا يظلم أبدا ترده هذه الأمة : شرح الوجودي على الجوهرية ج ٢ ص ١٠٩ ، صحيح البخاري ج ٨ ص ١٤٨ ، الخم : (جمع حدة) جمرة انطفاة نارها وبقية نعمة مسودة . (٦) الصراط : الطريق والمراد به هنا جسر معدود على متن جهنم يرد الأهلون والآخرون . شرح الوجودي على الجوهرية ج ٢ ص ١٠٣ ، صحيح البخاري ج ٤ ص ١٤٦ ، الميزان : ما يؤمن به الشيء ، معدلة : عدلا .

تلك هي الصفات التي خلعتها الشاعر على تلك الآيات ، لكن تأمل كيف صاغها في قالب شعري وضحاها وأكدها ، ولقد أتى في البيت الأول بأسلوب شرط (إن تلتها ٠٠ البيت) ليدل على تحقق الجزاء في الآخرة لقارئ القرآن العامل بأحكامه ، كما يتحقق جواب الشرط إذا تحقق فعله ، وفي قوله : (أطفأت نثار لظى ٠٠) استعارة لطيفة وضحت أثر الآيات في حفظ تاليها ، إنها تبطل نثار مفعول النار كالباء الذي يطفئها ، وهذا مشاهد في دنيا الناس ولذلك كان هذا التعبير رائعا ، إن وضع أثر المعنوي أو الضممي بأمر محسوس مشاهد ، ولعل في هذا حصلا على تالوة تلك الآيات ، والعمل بما فيها من أحكام ، ويبدو أن الشاعر يلح - بذلك الأثر - إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) :
" اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه (١) " .

ويبدو أن الشاعر لم يحالفه التوفيق عندما ذكر أن آيات القرآن الكريم تبيض وجه تاليها كما يبيض ماء الحوض وجه بعض عصاة المسلمين يوم القيامة ، إن الذي يبيض وجوه بعض العصاة المسلمين هو نهر الحياة كما ورد في الحديث الشريف ، يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " يدخل الله أهل الجنة الجنة - يدخل من يشاء برحمته - ويدخل أهل النار النار ، ثم يقول : انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه ، فيخرجون منها حمما قد امتحشوا (٢) ، فيلقون في نهر الحياة - أو الحيا - فينبتون فيه كما تنبت الحبة إلى جانب السيل ، ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية ٠٠ (٣) " .

وفي البيت الثالث شبه الشاعر هذه الآيات بالصراط في الاستقامة كما شبهها بالميزان في بيان العدل وإظهار الحق :

ولعل الشاعر أراد أن يؤكد أن دوام الحق ، واستمرار العدل ، لا يفارق هذه الآيات فقال : (فالقسط من غيرها في المناجيم يغم) نعم ٠٠ العدل من غيمس - هذه الآيات لا يدوم لاختلاف الناس في تفكيرهم ، وتنوع مشاربهم ، أما الآيات

(١) صحيح مسلم ج ٢ ص ١٦٧ .

(٢) امتحشوا : المراد : اشتد سواد وجوههم .

(٣) صحيح البخاري ج ٨ ص ١٤٤ .

فالحق ملازم لها لقوله تعالى : * وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا ۝ الآية (١) *

ولما ذكر الشاعر بعض صفات آيات القرآن الكريم ، أراد أن يوضح موقف
بعض مفكريها ، وسبب ذلك الإنكار ، فجر من نفسه شخصا يقول له : (٢)

لا تمنجن لحسود واج ينكرها تجاهلا وهو عين الحاذق الفهم (٣)
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

إن شأن هذه الآيات عظيم كما رأيت ، ومقامها رفيع كما شاهدت ، فلا
يملكك العجب من إنكار من جحد أثرها ، فما هو إلا حسود جحود ، إنه
يجحد حقيقتها ، ويتجاهل قيمتها ، مع أنه أشد الناس فهما لمناها ، ولكنه
الحسد - حفظك الله منه - هو الذي دفعه إلى هذا الإنكار ، كما تنكسر
العين ضوء الشمس بسبب الرمد الذي أصابها ، وينكر الفم طعم الماء بسبب
المرض الذي ألم به .

إنك إذا تأملت قول الشاعر : (لا تمنجن لحسود ۝) وجدته قد أدخل
حرف النهي (لا) على الفعل المضارع المؤكّد بالنون الخفيفة ، ولعل في ذلك
إشارة إلى تجدد هذا الأمر ففي كل زمان ستجد من يحاول إنكار أثر هذه الآيات ،
بل ستجد من يحاول إنكارها ، والمراد هنا من هذا النهي تحقير شأن هذا الجاحد
الموصوف بأنه (حسود) ولقد أحسن الشاعر حينما أتى بهذا اللفظ ، إذ هو
صيغة مبالغة تدل على مدى ما تغفل في قلب هذا الحسود من غل شديد ،
وحقد مرير ، ويؤكد ذلك تنكير هذا الوصف وتثنيه ، كما أن لفظ (تجاهلا)
يكشف عن حقيقة هذا الحسود الذي يظهر جهله بقيمة هذه الآيات ، مع أنه
يعرف فضلها ؟ لأنه : (عين الحاذق الفهم) .

(١) الإسراء / ١٠٥

(٢) ديوانه ص ١٩٧

(٣) الحسود : الذي يتغنى زوال النعمة عن غيره والمراد هنا الذي ينكر فضل آيات
القرآن الكريم . تجاهلا : من ينظّم الجاهل مع أنه ليس بجاهل ،
الحاذق : الماهر .

وأراد الشاعر أن يبين إمكان وقوع إنكار هذه الآيات من عالم بقيمتها ،
مدرك عظم فصاحتها بسبب داء الحسد الذي سيطر عليه ، وتمكن منه ، فأتى
بمثالين من واقع الحياة يحس بهما كل إنسان ،

الأول : (قد تنكر المين ضوء الشمس من رمد) فالعين المريضة قد لا تحس
بضوء الشمس ، مع أن هذا الضوء يملأ الآفاق ، ولكن المرض كان
سبباً في عدم الإحساس بوجوده ، وقد أحسن الشاعر عندما قال (ضوء
الشمس) ولم يقل : (حرارة الشمس) مثلاً ، إذ الحرارة تحس
وإن لم تُر الشمس ، كما أن في ذكر (العين) مجازاً مرسلًا علاقته
الجزئية ، وهذا المجاز يدل على أثر العين في الرؤية .

الثاني : (وينكر الفم طعم الماء من سقم) نغم إذا كان الإنسان مريضاً - وخاصة
لسانه - لم يستطع تذوق الأشياء وبيان مذاقاتها ، وربما شرب ماء
عذبا ، فشعر به - بسبب المرض - مرا علقما ، ولا يخفى أن نفسى
قول الشاعر : (الفم . .) مجازاً مرسلًا علاقته المحلية ، لأنه أراد
بالفم اللسان - إذ هو أداة الذوق .

إن هذا البيت قد أكد المعنى المراد في البيت الأول ، كما أن موسيقاه
جذابة بسبب التقسيم بين شطريه ، والتكرار في قوله : (تنكر) والمناسبة بين
(العين والرمد) ، و (الفم وطعم) .

ولقد زعم بعض الكتاب أن هذا البيت قد أخذه الشاعر من قول المتنبي :
ومن يك ذا فم مرمي -

يجسد مرا به الماء الزلالاً (١)

ثم علق على ذلك بقوله : " . . " وقد زاد البوصيري معنى آخر أتى به نفسى
الشاعر الأول من بيته فزاده قوة وإيضاحاً ، والمتنبي يفوق البوصيري بوصفه الماء
بالحدوية ، وشعور الشارب بحرارة هذا الماء الزلال ، وقد خلا كلام البوصيري

(١) ديوانه ج ٢ ص ١٨٣ بشعر الحكيمى - طبعة دار الطباعة
بمصر سنة ١٢٨٧ هـ .

من هذين التيدين (١) .

ومهما يكن من شيء فإن بيت البوصيري قد أكد المعنى المراد بتشبيهه من الواقع يدركهما الحس ، أضف إلى ذلك عباراته الموحية التي لا مست الفكرة مثل لفظ (تنكر) ، أما خلوه من وصف الماء بالمذومة ، فإن - وإن خلا من الموصف لفظاً فإن المقام يشير إليه ويتطلبه .

الإسراء والمصراع :

ومهما تحدث البوصيري عن القرآن الكريم - المعجزة الخالدة - انتقل إلى الحديث عن معجزة أخرى - هي معجزة الإسراء والمصراع (٢) فقال (٣) :

ياخير من يرمع العافون ساحته

سما وفوق مستون الأيتق الرسم (٤)

ومن هو الآيسة الكبرى لمتمسبر

ومن هو النعمة العظمى لمفتنم

(١) الشاعر المصري (شرف الدين البوصيري) ص ٥٤ .

(٢) الإسراء : هو انتقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليلاً من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بفلسطين بواسطة البراق - فهو رحلة أرشية .
والمصراع : هو صعود الرسول (صلى الله عليه وسلم) من المسجد الأقصى إلى السموات ثم إلى سدرة المنتهى إلى مكان لا يطلع إلا الله - فهو رحلة سماوية .
وكان ذلك قبل الهجرة النبوية على الصحيح انظر : الطبقات الكبرى ج١ القسم الأول ص ١٤٣ .

(٣) ديوانه ص ١٩٧ .

(٤) يرمع : قصد . العافون : جمع عاف وهو طالب المعروف ، ساحته : ناحيته - والمراد حريم داره الواسع . سما : المراد سيرا على القدم . متون : جمع متن وهو الظاهر . الأيتق : جمع ناقة وأصله (أنوق) استثقلت الضمة على الواو فقد سمت فصارت (أوتق) ثم قلبت الواو ياء فصارت (أيتق) . الرسم : (يضم الراء المشددة وضم السين) جمع رسوم (بفتح الراء) هي الناقة التي تؤثر في الأرض من شدة الوطء .

يشير الشاعر في هذين البيتين إلى كرم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وجوده
الكبير ، وكيف لا ، وقد أسرع إليه السائلون - رجالا وركبانا - يطلبون رفسيده ،
ويؤمنون عنده الهداية ، إذ هو ضيق الخير ، وموئل الرشد ، كما أنه الرحمة المرسلية
والنحلة المهمدية .

وإذا تأملت عبارة الشاعر (ياخير من ..) وجدته ينادى الرسول (صلى الله
عليه وسلم) ، نداءً يشعر بحظ المكانة وعلو القدر ، وهذا ما يوحي به حصر
النداء (يا) إذ هو لنداء الحميد ، إلا أن الشاعر هنا لم يرد البعد الحسى
بل أراد البعد الممنوى - بعد المنزلة - وما يؤكد ذلك قوله : (خير ..)
فهو اسم تفضيل ، وأن الشاعر لاحظ أن هناك من يعطى - أيضا - ولكن
الرسول (صلى الله عليه وسلم) أكثرهم عطاءً ، وأعظمهم رفاً ، وما يقوى ذلك
تلك الكناية اللطيفة التي توحى بكثرة الطالبين في قوله : (سحيا وفوق متون الأيق
الرسم) .

والملاحظ أن الشاعر لم يصرح باسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بسبل
غير باسم الموصول (من) وكرره أكثر من مرة ، ولعل ذلك للتشويق ولزيادة الاهتمام
- ويؤكد ذلك ، الإتيان بضمير الفصل (هو) - للإشارة إلى أن الرسول
(صلى الله عليه وسلم) قد عرف بهذه الصفات .

ثم خاطب الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلاً (١) :

سريت من حرم ليلا إلى حرم

كما سرى البدر في داج من الظلم (٧)

وبت ترقى إلى أن نلت منزلة من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم (٨)

(١) ديوانه ص ١٩٧ .

(٢) سريت : سرت ليلا . وحرم : المراد به المسجد الحرام . إلى حرم : المراد بحصنه
المسجد الأقصى . داج : من دجا الليل إذا أظلم .

(٣) بت : المراد - (صرت) ويؤكد ذلك رواية الديوان الثانية (فظلت) - قاب قوسين :
القاب : القدر ، والمراد : مقدار المسافة بين طرفي القوس (وهذا : كناية عن
القرب) .

لقد أسرى بك الله يا نبي الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وفي ذلك تكريم وتشريف، ثم عرج بك إلى السموات وما فوقها، حتى وصلت إلى مكان لم يصل إليه نبي مرسل ولا ملك مقرب.

يشير الشاعر في البيت الأول إلى أسراء الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا أنك إذا تأملت قوله: (سريت من حرم) وجدتته قد التفت من الخيبة في البيت السابق إلى الخطاب هنا وفي ذلك تنبيه للذهن وإثارة للحس، ولعل الشاعر أسند الفصل (سرى) إلى ضمير الخطاب وكذلك الأفعال (بت - ترقى - نلت) ليرجع أن الإسراء والمعراج كانا بروح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وجسده يقظة لأمنا، كما زعم ذلك بعض العلماء (١).

ولا يخفى أن هدف الشاعر من هذا التشبيه (كما سرى البدر) هو توضيح الفكرة، وإشارة إلى رفعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعلو مقامه، ولكنه نسي أن النبي (عليه الصلاة والسلام) أفضل من البدر، ويبدو أنه فطن إلى ذلك، ولكنه أتى بهذا التشبيه على سبيل التقريب على حد قوله تعالى: " اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْءِ كَمَشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ " (٢).

ولقد أشار الشاعر في البيت الثاني إلى معراج الرسول (صلى الله عليه وسلم) وإذا تأملت قوله: (بيت ترقى) وجدت لفظ (بت) يدل على أن المعراج كان ليلاً أيضاً، ولا يخفى أن في قوله: (ترقى) إشارة إلى علو الرسول ورفعة شأنه، كما يدل على أن الله قد أكرم نبيه (صلى الله عليه وسلم) وأناله (منزلة) عالية، ويؤكد ذلك تلك الكناية اللطيفة: (من قاب قوسين) (٣).

ويبدو أن الشاعر أراد أن يشير إلى أن تلك المنزلة التي نالها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهذا الإكرام الذي أنعم الله به عليه في تلك الليلة لم يحظ به أي مخلوق غيره، فقال: (لم تدرك ولم ترم)، ولعل في بناء الفصليين للمجهول ما يجعل النفس تذهب في تقدير الفاعل أي مذهب.

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ج ٥ ص ٤٠ وما بعدها.

(٢) النور / ٣٥.

وإذا كان الشاعر قد وفق في اختيار الألفاظ التي ناسبته الفكرة ، فلا يخفى أنه قد نظر في البيت للأول إلى قوله تعالى : " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِمَبِينِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى " الآية (١) ، كما يلح بقوله : (وت ترقى) إلى الأحاديث التي وردت في شأن المعراج وفيها أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد صعد إلى السماء الأولى ثم الثانية وهكذا حتى السابعة (٢) أضف إلى ذلك أن قوله : (من قاب قوسين) مقتبس من قوله تعالى : " فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى " (٣) ، ويبدو أن الشاعر ذكر لفظ (الظلم) بعد لفظ (داج) إما للتأكيد بالمرادف وإما للتأنيص .

وهما يكن من شىء فإن الشاعر ما زال يتحدث عن المعراج بقوله (٤) :
 وقد منك جميع الأنبياء بهما

والرسل تقديم مخدوم على خدم (٥)

وأنت تخترق السبع الطباق بهما

في موكبكت فيه صاحب الملهم (٦)

حتى إذا لم تدع شأواً والمستحق من الدنيا ولا مرقى لمستنم (٧)

خفضت كل مقام بالإضافة إذ . . . نوديت ، بالرفع مثل المفرد العلم (٨)

وسبب إكرام الله لك - الذي تجل في ليلة الإسراء - والمعراج - قدمك جماعة من الأنبياء والرسل - تقديم تشريف وتكريم - عندما كنت تخترق السموات السبع ماراً بهم ، في موكب كله جلال وجمال ، حتى بلغت مكاناً عليماً ، لم يلح أحد في أن يبلغه لمرتته ، بل لم يتناه أحد لرفعته .

(١) الإسراء / ١ .

(٢) صحيح البخارى ج ٤ ص ١٢٣ وما بعدها .

(٣) النجم / ١ .

(٤) ديوانه ص ٢٩٧ .

(٥) المخدوم : السيد - خدم : (بفتحيتين) جمع خادم .

(٦) تخترق : المراد تقطع . السبع : السموات السبع ، وسيت طباقاً ، لأنها طبقة فوق طبقة . موكب : المراد جمع عظيم .

(٧) شأواً : غاية . مرقى : موضع الرقى - المستنم : المراد طالب الرفعة والعلو .

(٨) الظلم : المراد ظننا : المعروفين قومه لعلو قدره .

ولو تأملت قوله : (قدمتك . . . البيت) لوجدته يدل على مدى الحفاوة التي استقبل بها بعض الأنبياء والرسول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند عروجه إلى السموات ، إلا أن في قوله : (جميع الأنبياء والرسول . . .) مبالغة إذ التابست بالأحاديث الصحيحة أن الذين استقبلوا رسول الله في السموات السبع بمسح الأنبياء والرسول ، لا كلهم ، ومنهم : آدم ، ويحيى ، وعيسى ، وإدريس ، ويوسف وموسى ، وإبراهيم (عليهم السلام)^(١) ، ولا يخفى أن ذكره (الرسول بعد الأنبياء) من قبيل ذكره الخاص بعد العام لإفادة التوكيد .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يوضح تقديم الأنبياء والرسول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : (. . . تقديم مخدوم على خدم) ولكن هذا التشبيه - وإن وضع فكرة الشاعر - لا يليق بمكانة رسل الله (عليهم السلام) ويؤكد ذلك أحد النقاد بقوله : " وإذا كان البوصيري قد وفق في تشبيه السرى وتصوير الرقى - في الأبيات السابقة - فإن اللباقة جانبته في تمثله تقديم الرسل للنبي بتقديم المخدوم على خدومه ، لأن هذا التمثيل يوحى بالسيادة والعبودية ، ولا يتفق مع توقير الأنبياء وإجلالهم . . . " (٢)

ولعل قوله : (وأنت تخترق . . .) يشير إلى سرعة صعود الرسول (صلى الله عليه وسلم) السموات ومروره بالرسول (عليهم السلام) ولكن قوله : (نسي موكب كنت فيه صاحب العلم) يوحى بأن الرسول كان في جمع عظيم من الملائكة عندما عرج به إلى السموات ، وهذا ما لم تصرح به الأحاديث الصحيحة التي أشارت إلى مصراع الرسول (صلى الله عليه وسلم) بل صرحت بأن جبريل (عليه السلام) - فحسب - هو الذي كان يرافق الرسول (صلى الله عليه وسلم) في مصراجه^(٣) .

(١) صحيح البخاري ج ٤ ص ١٢٢ .

(٢) الإسلام في شعر شوقي ص ٥٦ .

(٣) صحيح البخاري ج ٤ ص ١٢٢ .

ولا يخفى أن قول البوصيري : (حتى إذا لم تدع شأوا ٠٠ البيت) يسدل على أن الله قد أكرم نبيه إكراما كبيرا ، وأنزله منزلا عاليا ، ويؤكد ذلك قوله :
(خففت كل مقام بإضافة ٠٠ البيت) .

ويلاحظ أن الشاعر قد ضمن أبياته بعض المحسنات البديعية التي ساعدت على ظهور المعنى وتأكيده مثل : الطباق بين قوليه : (مخدوم وخدم) والتورية (١) في قوله : (خففت كل مقام ، بإضافة إذ ٠٠ نوديت بالرفع مثل المفرد الملم) إلا أن الشاعر قد أثقل ذلك البيت بذكره كثيرا من المصطلحات النحوية مثل (خففت ، بإضافة ، نوديت بالرفع ، المفرد الملم) بإضافة إلى أن لفظ (مستم) لم يرد في معجم اللفظة (٢) .

وأشار الشاعر إلى سبب من أسباب عروج الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى السماء وما فوقها - فقال (٣) :

كما تفوز بوصول أي مستتر عن الصيون ، وسر أي مكنتم
فحزت كل فخار غير مشترك وجزت كل مقام غير مزدحم
وجمل مقدار ما وليت من رتب

وهز إدراك ما أوليت من نعم (٤)

يارسول الله ، لقد رفعت ربك إلى السماء وما فوقها ، لتحظى بوصول لا تراك فيه عين إنسان ، ولا يحس به أي مخلوق ، فكرمك ربك تكريما لم ينله أحد غيرك ، ومنحك منزلة عالية عز قدرها ، ووهبك نعمة عز إدراكها .

-
- (١) التورية : هي أن يذكر لفظ له معنيان : قريب وصعيد ، ويراد البعيد منهما ، أنظر : التلخيص في علوم البلاغة ص ٣٥٩ .
(٢) انظر لسان العرب ج ١٥ ص ١٩٨ مادة (سم) .
تاج العروس ج ٨ ص ٣٤٨ المادة السابقة .
(٣) أنظر ديوانه ص ١٩٧ وما بعدها .
(٤) معني رتب : (بضم ففتح) جمع رتبة : أي المنزلة .

وإذا تأملت قول الشاعر : (فحزت كل فخار ..) وجدته يشير إلى حصول الرسول (صلى الله عليه وسلم) على شيء عظيم ، ويؤكد ذلك لفظ (كل) وما يتضمنه من معنى ، ثم إضافته إلى فكرة (فخار) ، ومثله في تلك الدلالة (رجزت كل مقام غير مزدحم) وإذا أوحى ذلك التعمير بتكريم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فإنه يدل - أيضا - على فضل الله (سبحانه وتعالى) على نبيه (عليه الصلاة والسلام) .

ولا يخفى أن قول البوصيري : (وجل مقدار ما وليت من رتب) يؤكد الفكرة السابقة ، وخاصة لفظ (جل) الذي يوحى بالتمظيم ، وكذلك التعمير باسم الموصول (ما) يوحى بالتفخيم لتلك المنزلة التي منحها الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) ويبدو أن الشاعر أتى بالفعل مهينا للمجهول في قوله (وليت ..) إشارة إلى أن الذي يعطى معلوم غير مجهول ، إذ لا يعطى غيره ولا يخفى سواء .

ولعل الشاعر أراد أن يؤكد فضل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : (وعز إدراك ما أوليت من نعم) .

ولقد وفق الشاعر في اختيار ألفاظ لامت الفكرة ووضحت المعنى مثل (تفوز - حزت - كل فخار - كل مقام ، جل ، رتب ، عز ، نعم) فكلها ألفاظ تشير إلى التكريم والتشريف ، أضف إلى ذلك بعض المحسنات البديعية التي لا يخفى أثرها في زيادة الوقع الموسيقي للأبيات مثل الجناس الناقص بين (حزت ورجزت) والتقسيم بين شطري البيت الثاني ، وبين شطري البيت الثالث أيضا .

ولقد رأى الشاعر أن في تكريم الله نبيه محمدا (صلى الله عليه وسلم) تكريما لأمته (عليه الصلاة والسلام) ، فقال : (١)

(١) ديوانه ص ١٩٨ .

بشرى لنا معشر الإسلام إن لنا
لما دعا الله داعينا لطاعته
من العناية وكما غير منهم
بأكرم الرسل كما أكرم الأمم

يشير البوصيري المسلمين بأن الله سيكرمهم كما أكرم الرسول (عليه
الصلاة والسلام) وسيشملهم برعايته ، ويحيطهم بعنايته ، لأنهم أمه أكرم
الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وإذا تأملت قول الشاعر : (بشرى لنا معشر الإسلام) ، وجدت ما يدل
على الفرح والسرور ، والأمل الكبير في جانب الله (سبحانه وتعالى) وخاصة
في لفظ (بشرى) إلا أن هذا الأمل موقوف على (معشر الإسلام) وفي
ذلك بيان فضل الإسلام .

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (إن لنا من العناية ركما غير منهم) نـ
يركز الأمل في كرم الله ، ويشير إلى ذلك التأكيد بـ (إن) وتقديم الخبر
(لنا) كما أن في قوله : (من العناية ركما غير منهم) ما يقوى
ثقة الشاعر في تحقيق أمله الكبير ، وخاصة في قوله : (ركما) بالتكسير .
ووصفه بقوله : (غير منهم) وكيف ينهدم وهو ركن الله تعالى السدى
(دعا . . داعينا لطاعته) ولعل المراد بقوله : (داعينا لطاعته) الرسول
(صلى الله عليه وسلم) .

أما قول الشاعر : (بأكرم الرسل كما أكرم الأم) ففيه إشارة إلى
قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " أنا سيد ولد آدم ، وأنا أكرم الخلق على
الله " (١) وفي رواية ثانية : " وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر " وإلى قوله
تعالى : " كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَتُؤْتُونَ بِاللهِ ۝۰۰ الآية (٦) " .

إلا أن الشاعر قد أضاف كلمة (معشر) إلى (الإسلام) وكلمة معشر تختص
بالدخول على الذات لا على المنهيات ويمكن أن أقول : إن في الكلام حذف مضاف
والأصل : (معشر أهل الإسلام) .

(١) سنن الترمذي ج ٥ ص ٢٤٧ .

(٢) آل عمران / ١١٠ .

جهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه :

بعدهما تحدث الشاعر عن معجزة الإسراء والميراج ، وانتقل إلى الحديث عن جهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه في سبيل نشر كلمة التوحيد والدفاع عن العقيدة ، فقال (١) :

راعت قلوب العدا أنبا بمثته

(١) كباة أجفلت غفلا من الفنم

ما زال يلقاهم في كل محتمك

(٢) حتى حكوا بالقنا لحما على وضم

ودوا الفرار فكادوا يغبطون به

(٣) أشلا شالت مع العقبان والرخم

تمضى الليالي ولا يدرون عدتهم

(٤) ما لم تكن من ليالي الأشهر الحرم

كانما الدين ضيف حل ساحتهم

(٥) بكل قرم إلى لحم الصدا قرم

وفي هذه الأبيات يتناول الشاعر فكرتين :

الأولى : بيان أثر بحثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الكفار ، ومدى قبولهم لها.

(١) ديوانه ص ١٩٨ .

(٢) راعة : أفزعت - نباة : صرخة الأسد أي زفيره - أجفلت : أفزعت - غفلا : (بضم

الغين وسكون الفاء) جمع ظفل : أي لاه .

(٣) متمك (بضم الميم وسكون العين وفتح التاء والراء) : محل الاعتراك والمراد : ميدان

القتال - القنا : جمع قناة وهي الرمح - وضم : (بفتح الواو والضاد) ما يوضع عليه اللحم

من خشب وغيره .

(٤) يغبطون : من الغبطة وهي أن تتمنى مثل ما لغيرك . أشلا : جمع شلو ، وهو العضوض اللحم .

شالت : ارتفعت . العقبان (بكسر العين) جمع عقاب : نوع من الطيور . الرخم : (بفتح

الراء والغاء) جمع رخمة وهي طائر يشبه النسر يقع على الميتة .

(٥) الأشهر الحرم : هي المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة .

(٦) قرم : (الأولى) - بفتح فسكون - السيد الشجاع . قرم (الثانية) - فتح فكسر

- شديد الشهوة إلى اللحم ، والمراد شديد الحرص على قتل أعداء الدين .

الثانية : الحرب بين الرسول والكفار .

أما الفكرة الأولى :

فتحدث عنها البوصيري في بيت واحد ، وأشار فيه إلى أن الكفار حينما بلفتهم أخبار بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) تملكهم الرعب ، وحل بهم الفزع ، ففرق شملهم ، وهو في سبيل بيان تلك الفكرة ، رسم صورة توضح مدى هذا الفزع ، وتجسم ذلك الرعب ، فكان - بحق - بارعا في رسمه ، رائعا في وصفه .

ولو تأملت الفصل : (راعت . .) لأدرت من أول وهلة مقدار ما حصل بالكفار من فزع ، وفي إسناده الفصل إلى (أنباء بعثته) مجاز عقلي - من إسناد الفصل إلى سببه - لأن الله تعالى هو الذي أنزل الرعب في قلوب هؤلاء الكفار ، ولا شك في أن مثل هذا الإسناد يؤكد أثر بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقوتها ، ولا يخفى أن في قصر الرعب على القلوب مجازا مرسلا - علاقته الجزئية - لأن الشاعر ذكر الجزء - القلب - وأراد الكل - الذات - وفي هذا المجاز ما يشير إلى أن القلب هو محل الاطمئنان والفزع عند الإنسان ، ولعل في تقديم المفعول به (قلوب) على الفاعل (أنباء) ما يوهن بسرعة حلول الرعب في هذه القلوب .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين مقدار هذا الرعب ، وأن يوضح حال هؤلاء الكفار ، وقت سماعهم أنباء بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فرسم صورة حسية مستقاة من الهيئة البدوية - وهي بيئة الكفار في ذلك الوقت - إذ صور قطيعا من الفئم يسرح في مرعاه ، فإذا هو يسمع صوت أسد (يزار) وكان من الهدى أن يتصور القارئ : ماذا يحدث لهذا القطيع ، إنه سيهيم على وجهه ، مصابا بفزع وهلع - ملتحسا النجاة .

ولقد اشتمل هذا التشبيه على بعض اللطائف ، منها : أن الشاعر قد شبه أنباء بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بصوت الأسد في قوته ونجاته ، كما شبه الكفار بالفئم الراضع في مسرحها ، ولعل في ذلك ما يشير إلى أن من لم يحكم عقله فيما ينفعه يشبه الأنعام ، كما أن في ذكر لفظ (غلا . .) مزيد

بيان لحالة هذه الأضام ، وبيان وقع المفاجأة وشدتها ، ويلاحظ أن الشاعر قد سبق - في تشبيه الكفار بالخنم - بقوله تعالى " وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَسَتْ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ كُنْتُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ (١) " ومعلوم أن الأنعام تشمل الإبل والبقر والخنم .

وإذا كان الشاعر قد أحسن في تشبيه الكفار بالخنم - فإنه - في رأيي - لم يكن محسنًا في تشبيهه أنبياء بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بزئير الأسد ؛ لأن هذا مخالف لما أشرع الرسول ، من لين في تليخ دعوته ، وصبر على أذى أعدائه ، ومبتدلاً أمر به : " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْظِعَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ ۝ الآية (٢) " .

إن فزع الخنم من زئير الأسد شيء متروك وقوي ، وأمر منتظر حصوله ، لماذا ؟ لأن الأضام بطبيعتها تخشى الأسد ، وتتوقى بطشه ، فإذا سمعت صوته ، هلمست وفزعته ، وفرت ملتزمة النجاة من شيء متيقن ضرره ، وما هكذا كانت أنبياء بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لقد وصلت إلى مسامع الإنس والجن برفق ولين واستمرت على ذلك ثلاث عشرة سنة قضاها الرسول في مكة بغير سلاح أو قوة (٣) ، ولو أشار الشاعر إلى ذلك لكان أعظم .

ولعل الشاعر قصد أنهم فزعوا مما سيطرت على أنبياء البعثة لا من البهمة نفسها ، إذ كان هؤلاء الكفار أصحاب نفوذ وسلطان - فخافوا على نفوذهم أن يضعف ، وعلى سلطانهم أن يزول ، وهذه هي الفكرة الأولى التي تحدثت عنها الشاعر في بيت واحد .

أما الفكرة الثانية: فقد تحدث فيها الشاعر عن جهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) الحربي وهي التي بدأها الشاعر بقوله : (ما زال يلقاهم في كل محترك)

(١) الأعجمي / ١٧٩ .

(٢) التحل : ١٢٥ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٢٥ .

وفي هذا إشارة إلى شجاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحسن بلائه ، إذ كان يلقي الكفار في كل معركة - أشعلوا نارها ، وشبوا أوارها - بشجاعة الأبطال ، ويقابلهم ببسالة الرجال ، حتى انكسرت شوكتهم ، وأصبحوا بسبب كثرة السهام التي طمنوا بها ، والرماح التي سلطت عليهم ، (لحما على وضم) معدا لأكل السباع ، والتهام الجياع ، من الطيور والجوارح ، وهذا شأن من مات منهم ، أما من عاش منهم فقد (ودور الفرار) ، ياللهول ! الصربي صاحب الأنففة الذي كان شعاره دائما (العار ولا الفرار) (والفضية ولا الدنية) أصبح يتحنى الفرار ! ولكن أتى له ذلك ؟ لقد رأى من أهوال الحرب ما رأى .

فماذا صنع ؟

لقد غطت الأجساد التي قطعت وارتفعت بها الطيور ، والسك أن تتأصل : إنسان حتى يخبط جسدا مزق قطعا صغيرة مكنت الطيور من حملها والارتفاع بها ، تحريدا لالتهامها . . . كيف يكون حال هذا الإنسان ؟ لا بد أنه في بلاء عظيم ، وكرب شديد ، وإذا كانت الصورة التي رسمها الشاعر فيها شيء مسن المبالغة ، فقد خففها بقوله : (كادوا) .

وإذا كان الشاعر قد أشار إلى أن الكفار الذين لم يموتوا في المعارك الحربية ودوا الفرار من شدة ما رأوا من أهوال الحرب وهوان الهزيمة ، فإنه قد كشف عن سوء حالهم ، واضطراب نفوسهم ، بقوله : (تضى الليالى ولا يدرون عدتها . . . الهيت) . ذلك أن تتأمل أيضا هؤلاء الذين تمر عليهم الأيام ولا يعرفون عددها . . . كيف حالهم ؟ لا بد أنهم مشغولون بشيء ، ملك حسهم ، وتملك عقولهم ، وهو هنسا الحرب وأهوالها ، التي استمرت ولم تنقطع إلا في الأشهر الحرم .

ولعل الشاعر قد عبر بالليالى زيادة في بيان حال الكفار ، وإشارة إلى ما كانوا يقاسرونه في الليل ، الذي هو محل الهدوء والاستقرار - غالبا - حتى في حروب العصر الحديث ، ومقاساة المهوم في الليل أشد ، فما بالك بالنهار ، لا شك نسي أنه يكون أدهى وأمر ، ويؤكد ذلك أن الشاعر عبر بلفظ الجمع (الليالى) ، ويحتمل أنه سلك مسلك التخليب لكنه غلب الأنى (الليالى) على الذكر (النهار) خذفا للأصل (١) .

(١) حاشية الهاجورى على البردة ص ٧٤ .

ولولا أن الشاعر يصف تلك الممارك في عصرها - الذي لم تستخدم فيه الأسلحة الحديثة - لقلت : عبر بالليالي لأن كثرة النيران التي يصبها المسلمون على الكفار ، جعلت الليل كالنهار فلم يعرفوا أحد من الآخر .

ولا يخفى أن قول البوصيري : (ما لم تكن من ليالي الأشهر الحرم) يتطلب ثقافة دينية ، لأن القارئ المادي لا يفهم المراد إلا إذا علم أن الشريعة الإسلامية قد حرمت القتال في الأشهر الحرم (١) ، بل إن الحرب في الجاهلية كانت تسبوا يحترمونها ويوقفون فيها الحروب . واستمر الحال كذلك في بدء الدعوة الإسلامية إلى أن نسخ ذلك بقوله تعالى : " وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً " الآية (٧) .

ولقد شبه الشاعر الدين الإسلامي بالضيف الذي نزل ساحة الكفار مع رجال مسلحين أشداء ، شجمان ، يعرفون كيف يجعلون أجسام أعدائهم طعاما صالحا للطيور أو للضيف ، وهذا ما أشار إليه بقوله : (كأنما الدين ضيف حل ساحتهم) ، ثم أكد شجاعة الجنود المسلحين بقوله : (بكل قرم إلى لحم الصدا قرم) .

إن البوصيري قد وفق في رسم صورة واضحة لشجاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه وساعده على ذلك تلك الألفاظ المناسبة للفكرة مثل : (راعت أجفلت ، معترك ، بالقنا ، الفرار ، أشلاء) ، بالإضافة إلى تلك المحسنات البديعية مثل : الجناس المحرف بين قوله : قرم (بفتح فسكون) وقرم (بفتح فكسر) .

ويواصل الشاعر حديثه عن جيش المسلمين بقوله : (٢)

يجر بحر خميس فوق سباحة

يرى موج من الأبطال ملتطم (٤)

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٣٦٩ .

(٢) التوبة : ٣٦ ، تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٩٠ وما بعدها .

(٣) ديوانه ص ١٩٨ .

(٤) بحر خميس : من إضافة المشبه به للمشبه والأصل (خميس كالبحر) والخميس : هو الجيش ، وسن بذلك لأنه مكون من خمس فرق : مقدمة ومؤخرة والقلب ثم الميمنة والميسرة . سباحة : المراد سرعة موج ملتطم : يضرب بعضها بعضا .

- من كل منتدب لله محتسب يسطو بمستأصل للكفر مصطلم (١)
حتى غدت ملة الإسلام وهسي بهمهم
من بعد فريقتها موصولة الرحم (٢)
مكفولة أبدا منهم بخير أب وغير يحمل فلم تيتم ولم تثم (٣)

يُشير الشاعر في تلك الأبيات إلى قوة جيش المسلمين ، وشجاعة جنوده ، وسالة قائده ، وهو الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ولو أنك تأملت ألفاظه ، لوجدت أنه قد وفق في اختيارها ، إذ ناسيت الفكرة وأظهرت المعنى ، فمثلا كلمة (بحر) توحى بكثرة جيش المسلمين ، وإذا كان البحر تتلاطم أمواج مياهه ، وتتدافع موجة بعد أخرى ، فإنك لتعجب أن ذلك البحر هنا - (يرمي بوجه من الأبطال ملتطم) ، إن أمواج البحر الذي أشار إليه الشاعر جماعات من الجنود الشجعان تتوالى بعد جماعات ، مما يدل على الكثرة والقوة التي تحدث جلبة لا يخفى أثرها في المعارك الحربية .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يشير إلى بعض معيدات ذلك الجيش فقال: (فوق سابعة) فالجنود يركبون خيلا نشيطة سريعة لا تعرف الكلل أو العطل ، يسدل على ذلك عرقها الضمير الذي يؤكد شدتها وقوة بأسها ، وكان الأولى بالشاعر - كما ذكر بعض النقاد - أن يجمع هذا اللفظ (سابعة) لأن الجيش الكثيف الدائج لا يكون على سابعة ، وإنما يكون على سرايح (٤) .

- (١) منتدب: مجيبين ندبه لكذا فانتدب لهاى دعاه فأجابه . لله محتسب: مدخر أجر عمله عند الله . يسطو / يصول . مستأصل: مهيد من استأصل الشيء ، إذا قلعه من أصله والمراد به هنا سيف يقضى على الكفر وأهله . مصطلم: من الاضطلام وهو الاستئصال وقيل: معناه الهلاك من اضطلمه إذا أهلكه فمصطلم: بمعنى مهلك .
(٢) غدت: أصبحت . ملة الإسلام: شريعتهم غربتها ، المراد قلة معتنقيها . موصولة الرحم: المراد كثرة معتنقيها .
(٣) مكفولة: من كفله . إذا قام بحقه . الحمل: الزوج . تيتم: من يتم الصبي إذا مات أبوه ، ثم: من أمت المرأة إذا خلت من الزوج .
(٤) الإسلام في شعر شوقي ص ٦٩ .

وإذا كانت الخيل سابعة فإن الذي يحارب عليها ليس جباناً ولا خواراً ، وإنما
هو (من كل منتدب لله محتسب) ولعل لفظ (من) وما يدل عليه من المصنوع
، ثم إنافته إلى لفظ نكرة (منتدب) يدل على شجاعة ذلك المحارب ، كما
أن شرف غايته ، وسمو نفسه بتجلياته في (لله محتسب) .

ولقد أشار الشاعر إلى مدح ذلك المحارب فقال : (يسطو بمسائل . . .)
فإذا كان المحارب شجاعاً ، وخيله قوية ، وسيفه بتاراً ، فدرك في أنه سينتصر
على عدوه ، بل سيقضي عليه ، وهذا ما أشار إليه الهويصيري بقوله : (للقسر
مصطلم) .

إن رجلاً غدا شأنهم ، وأبظالا ذلك ديدنهم ، لا بد أن يظهر أثرهم
وتحلوا كلمتهم ، وهذا ما ذكره الشاعر في قوله : (حتى غدت ملة الإسلام . . البيت)
لقد كان الإسلام في أول أمره غريباً ، ولم يلبث أن أصبح بين أسنانه ورحمه الذين
دافعوا عنه ورفقوا رأيتهم ، ونشروا كلمته ، حتى أصبحت (من بسد غربتها
موصولة الرحم) .

ولعل الشاعر يلح بقوله : (من بسد غربتها) إلى قول الرسول (صلى
الله عليه وسلم) : " بدأ الإسلام غريباً . . . " (١)

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين أثر هؤلاء الجنود المسلمين في دفاعهم
عن الشريعة الإسلامية ، فأشار إلى أنها أصبحت (مكفولة أبداً منهم بخير أب
وخير بعل) .

فإذا تأملت لفظ (مكفولة) وما يحمله من رعاية كاملة ، وعناية شاملة مستمرة (أبداً)
من خير (أب) لا يترك ابنه و (خير بعل) لا يهمل زوجته ، إذا تأملت كل ذلك
أدركت إلى أن مدى حافظ هؤلاء المسلمون على شريعة الله ، وأحاطوا بهمنايتهم
ودافعوا عنها بأرواحهم .

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ٦٠ ، طبعة دار التحرير .

ولا شك في أن في تشبيهه الشريعة الإسلامية بالابنة التي (لم تينم)
والزوجة التي (لم تنم) بيانا وإيضاحا أكد قربة صلة المسلمين الأواثم
بشريعة الله ، ولكن يبدو - لي - أن خيوط هذا التشبيه غير محكمة ، وإن
أخذها الشاعر من الهيئة العربية التي كانت شديدة الحفاظ على نسايبها
كما كان رجالها يموتون دفاعا عن حرمانهم .

وهما يكن من شيء فلقد صور لنا الشاعر صورة جيدة لجيش المسلمين
وساعده على ذلك حسن اختياره الألفاظ المناسبة للفكرة مثل : (بحر - خميص
- موج - الأبطال - ملتطم - يسطو - مستأصل - مصظم) بالإضافة إلى
بعض الحسنات البديعية مثل : (اللف والنشر المرتب في قوله : (خير أب وخير
بعل ، فلم تينم ، ولم تنم) .

ولكنني أرى أن لفظ (يجز) غير مناسب للمقام ، وهو حس بأن المشدود
- وهم أبطال المسلمين - آت إلى الحرب كرها ، وهذا المعنى لم
يرده الشاعر ، ولو قال : (يفود) لكان أفضل ، أو لو سلط الفعل (يجسر)
على الآلات مثلا لكان أحسن أيضا ، وهذا ما فعله المتنبي عندما استعمل الفعل ،
(يجز) فقال (١) :

أتوك يجرون الحديد كأنهم

سروا بجياد ما لهم قوائم

فمعلوم أن الحديد ثقيل من جهة ، وكثرته قد زادته ثقلا من جهة
ثانية ، فهم يجرونه ، ولا بأس في ذلك ، ولو سلك البوصيري ذلك السلك
لكان أفضل .

(١) ديوانه ج ٢ ص ٢٦٢ بشرح المتكبري .

ويستخر الشاعر في مدح صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذين دافعوا
عن الإسلام فيقول : (١)

- هم الجبال نسل عنهم مصادمهم
(١) ماذا رأى منهم في كل مصطدم
وسل حيننا وسل بدرنا وسل أحدا
(٢) فصول حنفا لهم أدهى من الوخم
المصدرى البيض حمرا بعدما وردت
(٣) من العدا كل مسود من اللمم
والكاتبين بسم الخط ما تركت
(٤) أقلامهم حرف جسم غير منجم
(٥)

(١) ديوانه ص ١٦٨ .

(٢) هم : المراد الصحابة الذين دافعوا عن الإسلام أول ظهوره . مصادمهم : من اصطدم معهم في الحرب ، من تصادم الفارسان إذا التقيا بأجسادهما ، مصطدم : مكان الاصطدام ، والمراد : أماكن القتال .

(٣) سبق التصريف بحنين في ص ١٤١ من هذه الرسالة والمراد بها هنا تلك الفزوة التي التقى فيها المسلمون والكفار ، وانتهت المعركة بين الطرفين بانتصار المسلمين وكان ذلك سنة ٨ هـ . بدر : اسم لماء على طريق مكة بين المدينة ما يقرب من ثمانية وعشرين فرسخا وقعت عنده فزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة وانتصر فيها المسلمون على الكفار انتصارا كبيرا . أحد : اسم لجبل بالمدينة كانت عنده فزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة وفيها انتصر المسلمون في بادئ الأمر ، ثم شذبوا عندما خالف الرماة أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) . فصول : جمع فصل والمراد : زمان هلاكهم . أدهى : اسم تفضيل من الداهية وشو المصيبة . الوخم : الواء .

(٤) المصدرى : جمع مصدر (بضم الميم في الجمع والمفرد) من قول المر بصدر عسن الماء إذا رجح عنه . البيض : جمع أبيض والمراد السيوف المصقولة . وردت : ذهب إلى الماء . اللمم : (بكسر اللام) جمع لمة : الشمر الذي يجاوز شحمة الأذن .

(٥) السمر : (بضم السين) جمع أسمر والمراد به الرمح . الخط : شجر يؤخذ منه خشب الرماح . أو اسم موضع باليمامة تجلب إليه تلك الرماح من الهند واليمن تنسب الرماح الخطية . الحرف : الطرف المنجم : صحيحه (المعجم) من أعجمت الكتاب إذا نقطته .

نعم : هؤلاء الصحابة أبطال صناديد ، وفرسان شجمان ، لا يخافون بأس الحرب ، ولا رهبة الغزال ، وكيف يخافون ذلك (وهم الجبال) صلابة وثباتا وشدة وقبة ، ولا يخفى أن في قول الشاعر (هم الجبال) قصرا - بتعريف الطرفين - أكد المعنى وأظهره ، وحرك في النفس عجا من قوة هؤلاء الصحابة ، وإذا أردت دليلا على قوتهم (فسل عنهم مصادمهم) سل هؤلاء الذين صادموهم في الممارك ، ووقفوا أمامهم في الحروب ، ولمل في لفظ (مصادم) ما يرسم صورة حية للمركة ، وفي جمعه وتذكيره ما يشير إلى كثرة الممارك وكثرة المشتركين فيها ، بل إنه لو شير إلى السويق وهي تتقارع ، والصفوف وهي تتداخل .

وفي قول الشاعر : (ماذا رأى منهم في كل مصطدم) استفهام مشوب بالتمجيب من كثرة الاصطدام ، واستهزاء ، وسخرية من هذا الذي ستسأل عنه ليخبرك عما رآه من شدة الممارك وهولها .

لقد أبلسى هؤلاء الأبطال بلابلا حسنا في كل معاركهم ، وخاصة (حينما وبدرأ وأحدا) تلك الغزوات التي لقي فيها كثير من الأعداء حتفهم ، وزهقت فيها أرواحهم أكثر مما تزهق بالربا .

ولا يخفى أن في سؤال تلك الممارك (حين - وبدر - وأحد) مجازا مرسل - علاقتا المحلية - ويجوز أن يكون فيه إيجاز بالحذف ، ولكن الأول أفضل ، لأن فيه تشخيضا وإيحاء بصلة هؤلاء الأبطال ، بالإضافة إلى أن الشاعر - فيه - قد أنزل هذه الأماكن منزلة من يعقل ويحس ، ويسأل ويجيب ، ولمل في هذا إشارة إلى أن هذه الأماكن قد شهدت انتصار المسلمين ، ورأت هزيمة المشركين ، إلا أن البوصيري لم يذكر الغزوات مرتبة حسب ترتيبها التاريخي والأصل (بدر وأحد وحين) كما أن غزوة أحد لم تنته بانتصار المسلمين حتى يذكرها ويخاخر بها ، ولعله أراد الإشارة إلى انتصار المسلمين في أولى جولاتها ، إذ الثابت أن المسلمين قد أبلوا بلابلا حسنا في أولها ، ولكنهم هزموا في نهايتها

بسبب ترك الرماة أما كتبهم - كما سبق (١) .

ولا يخفى ما في تكرار لفظ (سل) من تأكيد وفخر بسلامة المقام ، أضف إلي ذلك أن لفظ (حثف) وتنوينه وتنكيره كل هذا يدل على الصوم ، وذلك يشير إلى أن القتل قد أفنى هؤلاء الأعداء ، ويؤكد ذلك قوله : (أدهى من الوخم) .

وفي البيت الثالث يذكر الشاعر دليلاً آخر على شجاعة هؤلاء الأبطال وهو تلك السيوف التي يذهبون بها إلى الممارك بيضاً ثم يعودون بها حمراء ، وفي هذا دلالة على أنه قد قُتل بها كثير من الأعداء ، ولكن الشاعر أكد ذلك المعنى باستعارة مكية لطيفة في قوله : (المصدري البيض حمراً) ألا ترى أن هذا كله يؤكد شجاعة هؤلاء الرجال وخاصة أنهم قاتلوا أعداء أولى قوة وأولى بأس شديد ، يدل على ذلك قول الشاعر : (كل مسود من اللثم) .

ويبدو أن البوصيري اعتقد أن الشعر الأسود دليل على أن صاحبه شاب ذو قوة وفتوة ، ولكني أرى أن في اختيار هذا الوصف ما يوهم أن جنود الأعداء كانوا شباباً ، وليست لديهم حنكة الحروب ولا تجربة النزال ، كما أنسبه مخالف للحقيقة والواقع ؛ لأن المسلمين حاربوا أعداءً شباباً وشيوخاً .

ولقد ذهب بعض الكتاب إلى أن الشاعر قد تأثر في ذلك البيت بما قيل من بعض الشعراء السابقين (٢) ، وخاصة : عمرو بن كلثوم (٣) الذي يقول في معلقته :
بأنا نوره الرايات بيضاً
ونصدرهن حمراً قد روينا (٤)

(١) حياة محمد ص ٢٩٧ .

(٢) الإسلام في شعر شوقي ص ٦٩ .

(٣) هو : عمرو بن كلثوم التخلي - شاعر جاهلي توفي سنة ٦٠٠ م (انظر تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ١٠٤) .

(٤) المقرشي : جمهرة أشعار العرب ص ١٦١ المطبعة الخيرية سنة ١٣٣٠ هـ .

ولا يخفى أن بيت البوصيري قد اشتمل على روائح منها : أنه ذكر أن الذي يُؤرد : السيوف وليست الرليات ، ولا شك في أن السيوف البيض إذا رجعت حُمْسرا دلت دلالة كبيرة على كثرة القتل ، أما الرليات البيض فقتيل واحد يكفى لرجوعها حمرا ، لأنها من قماش ، أما السيوف فهي من حديد وليس من السهل أن يظهر الدم عليها إلا إذا كثر القتل .

وإذا كان الشاعر قد وصف هؤلاء الجنود بالشجاعة - في الأبيات السابقة - فإنه في البيت الرابع يصفهم بإجادة الطعن بالسهام ، والضرب بالسيوف من غير عناء أو مشقة ، تأمل قوله : (والكاتبين بسمو الخط . .) تجد أن في لفظ (الكاتبين) استعارة تصريحية تبحية وضحت المعنى المراد ، إذ شبه الشاعر الصحابة وهم يسكون سيوفهم بالكاتبين وهم يحملون أقلامهم ، وكما أن الكاتب لا يترك الحرف إلا إذا أجاد كتابته ثم شكله بعناية وإحكام ، فكذلك الجندي من جنود الصحابة لم يترك جسم عدوه إلا إذا أصابه بضربة سيف ، أو طمئة رمح .

ولا يخفى أن في قوله : (أقلامهم . .) استعارة تصريحية أصلية أكسدت الفكرة السابقة إذ شبه أسنة الرماح بالأقلام ، وفي ذلك مزيد بيان لمدى تحكم الجندي في رمحه .

ولقد أجاد الشاعر في اختياره ألفاظا ناسبت الفكرة ، مثل قوله : (مصادمهم ، مصطدم ، فصول حتف ، أدهى ، المصدرى البيض حمرا ، والكاتبين بسمو الخط) ، وإنك إذا تأملت تلك الألفاظ وجدت جو الحرب قائما ، وغار الممارك ماثرا .

ولم ينس الشاعر أن يضمن أبياته بعض المحسنات البديعية ، التي ساعدت على توضيح الصورة ، وجمال العبارة مثل : الجناس المشتق بين قوله : (مصادم ومصطدم) وفيه رد المعجز على الصدر أيضا ، والطباق بين (الصدر والسرود) وبين (البيض والسود) ، إلا أن البيت الرابع قد أثقله الشاعر بمحسن بديعي وهو المناسبة بين (الكاتب والخط ، والأقلام والحرف) (١) ومنحجم (١) ويبدو

(١) الإسلام في شعر شوقي ص ٦٩ .

أنه تذكر وظيفته يوم كان كاتباً ، فأتى بكل أدوات الكتابة ولوازمها ، كما أن لفظ (منجم) لم يرد في معاجم اللغة المعتمدة (١) .

ويبدو أن الشاعر ظن أنه مطاوع (أعجم) وهذا غير صحيح ، والصحيح أن تقول : أعجمت الحرف فهو (منجم) (٢) .

ولم يكتب الشاعر - في مدح الصحابة - بما ذكره من شجاعتهم ومهارتهم ، بل قال عنهم أيضاً (٣) :

شاكى السلاج لهم سيما تميزهم
والورد يمتاز بالسيما عن السلم (٤)
تهدى إليك رياح النصر نشرهم
فتحسب الزهر في الأكمام كل كسى (٥)
كأنهم في ظهور الخيل نبت ريباً
من شدة الحزم لا من شدة الحزم (٦)

(١) ذكرت لفظ (المعتمدة) إشارة إلى أن بعض الكتب ذكرت هذا اللفظ على أنه صحيح ، ولكنها ليست كتباً معتمدة في لغة العرب مثل (أقرب الموارد) الذي يقول صاحبه : (انجم عليه الكلام) أي خفي ج ٢ ص ٧٥٠ .

(٢) لسان العرب ج ١٥ ص ٢٧٩ ، تاج العروس ج ٨ ص ٣٨٦ .

(٣) ديوانه ص ١٩٩ ، ولقد ذكر بعض الكتابيين قبل هذه الأبيات وهو :

إن قام في جامع الهيبة ، خاطبهم :
تصامت عنه أذنا صمه الصم
ولكنه ليس في ديوان الشاعر ، ولذلك ذهب كثير من الكتاب إلى أنه ليس من نظم

البوصيري . انظر المرجع السابق ، وحاوية الهاجوري على البردة ص ٧٩ .

(٤) شاكى السلاج : من الشوكة وهي الحدة والشدة . سيما : علامة . السلم : شجر له شوك يشبه الورد ولكن ليست له رائحة مثله .

(٥) النشر : الرائحة الطيبة - الأكمام : جمع كم بكسر الكاف - وهو الغلاف الذي يكون على الزهر ، الكسى : الرجل الشجاع .

(٦) في : بمعنى (على) . الربا : (بتثنية الراء) ما ارتفع من الأرض ونبتها يكون أثبت -

طحسن من غيره . الشدة : (بكسر الشين وفتح الدال مشددة) القوة . الحزم :

(يفتح فسكون) ضبط الأمر وقوة الثبات - الشدة (بفتح الشين وفتح الدال مشددة)

الربط . - الحزم : (بتثنية) جمع حزام ، ما يشد به السرج وغيره على ظهر

الدابة .

طارت قلوب المدا من بأسهم فرقاً
فما تفرق بين البهم والبهم (١)

يمدح البوصيري هؤلاء الأبطال بحدة سلاحهم ، وقوته ، وبأن لهم
علامات تميزهم من غيرهم ، كما أن لنصرهم أخباراً سارة طيبة ، تحملها
الرياح فينتشر عيبرها في كل مكان ، أضف إلى ذلك أنهم ماهرون في ركوب
الخيال ، مما جعل الأعداء يخافونهم ، ويخشون بأسهم .

ولقد أشار الشاعر إلى كثرة سلاح المسلمين وقوته في قوله : (شاكى
السلاح) ثم ذكر أن لهم صفات تميزهم من غيرهم ، إلا أنه لم يحدد تلك
الصفات (لهم سيما) ولعله يلمح إلى قوله تعالى " .. سِيَمَاهُمْ فِي سِي
وَجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السَّجُودِ .. الآية (٦) " . أو لعله يشير إلى أن هؤلاء الأبطال
يعرفون بخدم فزعهم في الحروب ، لأنهم واثقون من أحد أمرين : إما النصر
وإما الشهادة وفي كل خير ، ولا يخفى أن في تقديم الجار والمجرور (لهم)
ما يدل على أن هذه الصفات لا تتعداهم إلى غيرهم ، وإنما هي خاصة بهم .

ولعل في التعبير بالمضارع (تميزهم) ما يدل على استحضار الصورة
ودوامها ، وفي هذا دليل على أنها صورة عظيمة تستحق الفخر بها ، والإشارة
إليها .

ولقد أتى الشاعر بتشبيه طموس محموس لكي يوضح به صورة هؤلاء الأبطال
ويؤكد بها وذلك في قوله : (والورد يمتاز بالسيما عن السلم) فهو يشبه الصحابة
وهم يحملون سلاحهم ، وفي الوقت نفسه يمتازون بالهدوء ، ويتحلون بجمال
الخلق وسهاء المنظر ، شبههم ونم في تلك الهيئة ، بالورد ، ومعلوم أن السورد

(١) فرقاً (بفتحين) : خوفاً وفتناً . البهم (فتح فسكون) جمع (بهم) بفتح فسكون
أيضاً - وهي السخلة أي ولد الضأن . البهم : (بضم ففتح) جمع (بهم) -
بضم فسكون - وهو الشجاع الذي لا يدرى من أين يؤتى في الحرب لشدة بأسه
، وقيل : الذي تخفى مقاتله .

يمتاز برائحته الطيبة ، وفضله الجميل ، ومع ذلك يوجد بجانب الوردة شوك
فكل من المشبه والمشبه به ، يجمع بين شيئين مختلفين مثل : القوة والرقعة
والشدة واللين ، ولعل الشاعر متأثر في ذلك بقوله تعالى في وصف أصحاب
الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى
الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ " الآية (١) .

وإذا كان الشاعر قد شبه أبطال الصحابة بالورد - كما سبق - فإنسه
شبه الكافر بالسلم ، وهو - كما سبق - شجر له شوك ، ولكنه ليس كالورد في
جماله وهيبته ، وطيب رائحته ، ولكني أرى أن في تشبيه سلاح المسلمين بشوك
الورد ما يوهم بالضعف ؛ لأن شوك الورد صلب كثر فهو ضعيف ، ولعل الشاعر
أراد مجرد الجمع بين أمرين يدلان على شيئين مختلفين ، ومع ذلك فإن بعض
الكتاب علق على هذا التشبيه قائلاً : " .. إن وصف الصحابة بأنهم أصحاب
سوطا مميزة لهم ، لا يناسبه تأكيد هذا المعنى بأن الورد له سمات تميزه عن
السلم ، لأن الورد في مقام الوصف بالبطولة لا يصح أن يذكر ، إذ الورد يُذكر
بالجمال والرقعة والدعة ، وإنما الذي يذكر في مقام البطولة ما يلائمها من جمال
راسخة ، أو براكين ناثرة ، أو عواصف مدمرة ، أو أسود ضاربة ، على أن الورد
لا يمتاز من السلم وحده ، وإنما يمتاز على غيره من أنواع الشجر ، وكذلك السلم
يتميز على الورد بخصوص ليست في الورد ، فالتذييل غير موفق (٧) . وأرى
أن هذا الرأي يحتاج إلى مراجعة ، لأن صاحبه نسي أن الشاعر قد ذكر
ما يلائم البطولة في الأبيات السابقة قبل هذا البيت ، ألم يقل : (هم الجمال)
و (الصدرى البيض) و (الكاتمين بسر الخط) و (شاكى السلاح) .

وأراد الشاعر أن يشير إلى انتصار هؤلاء الصحابة فقال : (تهدى إليك
رياح النصر نشرهم) ولا يخفى أن في إسناد (تهدى) إلى (رياح) مجسما
عقليا فيه تشخيص للرياح ، وتنزيلها منزلة من يعقل ويهدى ، كما أن في جمعها
إشارة إلى كثرتها ، وبالتالي فهي تحمل أخبارا عظيمة ، بالإضافة إلى تلك الراحسة
الطيبة التي أشار إليها لفظ (نشرهم) .

(١) الموجع السابق .

(٧) الإسلام في شعر شوقي ص ٧٠ .

إن هذه الرياح الطيبة ذات الأنباء السارة إذا هبت عليك ، جعلتلك
(تحسب الزهر في الأكام كل كفى) وفي هذه العبارة تشبيهه مقلوب ، وأصله
(تحسب أن كل كفى الزهر في الأكام) ولعل الشاعر قلبه للمبالغة أو للقافية
، وهو يشبه لنا صورة ذلك الهطل الذي يجمع بين القوة المعنوية والقوة المادية
بالزهرة التي تنبعث منها رائحة طيبة ، مع كونها محاطة بأكامها .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين صورة هؤلاء الجنود وهم على ظهور
الخيال فقال : (كأنهم في ظهور الخيل نبت ربا) فهو يشبههم بنبت الربا
في استقرار جفوحه ، وحركة أعضائه ، فهم كذلك مستقرون على ظهور الخيل مع
أنهم يتحركون بهرونة تدل على فروسياتهم ، وتفصح عن قوتهم ، ومصدر ذلك
الثبات وتلك الحركة (من شدة الحزم لا من شدة الحزم) فهم متحكمون نسي
أنفسهم ، ضابطون أمرهم ، يتصرفون بحكمة وأناة .

ومع أن هذا التشبيه ظاهر المراد منه ، فقد قال عنه بعض الكتاب . . . ولقد
يبدو أن تشبيه الصحابة في ثباتهم على صهوة الخيل بنبت الربا فيه السدالة
على فروسياتهم ، ومرانتهم ، وأنهم أحلاس خيل ، وما من شك في أن البوصيري
قصد ذلك ، لكن نبت الربا يكون نجما (١) ويكون شجرا ، ومن الشجر ضعيف -
الساق ، وقوى الساق ، ولا يصح تشبيه الثبات والرسوخ بالنجم ، ولا بالضعيف من
الشجر ، ولهذا جاء التشبيه غير مكتمل ولا دقيق . . . (٧) .

وأرى أن التشبيه لا غضاضة فيه ، ولا عبرة بأن في النبات ما هو ضعیف
وما هو قوى ، أو بأن فيه النجم وفيه الشجر ، لأن المقام مقام مدح ، وهذا كاف
في صرف الذهن إلى النبات القوى . ولعل مما يؤكد ذلك قوله تعالى عن أصحاب
الرسول (صلى الله عليه وسلم) . . . **وَمَنْ لَّهُمْ فِي الْأَنْجِيلِ كَنْزٌ أَخْرَجَ شَطَأَهُ فَآزَرَهُ**
فَأَسْتَفْظِلَّ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْتِهِ . . . الآية (٣) ، وقد يقول صاحب الرأى السابق : إن الله
وصف النزع بما يزيل عنه الضعف ، فأقول ، وكذلك البوصيري ، يتضمن وصفه مثل
ذلك . لأن المقام مقام مدح .

(١) النجم : النبات الذي ليس له ساق ، أما الشجر : فهو ما له ساق .

(٢) الإسلام في شعر شوقي ص ٢٠ .

(٣) الفتح / ٢٩٦ .

وسهما يكن من شيء فإن هؤلاء الصحابة يجيدون فن الحرب ، مما جعل
الأعداء يتلهم الرعب ، ويحل بهم الفزع : (طارت قلوب العدا من بأسهم فرقا)
تأمل لفظ (طارت) وما يشير إليه من صورة رائعة مصدرها ما فيه من استعارة
تصريحية ترمية توحى بالاضطراب والفرار ، وذكر القلوب فيه مجاز موصل علاقته
الجزئية ، وكل هذا يؤكد ما حل بهؤلاء الأعداء من فزع واضطراب عندما رأوا
شجاعة المسلمين وراعتهم في الحرب ، فتلهم الدهشة التي جعلتهم لا يفرقون بين
الإنسان والحيوان (فما تفرق بين البهم والبهم) .

لقد أحسن الشاعر في اختياره ألفاظاً لامت الفكرة ، ووضحت المعنى مثل
قوله : (شاكي السلاح - رياح النصر - كل كفى - ظهور الخيل - شدة
الحزم - طارت قلوب العدا) .

كما ضمن أبياته بعض المحسنات البديعية التي زادت جرسها ، وقوت موسيقاها مثل :
تكرار لفظ (سيما) والجناس المشتق بين (تميزتم وبتماز) ، وبين (الأكمام
وكفى) والجناس المحرف بين (شدة الحزم وشدة الحزم) وبين (البهم والبهم) .

ومحد أن أشار الشاعر إلى بعض الأسباب المادية التي أدت إلى نصر
هؤلاء الأبطال - مثل وفرة السلاح وحدته ، وقوة الخيل ونشاطها - أشار إلى
بعض عوامل النصر المعنوية بقوله : (١)

ومن تكن برسول الله نصرته	إن تلقه الأسد في آجامها تجم (٢)
ولن ترى من ولي غير منتصر	به ولا من عدو غير منقصر (٣)
أحل أمته في حرز ملتصه	كالليث حل مع الأشبال في أجم (٤)

(١) ديوانه ص ١٩٩ .

(٢) الأجام : (جمع أجمة) وهي القابة . نجم : (مضارع وجم) إذا أمسك
عن الكلام وغيره لخوف أو هيبة .

(٣) الولي : المراد به هنا : المسلم . العدو : المراد به هنا الكافر . منقصر
منكسر والمراد هنا منهزم .

(٤) أحل : أنزل - حرز : حصن . الأشبال : (جمع شبل) وهو ولد الأسد . أجم :
(بفتحين) جمع أجمة ، وقد سبق بيان معناها .

إن من ينصر رسول الله ، ينصره الله على عدوه ، ولو كان ذلك الصدو
الأسد في عرينه ، وهكذا لن ترى مؤمنا إلا انتصر بسبب طاعته الرسول (صلى
الله عليه وسلم) ، ولن تجد كافرين إلا انهزم بسبب عداوته للرسول ، ويحده عن
الدين الذي هو حصن حصين لمن دخله .

ولا يخفى أن قول الشاعر : (ومن تكن برسول الله نصرته) . . . يبين أن نصر
الرسول (صلى الله عليه وسلم) - بالدفاع عن دينه - يكون سببا من أسباب
النصر ، لقول الله تعالى : " **إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** (١) . . .
ولا شك في أن نصر رسول الله هو نصر لله (سبحانه وتعالى) .

وإذا تأملت قول البوصيري : (إن تلقه الأسد في آجامها تجم) وجدته يؤكد
نصر المسلم مهما كانت قوة عدوه ، ولو كان أسدا في عرينه لخاف ، إذ القلوب
بيد الله يثبتها ، أو يلقى الرعب فيها .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يوضح الفكرة السابقة فقال : (ولن ترى مسن
ولي غير منتصر) لإيمانه بالله واتباعه رسول الله ، (ولا من عدو غير منقصم) لخصمه
بالله ورسوله ، ويحده عن الدين الحنيف .

وأراد الشاعر أن يبين أن هذا الدين ما هو إلا حرز مكين ، وحصن حصين لمن
دخله ، فقال : (أحل أمته في حرز ملته) فالرسول (صلى الله عليه وسلم) بمجيئته
بهذا الدين ودعوة الناس إليه ، ودخولهم فيه أصبحوا مطمئنين .

ولعل الشاعر أراد أن يوضح اطمئنان الرسول وأمه بعد دخولهم في هذا الدين ،
فأتى بتشبيه حسنى وضع الفكرة في قوله : (كالليث حل مع الأشبال في أجم) فالشاعر
يشبه الرسول بالأسد ، كما يشبه الأمة بالأشبال ، والدين بالأشجار الكثيفة ، ولا يخفى
أن هذا التشبيه - على ما فيه من ضعف - قد أتى به الشاعر للتقريب والتوضيح .

ولقد اشتغلت الأبيات علسى بعض المحسنات البديعية التي لم يخف أثرها
في الوقع الموسيقى ، مثل : الجناس الشبيه بالمشق في (آجام - تجم) والطباق

(١) محمد : ٥٧ .

بين (ولى وعدو) وبين (منتصر ، ومنتقم) ، والتقسيم بين شرطى البيست
الثانى .

ويلاحظ أن الشاعر قد زاد حرف الجر (من) فى قوله : (من ولى ، من
عدو) مع أن الفعل (ترى) يحدى بنفسه ، ولمله زاد ذلك للتأكيد .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين بعض نعم الله على رسوله (صلى الله عليه
وسلم) فقال (١) :

كم جدلت كلمات الله من جدل

فيه ، وكم خصم البرهان من خصم (٢)

كفاك بالعلم فى الأم من مجازة

فى الجاهلية ، والتأديب فى البيت (٣)

من فضل الله على رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) أن جعل آيات القرآن
الكريم تهزم كل من جدل فى رسالته ، وتدمغ أباطيل كل عدو وحاول التشكيك فى
نبوته ، ويكفى أن الله قد أفاض عليه من كرمه ، فعلم المتعلمين مع أنه أص ، ومع
أنه ثما بل ولد يتيما إلا أن الله من عليه فأنبأه ، فكان مثلاً عالياً للخلق
العظيم . (صلى الله عليه وسلم) .

ولقد وقف كثير من الكفار وغيرهم أمام دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، بل
كانوا يريدون إنحطه ، فى مجادلتهم إياه ، ولكن الله (سبحانه وتعالى) كان يؤيد

(١) ديوانه ص ١٩٩ .

(٢) جدلت : من جدال وهو وجه الأرض ، والمراد : أزالت جداله بجدل : (بفتح
فكسر) كثير الجدال أى الخصومة . خصم (الأولى) : فصل على رنة فعمل أى غلب .
وخصم (الثانية) : (بفتح فكسر) الشديده الخصومة .

رسوله (صلى الله عليه وسلم) وينصره عليهم ، ومن ذلك ما يروى أن أحبار اليهود قالوا لبعض كفار مكة : اسألوا محمدا (صلى الله عليه وسلم) عن ثلاث . . . فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفصل فالرجل متقول . . . سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان من أمرهم . . . وسلوه عن رجل لو اف بلغ مشارق الأرض ومغاربها . . . وسلوه عن الروح ما هو ؟ فلمسا ذهبوا إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وسألوه عن ذلك . . . نزل الوحي بعد فترة بسورة الكهف ، وفيها الإجابة عن السؤالين الأولين (١) ، كما نزل قوله تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ؟ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (٢) .

وإذا تأملت قول الشاعر : (كم جدلت . . . البيت) وجدته يشير إلى أن هذا الجدال قد تكرر كثيرا ، وفي كل مرة يُفحم هؤلاء المجادلون ، ويؤكد ذلك لفظ (كم) فيانها خبرية للتكثير ، ولعل في إسناد الفعل (جدل) إلى (كلمات الله) ما يشير إلى قوة هذه الآيات وخاصة أنها أضيفت إلى لفظ الجلالة (الله) .

ولقد زاد الشاعر حرف الجر (من) في قوله : (من جدل) ، و (من خصم) للتأكيد ويبدو أن البصري جره من نفسه شخصيا يقول له : (كفاك بالعلم فسي الأمي معجزة . . .) أي ألا يكفي هذا العلم الذي جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) مع كونه أميا لا يقرأ ولا يكتب ، كما أنه ولد في زمن قوم لا علم عندهم حتى يكون قد اكتسبه منهم ، ألا يكفي ذلك ليكون دليلا على أنه نبي ، وأن الله هو الذي آتاه ذلك العلم .

وألا يكفي ما كان عليه من أدب جم ، وخلق عظيم ، مع أنه ولد بعد وفاة أبيه وجرت المادة بأن الأب هو الذي يقوم بتربية ابنه ، وتنشئته تنشئة الصالحين من ذا الذي أدب محمدا (صلى الله عليه وسلم) وهو اليتيم ؟ إن الذي أدبه هو الله ، وصدق الله العظيم في قوله : " وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا " (٣) وفي قوله : " أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى " (٤) .

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٥ ص ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق ، الإسراء / ٥٨ .

(٣) النساء / ١١٣ .

(٤) الشحى : ٦ .

ندم وأمل :

يظهر الشاعر ندمه على ما فرط منه من ذنوب ، ويأمل في عفو الله وشهاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيقول (١) :

خدمته بمدح أستقبل به ذنوب عمر مضى في الشمر والخدم (٢)
إذ قلداني ما تخشى عواقبه كأنني بهما هدى من النعم (٣)
أطمت غشي الصبا في الحائتين وما

حصلت إلا على الآثام والنسب (٤)

ويذكر الشاعر - هنا - أنه مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليكون ذلك المدح سببا في عفو الله عن ذنوبه التي اقترفتها في زمن شبابه ، وبخاصة عندما كان يعمل ملتزما ، إذ كان يتصل بالأمراء ويمدحهم ، طالبها رفقهم ، ولا شك في أن من يتعرض لمدح الأمراء لا يكون متحررا بالصدق - غالبا - في كل ما يمدحهم به ، ولذلك ذكر الشاعر أن هذا المدح قد أثقله بالذنوب والآثام .

وإذا تأملت قوله : (خدمته .. البيت) وجدت أنه لم يمدح الرسول لذاته ، بل مدحه مقابل غفران ذنوبه ، ولعل هذا يشير إلى مدى احتياج الشاعر إلى غفران ذنوبه ، إلا أنني كنت أحب أن يمدح البوصيري الرسول (صلى الله عليه وسلم) لذاته ، والله (سبحانه وتعالى) لن يرجعه سفر اليمين ، كما أن لفظ (خدمته) غير مناسب للمقام ، لأن الشاعر - في الحقيقة - لم يخدم إلا نفسه ، ولو قال : (مدحته) مثلا لكان أفضل .

(١) ديوانه ص ١٦٩ .

(٢) خدمته : الضير عائد على الرسول (صلى الله عليه وسلم) المدح : اسم لما يمدح به الشخص من الثناء الحسن والذكر الجميل ، أستقبل : أطلب الإقالة والمراد : أطلب العفو . (العمر) مدة حياة الإنسان والمراد به - هنا - تلك الأيام المصمتى قضاها الشاعر في مدح الملوك وغيرهم .

(٣) قلداني : من قلدته الأمر أي جعلته كالقائدة في عنقه ، وشمر الضمى عائد على الشمر والخدم ، عواقب : جمع عاقبة وهي العاقبة والبقر والختم .

(٤) غي الصبا : طيش الشباب الحائتين : المراد بهما حالة مدح الملوك وحالة الاشتغال بالخدم - الآثام : (جمع إثم) ما يآثم صاحبه بفعله .

ولقد وضع الشاعر أثر الذنوب فشبها بالقلادة التي توضع في العنق
(إذ قلداني ما تخشى عواقبه) ثم شبه حالته والأمر كذلك بأنه (كالمهدي
من النعم) التي يخلق في عنقها شيء من جلد ونحوه ليحلم أنها هدى
فيكشف عنها الناس ، ولعل الشاعر يلح بذلك إلى أن من يخالف أمر ربه ،
ولا يخشى عاقبة ذنوبه ، ما هو إلا كالأنعام التي لا تعقل ، إلا أن احتمال
(هدى من النعم) يتطلب ثقافة فقهية حتى يحلم القارئ معناه .

ولا يخفى أن عبارة الشاعر : (ما تخشى عواقبه) تشير إلى تجسيم تلك
الآثام وبيان هولها ، ويؤكد ذلك اسم الموصول (ما) وما فيه من إيهام يوحي
بالتهويل والتفخيم ، ويبدو أن الموصي يحقر نفسه فأهملها وألقى عليها
ثوب النسيان ، ولذلك أتى بالفعل مبنياً للمجهول (تخشى) ثم أسنده
إلى : (عواقبه) .

والبيت الثالث يوحي بأن الشاعر يلتمس العذر لنفسه ، على ما فعلته مسن
آثام ، لأن ما فعلته كان في زمن الصبا ، وفتوة الشباب ، والشباب جنون كما
يقال ، ولعل ما يؤكد ذلك إضافة لفظ (غي) إلى (الصبا) إذ في ذلك
ما يشعر بأن الضى والطيش يلان زمان الشباب غالباً .

قد يرتكب الإنسان ذنباً في غفلة من ضميره ، أو نزوة من هواه ، ولكنه
بعد أن يثوب إلى رشده ، ويستيقظ من غفلة ، يندم على ما فرط منه ، ولعل
هذا ما نفهمه من قول الشاعر : (وما حصلت إلا على الآثام والندم) ، إنه
يحترف بما اقترف ، ولعل في ذلك الاعتراف توجيهها أراد الشاعر أن يقدمه
لكل من تسول له نفسه الميل إلى الفساد ، أو يدفعه طيش الشباب إلى
اللهيث وراء الشهوات ، فما عاقبة ذلك إلا الندم .

ولا يخفى أن عاطفة الشاعر مشحونة بالحسرة والألم ، وألفاظه قد ناسبت
فكرته ، فجاء اللمنى واضحاً ، تأمناً لتلك الألفاظ : (أستقيل ، ذنوب ، وعمر
مضى ، ما تخشى عواقبه ، غي الصبا ، الآثام والندم) لتجد الشاعر قد وفق
في عبارته التي وضعت فكرته ، وزادها وضوحاً ببعض المحسنات البديعية التي

اشتملت عليها مثل : رد العجز على الصدر في قوله : (خدمته والخدم) وكأنه
يشعر بأن الشاعر بدأ حياته بخدمة الملوك والأمراء ، وها هو ذا يختتمها بمسجد
خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وسلم) والمعبرة بالخواتيم ، والأمل في عفو الله
كبير .

ولقد أدرك الشاعر عظم تفريطه فيما ينغمه في آخرته فقال (١) :

فيا خسارة نفسس نفسي تجارتها

لم تشتري الدين بالدنيا ولم تسم (٢)

ومن يبيع أجلا منه بما جله بين له الفين في بيع وفي سلم (٣)

نعم . . . يالها من خسارة لتلك النفس التي عدلت عن الطريق المستقيم
إلى الطريق المموج ، وهدت عن أسباب النعيم الباقي إلى عرض زائل .

إن الشاعر يبكت نفسه ، ويظهر أسفه ، ولذلك أخذ يتعجب من أمر هذه
الخسارة التي تلحق كل من يعرض عن طريق النجاة ، ولعل في قوله : (يا خسارة)
ما يشير إلى التهويل والتشخيص لعظم تلك الخسارة ، والشاعر هنا متأثر في عبارته
بعادة العرب الذين كانوا إذا استمظموا شيئا وتحجبوا منه نادوه .

ولا يخفى ما في تنكير (نفسي) من تحقير شأنها ، وعدم الاهتمام بأمرها ،
كما في التنكير أيضا إشارة إلى العموم ، الذي تدخل تحته كل نفس على شاكلة
نفس الشاعر ، وفي ذلك إيحاء للهم ، وشحن للنفس أن ترتدع وتثوب إلى السبي
رعدها .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يقرب المعنوي ، فأتى بمثل محسوس ، قريب إلى السبي

النفس ، في قوله : (لم تشتري الدين بالدنيا ولم تسم) ولا يخفى أن في ذلك استمارة

(١) ديوانه ص ١٦٩ وما بعدها . (٢) الخسارة : ضد الربح . لم تسم : من سامة
السلعة أي شرع في شرائها منه من السوم وهو الموضع للشراء والمراد هنا : لم يحاول الشراء .
(٣) الآجل : المؤخر ، والمراد به هنا ثواب الآخرة . العاجل : المقدم والمراد به هنا
ما يحصل عليه الإنسان في دنياه من متاع زائل . الفهن : النقص . والمراد هنا الخداع في
البيع والشراء . السلم : (بفتح السين مشددة وفتح اللام) : بيع شمسى ،
أجل بثمن عاجل .

تصريحية تحمية في لفظ (لم تشتري) أكدت الفكرة ووضحتها ، وزادها تأكيداً
قول البوصيري : (ومن يبيع آجلاً منه بما جلسه) إذ في لفظ (ومن يبيع) استعارة
تصريحية تحمية أيضاً ، وفي كل ذلك إشارة إلى أن النفس التي لم تشتري الدين
بالدنيا ولم تحاول شراءه ، تكون خسارتها عظيمة ، وعاقبتها وخيمة ، وكذلك
من يبيع الآجل العظيم بالماجل الحقير يظهر عنده ، وتمعظم خسارته .

ولحل في تنكير لفظ (آجلاً) إشارة إلى عظم تدره ، وكبير مقداره ، ويقسوى
ذلك قوله تعالى : " بَلْ يُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١) " .

ولا يخفى أن البيت الثاني موضح ومؤكد للفكرة في البيت الأول ، ويبسود
أن الشاعر قد تأثر في ذلك البيت بقوله تعالى : " فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ " الآية (٧) . إلا أن الشاعر قد أسرف
نفس ذكر كثير من الألفاظ البيع والشراء وما يدور في مجا لها مثل : (خسارة ،
تجارة ، لم تشتري ، ومن يبيع ، آجلاً ، بما جلسه ، الفبن ، السلم) .

ولقد ساعدت هذه الألفاظ على وجود بعض المحسنات البديعية التي
ونحت فكرة الشاعر مثل : (الطباق) بين قوله : (تشتري وتبيع) وبين قوله
(آجلاً وماجلاً) .

وإذا كان الشاعر قد عنف نفسه على ما اقترفته من ذنوب وآثام ، فإنه لم يفقد
الأمل في مغفرة الله الواسعة ، وفي شفاعة النبي (صلى الله عليه وسلم) ولذلك
يقول (٢) :

إِن آتَ ذَنْبًا فَمَا عَهْدِي بِمُنْتَقِضٍ
مِنَ النَّبِيِّ ، وَلَا جَهْلِي بِمَنْصَرَمٍ (٤)

(١) الأعلى / ١٦ ، ١٧ .

(٢) النساء : ٧٤ ومعنى (يشرون) يبيعون .

(٣) ديوانه ص ٢٠٠ .

(٤) آت : أرتكب . عهدى : ذمتي . والمراد به شئنا إيمانى . منتقض : من نقص -
العهد إذا لم يف به . الجهل : معروف والمراد به هنا لزمه وهو الوصل .
منصرم : منقطع .

فإن لى ذمة منه بتسميته
إن لم يكن فى مصادى أخذ ابىدى
محمد ا ه وهو أوفى الخلق بالذم
فضلاً وإلا فقل يا زلة القـدم (١)
أو يرجع الجار منه غير محترماً (٢)

يقول البوصيرى : إن ارتكبت ذنباً فلن أياس من رحمة الله ه وشفاعة رسول
الله (صلى الله عليه وسلم) كما أن إيمانى بالنبى لا يتزعزع بسبب ذنب اقترفته ه وحبى
له لا ينقص بسبب إثم فعلته ه وكيف يكون ذلك ه وقد تسميت باسمه الشريف
ه بها فيه ه وطمعا فى شفاعته ه التى لولاها لحطم ندى ه واشتد المسوى ه
وإننى أنزه الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن أن يرد طالباً ه أو يخيب متشفعاً ه .

إن الشاعر يأمل فى نيل شفاعته رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولـسـنـذا
فهو لن يعتمد اعتراف الذنب ه بل إنه سيجاهد نفسه ه وإذا غلب على أمره
فالأمل فى عفو الله كبير ه يدل على ذلك قوله : (إن آت ذنباً) ولعل التعبير
بـ (إن) الداخلة على الفصل المضارع : (آت) يؤكد ذلك ه ويزيد ذلك
تأكيداً تكسير لفظ (ذنباً) ه كما أن إضافة لفظ (عهد) إلى (يا المتكلم)
يوحى بأمل الشاعر الكبير ورجائه العظيم فى شفاعته الرسول (صلى الله عليه وسلم)
وأنه أخذ على الرسول عهداً بذلك ه أضف إلى ذلك أن فى قوله : (ولا حبلى
بمنصرم) استعارة تصريحية أصلية ه إذ استعار الحبل للوصول وذلك يوحى
بالقوة والمتانة ه .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يؤكد الفكرة السابقة فأتى بأكثر من مؤكّد فى البيت
الثانى ه مثل (إن) وتقديم الخبر (لى) وتكثير (ذمة) موصوفة بأنـهـا
من الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم مدح الرسول بأنه (أوفى الخلق بالذم)

- (١) مصادى : المراد به يوم بمضى للحساب
(٢) حاشاه : تنزيهاً له : والضمير يصرّح على الرسول (صلى الله عليه وسلم) يحرم :
بمنسح . الراجى : المراد به هنا الذى يطلب الشفاعة . مكارمه : جمع مكرمة
(بفتح فسكون فضم) والمراد بها هنا الشفاعة . (أو) بمعنى (الواو) الجار :
معروف والمراد به هنا المستجير . (منه) : بمعنى به .

ولا يخفى أثر التعمير بالضمير المنفصل (شو) ، واختيار صيغة التفضيل (أوفى) ،
كما لا يخفى أثر كل ذلك في تأكيد الفكرة ووضوحها .

ولعل في تسمية الشاعر باسم (محمد) ما يشعر بمحبته الرسول (صلى الله
عليه وسلم) ولكن ذلك يرجع إلى من سمى الشاعر بهذا الاسم لا إلى الشاعر ، ويبدو
أن في إشارة الشاعر إلى تلك الفكرة ما يرغب الناس في التسمية بهذا الاسم
الكريم ، كما أن في قوله : (أخذا بيدي) كناية عن النجاة ، وفي لفظ
(بيدي) مجاز مرسل علاقته الجزئية ، أما قوله : (يازلة القدم) فهو
كناية عن الحسرة والندم .

ولقد التفت الشاعر في البيت الرابع من التكلم إلى الشبهة في قوله :
(الراجي) - إذا كان الشاعر أراد بهذا اللفظ نفسه - ولا يخفى أثر الالتفات
في تنبيه السامع ، بالإضافة إلى ما فيه هنا من تأكيد طلب الشفاعة .

ولقد وفق الشاعر في اختيار ألفاظ تأسبت فكرته ، إلا أن بعض الكتاب
قال : إن في قول الشاعر :

إن لم يكن في مهادي أخذا بيدي فضلا وإلّا يقل يازلة القدم
خطأ أفسد المعنى : لأن (لم) للنفي و (إلّا) أصلها (إن) المدغمة
في (لا) النافية ، التي نفت النفي السابق عليها بـ (لم) ونفي النفي إثباتات
، فيصير المعنى (إن كان أخذا بيدي نيازلة القدم) وهذا فاسد ، وإنما
يصح المعنى إذا حذفنا (لم) (١)

وهذا الرأي صحيح ، إلا أنني وجدت أن لفظ (إلّا) قد شكل هكذا
(إلّا) - أي بالتنوين - في بعض النسخ (٢) ، فيكون معناه على ذلك : ذممة
وهذا ، كقوله تعالى (لا يوتون في مؤمن إلّا ولا ذممة) (٣) وعلى هذا
فلا خطأ في البيت لأن المعنى يكون صحيحا على هذا الضبط .

(١) الشاعر المصري (عروف الدين البوصيري) ص ٥٥ .

(٢) عهد المزيّن محمد : تشطير البردة ص ٥٤ مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤ .

(٣) التوبة / ١٠

ويبدو أن الشاعر أراد أن يؤكد أمله الكبير في شفاعته الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال (١) :

ومنذ ألزمت أفكارى مدائحــــه وجسدته لخلاصى غير ملتزم (٢)
ولن يفوت الفنى منه يداً تربت إن الحيا ينبت الأزهار فى الأكم (٣)
ولم أرد زهرة الدنيا التى اقتطقت
يدازهيرها أشنى على هــــرم (٤)

من يوم وقتت مدائحى على الرسول (صلى الله عليه وسلم) جاءه فى الخير من كل مكان ، ولم أجد شدة إلا زالت ، أو غمة إلا كشفت ، ببركة الرسول (عليه الصلاة والسلام) ، وإذا كان هذا قد وقع فى الدنيا ، فأرجو مثله فى الآخرة ، لأننى لم أرد بمدحى شيئاً من حطام الدنيا - كما يفصل الشعراء بمدحهم الملوك - فإنه عرض زائل ، ومتاع قليل .

يبين الشاعر - فى هذه الأبيات - مدى ما دخل نفسه من الاطمئنان ، وحل فى قلبه من السكينة ، بسبب مدحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وزاده ذلك أملاً فى شفاعته (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة ، وأكمل فى قوله : (ومنذ ألزمت ...) ما يشير إلى جهاده نفسه بإيمانه عن مدح ملوك الدنيا ، وقصر مدحيه على الرسول (صلى الله عليه وسلم) حيث يكون المدح صادقاً ، لانفاقاً ولا مداهنة ، ويكون الأجر عظيماً ، ولقد أكد الشاعر حصول

(١) ديوانه ص ٢٠٠

(٢) ألزمت أفكارى : المراد جعلتها ملازمة له ، لا تنفك عنه ، الملتزم : المتكفل .
(٣) يفوت : مضارع فات إذا سبق ولم يدرك . الخنى : (بكسر الخين وفتح النون) النيسار : والمراد هنا : الشفاعة . يدا تربت : كناية عن الفقر .
الحيا : المطر . الأكم : (بفتح الهمزة والكاف) جمع (أكمة) (بفتح الكاف) : الرىوة وهى الأرض المرتفعة التى لا يستقر عليها الماء . وقيل : ما اجتمع من الحجارة فى مكان واحد .

(٤) زهرة الدنيا : المراد بهجتها . اقتطقت : قطعت وأخذت .

الثنى لمن يمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : (ولن يفوت الفنى
 منه يدا تريت) ، فالنقى (بلن) ثم إسناد عدم الفوات إلى (الفنى)
 كل ذلك يشير إلى أن الثنى محقق الوقوع ، ولا يخفى أن فى قوله : (يدا
 تريت) كناية توحى بشدة الفقر .

ولما كان (غنى الممدح) تستحده بمعنى المقول ، أكد الشاعر إمكانه
 بقوله : (إن الخيما ينبت الأزهار فى الأكم) ففى هذا القول تشبيه مستقى
 من بيئة الشاعر ولا يخفى أثره فى بيان وتوضيح المعنوى (فى الشطر الأول)
 بالمحسوس (فى هذا الشطر) ، فكما أن المطر إذا نزل عم الأرض ، ونبت بسببه
 الأزهار فى الأماكن العالية التى لا يظن إمكان حدوث ذلك فيها ؛ لمعظم
 ارتفاعها ، فكذلك غنى من يمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ممكن مهما
 بلغ فقر المادح .

ويدو أن الشاعر خشى أن يفهم من قوله : (ولن يفوت الفنى) أنه
 يعرض بطلب شيء من حطام الدنيا ، فقال دائما ذلك الفهم : (ولم أرد
 زهرة الدنيا) ، ولا يخفى أن فى قوله : (زهرة الدنيا) استعارة تصريحية
 أصلية ، أشارت إشارة لطيفة إلى أن الدنيا بما فيها من متاع ، مثل
 الزهرة التى يقطفها الإنسان ، فتكون عند قطفها نضرة ، ثم لا تلبث أن يتغير
 شكلها ، وتذبل نضرتها ، فكذلك الدنيا لا تستقر على حال ، ودوامها من
 المحال ، ثم أكد الشاعر ذلك بما حصل عليه (زهير بن أبى سلمى) من (هرم ابن
 سنان) من عطايا كبيرة مقابل مدائح التى مدحه بها ، حتى حلف هرم أن لا
 يمدحه زهير إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا يسلم عليه إلا أعطاه . . .
 فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل منه ، فأصبح إذا رآه فى ملاء من الناس
 قال : (عموا صباحا غير هرم ، وغيركم استثنيت (١)) .

فالشاعر أراد بذكره (زهير) الإشارة إلى أنه أخذ ما لا كثيرا على مدحه
 (هرما) ولكن أين ذلك المال الكثير ؟ لقد ذهب كما ذهب المادح والممدح
 فما أقل متاع الدنيا ، وما أسرع زواله .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ١٧٢ .

رجاء ودعاء :

وحيثما صح الشاعر بأنه لم يمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) لمصرض من أعراض الدنيا الزائلة ، وإنما ليحظى بالشفاعة يوم القيامة ، خاطب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (١) :

يا أكرم الرسل مالى من ألونذ به

سواك عند حلول الحادث الممسم (٢)

ولن يضيق رسول الله جاهك بسمى

إذا الكريم تحلى باسم منتقم (٣)

فإن من جودك الدنيا وخرتها

ومن علومك علم اللوح والقلم (٤)

فى هذه الأبيات يبين الشاعر أنه لن يجد شفيما له يوم القيامة إلا الرسول (صلى الله عليه وسلم) لما له من مقام كبير عند ربه .

وإذا تأملت قوله : (يا أكرم الرسل) (٠٠٠) وجدته قد اشتمل على بعض اللطائف ، ومن ذلك : هذا النداء الموجه إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بلفظ (يا) ومعلوم أنه ينادى به الوحيد أصلاً فكان الشاعر هنا استعمله للدلالة على معنالمكانة وخالو الشأن ، وكذلك لفظ (أكرم) الذى يدل

(١) ديوانه ص ٢٠٠ (٢) فى بعض النسخ (يا أكرم الخلق) إلا أن رواية الديوان أبلغ ، لأن الرسول إذا كان أكرم الرسل - وهم أكرم الخلق - فهو بالطبع أكرم الخلق - انظر متن البردة طبعة الشمرلى ص ٢٤ . ألونذ به : أتحصن به والمراد : أرجو شفاعته . حلول : نزول . الممسم : الحام الشامل والمراد (بالحادث الممسم) يوم القيامة وحلوله أى وقوعه وله الشامل جميع الخلق .

(٣) جاهك : منزلتك وقدرتك . (بى) : بمعنى (عنى) الكريم : اسم من أسماء الله تعالى . تحلى : اتصف - المنتقم : اسم من أسماءه تعالى . وتحلى باسم منتقم : أى غضب وليس المراد حدوث الصفة ؛ لاستحالة ذلك فى حق الله تعالى .

(٤) ضربتها : عدوتها والمراد بها الآخرة : اللوح : جسم نورانى كتبه القلم بإذن الله - ما كان وما يكون إلى يوم القيامة (انظر شرح البيجورى على الجوهرة ج ٢ ص ١٠٥) القلم : جسم تنظيم نورانى خلقه الله وأمره بكتابة ما كان وما يكون إلى يوم القيامة . المرجع السابق .

على أن البرصيرى أراد أن يصف الرسول بالكرم ، ولما كان مؤثنا ، خشى أن يتوسم أحد أن ذلك الوصف منفي عن بقية الرسل (عليهم السلام) ولذلك أتى بـ (أكرم) ليدل على أن كل الرسل مشتركون في تلك الصفة ، ولكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أكثر كرمًا ، بدليل قوله : (صلى الله عليه وسلم) (وأنا أكرم الأولين والآخريين . . . (١)) .

ولعلك تتساءل كيف يقول الشاعر : (مالي من الرزق به سواك . . .) ، فهـل يصح أن يلوذ بغير الله ؟ . . . ولكنك إذا تأملت قوله : (. . . عند حلول الحادث الحمى) علمت أن الشاعر يلح بهذا البيت إلى الموقف العظيم يوم القيامة ، وما فيه من أهوال تجعل الناس يذهبون إلى كل نبي كي يشفع لهم ، فيقول كل منهم نفسي نفسي ، ثم يأتون النبي محمداً (صلى الله عليه وسلم) ، فيسجد تحت العرش ، فيقال له : (يا محمد ارفع رأسك ، واشفع تشفع ، وسل تعطه (٢)) .

ولقد أكد الشاعر أمه في شفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : (ولن يضيق رسول الله جاهك بي) يشير إلى ذلك لفظ (لن) الذي ينفي الضيق مستقبلاً ، ولا يخفى ما في التعبير عن المصغر بالظاهر في قوله : (رسول الله) من لذة بذكر هذا اللفظ الكريم من جهة ، وتأكيده الاعتراف بالرسالة والرسول من جهة ثانية ، فيكون ذلك سبباً في الحصول على المأمول .

ولعله يلح بقوله : (إذا الكريم تحلى باسم منتقم) إلى قول بعض الرسل عندما يذهب الناس إليهم ليشفوا لهم : (إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله (٣)) ، وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) يمجسده الرب نفسه ، يوم القيامة - فيقول : " أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم (٤) ، أين ملوك الأرض (٥) ؟

(١) سنن الترمذي ج ٤ ص ٤٣ .

(٢) صحيح البخاري ج ٤ ص ١٦٣ ، ج ٦ ص ١٠٥ .

(٣) الدرر الساري .

(٤) مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٧٢ ، ٨٧ .

(٥) صحيح البخاري ج ٦ ص ١٥٨ .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين فضل رسول الله فقال : (فإن من جودك الدنيا وضرتها ٠٠ البيت) إلا أن عبارة هذا البيت مشوية بالقلق والغموض وخاصة الشطر الثاني : (ومن علومك علم اللوح والقلم) إذ كيف يكون علم اللوح والقلم بحض علم رسول الله ، ألا يناقض ذلك قوله تعالى : " وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ٠٠ الآية (١) " وقوله تعالى : " وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ ٠٠ الآية (٧) " ولعل الشاعر أراد أن يقول : (إن علومك يا رسول الله من جنس علوم اللوح والقلم) أى أن مصدرهما واحد وهو الله سبحانه وتعالى ، فخانتها العبارة .

أما الشطر الأول وهو : (فإن من جودك الدنيا وضرتها ٠٠) فقد قدر بعض الكتاب مضافا محذوفا والأصل : (فإن من جودك خيرى الدنيا والآخرة (٢)) ومع ذلك أرى أن العبارة غير واضحة المراد ، ولعل الشاعر يشير بذلك إلى أولية (النور المحمدي) كما سبق (٤) أو لعله تأثر في ذلك ببعض الأحاديث التي قيل : إنها موضوعة مثل : " لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك (٥) " .

ولا يخفى أن لفظ (وضرتها) غير شمرى وإن كان عربيا ، ويبدو أن الشاعر استمده من البيئة المصرية ، إذ ينتشر في كثير من بلدانها ، ولعله عبر به للتشبيه ، فكما أن الزوجة لا تستقيم حياتها - غالبا - مع ضرتها ، كذلك الدنيا - غالبا - بالنسبة للآخرة .

ومهما يكن من شيء فإن الشاعر أراد أن يبعد اليأس من رحمة الله عن نفسه ، فنهاها عنه ، وحذرنا منه ، لأن رحمة الله واسعة ، وفضله كبير ، فيقول (٦) :

(١) الأعراف / ١٨٨ .

(٢) الأنعام : ٥٩ .

(٣) حاشية الهاجورى على البردة ص ٩١ .

(٤) انظر ص ١٢٤ من هذه الرسالة .

(٥) محمد إسماعيل إبراهيم : الأحاديث النبوية والمحدثون ص ٥٥ . دار الفكر

الشرقية بصر سنة ١٩٧٣ .

(٦) ديوانه ص ٢٠٠ .

يا نفسى لا تقتطسى من زلّة عظمت

(١) إن الكبائر فى الففران كالللم

لعل رحمة ربى حين يقسمهم

تأتى على حسب المصيان فى القسم (٢)

إن وقوع المعصية من المسلم جائزه لقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابين " (٣) ، ولكن اليأس من رحمة الله لا يلىق به ، لقوله تعالى : " قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ ۞ الْآيَةُ (٤) " ، ولذلك خفف أبو صيرى عن نفسه ما أصابها من هم وهم بسبب الذنوب التى اقترفها ، وحسبنا أن يحطيتها الأمل فى سعة رحمة الله وعفوانه ، إذا تابت وأتابت .

وإذا تأملت عبارة الشاعر وجدتها تتدل على أن ضرره قد ضاع بسبب ما ارتكب من آثام ، ولعلك تلحظ ذلك فى قوله : (يانفس) إذ ، حذف يما المتكلم وكان الأصل : (يانفسى) كما أنه نادى نفسه بحرف النداء الخاص بنداؤه البعيد وهو (يا) ولعل ذلك ليهمد نفسه عن طاعة الله ، وإما لتزليلها منزلة البعيد زيادة فى زجرها ، ويجوز أنه لم يحذف شيئا ونكر لفظ (نفسى) ونسأه على الضم على أنه نكرة مقصودة .

ومهما يكن من شىء فإن فى قول الشاعر : (إن الكبائر فى النفس حيران كالللم) حكمة صادقة ، تنشر الأمل ، وتفسح باب الرجاء ، ويقوى ذلك تصغيره بحرف التوكيد (إن) كما أن تقديم الجار والمجرور (فى الففران) يشير إلى

(١) لا تقتطسى : لا تياسى . زلّة : الذنب صغيرا أم كبيرا ، والشاعر هنا قيده بالعظيم . الكبائر : جمع كبيرة وهى ما ورد فى شأنها حد على الصحيح . الففران : الخفرة .

(٢) القسم : (بكسر ففتح) جمع قسمة (بكسر فسكون) والمراد ما يقسمه الله تعالى لخلقه .

(٣) سنن الترمذى ج ٤ ص ٧٠ .

(٤) الزمر / ٥٣ .

أهميته والعناية به ، ويجعل الإنسان لا يفتأ يرجوه ويتناه ، ولا يخفى أثر
التشبيه في توضيح الصورة وإبرازها ، ولعل في تلك الحكمة ما يشير إلى قوله
تعالى : * الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كِبَائِرَ الْأَسْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّهُمَّ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ *
.. الآية (١) .

ولقد أحسن الشاعر في قوله : (لعل رحمة ربى ..) لأن لفظ (لعل) يدل
على الرجاء الكبير ، والأمل العظيم في جانب الله سبحانه وتعالى ،
كما أن إضافة لفظ (رحمة) إلى لفظ (ربى) تدل على أن هذه الرحمة
واسعة ، لأنها تخص الله الذي ربانا ، وعطف علينا ، وأحسن إلينا .

أضف إلى ذلك أن إضافة لفظ (رب) إلى يا المتكلم تشير إلى اعتراف
الشاعر بعبوديته لله (سبحانه وتعالى) ، وفي الوقت نفسه تشير إلى مقام الربوبية
المظيم ، وفي هذا تلميح إلى أن المبدع من شأنه التقصير ، والرب من
شأنه الخفران .

ويبدو أن الشاعر هنا قد سلك مسلك القائلين بانقسام الذنوب إلى صفائس
وكبائر ، والله يفرغنا لمن يشاء إلا الكفر . خلافا لمن وهم غير ذلك (٢) .

وبعد ما رغب الشاعر نفسه في التوبة ، وفتح أمامها باب الرجاء الكبير فحسى
عفو الله ، تضرع إلى الله قائلا (٣) :

يارب واجعل رجائي غير مضحكس

لديك ، واجعل حسابي غير منخزم (٤)

(١) النجم / ٣٢٢ .

(٢) شرح البيهقي على الجوهرة ج ٢ ص ١٢٢ وما بعدها .

(٣) ديوانه ص ٢٠٠ .

(٤) غير مضحكس / غير مقلب ، والمراد / اجعل رجائي محققا مقبولا لا مردودا ،
لديك : عندك . حسابي : المراد هنا : ظني من الحسابان وهو
الظن . غير منخزم : المراد : غير منقطع .

والطيف بحببك في الدارين إن له

صبرا • متى تدعه الأحوال ينهزم (١)

يؤكد الشاعر افتقاره إلى رحمة الله وعقوه ؛ ولذلك تضرع إليه راجيا ألا يخيب رجاءه • وألا يحكمس ظنه • وأن يلفظ به في الدنيا والآخرة ؛ لأنه ضعيف لا يتحمل هول الشدائد •

وإذا تأملت قولنسه : (يارب واجمل رجائي •••••) وجدته قد رفع صوته متضرعا إلى الله مستعملا حرف النداء (يا) وهو لنداء الحميد مسبح أن الله تعالى قريب • بدليل قوله جل جلاله : " وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ••• الآية (٧) " فلعل الشاعر أراد الإشارة إلى عظمة الله • وعلو شأنه • أو لعله علم أنه بعصيانه الله قد أصبح بمعسدا عنه • كما يفهم من الحديث القدسي " ••• من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا • (٧) " والمفهوم الضمني لهذا الحديث : (ومن حمد عن الله شبرا حمد عنه ذراعا) • ولا يخفى أن في لفظ (رَبِّ) ما يوحى بإظهار الخضوع والخشوع والإقرار بالعبودية لله - كما سبق •

ويبدو أن الشاعر لم ينس وظيفته كما هو (٤) فلذلك آثر أن يذكر بعض مصطلحاتها مثل : (واجمل حسابي غير ضخم) •

ويؤكد الشاعر تضرعه إلى الله بقوله : (والطف بحببك في الدارين •••••)

(١) الطيف : ارتقى - الدارين : الدنيا والآخرة • الأحوال : جمع هول وهو الأمر العظيم •

(٢) البقرة : ١٨٦ •

(٣) صحيح البخاري ج ٩ ص ١٤٨ •

(٤) انظر ص ٥٢ من هذه الرسالة •

ولا يخفى أنه قد التفت من المتكلم في البيت السابق إلى الشبهة هنا في قوله :
 (بحمدك) ، ومع أن نكته الالتفات الشائخة هي إثارة الحس ، وشد الانتباه
 بتفسير مجرى الكلام ، إلا أن هنا نكته أخرى هي الاعتراف باليهودية لله
 تصريحاً بحمد الاعتراف بها تلويحاً ، والإقرار بها عبارة ، بحمد الإقرار بها
 إشارة :

وأراد الشاعر أن يبين ضعفه ، فقال : (إن له صبوا متى تدعه الأشوال
 ينهزم) فهو لم ينف وجود الصبر عنده ، بل اعترف بوجوده لديه ، ولكنه
 صبر ضئيل ، ويؤكد ضآلته تنكير لفظ (صبوا) ووصفه بالجملة الشرطية بحده ،
 وكل هذا يبين مدى احتياجه إلى اللطف به ، والمفوع عنه ، والإحسان إليه .

ولعلكم لم ينس أنه قد نظم قصيدته - البردة - في مدح الرسول (صلى
 الله عليه وسلم) ولذلك ختمها بقوله (١) :

وأذن لسحب صلاة منك دائمة

على النبي بمنهـل ومنسجـم (٢)

ما رنحت عذبات البان ريج صبرا

وأطرب العيس حادي العيس بالنغم (٣)

(١) ديوانه ص ٢٠٠ وما بعدها .
 (٢) ائذن : أسمح . السحب : (يضم فسكون) لفظة في (السحب) بضمها : جمع
 سحابة أي الصلاة صلاة الله على النبي (صلى الله عليه وسلم) معناها ثناؤه
 (جل جلاله) على الرسول (تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٤٤٧) منهـل :
 من أنهل المطر أي سال بشدة .

وذكر بعض الكتابيين بحمد هذا البيت وهو :

وآله الفر والصحاب الذين علوا أهل الصفا والوفاء والجود والكرم

ولكنه لم يرد بالديوان المحقق ، ولم يشر إليه إلا ذلك الكاتب فقط . انظر الحمزاوي

: النفاحات الشاذلية بشرح البردة البوصيرية ج ٣ ص ٢٠٧ سنة ١٩٧٧ هـ (لم

يدون على الكتاب باسم المطبعة)

(٣) رنحت : أمالت . العذبات : جمع عذبة : فخذ الشجرة أو طرفه . ريج الصبا : ريج
 شرقية ، وتسمى القبول أيضا . الطريقة خفة تحصل من شدة السرور تقتضي الهز والحركة .
 العيس (جمع الأعيس) وهي الإبل التي يخالط بياضها شقرة - حمرة شديده - وخصها =

لقد دعا الشاعر ربه جل جلاله - في ختام قصيدته - بأن تدوم صلواته على
الحبيب محمد (صلى الله عليه وسلم) دواما لا ينقطع على مر الليالي والأيام .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يكون في آخر القصيدة ما يشير إلى فرضها -
الأصلى وهو مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) فختمها بالصلاة على رسول الله
(صلى الله عليه وسلم) . ويمكن أن يعد ذلك الختام لونا بديعيا هو : حسن
الختام (١) .

وإذا تأطت قوله : (وأذن لسحب صلاة ..) وجدته قد اقتصر على ذكر
الصلاة فقط . مع أن بعض الكتاب يقول : " إذا صلى على النبي (صلى الله
عليه وسلم) فليجمع الصلاة والتسليم مراعاة للآية الكريمة : " إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ
يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا " (٢) ولا يقتصر
على أحدهما (٣) . ولعل الوزن الشعري لم يكن الشاعر من ذكر السلام مسح
الصحة .

وهما يكن من شيء فإن الشاعر قد طلب صلاة عظيمة ، يدل على ذلك
إضافة المشبه به (لحبيب) إلى المشبه وهو (علاة) والأصل (صلاة كالتسحب)
ولا يخفى أن في ذلك التشبيه دلالة على كثرتها ، أضف إلى ذلك تنكير لفظ
(صلاة) ومنها بأنها من الله تعالى ، وأنها (دائمة .. بمنهل ومنسجم) .

= بذلك لأنها كرائم الإبل . حاديها : الذي يسوقها ، النخم : الصوت الحسن .

النخمة : مدة في الصوت يقصد بها الإطراب والإبل خاصية عظيمة في حصول
الطرب لها عند سماع صوت الحادي ، فكلما كان صوته حسنا كان طربها أكثر
فيحصل لها نشاط ، فتقطع المسافة الطويلة في زمن قليل .

(١) هو : أن يشير المتكلم في كلامه إلى ما يشمر بانتها ، الفرض المقصود . الحملوى : زهر
الربيع قر المغانى والبيان والهديع ص ٢٧٣ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر
سنة ١٩٧١ .

(٢) الأحزاب / ٦ . ٥

(٣) تفسير القرآن العظيم ج ٥ ص ٤٦٩ .

ولو تأملت قول الشاعر : (ما رنحت ... البيت) لوجدته قد أتى بتشبيهين
مفترعين من البيئة البدوية ، ولؤكد بهما دوام هذه الصلاة .

أول تشبيهين :

(ما رنحت عذبات الهان ريج صبا) أي ما أمالت هذه الريح الطيبة أغصان
تلك الأشجار ذات الرائحة الزكية ، وأرى أن لفظ (رنحت) غير مناسب للمقام
لأنه يستعمل كثيرا في الخمر ومجالسها .

ثانيهما :

(وما أطرب العيس حادي العيس بالنغم) أي ما غنى لإيهل الجيسسدة
سائقها ، ولعل الشاعر وضع الظاهر موضع المضمرة ، فكرر لفظ (العيس)
لحسن جرسه من ناحية ، وللوزن الشعري من ناحية ثانية ، كما أن لفظ
(بالنغم) يحد حسوا ، لأن إطراب الإيهل مفهوم به يكون ، ولعل الشاعر
أتى به للتأكيد على حسن الصوت .

ويبدو أن بعض الشعراء لم يحجبه أن يختم البسويصري برده بالصلاة
على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من غير أن يشير إلى التناقض
الراشدين ، ولذلك زاد على البردة تلك الأبيات (١) :

ثم الرضا عن أبي بكر وعن عمر (٧)	وهن على وهن عثمان (٨) ذى الكرم
والآل والصحاب ثم التابعين فهم	أهل التقى والنقا والمطم والكرم
ياربها المصطفى بلغ مقاصدنا	واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم

(١) متن البردة ص ٣٦ طبعة الشولسى . . .

(٢) عمر : نحو عمر بن الخطابين نفيلا ، يلتقى مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) في
الجد السابع ، تولى الخلافة بعد أبي بكر ، ومناقبه كثيرة ، طعن في آخر سنة ٢٣
هجرية وتولى في المحرم سنة ٢٤ هـ على الصحيح (أسد الغابة ج ٤ ص ١٤٠) .

(٣) عثمان : نحو عثمان بن عفان بن أبي العاصم - تولى الخلافة بعد عمر بن الخطاب
(رضى الله عنهما) ومناقبه لا تحصى ، قتل سنة ٣٥ هـ (انظر المرجع السابق ج ٣
ص : ٥٨٤)

واقصر الهى لكل المسلمين بمسا
يتلوه فى المسجد الأقصى وفى الحرم
بجاء من بيته فى طيبة حرم
واسمه قسم من أعظم القسوم
وهذه بردة المختار قد ختمت
والحمد لله نسي بسد وفى ختم
أبياتها قد أتت ستين مع مائة فرج بها كرىنا يا واسع الكرم

ولا يخفى أن هذه الأبيات ليست من نظم البوصيرى بدليل أنها ليست
فى الديوان المحقق^(١) ، كما غلت منها كثير من الشروح^(٢) ، بل نبه على
زيادتها بمحضها^(٣) ، أضف إلى ذلك ضعف نظمها ، ويكفى دليلا على ذلك تكرار
القافية أربع مرات بلفظ واحد هو (الكرم) وأخيرا ذكر عدد أبياتها ، وهذا لم
يكن مألوفاً فى عصر البوصيرى .

إن أثر البردة الكبير ، وشهرتها الواسعة ، هى التى دفعت أحد الشعراء
لنظم تلك الأبيات من غير أن يذكر اسمه ، لتكون تلك الزيادة تقرباً إلى الله ،
ولم يقف أمراً عند ذلك الحد ، بل لقد عظم أثرها ، وامتد إلى كثير من
النواحي ، التى سوف أتحدث عنها فى الفصل الآتى إن شاء الله .

(١) انظر ديوانه ص ٢٠١ .

(٢) يوسف النبهانى : المجموعة النبهانية ج ٤ ص ١٥ المطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٣٢٠ هـ .

(٣) حاشية الباجورى على البردة ص ٦٥ .

الفصل الثالث

أثر البردة

بهدما وقتت مع بردة البوصيري وقفة طويلة ، وتناولتها بالدراسة والتحليل ، يمكنى - الآن - أن أقول : إن هذه القصيدة تمد من أفضل قصائد المدائح النبوية ، ويؤكد ذلك قول بعض الكتاب : " إن هناك شبهة إجماع على أن بردة البوصيري أفضل المدائح النبوية بعد قصيدة كعب (بانت سعاد) (١) .

ولعلنى لا أكون جانبيت الصواب إذا قلت : إن البردة قد فاقت (بانت سعاد) فى كثير من النواحي بصرف النظر عن ناظمي القصيدتين ، فيكفى أن تعلم أن البردة قد اشتلت على أفكار وأغراض خلت منها (بانت سعاد) ، كما أن البردة زادت عليها فى عدد أبياتها ، إذ بلغت مائة وستين بيتا ، أما (بانت سعاد) فهى ستون بيتا تقريبا (٢) ، أضف إلى ذلك أنها لم تشر إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا فى ستة أبيات تقريبا ، أما البردة فيمكنك أن تعيد قراءتها فى الفصل السابق لتعلم فى كم بيت تحدث البوصيرى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وهما يكن من شىء ، فلمت - الآن - فى مقام الموازنة بين قصيدة كعب وقصيدة البردة بمثل المقام بيان أثر بردة البوصيرى التى قيل عنها : " إنها من أجود الشعر " (٣) وهذا حق ، لأنها قصيدة قد طال نفسها ، ومع ذلك رقت

(١) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه - ص ٣١١ ، الشاعر سليل الحمدين ص ٨٨ .

(٢) ديوان كعب بن زهير وما بعدها ، قتلوف من ثمار الأدب فى الجاهلية وصدر الإسلام ج ٢ ص ١٧٦ وما بعدها .

(٣) الأدب العربى من عهد الفاطميين إلى اليوم ص ١٠٥ .

عبارتها ، وسهلت ألفاظها ، وأحكم نسيجها ، واشتملت على كثير من الحكم الصادقة والتجارب الصحيحة التي تصدقها الأيام مثل : (إن الهوى ما تولى يصم أو يصم) و (إن الطعام يقوى شهوة النهم) ، (والنفس كالطفل ٠٠٠ البيت)

و (إن الكباثر في الفخران كالنهم) أضف إلى ذلك ما حوته من أبواب السيرة النبوية نظماً يؤثر في النفس ، ويأسر الحس بموسيقاه الخلابة .

ولا شك في أن كل هذا قد ساعد على ذبوع تلك القصيدة وشيوعها ، ويدل على ذلك أنك لا تجد كاتباً يتحدث عن المدائح النبوية ، أو باحثاً يفحص نسي غارها ، أو مؤلفاً يحاول الوقوف معها ، وإلاحاطة بها إلا تحدث كل هؤلاء - من قريب أو بعيد - عن البردة ، سواء في مصر أم في غيرها من البلاد العربية - والإسلامية ، ولعل ذلك يرجع إلى أن هذه القصيدة أصبحت مصدر الإلهام ، و منبع إلهام لكثير من الشعراء الذين يحاولون مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) من عصر البرصيري إلى الآن .

ويمكني أن أقول إن أثر تلك القصيدة ، متعدد الجوانب ، مختلف النواحي ويظهر ذلك فيما يأتي :

١- أثر البردة في الجماعير الشعبية :

لقد أثرت البردة في الجماعير الشعبية تأثيراً كبيراً ويشهد لذلك ما قاله الدكتور زكى مبارك : " نستطيع الجزم بأن الجماعير - في مختلف الأقطار الإسلامية لم تحفظ قصيدة مطولة ، كما حفظت البردة ، فقد كانت ولا تزال من الأرواح ، وتقراً في الصباح وتقرأ في المساء ، وكنت أرى لها مجلساً يحقد في شريح الإمام الحسين - رضى الله عنه - بالقاهرة ، بعد صلاة الفجر من كل يوم جمعة ، وكان لذلك المجلس رهبة تأخذ بمجامع القلوب ، والذي يزور ساعة المولد النبوي بالقاهرة يرى المقات ينشدونها في هيئة وخشوع ، وكثير من الناس كانوا يجمعون الأطفال لقراءتها في الجنازات (١)

(١) المدائح النبوية ص ١٩ ، ولا يخفى أن في هذه الرواية ما يدل على بعد الناس عن تحاليم الدين الحنيف ، وهدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) في صمته وخشوعه عند تشييع الموتى (انظر الشيخ محمود شلتوت : الفتاوى ص ٢١٥ طبعة دار الشروق بمصر سنة ١٩٧٤م والشيخ سيد سابق : فقه السنة ج ٤ ص ١١٧ المطبعة النموذجية بمصر (غير مؤرخ) .

وإذا كان هذا الكاتب قد ذكر ما شاهدته في القاهرة ، فهذا كاتب آخر يذكر ما شاهدته في الإسكندرية ، إذ يقول : " * * * * * " ولعل من أهم ما يلفت النظر * * * هو هذه المواكب المتوالية التي تصحب الموتى إلى قبورها * * * وكان يتقدم هذه المواكب - في العادة - طائفة من المنشدين الذين يرددون في نغم رتيب * * * مقطوعات من البردة للهوصيري * * * ولم يقف شغف أهل الإسكندرية بالبردة عند ذلك الحد ، بل لقد شغفوا بها أيضا * * * في المساجد * * * وخاصة في يوم الجمعة * * * إذ ما تكاد تنقضى شعاثر صلاة الجمعة حتى يبادر فريق من المصلين للانتظام جلوسا في صفين متقابلين ، ثم تفرق عليهم * * * نسخ من البردة * * * مطبوعة بخط نسخ ، وشكولة بشكل واضح ، ثم يأخذ الجميع نسي تلاتونها بصوت يبدأ خفيفا ، لا يلبث أن يعلو رويدا رويدا ، حتى يتجلى عن طريقة نفحية سهلة تملك على مسامعي * * * * *

وأؤكد - الباحث - مثل هذه المجالس في مدينة طنطا ، وخاصة نسي المولد النبوي ، والمولد الأحمدي (٧) بالإضافة إلى شهر رمضان الذي شاهدت فيه بعض الصوفية المنتسبين إلى العادة الشاذلية ، وهم ينشدونها بعد صلاة العشاء ويتخذونها وردا لهم صعدة هذه الشهر المبارك بعد القرآن الكريم ، وما هو جدير بالذكر أن إذاعة جمهورية مصر العربية قد أتحتنا في شهر رمضان من الموسم السابق ، بإنشاد هذه القصيدة على مدى الشهر المعظم ، وباليتها توجه - دائما - إلى مثل هذا الأدب الديني الطيب ، وبهذا الأغاني الخليمة التي تعلم الشباب كل شيء وتبعده عن كل خير .

(١) الهوصيري حياته وشعره ص ٤ ، دائرة المعارف الإسلامية الدجلد السابع

ص ٣٠ بتصرف .

(٧) نسبة إلى صاحبه المصنف بالله السيد / أحمد البدوي الذي يوجد شرحه

بمدينة طنطا عاصمة محافظة الغربية . ويقام ذلك المولد في شهر

أكتوبر من كل عام .

ولم يقتصر الاحتفاء بالبردة على المدن فحسب، بل تمداه إلى كثير من القرى أيضا (١) ، إلا أن بعض محبي البوصيري أرادوا أن يعرفوا قدر البردة أكثر ، وبحثوا بها أشد ، فنسبوا إليها أشياء ، وقالوا فيما نسبوه إلى البوصيري من كوامت في البردة . . (٢) كما وجدت طائفة من المفارمة تكسبوا بالبردة ، بل بالفوا في التكسب بها مبالغة غير كريمة ، إذ أنشدوها على الأبواب ، يتخذونها وسيلة للشحاذة وبلوغ الأرب ، كما احتكر فريق منهم نسخها وتأجيرها (٣) .

ولقد غلا بعض الناس في الحفاوة بالبردة أكثر مما سبق ، فوضعوا لأبياتهم غصائص ومنافع ، وجعلوا منها تائم وأحجية ، وادعوا لمن هذا البيت يشفى من الصدع ، وذلك يفتح في حفظ المزارع والمنازل من التلف والحريق ، وذلك يفيد في الجمع بين الناظرين من الأحباب (٤) ويؤكد ذلك ما ذكره بعض الشراح من أن فائدة الأبيات الخمسة التي أولها (فما لعينيك) .

.. أن الرجل إذا اتهم زوجته أو ابنته . . . كتب هذه الأبيات في ورقة من ورق الأترج ووضعها على يد المتهم اليسرى ونونائم ، ويجعل أذنه على فمه فإنه ينطق بجميع ما فعله في غيبته خيرا أو شرا ، وكذلك إذا سرق له شيء واتهم أحدا أو شك في أحد ، فليكتب هذه الأبيات في جلد ضفدع مذبوق ويأخذ لسان الضفدع ويضمه في الجلد المذكور ، ويعلق ذلك الجلد في عنق المتهم فإنه يقر في ساعتسسه لدنشته (٥) .

ولا شك في أن كل ذلك وهم باطل ، دعا بعض المصنفين إلى رفع صوته قائلا: " إنهم كذبوا بذلك صفاتها ، وصيروها ضربا من ضروب التائم والطلاسم ، وهذه غربة ليس فيها حكمة (٦) " .

-
- (١) طراز البردة ج ١ ص ٥١
 - (٢) الإمام البوصيري ص ٢٠
 - (٣) الموجع السابى ص ٤٤ .
 - (٤) المدائح النبوية ص ١٩٦ .
 - (٥) حاشية الهاجورى على البردة ص ١٠
 - (٦) طراز البردة ج ١ ص ٥١ .

٢- أثر البردة في الدرس :

ويظهر أثر البردة في الدرس مثلاً في تلك المنايا التي كان يوجهها المعلماء الأزهريون إلى عقد الدروس في يوم الخميس والجمعة لدراسة " حاشية الباجوري على البردة " وعلى دروس كانت تتلقاها جماهير من الطلاب وإنما كانوا يختارون يوم الخميس والجمعة ، لأن مثل هذا الدرس لم يكن من المقررات ، فكانوا يختارون له أوقات الفراغ .

ولنتذكر أنه صفت سنون لم يكن يعرف فيها الأثر كيف تكسسون دروس التاريخ الإسلامي ، فكانت البردة وشروحها مما يمد النفس الفاحش في معهد ديني يجهل أهله غزوات الرسول (صلى الله عليه وسلم) (١)

هذا ما ذكره بعض الكتاب ، وإن صح ، فإنه يدل على الأثر الكبير الذي قامت به البردة في مجال دراسة السيرة النبوية .

٣- أثر البردة في التأليف :

وأما بأثر البردة في التأليف فيتلجى - بوضوح - في تلك الشروح التي قيل : إنها بلغت أكثر من تسعين شرحاً ، باللغات العربية والفارسية والتركية وغيرها من اللغات فزادت البردة بذلك شهرة وذيبوا لم تبلغه قصيدة عربية أخرى (٢) .

ولعل من أهم هذه الشروح : شرح ابن الصائغ المتوفى سنة ٧٧٦ هـ وشرح ابن الحماة المتوفى سنة : ٨٠٨ هـ ، وشرح ابن مرزوق التلمساني المتوفى سنة ٨٤٢ هـ ، وشرح جلال الدين المحلي المتوفى سنة ٨٦٤ هـ ، وشرح الشيخ خالد الأزهري المتوفى سنة ٩٠٥ هـ ، وشرح الشيخ زكريا الأنصاري المتوفى سنة ٩٢٦ هـ ، وشرح الشيخ عبد الرحمن المقدسي المعروف بأبي شامة المتوفى سنة ٩٦٥ هـ ، والجدير بالذكر

(١) المدائح النبوية ص ١٩٩ وما بعدها .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية المسجلد السابع ص ٣٠ .

أنه قد ذكرت بعض المصادر أنه توجد مخطوطات من هذا الشرح محفوظة في المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٩٢٠ ، وميونخ تحت رقم ٥٤٧ (١) .

ولعل من أحدث الشروح شرح الشيخ الباجوري المتوفى سنة ١٢٧٦ هـ ، وشرح الشيخ حسن المدوي الحمزاوي المتوفى سنة ١٣٠٣ هـ ، وغير ذلك من الشروح التي منها ما هو مطبوع ، ومنها ما هو مخطوط ، ويوجد بعضها في دار الكتب المصرية ، ومكتبة الجامع الأزهر ، ومكتبة محافظة الإسكندرية (٢) ، كما أن بعض هذه الشروح لم يعرف أصحابها ، ويبدو أنهم لم يذكروا أسماءهم تواضعا منهم أو سترا لما قاموا به من عمل يحسنون أجره عند الله .

ولا شك في أنك إذا نظرت في تلك الشروح وجدتتها قد زخرت بالألفاظ اللغوية ، والمعارف الأدبية ، والحوادث التاريخية ، وكان من شغل هؤلاء الشراح بالأدب واللغة والتاريخ إلى قصيدة البردة ، وتصف ناظمها الإمام البوصيري (٣) .

والجدير بالذكر أن شرح البردة لم يكونوا كلهم من العرب ، بل كان بعضهم تركيا وشرعها بالتركية (٤) ، كما كان بعضهم فارسيا وشرعها بالفارسية (٥) ، وهذا يدلنا على مدى ما وصلت إليه تلك القصيدة من غناية عند العرب وغير العرب ، بل لقد نشرها كثير من المستشرقين ، وخاصة المستشرق ديه ساسي (٦) الذي ترجمها إلى الفرنسية ، كما ترجمت إلى الإنجليزية والإيطالية ، وغيرها من اللغات (٧) ، وهكذا تعددت طبعاتها ، وكررت ترجماتها ، وتفنن الخطاطون في كتابتها (٨) .

-
- (١) المرجع السابق - المدائح النبوية ص ١٩٨ .
 (٢) البوصيري - حياته وشعره ص ١٢٤ وما بعدها .
 (٣) المدائح النبوية ص ١٩٩ .
 (٤) القاموس الإسلامي ص ٢٩٨ .
 (٥) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
 (٦) ديه ساسي مستشرق فرنسي توفى سنة ١٨٢٨ . انظر نجيب المقيتق : المستشرقون ص ٣٧ وما بعدها طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٧ .
 (٧) انظر دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص ٣٠ وما بعدها .
 (٨) القاموس الإسلامي ص ٢٩٨ . والمدائح النبوية ص ١٩٦ وما بعدها ، البوصيري حياته وشعره ص ٥١ .

ولعل مما يلحق بأثر البردة في التأليف: الرد على تلك المزاعم التي أثيرت حولها ، وأشعبها ، ما ذهب إليه بعض الكتاب من أنه " لا أثر للصوفية في البردة " (١) .

ويدور أن الذي دفع بعض الكتاب إلى هذا القول هو ما شاع عن الشمر الصوفي من أنه يدور في فلك الحب الإلهي ، ويتسم بالرمز والإلغاز ، أضف إلى ذلك وصف الخمر والوقوف معها ، وبيان أثرها ، والنشوة بها ، وهذا واضح عند سلطان العاشقين : ابن الفارض (٢) ، الذي يقول (٣) :

شربنا على ذكر الحبيب دامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
لها البدر كأرواحي شمس يدورها
هلال وكس يدور إذا مزجت نجم

ولكن الحقيقة توضح أن الشمر الصوفي مجاله أرحب من ذلك ، وميدانه أوسع ، وأغراضه ممتددة ، وأفكاره متنوعة ، إلا أن أساسه حبان : حب إلهي ، وحب نبوي ، وهذا ما يؤكد به بعض الكتاب بقوله : " حبان تمكنا من نفوس أصحاب النفوس الزكية ، وتقسمنا قلوب أرباب القلوب النقية ، وأنطقنا ألسنة أهل الأذواق الزكية من الصوفية ، بروائع من النظم ، وبدائع من النثر ، وأحد هذين الحبين هو : الحب الإلهي ، الذي يتخذ فيه المحب موضوع حبه من الذات الإلهية ، أو الحقيقة العلية ، ويتحدث فيها عن الحب المتبادل بين الله والإنسان ، أو بين الخالق والمخلوق على حد تعبير الصوفية أنفسهم .

وثانيهما : هو الحب النبوي ، الذي يتخذ فيه المحب موضوع حبه من النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ، أو من النور المحمدي ، أو الحقيقة المحمدية ، التي هي عند الصوفية أسبق في الوجود على كل موجود بصفة عامة ،

(١) دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص ٣ .

(٢) سبق للتصريف به في هامش ص ٤١ من هذه الرسالة .

(٣) ديوانه ص ٤٢ مطبعة الحلبي بدمشق سنة ١٩٥٣ .

وعلى وجود محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بصفة خاصة ، ومن الصوفية من جمع بين هذين الحيين في نظمة ونثره . . . ومنهم من تخصص نظمته ونثره بأحد هذين الحيين من دون الآخر (١) . .

أما عن طريقة التعبير عن هذين الحيين فيشير إليها هذا الكاتب أيضا بقوله : والصوفية الذين ملك عليهم قلوبهم الحب الإلهي أو الحب النبوي ، أو كلا الحيين . . . قد اصطنعوا - فيما صدر عنهم من آثار ، لا سيما ما كان من هذه الآثار نظما - أسلوبين مختلفين في التعبير عما يجدونه في أنفسهم من فعل الحب ، ووصف ما يختلف على قلوبهم ، من انفعالات وعواطف ، وما ينكشف لمرائرهم من لطائف ومخارف . .

فهم يصطنعون تارة أسلوب المباشرة والتصريح الذي يرسلونه إرسالا مطلقا من كل قيد من قيود الرمز والإلغاز ، بحيث يتميها للقارىء أو السامع أن يتبين في سهولة ويسر أن الحب هنا : إنما هو حب إلهي ، وأن المحبوب الذي يتغنون بحبه ، ويفتخون في وصف جماله ، وكماله ، وجلاله ، إنما هو الذات الإلهية ، والحقيقة العلية ، أو يتبين لهذا السامع وذلك القارىء أن الحب هنا : إنما هو حب نبوي ، وأن المحبوب الذي يرتلون أناشيد حبه ، ويمجدون أوصاف ذاته ، ويفيضون في ذكر مناقبه ومآثره إنما هو النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) أو هو النور المحمدي ، أو الحقيقة المحمدية .

وهم يصطنعون تارة أخرى أسلوب الإشارة والتلويح الذي يعتمدون فيه إلى الإغراب والغموض ، ويحولون فيه على المجازات والاستعارات والكنايات ، وما إلى هذا كله من ألوان الرمز الطغز الذي من شأنه أن يزيد الأمر خفاء ، فلا يكاد القارىء أو السامع يدري ماذا وراء هذه الألفاظ التي صيغت على هذا الوجه من أوجه الصياغة ، في هذا الضرب من الأسلوب .

وهل يعنى الناظم أو الشاعر أن يقدم إلينا وصفا لحاله في طريق المحبة

(١) الدكتور : محمد مصطفى حلمي : الحب الإلهي في التصوف الإسلامي ص ٥ وما بعدها
بتصرف ، دار القلم بمصر سنة ١٩٦٠ .

الإلهية ، وحرنا لذهبه في هذه المحبة الإلهية ، وما يثغر عليها من مسائل لها خطرهما من النواحي النفسية والخلقية ، أو هو يرمز إلى مدح الحضرة النبوية والذات المحمدية على وجه يظهرنا - من خلاله - على منزلة محمد (صلى الله عليه وسلم) بين الرسل والأنبياء ، وعلى القيمة الروحية لحقيقته الوجودية بين حقائق الموجودات ، وعلى غير هذه وتلك من المسائل التصوفية ، أو الفلسفية التي تتصل - من قريب أو من بعيد - بحقيقة محمد ونبوته (عليه الصلاة والسلام)^(١).

أهم أغراض الأدب الصوفي ومسامته :

ولعل ما يشير إلى سعة مجال الأدب الصوفي ، وتعدد أغراضه ، قسول بعض الكتاب : (٧) " إني نظرت في شمر الصوفية .. فوجدته بعد الاستقراء ينحصر في :

الزهد والحكمة ، أو الوعظ والإرشاد ، ومدح الرسول (عليه الصلاة والسلام) وذكر الأحبة من الصحابة والتابعين وصالح المؤمنين ، والحنين إلى أرض نجد والحجاز بحامة ، والأماكن المقدسة بوجه خاص .. " بالإضافة إلى " شمر الغزل الإلهي ، وشمر الحقيقة المحمدية أو تنقل النور المحمدي " ..^(٢)

ولمقاتل أن يقول : إن كثيرا من هذه الأغراض قد وجد قبل وجود شمر الصوفي ، وهذا حق ، إلا أن الملاحظ على هذه الأغراض أنها لم تكتمل صورتها ، ولم تمتو معانيها ، ولم تنم خصائصها الفنية إلا على أيدي الصوفية وخاصة في القرن السابع الهجري . (٤) :

-
- (١) الموضع السابق بتصريف .
 - (٢) الأندلس الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري ص ٢١ باختصار .
 - (٣) المرجع السابق ص ٢٢١ .
 - (٤) المرجع السابق عهد الحكيم جمال التصوف في الشمر الإسلامي ص ٢١ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٤ .

ولعل مما يوضح ذلك ، مدائح الرسول (صلى الله عليه وسلم) في هذا العصر - السابع الهجرى - إذ انقسمت فيه إلى قسمين من حيث المعنى والفرض :
الأول : تناول فيه الشعراء صفات النبي (صلى الله عليه وسلم) وأخلاقه ، وما تحلى به من كرم الطبع ، ولطف الشامل ، كما تحدثوا عن مهابة الوحي ومنازل القرآن .

الثانى : تحدث فيه الشعراء عن حسب النبي ونسبه ، ورووا طرفاً من أخباره وسيرته ، وقد غلب على القسمين توسلهم به (عليه الصلاة والسلام) .

ولا شك في أن هذا كله يدل على أن المدائح النبوية لون من ألوان الشعر الصوفى ، وفرض من أغراضه ، ولعل مما يؤكد ذلك قول بعض الباحثين - وهو يتكلم عن المدائح النبوية - : " إنها باب كبير من أبواب الشعر الصوفى ، وقد قال فيه الشعراء على مختلف المصوّر الكثرة ، وأجادوا إجادة بارعة وإمامهم في ذلك هو البوصيرى صاحب البردة والمهزوبية . . . (١) " ولم يكف هذا الباحث بتلك الإشارة ، بل قسم الشعر الصوفى ومراحل الزمنية إلى خمس مراحل ، وذكر أهم شعراء كل مرحلة ، كما ذكر أن المرحلة الرابعة تشمل القسرين السابع الهجرى ، وفي ذلك القرن بلغ الشعر الصوفى قمة نهضته ، وظهر من أعلامه ابن الفارض ، . . . والبوصيرى . . . (٢) " .

ومحد أن رأينا أهم أفكار الشعر الصوفى وأغراضه وسماته ، أحاول الوقوف على مدى وجود هذه الأفكار وتلك السمات في بردة البوصيرى .

-
- (١) الأدب الصوفى في مصر في القرن السابع الهجرى ص ٢١٧ .
 - (٢) دراسات في التصوف الإسلامى ج ٢ ص ١٠٦ .
 - (٣) المرجع السابق ص ٤٩ وما بعدها باختصار .

١- رأينا أن المديح النبوي لون من ألوان الشمر الصوفي ، ولا خلاف في أن البردة قد اشتملت على كثير من هذا المديح ، وخاصة تلك الأبيات التي أشارت إلى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) سيد المخلوقات وأفضلها ، وأنه أبسر من وفي ، وأصدق من قال ، وهو الحبيب الذي فاق النبيين في الخلق والخلق ، والعلم والكرم ، وفي كثير من الصفات التي لم يشارك فيها أحد ، وختمها البوصيري بقوله (١) :

أكرم بخلق نبي زانه خلقت
بالحسن مشتمل بالبشر متم

٢- رأينا أيضا أن الزهد فرض من أغراض الشمر الصوفي ، وقد أشارت البردة إلى هذا الفرض عندما ذكر البوصيري قصة الجبال التي عرضت على النبي (صلى الله عليه وسلم) أن تكون له ذهبا فأبى ، وفضل أن يجوع يوما فيصبر على قضاء الله ، ويشبع يوما فيشكر نعمة الله ، بدلا من أن يصير يمشية المترفين ، أليس في تلك الإشارة دعوة إلى الزهد وخاصة إذا كان هذا الموقف موقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي هو قدوتنا وأستسما ، بصريح القرآن الكريم : " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ " الآية (٧) * . وما هوذا قول البوصيري (٣) :

وشد من شغبا أحشاه وطوى
ورادته الجبال الشم من ذهب
تحت الحجارة كشحا مترف الأدم
عن نفسه فأراها أيما شمم

وإذا كان هذا شأن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وسلم) فأولى بمن أضوا به واتبعوه أن ينهجوا نهجه ، وسلوكوا طريقه ، فيزهدوا كما زهد ، ويصبروا كما صبر .

٣- ولقد ذهب كثير من الباحثين إلى أن المناجاة من الأغراض التي كساد الصوفية يكونون فرسان حليتها ، وآباء عذرتها ، وأبناء بجدتها ، لأنها

(١) انظر ص ١٣٢ من هذه الرسالة .

(٢) الأحزاب / ٢١ .

(٣) انظر ص ١١٤ من هذه الرسالة .

تعبير عن إحساساتهم الرقيقة ومشاعرهم السامية ، وحوافظهم الراقية ، وأرواحهم
الصائبة ، وقلوبهم المتصلة بنور الله (١) وإذا صح هذا القول فقد أضاف
دليلاً قوياً على أن البردة من الشعر الصوفي ، إذ وردت فيها المناجاة
عندما قال البوصيري : (٢)

ياربوا جعل رجائي غير مضحك ••• لديك ، واجعل حسابي غير مخزوم
والطفه بمبدك في الدارين إن له ••• صبوا متى تدعه الأهوال ينهمسزم

٤- ومن سمات الأدب الصوفي - كما ذكر بعض الكتاب - أنه يؤدي وظيفة حيوية
في الحياة حيث يقوم بعمليةصالحة بين الناس وبين ما يلقاهم في حياتهم
من مآسى وتواجع ، وما يهجم عليهم من تصورات مهولة مفرجة لهذا المصير
المجهول الذي سيصيرون إليه (٣) ••• فهو لذلك من الأدب المتفائل (٤) •••
الذي يبعد اليأس والقنوط - من رحمة الله - عن الإنسان مهما أذنب ، وليس
معنى ذلك أنه يدعو إلى الإكثار من الذنوب ، بل إنه يؤكد أن باب التوبة
مفتوح لمن عصى ، وأسرف على نفسه ، ثم تاب وأتاب ، وهذه دعوة من الله
قبل أن تكون من الصوفية ، يقول الله تعالى : " قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ
أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا
إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " (٥) ولكن ألا ترى صدى تلك الدعوة في قول
البوصيري (٦) :

يانفس لا تقنطي من زلة عظمت

إن الكبائر في الففسران كاللحم

لصل رحمة ربى حين يقسمها

تأتى على حسب الحصيان في القسم

- (١) مجلة الأزهر السنة ٣٦ (١٣٨٤ هـ) الجزء الثالث ص ٢٣٦ .
- (٢) انظر ص ٢١٦ وما بعد ها من هذه الرسالة
- (٣) عبد الكريم الخطيب : الجانب الإنساني في الأدب الصوفي ص ١٥ طبعة دار الثقافة
الحرية بصر سنة ١٩٦٦ .
- (٤) مجلة الرسالة السنة ٦١ (١٩٦٤) العدد ١٠٥٠ ص ١٤ .
- (٥) النور / ٥٣ .
- (٦) انظر ص ٢١١ من هذه الرسالة .

وإذا كان الشاعر قد بين سمة رحمة الله ، وكبير عقوبه ، فإنه لم ينس
أن يحذر من التماهى فى المصيبة ، أو الركون إلى الخطيئة فقال (١) :

فيا خسارة نفس فى تجارتها لم تشتتر الدين بالدنيا ولم تسم
ومن يبع أجلا منه بما جلسه يبين له الفهن فويع وفى سلم

٥- ولا يخفى " أن الأدب الصوفى قد عنى عناية كبيرة بالنفس والحديث عنها ، ولجأ
إلى أسلوب التحليل النفسى الدقيق ، من حيث كان أعلام الأدب العربى يلجأون
إلى أسلوب الشرح العقلى وحده " (٢) - غالبا - ويكفى فى إثبات ذلك كثرة
الصوفية الذين تحدثوا كثيرا عن النفس وطبائعها ، وأقسامها ، بل إن منهم
من ألف الكتب الخاصة بها ومنهم الإمام الفزالى (٣) ، الذى لم يقتصر
بالحديث عنها فى بعض كتبه (٤) فألف كتابه : " مدارج القدس فى
مدارج معرفة النفس " (٥) وكله يدور حول تعريف النفس وأنواعها ، وبيان
مسلكها ودروبها ، وكان لا يفتأ يتحدث عنها ، واصفا دواها ، ومن ذلك
قوله (٦) : " تم عليك يا طالب المبادات - عصمك الله وإيانا - بالحسد
من هذه النفس الأمارة بالسوء ، فإنها أضرا الأعداء ، وبلادها أصعب
البلاء ، وعلجها أسر الأشياء ، ودواها أعزل الداء " . فان قلت : فما
الحيلة . . فى هذا المدو ، وما التدبير فى أمره . ؟ فاعلم . . أن عليك
أن تلجمها بلجام التقوى والورع . . فان قلت : إن هذه دابة جسيمة ،
وسهيمة صعبة شكسة ، لا تتقاد للجام . . فاعلم أنك فيها صادق ، والحيلة
تذليلها حتى تتقاد للجام ، قال علماءنا - رضى الله عنهم - إنما يذل
النفس ويكسر هواها ثلاثة أشياء :

- (١) المرجع السابق ص ٢٠٢
- (٢) دراسات فى التصوف الإسلامى ج ٢ ص ١٣٩ بتصرف .
- (٣) هو حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الفزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ .
- (٤) انظر كتابه : " إحياء علوم الدين " ج ١٢ ص ٢١٣٩ إلى ص ١٤٣ طبعة دار الشعب
بمصر سنة ١٩٦٨ .
- (٥) سبقت الإشارة إلى هذا الكتاب فى هامش ص ٩٦ من هذه الرسالة .
- (٦) كتابه : " منهاج العابدين " ص ١٨ وما بعدها باختصار مطبعة عطايا بمصر سنة
١٩٥٤ .

أحدها : منع الشهوات - يقصد التقليل من الشذاه - فإن الدابة الحسرون
تلين إذا نقص من علقها .

ثانيها : جعل أثقال المبادات عليها ، فإن الحمار إذا زيد في حملها
مع النقصان من علقه تذلل وانقاد .

ثالثها : الاستمانة بالله عز وجل ، والتضرع إليه بأن يمينك وإلا فلا مخلصه
أما تسمع قول يوسف (عليه السلام) : " إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ
بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي " الآية (١) فإذا واطقت على هذه
الأمر الثلاثة انقادت لك النفس الجموح بإذن الله (عز وجل)
، فحينئذ تبادر إلى أن تطلقها وتلجمها وتأمّن شرها . . .

ويبدو أن البوصيري قد نظر إلى نصائح الإمام الشزالي عن النفس
وخاصة إلى قوله عنها " أعلم أن أهدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ، وقد
خلقت أمارة بالسوء ، موالاة إلى الشر ، فرارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها
وتقويمها ، وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ، ومنعها عن شهواتها
وفطامها ، عن لذاتها ، فإن أهطتها جمحت وشدت . . . (٢) .
ألا ترى صدى هذه النصائح في قول البوصيري (٣) :

من لى برد جماح من غوايتها . . . كما يجرود جماح الخميل باللجم
فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها . . . إن الطمام يقوى شهوة النهيم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على

حب الرضاع وإن تظلمه ينفطم

ولا يخفى ما في النظم من نسق جميل ، وتمبير رائع ، بالإضافة إلى حكمته
الصادقة في قوله :

فأصرف هواها وحاذ أن توليه . . . إن الهوى ما تولى يصم أو يصم
وراعها وهي في الأعمال سائمة . . . وإن هي استحلت المرعى فلا تسم

(١) يوسف / ٥٣ .

(٢) إحياء علوم الدين : ج ١ ص ٢٧٧٩

(٣) انظر ص ١٠٠ وما بعدها من هذه الرسالة .

ولقد تحدث البوصيري عن النفس ، وأشار إلى بعض غرائزها ، وكان راعيا في تلك الإشارة ، وذلك ذلك قول بعض الكتاب عنه : " إنه تناول الحديث عن النفس في عدة أبيات تصلح للدراسات النفسية ، يتناول فيها المدارس مسألة الغرائز وتربيتها ، والمعادن وتكوينها ، بما لا يقل في جملته عن الدراسات النفسية الحديثة .. (١) " .

١ - وإذا كانت سمات الأدب الصوفي السابقة تدرج حول أغراضه وأفكاره ، فإنه يمتاز - أيضا - بوقدة مشبوهة في ألفاظه وعباراته ، إذ تحتشد فيه كلمات الحب والهيام ، والهوى ولواعته ، والجحود والنكران .. (٢) ، ولا شك في أن البردة قد اشتملت على طرف من ذلك ، ويكفي دليلا على ذلك قول البوصيري (٣) :

لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل

ولأرقت لذكر البان والمعلم

فكيف تنكر حبا بعدما شهدت

به عليك عدول الدمع والسقم

وأثبت الوجد خطى عبيرة وضنى

مثل البهار على خديك والمعتم

ومعد .. فلم يكن من المستطاع أن أقول : إن في البردة أثرا للصوفية أم لا إلا بعد إلقاء الضوء على أهم سمات الأدب الصوفي كما ذكرها كثير من الكتاب والباحثين ، ثم بيان مدى وجود هذه السمات في البردة ومعد هذا العرض الطويل يمكنني أن أقول : إن في البردة أثرا للصوفية لا ينكر .

(١) مجلة الرسالة : السنة ١٦ (١٩٤٨) العدد ٧٩٩ ص ١٢٠٨ .

(٢) عبد الكريم الخطيب : الأدب الصوفي في مفهوم جديد ص ٢٩ بتصرفا طبعة دار الثقافة العربية بصر سنة ١٩٦٥ .

(٣) انظر ص ٨٩ وما بعدها من هذه الرسالة .

٤ - أثر البردة في البديعيات :

ولقد كان للبردة أثر كبير في نشأة البديعيات^(١) ، أو على الأقل نسي كثرتها وانتشارها ، وتوضح ذلك الأثر بعد جولة قصيرة معها ، تتضمن تعريفها والإشارة إلى بعض شعرائها ، والبديعيات (جمع بديعية) : وهي قصيدة من بحر البسيط ، تنتهي قافيتها بميم مكسورة الروى ، يشير فيها ناظمها إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) - غالباً -^(٢) كما يضمن كل بيت من أبياتها لونها أو أكثر من ألوان البديع .

ويبدو أن أول بديعية - تحقق فيها الضابط السابق - هي بديعية صفي الدين الحلبي^(٣) ، ولذا حقله أن يقول عن نفسه : " إنه مخترع هذا الفن الشعري ... " ، وعلى هذا بشي كثير من الكتاب وأبيهم^(٤) ، ولكن بعض الباحثين ذهب إلى أن هذا القول خطأ ، لأن صفي الدين الحلبي قد سبق من نظم في البديعيات مثل السلیماني^(٥) ، إلا أنه يمكن أن أقول : إن - صفي الدين الحلبي أول من نظم بديعية من بحر البسيط وتنتهي قافيتها بميم مكسورة الروى ، وأشار فيها إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وضمن كل بيت من أبياتها لونها بديعياً أو أكثر ، بخلاف من سبقه ، فلم تكن بديعته من بحر البسيط ، ولا في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

(١) نسبة إلى علم البديع الذي هو أحد علوم البلاغة الثلاثة - البيان ، المعاني ، البديع - وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ، ووضوح الدلالة - انظر : التلخيص في علوم البلاغة ص ٣٤٧ .

(٢) قلت : (غالباً) إشارة إلى ما نظم من قصائد في علم البديع يخالف هذا الضابط ، ومن ذلك قصيدة علي بن عثمان السلیماني الصوفي سنة ٦٢٠ هـ - وهي من بحر الخفيف ، وتنتهي قافيتها بلام مكسورة الروى ، ونظمها في مدح بعض أصحابه ، ومطلعها :

بعض هذا الدلال والإدلال .. حالي الهجر والتجنّب عالى

انظر : نوات الوفيات ج ٢ ص ٤٦ ، الدكتور : أحمد موسى : الصبح البديعي ص ٣٢٧ . طبعة (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٦٩)

(٣) هو : عبد العزيز بن سرايا الملقب بصفي الدين الحلبي ، توفي سنة ٧٥٠ هـ - انظر الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٦٩ .

(٤) كشف الظنون ج ١ ص ١٩٠ .

(٥) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص ٣١٢ - الشاعر سليل المحمدين ص ١٠٥ .

(٦) سبقت الإشارة إلى بديعية هذا الشاعر أمام رقم : ٢ من هامش هذه الصفحة

ولعل ما يشير الدهشة أن ظروف نظم هذه البديعية - بديعية الحلى -
تشبه إلى حد كبير ظروف نظم برودة البوصيرى ، بالإضافة إلى وحدة البحر
والقافية والنقص وإن زادت البديعية الاحتكام بالبديح ، يقول صفى الدين مبينا
سبب نظمه تلك البديعية : إنه أراد أن يؤلف كتابا يحيط بكل أنواع البديع
، فمرت له علة طالت مدتها ، واشتدت شدتها ، فاتفق أنه رأى فى منامه
رسالة من النبى (صلى الله عليه وسلم) يتقاضاه المدح ، ويعدده البر ، فمن
سقمه ، فعدل عن تأليف ذلك الكتاب إلى نظم قصيدة تجمع أشات البديع ،
وتتطور بمدح مجده الرفيع ، فبلغت أبياتها خمسة وأربعين ومائة بيت ،
ومظلمها (١) :

إن جئت سلما فسل عن جيرة العلم . . . وافر السلام على عربيدى سلم
ولقد سمعنا صفى الدين * الكافية البديعية فى الدائع النبوية (٢) ،
وقيل : سماها (الكافية البديعية) ، بل وهم بعض الكتاب أنه لم يسمها ، إلا أن
الشاعر قد شرح أبياتها ، ووضح غامضها فى كتاب سماه (النتائج الإلهية فى
شرح الكافية البديعية) ، ولعل هذا يؤكد أن الشاعر قد سى القصيدة (الكافية
البديعية) كما شرحها بعض العلماء شرحا آخر سماه (الجواهر السنن فى
شرح بديعية الصفى) (٣) .

ولقد فتح صفى الدين الحلى الباب لمن جاء بعده من الشعراء ، فسلكوا مسلكه
ونظموا قصائد كثيرة ، لم يمكن الوقوف على عددها ، والإحاطة بها ، وقد ذكر
بعض الباحثين أنه قد وقف على أربع وأربعين بديعية ، منها المشرح وغير المشرح
، ومنها المطبوع ، والمخطوط ، ومنها ما هو معروف للصاحب ، وغير المعروف (٤) .

- (١) كشف الظنون ج ١ ص ١٩٠ وما بعدها (وطلع) : جبل فى المدينة .
- (٢) المرجع السابق الدكتور شوقى ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٥٩ وما بعدها
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٥ .
- (٣) الصيغ البديعية ص ٣٨٠ ، الدائع النبوية ص : ٤٠٦ وما
بعدها .
- (٤) الصيغ البديعية ص ٣٨٥ .

ومن هذه البديعيات بديعية ابن جابر الأندلسي (١) التي بلغ عدد أبياتها
سبعة وعشرين ومائة بيت ، واسمها : (الحلة السيراني مدح خير الورى) (٢) وهرفت
ببديعية العميان ، لأن ابن جابر كان أعمى ، ومطلعها (٣) .

بطيبة انزل ويم سيد الأسمم وانثر له الدج وانثر طيبا للكلم

ولقد شرحها صاحبه : أبو جعفر الأندلسي (٤) ، وسعى ذلك الشرح (طراز
الحلة وشفاء الملة) (٥) .

ثم جاء بمد ابن جابر الأندلسي ، عز الدين الموصل (٦) ، الذي نظم -
ببديعية ، بلغ عدد أبياتها خمسة وأربعين ومائة بيت . ومطلعها (٧) :

براعة تستهل الدج في الملم عبارة عن نداء المفرد العلم

ويبدو أنه متأثر في نظم ببديعيته ببديعية صفى الدين الحلبي ، وما يؤكد
ذلك أنه سمى ببديعيته (الفتح الألى ، في مطارحة الحلبي) ووضع لها شرحا
سماه (التوصل بالبديع إلى التوصل بالشفيع) (٨) - صلى الله عليه وسلم .

ولعله أراد أن يثبت تفوقه على صفى الدين الحلبي ، فصحى إلى تضييق البيت
للفظ ، يدل على المصطلح البديعي الذي اشتمل عليه ، وكان صفى الدين
قد اكتفى بذكر المحسن البديعي أمام البيت أو بحذائه ، فأتى عز الدين ، وأدخل نسي
نسيج البيت ما يدل عليه ، وبذلك أودعها ثقلا شديدا على نحو ما ترى في هذا المطلع ،
فقله : (براعة تستهل الدج في الملم) يشير إلى براعة الاستهلال بقوله (براعة
تستهل . . .) (٩) .

(١) هو : أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي توفي سنة ٧٨٠ هـ . (انظر الدرر الكامنة
ج ٣ ص ٣٣٩) . (٢) السيراني أصلها السيراني : أي المخططة أو التي خالطها حرير .
(٣) المدائح النبوية ص ٢٠٥ . (٤) هو : أحمد بن يوسف بن مالك الرعيصي
الخرناطي الأندلسي توفي سنة ٧٧٩ هـ (كشف الظنون ج ١ ص ١٩٠) .
(٥) المرجع السابق . (٦) هو : عز الدين الموصل المتوفى سنة ٧٨٩ هـ (انظر
الدرر الكامنة ج ٣ ص ٤٣) . (٧) الصبغ البديعي ص ٣٨٩ .
(٨) المرجع السابق ، الهلقة تطور وتاريخ ص ٣٦١ .
(٩) الهلقة تطور وتاريخ ص ٣٦٢ . براعة الاستهلال : أن يشتمل أول الكلام على سبيل
لطيفة إلى المقصود . (زهر الريح ص ١٥٩) .

ثم أتى ابن حجة الحموي (١) - بعد عز الدين الموصلى - ونظم بديعية بلغ عدد أبياتها اثنين وأربعين ومائة بيت (٢) ، ومطلبها :
لِي فِي ابْتِدَاءِ مَدْحِ حَكَمِ يَاعَرَبِيذِي سَلَمٌ . . . بَرَاعَةٌ تَسْتَهْلُ الدَّمْعَ فِي الْعِلْمِ (٣)

ولقد سماها (تقديم أبي بكر) وشرحها في كتاب سماه (خزانة الأدب وغاية الأرب) (٤) ويظهر أن ابن حجة قد تأثر في بديعيته بمن سبقه ، يدل على ذلك أنه يتحدث عن بديعية صفى الدين الحلبي ، وعز الدين الموصلى ، فيقول :
وبديعية صفى الدين غزلها لا ينكر ، غير أنه لم يلتزم فيها تسمية النوع البديعي موصى به من جنس الغزل ، ولو التزمه لتجافت عنه تلك الرقة . . . ولما الشيخ عز الدين الموصلى ، فإنه لما التزم ذلك تحت من الجبال بيوتاً . . . (٥)

وعلى الرغم من وصفه بديعية عز الدين الموصلى بالثقل والتكلف ، فإنه قد تأثر بها إلى حد كبير ، ويدل على ذلك أن الشطر الثاني من مطلع بديعيته هو الشطر الأول من مطلع بديعية عز الدين وهو : (بَرَاعَةٌ تَسْتَهْلُ الدَّمْعَ فِي الْعِلْمِ) أضف إلى ذلك أنه قد نظر إلى بديعية ابن جابر يدل على هذا قوله : "إني وقفت على بديعية الشيخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر الأندلسي ، فوجدته قد صرح في براعتها بمدح النبي (صلى الله عليه وسلم) وهي :

بطيبة انزل ويم سيد الأمم . . . وانثر له الدوح وانشر طيب الكلم

فهذه البراعة ليس فيها إشارة تشعر بفرض الناظم وقصده ، بل أطلق التصريح ، ونثر الدوح ، ونشر طيب الكلام . . . وقُلْ من يسلك هذا الطريق ممن أهل الأدب (٦)

ثم يذكر ما يدل على أنه قد نظر إلى بردة البوصيري فيقول (٧) :

-
- (١) هو : أبو المحاسن تقي الدين أبو بكر بن حجة الحموي توفي سنة ٨٢٧ هـ (شذرات الذهب ج ٧ ص ٢١٩) .
 - (٢) كشف الظنون ج ١ ص ١٩٠ .
 - (٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .
 - (٤) طبع هذا الكتاب بمطبعة بولاق بمصر سنة ١٢٩١ هـ .
 - (٥) خزانة الأدب ص ١٦ .
 - (٦) المرجع السابق ص ١٤ .
 - (٧) المرجع السابق الصفحة نفسها .

” ومطلع البردة - أيضا - في هذا الباب من أحسن البراعات ، وهو :
أين تذكر جيران بندي سلم . . . مزجت دما جرى من مقله بدم
فخرج دمه بدمعه عند تذكر جيران بندي سلم - من أطف الإشارات
إلى أن القصيدة نبوية ، وما أحلى ما قال بحدده .
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة . . . وأرض البرق في الظلماء من إنغم
بل إنه ليؤكد أنه قد نثر في نظم بديعته بالبردة فيقول (١) :
” وحد . . . فهذه البديعية التي نصحتها بدمحه (صلى الله عليه وسلم)
على ضوالم (طرز البردة) .“

ولم ينس ابن حجة أن يشير إلى بديعته متبيا عليها بقوله :
” وأما براعة بديعته ، فإنها ببركة مدوحها (صلى الله عليه وسلم) فسوق
هذه المطالحة ، وقبلة هذا الكلام الجامع ، فإنني جمعت فيها بين براعة
الاستهلال وعسن الابتداء ، والشروط المقرر لكل منهما ، وأبرزت تسمية نوعها
البديعي في أحسن قوالب التورية ، وشتفت بأقراط غزلها الأسعاع ، مع حشمة الألفاظ
وهذوتها ، وعدم تجلج جنونها عن مضاجع الرقة . . . (٢) .“

وإذا كان ابن حجة قد أشى على قصيدته ، فإن شرحها لم يقل شأنها
ولذلك قال عنه بعض الكتاب : ” والطريف أن ابن حجة قد حول شرحه لبديعته
إلى خزائنة أدب بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من معنى ، إذ توسع في شرح الأمثلة
والشواهد ، وبخاصة لشعراء عصره ، والقريبين منهم في العصر الأيوبي (٣) . . .
وإن هذه الخزائنة أصدق مثل للأدب العربي في العصر المملوكي ، فقد ضمت
بين جوانحها جملة عظيمة من منظوم الكلام ومشوره ، يستطيع الباحث على ضوئها
أن يحكم على هذا الأدب حكما صادقا ، وينظم نواحي القوة والضعف فيه (٤) .“ فهي
بذلك ” مجموع أدب قل أن يوجد في غيره ، ولعل مقتنيه يستغنى عن غيره من الكتب
الأدبية (٥) . . .“

(١) المرجع السابق . الصفحة نفسها (٦) المرجع السابق ٩ ص ١٦ .

(٢) البلاغة لظهير بتاريخ ص ٣٦٣ .

(٤) الصيغ البديعي ص ٣٩٤ .

(٥) كشف الظنون ج ١ ص ١٩٠ .

ولقد شغف الشعراء بالبديعيات، يدل على ذلك أن بعضهم قد نظم
أكثر من بديعية، مثل : عائشة الباعونية ^(١) التي نظمت بديعيتين، وكذلك
عبد الغنى النابلسي ^(٢)، له بديعيتان، وإحداهما تسمى : (ملحج البديع نسي
مدح الشفيح) ^(٣) والثانية تسمى : (نسمات الأسحار في مدح النبي المختار)
- صلى الله عليه وسلم - ولقد شرحها في كتاب سماه (نفحات الأزهار على نسمات
الأسحار في مدح النبي المختار) ^(٤) - صلى الله عليه وسلم - .

ومما هو جدير بالذكر أن كل ما ذكرته من بديعيات قد ألف قبل العصر
الحديث أما في العصر الحديث ^(٥) فلمل أهم بديعية هي قصيدة الشاعر
محمود صفوت الساعاتي ^(٦) التي بلغ عدد أبياتها اثنين وأربعين ومائة بيت على
غرار بديعية ابن حجة العمري ^(٧) ومنظمتها :

سبح الدموع لذكر السبح والمسلم .. أبدي البراعة في استهلاله بدم

والملاحظ على هذه البديعية سهولة ألفاظها إلى حد ما وكما تنطبق
في كثير من أبياتها بمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثل قول الشاعر ^(٨)

أرجو تمطفه يوم المماد كما .. ترجوه كل البرايا يوم حشرهم
وقوله ^(٩) :

- (١) هي : عائشة بنت يوسف بن أحمد الباعوني توفيت سنة ٩٢٥ هـ وقيل : ٩٢٢ هـ .
انظر الأعلام ج ٤ ص ٦ .
- (٢) هو : عبد الغنى بن إسماعيل النابلسي . توفى سنة ١١٤٢ هـ .
- (٣) الصبح البديع ص ٤٥٥ .
- (٤) المرجع السابق ص ٤٥٦ .
- (٥) انظر ص ٢٦١ من هذه الرسالة حيث يوجد تاريخ بدء العصر الحديث .
- (٦) هو : محمود صفوت بن مصطفى أغا المروفي بالساعاتي، ولقد نشأ بالقاهرة وتقلب
في كثير من الوظائف إلى أن توفى سنة ١٨٨٠ انظر مقدمة ديوانه ص ٤٤ ، مطبوعة
المعارف بمصر سنة ١٩١١ .
- (٧) ديوان الساعاتي ص : ٩٦ .
- (٨) المرجع السابق ص ١٠١ .
- (٩) المرجع السابق ص ١٠٨ .

لا مكنتى الممانى من شواردها إن لم أبر بمدح المصطفى قسى
من لم يكن بمدح خير الخلق حسسه
فجمحة القول لم ينسب إلى الهسى

وكذلك يصح بإضرابه عن مدح غير الرسول (على الله عليه وسلم) فيقول (١) :

أضربت عن كل مدح بمسند حو خير الرسل بل خير خلق الله كلهم
أرجو بحسن بياني في مدائحه تخلصا من عذاب دائم الأليم

قيمة الهدىميات :

ولقد اختلف الكتابي في قيمة هذه الهدىميات ، فمنهم من حمل عليها
بقوله : " . . . " والذي نستطيع قوله مطمئنين إليه ، أن الحائز الأول على هذه
الهدىميات إنما هو الصبغة الهدىمية ، أما المدح النبوي فقد دعت إليه معارضة
البردة في غرضها ، ولذلك نراه مدحا صناعيا لا روح فيه ولا قوة . . . " (٢) .

ثم يؤكد ذلك بقوله : " . . . " وفي الحقان هذه الهدىميات منذ ولدت إلى
أن قصت صناعة من العبث ، أضغت الشمر ، وحدت قوته . . . وأوردت
موارد التكلف والتعمل الثقيل . . . " (٣) الذي (أحال الكلام في البديع
ومحسناته إلى صورة غثة ضررها أكثر من نفعها . . . " (٤) .

ومن الكتاب من نظر إلى الهدىميات نظرة أخرى تظهر في قوله :
" وهما قيل في هذه الهدىميات ، من أنها متكلفة ، وأنها ساقطة النظم
عمرة الأسلوب ، ركبة التركيب ، فهي على كل حال فن شعري جديد ، ولد وشب
وترعرع في العصر السلوكي ، وشغل أذهان أدباء العربية حقبة من الزمان طويلة ،
وأثرى العلم والأدب من ورائه ثروة لا يستهان بها ، وخاصة من شروح البديع . . .
وكانت هذه الشروح مظهر قدرة خاصة من علماء لهم قدم في علوم العربية وآدابها ،
وفي ثنايا الشروح ما يحمل من منافع طيبة في النحو والصرف واللفظة والأدب والتاريخ (٥) .

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها (٢) الصبح البديعي ص ٢٨٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٧٨ . (٤) البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٦٦ .
(٥) الدكتور محمد كامل النقي : دراسات في الأدب العربي ص ١٤ مطبعة عندي بمصر
سنة ١٩٧٣ .

ومن ذلك يظهر لنا أن المدائح النبوية - وخاصة البردة - قد خدمت علوم البلاغة ، وكانت حائزاً قوياً على نواحيها ، ولقد كانت هذه البردة مصدر وحى .. لشعراء البديعيات الذين أرادوا أن يحاكوا البوصيري .. بقصائد على نسطه ، فاستحدثوا بذلك في الأدب العربي هذا الفن الجديد المسمى (البديعيات) (١) أو على الأقل شاع هذا الفن وذاع ، ونما وترعرع ، وهم - أصحاب البديعيات - وإن لم يلحقوه - البوصيري - في جزالة اللفظ ، وجودة المعنى - لأنه كان مخلصاً لمدحه ، أما هم فقد استباحم البديع ، واستهوتهم الحلية - فقد أضافوا إلى الأدب العربي بحامة وإلى علم البديع بخاصة ثروة قيمة .. وحسبك أن تعلم أن شعراء البديعيات كثيرون ، وأن تعلم أنه ما من بديعية إلا تناولها النقاد والشرح بالشرح والبيان .

٥ - أثر البردة في الشعر والشعراء :

وإذا كنا قد رأينا أثر البردة في مجالات مختلفة ، فيها نحن أولاء ، أمام أثر آخر ، وهو أثر البردة في الشعر والشعراء .

والحق أن للبردة أثراً كبيراً في الشعر والشعراء ، ويتضح ذلك من تصريح بعض الكتاب - الذين نظموا الشعر - بأن البردة كانت سبباً من الأسباب التي دفعتهم إلى قرض الشعر ، بل كانت البردة أحد أساليبهم في نظم الشعر ، ومن هؤلاء الشعراء ، الشاعر عبد العلم القباني (٢) الذي يقول في معرض حديثه عن البردة ، عندما سمعها تنشد في مسجد البوصيري بالإسكندرية بنخبة موسيقية جميلة : " .. وربما كان هذا الدرس الأول الذي تلقته نفسي بطريقة نظم الشعر ، إذ تعودت بعد ذلك أن أنظم على نسق هذه النخبة أبياتا توشك أن تكون بلا معنى ، وإن كنت لا أخطئ في وزنها ، الذي عرفت - فيما بعد - أنهم - المشتغلون بالشعر - يسمونه " البحر ..

(١) المدائح النبوية ص ٢٠٥ وما بعدها بتصرف . (٢) هو : عبد العلم محمد القباني المولود في سنة ١٩١٨ بإحدى قرى محافظة كفر الشيخ ، حصل على الجائزة الأولى في الشعر من وزارة المعارف سنة ١٩٤٨ ، وجائزة الشعر الفخاني من الإذاعة المصرية سنة ١٩٤٩ ، ثم جائزة شوقي من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب سنة ١٩٦٥ على ديوانه المسمى (أشعار قومية) ، وله ديوان آخر بعنوان (بقايا سراب) طبعة دار المعارف بصر سنة ١٩٦٠ - كما نظم ملحمة الثورة العربية في ثلاثة ألقاب من الشعر الموزون =

البيط (١) ثم يقول في صراحة تامة لقد : " كانت هذه القصيدة . . . أحمد
أساتذتي في نظم الشعر . . . (٦) "

وانك لتعجب إذا رأيت كثرة هؤلاء الشعراء الذين أثرت فيهم السبيرة
فقام بعضهم بتخصيها (٧) ، وأقرب مثال على ذلك تضمين لم يعرف قائله ، إلا
أن صاحب المدائح النبوية (٤) قال باسمه (الشيخ قاسم) وأوله :

(أمن تذكر) أوطان على علم أم من تغد جيران بذي سلم

(مزجت دما جرى) كالقطر منهمرا

يجرى على وجفة (من مقلدة بسدم)

كما قام بعضهم بتشطيرها (٥) ، ومن هؤلاء الذين شطروها الشيخ عبدالقادر
الرافعي (٧) ، وأول تشطيره :

أمن تذكر جيران بذي سلم هجرت طيبا لكري ليلا فلم تم
أم من شيام ووجد في محبتهم مزجت دما جرى من مقلدة بسدم (٧)
ومن الشعراء من قام بتخصيها (٨) ، ومنهم الشاعر المصراعي

المحقق ، وله عدة مؤلفات أدبية أخرى ، وآخرها (طه حسين في الشح من شهابه)
نشرته الهيئة المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٧٦ .

(١) البوصيري حياته وشعره ص ٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٥ .

(٣) التضمين : أن يأخذ الشاعر شيئا من شعر غيره ، ويدخله في شعره المقصود عليه

إن لم يكن مسريفاً عند اللفاء (التلخيص في علوم البلاغة ص ٤٢٤ وما بعدها) .
(٤) ص ٢٠٠

(٥) التشطير : هو أن يزيد الشاعر على كل بيت من الأبيات المراد تشطيرها بيتا من عنده
بحيث يأتي بشرط من البيت الأصلي ثم بشرطه هو . وهكذا مراعى اتحاد الوزن والقافية
والفرض .

(٦) هو : عبد القادر سعيد الرافعي الطرابلسي المتوفى سنة ١٨١٥ (الأعلام ج ٤
ص ١٦٥) .

(٧) عبد القادر الرافعي : نيل المراد في تشطير الهزنية والمجردة وانت سعاد ص ٢٩
مطبعة الشرى بمصر سنة ١٣٤٤ هـ .

(٨) التخصيص : هو أن يزيد الشاعر على كل بيت من الأبيات المراد تخصيها ثلاثة أشطر
مراعى اتحاد الوزن والقافية والفرض .

السيد إبراهيم الموصلي (١) الذي سمي تجميعه (تفتيس الشدة في تجميع البرودة)
وأوله (٧) :

مالي أراك شجى القلبدا ألم تنو إلى بارق من جانب الملمس
غريق فكو ودع مزجه بسدم أمن تذكو جيران بذي سلمس
مزجت دمما جرى من ملة بسدم

ومن الشعراء من سبها (٢) وأقرب مثال لذلك ، هذا التسيب الضسوب
إلى القاضي البيضاوي (٤) ، وقيل : لغيره (٥) ، وأوله (٧) :

الله يعلم ما في القلب من ألم ومن غرام بأعشائي ومن سقم
على فراق فريق حل في الصرم فقلت لما هو دمي بنسجم
على المتيق عتيقا غير منسجم أمن تذكو جيران بذي سلمس
مزجت دمما جرى من ملة بسدم

كما قام بعض الشعراء بتمشيرها (٣) ، ويوجد لهذا النوع مثال واحد
مخطوط بدار الكتب المصرية (٨) ونظمه مجهول ، وإن كان بعض الكتاب يسميه إلى
شخص يدعى (محمد الخلوتي) ولم أعثر له على ترجمة (٩) ومطلعه :

(١) هو : السيد إبراهيم الحسيني الموصلي المتوفى سنة ١٩٢١ ، انظر حياته قس
مقدمة (تفتيس الشدة في تجميع البرودة) ص ٥ مطبعة الحرية ببغداد سنة
١٩٦٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩ وما بعدها .

(٣) التسيب : هو أن يزيد الشاعر على كل بيت من الأبيات المراد تجميعها خمسة
أشطر ، مراعى اتحاد الوزن والقافية والخرص .

(٤) هو : عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي المعروف بالقاضي البيضاوي توفى سنة
٦٩٦ هـ .

(٥) المدائح النبوية ص ٢٠٢ .

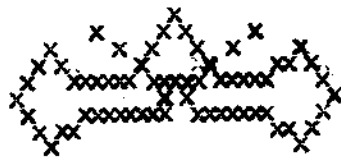
(٦) المرجع السابق . (٧) التمشير هو : أن يزيد الشاعر على كل بيت
من الأبيات المراد تجميعها ثمانية أشطر مراعى الوزن والقافية والخرص .

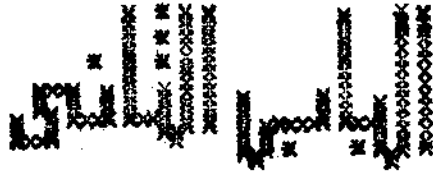
(٨) انظر فهرست دار الكتب المصرية قسم الأدب ج ٣ ص ٤٩ وما بعدها تحت رقم ١٠٤
مجامع (م) . (٩) المرجع السابق والمدائح النبوية ص ٢٠٢ .

الله يعلم ما في القلب من ألم
على فراق فريق حل في الحرم
على العميق عقيقا غير منسجم
مذ بان أهل الحمى والبان والحلم
أمن تذكو جيران بذي سلم
ومن غرام بأحشاشي ومن سقم
فقلت لما هي دمي بمنسجم
ما بال قلبك لا ينفك ذا ألم
وانهبل مدمعك القانسي بمنسجم
مزجت دما جرى من مقله بسدم

ولا يخفى أن صاحب هذا التصهير قد شاعر في نظمه بالتخميس السابق ،
بما لقد أخذ التخميس كله وأضاف عليه ثلاثة أشطر من عنده بالإضافة إلى
بيت البردة .

إن عناية الشعراء بالبردة قد اتخذت صورا متعددة ، وألوانا مختلفة ،
وإذ كانت قد أشرت إلى بعضها المتشبه في التضمين والتشطير والتخميس والتسبيح
والتشهير ، فسوف أتحدث عن لون آخر ، قد اتجه إليه شعراء كـ سيرون ،
مصريون وغير مصريين ، وهذا اللون هو معارضة البردة ، والحديث عن هؤلاء
الذين عارضوا البردة حديث جد طويل ، ولذلك آثر أن أفرد له الباب
التالي ، بل الأبواب التالية ، إن شاء الله .





•• ((معارضات البردة في العصر الحديث)) ••



((قيل وقيل))

((x)) الفصل الأول :

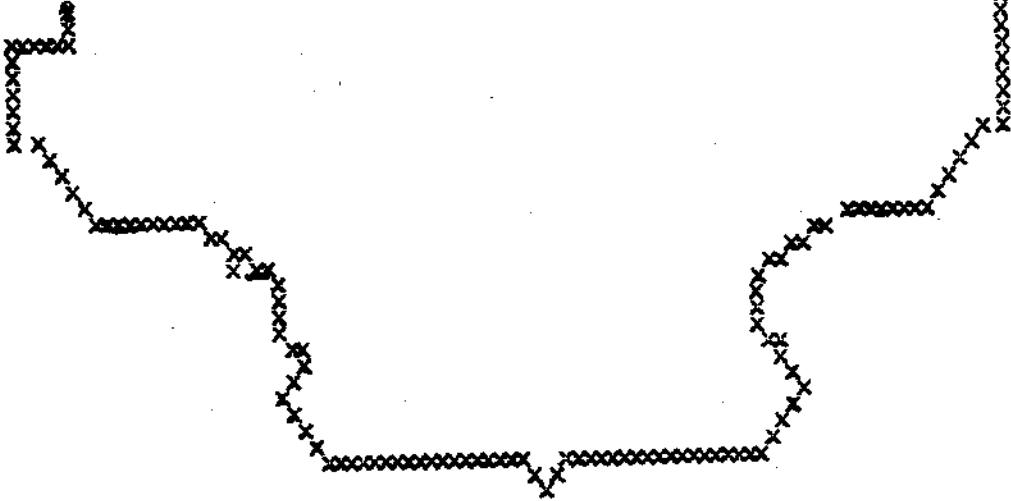
• :المعارضة ودواعيها

((x)) الفصل الثاني :

• : العصر الحديث وأهم معالمه

((x)) الفصل الثالث :

• : معارضتا الدرويش والتميمية وأثرهما



الفصل الأول

المعارضة ودوافعها

١- معنى المعارضة :

رأيت أن الحديث عن معارضات البردة يتطلب وقفة - ولو قصيرة - مع معنى المعارضة ، ونشأتها ، ومدى انتشارها في الشعر العربي ، والدوافع التي تجعل الشاعر أو الأديب يتجه إليها ، ويقبل عليها .

ولقد نظرت في بعض كتب اللغة فوجدت أن المعارضة مصدر للفعل (عارض) وهذا الفعل في مدلوله اللغوي يشير إلى معان كثيرة يظهر بعضها في قولك : عارض فلان الشيء بالشئ . معارضة ، أي قابله ، وعارضت كتابي بكتابه ، أي قابلته ^(١) ، ومن ذلك ما روى عن السيدة فاطمة بنت الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، و (رضى الله عنها) أنها قالت : " أسرَّ إلي النبي (صلى الله عليه وسلم) أن جبريل يمارضني القرآن كل سنة - مرة - وأنه عارضني العام مرتين ، ولا أراه إلا حضر أجلي ^(٢) " وهذا يدل على أن جبريل (عليه السلام) كان يمارض الرسول (صلى الله عليه وسلم) جميع ما نزل من القرآن من المعارضة بمعنى المقابلة ، وتقول : عارض فلان فلانا في السير إذا سار حواله ، وعارض فلانا إذا جانبه وبدل عنه ، وعارض الرجل الآخر بمثل صنيعه ، إذا فعل مثل فعله ، وأتى إليه مثل ما أتى ، كما تقول : عارضة فمررت به ، أي قابلته في المعارضة فقبلته ، وتعارض الشاعران إذا فعلا مثل ذلك ، وشبه لفظ عارضه ، : باراه ، وساجله ، وفاخره ، ونحو ذلك مما يدل على المعارضة مطلقاً ^(٣) ولملح قد وضع من ذلك كله أن المعارضة لغويا تدل على معان كثيرة ومنها مقابلة شئ بشئ ، ولإتيان بمعمل يشابه عمل الآخر .

- (١) لسان العربي ج ٩ ص ٢٦ مادة (عرض) ، وتاج الصروس ج ٥ ص ٥١ المادة نفسها .
 (٢) صحيح البخاري ج ٩ ص ٣٥ .
 (٣) عيسى إسكندر المصطفى : معارضات (ياليل الصب) ص ٣ وما بعدها - مطبعة الهلال بمصر سنة ١٩٢١ ، على النجدي : الدين والأخلاق في شعر شوقي ص ٢٤ مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٦٤ .

أما في اصطلاح الشعراء فهم : أن ينظم الشاعر قصيدة على مثال ما نظم
الآخر متقيدا بالموضوع والبحر والقافية ، سواء وافقه في المعنى أم خالته (١) .

وعلى هذا ، لم تخرج المعارضة في معناها الاصطلاحي عن بعض معناها
اللغوي ، لأن في النظم على مثال ما نظم الآخر مقابلة عمل بحمل ، وفيه كذلك
مداورة ومتابعة ومباراة ، كما أن فيها اتجاها إلى المحاكاة والمحاذاة (٢) .

٢- نشأة المعارضة وانتشارها في الشعر العربي :

ليس هناك تاريخ محدد لنشأة المعارضة في الشعر العربي وسندوا
أنها ولدت مع الشعر العربي نفسه ، ولا أدل على ذلك من أنها وجدت في
العصر الجاهلي - حدد النقاد هذا العصر بخمسين ومائة سنة قبل الإسلام (٣) -
وأقرب مثال يؤكد ذلك ما ذكرته بعض كتب الأدب من أن علقمة الفحل (٤) وأمسرا
القيس (٥) ، تذاكرا الشعر يوما ، وادعى كلاهما الفضل فيه ، فانفقا على المعارضة
والاحتكام فيما يقولان إلى أم جندب - زوج امرئ القيس - واقترح علقمة أن يكون
وصف الفرس هو موضوع المعارضة ، فنظم امرؤ القيس قصيدة مطلقها (٦) :

خليلي مرا بي على أم جندب : لتقضى لبانات القواد المعذب

(١) معارضات (ياليل الصب) ص ٣ .

(٢) إبراهيم عوضين : المعارضة في شعر شوقي (رسالة ماجستير) ص ٢ وما
بعدها .

(٣) انظر : الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص ١٠ .

(٤) هو : علقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس بن ربيعة بن مالك توفي سنة ٦٠٣ م (الأعلام
ج ٥ ص ٤٨) .

(٥) هو : جندب بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر توفي سنة ٥٦٠ م (تاريخ آداب
اللغة العربية ج ١ ص ٩٢) .

(٦) امرؤ القيس ديوانه ص ٢١ بشرح السندوني . مطبعة الاستقامة بصر سنة ١٩٣٠ م
اللبنات : (جمع لبانة) وهي حاجة النفس ومطالبها ، وروى (لنقضى
حاجات) بالنون بدل التاء .

وقال علقمة قصيدة مطلعها : (١)

لعبت من الهجران في غير مذهب

ولم يك حقا كل هذا التجنيس

فحكمت أم جندب لعلقمة على زوجها ، فطلقها امرؤ القيس ، وتزوجها
علقمة ، ومن لهذا (علقمة الفحل) (٢) .

ويبدو أن هذه القصة قد زيد عليها ، إذ أشار إلى ذلك بعض النقاد
ومنهم الدكتور : السعدى فرهود (٣) بقوله بعد ما ذكر القصة السابقة : " . . . وإلى
هنا يمكن أن تكون الرواية مقبولة ، لأن المرأة العربية لها من سليقتها
وفطرتها ما يهديها إلى الاستجادة والاستحسان ، بيد أن بعض الروايات يثري
على هذا القدر ، فيذكر أن أم جندب سألتها أن ينشدها شعرا على قائمة
واحدة وروى واحد ، فلما أنشدها وحكمت لعلقمة ، راجعها امرؤ القيس
فقال له : إنك قلت في فرسك :

فلسوط الهوب وللساق درة . . . وللزجر منه وقع أخرج مهذب (٤)

فجهدت فرسك بسوطك في زجرك ، وبرتته فأتعبته بساقك ، وقال علقمة :
فأدر كهن ثانيا من عنانسه . . . مير كمر الراج المتحلب (٥)

(١) المرجع السابق ص ٤٢ . ويروى : (في كل مذهب) بدل (في غير مذهب) .

(٢) الصفحة ج ١ ص ١٠٣ .

(٣) هو الدكتور : محمد السعدى عوض فرهود ، ولد في أول يناير سنة ١٩٢٣ ،
والتحق بالأزهر سنة ١٩٣٥ وظل به إلى أن تخرج من كلية اللغة العربية
سنة ١٩٤٨ وكان أول دفعته ، حصل على درجة الماجستير سنة ١٩٥٨ ثم
الدكتوراه في الأدب العربي الحديث سنة ١٩٦٧ . وهو الآن أستاذ الأدب
العربي والنقد بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر .

(٤) ديوانه ص ٣٨ ، الألهوب : الزجر بالسوط ، الدرة : الدفعة . الأخرج : ذكر
النعام مهذب : مسرح ، ويروى (فلساق الهوب للسوط درة ، وللزجر منه وقع
أهوج) . (٥) المرجع السابق : (٥) المرجع السابق ص ٤٧ .

فأدرك فرسه ثانيا من عنانه ، ولم يضره بسوط ولم يتعبه ، فقال امرؤ
القيس : ما هو بأشمر مني ، ولكك له عاشقة .

والرواية بهذه الصورة تحمل على الشك فيها ؛ لأن العربي الجاهلي
ما كان يعرف اصطلاح القافية والروى ، ومن هنا نرتاب في أمرها . . . ولكن
ما المانع من أن نفترض أن هذه الرواية - بهذه الصورة - تمثل المنطق
النقدى في عصر تال ، ولعله عصر أبي عبيدة (المتوفى سنة ٢٠٩ هـ) أول من
روى القصة في هذا العصر ، ولعل من روى القصة في هذا العصر تمسارورا
النظر في القصيدتين ، واجتهدوا في استنباط مبررات الحكم وأسبابه ،
فوقفوا على البيتين في وصف الفرس ، وتصورا أم جندب وقت قلبهم على
البيتين ، وانصرفت عن سائر الأبيات ، فانصرفوا هم - أيضا - عن سائر الأبيات
. . . إذ وجدوا الشاعرين اتفقا في ألفاظها ، وعباراتها ومعانيها .

وبح هذا الافتراض نحس بأن التوفيق جانبيهم جميعا - أم جندب ومن
تقصوا شخصيتها الناقدة - لأنهم فصلوا بيت امرؤ القيس عن البيت بعده :

فلسوط ألهب وللماق درة وللزجر منه وقع أخرج مهذب
فأدرك لم يجهد ولم يشأوه يمر كخذروف الوليد المتقرب (١)

فهذا البيت الثاني يدل على أن فرس امرؤ القيس أدرك القطيع . . لم يتعب . .
، ولم يكرر شوطه ، وإنما أدرك القطيع من أول مرة ، وهو لا يبلغ ذاك إلا إذا
كان نشيطا ذا سبح فهو بهذا لا يقل عن فرس علقمة إن لم يفقه . . .
والقصيدتان - بعد هذا - الصق بما يسمى (المعارضة) وناط المعارضة
هو حسن الأداء والمناسبة في الثلب (٢) .
ومهما يكن من شيء فإن الشك في صحة هذه المعارضة لا يقلل

(١) الشأو : الشوط الحميد . الخذروف : (بضم الخاء والراء) بينهما نال ساكنة لعبة
للصبيان يديرونها بسرعة حتى لا تكاد ترى لسرعة دورانها .

(٢) الدكتور محمد السعدى فرهود : اتجاهات النقد الأدبي العربي ص ١٢١
وما بعدها - بتصرف - دار الطباعة المحمدية بمصر سنة ١٩٢٠ .

من قبضها ، ولا يرد الاستشهاد بها ، فإن لم تكن حقا ، فقد صنمت على
نحو المعارضة كما كان يفهمها القدماء (١) .

وإذا كان الشك قد حام حول هذه المعارضة ، فيمكن تأكيد وجود
المعارضة في العصر الجاهلي إذا نظرنا إلى قصيدة أمية بن أبي الصلت (٢)
التي مطلعها :

عرفت الدار قد أقوت سنينا . . . لتزيب إذ يحل بها قطينا (٣)
وقصيدة عمرو بن كلثوم (٤) التي أولها :

ألا هي بصحنك فأصبحينا . . . ولا تبقى خمور الأندرينا (٥)

إذ انفقت القصيدتان في البحر - هما من بحر الوافر - والروى ، والفرض
، وعلى هذا فضايط المعارضة ينطبق عليهما ، بل إن فيهما أحيانا اتحدت
بمعانيها ، وكادت تتحد ألفاظها مثل قول عمرو :

وقد علم القبائل غير غمسر إذا قيب بأبطحها بنينا
بأنا العاصمون إذا أطمنا وأنا المارمون إذا عصينا
وأنا النحومون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا أتينا
وأنا الحاكمون بما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا

إلى أن يقول :

وأنا النازلون بكل ثغر يخاف النازلون به الفوننا
وقول أمية :

وتخبرك القبائل من معد إذا عداوا صليحة أولينا
بأنا النازلون بكل ثغر وأنا الضاربون إذا التينا

(١) الدين والأخلاق في شعر شوقي ص ٣٥ .
(٢) هو : أمية بن أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة الثقفي توفي سنة ٦٢٤ م (تاريخ
آداب اللغة العربية ج ١ ص ١٢٦) .
(٣) حمهرة أشعار العرب ص ٢١١ وما بعدها ، وبيروى (تحمل) بالتاء .
(٤) سبق التصريف به في هامش ص ١٩٠ من هذه الرسالة .
(٥) حمهرة أشعار العرب ص ١٥٧ ، ومحمد سيد كيلاني : مختار الشعر الجاهلي ج ٢
ص ٣٦٠ وما بعدها مطبعة الخليلي بمصر سنة ١٩٢٠ .

وأنا المانعون إذ أردنا
وأنا الحاملون إذا آتخت
وأنا العاطفون إذا دمننا
خطوب في المشيرة تهليلنا
وأنا الراضون على ممد
أفنا في المكارم ما بقيننا

ولقد انتشرت المعارضة في الأدب العربي على مدى عصوره المختلفة من
المصر الجاهلي - كما سبق - إلى العصر الحديث والأمثلة الآتية تؤكد
ذلك :

ففي عصر صدر الإسلام - يبدأ هذا العصر بظهور الإسلام - وينتهي
سنة ٤٠ هـ (١) - ظهرت المعارضة وخاصة عندما ظهر الصراع بين المسلمين
والمشركين ، ومن ذلك ما روى أن وقد تصيم قدم على الرسول (صلى الله عليه
وسلم) - بمد فتح مكة - وقالوا يا محمد : جئناك لتفاخر ك ، فأذن لناعرنا
وخطبنا ، فقال لهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) : قد أذنت فقام الزبيرقان
ابن بدر ، وقال : قصيدة مظلما :

نحن الكوام فلاحى يحاد لنا
فأرسل الرسول (صلى الله عليه وسلم) رسولا إلى حسان بن ثابت - وكان
قائما - فلما أتى ، قال حسان - :
فلما انتهت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) - قام شاعر القسوم
فقال ما قال : عرضت في قوله ، وقلت على نحو ما قال ، وكان ما قاله حسان
قصيدته التي مظلما :

إن الذوائب من نهر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع (٢)

ولعل اتحاد القصيدتين في الوزن والقافية والغرض ، يدل على وجود المعارضة
في هذا العصر ، وقد يقال : إن هذا المشال يدل على وجود المناقضة
لا المعارضة ، فأجيب بأن المناقضة معارضة وزيادة إذ هي في الأصل : أن يتجه
شاعر إلى آخر بقصيدة هاجيا أو مفتخرا ، فيعمد الآخر إلى الرد عليه - هاجيا

(١) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص ١٠٠

(٢) انظر ص ١١ من هذه الرسالة .

أو مفتخرا - بقصيدة ملتزما فيها البحر والقافية التي اختارها الأول (١) ،
فالمناقضة - إذن - تشترك مع المماثلة في الاعتماد - غالبا - على وحيدة
البحر والقافية والموضوع ، ثم تتميز المناقضة بأن صاحبها ينقض ما قاله صاحبه
- أي يطله - ويرد عليه ما ادعاه ، بل ذهب بعض الكتاب إلى أنها نسوع
من المماثلة (٢)

وسهما يكن من شيء فإن المماثلة قد وجدت في هذا العصر ، ويؤكد
ذلك قول ابن رشيق (٣) : (ولما أرادت قريش مفاضة القرآن الكريم ، عكس
فصاحبتهم - الذين تماطوا ذلك - على لباب البر ، وسلاف الخمر ، ولحسوم
الضأن والخلوة .. إلى أن بلغوا مجهودهم ، فلما سمعوا قول الله عز وجل :
• وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُصِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِمِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى
الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤) • يثبوا ما طعموا فيه وعلما أنه ليس
بكلام مخلوق (٥) .

وفي العصر الأموي - يبدأ هذا العصر من سنة ٤١ هـ إلى سنة ١٣٢ هـ (٥)
ذاعت المناقضة وشاعت - بسبب سياسة الدولة الأموية التي لعبت دورا كبيرا
في انتشار هذا اللون من الشعر (٦) وخاصة مناقضة جرير والفرزدق (٧) وكانت
شهرة مناقضتهما سببا في اعتقاد بعض الناس أن المناقضة قد نشأت على
يديهما في هذا العصر - وهذا يخالف الحقيقة إذ سبق أن أشرت إلى وجود
مثل هذا اللون في عصر صدر الإسلام ، وإن لم يكن منتشرا كما في هذا العصر .

-
- (١) أحمد الشايب : تاريخ النقائض في الشعر العربي ص ٢ وما بعدها ، مكتبة النهضة
المصرية (غير مؤرخ)
(٢) الدين والأخلاق في شعر شوقي ص ٣٦
(٣) العمدة ج ١ ص ٢١١
(٤) هود / ٤٤
(٥) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص ١٠
(٦) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٢٩ وما بعدها ، والتطور والتجديد في
الشعر الأموي ص ١٢٠ وما بعدها .
(٧) سبق التحريف بالفرزدق في هامش ص ١٨ من هذه الرسالة ، وجرير هو : جرير بن
عطية بن الخطمي من كلبية يربوع ، شاعر معروف توفي سنة ١١٠ هـ (تاريخ آداب اللغة
العربية ج ١ ص ٢٤٢) .

وسهما يكن من شيء ، فليس معنى شهرة المناقضة - التي هي معارضة بزيادة
كما بين - في هذا العصر ، أنه قد خلى من المعارضة المستقلة ، لا ،
لقد وجدت المعارضة بجانب المناقضة ، وأقرب دليل على ذلك ، ما روى أن عمر
ابن أبي ربيعة (١) ، وجميل بن عبد الله المذري (٢) اجتمعا بالابيطسح ،
فأنشد جميل قصيدته التي يقول فيها (٣) :

لقد فرح الواثون أن صرمت حبليني
بثينة أو أبدت لنا جانب البخل
يقولون : مهلا يا جميل ، وإنسني
لأقسم مالي عن بثينة عن مهمل

حتى أتى على آخرها ، ثم قال لعمرو : يا أبا الخطاب ، هل قلت في هذا
الروي شيئا ؟
قال : نعم ، ثم أنشده قوله (٤) :

جري ناصح بالود بيني وبينها
فطارت بحد من فؤادي وشايعت
فما أنسى ملائحيا إلا أنحسى موقفى
فلما تواقفنا عرفت الذى يهسا
فقرنى يوم الحساب إلى قنلى
قرينتها حبل الصفا إلى حلى
وموقفها يوما بقارعة النخسل
كمثل الذى هو حدوك النصل بالنحل

وعندما انتهى من إنشاده ، قال له جميل : شيهات يا أبا الخطاب ، لا
أقول والله مثل هذا سجين الليالى ، والله ما خاطب النساء ، مخاطبتك أحد
وقام مشرا (٥) .

وواضح في هذه الرواية اتحاد النظمين في الوزن - بحر الطويل - والمروى
والفرض ، وهذا يؤكد وجود المعارضة بجانب المناقضة في العصر الأموي .

(١) سبق التصريف به في فاضل ص ٩٠ من هذه الرسالة .
(٢) هو : جميل بن عبد الله بن مضر المذري عرف بجمه (بثينة) ابنة عمه ، وقال
فيها شعرا كثيرا ، توفي سنة ٨٢ هـ . (٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٤٠٣ .
(٤) للمرجع السابق ص ٤٠٤ . (٥) المرجع السابق ص ٤٠٧ .

ووجدت المعارضة أيضا في العصر المماليكي (يبدأ هذا العصر من سنة ١٢٢٢ هـ إلى سنة ٥٦٥ هـ) (١) ، وما يدل على ذلك ما روي أن محمد بن عبد الملك (٢) استخيا من حساب أبي موسى تمام (٣) ، واحتج عليه بأنه قد مدح غيره ، فقال له (٤) :

رأيتك سح البهج سهلا ، وإنما
يخالي إذا ما ضنّ بالشء يائمه
فأما الذي هانت بضائع بهيمه
فبوشك أن تبقى عليه بضائمه

فكتب إليه أبو تمام قصيدة ٠٠ ومنها (٥) :

أبا جعفر إن كنت أصبحت شاعرا
أماهل في بيوت له من أبيائمه
فقد كنت قبلي شاعرا ذا روية
تماهل من هانت عليه بضائمه

فواضح ما في التنظيم من اتحاد الوزن والقافية والفرص مط يستدل على وجود المعارضة في ذلك العصر .

أما في العصر المملوكي (يبدأ من سنة ٦٥٦ هـ إلى سنة ٩٢٣ هـ) (٦) فقد كثرت فيه المعارضة ، وإن اتسمت بالضعف نظرا لضعف القرائح ، وعدم القدرة على الابتكار (٧) . ولعل خير دليل على ذلك ، تلك القصائد التي تسمى

-
- (١) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص ١٠ .
 - (٢) هو / أبو جعفر محمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيات توفى سنة ٢٣٣ هـ .
(وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٨٢) .
 - (٣) هو : حبيب بن أوس الطائي شاعر معروف توفى سنة ٢٣١ هـ الأعلام ج ٢ ص ١٢٠ .
 - (٤) يوسف الهمداني : نزهة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص ٢٦ - نشر وتحقيق محمود مصطفي مطبعة القاخرة سنة ١٩٣٤ .
 - (٥) المرجع السابق الصفحة نفسها .
 - (٦) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص ١٠ .
 - (٧) انظر ص ٤٢ من نزهة الرسالة .

(الهديميات) (١) ولكن هذا لا يمنع من وجود معارضات لا بأس بها مثل
 معارضة الهوصيري قصيدة (بانت سعاد) بقصيدته التي أطلق عليها اسم
 (نذر المحاد في وزن بانت سعاد) ومطلعها (٢) :

إلى متى أنت باللذات مشغول ••• وأنت عن كل ما قدمت مشغول

ولقد أكد الهوصيري تلك المعارضة بقوله عن تلك القصيدة :

لم أنتحلها ولم أقصّب معانيها ••• وغير مدحك مفضوب ومضجول
 وما على قول (كعب) أن توارته ••• فربما وازن الدر الثاقيل

وكذلك لم يخل العصر العثماني (يبدأ من سنة ٩٢٢ هـ إلى سنة ١٢١٣ هـ)
 من المعارضة ، وأقرب مثال لذلك ، معارضة السيدة عائشة الباعونية (٤) بسردة
 الهوصيري ، ومنها قولها تتحدث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) (٥) :

أعظم به من نبي مرسل نزلت

في مدحه محكم الآيات من حكم

أعظم به من نبي سيد سنسد ••• هاد سراج خير صفوة القدم

بالحق مشتغل ، في الخلق مكتمل

بالبر معتصم ، بالبر ملتزم

جمال صورته عنوان سيرته ••• هذا بديع وهذي آية الأمم

ثم تختم قصيدتها بقولها :

يا أكرم الرسل سؤلى نيك غير خف ••• وأنت أكرم من يدعو إلى الكرم

حصى بحك أن المرء يحشرج ••• أحبابه فهنلى غير منحسرج

مدحت مجدك والإخلاص ملتزمى ••• فهى وحسن امتداحى نيك مختص

(١) انظر ص ٢٢٢ من هذه الرسالة .

(٢) المرجع السابق ص ٦٥ .

(٣) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص ١٠ .

(٤) سبق التعريف بها في هامش ص ٢٣٨ من هذه الرسالة .

(٥) عائشة الباعونية : مولد النبي - ص ٤٧ وما بعدها ، المطبعة الحنفية بدمشق
 سنة ١٢٠١ هـ .

أما في العصر الحديث فقد وجدت فيه معارضات كثيرة ، وسوف أتحدث
عن بعضها إن شاء الله في الفصل الثالث من هذا الباب وما يليه من أبواب .

٣ - دوافع المعارضة :

للمعارضة دوافع كثيرة ، أشار بعض الكتاب إلى أن أهمها :
" الإعجاب ، والغرابة ، والاستمئان ، والتحدى ، والاستجابية
والتسلية " (١) .

أ - الإعجاب :

ولكني أرى أن الإعجاب والغرابة والاستجابة ما هي إلا خطوات لعامل
واحد هو الإعجاب ، لأنك إذا رأيت شخصا قد بلغ مرتبة عالية بين أقرانه ،
وعاز قصب السبق بين ذويه ، (أعجبت به) ، والذي حرك فيك هذا
الإحساس كونه (غريبا) وسط أهله ، وتميزه عنهم بهذا العصل الذي بلغ
فيه مهلتا لم يبلغه سواه ، وتكون النتيجة الطبيعية لهذا الإعجاب أنك
تحاول أن تترسوم خطأ وتتهج نهجه ، لملك تصل إلى ما وصل إليه (وهذه
هي الاستجابة) .

والمثل إذا نظم الشاعر قصيدة جيدة ، ولاقت ذيوها وانتشارا ، أعجب
بها شاعر آخر - لكونها فريدة في نوعها ، غريبة بين أمثالها - وهذا الإعجاب
يولد في نفسه محاولة الإتيان بمثلها ، والنظم على منوالها .

ومن البدهي أنه ليس بلازم أن تتحقق تلك الخطوات - الغرابة والإعجاب
والاستجابة - عند جميع الناس ، فقد يقف بعضهم عند مرحلة الإعجاب فقط ،
لكونه ليس بشاعر ، ومثل هذا يكفي بحفظها أو الإشادة بها ، وهذا ما أشار
إليه بعض الكتاب بقوله : (٧) " . . . وأنتم تعلمون أن من أهم الأسباب للإنتساج

(١) المعارضة في شعر شوقي ص ٢ بتصرف .

(٢) الدكتور طه حسين : من حديث الشعر والنثر ص ٣١ وما بعدها مطبعة الصاوي
بمصر سنة ١٩٣٦ م ، ويلاحظ أن لفظ (الإنتاج) لم يرد في معاجم اللغة
والصواب (نتاج) .

الأدبي هي المحاكاة ، فإذا قال الشاعر البليغ قصيدة وأعجب الناس رويها ، فمنهم من يرويها ، ومنهم من لا يكتب بهذه اللغة ، بل يحاول أن يحاكيها ، وأنى بأمثالها ، وعلى هذا النحو ينتج الشعر ، ويكون للشعراء تلاميذ ومقلدون . . . ويؤكد ذلك كاتب آخر بقوله : " والغرابية في حد ذاتها . . . تعد من أهم عوامل الإعجاب بالفن الأدبي ، وجذب الانتباه إليه . . . وقد تكون غرابية الفكرة أو المبرارة من أسباب تقليدها . . . " (١) .

وقد يكون الإعجاب بالمعمل الأدبي فحسب ، وقد يكون الإعجاب بالشاعر ذاته ، وقد يكون بهما معا ، ويلاحظ أن الإعجاب - غالبا - يكون من الأدنى للأعلى ، ومن الناس ، للذائع الصيت ، ولعمل ما يؤكد ذلك قول بعض النقاد : " . . . إن شخصية المقلد - يفتح اللام مشددة - أو شخصية الأصيل ، ذات أثر كبير في تتبع الأدباء آثاره ، واحتفادهم عمله ، وشيوع مذنبه ، فقد يجيد الأديب في ناحية من النواحي ، أو ينجح في موقف من المواقف ، فتكون تلك الإجابة وذلك النجاح سببا من أسباب الإعجاب بشخصه وفنه ، فيحمد كثير من المتبعين إلى تقليده ، حتى يظفروا بالنجاح الذي ظفر به ، وأنت تشاهد هذا فيما تراه من بعض الشعراء أو الخطباء أو الكتاب بما يحمدون إليه من تقليد ذلك الأديب في موقفه وفي حركته وإشارات - بل في نبرات صوته ومخارج حروفه ، ومنهم من يحفظ نقفا من جملة وتراكيبه ، ويتابعه في لوازمه ، ويتأثر بأسلمه ومنهجه . . . وليس هذا إلا أثرا من آثار الإعجاب بالشاعر أو الخطيب أو الكاتب . . . " (٢) .

ولعل من خير الأمثلة على ذلك قصيدة كعب بن زهير التي مدح بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) (٣) ، إذ أعجب بها كثير من الشعراء ، لغرابيتها في عهدنا من جهة ، ولما حازته من قبول عند الرسول (صلى الله عليه وسلم) من جهة ثانية ، يدل على ذلك - قبول الرسول - أمران : الأول : أنسه

(١) الدكتور بدى طبانة : السرقات الأدبية ص ١٠٩ بتصرف ، مكتبة نهضة مصر سنسنة ١٩٥٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٢ وما بعدها باختصار .

(٣) انظر ص ٨ من هذه الرسالة .

(صلى الله عليه وسلم) قد أشار إلى الحاضرين من أصحابه " أن اسموا ..."
الثاني : أنه قد أهدى إليه برده (١) .

وكل ذلك قد دفع كثيراً من الضراء لمعارضتها ، والنظم على ضوالها (٢)
ومن تلك المعارضات معارضة الهوسى ، التي سبقت الإشارة إليها (٣) .

ب- التحدى :

وإذا كان الدافع الأول للمعارضة هو الإعجاب كما سبق - فإن التحدى هو الدافع الثانى الذى لا يقل شأنًا عن سابقه ، لأن التحدى أو المفاهسة من المعانى التى تبدل عليها المعارضة ، كما أنها من سمات الكائن الحى ، إذ الحياة تمنى الحركة ، والحركة - فى ذاتها - تحد ومغالبة فى مواجهة السكون ، ومن ثم كان التحدى والمغالبة فى الشعر أمراً طبيعياً (٤) لأن الإنسان بطبعه وما فطر عليه ميل إلى السباق ، نزاع إلى الجارة والمباراة وما دامت له آمال تحوشب ، وأطماع تتحفيز ، وأمانى تمتد هنا وهناك ، فلا يهد من صراع ونزاع وموآثبة ، وتلك فطرة لا يشذ عنها إلا خامد الطبع ، جامد الإحساس ، بل إن الشذوذ عن تلك الفطرة يكاد يكون انمساخاً عن أخصى مميزات الإنسانية (٥) .

ويتأكد التحدى إذا اختلف الشعاران على سبق فى الصياغة ، وتنازعا فيه ، وأدعى كلاهما الاستثنائى بمن دون الآخر ، فتكون المعارضة - حينئذ بمثابة امتحان المسابقة ، وبيان الفائز ، والفصل فى النزاع (٦) ، ولعل أقرب

-
- (١) المرجع السابق ص ٩٠ .
 - (٢) المجموعة النبهانية ج ٣ ص ٨ وما بعدها .
 - (٣) انظر ص ٤٥٤ من هذه الرسالة .
 - (٤) المعارضة فى شعر شوقى ص ١٣ .
 - (٥) الدكتور ، صادق خطاب : الشعر فى العصر الحاضر وأثر البارودى فيه (رسالة دكتوراه) ص ٧٨ وما بعدها .
 - (٦) الدين والأخلاق فى شعر شوقى ص ٣٤ .

مثال لذلك ما سبقت الإشارة إليه من قصة علقمة الفحل وأمره القيس (١).

ج - الاستعانة :

أما الممارسة بدافع الاستعانة فهي عمل * يخرج على الفطرة البشرية ؛ لأن الإنسان يمتاز عن الكائنات الأخرى بأنه يبدأ من حيث انتهى سابقوه ، ويستمر ثم فاللاحق لابد من أن يستعين بالسابق في عمله ، وهذا هو التقليد في الأدب ، وللشعراء في جميع عصور الأدب تلاميذ يتمايحون أساتذتهم بالرواية أو بالتأشير أو بهما معا (٢).

ولعل منهج العرب في نشر الشعر وإذاعته ومدارسته ، ساعد على ذلك ، إن لم يدفع إليه صخر به ، فقد كان لكل شاعر راية يذبح شعره ، أو يذبحه ويستعين به في شعره متى قال شعرا ، وأقرب مثال لذلك ما فعله زهير بن أبي سلمى مع أوس بن حجر (٣) أستاذه ، فقد تابع زهير أستاذه واحتذاه في كثير من أشعاره وأقرأ إن شئت قصيدة أوس التي مطلعها (٤) :

تكررت نضاً بعد معرفة لمسى ... وسعد القصاب والشباب المحرم
فم اقرأ معلقة زهير التي مطلعها (٥) :

أمن أم أوشى دمنة لم تكلم ... بحومانة للدراج فالمتكلم
لتصرف إلى أي مدى تأثر زهير في معلقته بأستاذه أوس (٦) ، ويؤكد ذلك بعض الكتاب بقوله : " فكان الناشي ، الموصوف بتعلق بالأديب أشد تعلق ، حتى وإنه لا يكاد يفارقه ، ليتلقى منه كل ما ينتج ، وهذا الناشي ، بعمله ذلك ، إنما

(١) انظر ص ٢٤٦ من هذه الرسالة .

(٢) الدكتور : طه حسين : في الأدب الجاسلي ص ٣١٤ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٧ م .

(٣) شو : أوس بن حجر بن مالك التميمي من فحول الشعراء الجاهليين توفي نحو ٦٢٠ م (الأعلام ج ١ ص ١٢٣) .

(٤) أوس بن حجر : ديوانه ص ١١٧ تحقيق الدكتور / محمد نجم طبعة دار صادر بيروت سنة ١٩٦٠ م .

(٥) ديوان زهير : ص ٤٠ والدراج والمتكلم : هوضمان بهلاد الحجاز .

(٦) المعارض في شعر شوقي ص ١٠ وما بعدها .

يخذى موهبته الأدبية ، ونمى مقدرتها ، حتى يتكامل نموها ، ويتم نضجها ، وجانب هذه الفائدة الشخصية التي يحققها لنفسه ، كان يحفظ هذه الآسار ويصونها من الضياع ، ويحمل على نشرها ، وإذاعتها بحدوامة مدارسها وتكرارها ومن ثم نشأت السلاسل الشعرية في كثير من القبائل مثل : سلسلة أوس بن حجر الذي كان زوجاً لأم زبير بن أبي سلمى ، فنشأ هذا لأهله لأوس ، وعن زهير أخذ ابنه كعب . (١)

وقد تتأق الاستمانة - أيضا - إذا مرت بالشاعر تجربة جديدة ، وأراد - التمييز عنها ، فيلجأ إلى شاعر سابق ، مرت به التجربة نفسها ، فيستعين به في نظم قصيدة يشبه تجربته ، ولكنه يستجير من سابقه ما يحتاج إليه في الضمج ، أو في الأفكار والأخيلة ولعل أقرب مثال يوضح ذلك سينية شرقى (٢) التي مطلعها :

اختلاف النهار والليل يُنسى ••• اذكرا لي الصبا وأيام أنسى (٣)

إذ عارض بها سينية البحرى (٤) التي مطلعها :

صنت نفسي عما يُدنس نفسي ••• وترقت عن جِدا كل جيس (٥)

فإذا قرأت القصيدتين ، رأيت استمانة شوقى واضحة لائحة ، على الرغم من أن بعض الكتاب يزعم أن الذى دفع شوقى إلى تلك المعارضة هو الإعجاب ، فيقول : ولم تقتصر (الممارضات) أو التقليد الذى كان مهتمه الإعجاب على الشعراء الضعفاء أو الشعراء المتوسطين ، بل تجاوزهم إلى المشهورين بين الناس بالقوة والفحولة والقدرة على الإبداع ، وشمل القديم كما شمل الحديث ،

(١) الدكتور على الجندى : تاريخ الأدب بالجاهلى ج ١ ص ١٦٨ الطبعة الثالثة ، مكتبة

الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٩ م .

(٢) سياتى التصريف به في الفصل الأول من الباب الخامس من هذه الرسالة .

(٣) أحمد شوقى ديوانه المشوقيات ج ٢ ص ٥٤ المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٩٤٨ .

(٤) هو : أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائى شاعر عباسى معروف توفى سنة ٢٨٤ هـ

(الأعلام ج ٩ ص ١٤١) .

(٥) ديوانه ج ١ ص ١٠٨ مطبعة الجوائم بالقسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ - جدا : (بفتح

أوله) : عطا • جيس : (بكر فسكون) لثيم . (٦) السرقات الأدبية ص ١٠٣

شوقى ومنزلته بين (المعاصرين) من الشعراء معروفة ، يرجع إلى العصر المباسى
نقيراً سنية البحرى المشهورة فيصوغ على وزنها ورونها أندلسيته

ومهما يكن من شئ ، فإننى أرجح أن الباعث على تلك المعارضة عند
شوقى هو : الاستمانة ، وليس الإعجاب ، ولعل ما يؤكد ذلك قول شوقسى
يصف حاله عند نظمه سنيته ، وهو فى بلاد الأندلس :

فهلقت النفس بمرآء الأرب ، واكتنبت الصين فى شراء بآثار العرب . . .
وكان البحرى - رحمة الله - رقيقى فى هذا الترحال ، وسيرى فى الرجال ،
والأحوال تصلح على الرجال ، كل رجل لحال ، فإنه أبلغ من حلى الأثر ،
وحيا الحجر ، ونشر الخير ، وحشر الجبر ، ومن قام فى ماتم على الدول الكبير ،
والملوك البهايليل القُرر وكنت كلما وقفت بحجر ، أو أظفت بأثر ، تثلست
بأبياتها يقصد سنية البحرى - واسترحت من موائل المجر إلى أبياتها ،
وأنشدت فيما بينى وبين نفسى :

وعظ البحرى إيوان كسرى وشفتنى القصور من عهد شمس

ثم جعلت أروض القول على هذا الروى ، وأعالجه على هذا الوزن حتى نظمت
هذه القافية المهلهلة ، وأتت هذه الكلمة الرقيقة ، وأنا عرضها على القراء ، راجيا
أن سيلحظونها بعين الرضا ، ويسحبون على عيوبها ذيل الإغضاء (١) ولمصل
فى هذا التصريح ما يفنى عن أى توضيح .

د - التسليمة :

أما التسلية فهى دافع من دوافع المعارضة أيضا ، ويوجد - غالبا - فى مساجلات
شعرية تتصل فى خطابات منظومة والرد عليها - أو فى الفاز وحليها بالنظم كذلك ، ولعل
أقرب مثال لذلك ما أشرت إليه سابقا من عتاب محمد بن عبد الملك لأبى تمام (٢) .

محمد : لهذه على أهم دوافع المعارضة ، فذكرتها بعد أن تحدثت عن معنى
المعارضة ونشأتها وانتشارها فى الأدب العربى ، وسوف أتحدث عن العصر الحديث وأهم
معالمه فى الفصل الثانى إن شاء الله .

(١) الشوقيات ج ٢ ص ٥٣ وما بعدها .

(٢) انظر ص ٢٥٣ من هذه الرسالة .

الفصل الثاني

العصر الحديث وأهم معالمه

١ - بدء العصر الحديث :

اختلفت الآراء في بدء العصر الحديث ، فقيل : يبدأ العصر الحديث بدخول الحملة الفرنسية مصر سنة ١٧٩٨^(١) ، وقيل : بحكم محمد علي مصر سنة ١٨٠٥^(٢) ، إذ في ذلك الحدث دلالة قوية على إرادة الشعب القومية التي اختارت حاكمها بنفسها ، وقيل : بالثورة المصراية سنة ١٨٨٢^(٣) ، لأن تلك الثورة تدل على نمو الشعور القومي عند المصريين ما أدى إلى تمردهم على حكامهم المستعبدين وعلى النفوذ الأجنبي .

ويبدو أن الرأي الأول هو الراجح ، لأن الحملة الفرنسية كانت سبباً - ولو غير مباشر - في تولية محمد علي حكم مصر - لأنه جاء إلى مصر مع فرقة من الجيش العثماني للوقوف نسي وجة الحملة الفرنسية^(٤) - وبالتالي كانت سبباً في حكم أولاده مصر من بعده ، ولما استبدوا في حكمهم ، وما لوا إلى الأجانب الذين تغلغل نفوذهم في البلاد كانت الثورة المصراية .

وإذا كان هذا الرأي له ما يبرر قبوله ، فإن بعض الكتاب يرفضه قائلاً :

كيف نخرج بدء العصر الحديث لبلادنا بحادث احتلال مهمل كانت نتاجه؟^(٥)

- (١) الدكتور / شوقي ضيف : الأدب المصري المعاصر في مصر ص ١٦ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١ ، والدكتور / حامد حفي داود : تاريخ الأدب الحديث ص ٦ وما بعده ، دار الطباعة المحمدية بمصر سنة ١٩٦٢ ، محمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر الحديث ص ٧٢ وما بعدها المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٩٤٦ م .
- (٢) الدكتور سليمان الأغاني : الأدب المعاصر في العالم العربي ص ١٩ ، مطبعة الكتاب الحديث (غير مؤرخ) ، ومحمد علي : كان ضابطاً ألبانيا توفي سنة ١٨٤٩ (تاريخ مصر الحديث ص ١٧٥) .
- (٣) الدكتور محمد خفاجي / محاضرة في الأدب الحديث والأدب المعاصر (١٩٧٤) لطلاب الدراسات العليا بكلية اللغة العربية .
- (٤) تاريخ مصر الحديث ص ١١١ .
- (٥) الدكتور محمد خفاجي محاضرة في الأدب الحديث والأدب المعاصر (١٩٧٤) .

وعذا القول وجيه ولكنه يحتاج إلى مراجعة من صاحبه ، إذ لا شك في أن الحملة الفرنسية كانت حملة استعمارية ، إلا أنها كانت سببا في اتصال المصريين بالحضارة الغربية الحديثة ، لأنها حطمت أسوار الميزة التي فرضها العثمانيون على مصر ، كما أنها كانت سببا في إذكاء الشعور القومي لسدى المصريين ، وإحساسهم الحقيقي بحقوقهم المشروعة في حكم بلادهم بالإضافة إلى أنها لفتت الأنظار إلى أهمية موقع مصر الجغرافي بين القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا (١) .

ولعل هذه الأسباب هي التي جعلت كثيرا من الكتاب يميلون إلى ذلك الرأي ، ومن بينهم الدكتور الشرباصي (٢) ، الذي يقول : " إذا كانت الحكمة الشائعة تقول : " رَبِّ ضَارَةَ نَائِفَةَ " وكانت الحملة الفرنسية في مظهرها وجانبها السياسي والعسكري عملا عدوانيا لا يليق بكرامة مصر ولا حريتها ، فقد كان بجوار الحملة العسكرية حملة علمية ، عمادها مجموعة من العلماء الفرنسيين البارزين والمختصين في العلوم الحديثة ، وتعاونت هذه الحملة على إمداد النهضة القائمة في مصر بمزيد من الوقود تزيد به طريقها تألقا ووضوحا . . . (٣) " .

(١) الدكتور شوقي ضيف : البارودي رائد الشعر الحديث ص ١١ ، ص ١٥ طبعته دار المعارف بصر سنة ١٩٦٤ .

(٢) هو الدكتور أحمد الشرباصي جمعة الشرباصي ، ولد بالهجرات - إحدى قرى محافظة الدقهلية - في سنة ١٩١٨ ، ودخل الأزهر الشريف وظل به حتى نال شهادة العالمية من كلية اللغة العربية سنة ١٩٤٣ ، وكان ترتيبه الأول ، ثم نال شهادة الماجستير سنة ١٩٦٣ ، ثم الدكتوراه سنة ١٩٦٢ ، وهو الآن أستاذ الأدب العربي والنقد بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، ولقد شرفت هذه الرسالة بإشراف سيادته عليها ، كما شرف الباحث بالتلمذة على سيادته قبل الرسالة ، وانتفع بكثير من آرائه ، جزاء الله عن الملمم وأعلمه خير الجزاء .

(٣) الدكتور الشرباصي : رشيد رضا صاحب المنار ص ١٢ - مطابع الأشرف التجارية بصر سنة ١٩٧٠ .

٢ - أهم معالم العصر الحديث :

أ - أهم المعالم السياسية :

منذ أن استولى العثمانيون على مصر سنة ١٥١٧ تقريباً وحتى مملكة فوسى
أغلال الجهل ، وفي عزلة - شبه تامة - عن العالم ، مما أدى إلى الجسود
والتأخر في جميع نواحي الحياة ، التي أضحت خامدة جامدة بغير تقدم ينشر،
أو نهوض يذكر ، وما صد على ذلك تنازع الممالك على الحكم ومحاولة بعضهم
الاستقلال بالبلاد ، فاستحالت مصر كرة في أيديهم (١) .

وعندما تطلع الفرنسيون إلى توسيع امبراطوريتهم وامتدادها إلى الشرق كانت
حلتهم على مصر سنة ١٧٩٨ ، وعلى الرغم من عدتها الاستعماري إلا أنها
كانت سببا في تمزيق قناع الجسود الذي عزل مصر عن الحياة الأوربية الحديثة
- كما سبق -

ولقد دخل الفرنسيون مصر - بعد كجاج مرير - وحاولوا كسب مودة
المصريين ، الذين فهموا أساليبهم الاستعمارية ، فقاموهم مقاومة شديدة زلزلت
أقدامهم وخاصة عندما ظهرت شراسة بعض رجال الحملة ، واستهانتهم بالشعب
الأمري ، وامتهانتهم تقاليدهم ، وانتهاكهم عرمانهم ووقدساتهم ، ولما لم يطمع
للفرنسيين مقام في مصر عادوا إلى بلادهم سنة ١٨٠١ ، بعد ثلاث سنين
كلفتهم الكثير (٢) .

ولقد عادت مصر - بعد خروج الحملة الفرنسية - إلى نفوذ العثمانيين ،
فتصار الإنجليز - الذين فطنوا لأهميتها - والممالك على حكمها ، وخشسي
رما الشعب عاقبة هذا الصراع فسأروها بزعامة السيد عمر مكرم (٣) إلى مهاجمة

(١) تاريخ مصر الحديث ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ١٠١ .

(٣) هو : عمر مكرم بن حسين السيوطي - زعيم شمسي مصري توفي سنة ١٨٢٢ (الأعلام
ج ٥ ص ٢٢٩) .

محمد علي واليا على مصر سنة ١٨٠٥ ، بعدما وعدهم أن لا يقضى أمرا يفسد مشورتهم ^(١) ، ولعل ذلك كان أول مرة ، في تاريخ المصريين - يحكم بلادهم حاكم باختيارهم ، ويبدو أنهم أخطأوا في اختيار أجنبي عن البلاد ، وكان الأولى بهم أن يختاروا مصريا منهم ، ولعل الذي دفعهم إلى ذلك الاختيار خشيتهم الانقسام يوما بينهم ، بالإضافة إلى أنهم أحسنوا الظن بمحمد علي بعدما تودد إليهم ، وأظهر حرصه على مصلحة المصريين ، ولذلك وقفوا إلى جانبه حتى ثبتت قدمه في الحكم ، وخاصة عندما جاءت حملة إنجليزية لاحتلال البلاد سنة ١٨٠٧ ، فوقفوا جميعا أمام هذا المحتل البغيض صفا واحدا ، واستطاعوا هزيمته هزيمة منكرة ^(٢) .

ولم يقدر محمد علي تلك الوقفة التي رفعت رأسه ، وثبتت قدمه ، بل قلّم أظفار تلك اليد التي أحسنت إليه ، وذلك بنفى السيد عمر مكرم إلى دميياط سنة ١٨٠٩ ^(٣) ثم تخلص من الماليك في مذبحه القلعة سنة ١٨١١ ^(٤) .

ولقد كان ما فعله محمد علي تمهيدا لتحقيق أحلامه ، وتوسيع نفسه فاستبد بالحكم ، وأنشأ جيشا قويا ، كما أنشأ بعض المدارس التي تخدم الجيش ^(٥) وأرسل البعثات إلى فرنسا ^(٦) ، كل ذلك من أجل الجيش الذي وجهه سنة ١٨١١ إلى شبه الجزيرة العربية ^(٧) ، ثم إلى السودان سنة ١٨٢٠ ^(٨) وأخيرا إلى الشام سنة ١٨٢١ ^(٩) ، في حروب تخدم أطماعه .

وعندما رأت الدول الأوروبية انتصارات محمد علي ، وفطنت لأطماعه ، عملت على الحد من نفوذه فكانت معاهدة سنة ١٨٤٠ ^(١٠) التي وضمت حدا لأطماعه

(١) تاريخ مصر الحديث ص ١١٥ ، عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي ص ٣٥ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥١ .

(٢) مصر محمد علي ص ٥٤ وما بعدها . (٣) المرجع السابق ص ١٩٨ .
(٤) المرجع السابق ص ١١١ وما بعدها . (٥) المرجع السابق ص ٤٦٥ وما بعدها .
(٦) المرجع السابق ص ٤٢٦ . (٧) المرجع السابق ص ١٢٢ وما بعدها .
(٨) المرجع السابق ص ١٦٢ وما بعدها .
(٩) المرجع السابق ص ١٤٤ وما بعدها .
(١٠) المرجع السابق ص ٢٣٤ وما بعدها .

وأضمت قوته ، ولم يمكث بعد ذلك طويلا حتى توفي ، فتولى الحكم بعده عباس
الأول سنة ١٨٤٨ (١) .

كان عباس الأول يحب الأتراك ، ولذلك أحاط نفسه بأنظمة تركية ، وأكثر
من الخدم والحشم ، كما كان يكره الأجانب لأنه رأى موقفهم من جدّه - محمد
على - ووقوفهم أمام تحقيق مآربه ، بخلاف (سعيد (٢)) - الذى تولى الحكم
بعده سنة ١٨٥٤ - إذ كان يميل إلى الأجانب ، ولعمل ذلك يرجع إلى رغبته
فى إصلاح حال البلاد على أيديهم ، ولذلك منحهم كثيرا من الامتيازات مثل
امتياز شق قناة السويس ، ولكسبهم تدخلوا فى شئون البلاد بطرق مختلفة ، وخاصة
بعد أن استدان منهم (٣) ، ولقد زاد تدخلهم عندما تولى (إسماعيل (٤)) زمام
الحكم بعد (سعيد) سنة ١٨٦٣ ، إذ كان عاقد المزم على رفع شأن مصر
وجعلها قطعة من أوربا ، فأنفق الكثير من المال فى بعض المشروعات ، أضف
إلى ذلك ما دفعه إلى السلطان العثماني مقابل الحصول على لقب (العزيز) الذى
ضن به السلطان عليه ، ولقبه بلقب الخديوى كما أصدر له فرمانا يجعل الوراثة
فى أكبر أبناء الوالى (٥) ، ولا شك فى أن هذه الأمور شخصية ولكن الشعب هو
الذى تحمل عبأها ، فزادت الديون زيادة كبيرة ، وارتفعت نوائدها ، وقد دخل
أصحاب الديون فى سياسة الدولة ، وزاد الطين بلة أن إسماعيل طلب من الإنجليز
خبرا فى الشئون المالية ، فكان ذلك إذنا صريحا بالتدخل فى شئون مصر
سنة ١٨٧٦ .

ولم تلبث فرنسا أن اشتركت فى التدخل بحجة حماية ديون الفرنسيين ، وانتهى
الأمر باشتراك وزيرين : أحدهما فرنسى ، والآخر إنجليزى فى الوزارة المصرية (٦) ، مما

(١) هو : عباس بن طوسون بن محمد على ، حكم مصر بعده وفاة جدّه إلى أن توفي سنة
١٨٥٤ . (تاريخ مصر الحديث ص ١٧٦ وما بعدها) .

(٢) هو : محمد سعيد بن محمد على ، ولد بالإسكندرية سنة ١٨٢٢ وتوفي سنة ١٨٦٣
(الأعلام ج ٧ ص ٤) .

(٣) تاريخ مصر الحديث ص ١٨٩ . هو : إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على

ولد سنة ١٨٣٠ ، حكم مصر سنة ١٨٦٣ وعزل سنة ١٨٧٩ وتوفي سنة : ١٨٩٥

(٤) (الأعلام ج ١ ص ٣٠٢) .

(٥) تاريخ مصر الحديث ص ١٩٧ وما بعدها .

(٦) المرجع السابق ص ٢٤٣ .

دفع الشعب المصري إلى الاستياء من هذه التصرفات ، وخاصة أن جمال الدين الأتقاني (١) قد أتى إلى مصر في تلك الآونة ، وقام بتوضيح مساوي الاستعمار وكشف أساليبه ، مما جعل الشعب يطالب بمزل إسماعيل ، وتحقق ذلك فمتملاً سنة ١٨٧٩ (٧) ، وتولى الحكم بعده ابنه (توفيق (٢) .

ولقد كان الشعب يؤمل الخير في توفيق ، لأنه كان يميل - وهو وليسى الصهد - إلى الأخذ بنظام الشورى ، كما كان ناقماً على سياسة أبيه وإسرافه ولكنه بعدما تولى الحكم - تنكر لمبادئه ، وأساء إلى أصحاب الرأي الذين كانوا يجلس معهم ، ومن بينهم جمال الدين الأتقاني ، بل لقد عامله معاملة سيئة انتهت بخروجه من مصر (٤) ، كما خاصم الحكم النيابي ، وحكم البلاد حكماً مطلقاً (٥) .

وأستاء كبار رجال مصر من هذه التصرفات ، وخاصة من كان منهم نسي الجيش ، إذ كان ظلمه على الجيش أشد ، وإجحافه بحقوقه أكبر ، فكانت ثورة الجيش سنة ١٨٨١ بقيادة عرابي (٦) ، ولما بلغت الثورة أشدها تظاهر توفيق بتلبية بعض مطالبها ، ومنها تغيير الوزارة ، وعندما فشلت الوزارة الجديدة في إصلاح حال البلاد ، طالب الجيش بعزل توفيق ، فنهضت دول الاستعمار - التي كانت تترصد بمصر الدوائر - لحماية توفيق - كما زعمت - وأرسلت جيوشها سنة ١٨٨٢ ، تقابلها الجيش المصري بقيادة عرابي ، ولكنه هزم فأخفقت الثورة ، وقبض على زعمائها ، ونفوا خارج البلاد (٧) .

-
- (١) هو : جمال الدين الأتقاني فيلسوف صلح .. ركز حياته لإصلاح حال المسلمين في الشرق .. وتوفي سنة ١٨٦٢ (الأعلام ج ٢ ص ٢٧) .
- (٢) تاريخ مصر الحديث ص ٢٤٧ .
- (٣) هو : محمد توفيق بن إسماعيل بن إبراهيم ولد سنة ١٨٥٢ وتوفي سنة ١٨٩٢ . (الأعلام ج ٦ ص ٢٩٠) .
- (٤) تاريخ مصر الحديث ص ٢٥٤ . (٥) المرجع السابق الصفحة نفسها .
- (٦) هو : أحمد عرابي بن محمد عرابي مناخل مصري ولد سنة ١٨٤١ وتوفي سنة ١٩١١ (الأعلام ج ١ ص ١٦١) .
- (٧) تاريخ مصر الحديث ص ٢٧٥ .

علت إنجلترا - منذ دخولها مصر - على إحباط كل ثورة ، فألغت الدستور
وجلس النواب ، وأنشأت جيشا هزليا يرأسه بعض الضباط الإنجليز ، وأسندت
الضرائب العالية - في الدولة - إلى البريطانيين (١) .

ولم يسكت المصريون على هذا الظلم ، بل ظلوا يقاومون الاحتلال بشتى
الطرق ، إلى أن حكم البلاد - بعد موت توفيق - عباس حلى الثانى سنة
١٨٩٢ (٢) .

وفي هذا الوقت ظهر مصطفى كامل (٣) ، الذى أنشأ الحزب الوطنى ، وأخذ
يندد بسياسة الاستعمار فى كل مكان ، كما طالب بحقوق مصر فى الحرية
والاستقلال ، وظل يكافح من أجل بلاده ، حتى وافته منيته فحمل راية الجهاد
من بعده محمد فريد (٤) ، الذى طالب بالدستور وندد بالاحتلال حتى اضطس
إلى الخروج من مصر سنة ١٩١٢ ، فواصل كفاحه خارج مصر حتى صمدت روحه
إلى بارشها ، بعيدا عن أهله ووطنه .

أما عباس حلمى الثانى ، فقد وقف أول الأمر مع الضالين الأحرار يشجعهم
على نضالهم ضد الاحتلال ، ولكنه خشى بطش الإنجليز ، فتقرب إليهم ، وأكسد
ولاءه لهم (٥) ، ولم تلبث الحرب العالمية الأولى أن قامت سنة ١٩١٤ فمزلت إنجلترا
الخدوى عباسا ، وعينت بدله (السلطان حسين كامل (٦)) وأعطت إنجلترا وعدا
للمصريين بإعطائهم الاستقلال مقابل مساعدتها فى تلك الحرب ، ولكن ظهر كذبها
عندما انتهت الحرب ولم تنصف بوعدها ، فثار الشعب المصرى ثورة عارمة بقيادة
سعد زقلول (٧) سنة ١٩١٩ ، إلا أن قوات الاحتلال قبضت عليه ، ثم نفته ، ثم
اضطرت إلى الإفراج عنه بسبب المظاهرات الشعبية (٨)

(١) المرجع السابق ص ٢٨٩ . (٢) هو عباس حلى بن توفيق بن إسماعيل ولد

سنة ١٨٧٤ ، وتوفى سنة ١٩٤٤ (الأعلام ج ٤ ص ٣٣) .

(٣) هو : مصطفى كامل - مناضل مصرى ولد سنة ١٨٧٤ وتوفى سنة ١٩٠٨ (تاريخ مصر
الحديث ص ٢٩٥) . (٤) هو محمد فريد بن أحمد فريد ، مناضل مصرى ولد سنة

١٨٦٨ وتوفى سنة ١٩١٩ (الأعلام ج ٧ ص ٢٢٠) .

(٥) تاريخ مصر الحديث ص ٢٩١ . (٦) هو حسين كامل بن إسماعيل توفى سنة ١٩١٧

(المرجع السابق ص ٣٢٤) . (٧) هو سعد بن إبراهيم زقلول مناضل مصرى توفى

سنة ١٩٢٧ (الأعلام ج ٣ ص ١٣١) . (٨) تاريخ مصر الحديث ص ٣٣٤ وما بعدها .

وفي سنة ١٩٢٢ أعلن نصريخ ٢٨ فبراير ، الذي أعلنت فيه إنجلترا إلقاء حمايتها على مصر ، ولكنها احتفظت بحقها في الدفاع عنها ومراعاة رعاياها الأجانب وفي تلك الآونة أصبح السلطان أحمد فؤاد (١) ملكا على مصر ، وفي سنة ١٩٢٣ صدر الدستور ، وتمددت الأحزاب ولكنها اختلفت فيما بينها وخاصة سنة ١٩٢٤ ، والجدير بالذكر أن شوقي ندد بهذا الخلاف بقوله (٢) :

إلام الخلف بينكم إلاما وهدي الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بضمكم ليمض وتبدون المداوة والخصاما

ولقد ساءت أحوال البلاد وخاصة بعد وفاة الملك فؤاد ، وبعد إعلان الأحكام العرفية عندما قامت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ ، ونجح المبرب في إنشاء الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ وأصبحت مصر عضوا فيها ، ولكن المحتلين قد ساءم اتحاد العرب ، فعملوا على الكيد لهم ، فقامت حرب بين المبرب واليهود سنة ١٩٤٨ ، وانهمز فيها الجيش المصري لعدة أسباب من بينها فساد الأسلحة (٣) ، ثم تكونت الكتائب الفدائية لتخليص البلاد من قوات الاحتلال الإنجليزي ، وفي سنة ١٩٥٢ قامت الثورة المصرية ففضت على الملكية وأعلنت الجمهورية سنة ١٩٥٤ ، وتم جلاء الإنجليز سنة ١٩٥٦ (٤) ، ولم تتم فرحة الاحتفال بعيد الجلاء حتى شنت كل من فرنسا وإنجلترا وإسرائيل عدوانا غادرا على مصر ، فوقف الشعب وقفة واحدة مع الجيش ، كما وقفت معها بمسح الدول الكبرى ، فانهمز الأعداء ورجعوا مدحورين إلى بلادهم (٥) .

وفي سنة ١٩٥٨ قامت الوحدة بين مصر وسوريا ، إلا أن الدول الاستعمارية لم يهدأ بالها حتى نجح الانفصال سنة ١٩٦١ (٦) ، ولم تقف مؤامراتها عنسد ذلك الحد ، بل ساندت إسرائيل في عدوانها الفادر على مصر سنة ١٩٦٧

(١) هو أحمد فؤاد بن إسماعيل توفي سنة ١٩٣٦ (المرجع السابق ص ٣٤٠) .

(٢) النوقيات ج ١ ص ١٧٨ . (٣) الدكتور : سعيد عاشور : ثورة شعب

ص ١٢٢ وما بعدها . دار النهضة العربية بدمر سنة ١٩٦٤ .

(٤) المرجع السابق ص ١٦٥ . (٥) المرجع السابق ص ٢٢٥ وما بعدها .

(٦) المرجع السابق ص ٢٢٨ وما بعدها .

واستولت على بعض أجزاء من الأرض العربية ، فقررت مصر إعادة بناء جيشها لتحرير الأرض ، فحقق الله النصر للجيش المصري عندما عبرت قواته قناة السويس في المأخر من رمضان سنة ١٣٩٣ (١٩٧٣) وألحقت بالإسرائيليين هزيمة لن يُحى أثرنا ، ووقف العرب بجانب إخوانهم المصريين وثقة راثمة بفضل الله ثم بفضل الرئيس / محمد أنور السادات ، الذي أرجو من الله أن يوقفه نسي مواصلة جهوده حتى تتحرر بقية الأرض العربية ، ويمود بيت المقدس الظاهر إلى المسلمين حرماً آمناً - إن شاء الله .

ب - أهم المعالم الاقتصادية :

عندما تولى محمد علي حكم مصر اهتم بالزراعة ، فأشاد القناطر والجسور وشق الترع^(١) ، كما اهتم بالصناعة فأقام بعض المصانع^(٢) ، وبدوا أن هذا الاعتماد لم يكن من أجل مصر والمصريين ، بل من أجل نفسه ، إذ حسب أن مصر ضيقة كبيرة آلت إليه ، وأن من حقه أن يمتص كل قطرة من خيراتها لتحقيق مآربه ، ولعل مما يؤكد ذلك أنه بعد معاهدة لندن - السابقة الذكر^(٣) - أغلق محمد علي أبواب كثير من المصانع التي كانت تمد الجيش بمصنوعاتها^(٤) ، بل عندما نقص عدد الجيش بموجب تلك المعاهدة نقصت حاجاته الصناعية - فبدلاً من أن يفكر في توجيه الصناعة توجيهها جديداً أنزل بها هذه الضربة القاصمة ، فقتسى على ما كان يُنتظر لمصر من نهضة صناعية ، وأعادها بلداً زراعياً يعتمد على الزراعة في حياته الاقتصادية ، ولم تكن الزراعة أحسن حالا من الصناعة إذ احتكر الأرض الزراعية ، والمحصولات الزراعية أيضاً^(٥) .

ولم تكن سلالمة محمد علي خيراً منه ، إذ نظروا إلى مصر على أنها بقرة حلب ، ورثوها عن أبيهم وجددهم ، فأسرفوا نسي استغلالها ، وتمخضت عنها ، بالإضافة إلى الضرائب الباهظة التي فرضوها عليهم ، وزاد الطين بلسة

(١) عصر محمد علي ص ٥٧٢ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٥٨٦ وما بعدها .

(٣) انظر ص ٢٦٤ من هذه الرسالة .

(٤) تاريخ مصر الحديث ص ١٧٤ .

(٥) عصر محمد علي ص ٦٣٠ وما بعدها .

تشجيعهم الأجانب على الهجرة إلى مصر واستثمار أموالهم فيها ، واستغلال
المصريين استغلالا كبيرا (١) .

ولا يفترق أن سميدنا أباح تملك الأرض الزراعية - على عكس أبيه -
لأن هذا التملك لا يساوي شيئا بالنسبة إلى ما ضحى هو وإسماعيل - من بعده -
للأجانب والمصريين إليهما من إقطاعات كبيرة ، كانت أساس الإقطاع في ديارنا ،
وكانت السبب في المساوي ، الاقتصادية الكبيرة التي نزلت بالبلاد (٢) .

وكان ذلك كله سببا في نكسة الزراعة والصناعة في مصر ، كما كانت نكسة
التجارة أدنى وأمر ، لأن قيود الاحتكار التي طوقها بها محمد علي أخذت
تنفك عنها قيودا قيودا ، حتى إذا كان عصر عباس الأول انفكت جميعها انفكاكا
تاما تحولت على أثره مصر إلى كلاً مباح لا للمتاجر الأجنبية فحسب ، بل
للأجانب أنفسهم ولشراءهم من الذين قذف بهم الغرب إلى بلادنا ، فلأولها
بالمشارب والملاهي ، وأخذوا ينشرون حوانيت التجارة جالين إليها منوعات
بلادهم ، وسرعان ما أمسكت رؤوس أموالهم يخنق الاقتصاد المصري ، بما
افتتحوه من مصارف ومن بيوت الاستيراد والتصدير والشركات المختلفة (٣) .

ولقد تضمن عدد الأجانب بمرور الزمن - حتى غدوا كأنهم جيش أجنبي
يحتل البلاد ، وهو جيش مدني ، ومن ثم كانت خطورته أشد ، إذ أخسفت
يتخلل في البلاد متحكما في مراقبها المختلفة ، مسيطرا على ثروتها القومية ،
وزاد الأمر سوءا عندما أعطتهم الأسرة العلوية حق امتلاك الأرض الزراعية ، فتوطدت
أقدامهم في هذا الوطن المصري ، وأخذوا يحصلون - بكل ما يملكون - على نهب
ثرواته واستغلال أصله ، حتى انتشر الربا وارتفعت فائدته ، أضف إلى ذلك
أن الحكام أنفسهم كانوا قد استدانوا الكثير ، فأصبح الاقتصاد المصري اقتصادا
سيئا (٤) .

(١) ثورة شبص ٢٩ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٣٥٠ .

(٣) ثورة شبص ٢٧ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق ص ٢٩ وما بعدها .

وعندما ظهر بعض الوطنيين الذين استنكروا هذه المفاسد ، قاموا ببعض الثورات للوقوف أمامها ، وأخذوا محاربتها ، بإنشاء بعض المصانع الوطنية والمشروعات التي تعود نائدتها على الشعب المصري ، ومن ذلك إنشاء بنك مصر (١) وتأسيس شركة مصر للطيران ، وشركة الملاحة النيلية ، وشركة مصر للملاحة البحرية (٢) كما فرضت الضرائب الجمركية على المصنوعات الواردة من الخارج التي توجد مثلها صناعة مصرية ، وذلك بهدف تشجيع الصناعة المصرية ، وأنشئت لذلك مصلحة التجارة والصناعة ، كما أدخلت التحسينات على المسك الحديدية ، ومهدت بعض الطرق (٣) .

وفي سنة ١٩٣٠ وقعت أزمة اقتصادية طاحنة إذ هبطت أسعار القطن هبوطا كبيرا (٤) ، مما أدى إلى هبوط أسعار بقية المحاصيل الزراعية ، فاشتدت الضائقة المالية بالمزارعين ، ولم يستطيعوا الوفاء بما عليهم من التزامات وخاصة إيجارات الأرض ، مما أوقعتهم في الديون ، وهدد ثروة البلاد تهديسا خطيرا ، فكان ذلك سببا في إنشاء (بنك التسليف الزراعي المصري) سنة ١٩٣١ لمعاونة الفلاح بجدته بالسلف القصيرة الأجل بأرباح قليلة وتقديم ما يحتاج إليه من بذور وسماد وغير ذلك من ضروب المساعدة ، كما أنشئ (بنك التسليف المقاري) سنة ١٩٣٢ للسلف الطويلة الأجل (٥) .

ومفضل مجاهد الشباب الناضج ، وجدت بعض الصناعات ، وأنشئت بعض المصانع بقروض جمعت من أفراد الأمة في الحركة المعروفة (بمشروع القروش) (٦) وكان كل ذلك سببا في إنعاش الحالة الاقتصادية في البلاد بعض الشيء .

وعندما قامت ثورة سنة ١٩٥٢ عملت على النهوض بالصناعة ، فأنشأت الكثير من المصانع المختلفة في أنحاء البلاد (٧) ، كما أصدرت قوانين كثيرة للنهوض

-
- | | |
|----------------------------|----------------------------------|
| (١) تاريخ مصر الحديث ص ٣٥٢ | (٧) المرجع السابق الصفحة نفسها . |
| (٢) المرجع السابق ص ٣٥١ | (٤) المرجع السابق ص ٣٥٠ |
| (٣) المرجع السابق ص ٣٥٠ | (٥) المرجع السابق ص ٣٥١ |
| (٤) ثورة شعب ص ٢٥٣ و ص ٢٥٧ | |

بالزراعة ، ومنها قانون إصلاح الزراعى ، وأصلحت كثيرا من الأرض وقضت على
الإقطاع ، كما قامت ببعض المشروعات التى تفيد الزراعة والصناعة وتزيد الدخل
القومى مثل مشروع السد العالى ، بالإضافة إلى تأميم قناة السويس ، (وتخصير)
البنوك والشركات الأجنبية ، ولا شك فى أن كل هذا قد ساعد على النهوض
بالاقتصاد المصرى (١) .

ولقد منيت مصر بعدة حروب كلفتها الكثير ، مما كان سببا فى وجود
بعض الأزمات الاقتصادية ، والأمل محفود على النهوض بالاقتصاد المصرى نفسى
أقرب وقت إن شاء الله .

جـ - أهم المعالم الاجتماعية :

كان المجتمع المصرى يتكون - غالبا - من طبقتين (٢) :

الطبقة الأولى :

وتتكون من : الحكام وأبنائهم ومعظمهم من الشراكة والأثراك - بالإضافة
إلى حاشيتهم من أصحاب الجاه والنفوذ والثراء العريض وهؤلاء على الرغم
من قلة عددهم ملكوا كل شىء ، وكانوا يعيشون عيشة تسرفوا صرافى .

والطبقة الثانية :

وتتكون من : العلماء والفلاحين والتجار وسواد الشعب ، فأما العلماء
فكان لهم مقام كبير ، ونفوذ عظيم ، وكان الشعب يلجأ إليهم إذا وقع
عليه ظلم من الحكام ، فكانوا يحملون على تخفيفه ، إن لم يستطيعوا منحه ،
إلا أن هذا النفوذ قد ضعف وبخاصة بعد نفى السيد عمر مكرم - كما سبق (٣) .
وأما التجار : فقد ساءت أحوالهم بسبب احتكار الحكومة التجارة ، وأصبحت
فائدتها تعود على الحكومة وعلى الوسطاء من الإنترج (٤) .

(١) المرجع السابق ص ٢٩٧ وما بعدها .

(٢) عصر محمد على ص ٢٣٩ .

(٣) انظر ص ٢٦ من هذه الرسالة . وعصر محمد على ص ٦٤٥ .

(٤) عصر محمد على ص ٦٤٧ .

وأما الفلاحون : فكانت حياتهم تدعو إلى الألم والإشفاق ؛ إذ حرموا حق تملك الأرض كما فرضت عليهم الضرائب الباهظة^(١) ، ولعل غير ما يشير إلى حالهم . . . قول الشيخ محمد عبده^(٢) :

" كان أهالي بلادنا - الفلاحون - محملين من الأثقال النقدية ما لا يطيقون من ضرائب على الأرض متجهة متكررة ، تتجدد على السدوام بتجدد الأشهر والأعوام ، وغرائب تفرض على الأنفس وتوابعها من غير نظام ، لا تنتهي عند غاية ، ولا تقف عند حد ، حتى بلغت نهايتها لا يستطيعون معها الأداء لشيء ما فرض عليهم ، ثم لم يكن لاقتضاء هذه الفرائض الثقيلة منهم وقت معين ، ولا قاعدة معروفة ، بل كان ذلك على حسب اشتها الحاكم وإرادته غير المرتبة ، فتارة يجبرون على أداء جميع أموال السنة بأنواعها في أول شهر منها ، وتارة يطالبون بأموال السنة القابلة في منتصف السنة الحاضرة ولا محيص لهم عن الأداء ،

فإن من تأخر عنه عوبل بالضرب المهلك ، والحبس المؤبد ، أو انتزع منه جميع ما بيده قهرا ، وما شكك من ذلك من المعاملات الخشنة^(٣) .

فكان الفلاح من جراء هذه القسوة ، إما أن يلجأ إلى من يقرضه بالربا الفاحش ، وذلك إذا آثر أن يحتفظ بأرضه - وكان يصجز غالبا عن سداد ذلك القرض فتتزع منه أرضه - وإما أن يتركها وينجو ببدنه .

إن شعبا هذه حال جمهرة بنيه ، لا ينتظر له إلا الفقر والجهل والمرض والانحلال .

وما يشير الأسى أن نجد غالب أبناء مصر يمانون في سبيل لقمة عيشهم ما يمانون من ظلم فادح ، وضرائب باهظة ، وتجدد الأجانب يعيشون - نسي مصر - في رغد من العيش ، وترف من الحياة ، بل لقد حصلوا على امتيازات فرضها لهم العثمانيون ، وبذلك أصبحوا يتمتعون بما لم يتمتع به

(١) المرجع السابق ص ٦٤٨ وما بعدها .

(٢) هو الشيخ / محمد عبده بن حسن خير الله ، تعلم بالأزهر ، ووجد رائد الإصلاح الديني والاجتماعي في مصر الحديث ، توفي سنة ١٩٠٥ (الأعلام ج ٧ ص ١٣)

(٣) معبد شهيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ج ٢ ص ٧٤ - مطبوعة المنار بصر سنة ١٣٤٤ هـ .

أصحاب البلاد أنفسهم بل فاقوهم في أشياء كثيرة ، واكتسبوا مميزات جديدة ، فهم مثلاً لا يخضعون لنظام القضاء المصري ، وإنما تنظر قضاياهم في محاكم قنصلية ، حتى لو كانت تلك القضايا ضدهم (١) .

ولقد ترتب على ذلك ضياع حقوق المصريين ، بشيخو مهالاة ، واستشرى الفساد ، وانتشر التحلل في البلاد ، فألفت بعض الجمعيات - مثل الجمعية الخيرية الإسلامية - التي وضعت نصب عينيها الاهتمام بتنظيم الإحسان ، والثورة الشديدة على نفوذ الأجانب ، والامتيازات التي حصلوا عليها (٢) .

وقام بعض المصلحين بمعالجة بعض المشاكل - مثل تخلف المرأة - ومنهم رفاعة الطهطاوي (٣) ، الذي دعا إلى نهضة المرأة ، وإلى تعليم البنات وتثقيفهن أسوة بالبنين ، وألف كتاباً في ذلك سماه (المرشد الأمين للبنات والبنين) ثم جاء - بعده - قاسم أمين (٤) ، فأكد حقهن في التلخيص ، ولكنه شجعهن على التحرر من الحجاب ودعا إلى تمكينهن من المشاركة في الوظائف والأعمال العامة ، وألف من أجل ذلك كتابه : (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) ، ولقد آثار ظهور هذين الكتابين ضجة شديدة في ذلك الوقت ، وظلا موضع أخذ ورد في الصحف مدة نصف قرن (٥) ، كما قام بعض الكتاب بالرد على قاسم أمين (٦) ، وقام بعض الشعراء بنظم قصائد يعلنون فيها رفضهم وسخطهم على تلك الفكرة ، ومنهم الشيخ محمد عبدالمطلب الذي يقول ناعياً على النساء تقصير الثياب والتبرج (٧) :

(١) تاريخ مصر الحديث ص ٢٠٢ وما بعدها .

(٢) في الأدب الحديث ج ١ ص ٥٨ .

(٣) هورفاعة بن بدوي بن علي الطهطاوي ، أحد رواد النهضة الفكرية في العصر الحديث توفي سنة ١٨٧٣ (الأعلام ج ٣ ص ٥٥) .

(٤) قاسم أمين ، كاتب وباحث عرف بحجر المرأة توفي سنة ١٩٠٨ (المرجع السابق ج ٦ ص ١٩) .

(٥) الدكتور / محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج ١ ص ٢٧٢ وما بعدها ، مطبعة الآداب بمصر سنة ١٩٦٢ .

(٦) محمد طلعت حرب : تربية المرأة والحجاب ص ٨٣ وما بعدها ، مطبعة الترقى بمصر سنة ١٨٩٩ .

(٧) انظر ص ٥٧٧ من نذرة الرسالة .

(٨) محمد عبدالمطلب : ديوانه ص ١٨٤ مطبعة الأعتماد بمصر (غير مؤرخ) .

ما فى بنات النيل من .. أرب لذي غرض نبيل
أصبحن عابا فى الزمنا .. ن وسوأة فى شرجيل
نكر العقاف ذ يولها .. ومن الشغاف قصر الذبول

إلا أن بعض الشعراء كان مترددا ، فأحيانا يؤيد الحجاب وأحيانا يعارضه ، ومنهم شوقي الذى أعجب بفكرة قاسم أمين ، فقال قصيدة طويلة ومنها (١) :

مصر تجدد مجدها .. بنائها المتجددات
النافرات من الجصو .. كأنه شبح الممسكات
ثم رجح فأيد الحجاب بقوله (٢) :

صداح يا ملك الكفا .. ر ويا أمير البلبل
... بالرغم بنى ما تصا .. لج فى النحاس المقلل
حرض عليك عوى ومن .. يحرز ثينا يبخسل

وهما يكن من شيء فلقد كان المجتمع يشكو عسلا كثيرة - بالإضافة إلى ما سبق - أهمها الجصور الدينية والتصب الطائفى ، والضغط المادى ، والانحراف الخلقى .. وشيوع البدع والخرافات واستفحال الدين عند أديابك (٣) ، فقام كثير من المصلحين بتشخيص هذه الملل ، ووصف العلاج لها ، ومنهم الشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد رشيد رضا (٤) وغيرها .

كما أنشأت الحكومة بعض المستشفيات ، ودر رعاية الأطفال والملاجىء (٥) وعندما قامت ثورة سنة ١٩٥٢ عملت على النهوض بالمجتمع المصرى ، فأنشأت كثيرا من المشروعات الصناعية التى قللت عدد الماطلين ، وأنشأت كثيرا من المستشفيات

(١) الشوقيات ج ١ ص ١٠٤ .
طائر حسن الصوت .
(٢) رشيد رضا صاحب المنار ص ٩٤ بتصرف .
(٣) هو : الشيخ محمد رشيد رضا من أكبر تلاميذ الشيخ : محمد عبده
توفى سنة ١٩٣٥ (المرجع السابق ص ٢١٣) .
(٤) تاريخ مصر الحديث ص ٣٤٨ .
(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٢١٩ والكفارة .

ومراكز رعاية الطفولة ، بالإضافة إلى وزارة الشؤون الاجتماعية التي تعد بمد
المون والمساعدة للفقراء الذين عجزوا عن العمل ، كما أكرت من إنشاء
الملاجئ ودور الحضانه والجمعيات الخيرية ، ووضعت قانون الماشات
والتأمينات الاجتماعية ، وغير ذلك من القوانين الاجتماعية التي لا يخفى أثرها
العظيم في المجتمع المصري (١) .

د - أهم المعالم الثقافية :

لم يكن في مصر قهبل الحملة الفرنسية غير بعض الكتاب التي تملسم
هادى القراءة والكتابة وتحفظ القرآن الكريم ، بالإضافة إلى الأزهر الشريف (٢)
الذى ظل على الرغم مما أحاط به من جمود وظلم - وخاصة في المص
المشائى - منارة العلم ومنبع الفكر ، وولجا الشعب من ظلم حكامه .

ولما أتت الحملة الفرنسية وجهت الأنظار إلى الثقافة الأوروبية ، وذلك عن
طريق بعض العلماء الذين كانوا في ركاب الحملة ، كما أنشئت مدرستان
وجريدتان فرنسيتان وأخرى عربية وأقيمت بعض المكتبات التي جمعت كتبها
من المساجد .

ولما تولى محمد على حكم مصر رأى أنه في أشد الحاجة إلى جيش قوى
يوطد به حكمه ، فأنشأ - من أجل ذلك - مدرسة حربية ومدرسة للطب ،
وأخرى للصيدلة (٣) واستعان ببعض الأساتذة الأجانب للتدريس في هذه المدارس ،
ولما كان هؤلاء الأساتذة لا يعرفون اللغة العربية والطلاب لا يعرفون اللغسة
الإنجليزية استعان ببعض المترجمين ، ثم أرسل عددا من البعثات إلى أوروبا
لكم يقوم أبناءها فيما بعد بمطالب الجيش ، ولحلوا مكان الأساتذة الأجانب
في التدريين بالمدارس المصرية (٤) .

(١) ثورة شميس ٢٨٢ وما بعدها .

(٢) تاريخ العرب الحديث ص ٥٤ .

(٣) عصر محمد على ص ٤٦٨ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق ص ٤٧٦ .

وعندما عاد هؤلاء المبعوثون - إلى مصر - كانوا أول صلة حقيقية بين مصر والثقافة الأوروبية في العصر الحديث ، إذ ترجموا وألفوا الكثير من الكتب ، وعربوا كثيرا من المصطلحات الأجنبية ، وكان من أنشط المبعوثين رفاعة الطهطاوي ، الذي اقترح على محمد علي أن ينشئ مدرسة الألسن^(١) ، فوافق محمد علي ، وأنشأها ، وهدد إليه بإدارتها ، وكانت هذه المدرسة تعنى بدراسة كثير من اللغات الأوروبية وغيرها إلى جانب آداب اللغة العربية ، وبفضل تلامذتها ترجمت كثير من الكتب القيمة التي كانت سببا في اتساع دائرة الثقافة المصرية ، كما ساعد على ذلك أيضا تلك المطابع التي ظهرت بمسجد المطبعة التي أنشأها محمد علي سنة ١٨٢٢ ، ووجدت بعض الصحف وأهمها :
الوقائع المصرية سنة ١٨٢٨ .

وإذا كانت الناحية الثقافية - وخاصة العلمية - قد نهضت في عهد محمد علي ، فإنها لم تلبث أن توقفت في عهد عباس الأول وسعيد ، إذ أغلق عباس المدارس بما في ذلك مدرسة الألسن^(٢) ، كما استدعى أعضاء البعثات من الخارج ونفى رفاعة الطهطاوي إلى السودان ، وألقى الترجمة^(٣) ، ثم تلاه سعيد فألقى ديوان المدارس وأوقف مطبعة بولاق^(٤) .

ولما أتى إسماعيل ازدهرت الحياة الثقافية في عهده ازدهارا كبيرا ، إذ أعاد البعثات ، وفتح المدارس التي أغلقها عباس وسعيد ، بل أنشأ الكثير من المدارس الابتدائية وغيرها ، كما أنشأ مدرسة دار العلوم ، ومدرسة للبنات سنة ١٨٢٣^(٥) ، وكان كل ذلك سببا في انتشار الثقافة واتساع دائرتها ، وبخاصة بعد إنشاء دار الكتب المصرية ، وزيادة المطابع ، التي كانت سببا في كثرة الصحف الرسمية وغيرها مثل الجريدة العسكرية وأركان حرب الجيش وروضة المدارس ووادي النيل ونزهة الأفكار ، وأبونظارة وغير ذلك من الصحف المصرية - بالإضافة إلى بعض الصحف الشرقية التي كانت ترد إلى مصر كالجواثب^(٦) .

-
- (١) المرجع السابق ص ٥١٤ . (٢) تاريخ مصر الحديث ص ١٢٩ .
(٣) عصر محمد علي ص ٥١٦ . (٤) تاريخ مصر الحديث ص ١٨٨ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٠٧ وما بعدها .
(٦) الأدب المعاصر في العالم العربي ص ٢٨ .

ولعل ما ساعد على ازدهار الصحافة في ذلك العهد • شجيرة
عدد كبير من أهل الشام إلى مصر • وكان من بينهم طائفة من الأدباء والصحفيين
الذين ضموا جهودهم إلى جهود زملائهم المصريين • فسي نشر الوحي القوي
بما كتبه • ونشروه • وما أصدروا من صحف مثل الكواكب والأهرام ومصـ
غيرها (١) •

ولقد تبخ كثرة المطابع ازدياد الرغبة الأكيدة في طلب المعرفة • فظهرت
حركة إحياء القديم مثل الأغاني • وتاريخ ابن خلدون ومقدمته • والمقـ
الفريد • وغوات الوفيات • والبيان والتبيين وغيرها من أمهات الكتب العربية •
بالإضافة إلى ظهور كثير من المخطوطات التي قام بنشرها وتحقيقها بمسـ
المستشرقين مثل: مقامات الحريري المتوفى سنة ٥١٠ هـ • والمعلقات السبع
وكليـة ودمنة • وغيرها (٢) •

أضف إلى ذلك تلك الجمعيات العلمية التي ألفت في ذلك العهد
وكان لها أثر كبير في زيادة الثقافة واتساعها مثل: جمعية المعارف • وجمعية
اتحاد الشبيبة العربية • وكذلك الجمعية الجغرافية والجمعية الإسلامية •

ولا يخفى أن لجمال الضدين الأفنانسي أثرا كبيرا في تدوير بعض
المقول وثقيفها • إذ عندما وصل إلى مصر سنة ١٨٧١ التف حوله عدد كبير
من المتعلمين مثل: محمد عبده وسعد زغلول وغيرها من نهـل من رده •
واغترف من بحر علمه • وواسع فكره (٣) •

ولما دخل الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢ • عملوا على إضـاف الثقافة فـرـسـوا
البحـثات • وأعملوا المـعاهد والمدارس • واقتصر التعليم على تخريج طائفة من
الموظفين • وفرضوا اللغة الإنجليزية على المتعلمين المصريين (٤) • بل حاربوا
اللغة العربية هم وبعض المصريين الذين انسلخوا من عروبتهم • كما ظهرت

(١) المرجع السابق ص ٢٩ •

(٢) البارودي رائق الشعر الحديث ص ٤٣ •

(٣) المرجع السابق ص ٤١ وما بعدها •

(٤) ثورة شعب ص ٨١ •

بعض الدعوات الخبيثة التي وجارب الفصحى ، وتنادى باتخاذ العمامة لفئة
للتأليف العلى والأدبى ^(١) ، ولعل هذا هو الذى دفع بعض الشمراء
للدفاع عن اللغة العربية ، ومنهم الشاعر حافظ إبراهيم ^(٢) ، الذى نظم
قصيدة طويلة فى ذلك الشأن ومنها قوله : ^(٣)

رجعت لنفسى فأنهت حسانسى

وتاديت قوسى فاحتسبت حياتى

رموزى بحقم فى الشباب وليتسبى

عظمت فلم أجزع لقول عدائى

ولقد حوربت بعض الصحف مثل: الصروة الوثقى التى كان يصدرها محمد
عبد ، وجمال الدين الأفغانى فى باريس ، ومنعت من دخول مصر ، كما ألغيت
صحف أخرى كالوطن ، والزمان ، ووراة الشرق ، وظل الحال هكذا حتى
ظهر بعض الوطنيين مثل: مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، ومحمد زفلول ، وقامت
الأحزاب وأصبح لكل حزب صحيفة تعبر عن آرائه مثل: المؤيد واللواء والأستاذ
والحرية ^(٤) ، بالإضافة إلى صحف ومجلات أخرى مثل: السياسة والسياسة
الأسبوعية والبهلال والمكتطف والرسالة ، ودعمت الجامعة الأهلية بعد ضمها
إلى الحكومة سنة ١٩٢٥ ^(٥) ، وأسهم بممولاتها - بقسط كبير - فى انتشار
الثقافة ، كما ظهر جيل قد تأثر فى ثقافته بالثقافة الأوروبية مثل: طه حسين ^(٦)
والمقاد ^(٧) وسبيل وغيرهم .

-
- (١) الاتجاهات الوطنية فى الأدب بالمعاصر ج ٢ ص ٣٣٤ وما بعدها .
(٢) هو : محمد حافظ إبراهيم ، شاعر مصرى ، لقب بشاعر النيل توفى سنة ١٩٣٢ (الأعلام
ج ٦ ص ٣٠٤) .
(٣) حافظ إبراهيم : ديوانه ج ١ ص ٢٥٢ ضبط
وتحقيق : أحمد أمين بالاشتراك مع غيره - مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٧ .
(٤) الأدب العربى المقاصرى مصر ص ٣٥ . (٥) المرجع السابق ص ٢٧ .
(٦) هو الدكتور : طه حسين ، عرف بعلمه الأدب العربى توفى سنة ١٩٧٣ (المرجع
السابق ص ٢٧٧) .
(٧) هو : عباس محمود المقاد ، كاتب وشاعر مصرى توفى سنة ١٩٦٤ (المرجع
السابق ص ١٣٦) .
(٨) هو : الدكتور : محمد حسين سبيل أديب مصرى توفى سنة ١٩٥٦ (المرجع
السابق ص ٢٧٠) .

ولقد وجدت بعض المدارس الأدبية مثل: مدرسة الديوان (١) وكان على رأسها العقاد والمازني (٢) وشكري (٣) وكذلك مدرسة أبولو (٤) وكان منسجها أحمد زكي (٥).

ولا شك في أن مثل هذه المدارس قد ساعد على ازدهار الثقافة واتساعها وخاصة لتأثر أصحابها في آرائهم وأفكارهم بالثقافة الغربية .

ولما قامت ثورة سنة ١٩٥٢ عملت على إتاحة فرص التعليم لكل أنسراد الشعب بعد أن كان مقصورا على القادرين فقط ، فأنشأت الكثير من المدارس - بأنواعها المختلفة - والمعاهد والكليات ، كما أنشأت وزارة التعليم العالي ، ووزارة البحث العلمي ومن قبلها وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، وتسمى الآن وزارة الثقافة والإرشاد القومي . في البعثات الخارجية إلى كثير من جهات العالم ، كما أنشأت المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ومجمع البحوث الإسلامية (٦)

ومعد : . . فهذه هي أهم معالم العصر الحديث من الناحية السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، جعلت الحديث عنها تهيئدا للحديث عن معارضات البردة في العصر الحديث ، التي سوف أشير إلى بعضها في الفصل التالي إن شاء الله .

-
- (١) انظر المرجع السابق ص ٥٨ وما بعدها حيث يوجد بعض آرائها الأدبية .
 - (٢) هو : إبراهيم عبد القادر المازني : أديب مصري توفي سنة ١٩٤٩ (المرجع السابق ص ٢٦١) .
 - (٣) هو : عبد الرحمن محمد شكري : شاعر مصري توفي سنة ١٩٥٨ (المرجع السابق ص ١٢٨) .
 - (٤) انظر بعض اتجاهاتها الأدبية في المرجع السابق ص ٧٠ وما بعدها .
 - (٥) هو : الدكتور أحمد زكي أبو شادي - شاعر مصري توفي سنة ١٩٥٥ (المرجع السابق ص ٢٤٥) .
 - (٦) انظر ثورة شعب ص ٢٢٨ وما بعدها .

الفصل الثالث

معارضة الدرويش والتميمية وأثرهما

أ - معارضة الدرويش :

بدا لي - بمد بحث طويل - أن أولى معارضات بردة البوصيري نسي
العصر الحديث - قبل شوقي^(١) - هي معارضة الدرويش .

والدرويش : هو السيد علي بن حسن بن إبراهيم المصري^(٢) . ولد
في القاهرة سنة ١٢١١ هـ (١٧٩٦ م)^(٣) ، ولم تذكر المصادر عن نشأته
شيئا سوى أنه نشأ في القاهرة ، ونال قسطا من التعليم ، وكان مولعا
بالأدب العربي ، فأقبل على ما تهيا له من كتبه مظالمة وحفظا مكثرا من قرض
الشعر ، كما استطاع أن يضرب ببراعة في فنون النثر .

ولقد أغرم بنظم كثير من الأصوات - أدوار الغناء - وله عدد كبير
من القطوعات الغنائية .

وذكر بعض الكتاب أن الدرويش بلغ بأدبه المنزلة في أمراء عصره . . .
وهو شاعر عباسي الأول ، ولكنه لم يكن مثل الشعراء الذين يتكسبون بشعرهم ،
وإنما كان " غفيف اليد ، قنوع القلب ، . . . مكثيا بملك وعقاره^(٤) " .

(١) قيدت المصراع الحديث بحفظ (قبل شوقي) لكثير من الأمور أهمها : أنه - كما سيأتي
في أثناء الحديث عن معارضته - أول من سعى معارضته أصا يشير صراحة إلى نسي
معارضة البردة ، وإن سماها (نهج البردة) ، كما أنه أمير الشعراء بإجماع
شعراء كثيرين بآيسوه أمير عليهم في الشعر . (انظر الفصل الأول من الحساب
الرابع من هذه الرسالة) .

(٢) كل المصادر التي ذكرت نسبه أشارت إلى أن اسمه (السيد علي) . إلا صاحب
الأعلام ، فذكر أن اسمه (علي بن حسن) ج ٥ ص ٨٥ . وتاريخ آداب اللغة
العربية ج ٤ ص ٢١٢ وما بعدها ، عمر الدسوقي : في الأدب الحديث ج ١ ص ٣٩
وما بعدها مطبعة الرسالة بصر سنة ١٩٤٨ .

(٣) الأعلام ج ٥ ص ٨٥ . (٤) في الأدب الحديث ج ١ ص ٤٠ .

وشعره يضل لنا في الغالب ما شاع في عصره من ولوع بالحسنات الهديمية حتى قال عنه بعض الكتاب: " كان يحشرها حشرا ، ويتكلفها تكلفا ، وصانيسه وأخيلته لا تدل على شاعرية صتازة إذا قيمت بشعر عصرنا ، ولكنه بالنسبة إلى عصره كان في ظلمة الشعراء (١) .

ولقد قال الشعر في كل أغراضه التقليدية - تقريبا (٢) - ولكن شعره الديني (٣) ، قليل بالنسبة إلى بقية الأغراض الأخرى ، وهو عبارة عن قصائد نظمها الشاعر في مناسبة مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) غالبا ، ومن ذلك قوله يخاطب المسلمين : (٤)

أضاءكم مولد الرسول	••	بالنور من يومه الفضيل
يا أمة المصطفى تهنوا	••	من نعم الله بالجزيل
... نيا له مولدا كريما	••	يبسم عن وجهه الجميل
أتى بيوم الرضا علينا	••	أتى على الشرك بالمهول
أتى بدين هدى ونورا	•••	لمتقى الله والجهنول

• ولاحظ على مديحه أنه مهلل النسخ ، ضيف المبارة .

آثاره :

ولقد مات الدرويش سنة ١٨٥٢ (٥) ، وترك بعض آثاره مثل (٦) :

١- ديوانه (الإشعار بحميد الأشعار) .

٢- الدرج والدرك (في مدح خيار عصره وندم شرارهم) .

٣- رحلة .

٤- كتاب في الخيل .

٥- (سفينة) في الأدب .

(١) المرجع السابق ، وأحمد الإسكندري ؛ (بالاشتراك مع غيره) الفصل في تاريخ

الأدب العربي ج ٢ ص ٣٣٦ المطبعة الأميرية بصر سنة ١٩٣٦ .

(٢) محقق عبد الخفي حسن : أعلام من الشرق والغرب ج ٥ وما بعدها - دار الفكر

المرابي بصر سنة ١٩٤٩ . (٣) أشرت إليه دون غيره لاتصاله بموضوع الرسالة .

(٤) علي الدرويش : ديوانه ص ٢٣١ طبع بصر سنة ١٢٨٤ هـ (لم يدون عليه اسم المطبعة)

(٥) الأعلام ج ٥ ص ٨٥ .

(٦) المرجع السابق الصفحة نفسها .

ويبدو أن الشاعر على الدرويش أعجب بالبردة ، فدأب على النظر فيها ،
وعاود الاطلاع عليها ، ويؤكد ذلك أنه قد أشد على بحرهما وروبيها ثلاث
قصائد ، اثنتان منها تعدان من البديعيات - سبق الحديث عنها (١) - ويبلغ
عدد أبيات القصيدة الأولى : ثلاثين بيتا ، ومطلعها (٢) :

للطرف مطلع بدر الحسن قال : رم

حتى استهل وقلبي بالشرام رمي

كما يبلغ عدد أبيات القصيدة الثانية واحدا وعشرين بيتا ، وأولها (٣) :

بديع مطلع حسن المفرد الملمم

براعة تستهل الدمع في الملمم

ويبدو - أيضا - أن الدرويش تأثر في مطلعها هذا ، ببديعية ابن
حجة الحموي (٤) الذي يقول في مطلعها (٥) :

لن في ابتداء مدحك يا عريذي سلم

براعة تستهل الدمع في الملمم

فواضح أن الشطر الثاني من المطلعين واحد ، مما يقوى فكرة تأثر
الدرويش بابن حجة في مطلع قصيدته ، كما أن في هذه البديعية دليلا
على أن الشاعر قد نظر إلى البردة عند نظمها ، ومن ذلك تأثره في
قوله (٦) :

يا عادلي قسا فيما تضمنه . . . (إن المحب عن العذال في صم)
بقول البوصيري (٧) :

محبتي النصح لكن لست أسحمه

إن المحب عن العذال في صم

-
- | | |
|----------------------------------|----------------------------------|
| (١) انظر ص ٢٢٢ من هذه الرسالة . | (٧) ديوانه ص ٤٠ وما بعدها |
| (٢) المرجع السابق ص ٥٠ وما بعدها | (٤) سبق التحريف به في هامش ص ٢٢٦ |
| (٣) من هذه الرسالة . | (٥) المرجع السابق الصفحة نفسها . |
| (٦) ديوانه ص ٥٠ وما بعدها | (٦) انظر ص ٩٥ من هذه الرسالة . |

فواضح - أيضا - أن الشطر الثاني من البيتين واحد ، ما يؤكد
نظر الدرويش إلى برودة البوصيري .

أما القصيدة الثالثة ، فهي التي تمد من ممارضات البردة ، وتبلغ
أبياتها : خمسة وخمسين بيتا ، ولقد نظمها الشاعر بمناسبة المولد النبوي
الشريف - على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى السلام - وذلك في عام : ١٢٦٧ هـ
الموافق عام ١٨٥١ م .

ولقد نهج الشاعر في قصيدته نهج البوصيري في بردته ، فبدأها
بالنزل وهو غزل تقليدي ، تبدو عليه آثار الصنعة ، وعلامات المحاكاة - ثم
انتقل إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ببعض الصفات التي مدحها
بها سابقوه ، وهوج إلى الحديث عن بعض معجزات النبي (عليه الصلاة والسلام)
كما أشار إلى بعض الحوادث التي وقعت إبان مولده الشريف ، ثم انتقل
إلى الحديث عن هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصحبة أبي بكر (رضى
الله عنه) للرسول في تلك الهجرة ، واستطرد إلى الحديث عن بعض الصحابة
الكرام (رضى الله عنهم) مبيئا بعض مآثرهم .

ولم ينسى الشاعر أن يشير إلى حاكم البلاد في ذلك الوقت وهو (عباس)
- الذي عرف الشاعر بأنه شاعره - فدعاه بالنصر جزاء خفاوته بمولد الرسول
(صلى الله عليه وسلم) ثم يعود الشاعر إلى بيان فضل الرسول (صلى الله عليه
وسلم) على كل خلق الله .

وأخيرا يتصنى قبول قصيدته ، مشيرا إلى ما ناله قصيدة البوصيري من رفعة
شأن ، وعلو قدر ، وهي أثناء ذلك يحترف بأنه قد حاكها ، ونظم على منوالها .
تلك هي أهم الأذكار التي تضمنتها قصيدة الدرويش ، وسوق أقف ممها
بالدراسة والتحليل ، لأبين إلى أي حد يصور الشاعر عصره الجديد نسي
تلك القصيدة ، وإلى أي مدى تأثر في نظمها بالبردة .
ولقد بدأ الشاعر قصيدته بالنزل - كما بدأ البوصيري - بردت

نقال (١) :

يا مولدا هلّ بالأنوار في الحرم
منى سلاما على أقطار (ذى سلم)
سلبت نى أرضها على يساكبها
وهل يضام نزيل نى حوى (إضم) (٢)
وقد هوى بى الهوى بالهدى بمدهم
من بقدهم وبع أجفانى ومدهم (٣)

يشير الشاعر إلى مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وما صاحبه من أنوار
ساطعة ، فى تلك الأماكن الظاهرة التى يحبها ، وحب ساكبها ، ولذلك فهو
يرسل سلامه إلى أقطار (ذى سلم) الذين أغرم بحبهم غراما شديدا ، سلب
عقله ، وشتت فكره ، وأسكب دمه ، وخاصة بمد بمدهم الحميد ، الذى جعل
شوقه إليهم يكسر وزيد .

ولقد بدأ الشاعر عبارته فى البيت الأول بهذا النداء (يا مولدا) ولكنه
لم يقصد النداء حقيقة ، وإنما جرى على عادة العرب الذين كانوا إذا أرادوا
التعجب من أمر عظيم نادوه ، ونزلوه منزلة من يحقل وينادى ، وفى ذلك تشخيص
وايحاء بحظمة النادى الذى اكتسب هذا الفخر ، وتلك المكانة من مكانة
من ولد فيه ، ويؤكد ذلك أن الشاعر أتى به منكرا وتونا ، أضف إلى ذلك
أن لفظ (الأنوار) زاد المعنى وضوحا وضياء ، وألقى على المطلع بها ، وخاصة
أنه جمع ، فهو نور على نور .

إن الشاعر قد تأثر فى مطلع قصيدته ببردة البوصيرى ، وآية ذلك أن
البوصيرى قال : (٠٠) جيران بذى سلم (٤) ، فتابعه الدرويش قائلا : (أقطار ذى
سلم) ، ولكنه أرسل إليهم سلامه ، وليس سلام الأحباب كسلام غيرهم ، وإنما هو

(١) ديوانه ص ٢٥٧ .

(٢) نزيل : المراد ضيف .

(٣) وبع : كلمة تدل على الرحمة بخلاف (ويل) فهى كلمة تدل على المذابح وقيل
: عما بمعنى واحد .

(٤) انظر ص ٨٢ من هذه الرسالة .

سلام حار ، ولعل ما يشير إلى ذلك تقديم الجار والمجرور (فى) وتشكير لفظ (سلاما) .

وإذا تأملت قوله: (وهل يضام نزيل فى حوى إضم) وجدت المسألة يدل على الاستعطاف والاسترحام ، كما أنه بنى الفعل (يضام) للجيبسول حتى لا يذكر اسم أحبائه ، بل ستره وكتمه ، وأطلق على نفسه لفظ (نزيل) وفى ذلك إشارة إلى فقره ، وحاجته إلى ذلك الحى (حوى إضم) ، وهو يتبع الهمصيرى فى ذكره لفظ (إضم) (١) .

ولما كان حب الشاعر هذا لأماكن الظاهرة ، وساكنتها الكرام حبا جماعيا قد أثر فيه تأثيرا كبيرا ، فاشتد ألمه ، وغزير دمه عندما يحُد عنهم ، ولعل فى الفصل (هوى) ما يدل على قوة ذلك الحب ، وشدة ذلك الوجد ، الذى أثر فى الشاعر وأضعفه ، ويؤكد ذلك قوله : (ويح أجفانى) . ففيه إشارة إلى غزارة دمه ، وكثرة بكائه .

ويبدو أن الشاعر أفرغ بالمحسنات البديعية غراما قارب غرامه بأحبائه ، فأكثر منها كثرة أثقلت الصنى ، وأذهب رواء اللفظ ، ومن ذلك : المناسبة بين قوله : (هل) ، والأنوار ، وأقمار) والجناس فى قوله : (يضام وإضم) وقوله : (هوى) ، والهوى) وقوله : (بالهمد ، ومحمد) .

ثم ينتقل الشاعر فجأة إلى الخرض الأساسى من القصيدة وهو مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول (٢) :

لمهجتى نعمة فى طيبة شفقت
إمام كل رسول عند بارئهم
فمهبل تطيب بأرضى الخلق للذم (٣)
مبرا لا تباريه ذور المصمم (٤)

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٢) ديوانه ص ٢٥٧ .

(٣) مهجتى : المراد روحى . (فى) بمعنى (مع) ، وطيبة : اسم من أسماء المدينة المنورة .

(٤) لا تباريه : المراد لا تحايله ، ذور المصمم : أى أصحاب المصمة ، والمراد بهم الرسل (عليهم الصلاة والسلام) .

نعم: إن لي عهداً مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وهو أفضل من
نفسى بعهدته ، إذ هو أفضل رسل الله ، خلقه الله طاهراً من كل
عيب ، ومبرأ من كل شين .

ويدو أن الشاعر تأثر في البيت الأول بقول الهجيري (١) :

فإن لي ذمّة منه بتسميتي محمداً

وعنو أوفى الخلق بالذم

ولكن لما كان اسمه : (السيد على الدرويش) ولم تنفعه الذمة - أي العهد
- من جهة التسمية ، ألح الشاعر إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) :
" البرء مع من أحب " (٢) وقد ذلك ذمة وعهداً مع الرسول (صلى الله عليه
وسلم) ، فمدح الرسول ليدل على حبه إياه ، وحق له أن يهنا بهذا العهد
؛ لأنه عهد مع (أوفى الخلق بالذم) - صلى الله عليه وسلم - ومع إمام
الرسول (عليهم السلام) الذين لا يبارونه في حسن خلقه ، وعظيم شاكلته .

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (لمهجيتي) مجازاً مرسلًا - علاقته
الجزئية - وهو يوحى بأهمية ذلك الجزء في جسم الإنسان - كما أن في تفكير
(ذمة) ما يوحى بحظمتها من جهة ، وشدة أمل الشاعر ، وحسن ظنه من جهة
ثانية ، أضف إلى ذلك أن في قوله : (في طيبة) إيجازاً بالحذف ، والأصل
: (في ساكن طيبة) مثلاً ، كأن الحكمة نفسها قد اكتسبت عظمة وفضلاً
من عظمة وفضل ساكنها (عليه الصلاة والسلام) ، ويصح أن يكون في العبارة
- أيضاً - مجاز مرسل ، علاقته المحلية .

وفي سؤاله : (هل تطيب بأوفى الخلق للذم) اطمئنان لنفسه ، وتسكين
لقلبه ، إلا أن الشاعر - كمهده - لم ينس الإكثار من المحسنات البهيمية
مثل : الجناس الشبيه بالمشتق في قوله : (طيبة وتطيب) وقوله : (بارى ومبرأ) ،
والتكرار في قوله : (ذمة والذم) .

(١) انظر ص ٢٠٤ من هذه الرسالة .

(٢) صحيح مسلم ص ٤٩٤ .

ويواصل الشاعر مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (١) :

سر الحدوث ، ومولى من له قدم

صدق ، ومادحه الموصوف بالقدم (٢)

فترك مدحى له مدح ، وعمل قلبي

ونوني في الوصف تحكى (ن والقلم) (٣)

نلم يبالغ بما أشق إلا له بســـــــــ

عليه ، كيف نوفيـــــــــه بمنقظم

ي مدح الدرويش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأنه سر حدوث هذا العالم ، وهو السبب في خلق الدنيا ، وسيد المؤمنين ، وصاحب الفضل عليهم ، مدحه ربه جل وعلا ، فما قيمة مدحى إياه ولذلك فإن ترك مدحى إياه (صلى الله عليه وسلم) هو في الحقيقة مدح له ، لأنه لا يمدح العظيم ويوفيه حقه إلا من عرف قدره ، ولا يعرف قدر النبي (صلى الله عليه وسلم) إلا خالقه ، وإذا كان الخالق العظيم قد مدحه (صلى الله عليه وسلم) ، فكيف لمخلوق مثل أن يوفيه حقه من المدح والثناء ؟

ولقد تأثر الشاعر في هذه الأوصاف بالبوصيري ، لأن في قوله : (سر الحدوث) إشارة إلى قول البوصيري : (لولاه لم تخرج الدنيا من العدم) (٤) كما أن قوله : (ومادحه الموصوف بالقدم) ، وهو الله سبحانه وتعالى ، مأخوذ من قول البوصيري عند حديثه عن آيات القرآن : (. . . قديمة صفة الموصوف بالقدم) (٥) أضف إلى ذلك أن قوله : (مولى من له قدم صدق) - أي سيد المؤمنين ، وصاحب الفضل العظيم عليهم ، لأنه كان سببا في هدايتهم - فيه تلحیح إلى قوله تعالى :

(١) ديوانه ص ٢٥٧ .

(٢) قدم صدق : المراد سابقة فضل ، ومنزلة رقيقة ، وسميت (قدما) لأن السمن إلى الفضائل يكون غالبا بالقدم ، كما سميت النعمة يدا ، وإضافتها إلى الصدق لتحققها .

(٣) نوني : المراد محبرتي .

(٤) انظر ص ١١٨ من هذه الرسالة .

(٥) المرجع السابق ص ١٦٠ .

.. وَخَيْرَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ .. الآية (١) وهذا وصف جديد لم يذهب إليه البصيري ، وإن كان قد ذهب إلى مثله بقوله : (محمد سيد الكونين .. البيت) .

وإذا تأملت قول الشاعر : (فترك مدحى له مدح ..) وجدته يشير إلى عجزه عن مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) مدحا يلقى بمكانته ، ولا يخفى أن في تنكير لفظ (مدح) ما يدل على التعظيم ، كما أن الاستهزام في قسوسك : (وهن قلمى ونونى ..) يؤكد عجزه ويقرر اعترافه بفضيل الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي أشار إليه القرآن الكريم في سورة (القلم) والشاعر يلجأ بذلك إلى قوله تعالى : " وَأَنْتَ لَقَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ " (٢) . ولقد أكد الشاعر فضل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في البيت الثالث ذاكرا أن الله تعالى لم يبالغ فيما أثنى به على نبيه (عليه الصلاة والسلام) وحسى الاستهزام : (كيف نوفيه بمنظم) إقرار بحظمة مكانة الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وعلو شأنه ، وارتفاع قدره ، واعتراف بحجز الشمره عن المدح اللائق بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وهذه شهادة شاعر مثلمهم ، ولذلك عبر بقوله : (نوفيه) أي بصيغة المتكلمين ، ولم يقل : (أوفيه) حتى لا يوهم أن غيره في إمكانه ذلك ، ولكنه رفع ذلك الإيهام ، بحجزهم جميعا عن بلوغ ذلك الأمر .

ولم ينس الشاعر أن يضمن عبارته بعض المحسنات البديعية مثل : الطباق بين (الحدوث والقدم) ، والتكرار في (مدحى ومدح) ، والجناس في قوله : (قلمى ونونى) و (ن والقلم) .

ومهما يكن من شيء فإن الشاعر يؤكد فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : (٣)

وأن لولاه لم تخلق ملائكة .. ولا الحجاب الذي عند المروج روي
يكنى السموات تشريفا بوطئته .. والأبيض جبريل فيها جملة الخدم

(١) نونى / ٢٠

(٢) القلم : ٤

(٣) ديوانه ص ٢٥٧

يشير الشاعر إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان سبها في خلق
الملائكة ولم أقف على نص يؤيد ذلك ، ويمكن أن يكون من قبيل ذكر الخاص
بعد العام ، بالنسبة إلى قوله سابقا : (سر الحدوث) .

ولا يخفى أن في بناء الفصل (تخلق) للمجهول إشارة إلى أن الفاعل
هو الله (سبحانه وتعالى) معلوم غير مجهول ، كما أن في تكبير (ملائكة)
ما يدل على المصوم .

وإذا تأملت قول الشاعر : (ولا الحجاب السدى عند المروج رُميسى)
وجدته يشير إلى معراج الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولكنه في تلك الإشارة
كان موجزا بدرجة كبيرة لم تتناسب مع مقام المدح ، إذ كل ما ذكره هو
أن من فضل الله على رسوله ليلة المعراج أن رفع الحجاب بينه وبينه (١) ،
ولعله يلح بذلك إلى قوله تعالى : " مَا كَذَّبَ الْفَوَادُ مَا رَأَى (٧) " .

وأين هذه الإشارة من إشارة البوصيري إلى تلك المعجزة العظيمة (٢) ،
وإذا قارنت بين الشاعرين وجدت الفرق كبيرا ، والبهن شاسعا ، كما أن في
قول الدرويش : (رعى) ما يوحى بالغلظة التي لا تناسب المقام ، ولو قسنا
(رفع) مثلا لكان أنضل ، ويبدو أنه أتى بذلك اللفظ لضرورة القافية .

ولقد ذكر الشاعر - في البيت الثاني - أن السموات قد شرفت بالرسول
(صلى الله عليه وسلم) في لولة المعراج ، وشاركتها الأرض في ذلك الشرف العظيم ،
ويبدو أنه يشير إلى الإسراء من بحمد ، بذكره لفظ (الأرض) ، كما ذكر
الشاعر أن جبريل (عليه السلام) كان مصاحبا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فهل
كان من جملة خدمه في تلك الليلة ، ولعله يلح بذلك إلى ما أشارت إليه بعض
الأحاديث من أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يسأل جبريل (عليه السلام)
عن بعض المشاعد ، ويحييه جبريل عنها (٣) .

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ج ٥ ص ٩٠ .

(٢) النجم : ١١ .

(٣) انظر ص ١٧٢ وما بعدها من هذه الرسالة .

(٤) تفسير القرآن العظيم ج ٥ ص ٢١ .

ويبدو أن الشاعر قد تأثر في عبارته بما شاهده في قصر هسان في
عهدده، من خدم وحشم، فأتى بلفظي (تشریف) والخدم) .

ولا يخفى أن في قوله: (السموات والأرض) طبائفاً أفاد الشمول والعموم ، إلا
أن كلمة (جملة) غير محبوبة في الشعر .

ولقد انتقل الشاعر بمد ذلك إلى الحديث عن مولد الرسول (صلى الله
عليه وسلم) وما صاحبه من حوادث ، إلا أن هذا الحديث يدل على أن الشاعر
لم يرتب أفكاره على حسب وقوع الحوادث تاريخياً ، إذ تكلم سابقاً على الإسراء
والمصراع ، وهنا يتكلم على المولد النبوي بقوله (١) :

تكون الكون نورا عند مولسده

كأنه - الآن - موجود من المدم

وكان يوم استضاء الكون وهو دجسى

بدرا بدا ، أو نسيماً دبت في النسم

كيف استتارت قصر الشام إذ خمدت

نار المجوس ، وبالنار الفولظى

فلمنح النار ذوا إيوان إذ طفقت

بما ، ساوة إن ينفج على فسر

فكسر إيوان كسرى مقصر أمــــ

من قيصر في بني التثليث والصنم (٢)

فلا سرير وما اهتزت قوائمــــ

ولا أمير وما تلقاه ذا وجــــ

وفي هذه الأبيات يشير الشاعر إلى أن الكون - عندما ولد الرسول
(صلى الله عليه وسلم) - قد شخ فيه التبر ، وتأدلاً الضياء ، فأصبح كأنه مخلوق
الآن من المدم ، ولم يدنس بالضلالات ، أو يكدر بالظلمات والجهالات ، ولقد
كان في هذا اليوم كأنه بدر كمل ضوءه ، وعظم ضياؤه ، أو كأنه نسيم عيسل
أعاد الحياة إلى النفوس .

_____ (١) ديوانه ص ٢٥٧ .

(٢) قيصر : لفظ يطلق على كل ملك من ملوك الروم . بني التثليث : الذين يقولون إن
الله ثالث ثلاثة [١١١] - وقد كذبوا - (انظر هامش ص ١٢٦ من هــــ
الرسالة)

ولا يخفى أن البيت الأول قد أثقله الشاعر بتكرار حرف الكاف ثلاث مرات في ثلاث كلمات متقاربة: (تَكُون ، الكون ، كأنه) ، إلا أنه أتى بطباق في قوله: (موجود - و المدم) وضع أثر هذا المولود (صلى الله عليه وسلم) وما صاحبه من نور انشهر ، وضياء عم وكثر .

وفي البيت الثاني أراد الشاعر أن يبين حالة الكون عندما استضاء بهذا النور الماطع الذي يشبه نور البدر ، كما أكد أثر ذلك النور في الكون بقوله: (وهو دجى) - فكان الكون مظلما - وإذا نور البدر ينلأه أو كأنه كان نسيما - هواً أو روحاً - حلّ في الجسم، نرد عليه عانيته أو حياته ، ويبدو أن الشاعر يقصد (بالبدر والنسيم) الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولا يخفى ما في التشبيه من بيان أثر الرسول وفضله ، كما لا يخفى أثر تكرار حرف السين في قوله: (نسيما - النسيم) من وقع موسيقى ، بالإضافة إلى أن في اللفظين جناساً شبيهاً بالمشتق ، وإن كانت كلمة (دجى) غير شاعرية .

وتساءل الشاعر - في البيت الثالث - ضمجباً : كيف أضأت قصور الشام ، وخذت نار السجوس ، فهما أمران متضادان ، وهذا صدر التمجيب - وإذا كان الجوى قد سبق الدرويش في الإشارة إلى نار السجوس التي خدعت وإلى النهر الذي غاض ساومه (١) ، فإن الدرويش قد زلّ عليه الإشارة إلى قصر الشام التي أنيرت ، ولملح يلمح بذلك إلى ما روى أن أم الرسول (صلى الله عليه وسلم) - السيدة آمنه (٢) قالت : " لما ولدته - الرسول (صلى الله عليه وسلم) - خرج معه نور أضأت له قصر الشام . . . (٣) " .

وإذا تأملت قول الشاعر : (فلينفخ النار ذو الإيوان) وجدته يمشى بالاستهزاء والصخرية من السجوس وكأنه يقول لهم : إن كنتم أولى قوة ، وأولى بأس شديد

(١) انظر ص ١٣٥ من هذه الرسالة .

(٢) هي السيدة : آمنه بنت وهيب بن عبد مناف توفيت سنة ٥٧٥ هـ وقيل غير ذلك للأعلام

ج ١ ص ١٩ .

(٣) طبقات ابن سعد ج ١ ق ١ ص ٦٣ .

فانفخوا ناركم التي أطفئت • وأوقدوا شعلتها التي أخمدهت • ولكن ههنا أن يفتح
نفخكم • لأنكم لا تنفخون على ضرر • بل تنفخون على نعم شرب من ماء • ساوة •
ثم يشير إلى نكتة لطيفة • لم يشر إليها البوصيري • وهي : إن كسر إيوان
كسرى ويصعد بعض شرفاته قد قصر أمل قيصر في أن يظل بنو التتليق مواليين
له • هم والذين يهدون الأصنام •

ويبدو أن الشاعر أراد أن يشير إلى أن أثر المولد كان عظيما فسمى
الجمادات فقال • (فلا سهر وما انتزت قوائمه) ، والمراد هنا بالسهر سريسر
الملك • وكذلك كان أثر المولد عظيما في الإنسان فقال • (ولا أمير وما تلقاه
ذا وجم) • ولعل الشاعر يلمح بذلك إلى ما روي عن ابن عباس أنه قال : " كان
من دلالة حمل أمية برسول الله (صلى الله عليه وسلم) • أنه لم يبق سريسر
ملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوسا " (١) •

ولقد اشتمل البيت الأخير على بعض المحسنات الهمجية التي زادت الوقع
الموسيقى للأبيات • ومن ذلك: التكرار في (نار والنار) والجناس الشبيه بالمشق
بين (كسر وكسرى) ، وبين (مقصر وقيصر) • كما لا يخفى أثر تكرار النفي الداخل
على النكرة في قوله : (فلا سهر • • ولا أمير) • ففيه دلالة على العموم والشمول
وذلك يقوى الفكرة ويؤكدها •

وواصل الشاعر حديثه عن أثر مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (٢) •
والكفر بات على حال يسا • به • • والجلم بالحق يشراه على العلم
إن كل عجا • يوم الوضع ناطقة • • وكل ناطقة بالكفر في بكـ
قل للمهود • يهودوا • والنصاري فما
نصرتما • لوئد اعينا إلى حكـ
وأي • أرى يخوضوا في بحيرتها •
لا في بحور لها بر • ندى سلـ

(١) شرح الزقاني على المواهب ج ١ ص ١٠٨

(٢) ديوانه ص ٢٥٧ •

يذكر الشاعر أن من آثار مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) : أن الكسبر قد ساءت حالته ، وأن الحق قد شاع خبره ، ولا أدل على ذلك من نطق الصجوات بعبء ، وسكوت أهل الضلال وانصرافهم عنه ، ههنا وههنا .

ولقد جرد الشاعر من نفسه شخصا يأمره بأن ينصح اليهود والنصارى بأن يرجعوا عن عنادهم ، وأن يتركوا الخوض في أمر هذا النبي الكريم ، فهو بر الأمان لمن اتبعه .

وإذا تأملت قول الشاعر : (والكفريات) . وجدته قد أسند الفمـسـل (بات) إلى ضمير الكفر ، وفي هذا الإسناد مجاز عقلي أفاد التشخيص ، وإذا كان هذا شأن الأمر المعنوي - الكفر - فما بالك بأهله ، لا شك في أنهم سيكونون أشد سوءا منه ، ولعل في تفكير لفظ (حال) ما يوجي إلى قبضه ، ورؤيته ذلك وصفه بقوله : (يساء به) كما أن في قول الدرويش : (والملهم بالحق) . ما يدل على أن الحق قد ذاع وشاع ، لأن ما يكون على العلم - الجبل - يراه كسل إنسان - ظلها - .

وفي البيت الثاني توضيح وتأكيد لما أجمله في البيت الأول ، لأن نطق الحيوانات يدل على ابتهاجها وسرورها بمولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، بخلاف أصحاب الكفر فقد خرسوا من شدة حزنهم ، ولعل الشاعر يلجأ إلى ما روى عن ابن عباس (رضى الله عنهما) " أن كل دابة - بقرش - نطقت وقالت : حيل برسول الله وبالكعبة ، وهو إمام الدنيا وسراج أهلها . . . (١) إلا أن هذا الخبر - على ما فيه من ضعف - يشير إلى الحمل لا إلى المولود ، ويحتمل أن في عبارة الشاعر : (إن كل عجماء يوم الوضع ناطقة) إشارة إلى أن هذا المولد كان عظيم الأثر ، ولو فرض أن طلب من العجاوات أن تشهد بذلك لشهدت .

وكان قول الشاعر : (وكل ناطقة بالكفر في بكم) تهيدا للانتقال إلى نصحت اليهود والنصارى حتى يرجعوا إلى الحق الذي ظهر ، ويتركوا الجدل الذي

(١) شرح الزرقاني على المواهب ج ١ ص ١٠٨ .

لا طائل تحته ، ولا فائدة منه ، ويبدو أن أراد بقوله : (يَرْبُذِي مُلْسِم)
الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، إذ لا شك في أن الرسول بر الأمان لمن
آمن به ، واتبج النور الذي أنزل معه ، ولا يخفى أن الفاظ الشاعر سهلة
واضحة ، وإن أثقلها بالمحسنات البديعية مثل : الجناس المحرف بين :
(العلم - بكسر العين وسكون اللام - والعلم - بفتح العين واللام) والتكرار
في قوله : (ناطقة) ، والطباق في قوله : (ناطقة ومكم) ، والجناس المشفق
في قوله : (يهود - ويهودوا) ، وقوله : (نصارى - نصر) ، وقوله : (بحيرة
وحور) ، والمناسبة بين قوله : (بحور هر) :

ويواصل الشاعر حديثه عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (١) :

محمد روح عيسى وهو جنته ••• تكلمت عن كليم فيه بالعظم
أحيا النفوس ، وحو الجسم بشرنا

بأن ذا رؤية خير من الكلم

إن ينكروا وصفه شالت نعماتهم

فإنها نَحْمٌ تخفى على النعم

أنار ظلمة دنيانا بضرتهما ••• وجاز فيها جواز الهر في العقم

أشار الدرويش في تلك الأبيات إلى أنه لا يجوز الإيمان برسول ، والتكسر
بآخر ، لأنهم كلهم رسل الله ، اصطفاهم لتبليغ شرائعه إلى الناس ، ثم تحدث
عن هؤلاء النصارى الذين ينكرون رسالة رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم)
مبيناً أنهم لم يتدبروا أمرها بحقولهم ، بل جانبوا الصواب ، إذ كيف تجسد
رسالة نبي كان صحت صاحبها رحمة مهداة ونعمة موهبة ، فأناز الدنيا - بالإيمان
- بحد طول ظلام - بالكفر - ونشر الإسلام ، إذ تطهر الدنيا من أفساسها
، كما يظهر الشفاء الأجسام المقيمة من عليها .

(١) ديوانه ص ٢٥٨ . (٢) : شالت نعماتهم : طاشت عقولهم
فهمسروا ، (نعم) - بكسر فتح - جمع نعمة - بكسر فسكون -
مصرفه المعنى (النعم) بفتح النون والميم - واحد الأنعام .

وإذا تأملت قول الشاعر : (محمد روح عيسى وهو جنته) وجدته يشير إلى مدى الصلة القوية بين رسول الله عيسى (عليه السلام) ورسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم)، ولعله يلج إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : * أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة * والأنبياء إخوة لعلات * أمهاتهم شتى * ودينهم واحد (١) * .

وفي قوله : (أحياء النفوس) كناية لطيفة تشير إلى إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان كما أن قوله : (شالت نحامتهم) يدل على أن هؤلاء المنكرين لم يتدبروا عظمة رسالة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) التي اشتملت على فضائل عظيمة تخفى قيمتها (على الأنعام) إذ لا عقل لها * وفي ذلك تعريض بهؤلاء المنكرين * ولا يخفى أن الشاعر قد تأثر في وصف الآخرة بأنبياء (عرة الدنيا) * بأقوال من صحتهم بين السمرات * وبخاصة قول البوصيري : (فإن من جودك الدنيا وضرتها) (١) * كما أن في قوله : (وجاز فيها جواز البرء في السم) تشبيها لطيفا بين أثر الإسلام وبركده * .

ولقد أثقل الشاعر عبارته بالإكثار من المحسنات البديعية مثل : الطباق في قوله : (روح وجنة) و (البرء والمسم) و (أنار وظلمة) والجناس المشتق في قوله : (تكلمت وكليم) و (أحياء ومحيى) والجناس المحرف في قوله : (نعم ونعم) * .

وانقل الشاعر إلى الحديث عن شجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (٢) :

سلوا الحمام على ما قال صاحبه

وصاحب الغار والأعداء كالرخم

(١) صحيح البخاري ج ٤ ص ٢٠٣ .

(٢) انظر ص ٢٠٨ من هذه الرسالة .

(٣) ديوانه ص ٢٥٨ .

أصمهم عن حديثه لو نظروا
برق وحقه فأعشى القلب نفس صم
فالجار والشار والمطلوب عنده غسدا
كالشم لم يدرك المعنى من الكلم
يكاد يخبره من إضاحه . . . به . . . وعمل أنجم تهدي الطريق

في هذه الأبيات يشير الشاعر إلى مشهود من مشاهد شجرة الرسول
(صلى الله عليه وسلم) وهو : نداء اللحظة التي قال فيها أبو بكر (رضي
الله عنه) للرسول (صلى الله عليه وسلم) - وهما في الشار - : " لو نظروا
أحدكم - الكفار - إلى موضع قدمه لرآنا " فقال له الرسول : - بثقصة
وأطمئنان - " ما ظنك باتيين الله ثالثهما " لا تحزن إن الله معنا " (١) .
وفملا أعشى الله أبصار هؤلاء الكفار فرجعوا إلى ديارهم يجرون ثوب الخزي
والمار .

وإذا تأملت قول الشاعر : (سلوا الحمام . . .) وجدته يتهمكم بهؤلاء الكفار
لأنه يحلم أنهم لن يسألوه ، وإذا سألوه - فرضا - فلن يرد عليهم ، ولكن
نزل منزلة من يحقل وسأل ، ومعلوم أن حماقتين قد وقعتا على باب الشار بعد
دخول الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما ذكرت ذلك بعض كتب السيرة (٢) .

ولا يخفى ما في اختيار الشاعر اسم الموصول (ما) من تشبهه ونظمه ، ولم
يذكر الشاعر اسم أبي بكر صريحا بل قال : (صاحبه) ليسجل له شرف الصفة
كما سجلها القرآن الكريم من قبل في قوله تعالى : " إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ
إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا . . . الآية (٣) " .

ولقد شبه الشاعر الكفار بالطيور التي تنقض على قرينتها - (. . . والأعداء
كالرخم) - إشارة إلى نفاذهم وظلمتهم ، كما عبر عنهم بالأعداء تشبيها
عليهم .

(١) انظر ص ١٤٢ من هذه الرسالة .

(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٣) النوبة / ٤٠ .

والمعجيب أن هؤلاء الكفار - على الرغم من قربهم من باب النار - لم يسمعوا حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع أبي بكر، ولقد بين الشاعر علة عدم سماعهم هذا الحديث بقوله: (برق وحق)، وأراد بالبرق نور الرسول (صلى الله عليه وسلم) والحق حق هؤلاء الكفار، ثم أكد ذلك بهذه الكلمة الصادقة: (أعى القلبنى صم)، ولا يخفى أن الشاعر قد أكد ما ذكره في البيت التالي بقوله: (فالجار والنار)، إذ أشار إلى جهل هؤلاء الأعداء وأكد به هذا التشبيه (كالضمر) .

وأراد الشاعر أن يشير إلى شدة نور الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو في النار فذكر أن النار كاد يخبر عن وجود الرسول بداخله: (يكاد يخبر عنه) . وبدوا أن الشاعر أراد أن يؤكد نور الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهدايته للناس بقوله: (وهل أنجم تهدي الطريق عى)، كما أراد السخرية من هؤلاء الكفار الذين عموا عن ذلك النور .

إن الشاعر قد اكتفى بالحديث عن النار والحمام، وهو متأثر في ذلك بالبوصيري (١) .

وبدوا أن الشاعر بعدما ذكر صحة أبي بكر للرسول (صلى الله عليه وسلم) عرج إلى الحديث عن بعض الصحابة فقال (٢) :

والفاتح الدين والدنيا الفتى عمر . . . أمر بحبك فيه القلب، تستقم (٣)
حيا الحيا، مصرع الحى الشهيد ندى

مجهز الجيش ذى النورين والكرم (٤)
وأعل بيت عن الدنيا قد ارتقموا

(تحت العياة) فوق الناس كلهم)

(١) انظر ص ١٤٥ من هذه الرسالة .

(٢) ديوانه ص ٢٥٨ .

(٣) المراد بحمر: أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقد سبق التصريف به في شامري ص ١١٢ من هذه الرسالة .

(٤) المراد بذي النورين: أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنه) انظر المرجع السابق هامش ص ٢١ .

باب المدينة حاض البيت صاحبها

لبيت إله وعلين الجاه والشيم

في هذه الأبيات يمدح الشاعر بعض أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) في البيت الأول مدح أمير المؤمنين : عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بأن الله قد فتح على يديه كثيرا من البلاد ، فانسجت في يده رقعة الدولة الإسلامية ، ولا شك في أن هذا فتح للدين ، كما تم الرخاء في عهده بحسن سياسته وهداه ، وهذا فتح للدنيا ^(١) ، كما أشار الشاعر إلى شجاعته بقوله : (الفتى عمر) ، ولعله تأثر في ذلك بقوله تعالى عن أهل الكهف : (إِنَّهُمْ لِقَوْمٌ أَتَوْا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) ^(٢) ، ولا شك في أن من يجسب بذلك الصحابي الجليل فليقتف أثره فليدفعه ذلك إلى الامتقانة وحسن العمل .

وفي البيت الثاني مدح الشاعر أمير المؤمنين : عثمان بن عفان (رضي الله عنه) بما كان فيه من خصال حميدة مثل شدة الحياء ، وفي ذلك إلماع إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) عنه : " إِنْ عُثَانَ رَجُلٌ حَيٌّ " ^(٣) - و " تمتحى منه الملائكة " ^(٤) ، كما أشار إلى أنه قد مات شهيدا إنه قتل ظلما ^(٥) ، ولعل قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) - عندما كان واقفا مع أبي بكر و عمر و عثمان على جبل أحد فاهتز الجبل ، فقال له ، اثبت أحد ، فإنما عليك نبى و صديق و شهيدان . ^(٦) لعل ذلك يؤكد ما ذهب إليه الشاعر من أنه صرع شهيدا ، ثم أشار إلى حسن جهاده في سبيل الله بحاله عندما جهز جيش العصرة و تبرع بكثير من ماله ^(٧) ، كما أنه لقب بذي النورين لأنه تزوج بنتي الرسول (صلى الله عليه وسلم) السيدة رقية و محمد و فاتها سنة ٢ هـ ^(٨) تزوج السيدة أم كلثوم (رضي الله عنهما) ولما توفيت سنة ٦ هـ ^(٩) قال له الرسول (صلى الله عليه وسلم) : لو كانت لنا ثلاثة لزوجناك ^(١٠) .

(١) أسد الغابة ج ٤ ص ١٢٠ وما بعدها . (٢) الكهف / ١٣ .
 (٣) صحيح مسلم ج ٥ ص ٢٦٢ . (٤) المرجع السابق . (٥) أسد الغابة ج ٣ ص ٥٩٢ . (٦) المرجع السابق ج ٣ ص ٥٨٨ . (٧) صحيح البخاري ج ٥ ص ١٢ .
 (٨) الأعلام ج ٦ ص ٨٩ . (٩) المرجع السابق .
 (١٠) أسد الغابة ج ٣ ص ٥٨٦ .

وفي البيت الثالث أشار الشاعر إلى أهل بيت النبي (صلى الله عليه وسلم) (١)
ووصفهم بطهارتهم عن الدنيا ، ومدحهم عن النقائص وأكد ذلك قوله : (وأهل
بيت عن الدنيا قد ارتفعوا) ، ولملح يلح بقوله : (تحت العبادة) إلى ما روي
أن السيدة عائشة (رضي الله عنها) قالت : خرج النبي (صلى الله عليه وسلم)
غداة ، وعليه مرط مرحل من شعر أسود ، فجاء الحسن بن علي فأدخله ،
ثم جاء الحسين فدخل معه ، ثم جاءت فاطمة فأدخلها ، ثم جاء علي بن
فأدخله ، ثم قال : " إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا " (٢) .

وفي البيت الرابع انتقل الشاعر إلى مدح أمير المؤمنين : علي بن أبي طالب
(كرم الله وجهه) بسحنة طمحه وذلك في قوله : (باب المدينة) وهو
في هذا يلح إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) " أنا مدينة العلم وعلي
بابها " (٣) . كما أشار إلى شجاعته بقوله : (حامي البيت) ليث الإله
- وإن كان قوله : (ليث الإله) قد عسرف به حمزة بن عبد المطلب (٤)
(رضي الله عنه) ولكن لا مانع من أن يسوق به غيره من شاركه في شجاعته
وكفاحه في سبيل الله - وهذا وأشار إلى رفعة شأن الإمام علي بقوله : (علي
الجاه والشيم) .

ثم انتقل الشاعر إلى مدح السيدة فاطمة وولديها : الإمام الحسن والإمام
الحسين (رضي الله عنهما) بقوله (٥)
والبضمة الدرّة الزهراء فاطمة

وصفوة الصفوة الفسراء في العصم (٦)

والنيرين الشهيدين : ابنها حسن

إذ قال للملوك إن السم في الدسم

(١) انظر هامش ص ١٧ من هذه الرسالة .
(٢) صحيح مسلم ج ٥ ص ٢٨٧ ومرط : (يكسر فسكون) كساء من صوف - ومرحل : منقوش .
(٣) أسد الغابة ج ٤ ص ٩١ وما بعدها . (٤) هو حمزة بن عبد المطلب - عم الرسول (صلى
الله عليه وسلم) المعروف بسيد الشهداء - استشهد في غزوة أحد سنة ٣ هـ (المرجع السابق
ج ٢ ص ٥١) (٥) سبق التمر يف بالسيدة فاطمة والإمام الحسين في هامش ص ١٨ من هذه
الرسالة ، أما الإمام الحسن فهو الحسن بن علي بن عبد المطلب جد الرسول (صلى الله
عليه وسلم) مات سنة ٤٩ (٦) ديوانه ص ٢٥٨ . (٧) البضمة : القطعة . الزهراء : المشرقة .

ريحانة ظمئت نيسي كربلا فجزرت

على الحسين عيون المين بالديم^(١)

يزيد نار الأسى و دمع عليه جرى

في يوم أن خضب الريحان بالضم

وصف الشاعر السيدة فاطمة (رضى الله عنها) بأنها درة لامعة وشمس
ساطعة و هي صفوة الصفوة من خلق الله و طهارة و عفة و وجلالا و كمالا و لعله
يلمح بقوله : (البضعة) إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " فاطمة
بضعة مني فمن أغضبها أغضبني " (٢) .

ثم أشار إلى الإمام الحسن والإمام الحسين و وصفهما بأنيهما (تبريدسلسن)
وشهيدين و فاما الإمام الحسن فقد مات مسموما^(٣) و لعله يشير إلى ذلك
بقوله : (إذ قال للملك إن السم في الدسم) ، أو لعله أشار بذلك إلى
تنازله عن الملك حقا لدماء المسلمين^(٤) .

وأما الإمام الحسين فقد مات مقتولا في موقعة (كربلاء) و يبدو أن الشاعر يلمح
بقوله : (ريحانة) إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن الحسن والحسين
: " هما ريحانتاي من الدنيا " (٥) كما يشير بقوله : (ظمئت) إلى
ما روي أن الإمام الحسين قتل وهو ظمآن يطلب الماء و ولكنه منع عنه^(٦) ولا شك

= الوجه و وقيل : سميت بذلك لأنها لم تحض و إذا ولدت طهنت سرت بعد ساعة
فلم تفتحها صلاة و انظر يوسف التبهاني : الشرف المؤيد لآل محمد ص ١٠٩ مطبعة
الخلي بصر سنة ١٩٦١ .

(١) كربلا : أصلها كربلاء : موضع قرييين الكوفة قتل فيه الإمام الحسين (عجس)
البلدان ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٢) صحيح البخاري ج ٥ ص ٢٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٢٣٢ المطبعة الأزهرية بصر سنة ١٣٠١ هـ .

(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ٢٠٥ وما بعدها .

(٥) صحيح البخاري ج ٥ ص ٣٣ .

(٦) الكامل ج ٤ ص ٣٩ .

في أن قتل الإمام الحسين (رضى الله عنه) قد أبحزن كثيرا من المسلمين - إن لم يكن كلهم - فصالت دموعهم ، بل كما قال الشاعر : (فجرت على الحسين عيون الصين بالدمع) وفي ذلك تأكيد على شدة الحزن ، وهظيم الأسي .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يؤكد مما سبق - من شدة الحزن - فقال : (يزيد نار الأسي ، دمع عليه جرى) إلا أن في ذكره لفظ (يزيد) ما يوحي بالتورية ، إذ فيه إشارة إلى يزيد بن معاوية ^(١) وهو الذي جرت في آياته تلك الحوادث الأليمة .

ولقد اشتعلت العبارة على ما يلهب المشاعر ، ويحرك الإحساس ، مثل قوله : (نار الأسي) ، كما أن تنكير لفظ (دمع) يوحي بفنارته ، ويؤكد ذلك لفظ (جرى) أضف إلى ذلك أن في قوله : (في يوم أن خضب الريحان بالعمم) ما يؤكد شدة الأسي والأسف على هذا الدم الذي أوسق ، وهذا الجسد الشريف الذي امتحن .

ثم طلب الشاعر أن يرضى الله عن العباس بن عبد المطلب ^(٢) وآله بقوله :
وهم عميه عباسا بكل رضى . . . وصفوه وجميع الآل والحشم ^(٣)

وج ظهر ما أرادة الشاعر تبعا لسهولة ألفاظه ، فلمعله أتى بلفظ (الحشم) للوزن ، وقد تأثر في ذكره ببيئة القصر الذي كان يمدح صاحبه وهو : (عباس الأول) ، إذ كان الدرويش شاعره ^(٤) ، ولذلك لم ينس الشاعر أن يشير إليه ويدعوه بقوله : ^(٥)

من عبده الخامس العباس ما ابتسمت

إلا له الواحد العباس في الهم

(١) هو يزيد بن معاوية بن زبدي سفيان - ثاني ملوك بني أمية توفي سنة ٦٤ هـ .

(٢) سبق التحريف به في هامش ص ١٥ من هذه الرسالة .

(٣) ديوانه ص ٢٥٨ ، ورواية الديوان (عميه) بالثنية ، والمعلوم أن الرسول لم يكن له إلا عم واحد مسمى بهذا الاسم ، ولمعله خطأ مطبعي ، والأصل (وهم عمه) ويؤكد ذلك أن الوزن لن يتغير .

(٤) انظر ص ٢٨١ من هذه الرسالة .

(٥) ديوانه ص ٢٥٠ .

إذ زين الدين بالدنيا بدولته

دامت ، وقالت له : هفت فاختم

يارب تكسبه خيرا وتنصروه

بمولد زانه في ذلك الحرم

يمدح الشاعر عباسا الأول بالشجاعة ، وشدة المزيمة ، وقوة الهمة ،
وأشار إلى أنه زين الدين والدنيا بدولته التي مضى في حكم إياها خمس
سنوات ، ثم دعا له بدوام ملكه ، وسأل الله تعالى بأن يرزقه الحبيب وأن
ينصره ، جزاء احتفاله بمولد الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) .

والجدير بالذكر أن الإمام البوصيري في برده قد تحدث عن الصحابة
بمادة ، ولم يشير إلى حاكم عصره ، أما الدررني فقد ذكر بعض الصحابة
بأسماهم ، كما أشار إلى حاكم عصره .

ثم يخاطب الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله (١) :

يا سيد الرسل لي فكر يضيء به

لفظ المحب ضياء البدر في الظلم

يا أكرم الخلق لا مستتريا ملكا -

ومفرق الفرقتين : المرئوب والمجم

هذي قصيدتي ، فإن أقبل فمن كرم

فمن عم غيري ، وإن اردد فواند صي

يخاطب الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مناديا إياه نداء يسدل
على رغبة شأنه ، وطلو قدره (يا سيد الرسل) ، ولا عجب في ذلك فهو سيد
الرسول (عليهم الصلاة والسلام) وهو أكرم الخلق .

ولقد بين الشاعر أن حبه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو الذي ساعده
على نظم تلك الأفكار التي اشتملت عليها تلك القصيدة ، كما أن هذا الحساب

(١) المرجع السابق ص ٢٥٨

هو الذى هداه إلى الخير ، وأكده بهذا التشبيه (٠٠٠ ضياء البسدر
فى الظلم) ، ولا يخفى أن الشاعر قد شبه الممنون بالمحموس ، وفى ذلك
تأكيد وبيان لأثر هذا الحب .

وانتقل الشاعر إلى الإشارة إلى كرم الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى
البيت الثانى ، ثم أكده بقوله : (لا مستنيا ملكا) ولملحه ذكر هذه الصبارة
دفعاً لمن يتوهم أنه أراد بقوله : (يا أكرم الخلق) إلا أن نقطه ، بل نسبو
أكرم المخلوقات كلها إنساناً وجناً وملكاً ، ثم أشار الشاعر إلى أن الرسول (صلى
الله عليه وسلم) خير العرب والمجم بقوله : (مرفوق الفرقتين : العرب والمجم) ،
ولملحه تأثر فى ذلك بقول البوصيرى (١) :

محمد سيد الكونين والثقلين والفرقيين من عرب ومن عجم

ولا شك فى أن قول الشاعر : (مرفوق الفرقتين) بعد قوله : (أكرم
الخلق) إطناب ، من قبيل ذكر الخاص بعد العام ، وهو محمود فى معرض
المدح ، كما أنه نسر الفرقتين بقوله : (العرب والمجم) ومثل هذا يسمى
عند علماء البلاغة (توشهما) وهو محسن بديعى - كما سبقت الإشارة إليه (٢) -
يشير الانتباه ، ويؤكد الفكرة .

وفى البيت الأخير يقدم الشاعر قصيدته إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم)
بتواضع يشير إليه قوله : (هذى قصيدى ٠٠) ثم يوضح أنه إن قبل فمن كرم
الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذى (قد عم غيره) ، وإن لم يقبل فما أظلم
ندمه ، وما أشد حزنه .
فضل البوصيرى وبردته :

ويبدو أن الشاعر أراد أن يوضح المقصود بقوله (فمن كرم قد عم غيره)
وأن يشير إلى فضل البوصيرى وبردته فقال (٣) :

(١) انظر ص ١٢٠ من هذه الرسالة .

(٢) المرجع السابق هامش ص ١٢١ .

(٣) ديوانه ص ٢٥٨ .

يكفي الأباصيري ما نالت قصيدته

من المقاصد في حكم وفي حكم

ببراة أبراته ثم تسقمني

برئت من ألي إن قلت : وا ألي

لها السباق إلى العلياء مسعدة

تلك القصيدة بالإقبال والنم

كأنها حين تجلى في بدائنها

هيفاً تبكي أمانينا بهتس

يا عالم السر من مكون مسمها

ومسيل الستر من شمر على القدم

في هذه الأبيات يذكر الشاعر أن الذي قد عمه كرم الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو البوصيري بسبب قصيدته البردة التي ذاع خيرها وانتشر أمرها ، والتي اشتملت على حكم صادقة ، وأفكار طيبة ، كما أنها كانت سبباً في شفاؤه من مرضه الذي ألم به .

ثم بين الشاعر أن هذه القصيدة - البردة - لها فضل المبسوق إلى المكانة العالية ، والمنزلة الرفيعة ، وبدائنها وروائعها التي تشبه الهيفاً صاحبة الشفر الجميل ، وحين تبكي يزداد جمالها .

إن الذي يعلم سر مسمها ، ومكون أمرها ، هو الله سبحانه وتعالى ، الذي أسبل الستر على عباده ، ولم يكشفه عنهم ، فهذا يدل على قدرته .

ثم يتجلى غرام الشاعر بالمحسنات البديعية ، فيأتي بجناس محرف في قوله : (حكم - بضم فسكون - وحكم - بكسر ففتح) ، وجناس شبهه بالمشتق في قوله : (برأة ، وأبرأت ، وبرئت) ، أضف إلى ذلك الطباق بين قوله : (أبرأت) وقوله : (تسقم) ، والتكرار في لفظ (ألي) .

وينقل الشاعر إلى الاعتراف الصريح بأنه نظر إلى قصيدة البوصيري وحالها ، فقال (١) :

(١) المرجع السابق ص ٢٥٨ وما بعدها .

جرت فؤادي بالحاظ لها قسم
 على الحشا عديها من أحرف القسم
 يزينها بالهدى الإخلاص، عاشقها
 قد حاز معرفة من صاحب العلم
 ليست مثل قصيد من أمير حموي
 إلى فضول بدعوى الفضل متهم
 لكن عنسى المذنب الدرويش يلحظ من
 (أمن تذكر جيران بندي سلم)
 فالهيفاء تتأبى من فضل سيده
 محاكيا ، وأنا حاكيهم بنمسي

يقول الشاعر : إن هذه القصيدة الجميلة قد شدت نظري إليها
 بالحاظها ، ووقع قلبي أسير حبها ، ولعل السر فيما تواترته من مكانة عالمة ،
 هو أن صاحبها قد زينها بإخلاص حبه ، والصدق فيه ، ففتح الله عليه
 ببركة الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

أما قصيدتي فليست مثلها ، ونسيها أن تبلغ مكانتها ، إذ هناك
 فرق كبير بين البوصيري وبينى ، ففضله معروف ، أما أنا فمتطفل على مواعيد
 هؤلاء الكرام - مادحى الرسول بما فيهم البوصيري - فإذا حرمت التسلوب
 بسبب ذنوبي - فعسى أن ينالني بعضه ببركة البوصيري وردته التي حاكيها
 وكان مثلى كمثل الهيفاء الذي يحاكي سيده .

ولعل في أبيات الشاعر ما يشير إشارة واضحة إلى معارضة بردة البوصيري ،
 ويبدو أن سبب تلك المعارضة هو إعجابي بها ، ومحاولة النسخ على موالها ،
 قريبة إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ثم ختم الشاعر قصيدته بما شاع
 في عهده من تاريخ (١) زمن نظم القصيدة ، فقال (٧) :

ختم مولده مسك - مؤرخه
 خير النبيين عزما سيد الأمم
 عليه صل وسلم ربنا ، وعلى
 أصحابه ، وابتداء الحمد مختمسي

(١) التاريخ : - عده بعض الكتاب من المحسنات البديعية - هو أن يأتي الشاعر بكلمة
 أو بكلمات إذ أحسبت حروفها بحساب الجمل بلغت رقم السنة التي قصدها من تاريخ
 هجرة النبي أو التاريخ الميلادي ويصحب ذلك لفظ أرخ أو مؤرخا أو غير ذلك من
 الكلمات المستقاة من (التاريخ) انظر : زهر الربيع ص ٢٦٨ ، تاريخ الأدب الحديث
 ص ١٥ (٧) ديوانه ص ٢٥٩

إن ختام مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) معك - ويبدو أن الشاعر
نظر في ذلك إلى قوله تعالى : " خِتَاهُ بِمَكَ " . (١) - وكيف لا يكسون
كذلك وهو خير النبيين عزما ، وهو سيد الأمم - ومعلوم أن الشاعر قد أتى
بهذا الوصف لتناسب تاريخ نظم القصيدة - الذى أشار إليه بقوله : (مؤرخه) .

وأخيرا يطلب الشاعر - من الله تعالى - أن يطفى ويسلم على الرسول
(صلى الله عليه وسلم) وعلى أصحابه ، وهو فى هذا قد زاد على البوصيرى
الذى اكتفى بالصلاة فقط فى قوله : (وأذن لسحب صلاة منك دأمة
البيت (٢)) .

ثم يشير الدرويش إلى حسن الختام بقوله : (وابتداء الحمد مختصم) .

٢ - معارضة التيمورية :

ولم تقتصر معارضة البردة فى العصر الحديث قبل شوقى - على
معارضة الدرويش ، بل هناك - أيضا - معارضة التيمورية .

والتيمورية هى السيدة : عائشة عصمت بنت إسماعيل تيمور ، ولدت فى
القاهرة سنة ١٨٤٠م وعاشت فى دنيا الناس ما يقرب من أربع وستين عاما ،
إذ توفيت سنة ١٩٠٢ .

وعلى هذا فالشاعرة مصرية الولد والمنشأ والإقامة والوفاة ، وإن كانت
تستمد أصلها من ثلاثة عناصر : الكردى والتركى والجركسى .

فأما أصلها الكردى فيرجع إلى جدها لأبيها " محمد تيمور كاشف "
الذى كان ضابطا فى الجيش وتدرج فى كثير من المناصب إلى أن توفى
سنة ١٢٦٢هـ . وأما أصلها التركى فمرده إلى جدها لأمها " عبد الرحمن
الإسلامبولى " الذى كان من أصحاب الجاه فى عهده ، كما يرجع أصلها
الجركسى إلى أصل والدتها .

(١) المطلفين : ٢٦ .

(٢) انظر ص ٢١٤ من هذه الرسالة .

نشأتها :

ولقد نشأت السيدة : عائشة التيمورية في قصر والدها .. الذي تقلب في مناصب عالية زينا طويلا ، وكان يجهد التحدث والكتابة ، بست لغات ، وهي : التركية والعربية والفارسية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية ، ولعل هذا هو السر في بقاءه مدة طويلة رهما للقلم الإنرجي للديوان الخديوي - وهذا المنصب يعادل الآن منصب (وزير الخارجية) - ولم يقف عند ذلك المنصب ، بل ترقى إلى منصب الرئيس العام للديوان الخديوي (١) .

ومهما يكن من شيء فإن ابنته عائشة قد درجت في عهد الرعصنة والعز ، تكتنفها فخامة القصور ، ويحيط بها زهو الألقاب ، ولكنها أبست أن تحيا حياة فتيات عصرها بنأى عن تثقيف العقل ، وتهذيب النفس ، فشبت نزاعة إلى العلم ، متلهفة على كتب الأدب (٢) ، ولعل ذلك مرجعه إلى ما شاهدته في قصر والدها ، من شعراء وأدباء ، يترنون ويغامسون ، إلا أن والدتها كانت تمنعها على تركها التطريز وما شاكله من دروس التربة النسوية ، وإقبالها على كتب الأدب ودواوين الشعر ، ولكن والدها وتوسلها بجانبها بشجعها قائلا لوالدتها : .. دعي هذه الطفلة للقرطاس والقلم ودونك شقيقتها ، فأدبها بما شئت .. (٣) كما أحضر لها أستاذين : أحدهما : يحفظها القرآن الكريم ويحللها الفقه والخط ، والثاني يعلمها النحو والصرف واللغة الفارسية ، مما ساعدها على إتقان ثلاث لغات : العربية والفارسية والتركية .

زواجها :

ولقد أقبلت على كتب الأدب بشغف وحماس ، لكي تحقق حلمها الذي

(١) عائشة التيمورية : حلية الطراز ص ١٥ وما بعدها - من المقدمة ، مطبعة دار

الكتاب العربى سنة ١٩٥٢ .

(٢) زينب فواز : الدر المنثور في طبقات ربات الخدود ص ٣٠٨ وما بعدها ، المطبعة

الإمبرية بصر سنة ١٣١٣ هـ ، ومقدمة ديوانها ص ١٦ ، بتصرف .

(٣) شعراء مصر وبياناتهم في الجيل الماضى ص ١١٥ .

راودها في فجر حياتها ، إذ كانت تتمنى أن تنضم إلى موكب الشعراء ،
وتخندو ندا لهؤلاء الأعلام ، الذين أظفت إليهم ، وأعجبت بهم ، ولكنها
فوجئت بأحد أشراف الترك ويدعى : " محمد توفيق زاده " يطلب يدها من
أبيها ، ووافق والدها فعلا مع أنها لم تتجاوز الخامسة عشر عاما (١) .

وكان من الطبيعي أن تشغلها الحياة الزوجية عن متابعة نشاطها
الثقافي وخاصة عندما أصبحت أما ، ولكنها لم تلبث أن رجعت إلى الاشتغال
بالآداب عندما مات زوجها سنة ١٢٩٢ هـ بعد وفاة والدها سنة ١٢٨٩ هـ ،
فلم تجد عزاء إلا في الانصراف إلى الكتب ، تاركة أمر البيت لابنتها " توحيدة " (٢)
هدا لها أن تتقن " علم المروض " الذي لم تكن على علم كاف به ، وشيئا
الله أن نموت ابنتها توحيدة ، وهي مقدمة على زفافها ، فحزنت عليها أمها
حزنا كبيرا ، وبكتها بكاء حارا ، حتى ضعف بصرها ، وأصبحت بمرض استمر
أربع سنوات ، ثم صعدت روحها إلى بارئها .

آثارها :

تركت التيمورية بعض المؤلفات ، وأهمها (٣) :

- ١- ديوانها الصربي (حلية الطراز) .
- ٢- ديوانها الفارسي .
- ٣- نتائج الأحوال في الأقوال والأفعال (وهي رسالة في الأدب) .
- ٤- مرآة التأمل في الأمور (وهي رسالة في الأدب أيضا) .
- ٥- اللقا بعد الشتات (رواية تشيلية) .

شعرها :

من يقرأ ديوانها الصربي (حلية الطراز) يجد أنها قد نظمت الشعر
في كل أغراضه التقليدية تقريبا ، وهي إن ذكرت - أنها نظمت الشعر محاكاة
لمن سبقتها من النساء - في قصيدتها التي فيها قولها :

(١) مقدمة ديوانها ص ١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ص ١٨ ، ص ٤١ .

ولقد نظمت الشعر شبيمة مفسر

قهلبي ذوات الخندر والأحساب (١)

إن ذكرت ذلك فقد بلغت في نظمها مبلغا حسنا، يؤكد بعض الكتاب بقوله : " ٠٠ " إن من يوازن بين شعر هذا الديوان وما كان يجري عليه الشعر العربي في ذلك الحين الذي عاشت فيه الشاعرة فإنه سيجد في شعر (التمورية) مثلا قويا رائعا من بلاغة الشعراء في ذلك العصر الذي يعد نجرا للنهضة الأدبية بمعد ركود طال مداه ٠٠٠ (٢) . ولقد ساعدنا على ذلك " أنها درست خير ما كان يدرسه أبناؤ ذلك الجيل ، فزارت نسي النظم أحسن من نظم فيه ، فإذا استثنينا الهارودي أولاء والساعاتي ثانيهما ، فشعر السيدة عائشة يملو إلى أرفع طبقة من الشعر ارتفع إليها أدبا مصر في أواسط القرن التاسع عشر إلى عهد الثورة العراقية (٣) ٠٠٠

ولعل السبب في نبوغها يرجع إلى ما كان عندها من استعداد لفرض الشعر ، ويؤكد ذلك المقاد بقوله : " ٠٠ " قد وجدت عائشة لها معلومات وزيارات يقرآن الأدب ، ويعرفن الشعر والمرض ، ولكن المسألة في نبوغها ليست مسألة تعلم المرأة ، وما وصل إليه من الذوق والاستحسان ، فسيان هذا التعليم قد شاع في عصرنا ، حتى أصبح عندنا ألف من البنات يقرآن كما كانت تقرأ السيدة عائشة نيمور ، ويطلعن على أكثر مما اطلعت عليه ٠٠٠ فلو كانت المسألة في هذا الصدد مسألة (تعليم البنات) لوجب أن يكون لدينا عشرون أو ثلاثون شاعرة في طبقة التمورية ، أو في أعلى من طبقتها ، وهو غير الواقع فيما نراه وراء غيرنا ، بل الواقع أننا لم نقرأ لن نساك بعد السيدة عائشة التمورية نظما يضارع نظمها ، ولا شاعرة تقارب شاعرتنا ، وإن كان التعليم في عصرنا أو في ، ومداد الملوم والثقافة ٠٠ أكثر وأغنى ، ٠٠ إنما المسألة هنا ، أن الاستعداد للشعر نادر ، وأنه بين النساء أندر (٤) .

(١) ديوانها ص ٢٦٥ (٢) على الجبلاطي : من أدبا الإسلام المعاصرين

ص ٧٥ وما بعدها - ملابح الأهرام التجارية بمصر سنة ١٩٢٠

(٣) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ١١٥

(٤) المرجع السابق ص ١١٦

ويمكنني أن أقول - إن شعر التيمورية - بحاسة - جعل النظم هـ جيد
السبك هـ ينساب بلا تكلف للفظ هـ ولا تصح للمبارة هـ وإن كان خالياً من
الحق هـ . ولقد ورد في ديوانها مقسماً إلى خمسة أقسام (١) :
شعر المجاملة هـ والشعر المائل هـ والشعر الشزلي هـ والشعر
(الأخلاقى (٢)) ، والشعر الديني ، والابتهالي ، وسأكتفي بالحديث عن شعرها
الديني ، لأنه شديد الصلة بقصيدتها التي عارضت بها برودة البوصيري هـ
وهو شعرها الديني - لم يستغرق في ديوانها أكثر من خمس صفحات (٣)
ناجحت به ربه هـ وتوسلت إليه بنبيها (صلى الله عليه وسلم) لكن ينفرد فيها ،
ويترجمها هـ . ومن ذلك قولها (٤)

إلهي سدي أنت الجليل	بواب رجائك الصبد الذليل
ضئيف الحال منكسر تفسير	كثير المنفى ناصرة قلبه يسير
فأنت لذنبه ربّ عسير	كريم صفحة الساعى جزيل
قصت حمله يامولى الموالى	أروم الغفوة لى أمل جميل
قصت حكاك وتمتر قبح عيسى	

بسمرا لمصطفى ابن دحوسل

ومن هذا القسم قصيدتها التي عارضت بها برودة البوصيري هـ وقد بلغ
عدد أبياتها أربعين بيتاً ونهجت فيها نهج البردة في أفكارها ووزنها
وربها (٥) هـ على الرغم من أنها لم تشر إلى ذلك صراحة ، كما أشار الدرويش
- سابقاً (٦) - إلا أن ما يؤكد أنها قرأت برودة البوصيري هـ وتأثرت
في نظمها بأفكارها هـ بل بالفاظها هـ أنها أخذت منها بعض أبياتها وضممتها
بعض قصائدها هـ ومن ذلك قولها :

فما لمينى إن قلت الكفا همتا . . وما لقلبي إن قلت استقمهم (٧)

(١) ديوانها ص ١٠١ . (٢) في لفظ (الأخلاقى) خطأ لقوى وصوابه :
(الخلقى) ، إذ لا يصح النسب إلى الجمع بل ينسب إلى مفرد هـ ، انظر (منار السالك
إلى أروض السالك ج ٢ ص ٢٤٦) (٣) ديوانه ص ٢٦٩ وما بعدها .
(٤) المرجع السابق ص ٢٧٢ . (٥) ديوانها ص ٢٦٩ وما بعدها .
(٦) انظر ص ٣٥ من هذه الرسالة . (٧) ديوانها ص ٢٢٢ .

فهو من قول البوصيري :

فما لعينيك إن قلت أكفاهما ••• وما لقلبك إن قلت استفق بهم

ولعل القارئ يدرك الصلة الشديدة بين القولين ، ولولا التخيير الهين
في الضمائر لقلت : إنهما بيت واحد :

كما أنها أخذت الشطر الثاني من قول البوصيري :
وكلهم من رسول الله ملتمس ••• غرنا من البحر أو رشفا من الديم

ووضعت في أحد أبيات قصائدها قائلة :

فحبها بقبول فهن راجية ••• (غرنا من البحر أو رشفا من الديم)^(١)

وهي ما يكن من شيء ، ففي معارضة التعموية ما يدل على أنها نظرت إلى
بردة البوصيري ، وذهبت نهجها في كثير من أفكارها ، وسوف أتبع على مثل
ذلك في أثناء تحليل تلك المعارضة التي بدأتها بقولها^(٢) :

أعن وبين سرى في حندس الظلم

أم نسة حاجت الأثواق فن (إضم)^(٣)

فجددت لي عهدا بالفرام ضسسى

وشاقتي نحو أحيائي (بذي سلم)

دعا فزادى من بعد السلو إلى سسى

ما كت أعهد في قلبي من القسدم

وهاجنى لحيب عشق فظلمسره

يمحو وثقت ما بهراء من حسسدم

يمحو سلوى ••• كما يمحو إمامسسه

حيي له ••• فمذاهي فيه كالنعمس

تساءل الشاعرة عما جده غرامها ••• وألهب شوقها ، أنور محبوبها الذي
سرى في الظلام الشديد ، أم الريح الطيبة التي هبت من ناحيته ؟ ما جعل
قلبها يتذكره بعد طول نسيان ••• بل جملة يستحذب منه كل إساسة وهوان !

(١) المرجع السابق ص ٢٢٨ ••• (٢) المرجع السابق ص ٢٦٩ •••

(٣) حندس (بكسر الحاء والذال بينها نون ساكنة) : الليل الشديد الظلمة •••

لقد بدأت التصويرية تصيدتها باستفهام يشير الحس و هلفت الذهن ،
وهي متأثرة في ذلك بمطلع بريدة الهوصيري ، وما يؤكد ذلك : استفهامها
بالهمزة ، مع ذكر معادلها (أم) ، بالإضافة إلى أن محبتها مشـبـل
محبوب الهوصيري . . . فقد سرى نور من جهته ، وهبت ربح طيبة من ناحية
دياره في إضـم وذى سلم .

ولا شك في أن غزلها تقليدي ، إلا أن اعترافها صراحة بخرابها ،
وهشيقها لمنظر حبيبها ، لم يحسن منها ، وخاصة أنها هي التي رفضت
صوتها ملتخرة بأدبها وفانها حين قالت : (١)

بهدي العنـاف أصون عز حجابسي

ومحصتي أسمو على أتـرابسي

هفكرة وقادة وقرحة . . . نقادة قد كملت آدابسي

نعم . . . إن الحب من سيات الإنسان وطبيعته ، ولكن ليس من القبول
إعلانه بهذه الطريقة ، وخاصة إذا كان من أنتى تعيش في مجتمع شرقسي ،
له عاداته وقائده وآدابه ، ولقد كان من الممكن أن تملك بملك الهوصيري ،
الذي جرد من نفسه شخصا يخاطبه وسأله عن حبه ، وما زال يسأله حتى
اعترف به بعد نكران ، وأقر بعد جحود وكتمان ، وهذا - في رأيي - أفضل
من التصريح الذي وقع من التصويرية ، التي أكدت حبها ، وبنيت مدى استيلاء
محبتها على إحساسها ، فوصفته بأنه : (يعو وثبت) ، وما كان لها أن تصفه
بذلك ، وهي التي كانت تقرأ القرآن الكريم ، وحفظت منه الكثير ، وتعلم أن هذا
الوصف مقصور على الله (سبحانه وتعالى) ، إذ يقول جل جلاله : " يَخُوالله
مَا يَشَاءُ وَوُثِبُ . . . الآية (١) " . . . ولكنه الحب الذي ملك عليها أمرها ، فحسا
سلونها لحبيبها ، كما حاسا إمامه ، وجمليها تتحمل في ههنا كل عذاب ، بل
إن كل عذاب منه نعمة لها : (فمذاهي فيه كالنعم) فما أوجبها للمحبين (١)
هذا كل ما تضمنته هذه الأبيات ، وعلى سهولة الألفاظ ، ولكنها غسير
جديدة الأفكار ، ولقد زينتها الشاعرة ببعض المحسنات البديمية مشـبـل :

(١) الرعدس ٣٩ .

(١) ديوانهاهي ٢٦٥ .

الطباقي في قولها : (بمحوه وثبت) ولا يخفى أن هذا المحمن يشير إلى
مدى استيلاء المحب على إحساس محبوبته - كما سبق - كما أن في إسناد
التمل (محو) إلى الحب مجازاً عقلياً ولاقته السببية ، ولا شك في أن فن
هذا الإسناد تشخيماً لذلك المحب ، وإيماً إلى بيان مقدار وشدته •
ولعل في تكرار هذا التمل ما يؤكد شدة هذا الحب الذي ظهـرت
آثاره ، وانتشرت أخباره ، فكان المشهد الثاني من مشاهد المحبين ، وهو ما
أشارت إليه الشاعرة في قولها : (١)

رام الوشاة سُلوى عن محبتـه
ولم أوف لهم هذا ولم أرم
كيف استتار الجوى يا من تملكـى
وشاهد المشق في المعاق كالملم
فيا له معرضاً عنى ومعرضاً
بين الفراغ وقلبي وهو مشمـسى
حسى من الحبما أفضى إلى تلقى
وما لقيت من الآلام والسقم

في هذه الأبيات انتقلت الشاعرة إلى بيان ما يتخيله كل محب ، إذ يتصور
أن الوشاة يراقبون نظراته ، وصدور غطواته ، ويحاولون أن يفسدوا بينه
وبين محبوبه ، وهذا ما سلكته التيمورية ، إذ بينت أن الوشاة يحبون أن تهمد
عن حبيبها ، وتنسى محبته ، وتقطع مودته ، ولكنها لم تحقق لهم أملاً ، ولم
تنتهز بمخادعتهم إياها •

ولقد تساءلت في عجب : كيف تستر آثار هذا الحب الذي تملكها ، مع
أن شواهد ظاهرة كالملم ، ولكنها - مع كل هذا - تشير إلى قسوة ذلك
المحب الذي تعاني من أجله الكثير ، وهو معرض عنها ، بل إنه ليتهاهما
بنسيانته •

والشاعرة بحاطفتها الحزينة - قد صورت ما يمانيه المحبون من الوشاة
السامدين من ناحية ، وما يقاسونه من آلام الصد ، وآمال الوصل من ناحية ثانية ،

وإن كانت قد تأثرت في ذلك بقول المهجيري : (١)

فكيف تنكر حبا بعدما شمسدت

به عليك عدول الدمع والسقم

إلا أنها تصرفت في عبارتها بحض التصرف ، كإشارتها إلى أعراض -

الحب مثلا .

ولا يخفى ما في عبارتها من ألفاظ موجبة ، وتراكيب مغيرة ، مثل استفهامها : (كيف استتار الجوى . .) الذي يدل على قوة الحب الذي تملكها ، كما يشير إلى عدم استطاعتها إخفاء آثاره ، ولعلها حذفته الفاعل لأنه مفهوم من سياق الكلام - أو شجعتها على ذلك قهرا من الحياة - في قولها : (يسا من تملكتي) وكان الأصل (يا من تملكتي حبه) مثلا ، أضف إلى ذلك أن في قولها : (نباله معرضا عنى ومعترضا . .) تمجبا مليئا بالأسى من صد حبيبها عنها مع عدم استطاعتها الإعراض عنه ، ويبدو أنها عسرت بالوصول في قولها : (ما أفضى ، وما لقيت) إشارة إلى عظم ما عانت منه من هذا الحب ، ووضحت ذلك بقولها : (من الآلام والسقم) .

ولقد زينت عبارتها بيمينى المحسنات البديعية مثل : رد الجز على الصدر في قولها : (رام - أرم) وإن كانت قد أثقلت هذا الشطر : (وشاهد المشق في المشاق كالعلم) بتكرار حرف الشين .

ولملك تلحظ أن عاطفة الشاعرة في هذه الأبيات ملوثة بالحسرة والتندم ، ما جعلها تنكفئ من الحب - بهذا القدر ، وقررت وضع نهاية لهذا الأمر ، فقالت في شجاعة وصراحة (٢) :

إني رددت عناني عن غوايته

وقلت : يانفس خلى باعث الندم

ولذت بالمصطفى رب الشفاعة إذ

يدعو الضادى ، فتحيا الناس من رجم

(١) انظر ص ٩١ من هذه الرسالة .

(٢) ديوانها ص ٢٦٩ .

طه الذى قد كسا إشراق بحشته
وجه الوجود سنا الرشيد والكريم
طه الذى كلت أنوار منتمة
توجان أمته فضلا على الأمم

وفى هذه الأبيات تملن الشاعرة أنها حزمت أمرها ، وتحكت نفسى
هواها ، فردته عن غوايته - لأنسط يجلب الحسرة ويبيث الندم - ثم وجهته
الوجهة الصليمة ، ولادت بالمصطفى (صلى الله عليه وسلم) الذى هو جده
بالحبية وأهل الإعزاز والتقدير ، إذ هو صاحب الشفاعة العظمى ، يوم يقسم
الناس لرب العالمين ، كما أن بحشته كانت مصدر خير ، وينبوع هنا على العالم
وسببه (صلى الله عليه وسلم) فضلت أمته على سائر الأمم .

يبدو أن الشاعرة عندما يثقت من وصل محبوبها ، اتجهت إلى حبيب
ينعم القلب بحبه ، وتقر العين باتباعه ، وهو الرسول (صلى الله عليه وسلم)
إلا أن الطريق إلى هذا المحبوب الكريم ، يبدأ بالبعد عن الدنيا ، ولذلك
أكدت الشاعرة هذا الأمر بقولها : (إنى رددت ٠٠) فصدرته بأن المؤكدة
وعبرت بالفعل الماضى مسندة هذا الرد إلى ضميرها لما شرحتها إياه بنفسها ،
كما أظهرت ندمها على ما فرط منها بقولها : (يانفسى خلى باعث الندم) وكسل
هذا بمثابة التخلية قبل التخلية التى أشطارت إليها بقولها : (ولست
بالمصطفى ٠٠) .

والتيمورية بقولها : (إنى رددت ٠٠) قد خالفت البوصيرى الذى لم
يستطع كبح جماح نفسه ، وطلب من يمازحه عليها بقوله : (من لى بسرد
جماح من غوايتها ٠٠)^(١) ولكنها مع ذلك قد تأثرت فى حوارها به ، ويؤكد
ذلك قولها : (بالعنان ٠٠) وهو خاص بالفرس ، وأتى البوصيرى بقوله :
(باللجم) وصرح بذكر الخيل ، ولا يخفى أن فى عبارة التيمورية استمارة
مكتمية دلت على حزم أمرها ، ولكن البوصيرى كان صادقا فى طلبه من يساعده
على كبح هوى نفسه - وهذا يطابق الواقع - لأن النفس أمارة بالسوء ، فهى

(١) انظر ص ١٠٠ من هذه الرسالة .

تحتاج إلى خير بأحوالها ، علم بدساتسها ، ولعله تأثر في ذلك ببيادى الصوفية الذين يجعلون للمريد شيخا يرشده ويوجهه ، أما التيمورية فقد أظهرت قدرتها على تحكمها في نفسها ، وإن كان ذلك أمرا طارئا إثر فشلها في نفسها ، ويؤكد ذلك أنها ستطلب من يعينها على نفسها - فيما سياتى مسن الأبيات - .

ولا يخفى أن قول الشاعرة : (ولدت بالمصطفى) مأخوذ من قول البوصيري (١) :

يا أكرم الرسل ما لي من ألوف نسه

سواك عند حلول الحادث الممسم

إن تأثر الشاعرة واضح ، ولكنها حاولت التصرف في بيتها تصرفا حسنا ومن ذلك إشارتها إلى أول مشهد من مشاهد يوم القيامة ، يوم يفتح نسي الصور ، فيخرج الناس من قبورهم أتوا جا ، وهو مشهد صعب حقا ، ويبدو أن التيمورية تلج بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ • يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ (٦) ويؤكد ذلك أنها كانت تقرأ القرآن الكريم ، وحفظت نصفه ، وعندما رمدت عنانها ، حزنت لأنها لم تستطع القراءة في المصحف ، وهذا ما أشارت إليه بقولها (٢) :

غدوت بفرقة (الفرقان) صبا

أسائل في التلاوة كل نال

ولولا أن حفظ النصف منه •• شفى قلبي لذبت من اشتعال

ويزيد ذلك تأكيدا أنها عندما شفيت قالت لابنها : * سأصرف إليسى الانكباب على تفسير القرآن ومطالعة الحديث النهوى •• (٤) .

-
- (١) انظر ص ٢٠٨ من هذه الرسالة .
(٢) ق / ٤١ و ٤٢ ، مع مراعاة أن الرسم العثماني في المصحف قد حذف اليائين في قوله تعالى : (ينادى المناد) .
(٣) ديوانها ص ١٩٤ .
(٤) المرجع السابق ص ٧٥ .

وإذا كان البوصيري قد أشار إلى يوم القيامة بقوله : (٠٠ عند حلول الحادث العم) فهذه الإشارة موجزة بالنسبة إلى إشارة التيمورية إليه ، في قولها : (إذ يدعو المنادي فتحيا الناس من رجم) .

ولعل ما يؤكد تأثرها في بعض الفاظها بالقرآن الكريم أنها ذكرت كلمة (طه) على أنها اسم من أسماء الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومعلوم أن في القرآن الكريم سورة تسمى بهذا الاسم - طه - إلا أن كثير من العلماء قالوا : إن معناها (يارجل ^(١)) - وهي مأخوذة في الأصل من اللغة النبطية أو السريانية أو الحبشية - وقيل معناها : يا إنسان ، وقيل معناها في الأصل : (طأها) أي ضغ قدميك على الأرض بقوة وثبات ، وقيل غير ذلك ، ويبدو أن من استعملها على أنها اسم من أسماء الرسول (صلى الله عليه وسلم) رأى أن الخطاب بعدها موجه إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قوله تعالى : (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . . . (٧) . . .) إلا أن هؤلاء لا حجة قوية لهم ، إذ روى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : لي خمسة أسماء : أنا محمد وأحمد وأنا الماحي - الذي يحوي الله بسى الكفر - وأنا الحاشر - الذي يحشر الناس على قدمي - وأنا العاقب . . . (٣) فلم يذكر أن من أسمائه (طه) .

ويلوح لي أن الشاعرة تأثرت في ذلك ببعض المتصوفة الذين ذكروا أن للرسول (صلى الله عليه وسلم) أسماء كثيرة، ومن بينهم صاحب دلائل الخيرات ^(٤) ، وأن بعض الكتاب أعار إلى أن أسماء الرسول (صلى الله عليه وسلم) كثيرة، ولكن من فيها ما هو علم ، ومنها ما هو صفة من صفاته . . . وكثرة الأسماء تدل على شمسرف المسمى ^(٥) .

(١) صحيح البخاري ج ٦ ص ١١٦ ، تفسير القرآن العظيم ج ٥ ص ٢٦٦ .

(٢) طه : ٢ . (٣) صحيح البخاري ج ٤ ص ٢٢٥ .

(٤) هو محمد بن سليمان بن عبد الرحمن الجزولي الشاذلي توفي سنة ٨٧٠ هـ - الأعلام ج ٧ ص ٢١٠) الجزولي : دلائل الخيرات ص ٢٠ مكتبة القاهرة سنة ١٣٦٩ هـ .

(٥) الدكتور : شهبان إسماعيل : من خصائص الرسول وشأنه ج ١ ص ٢٥ مطبعة الحسين بمصر سنة ١٩٧٧ .

وبها يكن من شئ ، فلم تخل عبارة الشاعرة من نكفة لطيفة ، تأمل قولها : (كما إشراق بحثته وجه الوجود) تجده يشير إلى عظمة بحثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأثرها في الوجود ، وهذا التعبير تعبير مجازي - استمارة مكية - فيه تشخيص وإيحاء ، كأنها تقول : كان العالم في ظلام دامس ، فإذا الشمس أشرقت ، وأرسلت شعاعها على الوجود ، فانفثت الظلام وهم النور ، ولو قالت : (كما إشراق بحثته الوجود) لكان أهم ولعميل ، وأتم وأكمل ، ويبدو أنها آثرت التعبير الأول إشارة إلى بدء البهنة إذ كانت سرية ، ثم تدرجت حتى عمت البقاع والأصقاع ، أو أتت به على سبيل الجواز المرسل وهلاقتها الجزئية ، واختارت له لبيان أن أول ما يتأثر ظاهراً بالنسبة للإنسان هو الوجه ، إذ هو المرأة التي تمكن ما في القلب من حزن وضح :

ولعل في قولها : (كما) ما يدل على الإحاطة والتكفل ، وإيئاده إلى (إشراق) مجاز عقل ، يوحي بعظمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعظمة بحثته ، ويؤكد ذلك قولها : (سناء الرشيد والكرم) فهو كما عظيم بمسوت المجد والرفعة ، ويهدي إلى الطريق المستقيم .

ولقد أشارت الشاعرة إلى أن فضل هذه الأمة المحددة ، مكتسب من أنوار الشريعة الإسلامية التي بعث الله بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولعل في ذلك الإلماع إلى قوله تعالى : **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ** ... الآية (١) .

ويبدو أن التعميرية لم تستطع التخلص من بعض الألفاظ التي سمحتها نسي القصر التي كانت تعبير فيها : ولذلك ذكرت هنا : (كللت وتهجان) . ولعلك تلحظ أن الشاعرة لم ترتب أفكارها : إذ مدحت الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنه صاحب الشفاعة يوم القيامة ، ثم مدحته بإشراق بحثته ، وأثرها العظيم ، ثم أشارت إلى فضل الشريعة السمحة .

ومهما يكن من شيء فإنها واصلت مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقولها (١) :

نعم الحبيب الذي من الرقيب به

وهو القريب لراجل المجد والنعم (٧)

روحى الفداء ، ومن لى أن أكون له

هذا الفداء ، وموجودى كمنعم (٢)

وما شى الروح حتى أفتديه بهما

وهى الهفات بفار الظلم والظلم (٤)

والمر أفتت ثقال الوزر لحتته

وددت به ظروف الدهر بالتهيم

يبدو أن التيمومة أحست بما فى محبة الرسول (صلى الله عليه وسلم) من خير، فدعت به بأنه (نعم الحبيب) الذى من الله به على المسلمين ، وجعله رحمة للمالين ، ثم جعلت نفسها فداء له (صلى الله عليه وسلم) وهذا شرف عظيم لها ، ولكن من يمكنها من ذلك وبخاصة أن نفسها حقيرة لا تساوى شيئاً، فوجدها كعدمها ، بالإضافة إلى أنها قد لطخت بالآثام التى أفتت أيام عمرها ، وددتها حوادث الدهر .

ولحل قولها : (نعم الحبيب) مأخوذ من قول البوصيرى : (هو الحبيب) (٥) إلا أن بينهما فرقا كبيرا ، إذ عبارتها تفيد أنه حبيب على القدر ، عظيم المنزلة ، أما عبارة البوصيرى فزادت على ما سبق أنه هو الحبيب لا غيره ، إذ أن تعريف الطرفين (المبتدأ والخبر) يفيد القصر ، وقولها : (من الرقيب به)

(١) ديوانها ص ٢٦٩ .

(٢) القريب : اسم من أسماء الله تعالى .

(٣) المراد بالروح هنا : النفس .

(٤) الهفات : (بضم الهاء) طائر شرير ، والظلم - الأولى - بضم (الظاء) وسكون

اللام) ، وأما الثانية (بضم ياء فتح) جمع ظلمة (بضم فسكون) - ومنها وأضح .

(٥) انظر ص ١٢١ من هذه الرسالة .

يلمح إلى قوله تعالى : " لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا
مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ... الآية (١) " وفي ذلك تأكيد لمعظم
منزلة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كما أن قولها : (وهو القريب) يجوز
أن يكون وصفا لله تعالى فيكون تلميحاً إلى قوله تعالى : " وَإِذَا سَأَلَكَ
عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ... الآية (٧) " . ويجوز أن يكون وصفا للرسول (صلى
الله عليه وسلم) فيكون إشارة إلى جوده وكرمه .

وإذا تأملت قولها : (ومن لي أن أكون له...) وجدت يثير إلى
أن الشاعرة تحقر نفسها ، وتنزل قدرها ، بسبب ما ارتكبتها من الذنوب ، ثم
بينت ذلك بتشبيهها بالطائر الشرير الذي يسكن ظاراً مظلماً ، ولعلها أرادت
بالغار جسدها الذي تسكن فيه هذه النفس الظالمة الآثمة .

ولقد أشارت التيمورية إلى أن عمرها مرّ كلمحة ، ولكنه مثقل بالذنوب
وفسى هذا ندم وحسرة ، ويؤكد المجاز العقلي في إسناد (أفنى) إلى (نقال
الوزر) . كما أشارت إلى المصائب التي نزلت بها في قولها : (وبددت
صروف الدهر) وفي ذلك القول مجاز عقلي - أيضاً - لأن الفاعل في الحقيقة
هو الله ، إلا أن في هذا المجاز دلالة على شدة تلك المصائب .

ولما أحست الشاعرة بفداحة ذنوبها ، وسرعة مرور أيام عمرها وذهابها
في اللهو ، واصلت ندمها بقولها : (٢)

أين الرشاد الذي أعدته لفسد

غويت عنه فزلت باللهوى قدمي

من لو يستوي رخط لو أغوز بهي

كحلت عينا أفاضت دمعها بسدم

من لي بأطلال بان عز منظرها

تمسقى بطل من الآماق منسجيم (٤)

(١) آل عمران ١٦٤ .

(٧) البقرة : ١٨٦ .

(٣) ديوانها ص ٢٧٠ .

(٤) الطل : (بفتح الظاء) المطر الضعيف .

الآماق : جمع (مؤق) بضم فسكون : طرف العين مما يلي الأنف .

تحط أثقال وزر لا تقوم بهما

شم الرواسي من رأين ومنهم سدم

لقد أخذت التيدورية تسأل نفسها ، سؤال توبيخ وندم : أين العمل الصالح الذي أعدته ليوم القيامة ؟ كما أظهرت حزنها ، لأنها ضلت عن هذا العمل ، أضف إلى ذلك أنها تمنّت أن تحج بيت الله الحرام ، وأن تزور تلك الرحاب الطاهرة ، طمعا في غفران ذنوبها ، التي لا تستطيع الجبال الرواسي حملها .

وإذا تأملت قولها : (٠٠ أعدته لخد) وجدتها تلح إلى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِخَدِّهِ ٠٠ الآية)^(١) أما قولها : (زلت بالمهوى قدسي) فهو كناية تشمر بالندم وتكشف عن عاطفة حزينة ، يؤكد ذلك هذا الدمع الخزير في قولها : (أفاضت دمعها بدمي) ، وإذا كان الاستفهام في قولها : (أين الرشاد ٠٠) يشمر بالندم ويفيد التوبيخ ، فإنه في قولها : (من لي بتراب رحاب ٠٠) و (من لي بأطلال ٠٠) يفيد التمني والاستعطاف .

ويبدو أن المراد بقول الشاعرة : (من لي بتراب رحاب لو أنوزبها ٠٠) أنها تريد حج بيت الله الحرام ، لأنه هو الذي يكون سببا في غفران الذنوب ، وهو ما أشارت إليه الشاعرة بقولها : (تحط أثقال وزر) ويؤكد ذلك قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه " ^(٢) ، ولذلك تمنّت الشاعرة أن تحقق ذلك الأمر ، بل عدت الحصول عليه فوزا عظيما ، وأشارت إلى أنها لو ذهبت إلى تلك الهقاع المقدسة لكحلت عينيها بترابها ، وتمتحت ناظرها بجمالها وجلالها ، كما تمنّت أن ترى آثار الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ، مثل أماكن غزواته وأماكن تمجده ، وغير ذلك .

(١) الحشر / ١٨٠

(٢) صحيح البخاري ج ٢ ص ١٦٤

إن التيمورية تريد أن تسقى هذه الأماكن الطاهرة من دموع عينها ،
ولعل ذلك كناية عن ندمها ، وإشارة إلى توبتها ، إلا أن لفظ (الطل) يوحى
بقلة الدموع ، ويبدو أنها أرادت به مطلق الدمع بدليل قولها بحمد ذلك :
(مسج) :

ومهما يكن من شيء فإن في إسناد الفصل (تحط) إلى ضمير تلك
الأماكن ، مجازاً عقلياً ، ويوحى بحظم منزلة تلك الأماكن التي تكون زيارتها
سبباً في قران الذنوب ، ولقد انتقلت الشاعرة انتقالاً مفاجئاً إلى الحديث
عن بعض معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقولها (١) :

فكم ينبح زلال فاض من يده	أروى الأوام وأسقى منه كل ظمى (٢)
والجدع أن له من بعده جرحاً	لما نأى عنه مولى العريب والعجم
لانت له الصخرة الصماء طائفة	مد مسها سيد الكونين بالقدم
فيها معجزات ما لها عسدد	أقلها ما بدا ناراً على علم

في هذه الأبيات تشير التيمورية إلى ثلاث معجزات من معجزات الرسول
(صلى الله عليه وسلم) . الأولى : نبع الماء من بين أصابعه الشريفة حتى
شرب الصحابة وتوابعاً ، وهذا ثابت بالأحاديث الصحيحة ، ومنها ما روى عن
جابر (رضى الله عنه) أنه قال : عطش الناس يوم الحديبية (٣) ، والنبي
(صلى الله عليه وسلم) بين يديه ركوة (٤) - إنا صغير من الجلد يشرب به -
فتوضأ ، فجهش الناس نحوه ، قال ما لكم ؟ قالوا : ليس عندنا ما نتوضأ
ولا نشرب إلا ما بين يديك ، فوضع يده في الركوة ، فجعل الماء يقور بين أصابعه
كأمثال الصيون ، فشرينا وتوضأنا ، قلت - راوى الحديث - كم كتتم ؟
قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة . . (٥) .

ولعل في تعبير الشاعرة بلفظ (كم) ما يشير إلى تعدد هذه
المعجزة وتكرارها ، كما أن في قولها : (أسقى منه كل ظمى) بحمد قولها

(١) ديوانها ص ٢٧٠ . (٢) أروى متعدى . روى - الأوام : (بضم
المهمزة) حمر العطش .
(٣) (بضم الحاء وفتح الدال وكسر الباء) قرية قريبة من مكة .
(٤) بفتح الراء والواو بينهما كاف ساكنة .
(٥) صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٣٤ .

: (أروى الأوام) تأكيداً لهذا الأمر ، ويجوز أنها أرادت بالمبسارة الأولى الإنسان ، والثانية ، الحيوان مثلاً ، والمعجزة الثانية : أنين الجفدع وهذا ثابت بالأحاديث الصحيحة - أيضاً - ومنها ما روى عن ابن عمر (رضى الله عنهما) أنه قال : كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يخطب إلى جفدع فلما اتخذ الضبر تحول إليه ، فحن الجفدع ، فأناه - الرسول - فمسح بسده عليه . . . (١) .

والمعجزة الثالثة : تلك الصخرة الصماء التي قيل : إن قدمي الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أثرتا فيها عندما وقف عليها ، إلا أنني لم أجد حديثاً يشير إلى ذلك ، غير أنه يوجد في المسجد الأحمدى بمدينة طنطا بالقرب من ضريح المارث بالله سيدي : أحد الهدوي (رضى الله عنه) يوجد حجر عليه أثر قدمين ، ومشهور بين الناس أنها للرسول (صلى الله عليه وسلم) ولكن ليس ذلك على وجه اليقين ، وقد نفى بعض الكتاب أنها للرسول (صلى الله عليه وسلم) . (٢)

ومهما يكن من شيء فإن معجزات الرسول (عليه الصلاة والسلام) كثيرة لا يحصمها عدد ، ولعل الشاعرة اكتفت بما ذكرت ، وأشارت إلى كثرتهما ، متعجبة من تلك الكثرة بقولها : (فيألفها معجزات ما لها عدد) .

وما هو جدير بالذكر أن التيمورية لم تنظر إلى البوصيري في تلك المعجزات الثلاث لأنه لم يشر إليها ، وإن كان قد أشار إلى غيرها - كما سبق - .

ويبدو أن الشاعرة أرادت أن تمتدح عن قلة مديحتها الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقالت (٣) :

ولا يحيط به مدحى ولو جعلت

جوارحى أسنن ينطقن بالحكم

وإنما أرتجى من مدحه قبسا . . . يهدى الصراط ويشفى الروح من ألم

(١) المرجع السابق ج ٤ نص ٢٣٧ .
(٢) العظمة والاعتبار ص ١٦٤ وما بعدها .
(٣) ديوانها ص ٢٧٠ .

إن مكانة الرسول (صلى الله عليه وسلم) سامية ، ومنزلته عالية ، ومجاهدته
كثيرة ، ولذلك أكدت التيمورية أنها لا تستطيع أن تحيط بشمائله ، ولا
تعد كل فضائله ، حتى لو جعلت كل جوارحها ألسنا ناطقة بالفصاحة من
القول ، والصدق من الحديث ، وما دام الرسول (صلى الله عليه وسلم) كذلك
فهى ترجو أن تنال شماعا من حبه ، وقبسا من نوره ، يهديها الصراط
المستقيم ، وينقى نفسها من دسائسها ، ويشفيها من آلامها .

ولا شك فى أن تلك الفكرة خالية من الخيال ، إذ هى من الواقسح
لأن مقام الرسول (صلى الله عليه وسلم) أكبر من أن يحيط به إنسان ، مهما
أوتى من الفصاحة والبيان .

ولعلك تلمس فى عبارة الشاعرة ما يدل على ضعفها وهجزها أمام شخصية
الرسول (عليه الصلاة والسلام) ، ومن ذلك قولها : (ولا يحوط به مدحى)
فالعجز عن الإدراك إدراك - ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه ، ولعل الفعل :
(أرتجى) يوحي بما تمنيه الشاعرة من جهاد نفسها ، الذى أشارت إليه
بقولها : (ويشفى الروح من ألم) ، ثم أكدته بقولها : (١)

وكيف لى باتماظ النفس آمرتسى

بالسوء ، ناشيتى عن مورد النعم

فما التاسى عن خير يقربسنى

زلقى النعم ولا نسقى يمنتظس

وهنا عادت الشاعرة تتساءل - فى أسى - كيف تستطيع وعظ نفسها ،
وزجرها عن دسائسها ، إنها تأمرها بالسوء ، وتبهدها عن الخير ، حتى جعلتها
تسأم من البحث عما يقربها من الجنة .

وإذا تأملت قولها : (وكيف لى) وجدت الاستفهام يفيد الفراصة
أو البعد ، لأن هذا الأمر يندر الحصول عليه إلا بشق الأنفس .
ولعل التيمورية متأثرة فى ذلك بالهوسىرى عندما قال : (فإن أمارتسى
بالسوء ما انتظت . . . (٦) . إلا أن بين القولين فرقا كبيرا ، ومن ذلك أن

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها . (٢) انظر ص ٩٧ من هذه الرسالة .

البوصيري وصف النفس بأنها (أمارة) ، أما التيمورية فوصفتها بأنها (أمرة) ،
فالتصبير الأول أبلغ من الثاني ، ولذلك عبّر به القرآن الكريم في قوله تعالى
: (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) (١) .

وملاحظ أن الشاعرة قد نقضت ما صرحت به سابقا بقولها : (إنى رددت
عنانى عن غوايته) (٢) إذ أكدت أنها ردت عنان نفسها ، ولكنها عادت تسأل
: (وكيف لى باتماظ النفس) ولعلها - بذلك - تبين مكر النفس ،
وسعة حيلتها ، وشدة بأسها ، فإذا غلبها صاحبها مرة ، غلبته هى مرات ،
وصدق الله العظيم إذ يقول : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
رَبِّي) الآية (٣) .

وإذا كانت الشاعرة لم تستطع الاعتداء إلى واعظ يصلح نفسها ، ويهذب
شأنها ، وصرحت بما يفيد تمسك اليأس من قلبها ، فإنها استدركت عندما وجدت
شفاة لعلتها ، ودواء لمرضها ، فقالت (٤) :

لكن أوسوة أشقى بها وصبي
ومنة الله دين وصفه قيسم
وما سوى فوز كوني بعضاً منه
إلا التماسي عفوا بالشفاعة لسي
حسن ارتباطي بحبل غير منقسم
يحجتي إن أخف يوم اللقا يقسم
ذخرا ، أنوز به من زلة الوصم
من غلتم الرسل خير الخلق كلمم

وفى هذه الأبيات تجده الإحساس بالأمل يمد اليأس ، وحسن الرجاء
يحد القنوط .

إنها أشارت إلى فضل القرآن الكريم إذ فيه شفاؤها ، ودواؤها ،
ولعلها تلج بذلك إلى قوله تعالى : " وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ " (٥) .

وإذا تأملت قولها : (حسن ارتباطي بحبل غير منقسم) وجدت لها ناظرة
إلى قول البوصيري : (لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم) ، وكلاهما متأثر في قوله

(١) يوسف / ٥٣ . (٢) انظر ص ٣١٥ من هذه الرسالة .
(٣) يوسف / ٥٣ . (٤) ديوانها ص ٢٧٠ .
(٥) الإسراء / ٨٢ .

بقوله تعالى : " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا " الآية (١) " وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن القرآن الكريم إنه : " حبل الله المتين (٢) " .

إن التيمورية تتوسل إلى الله تعالى بكتابه ، ثم بالدين الإسلامي السني انتهته ، وهو نعمة كبرى من الله من ربهما على عباده : (بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ .. الآية (٣) " .

ويبدو أن الشاعرة أرادت أن تلحح إلى قوله تعالى " دِينًا قِيمًا " الآية (٤) ، عندما قالت : (ومنة الله دين وصفه قيم) .

إن ما يدفع عنها الخزي والمار ، وينجيها يوم القيامة من عذاب النار ، كونها بحض أمة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وهذا الانتساب الكريم يؤهلها لالتماس فضل شفاعته العظمى التي خصه الله بها في الموقف العظيم يوم القيامة إلا أن كلمة (فوز) في قولها : (وما سوى فوز كونى بحض أمته) لا فائدة منها ، إذ المعنى تام وواضح بدونها فتقول : إنه ليس لي ما ينجيني إلا التماسي شفاعته الرسول (صلى الله عليه وسلم) لكوني بحض أمته .

ومهما هو جدير بالذكر أن التيمورية توسلت إلى الله تعالى بالقرآن الكريم واتباعها الدين الإسلامي الحنيف ، ثم أكدت ذلك بكونها بحض أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، أما البوصيري فقد توسل بالرسول (صلى الله عليه وسلم) مؤكداً ذلك بأنه تسمى باسمه حين قال : (٥)

فإن لي ذمة منه يتسميتي .. محمداً وهو أوفى الخلق بالذمم

ولا يخفى أن عبارة التيمورية أقوى ، وأسباب توسلها أشد وأكثر .

ومهما يكن من شيء فقد ألحت الشاعرة في رجائها فقالت (٦) :

-
- (١) آل عمران ١٠٣ .
(٢) سنن الترمذي ج٤ ص ٣٤٥ .
(٣) الحجرات / ١٢ . (٤) الأنعام / ١٦١ .
(٥) انظر ص ٢٠٤ من هذه الرسالة .
(٦) ديوانها ص ٢٢٠ .

مددت كف الرجا أرجو مراحمه

وقد حلت به في بهرة الحرم

(محمد) المصطفى مشكاة رحمتنا

صباح حجتنا في بحشة الأمم

يامن به أقتدى يوم الزحام إذا

أبديت ناصية فحومة الوسم

أقول حين أواني الحشر في خجل

إن الكبائر أنست ذكرة اللمم

في هذه الأبيات يظهر أمل الشاعرة الكبير في شفاعة الرسول (صلى الله

عليه وسلم) ويؤكد ذلك أنها مدت يد الضراعة ، ملحة في طلب الشفاعة ، ثم

أشارت إلى عظمة صاحبها ، وأن الله قد اصطفاه ، وجعله نورا هاديا

ورحمة للمؤمنين .

ويبدو أن أمل التيمورية الكبير في شفاعة رسول الله ، قد قوى رجاءها ،

وظمان قلبها إلى أنها ستقتدى بالرسول (صلى الله عليه وسلم) يوم الحشر ،

وستسير وراءه يوم تملو الوجوه غبرة ، ويكسوها الخجل من كثرة الذنوب .

ولا يخفى ما في الأبيات من أمل مصحوب بالاستمطاف والاسترحام (مددت

كف الرجا . .) و (أرجو مراحمه . .) و (يامن به أقتدى . .) ، كما أن في

التصريح باسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) - محمد - لذة يحسرها القلب ،

ويشعر بها الجنان ، وجهط يطرب لسه الوجدان ، أضف إلى ذلك كله أن

مثل هذا التقسيم في الصبارة (مشكاة رحمتنا - صباح حجتنا) يملأ الجو

نورا ، والقلب سرورا .

ولعل التيمورية نظرت في قولها : (إن الكبائر أنست ذكرة اللمم)

إلى قول البوصيري : (إن الكبائر في الخفران كالللم) (١) إلا أن عبارة

البوصيري يسلطها الأمل ، ويحدوها الرجاء ، أكثر من عبارة التيمورية .

(١) انظر ص ٢١١ من هذه الرسالة .

وفي قولها (أقول حين أواني الحشر في خجل ٠٠) ما يشير إلى شدة هذا الموقف الذي يجعل الإنسان يخجل من كثرة ذنوبه وآثامه ، ويتحسّر على ما فرط منه في سالف أيامه .

ثم خاطبت الشاعرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مؤكدة طلب شفاعته فقالت (١) :

ياخير من أرتجى إن لم تكن مددى
وأزلتى يوم وضع القسط واندى
فاشفح بحب الذى أنت الحبيب له
أولاك ما أهرز الدنيا من المدم
عليك أزكى صلاة الله ما اغتنت
أدوار دهره وما ولت بمختتم

توضح التيمورية أن ندمها سيكون عظيما يوم القيامة إن لم يشفع لها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهى لذلك ترجو شفاعته التى هى تكريم من الله لرسوله (صلى الله عليه وسلم) فى الآخرة ، كما أكرمه فى الدنيا ، بل أكرم الدنيا بسببه فأوجدتها من العدم ، ولا شك فى أن تلك المنح من الله لنبيه تدل على عظيم منزلته ، وعلو قدره (صلى الله عليه وسلم) .

وإذا تكلمت قول الشاعرة : (ياخير من أرتجى ٠٠) تجده يدل على علو المنزلة ، ورفعة الشأن ، ويؤكد ذلك النداء (بيا) والنداء لفظ (خير) أضف إلى ذلك أن الإتيان باسم الموصول (من) يدل على أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) معلوم غير مجهول ، ومن ذا الذى يجهل قدر الصعوث رحمة للمالين (كما أن لفظ (أرتجى) فعل مضارع فيه إشارة إلى تكرار الرجاء ، وفى ذلك إظهار الأمل وتأكيد .

ولا يخفى أن قول الشاعرة : (وأزلتى ٠٠ واندى) يدل على شعورها بالأسى والحسرة إن لم يشفع لها الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كما أن قولها : (يوم وضع القسط ٠٠) يشير إلى يوم القيامة ، ولعلها تلح بذلك إلى قوله تعالى : " وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ٠٠ الآية (٧) " .

وإذا تأملت قولها : (فاشفع بحب الذى أنت الحبيب له) تجده
يوكد طلبها الذى أشارت إليه فى البيت الأول وهو طلب الشفاعة ، كما اشتمل
على قصر يدل على انفراد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بحب الله حبا كبيرا من
دون غيره : (أنت الحبيب له) .

أما قولها : (لولاك ما أبرز الدنيا من العدم) فهى ناظرة فيه إلى قول
البوصيرى : (لولاه لم تخرج الدنيا من العدم)^(١) ، وقد بينت أن من وصف
الرسول (صلى الله عليه وسلم) بمثل ذلك يعتمد على أثر قير قوى ، كما أنه
يشير إلى أولية النور المحمدى^(٢) .

ومهما يمكن من شيء فإن التيمورية عندما أرادت أن تختم قصيدتها
لم تبعد كثيرا عن نهج البوصيرى الذى ختم قصيدته بالصلاة - فقط - على
الرسول (صلى الله عليه وسلم)^(٣) فختمت هى أيضا قصيدتها بقولها : (عليك
أزكى صلاة) ولعل فى تقديم الجار والمجرور ما يدل على القصر ، إلا أن قولها :
(أدوار دهر) فيه ثقل لا داعى له ، وكل ما أرادت منه دوام الصلاة فى كل وقت ،
وإن كان قولها : (وما ولت بمختتم) يوجب إلى حسن الختام ، وهو من
المحسنات الهديفية المقبولة عند علماء البلاغة .

٣ - أثر ممارضى الدرويش والتيمورية :

بعدها وقفت مع ممارضى الدرويش والتيمورية بالدراسة والتحليل -

- فيما سبق - أستطيع أن أقول :

إن محارضة الدرويش تحمل - فى جملتها - سمات الشعر المربى - فى
مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الذى يمكن أن يطلق عليه " فجر المص
الحديث " .

ولقد كان الشعر فى ذلك الوقت يجرى على الصورة السيئة التى كان
يجرى عليها فى مصر العثمانى ، وهى صورة رديئة ، سواء فى الأغراض ، أو
المعاني ، أو الأسلوب ، فأما الأغراض فكانت ضميعة نافية ، وأما المعاني فكانت مبتذلة

(١) انظر ص ١١٨ من هذه الرسالة . (٢) المرجع السابق ص ١٢٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢١٤ .

ساقطة مكررة ، وأما الأساليب فكانت متكلفة مثقلة بأغلال البديع وما يتصل به من حساب البهل الذى كان الشعراء - فى ذلك الوقت - يلجئون به حوادث شعرهم ، وقصائدهم ، ويحكك أن تقرأ الممارسة للتأكد من أن هذا كله موجود فيها ، ويكفى دليلا قاطعا على أن الدرويش كان يبنى بالمحسنات البديعية ، ويحشرها حشرا - أن تقرأ هذا البيت :

وقد هوى بى الهوى بالبعد بحدهم

من بحدهم وبع أجفانى وبعدهم

فأى معنى جديد تجده وسط تلك الأثقال البديعية التى زادت البيت ثقلا على ثقل ، وإن شئت فاقرا هذا البيت - أيضا - :

ختام مولده مسك مؤرخه . . . خير النبیین عزما سيد الأم

لتعرف أن الشاعر قد أرخ قصيدته فى سنة ١٢٦٢ هـ وهو مجموع ما تسدل عليه عروف الشطر الثانى على حسب ما ابتدعه الشعراء فى العصر العثمانى - تمنا لحساب الجمل ، ولم تشفع مناسبة نظم القصيدة عند الدرويش لى يتخلص من هذا التقليد الموروث ، أضف إلى ذلك ما قلده البوصيرى فيه من أفكار وخاصة فى أحداث المولد الشريف (١) .

والحقيقة أن الدرويش لم يكن بدعا فى هذا الاتجاه ، بل شاركه شعراء عصره ، ولذلك يقول بعض الكتاب :

.. واقرا دواوين الشعراء الذين عاصروا كلا من (محمد على وعباس الأول وسعيد) مثل : الخشاب (٢) ، والمطار (٣) والدرويش ، فلن تجد سوى صورة لفظية قد تدرت بثياب غليظة من محسنات البديع ، ولن تجد شعورا ولا عاطفة ، وثيم الشمر والمطافة ، وكل شىء فى الحياة المصرية خامد جامد ، ولقد تبلدت الحياة فوجد الشمر والشعراء ، ولم يجد هناك إلا التقليد

(١) انظر ص ١٣٤ من هذه الرسالة .

(٢) هو : السيد اسماعيل بن سعد - شاعر مصرى توفى سنة ١٨١٥ .

(٣) هو : حسن المطار ، شاعر مصرى توفى سنة ١٨٢٤ .

وهو تقليد قاصر يقف عند النماذج العثمانية ، وما يقرب منها ، تقليد يشهد بقصور الأدب وضعف الذوق ، ويعجز عن التعبير الحر الصادق . . . (١) .

وليس ذلك يفریب إذ لم يكن أمام الشعراء - في ذلك الوقت - مُثلاً فنيةً عليا يحلمون بها ، إنما كان كل ما يحلم به الشاعر أن يتعلم العروض وصياغة النظم ، ثم يحالج نظماً ليس فيه روح ولا حياة ولا عاطفة حقيقية ، وإنما فيه المحاكاة والتقليد . . . ومثل هذا النظم لا يُقرأ لأن فيه متعة أدبية ، ولا للاستزادة من الثروة الذهنية ، وإنما يقرأ ليدل على طهر من أطوار حياتنا الأدبية . . . (٢) . وأحله الطور الذي أشار إليه العقاد بقوله : (٣)

" في الانتقال من دور الركود والجمود في الشعر إلى دور النهضة والإجادة أريج بواحل ، أو أريج درجات متواليات ، أولها : دور التقليد الضميف ، أو التقليد للتقليد . . . ، ويؤكد ذلك أيضا بعض الكتاب بقوله (٤) : " ولقد كان المظنون أن يتغير شعراؤنا منذ الحملة الفرنسية ، ومنذ أخذنا نتصل بالحياة الغربية ، ولكن يبدو أن هذه الحياة لم تتعمق إحساساً بالشعراء فظلوا في حياتهم الفنية مع القديم ، وظلوا يحجلون في هذه السلاسل المقوتة من البديع الذي لا تقلبه النفس ، ولا يتلمس إليه الذوق ، ولا يأنس له العقل ؛ لأنه لا يحوى معنى ، وإنما هو زخارف لفظية تخلف الشعور وتقتله . . .

نعم قد أخذت مصر مع أوائل القرن التاسع عشر في النهوض ، ولكن (محمد علي) وجه هذا النهوض إلى العلم والفن التطبيقي ، ولم يمن بالشعر والشعراء ، فكدت الشعر في سوقه ، وسوق خليفته (عباس وسميد) ومن أجل ذلك لم يتحرر الشعر المصري من قيوده الخليطة ، إذ لم توجد بواعث تدفعه إلى هذا التحرر . . . ولذلك لا يكاد الشعر يخرج من الإطار العثماني السقيم .

أما النصف الثاني من هذا القرن ، فإننا نجد أن هذا الإطار أخذ في التفسير والتحطيم في بعض جوانبه ، ولعل ما يوضح ذلك ممارسة التيمورية

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر ص ٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٨ باختصار .

(٣) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٨٩ .

(٤) الأدب العربي المعاصر في مصر ص ٣٨ وما بعدها .

التي ظهرت فيها بعض سمات التجديد ، والتخلص من التقليد بمض الشئ ،
يدل على ذلك أنها - مثلا - عندما أرادت الإشارة إلى بعض معجزات الرسول
(صلى الله عليه وسلم) تجنبت كل ما أشار إليه البوصيري مثل قولها :

فكم ينبع زلال غاض من يده
أروى الأوام وأسقى منه كل ظمى
والجفح أن له من بعمده جزوا
لما نأى عنه مولى الحرب والمجسم
لانت له الصخرة الصماء طائفة

مذ مسها سيد الكونين بالقدم

فأنت ترى أن الشاعرة أشارت إلى : (نبع الماء من بين أصابع الرسول)
وإلى (حنين الجذع وأنيته) وإلى (لين الصخرة الصماء) ولم يشر البوصيري
إلى شئ من ذلك ، ولعل في هذا ما يشير إلى اتجاه الشاعرة نحو
التجديد ، ويؤكد ذلك أنها عند توسلها إلى الله (سبحانه وتعالى) قد توسلت
بالمقرآن الكريم ، ثم باتباعها الدين الإسلامي الحنيف ، ثم بالرسول (صلى
الله عليه وسلم) كل هذا في قولها :

لكن لى أسوة أشقى بها بصيرى

حسن ارتباطى بحهل غير منفصم

ونفاً الله دين وصفه قيسم

بحجتى إن أخف يوم اللفا يخم

وما سوى فوز كونى بعض أمته

فدخرا أفوز به من زلة الوصم

أما البوصيري فقد توسل بأنه قد تسمى باسم الرسول (صلى الله عليه
وسلم) فقط .

وليس معنى ذلك أن التيمورية لم تتأثر في قصيدتها ببردة البوصيري ،
لا ، لقد نظرت إليها ، وخاصة في بعض أفكارها وعباراتها ، فمثلا قولها :

ولدت بالمصطفى رب الشفاعة إذ

يدعو الضادى فتحيا الناس من رجس

هو من قول البوصيري :

يا أكرم الرسل مالي من ألونذ به

سواك عند حلول الحادث المم (١)

وكذلك قولها :

وكيف لي باتحاط النفس أمرتني

بالسوء ، ناهيتني عن مورد النعم

من قول البوصيري :

فإن أمارتني بالسوء ما اتعظت

من جهلها بنذير الشيب والهزم (٢)

وأقوى مما سبق في الدلالة على نظرها إلى بردة البوصيري ، أن الشطر
الثاني من قولها :

فاشفح بحب الذي أنت الحبيب له

لولاك ما أبرز الدنيا من المدم

هو الشطر الثاني - مع تغيير قليل - من قول البوصيري :

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من

لولاك لم تخرج الدنيا من المدم (٣)

إن هذا التجديد - على الرغم من ضآلته - يدل على أن الشعراء
المصريين قد انصرفوا عن الصور السقيمة التي انتهت إليها الشعر في موطنهم
ورشح لذلك اطلاعهم على الآداب الأجنبية ، وخلو الشعر فيها من هذه
الأثقال البديعية التي تفسد المعاني وتثقلها ، أضف إلى ذلك أن دواوين
الشعر القديم قد طبعت ، واطلع المصريون على نماذج لم يكونوا يألّفونها ،
إذ كانت تخالف في جملتها النماذج التي كانوا يصرّفونها . . . فالتفتوا إلى
أن الشعر العربي وبخاصة في منابعه الأولى كان شعرا طبيعيا ، يصور حياة
أصحابه تصويرا رفيعا . . . (٤)

(١) انظر ص ٢٠٨ ون هذه الرسالة .

(٢) المرجع السابق ص ٩٧ . (٣) المرجع السابق ص ١١٨ .

(٤) الأدب العربي المعاصر في مصر ص ٤١ .

ولعل ما يؤكد ذلك قول بعض الكتاب: * فمن جهة كثرة طبع الدواوين
العباسية وغيرها ، ومن جهة كثرة المدارس والبحوث إلى الغرب ، وما اتصلنا
به عن طريق التعليم والبحث ، فتغير ذوقنا الأدبي العام لالتقاء كل هذه
العوامل والعناصر في حياتنا ، ورأينا الشعراء الشبان يأخذون في الانصراف
عن مثلنا الأدبية المثمانية ، ويؤهدون فيها زهدا شديدا . . . أضف إلى ذلك
أننا قد نلنا شيئا من حريتنا وكرامتنا ، ووجودنا الإنساني ، ولذلك أخذنا نحقق
مطالبنا وآمالنا ، وأخذنا ننتدفع نحو مثل عليا جديدة ، وكانت هذه النسل
تدفعنا إلى إصلاح كل شيء في حياتنا بحيث يمكن أن نسمى النصف الثاني
من القرن التاسع عشر عصر الإصلاح ، أو عصر محاولة الإصلاح ، وهي محاولة
إن يكن الإخفاق السياسي أدركها عند عرابي وإخوانه ، فإن الإخفاق الروحي
والعقلي لم يدركها . . . (١)

ثم يعمل ذلك الكتاب سبب هذا التقدم بقوله : * . . . إذ تقدم رواد
من الشعراء يريدون أن يستأنفوا - في الشعر - حياته الخصبة الأولى ، ويبحثوا
فيه الروح التي خمدت ، عندما تغلقت العناصر الأجنبية والمثمانية في حياتنا
وحياة العرب من حولنا . . . وقد أخذت تبشير هذا النوع في شعرنا عتسد
(الساعاتي ^(٢)) وعبد الله فكري ^(٣) . . . وعاشة التيمورية) غير أنهم لم يتخلصوا
تخلصا تاما من البديعيات والمخمسات والتضمينات ، إنما الذي تخلص من ذلك
كله هو البارودي ، الذي يعد الرائد المثالي لهذه الحركة ، إذ لم يكن
تقليده للقدماء بالمعنى السوي للتقليد ، إنما كل ما هنالك أنه أراد أن يسرد
إلى شعرنا جزائره ونصاعته ، ورضانته ، فأنتدبه من عشرة الأساليب الركيكة ، ورد إليه
الحياة والروح ، حياة نفسه ، وروح عصره وقومه في الفترة التي عاش فيها ، إذ جعله
صنفا حقيقيا لمواطنه وشاعره ، وما ألم به من أحداش وخطوب . . . (٤)

ولعل قصيدته التي عارض بها بردة البوصيري توضح ذلك ، وهذا ما سنراه
في الباب الثالث إن شاء الله .

(١) المرجع السابق ص ٤٣ بتصرف . (٢) تقدم التعريف به في هامش ص ٢٣٨ من
هذه الرسالة . (٣) هو عبد الله بن محمد عبد الله فكري ، شاعر وكاتب مصري
توفي سنة ١٣٠٧ هـ . (٤) الأدب العربي المعاصر في مصر ص ٤٤ . ما بعد ها بتصرف .

الفصل الأول

حياة البارودي

بعدها ذكرت - من معارضات البردة في مصر الحديث قبل شوقي - معارضتي الدرويش والتمورية ، فإنني - هنا - أقف مع معارضة ثالثة - تعد من أكثر المعارضات أفكارا ، وأطولها أبيانا - ولذلك أوردت لها بابا كاملا - وهي معارضة البارودي .

والبارودي هو : محمود ساي بن حسن حسني البارودي ، ولد فسي القاهرة سنة ١٨٢٨ (١) ، وقيل : سنة ١٨٣٩ (٢) ، وفيها - أيضا - شسب وترعرع ، فهو مصري المولد والنشأ ، وإن كان جركسي الأصل ، إذ كان جده لأبيه (عبد الله الجركسي) جركسي الأصل ، كما كان جده لأمه (مراد جليبي) جركسيا أيضا ، وهو الذي اكتسب منه الشاعر لقب (البارودي) ، لأنه كان ملتزما ببلدة (إيتاي البارود) (٣) ، وكان كل ملتزم (٤) ينسب إلى التزامة في ذلك العهد .

ولقد كان أجداد البارودي يتصلون بنسبهم إلى حكام مصر المالكية ، ولذلك كان الشاعر شديد الاعتزاز بهذا النسب ، ولا يفتأ يذكره في شمسره ، ومن ذلك قوله (٥) :

أنا من معشر كرام على الدهر أنادوه عزة وملاحسا

وكان والد الشاعر من أمراء المدفعية ، وعمل مديرا لهبر ودنقلسة - ببلاد السودان - في عهد محمد علي ، ولكنه مات هناك ، تاركا ابنه الذي لم يتجاوز السابعة من عمره ، فحرم من العطف الأبوي وحضنه ، ولكن والدته ، اهتمت به ، حتى إذا بلغ الثامنة من عمره ، أحضرت له المدرسين في المنزل -

-
- (١) في الأدب بالحديث ج ١ ص ١٢٦ والأدب بالعصرين المعاصر في مصر ص ٨٢ .
(٢) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الخامس ٩ ٤٣ . والبارودي راعد العصر الحديث ص ٤٦ .
(٣) إحدى البلاد التابعة لمحافظة البحيرة بجمهورية مصر .
(٤) الملتزم : هو الذي يقوم بجمع الضرائب ، وما يشبهها غالبا .
(٥) البارودي : ديوانه ج ١ ص ١٧٧ بتحقيق علي الجارم ومحمد شفيق ، طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١ .

وكان هذا دأب الأسر الكبيرة في ذلك الوقت - ليعلموه ويثقفوه .

واستمرت دراسة البارودي المنزلية أربع سنوات ، درس خلالها كثيراً من المواد التي مكنته من دخول المدرسة الحربية بعد نجاحه في امتحان القبول سنة ١٨٥١ (١) .

وهنا أقف مع تلك المواد التي درسها الشاعر في منزله ، إذ شاع بسبب الكسبر من الناس أنه لم يقرأ كتاباً في فن من فنون العربية ، متأثرين في ذلك بما ذكره أحد الكتاب عندما قال عنه : " هذا الأمير الجليل ، ذو الشرف الأصيل ، والطبع البالغ نقاؤه ، والذهن المتناهي ذكائه ، محمود سامسي باشا) البارودي ، لم يقرأ كتاباً في فن من فنون العربية غير أنه لما بلغ سن الثمقل وجد من طبعه ميلاً إلى قراءة الشعر وعلمه ، فكان يستمع إلى بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بحضرتة حتى تصور نفسي برهة (٢) يسيرة هيئات التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها والنصهسات حسبما تقتضيه المعاني والتعلقات المختلفة فصار يقرأ ولا يكاد يلحن . (٣) "

ولكن يبدو أن البارودي درس بعض كتب النحو في دراسته المنزلية ، إذ كان شرط دخول المدرسة الحربية اجتياز امتحان القبول ، وكان هذا الامتحان يحقده في : القرآن الكريم وشرح الكفراوى ومتن الآجرومية (نحو) ومتن البناء والمقصود (صرف) و علم الأخلاق ، ومتن السنوسية (توحيد) معلوم الحساب والخط الثلث ، واللغة التركية للأتراك وغلان الأتراك . (٤) وهذه المواد الدراسية قد نقلت من واقع جدول الامتحانات بدفاتر ديوان الجهادية (٥)

(١) مقدمة ديوانه ص ٦ وما بعدها بتصريف .

(٢) ذكر الكاتب هنا لفظ (برهة) بمعنى مدة يسيرة وهذا خطأ شائع ، إذ هذا اللفظ يدل على المدة الطويلة .

(٣) المرفعى : الوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٤٧٤ مطبعة المدارس الملكية بحصر سنة ١٢٩٢ هـ .

(٤) أحمد عزت : تاريخ التعليم في عصر محمد علي ص ١٧٤ ، ١٧٦ مكتبة النهضة بحصر سنة ١٩٣٨ .

(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٢٠٢ ، ٢٠٨ .

ولعل ما يؤكد ذلك الرأي أن بعض الباحثين قد ذهب إلى ذلك في رسالة علمية عن البارودي (١).

ويبدو أن العقاد كان يتوقع مثل ذلك إذ علق على قول صاحب الوسيلة الأدبية السابق بقوله: "... والأستاذ المصطفى (٧) لا يعنى بمبارته هذه إلا أن البارودي لم يتعلم النحو والصرف والبلاغة والعروض كما كان الطلاب يتعلمون فنى عصره فهو لم ينظم الشعر لأنه تعلم العروض كما كان ينظم الشعراء... ولكنه تعلق بالشعر عن غوى وسليقة... (٨)".

ويزيد الأمر وضوحاً قول أحد النقاد بعد ذكره قول صاحب الوسيلة السابق - أيضاً - : "... ومعنى ذلك أنه لم يستن سنة محاصره، من تعلم النحو والعروض والهدى حتى يحسن نظم الشعر، وإنما استن سنة جديسدة صحح بها موقف الشعر والشعراء، فزدهم إلى الطريقة القديمة، طريقة الرواية التي كان يتسلقن بها الشاعر الجاهل والأموي أصول حرفته... (٩)".

وما لا شك فيه أن المصطفى يهدف إلى إثبات السليقة الشعرية للبارودي إلا أن ذلك لا يضح أنه تعلم العروض وغيره من علوم العربية لخدمة تلك السليقة، ولعل ما يؤكد ذلك أن الشاعر قد ذكر بعض المصطلحات المرورية عندما وصف شعره بقوله (١٠):

لم تبين قافية نيه على خلل

كلا ، ولم تختلف في رصفها الجمل

فلا سناد ، ولا حشو ، ولا قلسق

ولا سقوط ، ولا سهو ، ولا عليل (١١)

(١) انظر: علي الجديدي: البارودي ص ٣٤ وما بعدها، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بصر سنة ١٩٦٧.

(٧) هو: الشيخ حسين المصطفى - أديب مصري توفي سنة ١٨٩٠ وقيل: سنة ١٨٨٩ -

انظر: الفصل في تاريخ الأدب العربي ج ٢ ص ٣٩٨.

(٨) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٩٣.

(٩) الأدب العربي المعاصر في مصر ص ٨٧ وما بعدها.

(١٠) ديوانه ج ٣ ص ١٧٢ وما بعدها. (١١) السناه عيبين عيوب الشعر يطرأ على

ما قبل حرف الروى ، وقيل: غير ذلك. انظر: العمدة ج ١ ص ١٦٩.

فذكره السنك - وهو عيب من عيوب القافية - يدل على أنه تعلم علم
الصروض ، وليس في تعلم الشاعر علم الصروض ما يفرض من شعريته ، أو يخصف
مفردته ، فإن لكل فن مبادئ وأساسا لا بد من تعلمها ، والوقوف عليها ، وخاصة
ما في الأمر أن هناك فرقا بين من يتعلم المبادئ - لفن من الفنون - ليتعلم
هذا الفن ، ومن يتعلم المبادئ لتهديب ما لديه من طليقة وحسب له هذا
الفن .

ولقد كان لدى البارودي استعداد لقول الشعر - من صفه - إذ
شفق بقراءة كتب الأدب العربي وهو في المدرسة الحربية ، أضف إلى ذلك
أنه أحب أن يكون شاعرا مثل خاله الذي أشار إليه بقوله (١) :

أنا في الشعر عريق ••• لم أره عن كلاله
كان إبراهيم خالسي ••• فيه مشهور القال (٧)

ويبدو أن من حسن حظ الأدب أنه عندما انتهى البارودي من
دراسته في المدرسة الحربية كان عباس الأول هو الذي تولى حكم مصر
وكان من المعوقين للتهضة - كما سبق - ففسدت روح الحامية في الجيش
وسرح معظمه ، وأغلق كثيرا من المدارس ، ولذلك لم يجد البارودي -
وزملائه - عملا يقومون به ، أما زملاؤه ، فقد طاب لهم عيش الرخاء والدعة
وسرهم الحمد عن ميادين القتال ، وأما البارودي فقد ضاق ذروعا بذلك ،
إذ كان يود الاشتراك في الحروب كما لشارك فيها أباه وأجداده ، ولملسه
أراد أن يموض ذلك الأمل - ولو إلى حين - بقراءة كتب العرب ودواوينهم
التي وصفت تلك الممارك وصفا دقيقا تجملا لقارى ، يسمع تعمقة السلاح ،
ويسرى نزال الأبطال .

ولما قرأ الشاعر كثيرا في هذا الشعر العربي ، أحس بما فيه من روعة
وجمال يجذبان القلب ، ويحركان اللسان إلى القول ، وخاصة أنه لم يقف عند

(١) ديوانه ج ٣ ص ١٩٥ ، وما بعدها .

(٧) وخاله هو : إبراهيم بن علي أغا البارودي ، ولم تذكر المراجع عنه شيئا سوى
أنه مات وهو في الخامسة والعشرين من عمره . انظر ديوان البارودي ج ٣ ص ٣٠٣
ص ١٩٦ .

الحروب وعبادتها ، بل تناول الحياة كلها بما فيها من جد وهزل ووصف وحكم .

ومن هنا كان طبيعيا أن يترنم ابن الأيكة ، ولكنه وجد أبناء طبقته من الجراكسة يعمرونه ينظم الشعر ، ولكنه لم يحبا بهم ، إذ هو لا يحاكي الشعراء الذين يطلبون بشعرهم عطف حاكم ، أو عطاء أمير ، وما شجعتهم على ذلك أنه رأى كثيرا من الشعراء كانوا أمراء وذوى شأن كبير ، ولم يحبهم نظم الشعر ، بل وجد التاريخ أسماءهم ، مثل : امرئ القيس والشريف الرضى وأبي فراس وغيرهم (١) وهذا ما أشار إليه بقوله (٢) :

تكلت كالباضين قلى بما جرت

به عادة الإنسان أن يتكلمنا

فلا يمدنى بالإساءة غافل

فلا بد لابن الأيكة أن يترنمنا

سفر البارودي إلى الآستانة :

ويبدو أن البارودي قد مل الحياة في مصر من غير عمل ، فسانر إلى الآستانة - مقر الخلافة - لعله يجد هناك عملا ، وفعلنا التحق بسوزارة الخارجية ، ولكنه كان دائم الاطلاع في كتب الأدب العربي ، وما شجعتهم على ذلك أنه وجد هناك - في الآستانة - نخاسر قيمة ، فأنكب عليها ، وعكف على قراءتها واستظهارها ، ولقد تمكن من إتقان اللغة التركية والفارسية وأن يدرس آدابهما ، وحفظ كثيرا من أشعارهما ، ودعت سليفته الشريفية إلى النظم بهما كما نظم بالعربية .

عودته إلى مصر :

وعندما سافر إسماعيل إلى الآستانة سنة ١٨٦٣ ليقدم آى الشكر والرفان للخليفة على توليته حكم مصر ، ألحق البارودي بها شيئا من أثناء مقامه ، ويبدو

(١) مقدمة ديوانه ص ٦ وما بعدها بتصرف . (٢) ديوانه ج ١ ص ٥٩ .

(٢) مقدمة ديوانه ص ١١ .

أن إسمايل توسم نفسه النجاسة والطوح ، فعاد به إلى مصر في العام نفسه ، ولم يكن عصر البارودي قد تجاوز الرابعة والمشرين عاما عندما عاد إلى مصر ، ليحمل في جيشها ، ولم يلبث أن أوفد إلى فرنسا مع بعض الضباط المصريين لمشاهدة مناورات الجيش الفرنسي السنوية ، ثم سافر هو ومن معه إلى (لندن) للتعرف ببعض المعارف العسكرية ، ولما عاد البارودي إلى مصر ، لم يلبث إلا قليلا حتى رقى إلى رتبة (قائد) ثم إلى (أميرالاي) وتحقق له الأمل الذي تمناه من زمن بعيد (١) ، فاشترك في عدة حروب ، وسجل كثيرا من مشاهدتها في شعره ، ومن ذلك قوله (٧) :

ولما تداعى القوم واشتبك القنا

ودارت كما تهوى على قطبها الحرب

وزين للناس الفرار من السردى

وما جت صدر الخيل ، والتهيب الضرب

صبرت لها حتى تجلت ساورها

وإني صبور إن ألم بسى الخطيب

ولقد كان البارودي موقفا في حروبه ، ولذا قرره إسمايل ، وجعله كاتبا لأسراره ، وأوفده إلى الأستانة في بعض الأمور السياسية - مرتين - وظل يحمل معه مدة اثنتي عشرة سنة .

وعندما أعلنت روسيا الحرب على تركيا سنة ١٨٧٧ أرسل إسمايل جيشا صريا بقيادة البارودي لمعاونة الخليفة ، فأبلى الجيش وقائده بلاء حسنا ، ولذلك عندما عاد البارودي أنهم عليه برتبة (اللواء) وبعض الأوسمة ، وكان عمر الشاعر - حينئذ - أربعين عاما ، ولم يلبث أن عين مديرا للشرقيسة ، ثم محافظا للمصصة (٢) .

ولما تولى توفيق حكم مصر ، قرب البارودي إليه ، وجعله وزيرا للأوقاف ثم وزيرا للحربية ، ثم لم يلبث أن عزله عندما دُس بينهما ، ولما اضطربت الأحوال السياسية ، استدعاه توفيق وكلفه بالاشتراك في الوزارة ، ثم أمره بحمد

(١) مقدمة ديوانه ص ١٢ وما بعدها . (٧) ديوانه ج ١ ص ١١٥ .

(٢) مقدمة ديوانه ص ٢١ .

ذلك برئاسة الوزارة سنة ١٨٨٢ (١) .

نفيهم

ولما قامت الثورة العراقية ، كان من بين زعمائها ، وعندما فشلت
حوكم معهم ، وحكم عليهم بالنفي خارج البلاد (٢) ، فأقلت بهم السفينة
إلى (سرنديب) (٣) في ديسمبر سنة ١٨٨٢ .

ولقد كان للفراق لوحة على نفس الشاعر ، كما كان لبعده عن أهله
وطنه أسى شديد ، ولذلك نظم قصيدة - ترى فيها دموعه ، وتلمس حزنه ،
ومنها قوله (٤) :

ولما وقفنا للوداع وأسهمت

مدامنا فوق التراب كالمسزن

أهبت بصبري أن يعود فمزني

وناديت حلبي أن يثوب فلم يثن

وأخيرا وصلت سفينتهم إلى (كولومبو) في يناير سنة ١٨٨٢ ، وهناك
استقبلهم المسلمون - من أبناء تلك المدينة - استقبالا حارا (٥) .

وترى الأيام في النفي بطيئة ، مثقلة بالهموم والأحزان ، ويتردها
حزنا ، نأى وفاة زوجة الشاعر في سنة ١٨٨٥ ، فيكيها بكاء حارا (٦) في قصيدة
منها : (٧)

يادهر فيم فجمعتني بجليسة

كانت خلاصة عدتي وهتادي

-
- (١) المرجع السابق ص ٢٢ وما بعدها باختصار .
 - (٢) انظر محمود سامي البارودي ص ١٥٢ وما بعدها .
 - (٣) هي إحدى جزر الهند وسميت فيما بعد (سيلان) .
 - (٤) البارودي رائد الشعر الحديث ص ٨٢ .
 - (٥) محمود سامي البارودي ص ١٥٤ و (كولومبو) ميناء عاصمة (سرنديب)
 - (٦) المرجع السابق ص ١٦٤ (٧) ديوانه ج ١ ص ٢٣٨ .

ولم يكسديق الشاعر من حزنه على زوجته حتى وصله نبأ وفاة ابنته
فتجدد حزنه ، وكثر أساهه ، ثم شاء الله أن يموت صديقه : عبد الله فكسرى
، وأستاذة : حسين المرصفي ، فهكاهما الشاعر بكاء حارا (١) :

ولقد أثرت هذه الأحزان في الشاعر تأثيرا كبيرا فوهن جسده ، وضمف
بصره ، فانتقل إلى (كدى) سنة ١٨٩٠ تهما لمشورة الأطباء ، لأن جوهها
يناسب صحة الشاعر ، وهناك يسترد بعض عافيته ، فيشغل نفسه بالقيسرارة
ويتعلم اللغة الإنجليزية ، ويعلم المسلمين في (كدى) اللغة العربية
ويفقههم في الدين ، كما يؤم الصلحين في صلاة الجمعة ، ويحتل المنابر
في مساجد المدينة (٢) .

عودته إلى مصر :

وشاء الله أن يعود الشاعر إلى وطنه سنة ١٩٠٠ (٣) ، وعندما وصلت
السفينة إلى مصر ، انهمرت دموعه ، وخاصة عندما هنأ بالعودة جمسع
كبير من عشاق الأدب وأهل الفكر ، ولغيف من الصلما ، فنظم الشاعر
قصيدة يقول فيها (٤) :

أبابل رأى العين أم هذه مصر . . . فإني أرى فيها عيوننا هي السحر (٥)

ومنذ عودة الهارودي إلى مصر ، أصبحت داره منتدى الشعراء والأدباء ،
كما أنه عكف على ديوانه ينقحه ، وكان يملى على كاتبه : الشيخ ياقوت المرسي
والشيخ عطية حسنين إذ فقد بصره في أيامه الأخيرة (٦) .

-
- (١) محمود سامي الهارودي ص ١٦٦ وطبعدها .
 - (٢) تهمد عن (كولومبو) نحوالي ٢٣ ميلا .
 - (٣) محمود سامي الهارودي ص ١٧٠ .
 - (٤) مقدمة ديوانه ص ٣٥ ، دائرة المعارف الإسلامية المجلد الخامس ص ٤٥
 - (٥) ديوانه ج ٢ ص ١٤٤ .
 - (٦) أبابل : من أعظم مدن العالم - قديما - تقع على الجانب الأيسر
من نهر الفرات ، كانت واسعة الشهوة في جمالها .
 - (٧) محمود سامي الهارودي ص ١٩٠ .

وفاته :

وفي ديسمبر سنة ١٩٠٤ صدرت روح الشاعر إلى بارشها ، وأم^٣
المصلين عليه صديقه الشيخ محمد عبده .(١)

أشاره :

(١) خلف البارودي ديوانا ضخما من الشعر يقع في أربعة أجزاء ، طبع منه
جزءان على نفقة زوجة الشاعر الثانية ، ثم كلفت وزارة المعارف السيدين
: علي الجارم^(٧) ومحمد شفيق معروف^(٢) ، بشرح وتصحيح الديوان
وصدر منه جزءان ، وصلا إلى قافية الكاف ، وبعد وفاة الجارم قسم
الأستاذ محمد معروف بشرح وتصحيح الجزء الثالث الذي طبعت دار
المعارف بمصر سنة ١٩٢٢ وينتهي بقافية الميم ، وآخرى - الأستاذ
محمد معروف سأنه في سبيله لطبع الجزء الرابع .

(٢) كما خلف البارودي مختارات من الشعر في أربعة أجزاء كبيرة لثلاثين
شاعرا - تقريبا - وقد شرحها وعلق عليها - وقامت زوجته بطبعها على
نفقتها بعد وفاته ، وهذه المختارات تدل على حسن ذوق ، وبصر جيد
الشعر، كما يدل تحليقه عليها على سعة اطلاعه ، وفزارة مادته .

(٣) ويبدو أن للبارودي مختارات في النشر سماها (قيد الأوابد)
إلا أنها لم تطبع إلى الآن تقريبا .(٤)

(١) المرجع السابق ص ١٩٤ .

(٢) هو الأستاذ علي بن صالح بن عبد الفتاح الجارم - أديب مصري ، من رجال
التعليم ، تدرج في عدة مناصب حتى أصبح وكيلًا لدار العلوم ، توفي سنة ١٩٤٩
(الاعلام ج ٥ ص ١٠٦) .

(٣) هو الأستاذ / محمد شفيق معروف - أديب مصري - من رجال التعليم
تدرج في عدة مناصب حتى أصبح مديرا عاما لوزارة التربية والتعليم ثم أحيل
إلى المعاش ، وما زال يجاهد بقلمه .

(٤) عمر الدسوقي : محمود ساق البارودي (نوابغ الفكر المصري) ص : ٣٣
وما بعدها . دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٣ .

شاعرنا :

رزق البارودي موهبة شعرية فذة ، وأتيحت له أسباب كثيرة صقلت بها ، ومنها : كثرة قراءته دواوين الشعراء العرب القدامى ، وحفظه الجيد ممن أشعارهم ، وإطلاعه على آداب اللغة التركية والفارسية والإنجليزية ، وكثرة أسفاره إلى البلاد الأوربية وغيرها ، مثل : الأستانة وباريس ولندن وغيره إلى سرنديب ، ومشاركته في كثير من الحروب التي خاض غمارها ، وشاهد أعمالها وصحته لبعض المصلحين مثل : السيد جمال الدين الأفغانى ، وانتفاعه بدروسه وآرائه ، وكثرة الأحداث التي وقعت في عصره ، أضف إلى ذلك كله وراثته عن خاله ، كما سبق تصريحه بذلك .

ولا شك في أن تلك الأسباب كانت سببا في صقل ذوقه الأدبى ، وكانت ذات أثر كبير في معانيه وأخيلته وتصوره للحوادث ، مما جعل شعره يمتاز " .. بسطوة القول ، وجزالة اللفظ وفحولة النظم ، وروانة القافية ، وإشراق الديباجة ، حتى ليكن أن يقال في غير تردد ، إنه لم يجىء ممن بعد العصر العباسى الثانى من يبرع البارودي في هذا الباب أو من يدانى به ... (٧) " ، ولقد عارض نحول الشعراء من المتقدمين وله الفضل في رد العصر العربى في هذا العصر الحديث إلى فتوته وقوته ونضارته في العصر المتقدمة ... (٧) " ولذا يحد باعث النهضة الشعرية دون منازع ، وحامل لواء الشعر في العصر الحديث دون مدافع ..

قال عنه بعض الكتاب : " وهو صاحب مدرسة كبيرة .. يمكن أن نسميها مدرسة النهضة أو مدرسة البحث .. وهى مدرسة حافظت بقوة على تقاليد الشعر العربى ، وكل ما يتصل بشخصيته ومقوماته ، ومن تلاميذ هذه المدرسة : حافظ وشوق وغيرهما ..

ولقد امتازت هذه المدرسة بأنها لم تحل بين المحافظة على القديم ، وبت عناصر جديدة كثيرة لا يرفضها الذوق العربى الأصيل .. إذ يفسى

(١) المصطلح في تاريخ الأدب العربى ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٧) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٤٣ .

كل شاعر من شعراء هذه المدرسة ، يهتدى بطريقة البارودي مضميا عليها
من ملكة الأديبة وماتنفذى به من آداب غريبة (١)

ولا شك الأستاذ العقاد فضل البارودي بقوله : . . . إن الفضل الذي
له على عصره أكبر من الفضل الذي لحصره عليه ، فما جاء به من عند نفسه
كثير لا يتاس إليه ما يجيء من قدرة معاصرة ، وذلك وحده خليق أن يهونه
وحامة جيله ، وقدمه إلى طليعة معاصريه وتابعيه . . . (٢) ، ثم يبين بسبب
ذلك الفضل بقوله : . . . قد وثب بالصبارة الشعرية وثبة واحدة من طريق
الضعف والركاكة إلى طريق الصحة والمتانة ، وأوشك أن يرتفع هذا الارتفاع
بلا تدرج ولا تصعيد . . . فإذا أرسلت بصرك خمسمائة سنة وراء عصر البارودي
لم تكن تنظر إلى قمة واحدة تشابهه أو تدانيه . . . وهذه وثبة قديوة ففى
تاريخ الأدب المصرى ، ترفع الرجل - بحق - إلى مقام الطليعة أو مقام
الإمام . . . (٣)

وهما يكن من شيء : فإنك إذا تصفحت شعر البارودي وجدته قد
جال فى كل غرض ، وصال فى كل فن ، وشعره - بحامة - يأخذ بمجاميع
القلوب ، وتأسرك روعة موسيقاه ، وتماسك أبيانه ، وانسجام ألفاظه التى تسرى
وتلطف فى موضع الرقة واللفظ كالخزل والعتاب ، ويهتد أسرها حين ينشدتها
فى الحماسة والفخر .

هذا عن شعره - بحامة - أما عن شعره الدينى (٤) - بخاصة - فسهل
الأسلوب واضح المعنى ، يدور - فى الغالب - حول مناجاته ربه ، وابتهااله إليه
مثل (٥) :

يا من إليه الوجوه خاشعة ومن عليه فى الكون معتصدي
مددت كفى إليك مبتهلا وأنت حسبي ، فلا ترد يدي

(١) البارودي رائد الشعر الحديث ص ١٧٠ وما بعدها بتصريف .

(٢) شعراء مصر وميئاتهم فى الجيل الماضى ص ١١٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٩٠ .

(٤) سوف أخص شعره الدينى بمزيد من الإشارة إليه لعلته القوية بموضوع الرسالة ، أما
بقية شعره : فانظر مقدمة ديوانه ، والبارودي رائد الشعر الحديث ص ٩٧ وما
بعدها .

(٥) ديوانه ج ١ ص ٢٩٥ .

كما يشير إلى أن الموت نهاية كل حسي ، وأن التقوى خير زاد ،
فيقول (١) :

كل حى سيموت •• ليس فى الدنيا ثبوت
ليس للإنسان فيهما •• غير تقوى الله تسوت

ومن شجرة الدينى مداشحه النبوة ، وعى قليلة بالنسبة إلى بقية
شجره إن لم تزد على قصيدتين (٢) :

الأولى : بلغت أبياتها سبعة وشرين بيتا ، ومثلها (٣) :

يا صارم اللحظ من أغراك بالمهج

حتى فتكت بها ظلما بلا حرج

ويمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيها بقوله :

هو النبي الذي لولا ندايته

لكان أعلم من فى الأرض كالمهج

أنا الذي بت من وجدى بروضته

أحن شوقا كطير البانة المهج

ثم يناجى ربه (جميل جلاله) متوسلا بالرسول (صلى الله عليه وسلم)

بقوله :

يا رب بالمصطفى هب لى وإن عظمت

جرائسى ، رحمة تشفى عن الحجج

ولا تكلنى إلى نفسى فإن يمدى

• تلولة ، وصباحى غير منهلج

ما لى سواك ، وأنت المستعان إذا

ضاق الزحام غداة الموقف الحرج

أما القصيدة الثانية : فمهمى التى عارض فيها بردة البوصيرى ، وسوف أقسف

محميا بالدراسة والتحليل فى الفصل التالى إن شاء الله •

(١) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٦ •

(٢) هذا الحكم بمد قراءة ثلاث أجزاء • من ديوانه فقط ، لأن الجزء الرابع لم يظهر
إلى الآن •

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٥١ وما بعدها •

الفصل الثاني

دراسة وتحليل

كشفاً للثمة في مدح سيد الأمة

لقد تحدثت عن حياة البارودي وشاعريته ، ثم أقيمت الضوء على شعره بحامه وشعره الديني بخاصة ، وذكرت أن مدائحه النبوية محصورة في قصيدتين ، وبينت أن القصيدة الأولى بلغت أبياتها سبعة وعشرين بيتاً .

ويبدو أن الشاعر أحس بقلّة مدائحه النبوية ، فنظم قصيدته الثانية ، وأطال فيها إهالة كبيرة حتى بلغت أبياتها سبعة وأربعين وأربعمئة بيت ، من بحر البسيط ، وروياً ميم مكسورة ، وضمنها سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) . وهي بذلك تعدّ معارضة لبردة الهوسيري - ولقد ساءها الشاعر : (كشف الثمة في مدح سيد الأمة) وصدرها بمقدمة قال فيها :

” حمد الله لذاته ، آية الإيمان والإخلاص ، والمصلاة والسلام على النبي الأبي وآله ، محجة الخلاص ، وحمد :

فهذه قصيدة ضمنتها سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) من حين مولده الكريم ، إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه ، وقد بنيتها على سيرة ابن هشام (١) ، وسميتها : ” كشف الثمة ، في مدح سيد الأمة ” ورغبتى إلى الله أن تكون لي ذريعة أمت بها يوم المحاد ، وسلماً إلى النجاة من نول المحشر ، اللهم فحقق رغبتى إليك ، واكسبها بفضلك رونق القبول - آمين - ” (٢)

ولقد طبع الجزء الثالث من ديوان البارودي - محققاً - ولم تكن فيه تلك القصيدة على الرغم من أنها ميمية الروي ، وهذا الجزء ينتهي بقافية النون ، فاتصلت بمحققه ، أستوضحه سبب عدم وضعها في الديوان ، فكتب إلي - مشكوراً -

- (١) هو : أبو محمد عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٣ هـ وقيل : سنة ٢١٨ هـ
(٢) انظر البارودي : كشف الثمة في مدح سيد الأمة ص ٢ ، مطبعة الجريسة
بمصر سنة ١٣٢٧ هـ .

قائلا: " ٠٠ " إن هذه القصيدة من شعر البارودي ، وإنما قد طبعت منفردة سنة ١٣٢٧ هـ " ويبدو أنه كان مريضا ببصره ، لأنه قال في رسالته - السابقة - إلى : " ٠٠ " وإذا أنعم الله عليّ بصحة متوسطة ، وأعاد إليّ نصف بصري شرحت بدعونة الله تعالى ومشيتته قصيدة (كشف الخمة) .

ومهما يكن من شيء ، فلقد بدأ البارودي هذه القصيدة بقوله (١) :

- يارائد البرق بيم داراة العلم
واحد الفخام إلى حوى بذي سلم (٢)
وإن مررت على الروحاء فامر لها
أخلاف سارية هتانة الديم (٣)
من الفزار اللواتي في حوالها
رى النواهل من زرع ومن نمم (٤)
إذا استهلكت بأرض تفتت يدها
يردا من النور يكسو عارى الأكس (٥)
ترى النبات بها خضرا سنا بله
يختال في حلة موشية العلم (٦)

يخاطب الشاعر الريح التي تسبق الخيث ، وأمرها بأن تسقط المطر على أماكن أحبته في : " داراة العلم ، وذى سلم ، والروحاء " لكن تشرب الإبل

- (١) كشف الخمة في صبح سيد الأمة ص ٢٠
(٢) الرائد : الرسول الذي يتقدم على القوم ليبتس لهم مكانا خصيبا ينزلون فيه ، وأراد به الشاعر هنا الريح التي تتقدم على الخيث . الدراة : ما أحاط بالشيء ، أخذ الفخام : سقاه بالخيث .
(٣) الروحاء : موضع بين مكة والمدينة . فامر لها : فاستدر لأجلها . الأخلاف : جمع (خلف) - بكسر فسكون - يطلق على ذوات الخف كالثدي للإنسان . سارية هتانة : سحابة كثيرة المطر .
(٤) الحوالب : ما تصد الضرع باللبن والمراد هنا ضابع الطم ، النواهل : المطاش .
(٥) تفتت : نقضت وزينت . النور : - بفتح النون مشددة - الزهر - يردا : - بضم فسكون - ثوبا ، وجمعه (برود) بضمين .
(٦) يختال : يتبختر . موشية : مزينة . العلم : المراد : العلامة تكون في طرف الثوب .

وينمو النبات الذي يكسو الأرض بحلله الأخضر ، وأزهاره الجميلة .

ولا يخفى أن البارودي نهج نهج القدماء في هذا المطلع ، إذ كان الشاعر العربي - يدعو بالسقيا لأرض محبوبته حتى ينبت الزرع ، وتبقى نفسى مكانها ، فلا ترحل بحثا عن النبات ، ومن ذلك قول البحترى :

نشدتك الله من برق على إضم

لما سقيت جنوب الحزن فالعلم (١)

إن البارودي لم يرد مطلق الفيث ، بل أراد غيثا غزيرا ، يدل على قوله :

(أخلاف سارية هتانة الديم) وقوله : (من الفزار اللواتى نسى

حوالها ٠٠) .

ولا يخفى أن في هذا القول تشبيها رائعا متروجا من البيضة البدوية ولقد أكد المعنى ووضح الفكرة .

وإذا تأملت قوله : (إذا استهلكت بأرض نضمت يدها ٠٠) تجده قد اشتمل على مجاز عقلى ، لا يخفى أثره في إظهار أثر المطر الذي يكسو الأرض الجديباء حلا مزرعنة ، وأردية مزينة ، ولعل الشاعر أراد أن يؤكد ذلك الأثر فأشار إلى أنك إذا نظرت إلى النبات ، وهو مورق جميل يهتز مع الريح ، تحيل إليك أنه (يختال في حلة موشية العلم) ، إنها صورة رائحة ، وتجسيم بديع ، كان سببه ذلك الفيث الذي تمنى الشاعر سقوطه على ديار محبوبته ، التي يؤكد حبها بقوله : (٢)

أدعو إلى الدار بالسقيا وبى ظمأ

أحق بالرى ، لكنى أخو كـ كـرم (٣)

(١) ديوانه ج ٢ ص ١٦٨ .

(٢) كشف الخمة في مدح سيد الأمة ص ٣ .

(٣) يبدو أن الشاعر أتى (بالرى) بدل اللام للوزن ، والأصل (أدعو للدار ٠٠)

منازل لهواها بين جانحتي
وديمعة سرها لم يتصل بغمى (١)
إذا تنسنت فيها نفحة لمهبت
بسي الصباية لصب الريح بالعلم (٢)
أدر على الصبح ذكراها فإن لها
في القلب منزلة مرعية الذمم

يدعو البارودي لديار محبوبته بالسقيا مع أنه أحق بالرى لشمسدة عطشه، ولكنه يؤثرها على نفسه، لأن لها مكانة عالية يحفظها في قلبه، ويكتمها بين جوانحه، ثم يذكر أنه إذا تنسم نفحة من راحتها الذكيرة، خفق قلبه، واضطرب نواده، كما يخفق العلم إذا هزته الرياح.

وفي تلك الأبيات يظهر مدى حب البارودي هذه الأماكن التي يحبها، لأن فيها أحبابه، ولذلك يدعو لها بالسقيا مع أنه أحقهم - كما تشير الأبيات إلى ما طبع عليه البارودي من نخر واعتزاز في مثل قوله: (لكى أخوكم) .

ولما كانت هذه الأماكن تخص أحبابه وكان من شرط الحب كتمان أسرارها، ولذلك حسنت هذه الكناية اللطيفة من الشاعر: (وديعة سرها لم يتصل بغمى) فالسر مصون في القلب، وبلغ من قوة كتمانها أنه لم يتصل بغمسه فضلا عن فم غيره.

وإذا تأملت قوله: (إذا تنسنت منها نفحة) وجدته يشير إلى شدة حسن رائحة هذه الأماكن، ويؤكد ذلك أنه إذا شم غيرها: لمهبت به الصباية، ولا يخفى أن في ذلك التصيير مجازا عقليا، يدل على أثر هذه الرائحة الطيبة، وقوة ذلك الحب.

ولقد أتى الشاعر بتشبيه محسوس يصور به مدى تغافل هذا الحبيب

(١) الجانحة: واحدة الجوانح وهي الأضلاع التي تحت التراب، وعن ما يلي الصدر، كالضلع ما يلي الظهر.

(٢) تنسنت: المراد وجدت نسيمها. نفحة: المراد رائحة طيبة - العلم: اللوا، أى الراية.

في قلبه وشدة استحواذه عليه في قوله : (لصب الريح بالقلم) إن قلبه يخفق ، وفؤاده يضطرب من شدة حبه تلك الديار ، ولذلك حتى له أن يجره بين نفسه شخصاً يطلب منه أن يدير على سمعه ذكراها ، مع أنه ما زال يحتفظ بهواها .

ويبدو أن الشاعر تذكر أيام أحبابه التي مضت فقال : (١)

عهد تولى وأبقى في الفؤاد لسه
شوقا يغل شباة الرأي والهيم (٢)
إذا تذكرته لاحت مخائله
للمين حتى كأنى منه في حلم (٣)
فما على الدهر لو وقت شمائله
فصاد بالوصل أو ألقى يد السلم

يقول البارودي : إن زمن حبه قد ذهب ، ولكنه كان عظيم الأثر ، إذ ترك في نفسه لهفة ، وأبقى في قلبه شوقا كبيرا ، يسيطر على عقله ، ويكفي أنه إذا تذكر تلك الأيام ، ظهرت صورتها ماثلة أمام عينيه ، وخيل إليه أنه في حلم ، ثم يتصف الشاعر أن يصفو دهره ، وتموده أيام حبه .

وفي تلك الأبيات تظهر عاطفة الشاعر حزينة على عهد حبه السدي ذهب ، وزمن صباه الذي تولى ، ولكنه أراد أن يبرز أثر ذلك الحب فقال : (وأبقى في الفؤاد لسه شوقا) ، وأكد بقوله : (يغل شباة الرأي والهيم) ثم زاده تأكيدا بقوله في البيت الثاني : (إذا تذكرته لاحت مخائله) كما أن في قوله : (كأنى منه في حلم) تشبيها يشير إلى دهشته .

وفي البيت الثالث أمنية يرجو الشاعر تحقيقها ، إنه يرجو أن يرق

-
- (١) كشف الخمة في مدح سيد الأمة ص ٤ .
 - (٢) يغل : يكسر . - شباة : جد .
 - (٣) كشف الخمة في مدح سيد الأمة ص ٤ .

دهره ، وتصفو أياها ، فتعود أيام حبه مرة ثانية : (فما على الدهسبر
لو رقت شمائله ٠٠) ولكن هيئات لما يرجوه ، إذ كيف يتحقق له ذلك
وقد كثرت عليه الخطوب التي أشار إليها بقوله (١) :

تكا ، دتنى خطوب لورميت بهما

(١) مناكب الأرض لم تثبت على قدم

في بلدة مثل جوف المير لمت أرى

(٢) فيها سوى أم يتخفوا على صنم

لا أستقر بها إلا على قلبسقى

ولا ألك بها إلا على السهم

إذا تلفت حولي لم أجد أنسرا

إلا خيالي ولم أسمع سوى كلمسى

فمن يرد على نفسى لبانتهمسا

(٣) أو من يجبر فؤادى من يد السقم (٤)

يشير البارودى في تلك الأبيات إلى تلك الخطوب التي أحاطت به ،
وشقت عليه في تلك البلدة التي انتشرت فيها الوثنية ، وهي (سرنديب) كما
أشار إلى ذلك كاتبه (٥) - تلك البلدة التي كانت مصدر قلق وألم ، إذ ليس
فيها أنيس ولا جليس .

وإذا تأملت قول الشاعر : (تكاه دتنى خطوب ٠٠) وجدته يشير إلى
حزنه وأسفه ، لأن الخطوب شديدة وكثيرة ، ولو أنك (رميت بها مناكب الأرض

(١) كشف الفحة في مدح سيد الأمة ص ٤٠

(٢) تكاه دتنى : شقت على .

(٣) أراد بقوله : (في بلدة ٠٠) جزيرة (سيلان) المير : بفتح العين وسكون
الياء - الحمار الوحشى والأهلى أيضا . والمراد أن هذه البلدة خالية من أسره
وأحبابه كخلو جوف المير من السكان ، (وجوف المير) قيل : إنه منصوب
إلى حمار بن مويلع (بالتصغير) رجل من بقايا عاد أشرك بالله فأرسل عليه
صاعقة أحرقتة .

(٤) لبانتها : حاجتها ، وأراد بها الشاعر هنا : عودته إلى وطنه (مصر) بعد
أن ذاق مرارة النفي في (سرنديب) انظر كشف الفحة في مدح سيد الأمة ، هامش
ص ٤٠ . (٥) المرجع السابق الصفحة نفسها .

لم تثبت على قدم) • وفي هذه العبارة • استعارة مكعبة لا يخفى سرها
في الإشارة اللطيفة إلى كثرة المصائب التي ألمت بالشاعر • كما أنها تشير
- أيضا - إلى قوة تحمله • وحسن صبره •

ولا يخفى أن في قول الشاعر: (• أم تحنوا على صنم) كناية
لطيفة أشسار يهيمها إلى أن هؤلاء القوم - أهل سلان - ليسوا
مسلمين •

وإذا تأملت قوله : (في بلدة مثل جوف المير ••) وقوله : (إذا
تلفت حولي لم أجد أثرا إلا خيالي •) أدركت ما يعانيه الشاعر من وحدة
قائلة • وغربة موحشة •

وكان من الطبيعي أن يخفى الشاعر عودته إلى وطنه • ولذلك قال
: (فمن يرد على نفسه لباتمها ••) وكيف لا يرجو العودة إلى وطنه
وهو وحيد طريد • أضف إلى ذلك أن الحلل قد أصابت جسده • وهذا
ما أشار إليه بقوله : (أو من يجير فؤادي من يد المقم) • وفي هذا
القول استعارة مكعبة هلمت على شدة المرض الذي أصاب الشاعر وتمكسه
منه •

إن هذه الأبيات تصور - بوضوح - نفس الشاعر الحزينة • وقلبيته
الجريح • مؤكداً ذلك قوله (١) :

ليت القطا حين سارت غدوة حملت
عني رسائل أشواق إلى إضم (٢)
مرت علينا خصاها وهي قاريسسة
مر العواصف لا تلون علسي أرم (٣)
لا تدرك العين منها حين تلحها
إلا مثلا كلع البرق في الظلم

- (١) المرجع السابق ص ٤ وطبعدها •
(٢) القطا : (جمع قطة) وهي طائر في حجم الحمامة تذهب طلب الماء مسن
مصيرة ليلة فترده ضحوة ثم تعود فلا تخطى موضعها •
(٣) خصاها : جياعا • قارية : طالبة الماء • لا تلوى : لا تعطف •

كأنها أحرف برقية نهضت

بالسلك فانتشرت في السهل والعلم (١)

لا شيء يسبقها إلا إذا اعتقلت

بنائتي في مدح المصطفى قلمسي (٢)

يتنص الشاعر أن لو حملت القطاة رسائل أشواقه إلى أحبائه في (إضم)
ولكن أتى له ذلك ، وقد مرت بسرعة كبيرة ، عندما كانت ذاهبة للقرود من
الطعام والشراب .

ولقد أراد الهارودي أن يبين سرعة القطاة تأتي بثلاثة تشبيهات ،
الأول : أنها مرت كرا العواصف ، الثاني : أنها مرت كلعج البرق فمسي
الظلم - وهذا لا يستغرب إلا وقتا قصيرا - الثالث : أنها مرت كأنهيسا
برقية (تليفونية) .

وفي البيت الأخير انتقل الشاعر إلى الحديث عن الرسول (صلى الله
عليه وسلم) - وهو الفرض الأساسي للقصيدة - ولذلك قال ، لا شيء
يسبق القطاة إلا إذا حبست بنائتي قلمي ، وحملت بمدح الرسول (صلى
الله عليه وسلم) .

ويبدو أن الهارودي كان يحاكي ألم النفي ومرارة ، ولذلك أتى
بلفظ (اعتقلت) .

إن هذا البيت كان تمهيدا للحديث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)
الذي بدأه بقوله : (٣)

محمد خاتم الرسل الذي خضعت

له البرية من عرب ومن هجر

سبح وحي ، ومجنى حكمة ، وندي

ساحة ، وقصر عاف ، وري ظم (٤)

(١) برقية : نسبة إلى الموصل البرقي المعروف " بالتلفراف " . نهضت : تحركت .

(٢) اعتقلت : حبست . البنانة : الأصبغ أو طرفه .

(٣) كشف النخبة في مدح سيد الأمة ص ٥٥ . (٤) سحر وحي : مسامر قرآن أي ملازم
له وبخاصة في الليل - مجنى حكمة : مكان أخذ فهم حقائق القرآن ، أو الحديث
الشريف .

قد أبلغ الوحي عنه قبل بعثته
صاحح الرسل فولا غير منكم
فذاك دعوة إبراهيم خالقه
وسرّا قاله عيسى من القسدم

مدح البارودي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأنه خاتم الرسل ،
أرسله الله رحمة للعالمين ، فخصصت الخلائق لدعوته - وهذا على سبيل
التخليل - كما أنه كان مشغولا بالقرآن - وخاصة في الليل - وهو ضيق
الحكمة ، وكان سمحا كريما ، يكرم الضيفان ، ويروي العطشان ، علمت
الرسل به قبل بعثته ، بل قبل خلقه ، فترقت ظهوره .

وإذا تأملت عبارة الشاعر وجدته لم يمدح الرسول (صلى الله عليه
وسلم) بوصف جديد ، بل كلها أوصاف مكررة ، ولم يله يشير بقوله (مجنى
حكمة) إلى أنه (صلى الله عليه وسلم) كان ضيق القول الصادق الناضج ،
أو أنه ضيق الحديث الشريف ، وذلك من قوله تعالى : " وَأذْكُرْ مَا يُنَالِسِي
فِي بُعُوثِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ " الآية (١) . إذ ذهب بعض المفسرين
إلى أن الحكمة في الآية هي الحديث الشريف (٢) .

ولقد أشار الشاعر بقوله : (قد أبلغ الوحي عنه قبل بعثته) إلى
قوله تعالى : " وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ
فَهُمْ جَاءُكُمْ رَسُولٌ مَعْدٍ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ : أَلْقَرْنَاكُمْ
وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا : أَلْقَرْنَا ، قَالَ : فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ
الشَّاهِدِينَ (٣) " وفيه إشارة - أيضا - إلى ما ورد من أوصاف الرسول (صلى الله
عليه وسلم) في الكتب السابقة ، ومن ذلك ما قيل : إن وصفه في التوراة :
" يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَحَرًّا لِلْأُمِّيِّينَ ، أَنْتَ عَهْدِي
وَرَسُولِي ، سَمِيعُكَ الْمَتَوَكَّلُ ، لَيْسَ بِفِظٍ وَلَا غَلِيظٌ ، وَلَا صَغْبٌ بِالْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَجْزِي
السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيُصْفِحُ " (٤) .

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٦ ص ٤١١
(٢) طبقات ابن سعد ج ١ القسم الثاني

(٣) الأحزاب / ٣٤ .
(٤) آل عمران / ٨١ .
ص ٨٧ وما بعدها .

ويبدو أن البارودي يلح بقوله : (فذاك دعوة إبراهيم) إلى قوله تعالى : (رَبَّنَا وَابْحَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ) الآية (١) . لأن هذه الآية هي دعوة إبراهيم (عليه السلام) كما يلح الشاعر بقوله : (وسر ما قاله عيسى) إلى قوله تعالى : " وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُبَدِّئًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ النَّوَاءِ وَبَشِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَسُولٍ يَأْتِيهِمْ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ " الآية (٧) .

ويلاحظ أن ألفاظ البارودي سهلة واضحة إلا أنه قد وقع فيما وقع فيه البوصيري من خطأ في قوله : (منكم) إذ ذلك اللفظ يخالف قواعد اللغة كما سبق (٢) .

نَسَبُ الرَّسُولِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) :

انتقل البارودي إلى الإشارة إلى نسب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (٤) :

أكرم به وآباءه محجولة

جاءت به غرة في الأعصر الدهم

قد كان في ملكوت الله مدغمرا

لدعوة كان فيها صاحب المظلم (٥)

نور تنقل في الأكوان ساطمه

تنقل البدر من صلب إلى رحم (٦)

حتى استقر بحمد الله فأنهلجت

أنوار غوته كالهدر في البهم

يشير البارودي في هذه الأبيات إلى نسب الرسول (صلى الله عليه وسلم) الرفيع، وكرم آباءه وأجداده ، وأنه سليل بيت عُرف بالمجد والشرف

(١) البقرة : ١٢٩ . (٢) الصف / ٦ .

(٣) انظر ص ٨٨ من هذه الرسالة .

(٤) كشف الغمة في مدح سيد الأئمة ص ٥ وما بعدها .

(٥) ملكوت الله : المراد علمه القديم .

(٦) صلب : (بضم فسكون) - المراد ظهر الرجل . الرحم : مقر الجنين

والسودد ، كما أنه جاء نورا في الظلام ، وكان مدخرا في علم الله القديم ،
لشرف النبوة العظيم ، ولقد حفظه الله من دنس الجاهلية ، فتقل نوره من
آبائه حتى استقر في صلب أبيه عبد الله .

وإذا تأملت قول الشاعر : (أكرم به وآبائه محجلة ٠٠) وجدته مع
الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومع آبائه ، كما أسند العجوة إليهم علي
سهيل الجار المقلي ، لأنهم سببه ، أضف إلى ذلك أن قوله : (في الأعر
الدهم) يشير إلى حالة الحرب قبل مجيء الرسول (صلى الله عليه وسلم)
إذ كان الجهل منتشرا ، والظلام حالكا .

ولعل الشاعر يلمح بقوله : (نور تنقل ٠٠) إلى ما نسب إلى
الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : إنما خرجت من نكاح ، ولم أخرج من
سفاح ، من لدن آدم لم يصبن من سفاح أهل الجاهلية شيء ، ولم أخرج
إلا من طهرة (١) .

ويبدو أن البارودي يلمح بقوله : (حتى استقر بعهد الله ٠٠) إلى
ما قيل : إن عهد الله بن عهد المطلب - والد الرسول - قد مر على امرأة من
خشم - وقيل غير ذلك - فدعته يستبضع منها ، ولزمت طرف ثوبه ، فأبى وقال :
أما الحرام فالمصاحبات دونه

والحل لا حل فاستبينه

ثم مضى إلى امرأته آمنه بنت وهب فكان معها ، ثم ذكر الخشمية
وجمالها ، وما عرضت عليه ، فأقبل إليها فلم ير منها من الإقبال عليه آخر
كما رآه أولا ، فقال : هل لك فيما قلت لسي ؟ فقالت : قد كان ذلك
مرة فالجود لا ٠٠ وقالت : أي شيء صنعت بعمدي ؟ قال : وقمت علي
زوجتي آمنه بنت وهب ، قالت : والله لست بصاحبة ربه ، ولكني رأيت
نور النبوة في وجهك ، فأردت أن يكون ذلك في ، وأبى الله إلا أن يجعله

(١) طبقات ابن سعد ج ١ القسم الأول ص ٢١٠

حيث جعله * وفي رواية أخرى * مروت وبين عينيك غرة مثل غرة الغرس،
ورجعت وليس هي في وجهك * (١) ، ويبدو أن هذه القصة قد نسيها
عليها ، وأنزهه والد الرسول عن أن يعود إلى المرأة مرة ثانية موافقا على
ما طلبته منه سابقا .

وهما يكن من شيء فإن البارودي يلجأ إلى تلك القصة بقوله :
(جاءت به غرة ٠٠) وأكد ذلك بقوله : (٠٠ فانبجحت أنوار غرته ٠٠٠)
ولا يخفى ما في هذا التشبيه (كالهدر في البهم) من بيان أثر ظهور الرسول
(صلى الله عليه وسلم) وإيضاح حال العالم قبيل ظهوره .

زواج عبد الله بن عبد المطلب :

وأشار البارودي إلى زواج والد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (٢)

واختار آفة العذراء صاحبة

لفظها بين أهل الحل والحرم (٣)

كلاهما في العلاء كاه لصاحبه

والكاه في المجد لا يستام بالقيم (٤)

فأصبحت عنده في بيت مكرمة

شيدت دعائمه في منصب نسيم

يقول البارودي : إن عبد الله بن عبد المطلب قد اختار آفة بنت وهب
زوجة له ، وذلك لفضلها في النسب والحسب ، ولكمالها وطهرتها وفانها ، كما
أن عبد الله كان - أيضا - من أشرف قبائل العرب ، ويته من أعزز
بيوتها .

-
- (١) المرجع السابق ج ١ القسم الأول ص ٨٥ وما بعدها بتصريف وسيرة ابن هشام ج ١
هامش ص ١٦٨ . (٢) كشف الغمة في طبخ سيد الأمة ص ٦٠ .
(٣) العذراء : البكر والمراد الطاهرة صاحبة : زوجة .
(٤) لا يستام : لا يطلب بيعه أو شراؤه والمراد هنا لا يقدر .

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (الصدراء * * *) وقوله : (لفضلها
بين أهل الحمل والعزم) ما يوحي بمفحتها وطهارتها ، ووصفه بيت عبد الله
بأنه (بيت مكرمة) يدل - أيضا - على عزة أصله ورفعة شأنهم .

ثم انتقل البارودي إلى الإشارة إلى حمل والدة الرسول به بقوله (١) :
وحيثما حملت بالمصطفى وضمت

يبد المشيئة عنها كلسفة الرحم

ولاح من جسمها نور أضاء لها

قصور بصرى بأرض الشام من أسمى (٢)

إن السيدة آمنة بنت وهب - أم الرسول - حينما حملت بالمصطفى
(صلى الله عليه وسلم) لم تجد مشقة في حملها ، كما أنها حينما وضعت له
خرج معه نور أضاء له قصر بصرى بالشام .

ولعل الشاعر يلح في البيت الأول إلى ما نسب إلى السيدة آمنة
أنها قالت : " ما شحرت أنى حملت به ، ولا وجدت له ثقلا كما تجد
النساء ... (٣) "

كما يلح في البيت الثاني إلى قولها : " لما فصل منى خرج معه نور
أضاء له قصر بصرى ... (٤) "

والجدير بالذكر أن الدكتور سنجق البارودي إلى الإشارة إلى هذا
النور الذي أضاء له قصر بصرى بالشام ، وذلك عند قوله : (كوف استنارت
قصور الشام .. البيت (٥)) .

مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

ونقد أشار البارودي إلى مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (٦) :

-
- (١) كشف الغممة في مدح سيد الأمة ص ٦٠
 - (٢) بصرى - نسيم فسكون - مقصور الآخر - بلدة بالشام من أعمال دمشق .
 - (٣) طبقات ابن سعد ج ١ القسم الأول ص ٦٠
 - (٤) انظر هامشي ص ٢٩٢ من هذه الرسالة . (٥) المرجع السابق ص ٢٩١
 - (٦) كشف الغممة في مدح سيد الأمة ص ٦٠

(ومذ) أنى الوضع وهو الرفح منزلة

جاءت بروج بنور الله تسمم (١)

ضامت به غرة الإثنين وابتسمت

عن حسنه فى ربيع روضة الحرم (٧)

حينما ولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) شرف الوجود بأكرم مولود،
وكان ذلك فى يوم الإثنين من شهر ربيع الأول بحكة المكرومة .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (وهو الرفح منزلة ٠٠) احتراسا
لطيفسا بحد قوله (أنى الوضع ٠٠) ، كما أنه أشار بقوله : (روضة الحرم)
إلى مكة المكرمة التى ابتسمت لهذا النبأ العظيم ، ولذلك المولود الكريم
(صلى الله عليه وسلم) .

رضاعه (صلى الله عليه وسلم) :

وانتقل البارودى إلى ذكر رضاع محمد بن عبد الله (صلى الله عليه
وسلم) بقوله (٣) :

(وأرضعته) ولم تياس (حليلة) من

قول المراضح : إن الهوس فى التيم

فقا بالدر ثدياها وقد غميت

لياليا وهى لم تطعم ولم تسم (٤)

وانهبل بعد انقطاع رسل شارفها

حتى غدت من رفيه العيش فى طعم (٥)

فيمت أهلها مملوءة فرحها

يا أتيج لها من أوفر النعم

(١) أنى : حان . (٧) روضة الحرم : المراد مكة المكرمة .

(٢) كشف الضمة فى مدح سيد الأمة ص ٧٠ .

(٤) الدر : يفتح الدال مشددة - اللين .

(٥) رسل : مبكسر فسكون - شارفها : لبن ناقتها السنة - رفيه العيش :
الرغد اللين .

وقلص الجذب عنها فهي طاعصة

من خير ما رقدتها ثلة القنم (١)

وكيف تحل أرض حلّ ساخنهما

(محمد^٢) وهو نعت الجود والكرم

يشير الشاعر - في هذه الأبيات - إلى قصة الراضع اللاتي أعرض
عن رضاع الرسول (صلى الله عليه وسلم)؛ لأنه كان يتعيا ، إلا أن حليلة
السعدية أخذته على الرغم من يتمه وعندما أخذته رأت أشياء أدخلت
المرور على نفسها ، وأكدت لها أن هذا المولود له شأن كبير ، ومن
ذلك : كثرة لبن ثديها ، وكثرة لبن ناضجها المسنة ، وإحاطة الخير بها
من كل جانب .

ويلاحظ أن البارودي نظم القصة كما روتها بعض كتب السيرة على
لسان السيدة حليلة السعدية التي قالت : " قدمت مكة في نسوة من
بني سعد بن بكر نلتهم الرضعا في سنة شهباء ، . . . ومعنى صبي لنفسها
وشارف . . . والله ما ننام ليلتنا ذلك أجمع مع صبيتنا ذاك ، ما يجد في
ثديها ما يخفيه ، ولا في شارفتنا ما يخفيه ، فقد منا مكة ، فوالله ما علمت
عنا امرأة إلا عرضن عليها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فإذا قيل
: يتيم ، تركناه ، وقتلنا ، ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه ، إنما نرجوا
المصرف من أب الولد . . . فوالله ما بقي من صواحبى امرأة إلا أخذت رضيعا
غيري . . . فذهبت ، فأخذته . . . فما هو إلا أن أخذته فجلت به رحلسي ،
فأقبل على ثدياي بما شاء من لبن ، وشرب أخوه حتى روى ، وقام صاحبي
إلى شارفتي تلك ، فإذا بها حافل ، فحلب ما شرب ، وشربت حتى روينا ، فبقنا
بخير ليلة ، فقال لي صاحبي : والله إنى لأراك أخذت نسمة مباركة . . . (٢) .

ومهما يكن من شيء فلقد أشار البارودي إلى سرور السيدة حليلة
بقوله : (نيمت أهلها ملووة فرحا) فلفظ (ملووة) يوحى بسرورها الشديد

(١) قلص : ذهب بسرعة . الثلة : الجماعة .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٧٤ بتصريف ، أسد القاباة ج ٧ ص ٦٨ .

وفرحتها الفامرة ، ومالها لا تفرح وقد (قلص الجذب عنها) . بفضل
الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولذلك حسن تعقيب الشاعر على القصيدة
بقوله :

وكيف تحل أرض حل ساحتها

(مُحَمَّدٌ) وهو فيث الجود والكرم

وواصل البارودي الحديث عن رضاع الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : (١)

فلم ينزل عندها ينمو وتكسلوه

رعاية الله من سوء ومن وصم

حتى إذا تم ميقات الرضاع له

حولين أصبح ذا أيدي على الفطم (٢)

وجاء كالفضن مجد ولا ترف على

جبينه لمحات المجد والفهم (٣)

وقد تم عقلا ، وما تمت رضاعته

وفاض حلما ، ولم يبلغ مدى الحلم

لقد مكث الرسول (صلى الله عليه وسلم) عند السيدة حليلة سنتين
ترعاه رعاية الله ، وتحفظه من كل سوء ، إلى أن تمت مدة رضاعته ، فأصبح
ذا قوة على الفطام ، إذ كان قوى الجسم ، نشيط البدن ، تظهر عليه
علامات المجد والسؤدد ، وكان مع صغر سنه كبير العقل ، واسع الصدر .

إن نظم البارودي يفلب عليه السرد التاريخي ، ولذلك جاءت هذه
الآبيات خالية من الحمق ، ما عدا البيت الأخير ، فقد اشتمل على بعض
الإشارات اللطيفة التي تدل على أن الله قد خص النبي (صلى الله عليه وسلم)
- من صغره - بقوة جسمه ، وكمال عقله ، وحسن خلقه .

(١) كشف الخصة في مدح سيد الأمة ص ٧ .

(٢) ذا أيدي : ذا قوة . الفطم : بضم الفاء والطاء - جمع فطم - بفتح فكسر -
الصبي الذي وضع من الرضاع .

(٣) صجده ولا : المراد محكم الخلقة قوى الجسم .

شق صدر الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

وانتقل الشاعر إلى الحديث عن شق صدر الرسول بقوله : (١)

فبينما هو يرضى البهيم طمأى به

شخصان من ملكوت الله ذى الصم

فأضجماه وشقا صدره بهمسد

رفيقة لم يبت ضيها على ألسم

ومحدا قضيا من قلبه وطمرا

توليا فضله بالسلسل الشيم (٢)

ما عالجا قلبه إلا ليخلص من

شوب الهوى ، ورمى قدسية الحكم (٣)

فيالها نعمة لله خص بهما

حبيبته ، وهو طفل غير محتلم

يشير البارودي إلى قصة الملكين اللذين شقا صدر الرسول (صلى

الله عليه وسلم) عندما كان طفلا يرضى الغنم مع أخيه من الرضاعة .

والجدير بالذكر أن البوصيري قد أشار إلى الشق قبل البارودي

ولكنها كانت إشارة عامة في قوله : (٤)

أقسم بالقمر المنشق إن لسه

من قلبه نسبة مجرورة القسم

أما البارودي فقد أشار إلى شق بيمينه ، ذاكرا قصته بالتفصيل - إذ

من المعلوم أن الشق قد تعدد (٥) - ولذلك غلب على نظمه المسرد

التاريخي ، ولكنه مع ذلك لم يخل من طرافة ، مثل عدم تألم النبي من هذا

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٨ .

(٢) السلسل الشيم : الماء الحذب البارد .

(٣) الشوب : الخلط . يرضى : يحفظ ويحقل .

(٤) انظر ص ١٤٥ من هذه الرسالة .

(٥) تفسير القرآن العظيم ج ٨ ص ٤٥١ .

الشق بقوله : (٠٠ لم يبت منها على ألم) ، ومثل بيان علة الشق بقوله :
(ما عالجا قلبه إلا ليخلص من ٠٠) .

ولما كان هذا الأمر يشير المحب والدهشة ، حسن قول الشاعر :
(نيا لها نعمة لله خير منها ٠٠) ، إلا أن ذكر كلمة (غير محتلم) يمد كلمة
(طفل) يمد حسوا ولعل الشاعر أتى بها للقافية .

والبارودي بتلك الأبيات يشير إلى ما ذكرته بعض كتب السيرة
عن هذه القصة من أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال " ٠٠ بينا أنا
مع أخ لي خلف بيوتنا نرى بهما لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض
بطمت من ذهب مملوءة ثلجا ، فأخذاني فشقا بطنى ، واستخرجا قلبي
فشقاه ، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسلا قلبي وبطنى بذلك
الثلج حتى أنقيا ٠٠ (١) " .

قصة بحيرى :

ثم انقل البارودي إلى ذكر قصة بحيرى (٧) بقوله (٧) :

وقال عنه بحيرى حين أبصره

بأرض بصرى مقالا غير منهم

إذ ظلمته الضمائم فانهصرت

عظفا عليه نروع الضال والسلم (٤)

بأنه خاتم الرسل الكرام ومن

بسه تزول صروف الهوس والنقم

إن بحيرى قد رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما كان في ركب
تجارى إلى الشام ، وعرف أنه هو الرسول المرتقب عندما رأى الضمائم تظلمه

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٩٧٨ .

(٧) بحيرى - وكتب أيضا - بحيرا - بالألف زاهبانتمى إليه علم النصرانية
(المرجع السابق ج ١ ص ١١٤) .

(٢) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٠٨ .

(٤) انهصرت : مالت بالضال - نروع من الشجر وفضله السلم .

وفروع الشجرة التي كان يجلس تحتها قد مات عليه . وهذه بعض العلامات التي وردت في الكتب السابقة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وكان هذا الراهب على علم بها .

والبارودي يلح بقوله : (وقال عنه بحيرى حين أبصره . .) إلى القصة الطويلة ، التي ذكرتها بعض كتب السيرة والتي انتهت بقوله عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو يخاطب عنه أبا طالب : " . . أرجح باهين أخيك إلى بلده . " واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه هرفوا منه ما عرفست ليؤمنن بهشرا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم . . (١) .

ويبدو أن البارودي أراد أن يشير إلى أن آيات الرسول قبل البعثة كثيرة فقال : (٢)

هذا وكم آية سارت له فحمت

» بنورنا ظلمة الأنوال والقحيم (٣)

ما مر يوم له إلا وقلده

صناعها لم تنزل في الدهر كالملم

إن الله قد أكرم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بكثير من الآيات قبيل البعثة ، وكانت تشير إلى أن شأنه سيكون عظيما .

ولعل في قول الشاعر : (. . . وكم آية . .) ما يدل على الكثرة ، إلا أن في قوله : (ما مر يوم إلا وقلده) خطأ لغويا والصحيح حذف الواو بمسند إلا كما سبق (٤) .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) كشف الخفية في مدح سيد الأمة ص ٨ .

(٣) القحيم : - بضم ففتح - جمع قحمة - بضم فسكون - تطلق على معان كثيرة ، والمراد هنا : الأمر الشاق الذي يحمل الإنسان على ما يكبره .

(٤) انظر ص ١٥١ من هذه الرسالة .

الصادق الأمين :

ولقد أشار البارودي إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد
لقب بالصادق الأمين بقوله (١) :

حتى استتم ولا نقصان يلحقه
خمساً وحشرين من الهارح الفهم
ولقبته قرين بالأمين عيسى
صدق الأمانة والإيفاء بالذمم

عندما بلغ الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الخامسة والمشورين
كان مثالا للأخلاق العالمة، والصفات الحميدة ، ولذلك لقبته قرين
بالصادق الأمين ، لأمانته وصدقته ، ووفائه بعهده .

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (ولا نقصان يلحقه) احتراسا
لطيفا بحد قوله : (حتى استتم) ، ولقد انتقل البارودي إلى الحديث
عن تجارة الرسول بمال السيدة خديجة بقوله (٢) :

ودت خديجة أن يرضى تجارتها
وداك متهمز للخير مضمم
فشد عزمها منه بمقتدر
ماضى الجنان إذا ما هم لم يخم (٣)
سار محترما للشام بصحبه
في السير مهورة المرضى في الحشم (٤)
فما أناخ بها حتى قضى وطرا
من كل ما رامه في البيع والعلم
وكيف يخسر من لولاه ما رحمت
تجارة الدين في سهل وفو علم

-
- (١) كشف الخفة في مدح سيد الأمة ص ٨ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها . لم يخم : لم ينكسر ولم يجين .
(٣) مهورة : غلام السيدة خديجة (رضي الله عنها) .
(٤) المرضى : بتشديد الياء - المختار .

عندما سمعت السيدة خديجة بنت خويلد عن هذا الصادق الأمين ،
تحت أن يرى تجارتها ، ولقد قوى رجاءنا ، وشد عزها ، ما علمته مسن
شجاعته ، وحسن تدبيره ، وكل ذلك دفعها إلى عرض ذلك على محمد
(صلى الله عليه وسلم) فوافق وخرج بالتجارة إلى الشام يصحبه عدها
(ميسرة) ولم تلبث التجارة أن راجت سوقها ، وعظم مكسبها .

ولا شك في أن قول الشاعر : (وددت خديجة . .) يصور مدى شغفها
بهذا الصادق الأمين ، ويؤكد ذلك قوله : (وداد منتهز للخير مفتسم)
وأحسن الشاعر عندما بين السبب الذي شد عزم السيدة خديجة على أن
تتبنى خروج الرسول بتجارتها : أنه مقتدر ، وماضى الجنان ، وقوى العزيمة
عالي الهمة .

ولعل قوله : (فما أناع بها حتى قضى وطرا) يشير إلى قيصر
الصدرة التي لبثتها القافلة التجارية ، ومع ذلك حققت مكسبا عظيما .

وقد اشتعل البيت الأخير على استفهام يفيد إنكار خسارة الرسول
في تجارة الدنيا ، وهو الذي رحمت على يديه تجارة الدين ، وهذا يدل
على أمانته ومهارته ، ولا يخفى أن الطباق في قوله : (في سهل ونى علم)
يدل على انتشار الدين .

ثم أشار الشاعر إلى أن ميسرة قمى على السيدة خديجة بعض المشاهد
التي شاهدها في الرحلة فقال (١) :

فقص ميسرة المأمون قصته

على خديجة سردا غير ضخم

وما رواه له كهل بصومعة

من الرهايين عن أسلافه القدم (٢)

(١) كشف الخمة في مدح سيد الأمة ص ٩ .

(٢) الرهايين : جمع رهان . القدم : بضمين - المراد المتقدمين .

في دوحة عاج خير المرسلين بها
من قبل بمثته للمرب والمجم (١)
هذا نبي ولم ينزل بساحتها
إلا نبي كريم النفس والشيم
وسيرة الملكين الحائمين على
جبينه ليظلاه من التهم (٢)

لقد قص ميسرة على السيدة خديجة كل ما رآه في أثناء رحلته من أخلاق عظيمة،
وصاحلة كريمة، كما أخبرها بأن أحد الرهبان رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم)
نزل تحت شجرة فقال: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، وذكر
بعض كتب السيرة أن ميسرة قد رأى ملكين يظلان الرسول (صلى الله عليه
وسلم) من الشمس (٣).

ويبدو أن البارودي أراد أن يؤكد ما شاهدته ميسرة بوصفه بقوله:
(المأمون) ومع أن الألفاظ سهلة واضحة إلا أن الشاعر قد ذكر لفظة
(ضمج) وقد سبقه إلى ذلك البوصيري أيضا (٤) مع أن هذا اللفظ لم يرد في
معاجم اللغة المتعددة كما سبق (٥).

زواج محمد بن عبد الله بالسيدة خديجة:

وانتقل البارودي إلى الحديث عن زواج الرسول بالسيدة خديجة بقوله (٦):

فكان ما قصه أصلا لما وصلت
به إلى الخير من قصد ومعتزم
أحسن بها صلة في الله قد أخذت
بها على الدهر عقد أغير منقصم
فأصبحت في صفا غير منقط
على الزمان وود غير منصم

إن ما قصه ميسرة على السيدة خديجة من أمر رسول الله (صلى الله عليه
وسلم) - في أثناء ذهابه معه إلى الشام - قد أثار عجبها، فدفعها ذلك إلى
أن تطلب الزواج منه، ووافق الرسول (صلى الله عليه وسلم) فكان زواجا
أسسه المحبة والمودة، ولذلك عاشا في صفا دائر، وود متصل.

- (١) الدوحة: الشجرة العظيمة • عاج: أقام (٦) التهم: (بفتح التاء والهاء) شدة الحر •
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٠٢ •
(٣) انظر ص ١٨٨ من هذه الرسالة • (٤) المرجع السابق ص ١٩٢ •
(٥) كشف الغمّة في مدح سيد الأمة ص ١٠ •

قصة بناء الكعبة :

وأشار البارودي إلى قصة بناء الكعبة ووضح الحجر الأسود بقوله (١) :

وعيننا أجمعت أمرا قريش على

بناية البيت ذى الحجاب والخدم

تجمعت فرق الأحلاف واقتسمت

بنائه عن تراض خير مقتسم (٢)

حتى إذا بلغ البنيان ظننهم

من موضع الركن بعد الكد والجشم (٣)

تسابقوا طلبا للأجر واختصموا

فبين يشد بناء كل مختصم

وأقسم الثوم أن لا صلح يحصمهم

من اقتحام النايا أيما قسم

وأدخلوا حين جد الأمر أيديهم

للشرف في جفنة مملوءة بسدم

فقال ذو رأيهم : لا تعجلوا وخذوا

بالحزم فهو الذى يشفى من الحزم

لغيره كل امرئ منا بأول مسن

يأتى فيقسط فينا قسط محتكم

وفى هذه الأبيات يشير الشاعر إلى أن قريشا قد اتفقت على تجديد

بناء الكعبة ، وفعلوا تم ذلك ، ثم حدث خلاف فيما بين وضع الحجر الأسود -

إذ من يضعه سيكون صاحب الشرف - وكاد القتال ينشب بين رؤساء القبائل

فقال : أكبرهم سنا : لا تختلفوا ، وعكفوا أول داخل عليكم ، فوافقوا على

ذلك .

(١) كشف الخمة في مدح سيد الأمة ص ١٠ .

(٢) الأحلاف : جمع حلف والمراد بهم من اشتركوا في بناء الكعبة وهم : عبد الدار
وكعب وجمع وسهم ومخزوم وهدي .

(٣) الركن المراد به الحجر الأسود ، ويسمى ركنا ، لأنه منى في الركن (سيرة
ابن هشام ج ١ هامش ص ٢١٢) . الجشم : بفتحتين - المشقة .

(٤) ذو رأيهم : المراد أكبرهم سنا . الحزم : (الأولى) بفتح فسكون (معروفة معناه) والحزم :
(الثانية) بفتحتين - المراد بها مرض القلب .

ولا يخفى أن البارودي رسم تلك الصورة من واقع ما ذكرته بعض كتب
السيرة (١) إلا أنه أشار إلى عظمة البيت الحرام بقوله : (ذى الحجاب
والخدم) كما أشار إلى صورة الخلف الذي كاد يقع بقوله : (٠٠ لا صلح
بعضهم من اقتحام المنايا ٠٠) .

وإذا تأملت قوله : (وأدخلوا حين جد الأمر أيديهم ٠٠ في جفنة
ملوثة بدم) وجدته يشير إلى ما قام به بعض رؤساء القبائل بإحضار
جفنة ملوثة بالدم وتحالفوا على القتال حتى الموت ولذلك سماها : (لعنة
الدم) (٢) .

ومهما يكن من شيء فلقد وافقوا جميعاً على تحكيم أول داخل عليهم
وانتظروا هذا الداخل فكان كما قال البارودي : (٣)

فكان أول آت بعدما اتفقوا

(مُحَمَّدٌ) وهو في الخبرات ذو قدم

فقال كل رضينا بالأمين عسى

علم فأكرم به من عادل حكم

فأعلموه بما قد كان واحتكموا

إليه في حل هذا المشكل العم

فمدّ ثوباً وحط الركن في وسط

منه وقال : ارفعوه جانب الرضم (٤)

فقال كل امرئ حظاً بما حملت

يداه منه ولم يعتب على القسم

حتى إذا اقتربوا تلقاء موضعهم

من جانب البيت ذى الأركان والدم

-
- (١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٣ . (٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٣) كشف الخفة في مدح سيد الأمة ص ١١٠ .
(٤) الرضم : بفتحين - أصلها (الرضم) بفتح فسكون - الصخور المظلمة التي
بعضها فوق بعض .

مَدَّ الرَّسُولُ يَدَهُ بِمَارْكُوسَةَ

بَنَتْهُ فِي صَدْفٍ مِنْ بَانَدَجِ سَنِمِ (١)

فَلْيَزِدْهُ الرُّكْنَ تَمِيمًا حَيْثُ نَالَ بِهِ

فَخَرًّا أَقَامَ لَهُ الدُّنْيَا عِلْمِي قَسْدِمِ

لَوْ لَمْ تَكُنْ يَدُهُ مَسْتَهَ عَيْنِ بَنِي

مَا كَانَ أَصْبَحَ مَطْنُومًا بِكُلِّ نَسَمِ

لقد كان أول داخل على هؤلاء المختلفين محمد بن عبد الله ؟ فاطمانوا إلى حكمه ، إذ كان مشهورا بينهم بالصادق الأمين ، ولما قصوا عليه القصة خلع رداءه ووضعته على الأرض ثم وضع الحجر الأسود في وسطه ، وأمسر رئيس كل قبيلة بأن يحمل من طرف ، حتى وصلوا إلى مكان وضع الحجر الأسود ، فأخذه بيده الشريفة ووضعته في مكانه ، فحل ذلك التصرف الحكيم مشكلتهم ، وحفظ دماءهم ، وصان أرواحهم .

والقصة يغلب عليها جانب السرد في ألتاظها ، وليس فيها عمق فسي الفكرة ، إلا أن الشاعر أشار إلى أن الحجر الأسود قد ازداد شرفا وفخرا بحمل الرسول إياه ، كما ذهب إلى أنه لو لم تكن هذه اليد المباركة - يد الرسول - هي التي وضعت ما قبله أحد .

وهو بذلك يشير إلى أن من السنة تقبيل الحجر الأسود في أعمال الحج (٢) ، وهي فكرة تدل على ثقافة الشاعر الدينية ، ولكن لم يرد ما يدل على أن السبب في تقبيل الحجر هو وضع الرسول إياه ، كما أن لفظ (حط) لا يليق ذكره من شاعر كبير كالبهارودي الذي تعنى أن يقبل ذلك الحجر بقوله (٣)

يألتني والأمانى ربما صدقت

أحظى بمحبتق منه ولمستزم

(١) الصدف - بفتحين - المراد الحائط المرتفع . الباندج - العالي . السنم : العالي .

(٢) صحيح مسلم ج ٣ ص ٤٠٥ وما بعدها .

(٣) كشف الغمة في صدى سيد الأمة ص ١١ وما بعدها .

ياحبذا صبغة من حسنه أخذت

(١) ضها الشبيبة لون المذروالأم

كالخال في وجنة زدت محاسنها

(٢) بنقطة منه أضحافا من القوسم

وكيف لا يفخر البيت العتيق به

وقد بنته يد فياضة النمس

أكرم به وأزنا لولا هدايته

لم يظهر العدل في أرض ولم يقم

هذا الذي عصم الله الأنام به

من كل هول من الأهوال مخترم

إن البارودي - في هذه الأبيات - يتعنى الذهاب إلى تلك الأماكن

الطاهرة ، والبقاع المقدسة ، لكي يقبل ذلك الحجر الأسود : (ياليتسني

والأمانى ربما صدقت) .

إلا أنه يتم أن الشبهة قد أخذت لونها الأسود الجميل من لسن

هذا الحجر ، ثم أضاف إلى ذلك أن الخال في الوجنة قد زاد حسنهمسط

أندافا مضاعفة ، ولا شك في أن الخال أسود اللون مثل الحجر أيضا (ياحبذا

صبغة من حسنه أخذت) ، وقوله : (كالخال في وجنة زدت محاسنها) .

وإذا تأملت قوله : (وكيف لا يفخر البيت العتيق به) وجدته يشهد

بمكانة الحجر الأسود أيضا ، حتى حق للبيت الحرام أن يفخر بذلك الحجر

لأن الذي وضعه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولا يخفى أن في قوله :

(وقد بنته يد) مجازا مرسلًا علاقتة الجزئية . . أظهر عظم تلك

اليد ، وخاصة أنها (فياضة النمس) .

(١) الصبغة : ما يصبح به والمراد هنا: أثره وهو اللون الأسود . المذرو-

بضمين - جمع عذرا - المراد الشعر الثابت على الخد .

(٢) الخال : النقطة السوداء على الوجنة .

إن صاحب هذه اليد المباركة كان سببا في ظهور العدل وانتشاره
وفي هداية الناس إلى الطريق المستقيم ، كما أن الله قد عصم به الخلق ،
وحقق على يديه دماءهم ، وكان سببا في صلحهم .

مقدمات بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

وأشار البارودي إلى بعثة الرسول بقوله (١) :

وحين أدرك سن الأربعين وما .. من قبله مبلغ للحلم والحكم
حياه ذو العرش برهانا أراه به .. آيات حكته في عالم الحلم
فكان يمضي ليرعى أنس وحشته .. في شامخ ما به للخلق من أرم (٢)
فما يمر على صخر ولا شجر .. إلا وحياء بالتسليم من أمم

عندما بلغ الرسول (صلى الله عليه وسلم) سن الأربعين ظهرت مقدمات
لنبوته وكان منها : الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق
الصبح ، ثم حبيب إليه الخلاء ، فكان يذهب إلى غار حراء - حيث يتعمد
ويتأمل في ملكوت الله ، ولما أكرمه الله بكرامته وابتدأه بالنبوة كان لا يمر
بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، فبلغت الرسول حوله
وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة ، واستمر على ذلك إلى
أن نزل عليه جبريل بالبعثة (٣) ، ولقد سبقت الإشارة إلى بعض هذه الأمور (٤)
ويلاحظ أن البارودي يوالى سرده للسيرة النبوية ، وبلغ بقوله (وما من قبله
مبلغ للحلم والحكم) إلى أن سن النبوة هو سن الأربعين ، كما يلاحظ
أن في قوله : (فما يمر على صخر .. إلا وحياء) خطأ لفظيا ، والصحيح
حذف الواو بعد إلا - كما سبق (٥) .

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ١٢ وما بعدها .

(٢) الشامخ : الحميد - والمراد به غار حراء - وهو على بعد ثلاثة
أميال من مكة .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٣ .

(٤) انظر ص ١٥٢ . من هذه الرسالة .

(٥) المرجع السابق ص ١٥١ .

بدء البعث :

واستقر الرسول (صلى الله عليه وسلم) يخلو بخار حراء حتى تنزل عليه
جبريل (عليه السلام) وهذا ما أشار إليه البارودي بقوله (١) :

حتى إذا حان أمر الفيب وانحسرت
أستاره عن ضمير اللوح والقلم
نادى بدعوته جهرا فأسمعها
في كل ناحية من كان ذا صم
فكان أول من في الدارين تابعه
خديجة وعلى ثابت القسدم
ثم استجاب رجال دون أسرته
وفي الأبعد ما يقضى عن الرحم
ومن أراد به الرحمن مكرمة
هداه للرشد في داج من الظلم

أكرم الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) بالرسالة التي كلفه بالقيام بتبليغها
للناس ، والقيام بأعبائها ، ولذلك قام الرسول (صلى الله عليه وسلم) بدعوة
الناس إليها .

ولقد أشار البارودي إلى ما بذله الرسول من جهد لتبليغ تلك الدعوة
بقوله : (فأسمعها في كل ناحية من كان ذا صم) إلا أنه قال عن الرسول
(صلى الله عليه وسلم) : إنه (نادى بدعوته جهرا) والمعلوم أن الدعوة بدأت
سرية ثلاث سنوات (٢) .

ولا يخفى أن الشاعر يلح بقوله : (فكان أول ..) إلى أن أول من أسلم
السيدة خديجة وعلى بن أبي طالب ، ثم أسلم بعد ذلك رجال ليسوا من أقارب
الرسول (صلى الله عليه وسلم) (٣) .

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ١٢٠

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٤

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٩ وما بعدها

وإذا تأملت قوله : (وفي الأبعاد ما يخفى عن الرحم) وجدته حكمة صادقة - والبيت الأخير يبين أن الهادى فى الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى، وهو - أيضا - حكمة صادقة .

الناس والدعوة :

بين البارودى موقف الناس من دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (١) :

ثم استمر رسول الله محترما

يدعو إلى ربه فى كل ملتام (٢)

والناس منهم رشيد يستجيب له

طوا وضهم غوى غير محتشم

حتى استرابت قريش واستبد بها

جهل تردت به فى طارج ضرم (٣)

هذبوا أهل دين الله وانتهكوا

محاربا أعقتهم لهفة النسد

وقام يدعو أبو جهل عشيرته

إلى الضلال ولم يجنح إلى سلم (٤)

يبدى خدافا ويخفى ما تضمنه

ضميره من غشوة الحقد والسدم (٥)

لقد واصل الرسول (صلى الله عليه وسلم) تبليغ دعوته إلى الناس ، وكان ينتهز فرصة اجتماعهم ، فيعرض عليهم مبادئ دعوته ، فكان الرشيد السدى يستجيب له ، والغوى الذى يمرض عنه ، ولما رأَت قريش زيادة عدد المسلمين

(١) كشف الخفة فى مدح سيد الأمة ص ١٣ وما بعدها .

(٢) ملتام : مكان اجتماع القوم .

(٣) الطارج : النار التى لا دخان لها . الضرم - المتوقع .

(٤) أبو جهل هو عمرو بن هشام قتل سنة ٢ هـ .

(٥) غشوة الحقد : المراد ما لصق به من الحقد .

يوماً بعد يوم، هالها الأمر، فعذبوا المسلمين، وخاصة الفقراء منهم، وانتكسوا بذلك حرمة كانت سبباً في خزيهم في الدنيا، وستكون سبباً في عذابهم في الآخرة، كما أوعدهم الله بذلك، ومنهم أبو جهل الذي ابتلا قلبه حقد علي الرسول والمسلمين، فكان يدعو الناس إلى محاربتهم والوقوف في سبيلهم.

والأبيات سهلة العبارة، واضحة الألفاظ، يقلب عليها السرد التاريخي. ولما كان الكفار قد ظلموا المسلمين، وخاصة المستضعفين منهم - حسن من البارودي أن يقول: (١)

لا يسلم القلب من غلِّ ألمِّ به
ينقى الأديم وهو موضع الحلم (٢)
والحقد كالنار إن أغفيتها ظهرت
منه علائم فوق الوجه كالحمم
لا يبصر الحق من جهل أحاط به
وكيف يبصر نور الحق وهو عم
كل امرئ واجد ما قدمت يده
إذا استوى قائم من هوة الأدم (٣)
والخير والشرف في الدنيا مكافأة
والنفس مشغولة عن كل مجتهد
فلا ينم ظالم عما جنت يده
على العباد، فمیں اللہ لم تنم

إن هذه الأبيات تشتمل على حكم صادقة تندد بالظلم، وتنذر الظالمين، فالقلب الذي دخله الغل هو قلب مريض، ومهما فعل صاحبه لا بد أن يظهر أثر ذلك المرض، والحقد كالنار مهما حاول الحاقده إخفاء حقدته ظهرت علاماته على الوجه، وإذا كان الحق واضحاً، فإن من أحاط به الجهل لا يبصره

- (١) كشف الخمة في مدح سيد الأمة ص ١٤.
(٢) الأديم: الجلد المدبوغ. الحلم: - بفتحتين - القراد العظيم، وفردته: حيلة - بفتحتين أيضاً.
(٣) هوة الأدم: حفرة القبر.

لأنه كالأعشى ، وكيف يدرك الأعشى النور ، وهما يكن من شيء فإن كل إنسان سيجد ما قدمته يده يوم القيامة ؛ لأن النفس معشولة من كل ما تفعل حسبه ولذلك لا يحق لظالم أن يتساهل في ظلم العباد ؛ لأن الله لن يتعامل في حسابه .

والملاحظ أن هذه الحكم سهلة الفكرة ، ولا عسى فيها ، ويبدو أن نفسى الهارودى من صهر إلى سرنديب كان شديدا على نفسه ، ولذلك لا توانيته الفرصة إلا ندد فيها بالظلم والظالمين ، فذاكرا ، أن يوم الحساب آت لا ريب فيه .

ولا يخفى أن الشاعر أكد هذه الحكم ببعض التشبيهات ، ومن ذلك أنه عندما أراد أن يؤكد أن الحق لا يبد أن يترك أثرا في القلب أتى بمثال محسوس ليوضح المراد ، فذكر أن الجلد إذا أصيب بمرض القراد وشفى منه ، لا يبد أن موضح القراد يظهر مهما حاولت إخفائه ، كما أن البيت الأخير دعوة إلى كل ظالم أن يتدارك أمره ، ويبادر برفع الظلم عن المظلومين ، ونفسى التحبير باليد مجاز مرسل - علاقته الجزئية - ولعل الشاعر اختار ذلك الأسلوب لبيان أن اليد هي آلة الكسب غالبا .

وإذا تأملت قوله : (فمين الله لم تتم) وجدته يوحي بالشهد بمسند الشديد ، وكنت أود أن يقول الشاعر : (فمين الله لا تتم) لأن النفسى (بلا) يشمل الحال والاستقبال ، أما النفسى (بلم) فنقص على الماضى .
الهجرة الأولى إلى الحبشة :

ثم أشار الهارودى إلى هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة بقوله : (١)

ولم يسزل أهل دين الله في نصب

مما يلاقون من كرب ومن زأم (٢)

(١) كشف القصة في مدح سيد الأمة ص : ١٤ وما بعدها .

(٢) زأم : المراد شدة الاضطهاد .

- حتى إذا لم يعد في الأمر منزعجة
(١) وأصبح الشرجهرا غير منكمم
ساروا إلى الهجرة الأولى وما قصدوا
(٢) غير النجاشي ملكا صادق الذم
فأصبحوا عنده في ظل ملكة
(٣) حصينة ودعاهم غير منجسذم
من أنكرو الضيم لم يأنس بصحبته
ومن أحاطت به الأهوال لم يقم

لقد اشتد أذى المشركين بالمسلمين ، وتحملوا كثيرا من الاضطهاد في سبيل دينهم ، وأخيرا هاجروا إلى الحبشة لأن ملكها - النجاشي كان صاحب همة ومروءة ونجدة ، فماشوا في جواره ، فكان خير جوار ، وهكذا كل من ينكر الضيم يرحل عنه ، وكل من أحاطت به الأهوال يجب أن يتمد عنها ، ولا يركن إليها .

وإذا تأملت قول البارودي : (ولم يزل أهل دين الله) وجدته يشير إلى مدى حرص ذلك النفر من المسلمين الأوائل على تمسكهم بدينهم ، فتحملوا في سبيله كل مشقة ، بل تركوا وطنهم من أجله ، كما أن قوله : (حتى إذا لم يعد في الأمر منزعجة) كناية لطيفة تشير إلى أن أذى المشركين بالمسلمين قد بلغ حدا لا يطاق ، ويدل على ذلك قوله : (وأصبح الشرجهرا غير منكمم) ومعلوم أن لفظ منكمم لم يرد في كتب اللغة المعتمدة كما سبقت الإشارة إليه (٤)

ولحل قول البارودي عن النجاشي إنه ملك (صادق الذم) يشير إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه : " لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد " (٥) . والبيت الأخير حكمة صادقة ، وتوجيهه شديد ، يتصمك به كل من لا يرضى بالذل ، ولا يقيم على الضيم .

- (١) لم يعد في الأمر منزعجة المراد لم يعد هناك تحمل للأذى أكثر من ذلك .
(٢) النجاشي : ملك الحبشة في ذلك الوقت . (٣) منجسذم : منقطع .
(٤) انظر ص ٨٨ من هذه الرسالة . (٥) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤٣

ثم تحدث الهارودي عن مقاطعة قريش المسلمين بقوله (١) :

وهذا رأى المشركون الذين قد وضحت

سماؤه وانجلت عن صفة الصمم (٢)

تألبوا رغبة في الشروا وتمسروا

على الصحيفة من غيظ ومن وغم (٣)

صحيفة وسعت بالقدر أوجههم

والقدر يخلق بالأعراض كالدم

فكشف الله منها غمة نزلت

بالمؤمنين ، وري كاشف الغم

من أضر السوء جازاه إله به

ومن رعى الحق لم يعلم من النقم

ولما رأى المشركون أن الدين الإسلامي يزداد انتشارا يوما بعد يوم ،
ويكثر الدخولون فيه ، زادهم ذلك شغما وغما ، ففكروا في كيد الرسول وأصحابه
وذلك بكتابة صحيفة اتفقوا فيها على مقاطعة بني نضار وبنى المطلب فلا
يتعاملون معهم ، ولا يتزوجون منهم ، واستحروا على ذلك ثلاث سنوات ، وعندما
عمَّ بعضهم بنقضها أخبر الرسول أبا طالب بأن الأرضة أكلتها إلا باسمك اللهم
وكانت هذه الصحيفة محلقة في جوف الكعبة ، ولم يرها الرسول (صلى الله عليه
وسلم) - فذهب بعض المشركين للتأكد من كلام الرسول ، فإذا الأمر كما قال
فزاد تعلق المسلمين بنبيهم ، وهزغ بعض المشركين في اعتقادهم ، وهكذا
كانت الصحيفة فاتحة خير .

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ١٥ .

(٢) الصمة : بكسر الصاد مشددة - الأسد - والمراد هنا الشجاع . الصمم :
جمع الصمة .

(٣) ألوفم : بفتح الهمزة - الحقود .

والأبيات سهلة الضمون، واضحة الفكرة، أضف إلى ذلك أن البيوت
الأخيرة حكمة صادقة تدل على أن الدائرة تدور على الظالم مهما كان شأنه.
وأراد البارودي أن يبين بعض آيات تدل على فضل الرسول (صلى الله
عليه وسلم) فقال (١):

كفى الطفيل بن عمرو لكمة ظهرت
في سوطه فأنارت سدفة القتم (٢)
هدى بها الله دوساً من ضلالتهم
فتأبعت أمر داعيها ولم تهيم (٣)

لقد أسلم الطفيل بن عمرو وطلب من الرسول (صلى الله عليه وسلم) آية تكون له عوناً على قومه - عندما يدعونهم إلى الإسلام - فدعا له الرسول، فظهر نور بين عينيه، فقال: يارب اجعله في غير وجهي فأني أخشى أن يظن قومي أنها مثلة لثراقي دينهم، فتحول في رأس سوطه، وأنار ظلمة الليل عندما ذهب إلى قومه ليلاً، وأسلم منهم كثير، بسبب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ودعوته.

وأتح الشاعر تلك القصة قصة أخرى بقوله: (٤)

وفي الأراشي للأقوام محتسب
إذ جاء مكة في ذود من النعم (٥)
فباعها من أبيس جهل فما ظله
بحقه وتماذى غير محتشم
فجاء منتصراً يشكو ظلامته

إلى النبي، ونعم العون في الإزم (٦)

-
- (١) كشف الخمة في مدح سيد الأمة ص ١٦.
(٢) الطفيل: هو الطفيل بن عمرو بن طريف الأزدي صاحب جليل، استشهد في موقعة اليمامة سنة ١٢ هـ (أسد الغابة ج ٣ ص ٨٠) السدفة: بضم فسكون - الظلمة، القتم: بقحتين: المراد الليل.
(٣) دوس: قبيلة الطفيل. (٤) كشف الخمة في مدح سيد الأمة ص ١٦.
(٥) الأراشي: هو كهلة بن عصام (انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤١٦).
(٦) الإزم: (بكسر الهمزة وفتح الزين): جمع أزمه - فتح فسكون: الشدة.

فقام يهتد را يعضى لنصرتهم

(١) ونصرة الحق شأن المرء ذى الهمم

فدق باب أبى جهل فنجسا له

(٢) طوطا يبجزر عن الخائف الزنوم

فحين لا قى رسول الله لاح له

فحل يحد إليه الباب من أطم

فها له ما رأى فارتد منزعجا

وهاد بالنقد بعد الظل عن رفسم

يشير البارودى - فى تلك الأبيات - إلى قصة الأراشى الذى بساع
بعض الإهل إلى أبى جهل ، ولكنه ما طله فى نضها ، فجا الأراشى إلىسى
الرسول (صلى الله عليه وسلم) يطلب نصرته ، فأخذه الرسول وذهب إلىسى
أبى جهل ، وطلبه بمسداد ما عليه ، فأذعن أبو جهل لأمر رسول الله
على الرغم من عداوته له ، ووقوفه فى سبيل الدعوة ، وكان السبب فى إذعائه
أنه قد ظهر أمامه فحل يريد افتراسه بأنيابه القوية عندما كان الرسول
يكلمه ، فخاف وأذعن (٦) ولا شك فى أن هذه القصة عبرة لمن يمتسبر
بالإضافة إلى بيان عظمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحسن خلقه ، وكسال
شجاعته ، وصدق البارودى عندما قال : (ونصرة الحق شأن المرء ذى الهمم)
كما أن فيها إشارة إلى نصرة الله أنبيه (عليه الصلاة والسلام) وتأيدته ببعض
المعجزات ، ومنها ما أشار إليها البارودى بقوله (٧) :

أتلک أم حين نادى سرحة فأتت

(٤) إليه منشورة الأضمان كالجسم

حنت عليه حنو الأم من شفق

(٥) وورفت فوق ذاك الحسن من رخم

(١) الزنوم : بفتح الزين مشددة وكسر الراء - المراد الذليل المضيق عليه .
(٢) مسيرة ابن هشام ج ١ ص ٤١٦ . (٣) كشف الخمة فى مدح سيد الأمة ص ١٧ .
(٤) السرحة : الشجرة ، الجسم : بضم ففتح - جمع (جمعة) بضم الجيم وتشديد
الميم - مجتمع شمر ناصية الإنسان ، وقيل : على التى تطلع المنكين .
(٥) رخم : بفتح حين - المراد محبة وشفقة .

جاءته طوعاً ، وعادت حين قال لها :

صودي ، ولو خليت للشوق لم ترم

يبدو أن البارودي يريد أن يعقد مقارنة بين قصة الأراهى - وما صحبها من تأييد الله لنبيه (صلى الله عليه وسلم) - وبين قصة تلك الشجرة التي دعاها الرسول (صلى الله عليه وسلم) فأنت صرعة ممثلة أمره ، وصادت عندما أمرها (صلى الله عليه وسلم) بالرجوع .

والجدير بالذكر أن البوصيري أشار إلى مثل ذلك في قوله (١) :

جاءت لدعوته الأشجار ماجدة

تمشى إليه على ساق بلا تقدم

إلا أن البارودي زاد بيان حنوها على الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما تحنو الأم شفقة على ولدها ، ورفرت قوته رقة وشفقة ومحبة ، كما زاد أيضاً امتثالها أمر الرسول إياها بالرجوع ، ولو تركت هي وشأنها ما عادت لشدة شوقها إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وهذه من معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي ثبتت بـ تفسير من الأحاديث الصحيحة (٢) .

الإسراء والمعراج :

ويواصل البارودي الحديث عن بعض معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (٣) :

وحذا ليلة الإسراء حين سرى

ليلاً إلى المسجد الأقصى بلا أتم (٤)

رأى به من كرام الرسل طائفة

فأمهم ثم صلى خاشعاً بهم

(١) انظر ص ١٤٣ من هذه الرسالة .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٤ .

(٣) كشف الغممة في مدح سيد الأمة ص ١٧ .

(٤) أتم : بفتحيتين - المراد الإبطاء .

بل عبدا نهضة المصراع حين سما
به إلى مشهد في المزل لم يرم
سما إلى الفلك الأعلى فقال به
قدرا يجلب عن التشبيه في المظم
وسار في سجات النور مرتقيما
إلى مدارج أعيت كل محتسما (١)
وناز بالجواهر المكسور من كلس
ليست إذا قرنت بالوصف كالكلس

يشير الشاعر في تلك الأبيات إلى معجزة الإسراء والمصراع ، ولقد بدأ إشارته بالثناء على تلك الليلة التي وقعت فيها هذه المعجزة ، ثم ذكر أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد رأى بعض الرسل الكرام في المسجد الأقصى صلى بهم إماما ، وحمد ذلك صمدا إلى السموات ، وفي ذلك شرف عظيم ، إذ وصل إلى مكان لم يلفه نبي مرسل ، ولا ملك مقرب ، وكلم ربه بكلام يجلب عن الوصف .

ولا يخفى ما في الأبيات من سرد ، كما أنها خلت من عمق الفكرة ، ولعلسه يلح بقوله : (بلا أتم) إلى أن هذه المعجزة تمت بسرعة ، كما أن قوله : (ثم صلى خاشعا بهم) بعد قوله : (فأصمهم) بعد حشوا ، ويبدو أنه أتى به للوزن .

ثم ذكر البارودي أن معجزة الإسراء والمصراع (٢) :
سر تحار به الألباب قاصرة

ونحة لم تكن في الدهر كالنعم
هيئات يبلغ فهم كه ما بلغت
قرباه منه وقد ناجاه من أمم
فيالها صلة نال الحبيب بهما
ما لم ينله من التكريم دونهم

(١) مدارج : جمع مدرجة : يفتح فسكون - المرء والمراد المكان العالي القدر .
(٢) كشف النحلة في مدح سيد الأمة ص ١٨ .

فاقت جميع الليالي فهى زاهرة

بخصيها كوعسور النار فى الملم (١)

إذا كان الإسراء ، أمرا خارقا للعادة ، فالصراج أكثر منه ، ولذلك يقول عنه البارودى: إنه سر تقف أمام عظمته العقول قاصرة عن فهم حقيقته ، وهو - أيضا - نعمة من الله بها على نبيه (صلى الله عليه وسلم)؛ إن ناجى ربه ، وحظى بتكريم لم يحظ به غيره ، ولذلك فإن هذه الليلة التى وقعت فيها تلك المعجزة فاقت ما عداها من الليالي ، وأصبحت مضيئة بجلالها ، كضياء النار على الملم .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (سر تحارر به الألباب . .) ما يؤكد مكانة تلك المعجزة ، وعظم قدرها ، كما أن قوله : (هيئات يبلغ فهم . .) يشير إلى عجز العقول - مهما سمت وارتقت - عن فهم تلك الأسرار الإلهية ، والنفحات الربانية ، فاستحقت بذلك تغميم أمرها ، ولذلك قال الشاعر : (فياليها صلة نال الحبيب بها . .) .

إن تشبيه الشاعر ظهور تلك الليلة بين ما عداها من الليالي بظهور ضياء النار على الجبل ضعيف لا يناسب المقام ، ولا يوحى بالمراد ، ولو اكتفى بقوله : (فاقت جميع الليالي . .) لكان أفضل .

فرض الصلاة :

ثم انتقل البارودى إلى الحديث عن فرض الصلاة بقوله : (٧)

هذا وقد فرض الله الصلاة على

عباده وهداهم واضح اللقمة

فسارعوا نحو دين الله وانتصبوا

إلى العبادة لا يألون من سأم (٢)

(١) زاهرة : مضيئة . فى : بمعنى (على) .

(٢) كشف الخمة فى مدح سيد الأمة ص ١٨ .

(٣) لا يألون من سأم : المراد لا يتركونها .

ولقد ظل الرسول (صلى الله عليه وسلم) يدعو إلى الإسلام دون كسل أو ملء فكان يستقبل الناس في البادية وفي الحضر ، وبعرض دعوته عليهم في السهول وفي الجبال ، وكان من أثر ذلك أن استجاب الأنصار لدعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فدخلوا في دين الله ، وتمسكوا بهم مع رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبإسلام الأنصار استكملت الدنيا نضارتها ، إذ كانوا أغنياء ، كما قوى بهم الدين ، إذ كانوا أقوياء ، فأذاقوا بأسهم كل جبار شهيد ، ولذلك أشرفت بهم الظلمات ، وخدمت من قوتهم أنفاس الأعداء .

إن البارودي يشير إلى جهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) في تبليغ الدعوة بأكثر من معنى ، فهو : (لم يفتر ولم يجم) بل كان (يستقبل الناس في بدو وفي حضر) ، وكان (ينشر الدين في سهل وفي علم) .

وإذا تأملت حديثه عن الأنصار وجدتهم قد دخلوا في دين الله عسرين طيب نفس ، وأطمئنان قلب : (واعتصموا بحبله عن تراض) ، كما أنه أشاد بما لديهم من مال ، وما عندهم من قوة وفتوة : (فاستكملت بهم الدنيا) . ثم أكد ذلك في قوله : (قوم أقوياء عماد الحق) ، وزاد ذلك تأكيداً في البيت الأخير : (فكم بهم أشرفت أستار داجية) .

موقف قريش من بيعة الأنصار : (١)

ولقد أشار البارودي إلى موقف قريش من بيعة الأنصار بقوله : (٧)

فحين واني قريشا ذكر بيعتهم

ثاروا إلى الشر فعمل الجاهل الحرم

وبادوهوا أسل دين الله واعتصموا

حقوقهم بالتمادي شر مهتضم (٢)

فكم ترى من أسير لا حراك بسه

وشارد سار من فجع إلى أكس (٤)

(١) المراء ببيعة الأنصار بيعة العقبة الثانية أو العقبة مكان قرييمن منى في طريق المنحدر من عرفات إلى مكة - وفيها تحاهد الأنصار على نصرة رسول الله (سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٩)

(٢) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ١٦٠ (٢) بادوهوا : المراد فاجأوا .

(٤) الفج : الطريق الواسع بين جهلين .

وعندما علمت قريش نبأ بيعة الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم
مساكينهم، منه نساءهم وأولادهم . . . فقدوا صوابهم ، ولجأوا إلى
الشر ، ففاجأوا المسلمين ، وسلبوهم حقوقهم ، واستولوا على أموالهم ، بسبل
تحكموا فيهم ، فأصبح بعضهم أسيرا ، وبعضهم هاربا يلتمس النجاة - ممن
يطشهم - في الجبال .

ولعل الشاعر يلح بقوله : (فحين واني قريشا ذكر بيعتهم . .) إلى
بيعة العقبة الثانية ، وهي التي علمت قريش أخبارها فثارت ثائرتها .

الرسول يأمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة :

ثم ذكر الهارودي أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أمر أصحابه بالهجرة
إلى المدينة في قوله (١) :

فهاجر الصحبان قال الرسول لهم :

سيروا إلى طيبة المرعية الحرم

وظل في مكة المختار منتظرا

إذنا من الله في سير وصبرتم

فأوجست خيفة منه قريش ولهم

تقبل نصيحا ، ولم ترجع إلى فهم (٢)

فاستجمعت عنها في دار نديتها

تهفى به الشر من حقد ومن أضم (٣)

ولودوت أنها فيما تحاول

مخدولة ، لم تسم في مرتح وخم

أولى لها ثم أولى أن يحوق بها

ما أضمرت من البأساء والشجيم (٤)

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ١٩ .

(٢) فأوجست خيفة : وقع في نفسها الخوف والفرع .

(٣) دار نديتها : المراد دار الندوة التي كانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها (سيرة

ابن هشام ج ٢ ص ٩٣) أضم : بفتحين - المراد : حسد .

(٤) الشجيم : بفتح الشين مشددة وفتح الجيم - الهالك - وقيل : المكروه .

لقد أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أصحابه بالهجرة إلى المدينة؛
لأنها مكان آمن وسلام ، واستمر في مكة منتظراً أمر الله بالهجرة ، ولحسن
قريش فوجت وخافت من الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وخاصة عندما أمر صحابته
بالهجرة إلى المدينة وبقى هو بمكة ، ولم تفكر تفكير العقلاء ، فاجتمعوا
في دار الندوة يتآمرون على الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولو كانوا يعلمون
أنهم سيخذلون في إلحاق الأذى بالرسول ، ما سلخوا هذا المسلك المشين ،
الذي هو أولى أن يحسق بهم .

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (فأوجست خيفة) ما يوحي بشدة
خوف قريش وهزيمتها ، ويبدو أن الشاعر تأثر في ذلك بقوله تعالى : " فَأَوْجَسَ
فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّؤَمِّي " (١) ، كما أن في قوله : (ولم تقبل نصيحاً)
ما يشير إلى عناد قريش واستكبارها ، أضف إلى ذلك أن في قوله : (لم
تسم في مرتع وخم) استعارة مكنية توحى بتشبيه هؤلاء المشركين بالأنعام التي
ترعى في مرتعها ، إلا أن الشاعر قيد ذلك المرتع بأنه (مرتع وخم) بسبب
ظلمهم وعنادهم ، ولذلك حاق بهم الذل والخزي .

مؤامرة :

ثم أشار البارودي إلى مؤامرة المشركين على الرسول بقوله : (٧)

إني لأعجب من قوم أولى فطن

باعوا النهي بالمعنى والسبح بالصم (٢)

يحمصون خالقهم جهلاً بقدرتهم

ويمكفون على الطاغوت والمنهم (٤)

فأجمعوا أمرهم أن يفتنوه إذا

جن الظلام وخفت وطأة القسدم (٥)

(١) طه : ٦٧ . (٢) كشف الخمة في مدح سيد الأمة ص ٢٠ .
(٣) الفطن : بكسر الفاء وفتح الطاء - جمع فطنة - بكسر فسكون - وهي الحدق .
النهي : بضم النون مشددة وفتح الهاء - العقل .
(٤) الطاغوت : المراد الشيطان أو كل ما يصرف عن عبادة الله .
(٥) جنّ الظلام : المراد دخل .

وأقبلوا موئنا في عصبة غسدر

من القبائل باعوا النفس بالزعم (١)

يحجب الشاعر من تصرف هؤلاء القوم الذين أفسوا عقولهم • فتركسوا ما ينفعهم • واتجهوا إلى ما نفع لهم فيه • فلقد عصوا خالقهم • ولم يقدره حق قدره • بل عبدوا أصناما صنعرها بأيديهم • واتبعوا شياطينهم • وأجموا أمرهم على مفاجأة الرسول (صلى الله عليه وسلم) - إذا دخل الليل - وضربه ضربة رجل واحد • فببترق دمه في القبائل •

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (إني لأعجب • •) استهزاء • وسخرية • من هؤلاء الكفار الذين لم يفكروا كما ينبغي • فألفوا عقولهم • وصموا آذانهم • وبذلك الشاعر ذلك بقوله : (يعضون خالقهم جهلا بقدرته) كما أن فيسسه تبكيتا لهؤلاء الكفار الذين يحترفون بأن الله هو الذي خلقهم • كما سجل القرآن ذلك في قوله تعالى : " وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ أَنَسَى يُؤْتِكُونَ " (٢) ومع كل هذا يجهلون قدره • ويمضون أمره • بل يحبسدون غيره !!

وإذا تأملت قول الشاعر : (باعوا النهى بالعنى والسبح بالصميم) ، وجدته قد اشتمل على استمارة تصريحية تهمية دلت على عدم إحسان هؤلاء الكفار التصرف إذا استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير • فببش تصرفهم •

كشف المصنوعة :

ولقد ذكر البارودي أن الله (سبحانه وتعالى) قد أظهر لنبيه ما بينته الكفار بقوله : (٣)

فجاء جبريل للهادى فأنبأه

بما أسرّوه بحد الصهد والقسم

(١) المومنين : بفتح الميم وسكون الواو وكسر الهاء - نحو من نصف الليل ، وقيل : عين يدبر الليل - الزعم : بفتح الزين مشددة وفتح العين :

النمراد الطمع •

(٢) البخرف / ٨٧ •

(٣) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٠ •

فقد رأهم قياماً حول ماؤسسه

يمنون ساحتهم بالشر والفقم^(١)

نادى علياً فأوصاه وقال له :

لا تخش والبس ردائى أما ضم

ومرّ بالقوم يتلو وهو منصرف

(يس) ، وهو شفاء النفس من وصم

فلم يروه وزاغت عنه أعينهم

وهل ترى الشمس جهراً عين الحنم^(٢)

جاء جبريل (عليه السلام) يخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) بما تعاهد عليه المشركون ، وأمره بأن لا ينام فى فراشه فى تلك الليلة ، ولذلك أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) على بن أبى طالب بأن ينام فى فراشه ، ويندثر بردائه ثم خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمشركون حول داره ، ولكن الله أعى أبصارهم فلم يروه .

ولقد صدر الشاعر الفصّل (جاء) بالفاء دلالة على سرعة مجىء جبريل

(عليه السلام) فهى تفيّد الترتيب والتعقيب ، وفى ذلك بيان سرعة نصرة

الله نبيه ، وحفظه من كيد هؤلاء المشركين .

ولعل الشاعر يلح بقوله : (ومرّ بالقوم يتلو وهو منصرف يس) إلى ما

ذكرته بمض كتب السيرة^(٣) أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما خرج

من بيته قرأ قوله تعالى : (يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝۰) إلى قوله تعالى :

(فَأَعْيُنُهُمْ فِئَمٌ لَّا يَبْصُرُونَ) ^(٤) وقد أخذ حفنة من التراب ونثرها عليهم .

وأكد الشاعر عدم رؤية الكفار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فشبههم

بالهيم وشبه نمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالشمس ، ولقد قيل : إن اليوم

لا يبصر نهاراً ، بل لا يظهر نهاراً ^(٥) ، وفى ذلك دلالة على ثقافة الشاعر

وسمة اطلاعه .

(١) الفقم : بفتحتين - المراد الأمر العظيم الذى يندثر بالشر .

(٢) الحنم : بفتحتين (جمع حنمة) وهى الهومة (٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٦

(٤) يس / ٩ - ٥) الدهميرى : حياة الحيوان الكبرى ج ١ ص ٢٦٦ طبعة

دار التحرير للطبع والنشر بجزر سنة ١٩٦٥ .

الأمر بالهجرة :

ثم بين الهارودي أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أمر بالهجرة إلى المدينة في قوله (١) :

وجاء الوحي إيدانا بهجرتـه

(٧) نيم الفار بالصديق في الفسم

فما استقر به حتى تـهـواه

(٢) من الحاتم فوج بارع الرنم

بني به عشه واحتله سكتـا

(٤) يأوى إليه غداة الريح والرهم

إلغان ما جمع المقدار بينهما

إلا لمر بصدر الفار مكنم

كلاهما ديدبان فوق مرصاة

(٥) يرعى السالك من بُعد ولم ينم

أذن الله لنبيه بالهجرة إلى المدينة، فذهب إلى أبي بكر الصديق (رضى الله عنه) واتجها معا إلى غار ثور في الظلمة ، ولما استقرا نسي الفار أتت حمامتان ، وعششتا على وجه الفار ، وكانهما إلغان جمع بينهما القدر ، وكانا كحارسين يرعيان الطرق من بُعد ، ولم يطرق النوم أعينهما .

وإذا تأملت قول الشاعر : (وجاءه الوحي إيدانا بهجرتـه) وجدته يدل على أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يهاجر إلا بعد أن أذن الله له بالهجرة ، كما يدل على سرعة أمثاله أمر الله ويؤكد ذلك الفاء في قوله : (نيم الفار) .

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٠ وما بعدها .

(٧) الفسم : بفتحين - المراد الظلمة .

(٢) الرنم : بفتح الراء مشددة وفتح النون - الصوت .

(٤) الرهم : بكسر الراء مشددة وفتح الهاء - قطرات المطر الخفيفة .

(٥) ديدبان : حارس - المربأة : المكان المرتفع .

وفي البيت الثاني وما يليه يصف الشاعر الحمامتين اللتين عشتسا
على وجه الفار بأنهما: (إتان ٠٠) جمع الله بينهما لمحة سرية (بصدر
الفرار ٠٠) و (كلاهما ديدبان) يقف كل منهما على مكان مرتفع، يرفعا
الطرف في يقظة تامة .

ولم يقف أمرها عند ذلك الوصف بل كانا كما قال الهارودي (١) :

- إن حسن هذا غراما أو دعا طربا
بإسم الهديل أجابت تلك بالنخم (٢)
بخالها من براها وهي جائمة
في وكرها خويل إليه طماء مسن آدم (٣)
إن رفرت سكت ظلًا وإن هبطت أ
روت ظليل الصدى من حائر شيم (٤)
مرقومة الجهد من مسك وغاليسة
مخضومة الساق والكفين بالنخم (٥)
كأنما شرعت في قاني سرب
من أدمى فغدت محمرة القدم (٦)

يبدو أن الهارودي أراد أن يوضح أن إحدى الحمامتين كانت ذكرا
والأخرى أنثى ، ولذلك قال : إن الذكر إذا غنى غراما أو طربا بصوته المعروف
بالمهديل ، ردت عليه أنثاه بنخم جميل ، ومن ينظر إليها - وهي نائمة على صدرها
في وكرها - خويل إليه أنها كرة طماء من الجلد ، وإن رفرت كانت تتجه
نحو الظل ، أما إن هبطت فكانت تروى ظمأها من هذا الماء العذب ، وأصف
إلى ذلك أنها كانت مطوقة العنق بالمسالك والطيب ، مخضومة الساق والكفين
باللون الأحمر ، كأنها دخلت في دمي الشديد الحمرة والسائل بخزارة ، ولذلك
كانت محمرة القدم . ولا يخفى أن الشاعر قد أجاد في وصف الحمامتين ، كما أشار

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢١ .
(٢) الهديل : صوت الحمام ، ويطلق على الذكر منه ، وقيل : فرخ كان على عهد (نوح)
(عليه السلام) صاده جارح فما من حمامة إلا وهي تبكي عليه .
(٣) جائمة : واقعة على صدرها . (٤) الحائر : مجتمع الماء .
(٥) مرقومة : مطوقة أو مملعة - الفالية - أخلاط من الطيب . (٦) شرعت : دخلت - قاني :
شديد الحمرة - السرب : الجارى .

إلى دمه الفزير الذي مزج بدمه ، ولعله تذكر أيامه السالفة ، وما آل إليه حاله من نفس وشهد .

المنكبوت :

وإذا كان البارودي قد أشار إلى الحامتين اللتين وقفنا على باب الفار ، فإنه قد أشار إلى شيء آخر ، كان على وجه الفار أيضا ، بقوله (١) :

وسجف المنكبوت الفار محتفيا

بخيمة حاكها من أهدع الخيم (٢)

قد شد أطنايها فاستحكمت ورس

بالأرض لكتها قامت بلادهم (٣)

كانها ما برى حاكمه لبق

بأرض ما برى في بحبوحة المجم (٤)

وارت فم الفار عن عين تلم بسم

قصار يحكي خفا وجه ملتشم

فياله من سار دونه قصير

يجلسو الهائس من ظم ومن ظلم (٥)

يشير البارودي إلى ما ذكرته بعض كتب السيرة : أن المنكبوت قد ستر وجه الفار - بعد ما دخله الرسول - بنسيجه المحكم ، فستر من بداخله عن العيون ، إلا أن البارودي أشار إلى أن المنكبوت حينما فعل ذلك كان (محتفيا) بالرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ثم وصف نسيجه بأنه كان نسيجا محكما أشبه الخيمة التي شدت حبالها ، وأحكم بناؤها على الرغم من أنها لم تقم على عمد ، بل إن هذا النسيج كان كأنه ثوب حاكسه لبق بأرض ما برى ، تلك البلدة التي شهرت بصنع الثياب الجيدة .

(١) كشف القمعة في مدح سيد الأمة ص ٢١ وما بعدها .

(٢) سجف - بفتح السين وفتح الجيم مشددة - المراد ستر . محتفيا : متلظفا

وبالفا في الإكرام مع فرح وسرور . (٣) الإطناب : جمع طنيد بضمين - حمل الخباء . دع : - بكسر ففتح - المراد عمد - بضمين .

(٤) ما برى : ثوب قيق جيد النسيج منسوب إلى (ما برى) - موضع به بلاد الصجب - صواب النسب إلى ذلك الموضع (ما برى) - بحبوحة : - بضم فسكون - وسط الدار .

(٥) ظلم (الأولى) - بضم فسكون - وظلم (الثانية بضم فتح) - ومما همسا واضح .

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (وسجف المنكوت الفار محتفيا ٠٠)
شبهًا وسخرية من هؤلاء الكفار الذين كانوا يطاردون الرسول ويهدون به شرا -
وهم أصحاب المقول - . والمنكوت يحتفى بالرسول ويحافظ عليه !! ويلاحظ
أن الشاعر يشبه بيت المنكوت بالخيمة في الاستحكام لا في القوة؛ لأن الله
تعالى أخبر أن بيت المنكوت ضعيف في قوله : * وَإِنَّ أَوْلَىٰ النَّبِيِّاتِ لَكَيْتُ
الْمُنْكُوتِ ٠٠ الآية (١) .

وإذا تأملت قول الشاعر : (نباله من ستار دونه قمر ٠٠) وجدته يشبه
الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالقمر ٠٠ ، وذلك (يجلو البصائر) أي ينظف
القلوب من الظلم و من الظلام و ولعل في ذلك إشارة إلى قوله تعالى :
(وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ٠٠)^(٢) والمراد مسكين ظلمات الكفر إلى نور
الإيمان .

ولقد اشتملت الأبيات على بعض المحسنات اللمعية مثل : الضائبة بسين
لفظي : (تم وطمتم) ، والجناس المحرف بين لفظي : (ظلم وظلم) .

ثم أشار البارودي إلى أن الرسول مكث في الغار ثلاثة أيام بقوله^(٣) :

فظل فيه رسول الله ممتكفا

كالدر في البحر أو كالشمس في الضم^(٤)

حتى إذا سكن الإرجاف واحترقت

أكباده قنوم بنار اليأس والوف^(٥)

أوحى الرسول بإعداد الرحيل إلى

من عنده السر من خل ومن حشم^(٦)

وسار بحد ثلاث من بهائم^(٧)

يؤم طيبة مأوى كل ممتصم^(٨)

(١) المنكوت / ٤١ . (٢) المائة : ٦٦ (٣) كشف القحة في مدح سيد الأمة ص ٢٢ .
(٤) الضم : بضم ففتح - المراد قطع السحاب . (٥) الإرجاف : المراد الأخبار أو البحث
لأن المراد بالخل : أبو بكر الصديق - والحشم عامر بن فهيرة - مولى أبي بكر - توفي سنة
٤ هـ (أسد الغابة ج ٢ ص ١٣٧) - ولعل من الحشم أيضا هنا عبد الله بن أرقط -
أو أريقط - دليل الرسول في الطريق إلى المدينة وكان على دين قريش .
(٦) البهائم : المنزل والمراد الغار .

لقد مكث الرسول (صلى الله عليه وسلم) في غار ثور ثلاثة أيام ، وعندما
يتمس المشركون من معرفة مكانه ، ورجعوا خائبين ، أمر الرسول (صلى الله
عليه وسلم) بإعداد الرحلة قاصدا المدينة .

ولاحظ أن الشاعر قد شبه الرسول بالدر وهو في البحر ، والشمس التي
حجبها بعض السحب في قوله : (كالدر في البحر أو كالشمس في القسم)
ولا يخفى أن ذلك التشبيه قديم ، كما أن الرسول أفضل من ذلك .

وأحسن الشاعر عندما أشار إلى حالة الكفار بقوله : (واحترقت
أكباد قوم بنار اليأس والوفم) ، ولعل في تكبير (قوم) ما يوحى بالتحقير
والسخرة .

ولا يخفى أن في قول الشاعر عن طيبة أنها : (ماوى كل معتصم) ما يشير
إلى مكانتها ، وعظم شأنها .

قصة أم معبد : (١)

ولقد أشار البارودي إلى بعض المشاهد التي حدثت عندما كان الرسول
في طريقه إلى المدينة بقوله (١) :

فحين وانسى (قديدا) حل موكبه

بأم معبد ذات الشاء والفتسم (٢)

فلم تجد لقراء غير ضائنة

قد اقشعرت مراعيها فلم تسم (٣)

فما أمر عليها - داعيا - يسده

حتى استهلكت بذى شخين كالديم (٤)

(١) أم معبد هي : عاتكة بنت خالد : الخزاعية - قيل إنها أسلمت وحسب إسلامها
وعمرت ، ولكن لم تعرف سنة وفاتها (أسد الغابة ج ٧ ص ١٨٢) .
(٢) كشف القصة في مدح سيد الأمة ص ٢٢ وما بعدها .
(٣) (قديدا) موضع بين مكة والمدينة . (٤) ضائنة : الأنثى من الغنم ، اقشعرت :
أصحات . (٥) شخين - بفتح فسكون ، ومضم فسكون أيضا - مثنى شخب وهو اللبن
الخارج من الضرع عند الحلب .

ثم استقل وأبقى في الزمان لها
ذكرا يسير على الآفاق كالنسيم

يشير الشاعر إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو : في طريقه إلى
المدينة نزل مكانا يسمى (قديدا) فقصده هو ومن معه خيمة لا مرأة تدعى
(أم معبد) ، وسألوها تمرا أو لحما يشترونه منها ، فلم يجدوا عندها شيئا
سوى شاة ، فقال لها الرسول : (صلى الله عليه وسلم) هل بها من لبن ؟ قالت :
هي أجهد من ذلك ، قال : أتأذنين لي أن أحلبها ؟ قالت : نعم
فدعا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ربه قائلا : اللهم بارك لها في شئها ،
ثم مسح على ضرعها - فدرت لها كثيرا ، فشربوا جميعا حتى روي ، وارتحلوا
فيها ، تاركين لها كثيرا من اللبن أيضا .

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (قد انقضت مراعيها ٠٠) ما يوحي بشدة
هزال تلك الشاة ، كما أن في قوله : (استهلكت بندي شخبين كالديسم)
ما يشير إلى كثرة ما درته من اللبن ، ولعل الشاعر أراد يقوله : (ثم استقل
وأبقى ٠٠) أن هذه القصة قد بقيت تذكر على مدى الأيام ، وسجلتها كثير من
كتب السيرة ، وذلك لما اشتملت عليه من إشارة عظيمة إلى فضل الله ونعمته على
الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

قصة سراقسة (١) :

ولم تكن قصة أم معبد هي كل ما حدثت في أثناء هجرة الرسول (صلى الله عليه
وسلم) ، بل هناك قصة أخرى ، أشار إليها البارودي بقوله (٢) :

فبينما هو يطوى الهيد أدركه

ركضا سراقسة مثل القضم الضرم (٣)

حتى إذا ما دنا ساخ الجواد به

في برقه فهوى للساق والقسم (٤)

(١) هو سراقسة بن مالك بن جشم صحابي جليل - أسلم وحسن إسلامه - توفي سنة
٢٤ هـ وقيل : غير ذلك (انظر : أسد الغابة ج ٢ ص ٢٢٢ وما بعدها) .

(٢) كشف النعمة في مدح سيد الأمة ص ٢٣ .

(٣) القضم الضرم : النسر الجائع . (٤) ساخ الجواد : ذهبت قوائم الفرس

في الأرض . برقة : بضم فسكون : أرض غليظة فيها حجارة مختلطة بالرمل والطين .

يقوله : (فكف عنه رسول الله (ص)) ، ولعل الشاعر يلح بقوله : (وهو به
لهوى) إلى أن الله قد أعلم رسوله أن سراقته سيسلم ، فيما بعد .

وإذا تأملت هذه الحكمة الصادقة : (وكم نعم تفرعن نعم) وجدت
الشاعر يشير بذلك إلى أن سراقته خرج من مكة ليبحث عن الرسول ، وليبدل
عليه الكفار ، فإذا به يعود مدافعا عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بكتمان
أمره ، وصرف الأنظار عن البحث عنه ، ونسحان من حفظ رسوله حتى وصل سالما
إلى المدينة واستقبله أهلها استقبالا رائعا ، أشار إليه الهارودي بقوله (١)

ولم ينزل سائرا حتى أناف على

(٢) أعلام طيبة ذات المنظر المسم

أعظم مقدمه فخرا ومنقبة

(٣) لمحشر الأوس والأحباب من جسم

فخر يدوم لهم فضل بذكرته

ما سارت العيس بالزوار للحرم

يوم به أن الإسلام غرت

(٤) وأدرك الدين فيه ذروة النجم

لقد واصل الرسل (صلى الله عليه وسلم) سيره حتى أشرف على المدينة
التي خرج أهلها يستقبلونه بنفوس مشتاقة لرؤيته ، وقلوب فرحة بمقدمه ، الذي
سيفخرون به على مدى الأيام .

وإذا تأملت قول الهارودي : (أعلام طيبة ذات المنظر المسم) وجدت يشير
إلى أن المدينة قد أزينت لاستقبال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وما لها
لا تزين ، وقد اكتسب أهلها (فخرا ومنقبة) بقدم الرسول إليهم ، وفي هذا
القدم فخرا يدوم لهم فضل بذكرته . ولا يخفى أن في تنكير لفظ (فخر) ما يوحي

(١) كشف الغمّة في مدح سيد الأئمّة ص ٢٣ وما بعدها .

(٢) أناف : أشرف .

(٣) جسم : الصراط الخرج .

(٤) النجم : جمع نجم .

بمظهره ، كما أن الفعل (يدوم) فعل مضارع يدل على التجدد والاستمرار ،
أكده الشاعر بقوله : (ماسارت الميسر) . إلا أنه انتزع تلك المبسرة
من وحى الهيئة البدوية ، وفي ذلك دلالة على أن الهارودي قد نهج نهج
الشعراء السابقين ، وسلك طريقهم ، ولا يخفى أن لفظ (الزوار) غير شمسري
وإن كان عربياً .

وفي البيت الأخير : (يوم به أرخ الإسلام غرته) إشارة إلى أن موسم
الهجرة يعد ميلاداً جديداً للإسلام ، ونصراً للمسلمين ، ولذلك أرخ به المسلمون
على يد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، إذ هو الذي أشار بذلك (١)

وقد حسنت إشارته ، لأن هذا اليوم قد ارتفعت فيه راية الإسلام ،
كما أشار إلى ذلك الهارودي بقوله : (وأدرك الدين فيه ذروة النجم) .

بناء المسجد النبوي :

وانتقل الشاعر إلى الحديث عن بناء المسجد النبوي بقوله (٢) :

ثم ابتغى سيد الكونين مسجده

بنيان عز فأضحى قائم الدعائم

واختص فيه (بلالا) بالأذان وما

يلغى نظير له في نبرة النخام (٣)

لقد بنى الرسول (صلى الله عليه وسلم) مسجده في المدينة في أول عهده
بها ، كما اختار (بلالا) - لحسن صوته وشدته - لمؤذن في ذلك المسجد .
والجدير بالذكر أن بلالا شهر بأنه مؤذن الرسول (صلى الله عليه وسلم)
ويبدو أن هذه الشهرة هي التي جعلت الشاعر يقول : (واختص فيه بلالا) .
ولا ينبغي ذلك وجود مؤذن غيره للرسول (صلى الله عليه وسلم) (٤) .

(١) انظر : الموسوعة الميسرة ص ١٢٣٦ .

(٢) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٤ .

(٣) بلالا : هو بلال بن رباح الحبشي - مؤذن الرسول (صلى الله عليه وسلم) توفي

سنة ٢٠ هـ . وقيل غير ذلك (انظر : أسد الغابة ج ١ ص ٢٤٣) .

(٤) ابن القيم : زاد المعاد في هدى خير العباد ج ١ ص ٢١ المطبعة المصرية (غير

ثم ذكر البارودي بعض ما قام به الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المدينة بقوله (١) :

حتى إذا تم أمر الله واجتمعت
له القبائل من بحد ومن زعم (٢)
قام النبي خطيباً فيهم فسأرى
نهج الهدى ، ونهى عن كل مجترم
وهبهم بكتاب حض فيه عيسى
معامن الفضل والآداب والشهيم
فأصبحوا في إخوانهم ضصدع
على الزمان وهم خير ضهدم

عندما استقر الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المدينة وأتت إليه بعض القبائل - من كل مكان - معلمة ، خطب الرسول خطبة جامعة بسين فيها طريق الهدى ، وحث عليها ، وأظهر طريق الضلال ونهى عنها .

ولعل الشاعر يلح بقوله : (وهبهم بكتاب حض فيه على ...) إلى ما ذكرته بعض كتب السيرة من أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أمر بكتابة كتاب بين المهاجرين والأنصار ، لموادعة اليهود في المدينة ، وحنن معاملتهم (٣) .

وإذا تأملت قوله : (فأصبحوا في إخوانهم غير ضصدع) وجدته يشير إلى أن الأوس والخزرج - الأنصار - أصبحوا متحابين بحد أن كانوا متحاربين متنازعين ، وربما أشار الشاعر بذلك إلى المواقفة (٤) التي قام بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) بين المهاجرين والأنصار وأكدها بقوله (٥) :

-
- (١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٤ .
 - (٢) زعم : بفتحين - المراد قرب .
 - (٣) سيرت ابن هشام ج ٢ ص ١١٩ وما بعدها .
 - (٤) المواقفة : هي جعل لكل أنصاري أخاً من المهاجرين لتذهب عنهم وحشة القرية ولتصويبهم عن مفارقة الأهل والمشيرة ، وليرشد بعضهم أقر بعض .
 - (٥) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٤ وما بعدها .

وحين أخى رسول الله بينهم

أخسى عليا • وضم المون في القحم^(١)

هو الذي هنم الله الطفافة به

في كل معتك بالوهن محتسدم

فاستحك الدين واشتدت دعائسه

حتى فدا واضح المرنين ذا شمسم^(٢)

وأصح الناس إخوانا وهههم

فضل من الله أحميا هم من المسمدم

يشير البارودي إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين أخى بين

الصهاجرين والأنصار بقى على بن أبي طالب فقال له الرسول: (صلى الله عليه وسلم)

" أنت أخى في الدنيا والآخرة " -^(٣)

وهذه العبارة أصبحت الصهاجرون والأنصار إخوانا • فتوى المسلمون •

واشتدت دعائم الدين •

ولا يخفى أن الشاعر في تلك الأبيات قد أشار إلى فضل على بن أبي طالب

الذي أبلو بلا حسنا في كثير من المعارك •

وإذا تأملت قوله : (فاستحك الدين •••) وجدهته اشتمل على استمارة

مكية توحى بانتشار الإسلام وقوة المسلمين • كما أن في قوله : (حتى فسدا

واضح المرنين ذا • شم) كناية لطيفة توحى بتمزة المسلمين وعظيم أثر الإسلام

الذي أحميا الناس من المدم • وجعلهم إخوانا متحابين • وهذا من فضل

الله وكرمه •

(١) القحْم : الأمور العظيمة الشاقة •

(٢) المرنين : المراد الأنف •

(٣) أسد الغابة ج ٤ ص ١٠٦

فرض الجهاد (١) :

ولقد انتقل البارودي إلى الحديث عن فرض الجهاد بقوله (١) :

هذا وقد نهي الله الجهاد على

رسوله ليث الدين في الأمم

فكان أول غزو سار فيه إلى

(ودان) ثم أتى من غير مصطدم (٢)

ثم استقرت سرايا الدين صاحبة

بالخيول جامحة تسفن باللجسم (٣)

فرض الله الجهاد على رسوله وعلى المسلمين، لنشر الدين، فكان أول غزوة خرج فيها جيش المسلمين هي غزوة (ودان) إلا أن ذلك الجيش رجع من غير قتال، إذ هبقت مير قوش، ولكن سرايا المسلمين ظلمت منتشرة في نشاط وقوة.

وإذا تأملت قول البارودي : (هذا وقد فرض) ووجدته سردا تاريخيا، ولفظا غير شمرى، وما أشبهه بحبارات القوم، كما أن قوله : (ليث الدين) يوحي بأن الجهاد فرض لنشر الدين، وهذا غير صحيح، لأن الجهاد فرض للدفاع عن المسلمين، وتمكين من يحب الدخول فيه من دخوله، ولو قال الشاعر : (ليث الأمن في الأمم) مثلا لكان أفضل، وأبعد عن الشبهة السابقة، التي عرفت فيما بعد بين أعداء الدين (بانتشار الإسلام بحد السيف) كما سيأتي.

(١) فرض الجهاد، قبيل الهجرة، وقيل : بعد الهجرة. (انظر زاد المسافر ج ٢ ص ٥٨ وما بعدها)

(٢) كشف الغممة في مدح سيد الأمة ص ٢٥.

(٣) المراد بالغزوة : القطعة من الجيش يكون على رأسها الرسول حارب فيها أم لم يحارب. ودان : (بفتح الواو وفتح الدال مع تشديد ها) قرية بين مكة والمدينسة بالقرب من الأيواء، ولذلك سميت (غزوة الأيواء) أيضا (سورة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٢).

(٤) السرايا : جمع سرية وهي القطعة من الجيش يكون على رأسها قائد من قبل رسول الله ولم يخرج هو فيها.

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (ثم استقرت سرايا الدين مابحة ٠٠)
ما يوحي بقوة جيش المسلمين وكثرة سراياه التي أشار إلى بعضها بقوله (١) :

سرية كان يراها عبدة نسي

صوبه وحمزة في أخرى إلى التهم (٢)

وفزوة مار فيها المصطفى قد صا

إلى (بواط) بجمع ساطع القسم (٣)

لقد بحث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عبدة بن الحرث علسي

رأس سرية، كما بحث حمزة بن عبد المطلب على رأس سرية أخرى، وخرج (صلى
الله عليه وسلم) في غزوة إلى (بواط) ولكنه لم يجد أحدا .

ولا يخفى أن الشاعر لم يذكر إلى أين اتجهت سرية عبدة بن الحرث

مع أن ابن هشام ذكر أنها سارت حتى وصلت إلى أسفل (ثنية المرة) (٤) ولم

يحدث فيها قتال (٥) ، كما لم يحدد البارودي وجهة سرية حمزة مع أن ابن

هشام - أيضا - ذكر أنها وصلت إلى (سيف البحر) (٦) ثم حدث صلح بسين

المسلمين والمشركين في تلك السرية (٧) .

وواصل البارودي الإشارة إلى جهاد المسلمين بقوله (٨) :

وشلها بصمت (ذات المشيرة) نسي

جيش لها م كعج البحر لمنظم (٩)

وسار سعد إلى (الخرار) يقدمه

سعد ولم يلتقى مسعرا من بششم (١٠)

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٥ وطبعدها .

(٢) عبدة بن عبدة بن الحرث بن المطلب، توفي سنة ٢ هـ (أسد الغابة ج ٣ ص ٥٥)

صوب: جهة . حمزة : هو حمزة بن عبد المطلب التهم : المراد الشام .

(٣) بطاط (بضم ففتح) - وقيل : بفتحين أيضا - جبل من جبال جُمَينة بالقرب من المدينة .

(٤) ثنية - بفتح الثاء وكسر التون وفتح اليا - مشددة - المرة - بفتحين : ما بالحجاز

بالقرب من بادية مكة . (٥) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٤ . (٦) سيف / بكسر السين

ساحل البحر . (٧) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٩ وطبعدها . (٨) كشف الغمة في مدح

سيد الأمة ص ٢٦ . (٩) ذات المشيرة - بضم الميم وفتح الشين وسكون اليا - موضع

بالقرب من ينبع . (١٠) سعد : هو سعد بن أبي وقاص صاحب جليل توفي سنة ٥٥ هـ =

يشير الشاعر إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) خرج على رأس غزوة اتجهت نحو ذات المشيرة في جيش كبير ، كما يمت سعد بن أبي وقاص على رأس سرية وصلت إلى (الخرار) ولكنه عاد بخير قتال .

وإذا كان الشاعر قد ذكر أن جيش المسلمين في غزوة ذات المشيرة كان كبيرا : (جيش لهام ٥٠) فإن البوصيري قد سقه في قوله : (٥٠ كسج البحر ملظم) (١) كما أنه لم يذكر أن ذلك الجيش قد رجع بخير قتال (٢) ،

وهما يكن من شيء فإن البارودي ما زال يبرد بعض الفزوات والسوايا بقوله (٣) :

وصت (سفوان) الخيل سابعة

بكل مصترم للقون ملستم (٤)

وتاج العير (عبد الله) ضجها

تلقاء (نخلة) صحوا بكل كوي (٥)

وحولت قبلة الإسلام وقتئذ

عن وجهة القدس نحو البيت في المعظم .

أشار البارودي في هذه الأبيات إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان على رأس غزوة اتجهت إلى (سفوان) ولكنه لم يحاربها لم يجد أحسدا فعاد إلى المدينة ، وأرسل عبد الله بن جحش على رأس سرية اتجهت ناحية (نخلة) ولما مرت به عبر لقريش استاقها بعد حربه وفي ذلك الوقت حولت القبلة من المسجد الأقصى إلى البيت الحرام .

١ وقيل : غير ذلك : (انظر أسد الغابة ج ٢ ص ٣٦٩) (الخرار) بفتح الخاء

وفتح الراء مشددة - موضع قرب الجحفة . البشم : بفتحين - التعمب والسام .

(١) انظر ص ١٨٤ من هذه الرسالة . (٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٣) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٦ وما بعدها .

(٤) سفوان : بفتحين - واد بالقرب من بدر (للقون) لعله تحريف لسف

وأصله (للقوس) ١٠ و (للقون) أي المماثل كما سيأتي .

(٥) عبد الله : هو عبد الله بن جحش صحابي جليل توفي سنة ٣ هـ (أسد الغابة

ج ٣ ص ١٩٥) نخلة) فتح فسكون - موضع بين مكة والطائف .

ولا يخفى أن البيت الأول يشير إلى قوة جيش المسلمين الذي خرج إلى (معاوية) والجدير بالذكر أن هذه الفزوة تسمى غزوة بدر الأولى^(١) أما غزوة بدر الثانية ويطلق عليها بدر الكبرى^(٢) - فأشار إليها البارودي بقوله^(٣):

يوم المصطفى (بدرًا) فصلاح لسه
بدر من النصر جلى ظلمة الوخم
يوم تسم فيه الدين وانتهطت
على الضلال عيون الشرك بالسجم^(٤)
أبلى (على) به خير الهلاك بسا^(٥)
جباه ذو العرش من بأس ومن همم
وجال (حمزة) بالصمام يكسهم
كسًا يفرق منهم كل همم^(٦)

قاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) جيش المسلمين في غزوة بدر الكبرى، فكان النصر حليفه في ذلك اليوم الذي ارتفعت فيه راية الحق وانخفضت فيه بل أفسحت فيه رؤوس الشرك وأعوان الباطل.

يبدو أن الشاعر كان يختصر القول فيما سبق - من سرايا وغزوات - ويصرح الخطى ليوقف مع هذا اليوم الذي لاح للرسول (صلى الله عليه وسلم) نفسه (بدر من النصر جلى ظلمة الوخم) وليشيد بذلك اليوم الذي (تسم فيه الدين) ولم يقف أثره عند ذلك الحد بل (انتهطت على الضلال عيون الشرك بالسجم) بسبب ذلك اليوم العظيم وما له لا يكون كذلك وقد أبلى المسلمون فيه بلاء حسنًا، يتجلى فيما قام به علي بن أبي طالب من بمالة وكفاح، وكسا يظهر فيما أظهره حمزة بن عبد المطلب من شجاعة ونضال أطلقه كان نضال المسلمين عظيمًا، وكفاحهم كبيرًا، ولذلك تفرق جمع أعدائهم بل تموت أوصالهم.

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٨.

(٢) كشف الخمة في مدح سيد الأمة ص ٢٧.

(٣) السجم: بفتح السين - الدمع.

(٤) الدرر: بحمزة - حمزة بن عبد المطلب الصمام: السيف الصارم الذي لا ينثنى.

يكسهم: يتبع آثارهم، والمراد يقتلهم.

وإذا تأملت قول الشاعر : (يوم تسم فيه الدين ٠٠) وقوله : (وانهملت
على الضلال ٠٠) تجد في كل منهما استمارة مكمية أكدت أثر ذلك الـسوم ،
وضحت وقع ذلك الانتصار .

ولقد اختار الشاعر ألفاظا ناسبة المقام ، مثل : النصر ، أبلسى ،
باس ، وهم ، وجال ، والصمام ، ويكسؤنم (٠٠) .
ولم يقف الشاعر عند ذلك الوصف بل أكده بقوله (١) :

وغادر الصحب والأنصار جمهم
وليس فيه كسى غير ضهم — زم
تقتضهم يد الهيجا عاد لـسنة
فالهام للبهش والأبدان للرخم (٢)
كانا البهش الأيدي صوالجسة
يلعبن في ساحة الهيجا بالقم (٣)
لم يبق ضهم كسى غير ضجسدل
على الرغام وضو غير ضحطسم (٤)

إن البارودي يؤكد بسالة الصحابة ، ويظهر شجاعتهم ، فهم لم يتركوا
ساحة القتال إلا بعد ما هزبوا جيش المشركين هزيمة مفكرة ، وقضوا
عليهم قضا جبراً .

وإذا تأملت قول الشاعر : (وغادر الصحب والأنصار ٠٠) وجدته يؤكد
الفكرة السابقة ، فالصحابه الجياهدون (غادروا جمهم) ولم يبق في لفظ غادر
ما يدل على أنهم تركوا ذلك المكان وكلهم نشاط وقبوة ، ولم يرغبهم أحد
على مفادته .

-
- (١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٨ .
(٢) الهيجا : الحرب . الهام : الرأس .
(٣) الصوالجة : عصى معوجة الطرف تضرب بها الكرة . القم : بكسر ففتح —
المراد : الرمي .
(٤) الرغام : سبهم الرء مشددة — التراب ، ضحطم : منكسر .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين فضل الأنصار ، فذكرهم بعد قوله :
(الصعب) ، معلوم أنهم يدخلون في ذلك الوصف فيكون من قبيل فكسسر
الخاص بعد العام ، فلاحظهم بأمرهم ، وتفضيهم شأنهم .
ولا يخفى أن في قول البارودي : (تقسمهم يد الهيجا . ٠٠) استعارة
مكتوبة نحو بصارة الجنود المسلمين ، وتحكمهم في رقاب أعدائهم .

ولقد رسم الشاعر صورة لعب فيها التشبيه دورا كبيرا ، وذلك في قوله
(كأننا البيض بالأيدي صالجة . ٠٠) فالجنود المسلمون متحكمون في
سيوفهم كما يتحكم اللاعب في عصاة التي يلعب بها الكرة ، ولكن المسلمين هنا
يلعبون بماذا ؟ إنهم يلعبون برووس الكفار !!!

ولعل الشاعر أراد أن يشير إلى أن جيش الكفار لم يخل من جنود
أقوياء ، ولكنهم مع ذلك : (لم يبق منهم كمن غير منجدل . ٠٠) .

إن هذه المعركة لم تمتد فترتها طويلا ، ولذلك قال البارودي (١) :

فما ضمت ساعة والحرب مصممة

حتى غدا جميعهم نهبا لقتلهم

قد أظرتهم سما الحرب صائفة

بالمشرفية والمران كالرجم (٢)

فأين ما كان من زهو ومن صلف

وأين ما كان من نخس ومن شمم (٣)

جاءوا وللشر وهم في معاطسهم

فأرغوا والردى في هذه السيم (٤)

من عارض الحق لم تعلم مقاتلتهم

ومن تعرض للأخطار لم ينسهم

عندما بدأت هذه الحرب ، واشتمل أوارها ، واشتد وطئها ، هجم

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٨ .

(٢) المشرفية : السيوف - المران : بضم الميم وفتح الراء المشددة - الرماح .

الرجم : المراد النجوم التي يرص بها . (٣) الصلف : التصراة الكبر والخروج .

(٤) المعاطس : المراد الأنوف .

المسلمون على أعدائهم هجمة فرقت جمعهم • وشقت شملهم • كما أغلقت
سيوفهم في رقابهم • وسلطوا رماحهم على أجسادهم •

وإذا تأملت قول الهارودي : (فما ضت ساعة ٠٠) وجدته يدل على
أن الحرب لم تلبث طويلا ثم وضمت أوزارها • ولكن بعد أن مزق الأعداء
كل صق • وذلك قول الشاعر : (قد أظرتهم ساء الحرب ٠٠) فهذا
تعبير مجازي يوحي بكثرة ما نزل على الكفار من ضربات ملاحقة • بمسوف
مزعقة •

ولا يخفى أن في قول الهارودي : (فأين ما كان من زهو ومن صلف ٠٠)
استهزاء • وسخرية من هؤلاء الكفار الذين ملأ الكبر صدورهم • ويبدو أن الشاعر
يلجئ بذلك إلى أبي جهل الذي قال - عندما أشار بعض المشركين بالرجوع
بخير قتال لما نجت القافلة - : " لا نرجع حتى نحضر بدرا فنقيم فيسه
ثالثا • نضع الجزر • ونظم الطعام • ونسقي الخمر • ونضح بنا العرب • فسلا
يزالون بيها يومنا أبدا ٠٠ (١) •

ولعل ما يؤكد ذلك قول الشاعر : (جاءوا وللمر وهم في معاطبهم ٠٠)
فهذا كناية عن شدة صلبهم للشر • وثقتهم الكبيرة في قوتهم • ولكنهم لستم
يلبثوا أن ذلوا وهلكوا على أيدي المسلمين الذين يدافعون عن الحق •
وعكذا : (من عارض الحق لم تسلم مقاتله ٠٠) وبهذه الحكمة الصادقة
ختم الشاعر حديثه عن غزوة بدر الكبرى • ثم استأنف حديثه عن جهس
المسلمين في مواقع أخرى بقوله (٧) :

فما انقضى يوم بدر بالتي عظمت

حتى مضى قازيا بالخيل في الشكم

فهم (الكدر) بالأبطال منتحيا

(بنى سليم) فولت عنه بالرقسم (٢)

-
- (١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٠ يتصرف •
(٧) كشف الغمة في صلح سيد الأمة ص ٢٨ وما بعده •
(٢) الكدر : بضم الكاف وسكون الدال : ما • لبنى سليم - إحدى القبائل العربية -
قرب المدينة •

- وسار في غزوة تسمى (السويق) بها
ألقاه أعداؤه من عظم زادهم (١)
ثم انتحى بوجه الخيل (ذا أسر)
ففر ساكبه رجا إلى الرقيم (٢)
وأم (نوحا) فلم يثقف به أحدا
ومن يقم أمام المارض الهزيم (٣)

بعد انتصار المسلمين في بدر لم يلبث الرسول (صلى الله عليه وسلم)
طويلا في المدينة ، بعد ذلك الانتصار الكبير على المشركين .

إذ خرج على رأس جيش سار حتى وصل إلى (الكدر) ولكنه لم يلبس
كيدا ، فعاد إلى المدينة ، ثم خرج للاقاة بمض المشركين في غزوة سميت
(السويق) ، ولكن المشركين فروا أيضا ، فاتجه الرسول (صلى الله عليه وسلم)
إلى مكان يدعى (ذا أمر) لمحاربة أهله ولكنهم تركوا ديارهم وهربوا إلى
الجيال ، ثم اتجه إلى (الفرع) لمحاربة أهله الذين أرادوا أن يخيروا على
المدينة ، ولكنه لم يجد هناك أحدا .

وهكذا يعرود البارودي عدة غزوات خرج فيها المسلمون ولكنهم لم يحاربوا ،
ويبدو أن المشركين كانوا عندما يسمحون قرب وصول جيش المسلمين يفرون تاركين
ديارهم هودلك خوفا من قوة ذلك الجيش الذي أشار إلى كثرته وقوته البارودي
في قصيدته : (ومن يقم أمام المارض الهزيم) .

(١) السويق : يفتح السين مشددة وكهر الواو - دقيق الشصير أو الحنطة إذا
حضر وقد يمزج باللبن والحمل والسن ، وسميت الشزوة بذلك الاسم لأن المسلمين
عندما اقتربوا من المشركين رمى المشركون رؤسهم تخفيفا عن أنفسهم حتى يستطيحسوا
القرار من المسلمين .

(٢) ذو أمر : (أمر) بفتحين - موضع بنجد قريب من ديار غطفان .

الرقيم : بفتحين - جبال دون مكة بديار غطفان .

(٣) فرع : بضمين ، وقيل : بضم فسكون - قرية قريبة من المدينة .

الما رض : السحاب المترض في الأفق .

الهزيم : يفتح فكسر - الذي لرعد صوت .

وإذا كانت هذه الغزوات ضد المشركين ، فإن أول غزوة ضد اليهود
هو التي أشار إليها الهارودي في قوله : (١)

ولف بالجيش حمص (قينقاع) بسا

جنوا ، فتصسا لهم من مشرقهم (٢)

وسار زيد بجيغ نحو (قردة) من

مياه نجد ، فلم يثقف سوى النعم (٣)

إن أول غزوة ضد اليهود كانت غزوة بني قينقاع الذين اتجه إليهم
(الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما نقضوا عهدهم معه .

ولعل الشاعر يشير بقوله : (.. بما جنوا ..) إلى السبب المباشر

للغزوة وهو إهانتهم لزوجة رجل من الأنصار وقتلهم أحد المسلمين ..
فخبرهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بين الإسلام أو الجلاء ، ولكنهم
تحصنوا بحصونهم خمسة عشر يوما ، والمسلمون يحاصرونهم إلى أن اضطروا
إلى التسلم والجلاء إلى الشام (٤) .

ولقد بحث الرسول (صلى الله عليه وسلم) زيبين حارثة على رأس سرية
اتجهت نحو (قردة) ولكنه لم يجد سوى النعم فأخذها وهد إلى المدينة .

يسوم أحمد :

ثم أشار الهارودي إلى غزوة أحد بقوله (٥) :

لم استدارت رحا الهيجا في أحد

بكل مفرس للقرن ملتهم (٦)

-
- (١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٩ وما بعدها .
(٢) قينقاع : بفتح القاف وسكون انايا وتثنية التون والضم أشهر - حتى من اليهود
كانت منازلهم محيطة بالمدينة - قزم - بفتح حين - أراذل .
(٣) زيد هو : زيد بن حارثة صاحب جليل استشهد سنة ٨ هـ : (أسد الغابة
ج ٢ ص ٢٨١ وما بعدها) (قردة) بفتح حين - اسم ما ينطحه تجد .
(٤) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٢٧ باختصار . (٥) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٣٠
وما بعدها . (٦) القرن : بكسر القاف وسكون الراء - المائل في الشجاعة ، وفتح
انقاف مع سكون الراء : المائل في السن .

بوم تهن تبه الجد واتضحست
جلية الأمر بعد الجهد والسام
قد كان خيرا وتحيفا ومفسرة
للمؤمنين • وهل بر • بلا سقم
مضى (على) به قدما فنزلهم
بخطلة أوردتهم مورد الشجيم
وأظهر الصحب والأنصار بأسيهم
والبأس في الفعل غير البأس في الكلم
خاضوا المنايا فنالوا عشة رغيدا
ولذة النفس لا تأتي بلا ألم

لقد كانت غزوة أحد بلاء واختبارا للمسلمين • الذين أظهروا شجاعة
فاتقة • وسالة نادرة • وصبروا وصابروا على الكفاح • واحتشهد منهم كثير
وإذا تأملت قول الشاعر • (ثم استدارت رجا الهيجا ••) وجدته
يلج إلى تفهيم نتيجة الحرب التي كانت في صالح المسلمين أول الأمر
ولكنها ما لبثت أن تغيرت لصالح المشركين بعدما خالف الرماة أمر الرسول
(صلى الله عليه وسلم) • (١)

ولا يخفى أن في قول البرودي : (قد كان خيرا وتحيفا ومفسرة ••)
تلميحا إلى قوله تعالى : **وَلِيَمِخَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَحِقَّ الْكَافِرِينَ أَمْ**
حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا بِكُمْ وَيَعْلَمَنَّ
الصَّابِرِينَ •• (٧) • كما أن هذه الحكمة الصادقة : (وهل بر • بلا سقم) تشير
إلى أن الفلاح لا بد أن يسبقه ما يفخسه • وأن النصر لا بد معه من
الكفاح والشقة •

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٩ وما بعدها •

(٧) آل عمران ١٤١ - ١٤٢ •

وإن كان الشاعر أشاد بكفاح علي بن أبي طالب في تلك الغزوة فمضى
بقوله: (مضى علي به قد ما فززلهم...) فإنه أشاد أيضا بكفاح كل الصحابة
الذين اعتركوا في تلك الغزوة، ولا سيما الأنصار، وذلك في قوله: (وأظهر
الصحب والأنصار بأسهم)، وتحفنا البارودي - كمهدنا به - بحكمة صادقة
تمون الشجاع من الجبان: (والبأس في الفعل غير البأس في الكلم).

ثم أشار الشاعر إلى هؤلاء الصحابة الذين امتشهدوا في تلك الغزوة
بقوله: (خاضوا النايما فالواعيشة وفدا) ولعله يلح بذلك إلى قوله
تمالي: "وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يُرَوِّقُونَ... الآيات (١)".

ثم يؤكد البارودي أن الإنسان لا ينال ما يروجه إلا بالتمسك وذلك فمضى
بقوله: (ولذة النفس لا تأتي بلا ألم) وهذا قول تصدقه الأيام.

وواصل الشاعر حديثه عن غزوة أحد بقوله (٧):

من يلزم الصبر يحتمن عواقبه

والماء يحسن وقما عند كل ظم

لو لم يكن في احتمال الصبر ضغمة

لم يظهر الفرق بين اللوم والكسرم

فكان يوما فتد البأس نال به

كلا الفريقين جهدا وأوى الحدم (٨)

أودى به حمزة الصنديه في نفس

نالوا الشهادة تحت العارض السرزم (٩)

أحسن بها ميتة أحيوا بها عرسا

والموت في الحرب فخر السادة القدم

(١) المرجع السابق ١٦٩-١٧١.

(٢) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٣١.

(٣) الحدم: - بفتحين - اشتداد الحر والمراد شدة القتال.

(٤) الصنديه: السيد الشجاع. الرزم: - بفتح الراء - شدة وكسر الزين -

الكثير الذي لا ينقطع - وأراد الشاعر بالترض الرزم. النهار المشمسار

من حوافر الخيل.

لا عار بالقوم من موت ومن سلب

وهمل رأيت حساما غير منقلسم (١)

يشير البارودي إلى بمغز الحكم التي تسلى النفس ، وثبتت القلب ، ومنها :
إن عاقبة الصبر حمودة ، والإنسان إذا صبر ثم نال ما تنشاء فحضر بقيمته
صبره ، كما أن المساء لا يعصرف قيمته إلا الذي اضطمر إلى المطر ،
وكذا لك الصبر يظهر اللقيم والكريم .

ثم يشير الشاعر إلى أن يوم أحد كان شديد البأس على المسلمين
والكافرين ، ولقد استشهد فيه حمزة بن عبد المطلب الصحابي الشجاع ،
كما استشهد معه كثير من الصحابة في ساحة القتال ، فما أحسن ميتتهم
التي جعلتهم في عداد الشرفاء الشجعان ، ولا عار عليهم في ذلك ؛ لأن
الأبطال هم الذين يموتون في المارك ، وفي ذلك فخر كبير لهم ، ولا عار
على المسلمين إذا هزموا في جولة ، فإن لكل جواد كبوة ، ولكل حسام
ثلمة .

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (نالوا الشهادة تحت الحماض المرزم)
إشارة إلى أن هؤلاء الأبطال ظلموا يناضلون دون فرار أو استسلام على الرغم
من شدة الحركة ، كما أن في قوله : (أحسن بها ميتة أحيوا بها شرفنا)
نكتة لطيفة أثارها ذلك الطباخ بين الموت والحياة ، والمجيب أن موتهم كان
سببا في إحياء شرفهم إذ استشهدوا والشهيد حتى يبرز كما سبق أشف
إلى ذلك أن قوله : (والموت في الحرب فخر السادة القدم) يشير إلى
شجاعة هؤلاء الأبطال المسلمين ، وهو كلام حكيم يجرى مجرى المثل .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يخفف من وقع الهزيمة على نفوس المسلمين

بقوله : (وعل رأيت حساما غير منقلسم) .

ثم يتحدث عن بعضهما فعمله الرسول في تلك الممزة بقوله (١)

(١) منقلسم : منكسر الحديد .

(٢) كشف الخمة في مدح سيد الأمة ص ٣١ وما بعد هذا .

فكان يوم جزاء بحد مختص
 لمن وثى وجفا بالميز والرفس
 قام النبي به في مأز حرج
 توعى المناصل فيسه منبت الجسم (١)
 فلم يزل صابرا في الحرب يفتوها
 بالبيش حتى اكتست ثوبا من المنم (٢)
 ورد عين ابن نعمان قتادة ه إذ
 سالت فمادت كما كانت بسلا لتسم (٣)

يقول البارودي: إن يوم أحد كان يوم جزاء بحد اختباره، فمن وثى كان العز والشرف جزاءه، ومن جفا كان الذل والخسران عقابه، ولقد قام النبي (على الله عليه وسلم) يقاتل ويكافح على الرغم من التضييق على المسلمين، ولكنه صابر وجاهد حتى سكنت حدة الحرب، وكان من آيات الرسول (صلى الله عليه وسلم) في تلك النزوة أن رد عين قتادة بن النعمان إلى مكانها بحد أن وقعت على وجهه، فمادت كما كانت، بل كانت أحسن من المصلحة (٤).

وإذا تأملت قول الشاعر: (قام النبي به في مأز حرج ٠٠) وجدته يشير إلى ما أصبح عليه جيش المسلمين بحد مخالفة الرماة أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) فوق الاختلاف بين صفوفهم، وتفوق سطهم، إلا أن الرسول ظل صابرا، وأخذ يجمع الصفوف، وقاد الجميع إلى حمل السيوف.

ولا يخفى أن قول الشاعر: (فلم يزل صابرا في الحرب ٠٠ البيت) يدل على أن المسلمين قتلوا كثيرا من المشركين بسيوفهم (حتى اكتست ثوبا من المنم) أضف إلى ذلك أن المعسن البدعي - اللف والنسب في تولسه:

-
- (١) المناصل: جمع المنصل - بضم الميم وسكون النون وضم الصاد وفتحها - السيف والمراد بالجسم هنا: الرقاب.
 - (٢) يفتوها: يكسر حذتها ويكنها.
 - (٣) قتادة بن النعمان سبق التصريف به في هامش ص ١٥٥ من هذه الرسالة. لثم: بفتح حتين - المراد: جن أو أثره.
 - (٤) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٦٦

(•• لمن وثق وجفا بالحق والوفاء) يشير إلى جزاء المؤمن الذي وثق به
وعاقبة الكافر الذي جفا فلا شك في أن جزاء من صدق ما عاهد الله
عليه يكون الجنان • كما أن جزاء من حاد الله ورسوله يكون
الهلاك والضران •

لم يهين المسلمون بعد غزوة أحد، بل انتصروا في كثير من السرايا والغزوات
التي أشار البارودي إلى بعضها بقوله : (١)

- وقد أتى بعد ذا (يوم الرجيع) بما
(١) فيه من الغدر بعد العهد والقسم
وإثر نزع الضايا في (مصونة) من
(٢) بنى سليم بأهل الفضل والحكم
ثم اشرايت لخفر العهد من نفسه
(٣) (بنو النضير) فأجلاهم عن الأطم
وسار منتحيا (ذات الرقاع) قلم
(٤) تلقى الكتاب فيها كيد مصطدم
وحل من بعدها (بدوا) لوعده (أبسى
(٥) سفيان)، لكنه ولي ولم يحسم
وأمّ (دومة) في جمع وعاد إلى
(٦) مكانه وسما النقع لم تضم

- (١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٣٢ وما بعدها •
(٢) الرجيع : - بفتح الراء مشددة وكسر الجيم - ما لم يذبل بناحية الحجاز بين مكة
وسفان • (٣) مصونة : - بفتح الميم وضم الميم - مكان شرقي المدينة بين أرض بنى
عامر وعروة بنى سليم • (٤) اشرايت مدت عنقها • والمراد مالت • خفر العهد
عدم الوفاء به • بنو النضير : قبيلة من اليهود كانت بواد ظاهر المدينة •
(٥) ذات الرقاع : اسم الخزوة سميت باسم مكان قريب من أرض فطقان • أولان المسلمين
لقوا على أرجلهم رقاعا من كسرة السير وقيل غير ذلك (سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٥٨) •
(٦) أبو سفيان : هو أبو سفيان بن حرب كان يحارب الرسول ثم أسلم • وتوفي سنة ٤١ هـ
وقيل غير ذلك (أسد الغابة ج ٣ ص ١١) •
(٧) دومة : - بضم الدال وفتح الميم - مدينة على بعد خمس عشرة ليلة من المدينة
وتسمى (دومة الجندل) •

أشار الشاعر بقوله : (يوم الرجيع) إلى أن رهطا من (عضل والقارة) من قبائل العرب قدسوا على الرسول ، وطلبوا منه أن يرسل معهم بعض صحابته ليفقهوهم في الدين ، فأرسل معهم ستة من الصحابة ، ولكنهم غدروا بهم وقتلوه ، وكان ذلك في مكان يدعى (الرجيع) (١) .

وأما (مونة) فقد قتل فيها ما يقرب من أربعين صحابيا من القراء ، كانوا قد ذهبوا إلى ذلك المكان لدعوة أهله إلى الإسلام ، ولتعليمهم قراءة القرآن (٢) ، ولكنهم غدروا بهم وقتلوه .

وأما (بنو النضير) فلقد أردوا القدر برسول الله (صلى الله عليه وسلم) باللقاء صخرة عليه فأخبره جبريل (عليه السلام) بأمرهم فقام متظاهرا بأنه يقضي حاجة ، ثم عاد إليهم وحاصروهم حصارا شديدا ، حتى سألوه الجلاء فأجلاهم عن الحصون (٣) .

كما خرج بنو وعض أصحابه لمحاربة بعض القبائل التي أرادت بالسلبين سوءا ، ولما وصل إلى (ذات الرقاع) لم يجد أحدا فماد إلى المدينة (٤) .

ولقد قال : أبو سفيان للرسول (صلى الله عليه وسلم) - بعد أحد - " الموعد بيننا وبينكم بدر من العام القابل " ، فخرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) لمقابلة أبي سفيان في الموعد المذكور في (بدر) ولكنه - أبو سفيان - ولى خوفا من مقابلة المسلمين (٥) .

كما علم الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن في (دومة الجندل) جماعة يظلمون من يبرسهم ، وأنهم يريدون الدنوب من المدينة ، فخرج إليهم ، ولكنهم هربوا عندما علموا بخروج الرسول (صلى الله عليه وسلم) إليهم (٦) .

-
- (١) انظر القصة بالتفصيل في سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٢٠ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ١٢٧ وما بعدها . (٣) المرجع السابق ج ٣ ص ١٤٢ وما بعدها . (٤) المرجع السابق ج ٣ ص ١٥٧ وما بعدها .
(٥) المرجع السابق ج ٣ ص ١٦٣ وما بعدها .
(٦) المرجع السابق ج ٣ ص ١٦٨ .

غزوة الخندق : (١)

ولقد أشار البارودي إلى غزوة الخندق بقوله : (٧)

ثم استثارت قريش وهي ظالمة
أحلافها وأنت في جحفل لهم (٢)
تستمرى* البنى من جهل وما علمت
أن الجبهالة مدعاة إلى التلم (٤)
وقام فيهم أبوسفيان من حنق
يدعو إلى الشر مثل الفحل ذي القطم (٥)
فخندق المؤمنون الدار وانتصبوا
لحربهم كضواري الأسد في الأجم (٦)
فما استطاعت قريش نيل ما طلبت
وهل تنال الثريا كـ مستلهم (٧)

ولما رأَت قريش ما أصبح عليه المسلمون من قوة يرهب جانبها ، وشدة
يخشى بأسها ، تأمرت مع بعض أحلافها على المدوان عليهم ، وشجعهم
على ذلك أبوسفيان ، ولكن المسلمين حفرُوا خندقا حول المدينة ، وظلوا
بها استعدادا لملاقاة أعدائهم ، الذين لم يستطيعوا نيل ما طلبهموه ،
ونسيبها أن يستطيعوا ذلك .

وإذا تأملت قول البارودي : (ثم استثارت قريش . .) وجدته يشير
إلى الدور الكبير الذي قامت به قريش في تأليب بعض القبائل على المسلمين
(وهي ظالمة) في ذلك ، ولكنها (تستمرى* البنى) وتستحسن الظلم

(١) الخندق : حفرة عميقة حول المدينة كسور يمنع من دخولها .
(٢) كشف الغمة في مناح سيد الأمة ص ٢٣ وما بعدها . (٣) أحلافها : المراد بهم
عطفان ، وبنى النضير ، وبنى أسد ، وبنى مرة ، وبنى سليم وغيرهم .
(٤) تستمرى* : تستطهب . التلم : المراد الهلاك . (٥) حنق : غيظ - القطم - بفتح
الهمزة - الهياج . (٦) فخندق المؤمنون الدار : المراد حول الدار . ضواري : جياح .
(٧) الثريا : نجم .

(وما علمت أن الجبال مدعاة إلى التلم) وأن المكر السيء لا يحيق
إلا بأهله ، حينما كانوا .

وأحسن الشاعر حينما صور حالة أبي سفيان وهو يشجع القبائل على
ظلم المسلمين ، - أحسن الشاعر حينما صور - بفعل شائع ، وحيوان شارد ،
وأما المسلمون فقد حفرُوا الخندق حول المدينة : (وانتصروا لحرب)
أعدائهم بشجاعة وتلف ، كما ينتظر الأسد الجائع فريسته في عرينه ، ولا شك
في أن الشاعر أحسن عندما شبه المسلمين بالأسود ، وشبه المدينة بالآجام ،
(كضواري الأسد في الأجم) ، ثم بين فشل قريش في هدفها بقوله :
(فما استطاعت قريش نهيل ما طلعت) بل أكد أن ذلك بعيد كل البعد
أن يتحقق لها بقوله : (وهل تنال الثريا كف مستلم) ، وهذا مستحيل بالمشاهدة .

ثم أكد الشاعر فشل قريش فقال (١) :

رامت بجهلنتها أمرا ولو علمت

ماذا أعد لها في القيب لم ترم

فخيبت الله مصفاها وقادرها

نهب الردى والصدى والريح والطم (٢)

فقوضت عمداً لترحال وانصرفست

ليلا إلى حيث لم تسرح ولم تسم

وكيف تحمد عقي ما جنت يدها

بخيا وقد سرحت في مرنج وخسم

قد أقبلت وهي في فخر وفي جندل

وأدبرت وهي في خزي وفي سدم

من يركب الفئ لا يحمد عواقبهم

ومن يطمح قلبه أمر الهوى بهم (٣)

(١) كشف الشبه في مدح سيد الأمة ص ٢٤ وما بعدها .

(٢) الصدى (بالقصر) العطش ، الطم : - بفتحين - المراد زوال أثرهم من

تلك الأماكن التي نصبوا فيها خيامهم .

(٣) بهم : المراد يضل .

لقد رامت قريش السوء بالمسلمين ، ولو علمت أن الله تعالى لمن
يحقق ظلمها ، بل سيخيب ظنهما ، وسيجعل عاقبة بغيها وخيمة عليها ،
ما نضت ذلك ، فلقد سلط الله عليهم ريحا شديدة في ليلة مظلمة باردة ،
فاكفأت القدر ، وأطفاأت النيران ، وهدمت الخيام ، وهكذا تكون عاقبة
الظالمين .

وإذا تأملت قول البارودي : (رامت بجهلتها أمرا) وجدت يدل
على شدة ما أصاب قريشا من ندم نتيجة ظلمها ، ولعل الشاعر نكر (أمرا)
لتذهب النفس فيه أي مذهب ، كما أن في قوله : (فخيب الله معها هسا)
ما يدل على سرعة نصر الله المؤمنين ، تشير إلى ذلك تلك (الفاء) التي تدل
على الترتيب والتعقيب ولقد سلط الله عليهم جندا كبيرا ، أشار إليها الشاعر
في قوله : (نهب الردى والصدى والريح) .

ولعل في قول البارودي : (فقموضت عهد الترحال) ما يدل على
شدة الريح ، كما أن قوله : (لم ترح ولم تسم) يوحى بالاحتهازا
والسخريفة من هؤلاء الأعداء ، وأكد ذلك البارودي بقوله : (وكيف تحمد
عقب ما جنت يدها بغيها) ، ولا يخفى أن في لفظ (يدها) مجازا مرصلا
علاقته الجزئية ، يشير إلى جرم ما ارتكبه هؤلاء الكفار بتلك الأيدي الأنهسة
وهو لفظ (بغيها) .

إن هؤلاء الأعداء لم يفكروا بحقولهم فما أشبههم بالأنعام ، بل هم
أضل لأنهم سرحوا (في مرتع وخم) ، ففي العبارة استعارة مكنية لطيفة
أنزلت الظالمين منزلة الأنعام ، وبنيت عاقبتهم الوخيمة .
ولقد أحسن الشاعر في هذه المقابلة (١) : (قد أقبلت وهي في فخر
وفي جدل) ، (وأدبرت وهي في خزي وفي سدم) إذ بينت - بوضوح - حسال
الأعداء عند ذهابهم للاعتداء على المسلمين ، ثم سجلت خزيهم وفشلهم
عند عودتهم .

(١) المقابلة : هي الجمع بين أمر متقابلة - كل بضده على الترتيب ، وهي مسن
الحسنات البديعية (انظر : زهر الربيع ص ١٦٨) .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يؤكد عاقبة الظلم والظالمين، فقال قسولا
سديدا : (من يركب الفئ لا يحمده عواقبه) ثم بين أن الهوى من الهوان ،
ومن أطاع هواه كان ماله الخسران : (ومن يطلع قلبه أمر الهوى بهم) .

رواصل البارودي حديثه عن كفاح المسلمين وجهادهم فقال (١) :

ثم انتحى بوجوه الخيل ساهمة

(بني قريظة) في رجراجة حطم (٢)

خانوا الرسول نجازا بهم بما كسبوا

وفي الخيانة مدعاة إلى النقم

وسار ينحو (بني لحيان) فاعتصوا

خوف الردى بالموالي كل محتصم (٣)

وأم (ذا قرد) في جحفل لجيب

يستن في لاحب باد وفي نسيم (٤)

وزار بالجيش غزوا أرض (مصطلق)

فما اتقوه بنير البيض في الخسدم (٥)

وفي (الحديدية) الصلح استتب إلى

عشر ولم يجر فيها من دم هدم (٦)

يحمد غزوة الخندق اتجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) - على رأس
غزوة - إلى (بني قريظة) لأنهم نقضوا عهدهم معه ، فكان جزاءهم قتل
الرجال وأسر النساء والمبنيان (٧) كل هذا بسبب خيانتهم ، كما اتجه الرسول
- يحمد ذلك - إلى منازل (بني لحيان) وهم الذين قتلوا بأصحاب (الرجيع) ،

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٥ وما بعدها . (٢) انتحى : قصده .
ساهمة : المراد متفيرة من التعب . بنو قريظة : قوم من اليهود كانوا بظاهر المدينة .
رجراجة : المراد كيرة . حطم : بضم فتح - أراد به الشاعر : أن جيش المسلمين
كثير يحطم كل ما يجده . (٣) بنو لحيان : قبيلة بناحية عسفان (طبقات ابن
سعد ج ٢ ق ١ ص ٥٦) . الموالي : مكان قريبين المدينة : وأراد به الشاعر
الجهات المرتفعة - فيه . (٤) ذو قرد - بفتح القاف والراء - موضع قريب من
المدينة جهة عطفان . لاحب : طريق واسع واضح . - نسيم - بفتح السين - : المراد الطريق
الدارس . (٥) مصطلق : المراد بهم : بنو المصطلق وهم بطن من خزاعة يسكنون
قرب المدينة . البيض : النساء . (٦) الحديدية : سبق التعريف بها في هامش ص ٢٢٣
من هذه الرسالة . هدم : المراد هدر . (٧) انظر سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٨٧ وما
بعدها .

ولكنهم هربوا في شتاب الجبال عندما علموا باتجاه الرسول إليهم ، فمساء
الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة (١)

ثم قصد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) - ذا قرد - في جيش كبير ،
عندما أغار بعض المشركين على لقاح لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) كانت
تربى بالخابة - مكان بقرب المدينة - ولذلك تصب هذه الغزوة - أيضا
- غزوة الخابة (٢) - ثم عاد المسلمون إلى المدينة (٣) .

وكذلك خرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) - على رأس غزوة - عندما
علم أن بعض المصطلق يجمعون له فخرج إليهم ، ولقيهم على ماء يسمى (المريسيع) (٤)
وهزمهم هزيمة منكرة وأسر نساءهم وأولادهم (٥) .

ولقد اتجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى مكة محمرا ، ولكن
قريشا منعتهم ، فنزل في مكان يدعى (الحديبية) - وجرت بينه وبين قريش
مفاوضات على : رجوع الرسول هذا العام من غير عمرة على أن يأتي العام القابل
فيحتمر هو ومن معه ، فوافق الرسول ورجع إلى المدينة ، والشاعر يلح بقوله :
(استتب الصلح إلى عشر) إلى ما اتفق عليه المسلمون والمشركون من وضع الحرب
عن الناس عشر منين (٦) .

غزوة خيبر : (٧)

وإذا كان البارودي قد مر مرورا سريحا على بعض الغزوات السابقة
فإنه قد وقف طويلا مع غزوة خيبر ، فقال (٨) :

-
- (١) المرجع السابق ج ٣ ص ٢٢٧ .
(٢) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٥٨ . (٣) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٣٩ وما
بعدها . (٤) المريسيع - بضم الميم وفتح الراء وسكون الياء وكسر السين - اسم ماء
قريب من (قديد)
(٥) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٤٧ وما بعده .
(٦) المرجع السابق - ج ٣ ص ٢٦٤ وما بعده .
(٧) خيبر : مدينة تبعد عن المدينة نحو مائة ميل من الشمال الغربي .
(٨) كشف الخفة في مدح سيد الأمة ص ٢٦ .

وجاء (خير) في جأوا كالحة

بالخيل كالسيل ، والأسياف كالضرم (١)

حتى إذا امتنعت شم الحصون على

من رامها بعد إيفال ومقتحم (٢)

قال النبي : سأعطي رايتي رجلاً

يحبني ويحب الله ذا الكرم

ذا مرة يفتح الله الحصون على

يديه ليس بقرار ولا بـ (٣)

فما يدا الفجر إلا والتزم على

جيش القتال (على) رافع المسلم

خرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) على رأس غزوة إلى يهود خيبر ؛ لأنهم اشتركوا ضده في غزوة الخندق ، كما ألبوا عليه بعض الأعراب (٤) ، فخرج الرسول إليهم في ليلة مظلمة ، وكان جيشه مزوداً بالخيل الكبيرة ، والسيوف القاتلة ، فتفتح المسلمون بعض حصون خيبر ، واستمضى عليهم بعضها ، فقال الرسول : سأعطي الراية - غداً - رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله ، ذاتوة وثنوة ، يفتح الله الحصون على يديه ، وفي الصباح كان على رأس الجيش : علي بن أبي طالب .

ولا يخفى أن الشاعر يشير إلى قوة جيش المسلمين بقوله : (بالخيل كالسيل ، والأسياف كالضرم) ، كما يشير إلى قوة بعض حصون اليهود بقوله : (حتى إذا امتنعت شم الحصون) ، وفي هذا دلالة على جبن اليهود الذين يخافون المواجهة ، وإنما يحاربون وهم داخل حصونهم .

وإذا تأملت قول الشاعر : (قال النبي :) وما بعده من الأبيات وجدته

(١) جأوا : سواداً - كالحة : عابسة .

(٢) الإيفال : المراد الإمان في السير إلى أرض العدو .

(٣) مرة : - بكسر الميم وفتح الراء مشددة - قوة . برم - بفتح فكسر - : ضجر .

(٤) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ص ٢٠٣ .

يدل على منزلة علي بن أبي طالب ، الذي طلبه الرسول ليعلمه الراية ، ولكنه كان كما قال البارودي (١) :

- وكان ذا رمد فارتد ذا بصير
(٢) بنفثة أبرأت عينيه من ورم
فسار معتزما حتى أناه على
(٣) حصون خيرير بالسلولة الخدم
يمضي بمنحله قدما فيلحمه
(٤) مجرى الوريد من الأعناق واللحم
حتى إذا طاح منه الترس تاح له
(٥) باء فكان له ترسا إلى العثم
باب أبت قلبه جهدا ثانيا
من الصحابة أهل الجد والمزم (٦)

كان علي بن أبي طالب - عندما طلبه الرسول - مصابا برمد - فتفلس الرسول في عينيه فبرى لوقته ، وتسلم الراية فوجهها إلى حصون خيرير مسح جنوده ، أصحاب السيوف السلولة القاطعة ، وأخذ يضرب بسيفه ضربات قاتلة ، وعندما سقط منه الترس ، وجد بابا استخدمه مكان الترس .

ولا شك في أن الشاعر في هذه الأبيات يواصل الإشارة إلى مكانة علي ابن أبي طالب ، إلا أنه ذكر معجزة للرسول (صلى الله عليه وسلم) وهي شفاء عين علي ، عندما ثقل فيها الرسول ، وهي معجزة ذكرتها كتب السيرة وأيدها كتب الأحاديث (٧) .

-
- (١) كشف الخفة في مدح سيد الأمة ص ٣٦ وما بعدها .
(٢) نفثة : المراد ثقله من ريق الرسول (صلى الله عليه وسلم) .
(٣) السلولة : المراد السيوف . الخدم : - بضمين - القاطعة .
(٤) يلحمه : المراد يطعمه . (٥) طاح : سقط - الترس : ما يتوقى به .
تاح : تسهيا - العثم : الظلام ، والمراد أن ذلك الباب استعمله علي بن أبي طالب حتى وقف القتال آخر النهار .
(٦) المزم : - بفتحين - وأصله بفتح وسكون - الصير والقوة .
(٧) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٩٠ ، وصحيح مسلم ج ٥ ص ٢٧١ .

ويبدو أن الشاعر قد تأثر في عبارته (فارتد ذا بصير ٠٠) بقوله تعالى: **فَارْتَدَّ بِصَبْرًا ٠٠ الآية (١)**.

وإذا تأملت قول الهارودي : (يضح بضلعك ٠٠) وجدته يشير إلى مهارة علي بن أبي طالب في الحرب، ودقته في طعنات القاتلة، التي تصيب (مجرى الوريد ٠٠)، ويبدو أن قول الشاعر : (من الأضاني واللم) يمسد حسوا يمسد قوله : (من الوريد)، ولعله فكره للتأكيد أو للقائبة .

والهارودي يلمح بقوله : (حتى إذا طاح منه الترس ٠٠) إلى قصة علي بن أبي طالب التي تدل على قوته وشجاعته . إذ سقط منه الترس فوجد أمه باهاقها فانتدبه ترسا له . مع أن ذلك الهايلم يستطع حمل نفسه ثمانية من السحابة الأقوياء (١) . وهذا يدل على قوة علي بن أبي طالب وقوته . وبذلك ذلك قول الهارودي (٢) :

فلم يزل صائلا في الحرب فتحميا

فهاجبة النقع مثل الحيدر القصرم (٣)

حتى تلج لجم النصر وانتشرت

بسه البشائر بين السهل والملم

أبشر به يوم فتح قد أضاء بسه

وجه الزمان فأهدى بشر يتحسس

لقد ظل علي بن أبي طالب يصول ويجول - في غزوة خيبر - وقتحمس الحصون ، ويحرق الصفوف ، فيهر هباب ولا وجل ، حتى ظهرت بشائر النصر القوم تليت أن انتشرت في كل مكان ، فاستبشر المسلمون .

وإذا تأملت قول الهارودي : (فلم يزل صائلا ٠٠) وجدته يدل على مهارة ذلك القائد ، الذي يصول ويجول ، ولا شك في أن ذلك يدل على شجاعته ، وما يؤكد ذلك قول الشاعر : (مثل الحيدر القرم) فهو تشبيه يوضح الفكرة يثبتها .

(١) يوسف / ٠٩٦ (٦) صيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٠
(٢) كشف الغيبة في مدح سيد الأئمة ٢٢٧ (٣) فهاجبة النقع : المراد كثرة الفجار الحيدر : الأسد .

ولا يخفى أن قول البارودي : (حتى تطلع فجر النصر) يدل على أن النصر لم يكن دفعة واحدة ، بل كانت له خطوات ومشاوره وهذا يشير إلى قوة حصون اليهود من جهة ، وعلى مهارة الجنود المسلمين وقادتهم من جهة ثانية .

ولقد كان انتصار المسلمين في خيبر أمرا عظيما ، ولذلك سرتوا بسببه ، ولم يقف ذلك المرور على الإنسان ، بل (قد أضاء به وجه الزمان فأبدي بشر منتم) ففي هذه المهارة استمارة مكية لا يخفى أثرها في بستان عظمة ذلك النصر .

عودة بعض مهاجري الجبهة يوم فتح خيبر :

إن يوم انتصار المسلمين في خيبر كان يوما عظيما بسبب ذلك النصر المين ، وسبب أمر آخر أشار إليه البارودي في قوله (١) :

أنى به (جعفر) الطيار فابتهجت

بعوده أنفى الأصحاب والمسلم (٢)

فكان يوما حوى عديد في نصيبك

فتحا ، وود كرم ظاهر الشهب

وإد بالنصر مولى الدين نصرنا

يوم طيبة في عز وفي نصيب (٣)

بأيهما من نعمتين عظمتين ، وفرحتين كبيرتين ، وقعتا في يوم واحد : نعمة فتح خيبر ، ونعمة عودة بعض مهاجري الجبهة وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب ، ولذلك قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " ما أدري بأيهما أنا أسر : بفتح خيبر ، أم بقدم جعفر " (٤) .

(١) كشف النعمة في طبع سيد الأمة ص ٢٧ .

(٢) جعفر الطيار هو جعفر بن أبي طالب (سبق التعريف به في هامش ص ١٠٠ من هذه الرسالة) وسعى (بالطيار) لقبول الرسول : - لما قطعت يدها في الحرب أتاه الله بذلك جناحين يطير بهما في الجنة . (أسد الغابة ج ١ ص ٢٤٢) وما بعدها باختصار للمعزم : أراد به الشاعر أسرة الرجل وقبيلته .

(٣) مولى الدين : المراد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (٤) سيره ابن هشام ج ٢ ص ٢١١

عمرة القضاء (٧)

ولقد أشار البارودي إلى خروج الرسول (صلى الله عليه وسلم) مسنن
المدينة قاصدا مكة لأداء العمرة بقوله (٦) :

ثم استقام لبيت الله منتصرا
لنيل ما ناله بالهدى للحسرم

سرية مؤتة (٨)

ثم أشار إلى سرية مؤتة بقوله (٥) :

وسار (زيد) أميرانحو (موتة) فسي

بمات فلاقى بها الأعداء من كرم (٥)

فمأ المسلمون الجند واقتتلوا

قتال منتصر للحق منتقم

فطاح (زيد) وأودى (جعفر) وقضى

نعت المجاجة (عبد الله) في قدم (٧)

لا طار بالهول فالشهم الجرى يسرى

أن الودي في العالي خير منتقم

لقد خرج جيش المسلمون متجها إلى مؤتة - وكان على رأسه زيد بن حارثة
- والتقى الفريقان، وقاتل المسلمون وكانوا إلى أن سقط زيد شهيدا، فحمل
الراية بعده جعفر بن أبي طالب، ولكنه استشهد أيضا، فحمل الراية بعده
عبد الله بن رواحة الذي استشهد في ميدان القتال.

(١) سميت بذلك لأنها كانت قبل العمرة التي لم يؤدها الرسول في عام الحديبية.

(٢) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٣٧. (٣) مؤتة: يضم فتكون - اسم موضع بالشام - وهي سرية لأن الرسول لم يخرج على رأسها إلا أن ابن هشام ذكر أنها غزوة ولم يذكر سببا لذلك (سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٢٢).

(٤) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٣٨. (٥) من كرم: المراد من قرب. (٦) المجاجة: - بفتح الميم - اجتماع النهار والدخان - والمراد سما الممركة. عبد الله: هو عبد الله بن رواحة صحابي جليل، استشهد سنة ٨ هـ (أسد الغابة ج ٣ ص ٢٣٨).

ولا يخفى أن الشاعر مرّ مرورا سريعا على سرية مؤتمنة ، وخاصة علمي
استشهاد القواد الثلاثة ، ويبدو أنه اكتفى بالحكمة التي نظمها في البيوت
الأخيرة : (لا عار بالموت فالشهم الجري ٠٠) - والتي تدل على عظيمة
الموت في سبيل تحقيق الأمور العظيمة ، ولا سيما الجهاد في سبيل الله
وأعلاء كلمة التوحيد .

فتح مكة :

وانقل البارودي إلى الحديث من فتح مكة بقوله (١) :

وحين غاست قريش بالمهود ولم

تصف وصارت من الأشواق في نغم (٢)

وظاعرت من (بنو بكر) حليفتها

على (خزاعة) أهل الصدق في الذم (٣)

قام النبي لنصر الحق معتزها

بجعل لجمع الشرك مخرم

لقد نقضت قريش عهدا مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) فساعدت

(بنو بكر) حليفتها - في الاعتداء على (خزاعة) تحليفة المسلمين فكان من الطيبين

أن يقوم الرسول والمسلمون بنصرة خزاعة ، فخرج على رأس جيش كبير فجهبا
إلى مكة .

ثم وصف البارودي جيش المسلمين بقوله (٤) :

تهدو به البيوت والقسطل منتشسر

كالشهب في الليل أو كالنار في الفحم (٥)

لح السيوف وتضال الخيول بسبه

كالبرق والرعد في مندودق مسسوم (٦)

(١) كشف الغمة في شرح سيد الأمة ص ٢٨ .

(٢) غاست : نقضت . (٣) بنو بكر ، وخزاعة قبهلتان عربيتان .

(٤) كشف الغمة في شرح سيد الأمة ص ٢٨ ، وأبعدها .

(٥) القسطل : الفخار . (٦) مندودق مسسوم : المراد المطر الكثير

الذي لا يمتصك .

عزم ينسف الأرض الفضا^(١) إذا

سرى بها ويدك الهضب^(٢) بن خسيم

كانت أمثلة ذلك الجيش كبيرة • تشير الرعدة • فالسيوف طمع • والشيل
نضيل والجنود كيون •

أراد الشاعر أن يوسم صورة واضحة لقوة جيش المسلمين • فأتى بتشبيه
يوهك الفكرة ووضحها وذلك في قوله : (تدو به الهض والتمطال منتشر ••)
فالسيوف من عدة لعانها وكرتها • وسيوسط الفهار الكثير الذي تشبيهه
الخيول تشبه (الشهب في الليل أو كالنار في الفحم) • أضف إلى ذلك أن
أراد أن يوهك شدة لبح السيوف وقوة صهيل الخيول فقال : (كالبرق والرعد
في مفدودق هزم) ولا يخفى أن في العبارة لنا وضرا مرثيا • وإد الفكسة
وضوحا وجمالاً • بالإضافة إلى المناسبة بين (البرق والرعد والطر) • في مفدودق
• ثم بين البارودي أن هذه ذلك الجيش كبير في قوله : (عزم ينسف
الأرض الفضا ••) وليس ذلك فقط • بل و (يدك الهضب ••) •

أما صفات هؤلاء الجنود • فأشار إليها الشاعر في قوله^(٣)

فيه الكلمة التي ذلت لمزتها

مما طس لم تدل قبل بالخطم^(٤)

من كل محترم • بالصبر محتسب

للقرن ملقح • في الهامس مهترم^(٥)

طلت بهم هم نالوا السماك بهسا

عن قدرة • وقلوا النفس بالهسس^(٥)

(١) عزم : كبر - الهضب : المراد المرفح - عزم - المراد : جبل •

(٢) كشف الشمة في صبح سيد الأمة ص ٢٩ •

(٣) الخطم : - بضمون - جمع خطاب - بكسر الخاء - والمراد الجبل الذي تقاد

به الإبل • (٤) محترم : بضم يسكون للفتح فكسر المراد الممتوثق • مهترم -

بوزن سابقه - المراد الذي له صوت أو التصريح •

(٥) السماك : نهم •

بيض أساور قلب قسماورة

شكس لدى الحرب مظامون في الأزم (١)

طابت نفوسهم بالموت إذ، علسوا

أن الحياة التي يخون في الصدم

إن جنود هذا الجيش الكبير قد انصوا بكل الصفات الحميدة ، فهم
شجمان ، لا يخشون النزال ، ولا يرهبون القتال ، فمندهم صبر جميل ، وعزم
أكيد على العمل من أعدائهم ، وهمتهم عالية ، وأنفسهم مهذبة ، جمعوا بين
الشرف والسودن ، والشجاعة وإكرام الضيف :

وإذا تأملت قول الشاعر : (فيه الكلمة التي ذلت لمرتبتها ..) وجدته
يشير إلى شجاعة هؤلاء الجنود المسلمين ، أضاف إلى ذلك أن قوله ،
(.. لم تذلل قبل بالخطم) فيه تحقير لأعدائهم وتثنيهم منزلة الأنعام :

ولا يخفى ما في قول الهارودي : (من كل محترم بالصير محترم .. الهوس)
من تقسيم جعل ، وموسيقى رائعة ، بالإضافة إلى ما اشتغل عليه البيت من صفات
جليلة ، أكتفا بذلك الكتابة اللطيفة في قوله : (طالت بهم نالسيا
الساك بها ..) ثم زادها تأكدا بقوله : (بيض أساور ، غلب قساورة ..) .

ولعل الهارودي قد أحسن عندما وصف هؤلاء الجنود بأنهم يعتمدون
الموت في سهل الله : (طابت نفوسهم بالموت ..) مبينا أنهم بذلك يحسون
الحياة الحقيقية وصدق الله العظيم في قوله : * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * (٧)

إن ألفاظ الشاعر مناسبة للفكرة وملائمة للفرض مثل : (الكفاءة ، القرن ،
في الرأس ، شكس) ، أضاف إلى ذلك بعض الحسنات اليدوية التي زادت
العمق وضوحا مثل : الجناس الناقع بين قوله : (أساور وقساورة)

(١) بيض : المراد ذو شرف ، أساور : المجردون الرص بالمهام ، غلب : يضم
فكون - فلاظ الرتبة - وهو وصف تصدح به السادة - القساورة : جمع قساورة
- يفتحان بينهما سكون - الأسد - شكس - يضم فكون - صعبا بالأخلاق
(٢) الأعلى / ١٢٠

ثم انتقل البارودي إلى وصف خيل المسلمين بقوله (١) :

ماسوا الجهاد فظلت في أظقها

طوح البنانة في كسر وقتحهم (٢)

تكاد تنقه لحن القول من أدب

وتصيق الرحي والإيحاء من فهم (٣)

كان أذناها في الكرا لويسه

على سفون لأمر الريح مرتسم (٤)

من كل ضجور يهوى بصاحبها

يهن العجاج عوى الأجدل اللحم (٥)

لقد علم هؤلاء الجنود خيلهم فنون الحربين - تحسن الكرا والاقطام، بل إنهما لتفهم معنى الأمر وتصيق الإشارة فإذا نظرت إلى أذناها سبسا عندما تكرر كانت كأنها أعلام مرفوعة على سفينة متللة أمر الريح أضف إلى ذلك أنها سريعة تنفض بصاحبها على عدوه كما ينقض الصقر الشديد الجوع على اللحم.

إن وصف البارودي خيل المسلمين بارج وإذا تأملت قوله : (ماسوا الجهاد في أظقها - البيت) وجدته يشير إلى أن هذه الجهاد قد أتقت من الحرب أضف إلى ذلك أنها : (تكاد تنقه لحن القول -) كما أحسن ذلك القيد الجمل : (من أدب) الذي يرفع شأن تلك الخيل التي (تصيق الرحي والإيحاء من فهم) .

ولا يخفى إبداع الشاعر في تصويره أذناي الخيل وهو تكرر إنه يشبهها بالأعلام المرفوعة على سفينة تهتز ذات اليمين وذات الشمال كما لا تجسأ الريح .

(١) كشف الخفة في طوح سواد الأفة ص ٣٩ - (٢) ماسوا الجهاد : المراد ذلولها وطموعها - الأفة : جمع غنان - بكسر الهمزة - المراد : لجام الفرس .
(٣) لحن القول : المراد معناه - الرحي : الإشارة - (٤) ألوية : المراد بأعلام .
سفون : جمع سفينة - مرتسم : يضم فسكون ففتح فكسر : معقل .
(٥) ضجور : سباق - يهوى : المراد ينقض - الأجدل اللحم - الصقر الشديد الشهوة إلى اللحم .

إن البارودي حينما وصف خيل المسلمين ، وصفها وصف مجرب لها ،
مقاتل عليها ، ولذلك لا عجب ولا غرابة في إحصائه ، فهذا هو المنظر منه ،
وهو الذي مارس عليها عدة حروب ، وكان خلالها القائد المظفر - كما سبق -

ثم أشار البارودي إلى سيف الجنود المسلمين وما عوم بقوله (١)

والبيض ترجف في الأضداد من ظمياً

والسمر ترفد في الأيمان من قسوم (٢)

من كل مطرد لولا علائقه

لسابق الموت نحو القرن من قسوم (٣)

كأنه أرقم نسي رأسه حوسمة

يمثل كيد الأعداء بابتنة الرقيم (٤)

كانت سيف المسلمين تضطرب في أعوادها من عدة الظم ، كما كانت
وما عوم تتهز في أيديهم ، ولولا علائقها لسابقت الموت نحو حوسمة الأعداء من
عدة جوهها وشبهتها إلى لحوسوم .

وإذا تأملت قول البارودي : (والبيض ترجف في الأضداد) وجه تسميته
يشير إلى طائفة هذه السيف وليونها ، ولقد أحسن الشاعر عندما بين طليعة
الاضطراب بقوله : (من ظمياً) فدفع بذلك ظن من يتوهم أنها تضطرب خوفاً
مثلاً ، وأيضاً أحسن في قوله عن الرياح : (والسمر ترفد في الأيمان من قسوم)
فإذا كانت السيف متروى ظمياً بعدما الأعداء فلأن الرياح متدهب جوهها
بأجسادهم .

ولا يخفى ما في قوله : (من كل مطرد لولا علائقه لسابق الموت) من
إشارة لطيفة إلى حرص هذه الرياح على النيل من حوسمة الأعداء ، وشدة
تلهبها على لحوسوم .

(١) كشف الخفة في مدح سيد الأمة ص ٢٩ وما بعدها .

(٢) ترجف : مضطرب - السمر : الرياح .

(٣) مطرد : الريح .

(٤) الأرقم : أخيت الحيات . حفة : - يضم فتح - المسم - يمثل : يفتزع

ابتنة الرقيم : المراد الصبية والداعية .

ولقد شبه الروح بحية خبيثة في رأسها السم الزخاف الذي يهيب قلبه
هو لاء الكفار إصابة مؤكدة لا بر * منها * ولا حياة معها ، كل ذلك في قوله :
(كأنه أرقم في رأسه حية ٠٠)
إن ألفاظ الشاعر مناسبة لفكرته ، ولعله قيد (البيض بأنها ترجف في الأغصان)
إشارة إلى أن المسلمين كانوا حريصين على فتح مكة سلما .

ومعد وصف الجيش وأسلحته ، أشار البارودي إلى دخول الرسول مكة بقوله (١) :

فلم يزل سائرا حتى أتاه علسي

أرياض مكة بالفرسان والبهيمة (٢)

ولفهم بخميس لو يشد طلسي

أركان رضوى لأضحى مائل الدم (٣)

فأقبلوا يسألون الصغح حين رأوا

أن اللجاجة مدعاة إلى التمدد

ريموا فذلوا ولوطاشوا لقرشم

ضرب يفرق منهم مجمع اللشم (٤)

ذاقوا الردى جوعا فاستسلموا جزما

للصلح ، والحرب عتاة إلى المسلم

وأقبل النصر يتلو وهو منشم

(المجد لل سيف ليس المجد لل قلم)

واصل الرسول (صلى الله عليه وسلم) سيره مع جيش المسلمين حتى اقترب
من مكة فنقسم الجيش وأمر كل قسم بالدخول من ناحية بحيث يطوق الجيش كله مكة - دون
قتال - فلما رأى أهل مكة جيش المسلمين يحيط بهم من كل ناحية خافوا وطلبوا
الصلح من الرسول (صلى الله عليه وسلم) على ما سلف منهم ، وبذلك فتحت مكة سلما .
وإذا تأملت قول البارودي : (ولفهم بخميس ٠٠) وجدته يلح إلى ما قام
به الرسول (صلى الله عليه وسلم) من تقسيم الجيش إلى عدة فرق وكل فرقة تدخل مكة من
طرف (٥) .

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمتين ٤٠ (٧) أرياض مكة : الفضاء الذي حولها .

(٢) رضوى : - بفتح فسكون مع القصر - اسم جبل بالمدينة .

(٣) ريموا : فزغوا - وقرشم : سقمهم . (٤) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢ وما بعدها .

كما أن حديثه عن جيش المسلمين : (.. لو يشد على أركان رضوى ..)
يشير إلى كثرة ذلك الجيش إذ بلغ عدده عشرة آلاف تقريباً (١) ، فكسبان
من الطبيعي أن يفزع أهل مكة من هذا العدد الكبير ، ولذلك (أقبلوا
بمسألون الصبح ..) ، لأنهم رأوا أنه لا قبل لهم بهؤلاء الفرسان (فاستملوا
جوزاً للصلح ..) .

ثم أشار الهارودي إلى حكمة صادقة وهي : (الحرب مرقاة للمسي
المسلم) وليس المقصود الحرب لذاتها ، وإنما المقصود الإشارة إلى أن القوة
- غالباً - تجلب الهيبة ، فالرسول (صلى الله عليه وسلم) خرج من مكسة
مهاجراً إلى المدينة عندما كان المسلمون قلبي المدد ، واشهد شهيد أذى
المشركين بهم ، بل تأمروا عليهم ، واليوم - يوم فتح مكة - عاد الرسول
إلى مكة ، ولكنها عودة قوة بجيش : (لو يشد على أركان رضوى لأضحى
بمثل الدم) ، فإذا بفعل أهل مكة أمام ذلك الجيش ، إنهم لم يفعلوا
شيئاً ، لأن قائد الجيش وهو - الرسول - (صلى الله عليه وسلم) قد حالهم
: ما ترون أنى فاعل بكم .. قالوا : خيراً ، أخ كريم .. قال : أذهبوا
فأنتم الطلقاء (٢) ، فأعلن عنوة صراحة بعد أن دخل مكة : (وأقبل النصر
يتلو وهو يتشم) (٣) ، إنها عبارة لطيفة فيها تشخيص وإيجاز ، يعظم
ذلك النصر الذي كان يبتسم عندما كان يقرأ : (المجد للميف ليس المجد
للقلم) ، إن هذه العبارة توحي القول السابق : (الحرب مرقاة إلى المسلم)
- من جهة ، ومن جهة ثانية تدل على أن الهارودي قد تأثر في شمسره
بالمضي ، إذ هي من قوله : (٤) :

حق رجعت وأقلص قوائل لس

(المجد للميف ليس المجد للقلم)

(١) المرجع السابق ج ٤ ص : ١٣ .

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص : ٢٦ .

(٣) ديوان المضي (بشرح المكبري) ج ٢ ص : ٤٢٣ .

وبها يكن من شيء ، فلقد كان فتح مكة أمرا عظيما ، جعل الشاعر يقول (١) :

يا حائر اللب عذا الحق فامض لسه
 تسلّم ، وهذا سهول الرشده فامضهم (٢)
 لا يهرضك وثمّ بهنّ فرقبهم
 إن التوهم حتف الماجز الوضيم (٣)
 عذا النبي وذاك الجيش فتفتهم
 ملّ القضا فاستهق للخير تفتهم
 فالعزم حواء نجد ما شئت من أرب
 وشم ندهاء إذا ما البرقلم يشمهم (٤)
 وأحل رحالك وانزل نحو مدنيهم
 فإنيها صفة من أعظم المصمهم (٥)
 أحيا به الله أنوات القلوب كسما
 أحيا النبات بفيض الوابل السرندم

ينجح الشاعر الحائر المتوهم بانهاج الدين الإسلامي ، لأنه هو الحقيق الذي في اتجاهه السلامة ، أما طمعه من الأفكار والمعتقدات ، بها عسى إلا وثمّ فاعده واعتقاد خاطيء ، والدليل على ذلك وجود الرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد آمن به ذلك الجيش المنتشر (ملّ القضا) ، بل كل يوم يؤمن به كثيرون (فاستهق للخير تفتهم) ، وأدخل في دين الله تسلّم ، وتحمك بمنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكُرم ، ومن الزلزل تَحَصَّم .

وإذا تأملت قول الشاعر : (لا يهرضك وثمّ بهنّ) وجدته يشير إلى أن

- (١) كشف الفحة في مدح سيد الأمة ص ٤٠ وما بعدها .
- (٢) اللب : - بضم اللام مشددة : المقل .
- (٣) الوهم : يفتح فسكون : الظن .
- (٤) أرب : يفتحون - حاجة . شم ندهاء : اطلب بصروته .
- (٥) سنده : البراد ما حته .

الدين الإسلامي هو الدين الحق ، أما ما عداه فهو وهم فاسد ، يدفع صاحبه إلى الاعتقاد عقيم ، وهذا ما أشار إليه بقوله : (إن التوهم حتف الماجز الوهم) وهو قول حكيم ، وحكمة صادقة تحذر من التوهم .

ولقد أشار الشاعر إلى منزلة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله :
(فالنم حماء نجد ما شئت من أرب) كما أشار إلى كرمه بقوله : (وششم نداه إذا ما البرق لم يشم) والمراد : اطلب مصروفه في وقت الشدة ، وفي وقت الجذب ، نجد جودا كبيرا وخيرا كثيرا ، ثم أكد ذلك بقوله : (واجلس رحالك وانزل نحو سدرته) .

ولا يخفى ما في قوله : (أحبابه الله أموات القلوب . .) من بيان أثر بحثة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الناس ، كما أن في قوله : (كما أحيا النبات بفيض الوابل الرزم) تشبيها لطيفا ونح الممنوى وبين أثره .

ولقد كان فضل الله على رسوله عظيما - عندما فتح مكة سلطا - ولذلك أشار البارودي إلى ما قام به الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما تمت هذه النعمة بقوله : (١)

حتى إذا تم أمر الصلح وانتظمت
به عقود الأمانى أي منتظمت
قام النبي بشكر الله منتصبيا
والشكر في كل حال كاتل النعم
وطاف بالبيت سحما فوق راحلة
قوداء ناجية أمضى من النسم (٢)
فما أشار إلى بد بصحجنه
إلا شوى ليد مغلولة وفسم (٣)

(١) كشف الخمة في مدح سيد الأمة ص ٤١ .
(٢) قوداء : - بفتح فسكون - ظهولة الظهر والمنق . ناجية : سريعة - النسم : بفتحين - الريح .
(٣) بد : - بضم الباء - الضم . المحجن : يكسر الميم وسكون الحاء وفتح الجيم - المضا الموجبة الرأس .

نعم تم الصلح ، وانتشر السلم ، وشكر الرسول به ، وطاق بالبيت
سبحا ، كما قضى على الأصنام التي كانت حول الكعبة .

ولا يخفى ما في قول البارودي : (حتى إذا تم أمر الصلح) . من
إشارة لطيفة إلى أن السلام قد انتشر ، وأن الأمن قد عم ، ولذلك كان
شبان ذلك الصلح عظيميا ، إذ (انتظمت به عقود الأمانى أى منتظما) .

ولعل الشاعر أراد بقوله : (والشكر في كل حال كافل النعم) بيان
أثر الشكر ، ولعله يلح بذلك إلى قوله تعالى : * لئن شكرتم لأزيدنكم
.. الآية (١) .

والشاعر يلح بقوله : (فما أثار إلى به) إلى ما روى أن الرسول
(صلى الله عليه وسلم) عندما دخل مكة وطاق بالبيت ، وجد أصناما حرسوا
الكعبة ، فجعل يشير بخصبى يده إليها ويقول : * جَاءَ الْحَسْبُ
وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (١) . فما أثار إلى صنم منهن
إلا وقع .. (٢) .

ولا يخفى أن في قوله : (لهد مغلولة وهم) كتابة عن سكوت حسده
الأصنام وسكونها ، وهم استطاعتها الكلام ، أو الدفاع عن نفسها ، وفي هذا
تحقير لها ولعن يمهدها من دون الله .

غزوة حنين : (٤)

ثم انتقل البارودي إلى الحديث عن غزوة حنين بقوله (٥) :

وفي (حنين) إذ ارتدت (هوازن) عن

قصد الميبل ولم ترجع إلى الحكم (٦)

(١) إبراهيم / ٧٠ (٢) الإسراء / ٨١ (٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٠٠
(٤) سبق التعرف بها في هامش ص ١٤١ من هذه الرسالة .
(٥) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٤١ .
(٦) هوازن : - بفتح الهمزة والواو - إحدى قبائل العرب - الحكم : المراد به
دريسين الصفة ، وكان شيخا كبيرا اشترك مع هوازن برأيه ومعرفة بالحرب ، ولقد
أشار برجوع النساء والأولاد ، ولكن لم يؤخذ برأيه قتل سنة ٨ هـ .

- سرى إليها بهجر من ملطمة
طامسى السراة بوجع الهض ملطم (١)
حتى استذلت وادت بعد نخوتها
تلقى إلى كل من تلقاه بالمسلم (٢)
هم (الطائف) الفناء ثم حسى
عنها إلى أجل نوا لنهب مكسبهم (٣)

ويفتح مكة سقطت دولة الأصنام ، وهانت للإسلام جموع العرب ، إلا
قبيلة هوازن التي قال أشرافها : " قد فرغ سعد من قتال قومة فلننجزه
قبل أن يفتونا (٤) " ، ولما سمع الرسول ذلك جمع جيشا كبيرا وخسرج
إليهم ، وقاتلهم قتالا هروا حتى انتصر عليهم ، وأسر كثيرا منهم ، كما أسر
بعضهم إلى الطائف فتوجه إليها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحاصر
أهلها مدة ثم تركهم ووجه داعيا ربه قائلا : " اللهم اهد ثقيلينا ،
وانت بهم (٥) " .

وإذا تأملت قول الهارودي : (سرى إليها بهجر من ملطمة) وجدته
يشير إلى كوة جيش المسلمين ، كما أن قوله عن هوازن : (حتى استذلت
وادت بعد نخوتها) يشير إلى عدة عنضها .

غزوة تبوك : (٧)

ولقد أشار الهارودي إلى غزوة تبوك بقوله (٧) :

-
- (١) ملطمة : - بضم لفتح فسكون - الجماعة من الجيش كثيرة العدد . طامسى
السراة : المراد مرتفع .
(٢) نخوتها : عظمتها ، والمراد تعودها .
(٣) الطائف : بلدة قريبة من مكة ، الفناء : - بفتح الفين وشديد النون - المراد
كثرة الأهل والأغراب والفواكه وغيرها .
(٤) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ص ٢٢٩
(٥) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٠٢ و (ثقيف) إحدى قبائل العرب .
(٦) تبوك : - بفتح تميم - موضع في بادية الشام .
(٧) كشف الغمعة في مدح سيد الأمة ص ٤٢ .

وحيث أوفى على وادي تهوك مسمى
إليه ما كتبها طويها بلا رضم^١
فصالحوه وأدوا جزية ورضوا
بحكمه وتيسر الرشد لم يهيم
الفس بها عين ما لا تفر نصذ
دعا لها انفجرت عن سائح سنهم^(١)
ورود الفيت فانهلت بسوادرة
بعد الجمود بنهبل ونسجهم
وأم طيبة صرورا بمودتسه
يطرق المنازل بالوخادة الرسم

بلغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن الروم جمعت الجوع تريد
غزو بلاده ، فجهز جيشا كبيرا ، وخرج إليهم ، ولما وصل إلى تهوك
لم يجد جيشا كما سمع ، فأقام هناك أياما ففجأه صاحب (أيلة) وأهل
(جربا) وأهل (أذرج) ^(١) وظهرهم ، فصالحوا رسول الله (صلى الله
عليه وسلم) على إعطاء الجزية ^(٢) .

وإذا تأملت قول الشاعر : (وحيث أوفى على وادي تهوك) . وجدته
يشير إلى أن أهل هذه البلاد قد أتوا رسول الله (طويها بلا رضم)
ولم يردوا حربا ، بل : (أدوا الجزية ورضوا بحكمه) .

وأحسن الشاعر في قوله : (تيسر الرشد لم يهيم) لأنه حكيم
صادقة تحت على التفكير الشديد ، وتبين عاقبة العقل الرشيد .

ولقد أشار الهارودي إلى ما ذكرته بعض كتب السيرة ، من أن الناس
في تلك الفترة - قد أصبحوا ولما معهم ، فشكوا ذلك إلى رسول الله
(صلى الله عليه وسلم) فدعا الرسول ربه فأرسل الله (سبحانه وتعالى)
سحابة فأطربت حتى ارتوى الناس واحتلوا حاجتهم من الماء ^(٤) .

(١) لا تفر : لا تعيل . (٢) (أيلة وجربا وأذرج) أسماء قرى قريبة من تهوك .

(٣) نور العين في سيرة سيد المرسلين ص ٤٤٠ .

(٤) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٢٥ .

ولما عاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة ، لم يلبث
إلا قليلا حتى توالى الوفود عليه ، وهذا ما أشار إليه الشافعي في قوله (١) :

ثم استقبلت وفود الناس قاطبة
إلى حياه فلاقته وانرا الكسوم
فكان عام وفود كلما انصرفست
مصابة أتبلت أخرى على قسوم

توالى الوفود على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكان ممن
بينهم : وفد بني كلاب ووفد بني سعد بن بكر ، ووفد بني ثعلبة ووفد
بني نزار وغيرهم (٢) .

ثم أشار الهارودي إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أرسل
رسلا من قبله لبعض الملوك في قوله (٣) :

وأرسل الرسل تترى للملوك بما
فيه بلاغ لأهل الذكر والفهم

ولقد كان رد هؤلاء الملوك مختلفا ، فمنهم من رد ردا حمنا ، مثل : القوقس
ملك مصر ، والنجاشي ملك الحبشة ، ومنهم من رد ردا سيئا ، مثل : كسرى
ملك الفرس وغيره (٤) .

بقية الصرايب :

وأشار الهارودي إلى كثير من سرايا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
في قوله (٥) :

-
- (١) كشف الغمة في طبخ سيد الأمة ص ٤٢ .
(٢) انظر طبقات ابن سعد ج ١ ص ٢٤٠ و ٢٤١ و ٢٤٢ .
(٣) كشف الغمة في طبخ سيد الأمة ص ٤٢ .
(٤) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٢٤٠ و ٢٤١ و ٢٤٢ .
(٥) كشف الغمة في طبخ سيد الأمة ص ٤٢ .

- وأم (غالب) أكافد (الكديد) إلى
- (١) (بنى الطنج) فاستولى على النعم
- وحيث خانت (جذام) فل شوكتها
- (٢) (زيد) بجمع لرهط الشرك فتقسم
- وسار منتحيا (وادي القرى) فمحا
- (٣) (بنى فزارة) أصل اللوم ، والقسم
- وأم خير (عبد الله) في تفسر
- (٤) إلى (الميمر) فأرداه بلا أعسم
- بهم (ابن أنيس) عرض (نخلة) إذ
- (٥) طفق (ابن ثور) فأصاه ولم يخس

لقد اتجه غالب بن عبد الله إلى بنى الطنج بالكديد ، فاستولى على
بعض إبلهم ، كما اتجه زيد بن حارثة إلى جذام ، ثم إلى وادي القسري
حيث قاتل بنى فزارة ، وسار عبد الله بن رواحة إلى أمير بن رزام
اليهودي بخيبر فقتله ، ثم قصد عبد الله بن أنيس إلى نخلة حيث قتل
أبا سفيان بن خالد الهذلي لأنه كان يريد محاربة رسول الله .

ثم أشار البارودي إلى بعض الصرايا الأخرى بقوله (٦) :

ثم استقل (ابن حصن) فاحقوت يده

على (بنى المنبر) الطرار والشجيم (٧)

-
- (١) غالب : هو غالب بن عبد الله اللخمي صاحب جليل تولى سنة ٨ هـ قبيل غير ذلك
(أسد الغابة ج ٤ ص ٢٣٦) الكديد : بفتح الكاف وكسر الدال - أسم ماء
بالقريين عسفان .
 - (٢) جذام : قبيلة عربية كانت بالقرب من وادي القرى .
 - (٣) بنو فزارة : قبيلة عربية كانت بوادي القرى .
 - (٤) عبد الله : هو عبد الله بن رواحة - الميمر بن رزام اليهودي كان يجمع جيشا
لمحاربة الرسول (صلى الله عليه وسلم) قتل سنة ٦ هـ .
 - (٥) ابن أنيس هو : عبد الله بن أنيس صاحب جليل - مات سنة ٤ هـ (طبقات ابن
سنة ج ٢ ق ١ ص ١٠٣٦) وابن ثور : هو أبو سفيان بن خالد الهذلي قتل
سنة ٤ هـ .
 - (٦) كنف النخلة في مدح سيد الأمة ص ٤٣ .
 - (٧) ابن حصن ثور : عيينة بن حصن بن بدر ، أسلم بعد الفتح ، ولم تعرف سنة وفاته ،
(أسد الغابة ج ٤ ص ٢٣١) (بنى المنبر) : بطن من بنى تميم - إحدى

- وسار (عمر) إلى (ذات الملاسل) في
- جمع لهما لجيش الشرك مطلم (١)
- وفزتان لمهد الله • ولحسنة
- إلى (رفاعة) والأخرى إلى (إضم) (٢)
- وسار جمع (ابن عوف) نحو (دومة) كى
- يفعل صوة أهل الزهر والتبسم (٣)
- وأم بالخيل (سيف البحر) محقوسا
- (أبو عبيدة) في صياغة حشم (٤)
- وسار (عمر) إلى (أم القسري) لأبسى
- سفيان لكن عدته مهلة القسسم (٥)
- وأم (مدين) زيد فاصوت بسسنة
- على العدو وساق المني كالفنسم (٦)

اتجه عوف بن حصن إلى بني المنبر • كما سار عمرو بن الصمصاس إلى ذات الملاسل بجيش كبير • وقصد عهد الله بن عنيك خير لقتل رفاعة الجشعي لأنه أراد محاربة الرسول • كما قصد إضم في نفر من المسلمين • وسار عهد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل • واتجه أبو عبيدة إلى سيف البحر في جيش كبير • كما قصد عمرو بن أمية مكة لقتال أبي سفيان • ولكنهم نزلوه • واتجه زيد بن حارثة إلى مدین فقاتل الأعداء • وسعى كسيرا من نساءهم وأولادهم •

- = القبائل العربية - الطرار : المختلسون • الشجم : - بضمين - الخبتاء •
- (١) (عمر) : هو عمرو بن الماص صاحب جليل توفي سنة ٤٢ هـ وقيل غير ذلك (أسد الغابة ج ٤ ص ٢٤٥) ذات الملاسل : اسم موضع من أرض بني عذرة قرب المدينة •
- (٢) المراد بقوله : (فزتان) : سريتان • (عهد الله) هو : عبد اللهب بن أبي حدره الأملي صاحب جليل توفي سنة ١٢ هـ وقيل غير ذلك (أسد الغابة ج ٣ ص ٢٠٦) • رفاعة : هو رفاعة بن قيس الجشعي قتل سنة ٦ هـ •
- (٣) (ابن عوف) : هو عهد الرحمن بن عوف صاحب جليل • توفي سنة ٢١ هـ (أسد الغابة ج ٣ ص ٤٨٠) • (٤) أبو عبيدة : أبو عبيدة عامر بن الجراح صاحب جليل توفي سنة ١٨ هـ (أسد الغابة ج ٣ ص ١٢٨)
- (٥) عمرو : هو عمرو بن أمية الضمري صاحب جليل قتل آخر أيام معاوية سنة ٥٨ هـ وقيل غير ذلك (أسد الغابة ج ٤ ص ١٩٢) (٦) مدین : قرية بالشام •

ثم ذكر البارودي ما بقى من سرايا الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيسرى قوله (١) :

وقام (سالم) بالمضرب الجراز إلى
 (أبى غيبك) فأرداه ولم يجسم (٢)
 وانقصر ليلا (عير) بالحمام طسى
 (عصاة) حتى سقاها طقس المدم (٣)
 وسار بعت فلم يخطى (ثمامة) إذ
 رآه فاحتاره غما ولم يلمس (٤)
 ذاك الهمام الذى لى بكة إذ
 أنسى بها ملنا فى الأشهر الحرم
 ومث (طقة) استقرى المدوخى
 فلم يجد فى خلال الحى من أرم (٥)
 ورد كمز إلى الصدراء من غدروا
 (يسار) حتى لقوا برحا من الشجم (٦)
 وسار بعت ابن زهد للشام فلمس
 يلمس أن انقذ كالبازى على اليمس (٧)

-
- (١) كشف الغمة فى مدح سيد الأئمة ص ٤٢ .
 (٢) سالم هو سالم بن عمرو صحابى جليل ، توفى فى خلافة معاوية (أمد القافية ج ٤ ص ٢١١) . (أبو غيبك) هو أبو غيبك - ويقال أبو غيبك - أحد المناقبين .
 (٣) عير هو عير بن عدى الخطمى صحابى جليل (لم تعرف سنة وفاته) . (أمد القافية ج ٤ ص ٢٨٥) وصياها هى : عصاة بنت مروان كانت قد نالت قتل سنة ٢ هـ .
 (٤) ثمامة هو : ثمامة بن أثال الحنقى أسلم وحسن إسلامه ، توفى سنة ٢ هـ . (المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٥)
 (٥) طقة هو : طقة بن ججز ، صحابى جليل قتل فى عهد عمر بالحبشة (المرجع السابق ج ٤ ص ٨٢) .
 (٦) كوز هو كوز بن جابر صحابى جليل قتل سنة ٨ هـ ، وقيل غير ذلك (المرجع السابق ج ٤ ص ٤٦٨) الصدراء : المراد بها المدينة ، يسار : عهد كان يرمى للقاح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقتله بعض البجليين وأخذوا اللقاح وعربوا (سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٩١) .
 (٧) ابن زهد هو : أسامة بن زهد بن حارثة صحابى جليل توفى فى آخر أيام معاوية سنة ٥٨ هـ وقيل : غير ذلك (أمد القافية ج ١ ص ٢٩ وما بعدها) .

لقد خرج سالم بن عمرو على رأس سرية لقتل أبي غنيم عندما ظهر
نفاذه (١) كما انقض عمر بن عبد الله على صماء بنت مروان فقتلها لأنها نافقت
أيضا (٢) وأسر ثمانية الحنفي، ولكنه أسلمه وذهب إلى مكة مستورا
- بعد إسلامه - وكان يلبي قبل دخوله مكة وأخذ يلبي بعد دخولها أيضا
حتى أخذته فومض لتضرب عنقه ولكن قائلا ضيم قال : دعوه لأنكم تحتاجون
إلى اليمامة في طماكم فخلوه فقال الحنفي بعد ذلك :

وما الذي لبي بكه معلننا

برقم أبي سفيان في الأشهر الحرم (٣)

ولعل البارودي تأثر في قوله هذا :

ذاك اليمام الذي بمكة إذ أتى بيها معلننا في الأشهر الحرم

بما قاله هو عن نفسه، في البيت السابق .

كما أرسل الرسول علقمة بن مجز في سرية إلى الحبشة ولكنه لم يلق كعبدا
فرجع (٤) وخرج كعب بن جابر على رأس سرية استطاعت أن تود هولاة الذي سن
قتلوا (يسارا) إلى المدينة، حيث قتلوا جميعا (٥) وأرسل الرسول أسامة بن زيد
على رأس سرية إلى الشام (٦) .

ثم أشار البارودي إلى سبب نظمه تلك الفزوات والمرايا بقوله (٧) :

فهذه الفزوات الفرس شاملة

جمع الهموث كدر لاج نفسي نظم

نظمتها راجيا نيل الشفاعة من

خير البرايا وولي العرب والمجسم

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٨٢ .

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٨٩ .

(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٩١ .

(٤) سورة ابن هشام ج ٤ ص ٢٨٤ .

(٥) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٨٨ .

(٦) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٩٠ .

(٧) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٤٣ وما بعدها .

هو النبي الذي لولاه ما قبلت
رجاة آدم لما نزل نسي القدم

إن الشاعر قد نظم غزوات الرسول وسراياه ورجيا نيل شفاعته التي لرسوله
مقام صاحبها عند الله ما قبل توبة آدم عليه السلام ، ولعل الشاعر يلمح بذلك
إلى ما ورد في بعض كتب السيرة من أن الله قد غفر لآدم عندما توجه
إليه بالرسول (صلى الله عليه وسلم) . (١)

البيروذي ورواياه رسول الله : (٢)

حسبي بظلمته الفراء فخره
لما التقيت به في عالم الحطيم
وقد حيانس عاه فاحضت بيها
في كل حول فلم أنزع ولم أهدم
فهى التي كان يحبو ثلها كرمها
لصن يود وحسبي نجمة بهيم
لم أخش من بعدها . اكنت أجزره
وكيف وهى التي تتجسى من الضم
كفى بها نعمة تملو يقضيهما
نفسى وإن كنت سلوا من القيسم

يشير الشاعر - فخرنا - إلى أنه رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) في
النمام ، وقد أهدى إليه عاه التي كان يهدى ثلها إلى من يحبه ، ولقد
أدخلت تلك الروايا السرور على قلب الشاعر ، وجملة يتسك بالصا الكريمة -
تسكا معنا - ، التي جملة يثبت أمام الشدائد ، غير خائف منها .

ولعل في قول الشاعر : (حسبي بظلمته الفراء فخره) ما يشير إلى
مقدار ما أدخلته هذه الروايا من سرور على نفس الشاعر ، وحتى له ذلك ، إذ رها

(١) شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٤٣ وابعدها .

(٢) كشف الغمة في مدح سيد الامة ص ٤٤ .

الرسول شرف كبير ولا تتأتى إلا لمن هام قلبه بحب الرسول (صلى الله عليه وسلم) حبا صادقا ، ولعل ما زاد فرح الشاعر تلك العصا التي أهداهما الرسول إليه ، وتمسك بها الشاعر فأصبح (لا يفزع ولا يهيم) وهو كمن قيسه تلك العصا هذا الجواز العفلى في قول الشاعر : (وهي التي تتجى من القوم) ، بل إن الشاعر ليعدها نعمة عظيمة : (كفى بها نعمة تعلق بها يقويتها نفس) .

والشاعر يلح بقوله : (فهي التي كان يحبو ظلها كوما) إلى بعض الصحابة الذين أعطاهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) عصاه مثل : عبد الله ابن أنس ، الذي ذكرت بعض كتب السيرة أن الرسول أعطاه عصاه ، وقال له : تخمسر بهذه في الجنة . . . (١) وفي رواية " أنه سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلا : إِمَّ أعطيتني هذه العصا ؟ فقال له : آية بيئتي ووثقك يوم القيامة ، إن أقل الناس المتخضرون - الذين يتكثرون على العيص - يوشد ، . . . فقرنها عبد الله بسيفه فلم تنزل معه حتى طأت ، ثم أمر بها فتمت في كفه ثم دفنا جميعا (٢) .

ويبدو أن الهايودي أشار بقوله : (. . . وإن كنت سلوطة من القويم) إلى أنه في ذلك الوقت - وقت الرويما - كان سلوطة الحرية بنفسه من بلده حميدا عن أهله وأحبابه ، ومع ذلك فقد فرح برويما الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأنها أصبحت خير سلوى لنفسه التي تحدث عنها بقوله (٣) :

وما أبرئ نفسي وهي أمسوة
بالمسوة ما لم تمقها خيفة الندم
فياندامة تنسى في العباد إذا
تمود المرء خوف النطق بالكم

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ في ١ ص ٢٦ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٦٨ .

(٣) كشف الخمة في مدح سيد الأمة ص ٤٤ .

يوضح الشاعر أنه لا يهوى نفسه ما اقترفته ، لأنها يطعمها آسرة بالسوء ، ما لم ينصها من خوف الندم يوم القيامة ، ثم تعجب الشاعر من هول الندم في ذلك اليوم ، وخاصة عندما يوتر الإنسان عدم الاعتراف بالذنوب ، خشية إعلان فضائحه وأثامه التي اكتسبها .

ولا يخفى أن الشاعر مقتبس من القرآن الكريم قوله : (وما أبرئ نفسي) كما أنه متأثر في حديثه عن النفس بالهوسبوى - كما سبق - ولكنه تصرف في هذا الحديث تصرفاً حسناً - كما سيأتى -

ولعل قول البارودي : (فيانداة نفس في العماة ٠٠) يسمو بمحظوم خوفاً من ذنوبه ، إلا أنه ذكر أن أمه في غزو الله كبيره ، وذلك في قوله (١)

لكننى واثق بالمغو من ملوك
يصفو برحمته عن كل مجرم
سوف أبلغ آمالي وإن عظمت
جرائسي يوم ألقى صاحب الملام
هو الذى ينصش الكروب إذا طقت
به الرزايا وشفى كل ذى هدم
هومات يخذل عولاه وشامسره
في الحشو ، وهو كريم النفر والشوم
فمدحه رأس مالى يوم شفتسورى
وجه قر نفس عد مهتشمسى
وهبت نفس له حيا وكورسنة
للجل تواني بلنفت العول من طلس

إذا كان من شأن الإنسان الخطأ ، فإن من واجبه أن يتوب إلى الله وأن لا ييأس من رحمة الله ، ولذلك نجد البارودي قد اتهم نفسه بمسوء الفعل ، وهظيم الجرم ، ولكنه هنا قد ندم على تفرطه ، ثم أكد ثقته في غزو الله ،

(١) كشف الخمة في مدح سيد الأمة ص ٤٤٠

وفي رحمة الواسعة ، بل زاد تأكده بأنه سوف يبلغ كل آماله - سيما عظمت
جرائمه - يوم يلقي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذ به تفك الكرب ، وحل
المشاكل ، ويأتي النفي - في الدنيا - وهيئات أن يخذل شاعره في الآخرة
بعدها كان سببا في نصره في الدنيا .

إن أمل الشاعر في حق الله كبير ، وشبهه إلى ذلك أنه : (عثر من تلك بعفو
برحمته) ، فما دام صاحب المفروطا ، وصاحب الذنب عدا ، وقد أقسر
المهد بذنوبه لولاه ، وتوسل إليه بحبيبه وصطفاه - صاحب العلم - فهيئات
أن يخذل الرب عده ، وهيئات أن ينسى الحبيب شاعره .

ولعل آمال الشاعر التي يتطلع إليها هي التي وضحها في قوله : (هو
الذي ينقض الكرب) ، وتتخلص في فك الكرب وهزل المشاكل ، ولا شك
في أنها آمال نوية ، وقع الشاعر إليها : غوته في سفاه ، إذ كان هذا
النفي شديدا على نفسه ، ولذلك كان كثير الإشارة إليه ، دائم الشكوى منه .

وما يلهي ذلك أنه أتى بقوله : (هيئات يخذل مولاه وشاعره في الحشر) .
وعذا في الآخرة ، ثم عاد فيبين أن مدحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو
رأس ماله يوم صفوه ، كما أن حبه عز نفسه حد ظلمه وذلته ، والنظم لا يكون
إلا في الدنيا ، ولعل هذا يرجح أن اليوم الذي تم في لقاء (صاحب سب
الملم) هو اليوم الذي يستطيع فيه زياوة الرسول (عليه الصلاة والسلام) ، بحمد
حج بيت الله الحرام ، ويؤكد ذلك أنه كان شديد الاشتياق إلى حج بيت الله ،
كما سيأتي الحديث عن قوله : (فهل إلى نورة يحيا القواد بها) .

ويبلغ حب الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مبلغا كبيرا ، فيحب نفسه
له ، ثم يتساءل بعد ذلك : (هل تواني بلغت الرسول من ملين) ، ويبدو
أنه لم يعلم من الأذى ، ولم يبلغ سوطه من السلم ، لأنه قال (١) :

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٤٤ وما بعدها

إني وإن مال بي دهري وروح نفسي
 ضم أشاط على جور النوى أدمسي
 لثابت الجهد لم يحلل قوى أطمسي
 يأسه ولم تخط بي في سلوة ندمسي
 لم يترك الدهر لي ما أستعين به
 على التجمل إلا ساعدي ومُسَمِّي
 هذا يحسب مدحى في الرسول وذا
 يتلو على الناس ما أوحيه من كلسي

يبين البارودي - في هذه الأبيات - مدى ما ألمت به الخطوب ووقع عليه الظلم إذ جرد من رتيبه وأخذ ماله ونفى من وطنه وأصبح غريباً عن أهله وأصحابه ووجع كل هذا لم تخط قدمه نحو اليأس خطوة ولم يمتدح بالموهن إلى نفسه لحظة على الرغم من أن الدهر ما زال يلاحقه بالصائب ولم يترك له ما يساعده على الصبر إلا يده وضمه فأما بسده: فيحير بها مدحه في الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأما ضمه: فهو الذي يسع الناس هذا المديح.

ولصل الشاعر يشير بقوله: (لم يترك الدهر ما أستعين به...) إلى ما أصابه في النفس من مرض نحل جسمه وأضعف بصره بالإضافة إلى وفاة زوجته ومرض أولاده ولقيت من أصحابه إذ كانت تلهه أبنائها وفاتهم - وهو بصيد عقيم - فلم يملك إلا أن يكومهم في قصائده بكاء حاراً.

ويلاحظ أن الشاعر كثيراً ما ينسب وقوع ما ألم به إلى الدهر مثل: (مال بي دهري - لم يترك الدهر...) مما يوهم بسخطه إلا أنه في مقدمة ديوانه قال: "وقد يقف الناظر في ديواني هذا على أبيات قلتها نفسي شكوى الزمان فيظن بي سوء من غير روية بجيلها ولا عذرة يستبينها" فيأني إن ذكرت الدهر فإنما أقصد به العالم الأرض لكونه فيه من قبل ذكر الشيء باسم غيره لمجاورته إياه وكقوله تعالى: "وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ..." (١) أي - أهل القرية) فهو كما ترى يمبر بطريق المجاز.

ولما ذكر الشاعر أن يده تحجب مدائح في الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصفه بنشر ذلك المديح ، خاطب الرسول بقوله (١) :

يا سيد الكونين غوا إن أفتت فلي
بحبكم صلة تخنى عن الرحم
كفى بسلطان لي فخرا إذا انتسبت
نفسى لكم مثله في زورة الحشم (٢)
وحسن ظني بكم إن مت يكلسى
من هول ما أتقى في ظلمة الرحم
تالله ما عاقني عن حيكم شجــــن
لكننى موثق في ريفنة السلم
فهبل إلى زورة يحيا القواد بهــــا
ذريعة أبتئيبها قبل مختومسى

يتمنى الشاعر أن يكون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سببا في عفو الله عنه إذا أتم ، لأنه يحبه حبا قويا ، تفوق قوته صلة الرحم ، مثلما انتسب سلمان إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبيته وهو لا يست لآل البيت بصلته النسب ، ثم يتمنى الشاعر أن يكون في زورة خدم الرسول ، وبين أنه لم ينعمه من نهارته حزن ، ولكنه مقيد الحرية ، سلوب الإيالة ، ويتشوق إلى زيارة المصطفى (عليه الصلاة والسلام) وحج بيت الله الحرام ، لعل ثواب ذلك ينفعه في الآخرة .

ولا يخفى أن الشاعر قد تأثر بمن سبقه في وصفه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنه (سيد الكونين (٣) ، كما أنه يلجح بقوله : (كفى بسلطان لى فخرا (٠٠) إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " سلمان منا أهل البيت (٤) وسلمون أن سلمان (رضى الله عنه) كان يخدم الرسول ، وكان الرسول يحبه

(١) كشف الغطة في مدح سيد الأمة ص ٤٥٠ .

(٢) سلمان : هو سلمان الفارسي أبو عبد الله أسلم وحسن إسلامه ، واشترك فسى بعض الغزوات مع الرسول ، توفي سنة ٣٥ هـ وقيل : غير ذلك (أسد الغابة ج ٢ ص ٤١٧) .

(٣) انظر ص ١٢ من هذه الرسالة . (٤) أسد الغابة ج ٢ ص ٤١٧ .

على الرغم من أنه كان فارسى الأصل ، ولما كان لبارودى فارسى الأصل
أيضاً ، انتخر بخدمة سلمان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتنفى أن يكون
خادماً للرسول مثله ، لعله يحظى بحب رسول الله ، ويثاب شفاعته .

ولقد عانى الشاعر عدة نفيه ، فظل يشكو غريمه ، ولذلك يقول (١) :

شكوت بنى إلى ربي لينصفنى

من كل يساغ عهد الجور أو حكم (٢)

وكيف أرهب حيفاً وهو منتقم

ببهايه كل جبار منتقم

لا غرو إن نلت ما أملت منه ففسد

أنزلت معظم آمالى بذى كسرم

يخبر البارودى أنه شكوا حزنه إلى ربه لينصفه من كل ظالم ، أو مرسر
ثم يتساءل متعجباً ، كيف يرهب ظلم الناس مع أن الله منتقم ، يخساف
منه كل جبار مهما كان شأنه ، فلا عجب إن نلت ما أملت منه جل جلاله ،
إذ وكلت كل أمورى إلى عظيم كرم .

ولا يخفى أن الشاعر نظر في قوله : (شكوت بنى إلى ربي) إلى قوله
تعالى : (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ . (٣)) ، وألفاظه مناسبة
للفكرة غير أن لفظ (لا غرو) غير شمرى وإن كان عربياً ، ولا أدرى لماذا
أنزل (معظم آماله) ولم ينزلها كلها ، وخاصة أنه أنزلها (بذى كسرم)
ولعله أراد آماله المظلمة فقدم الصفة على الموصوف بمبالغة .

ولا يفتأ الشاعر يرجو مشفقة ذنبه ، ويهمل توبته ، ولذلك يقول (٤) :

يا مالك الملك هب لى منك مفسرة

تبحر ذنوبى غداة الخوف والندم

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٥ .

(٢) نكح : شبر ، (٣) يوسف ٨٦ . (٤) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٥ .

واضن ظنّ يَلطّفك منك بمصصني
زيغ النسي يوم أخذ الموت بالكظم (١)
لم أدع فبرك فيما نابني نفسي
شر المواقب واحفظني من التهم
حاشا لراجيك أن يخشى المناروما
بحد الرجاء سوى التوفيق للسلم
وكيف أخشى ضلالا بعدما سلكت
نفسى - بنور الهدى - فى سلك قيم

يقضع الشاعر إلى الله - سبحانه وتعالى - طالها مغفرته الواسعة
يوم القيامة ، كما يرجونه - جل ولا - أن يمن عليه فى الدنيا بلطف
منه يحصمه من زيغ القلب عند خروج الروح . ثم يوفد أنه لم يلجأ لأحد
غير الله فيما نابه من بلاء ، لأنه هو الذى بيده الضروالنفخ ، ثم ينزه الله
تعالى عن أن يخيب رجاء من رجاء ، ثم يتساءل متعجبا كيف يخشى الضلال
بعدما سلكت نفسه ، واطمأن إلى الدين الإسلامى - وصار فى طريق الاستقامة
ببركة نور الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهدايتة التى حمل مشعلها .

والأبيات - فى ههنا - تؤفد خشوع الشاعر وخضوعه لله سبحانه وتعالى ،
لأنه مالك الملك ، بيده مقاليد الأمور ، وهو الذى يحفو ويخفر ، ولذلك
فهو أحق بالدعاء ، وجدير بالرجاء - ولا شك فى أن هذا يلقى ضوفا طمس
مدى فهم الشاعر لأمر دينه ، ومغرفته صفات الله .

ثم اتجه البارودى إلى بيان حبه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله (٢) :
ولى بحب رسول الله منزلة . . أرجو بها الصفح يوم الدين عن جوى
لا أدعى عصمة لكن يدى طقت . . بسيد من يرد مواعته بيـــــــــــــــــم
خدهته بمديحى فاعتلوت على . . هام السكك ، وصار السمدمن خدى

(١) مصصنى : المواد يقينى ولعل الشاعر ضمن الفعل (مصصم) معنى (يقى) فلم
يذكر حرف الجوى - الكظم : مخرج النفس والمواد خروج الروح .

(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٦ .

وكيف أُرهبَ فيما بعد خدمته
وخادم السادة الأجواد لم يضم
أم كيف يخذلني من بعد تسميتي
باسم له في سماء العرش محترم

يبين الشاعر أنه نال منزلة عالية بحبه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويرجو - بسبب هذه المنزلة - أن يعفو الله عن ذنوبه ؛ لأنه ليس محصوراً من الخطأ ؛ ولا يحق له أن يدعى المصمة ؛ وأمله كبير في عفو الله ، ونفى شفاعته رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

ولقد ادعى الشاعر أنه خدم رسول الله عندما مدحه ؛ وهو في هذا قد وقع فيما وقع فيه البوصيري عندما قال : (خدمته بجديج أستقيسل به... (١)) ، والواقع أن من يمدح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لخدمته وإنما خدم نفسه بما يناله من الثواب في الآخرة ؛ وهو المكانة نفس الدنيا ، ولعل البارودي أشار إلى بعض ذلك بقوله : (... فاعتلوت على هام السماك ، وصار السعد من خدعي) فهو لم يرتفع ارتفاع السماك بل ارتفع على هامه ؛ وفي هذا التعمير تشخيص يوحى بسلو المنزلة ؛ ورفعة المكانة .

وإذا كان هذا شأن البارودي عندما مدح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فحق له أن يتساءل متعجباً : كيف يرهب الظلم بعد خدمة نبي الله ثم يشير إلى حكمة صادقة ؛ ويأتي بقول حكيم : (وخادم السادة الأجواد لم يضم) - فهو بذلك يدل على أمله الكبير في شفاعته الرسول وكيف أود أن يقبول (لا يضم) حتى تشمل المستقبل أيضاً (لم) تشير إلى الماضي فقط .

ولقد أشار الشاعر إلى نقطة أخرى لملمها تقره من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهي تسميته باسم للرسول (في سماء العرش محترم) وهو (محمود) ، ولعله يلمح بذلك إلى ما ذكرته بعض كتب السيرة من أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذكر نعم الله عليه ثم قال : ((وشق لي اسمي أسماء فذو العرش محمود وأنا محمد وأحمد... (٧))) .

(١) انظر ص ٢٠٠ من هذه الرسالة . (٢) ابن كثير السيرة النبوية ج ١ ص ١٩٦ بتحقيق مصطفى عبد الواحد ، مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٩٦٤ .

والجدير بالذكر أن حسان بن ثابت أشار إلى ذلك بقوله (١) :

وشق له من لحمه لهجلا

فدو للعرش محمود وهذا مصدر

وهما يكن من شيء فإن البارودي يستبعد أن لا يشفع له الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الآخرة بعدما تسمى باسمه ، ولا يخفى أن التوسل إلى الرسول بالتسمية باسمه قد سبق إليه البوصيري في قوله : (فإن لي تسكنة بتسميتي .. (٢)) .

ثم أشار البارودي إلى نغمة من نغمات الرسول قد شعلت في الدنيا فقال (٣) :

أبكاني الدهر حتى إذا لجئت به

حنا على وأبدي ثغر مبتسم

فهو الذي يمنح العاقين ما سألوا

فضلا ويشفع يوم الدين في الأمم

نور لمقتبس ، ذخر لماتمس

حرز لمبتس ، كهفا لمتمسم

بث الردي والندي شطرين فانبمشا

فيمن فوى وهدى بالهوى والنمسم

فالكفر من يأسه المشهور في حرب

والدين من عدله المأثور في حسرم

لقد توالت المحن على الشاعر ، ولما توسل إلى الله برسوله ، عطف عليه الرسول مبتسما إشارة إلى قرب اليسر ، وهذا يدل على كرمه (صلى الله عليه وسلم) وما يوعدده أنه (يمنح العاقين ما سألوا فضلا ..) في الدنيا ، ويشفع يوم القيامة في الأمر ، فضله كبير ، ومنزلته عظيمة ، ونوره يهدي من اقتبس منه ، وعطاؤه واسع لمن التمس ، وقلبه كبير يحنو على البائسين ، كما أنه صلاب

(١) انظر ص ١٣ من هذه الرسالة .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٤ .

(٣) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٤٦ .

لمن لجأ إليه ثم أشعر البارودي عد الرمد أن الرسول كرهه ويخفق للقلب بمسح
ذلك كان شجاعاً .

ويوجد ذلك أنه أعل سيفه في رقاب الكفار ، ولا يخفى ما في قوله
(نور لمقتبس ، ذخير لملتصم ٠٠ البيت) من موسيقى رائعة ، وتقسيم جميل ،
كما لا يخفى أثر اللف والنشر المرتب في قوله : (بث الردى والندى ٠٠ فيمن
غوى وهدى ٠٠ بالبوعم والنعم) أضف إلى ذلك ما بين هذه الألفاظ حسن
طباق دل على الصميم والشمول .

ولعل قول الشاعر :- (فالكفر من بأسه ٠٠ البيت) يوجد ما سبق من
شجاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعدله ، وما يزهو الفكرة وضوحاً وقوة
أن الشاعر جما (الكفر - نفسه - من بأسه ٠٠ في حرب) كما جممل
(الدين - نفسه - من عدله ٠٠ في حرم) ففي التعبير مجاز لا يخفى أثره ،
كما بين الألفاظ طباق أكد الفكرة ، وبين شطري البيت تقسيم جميل ، نشأت
هه موسيقى رائعة .

تفسير الشاعر في مديحه :

أشار البارودي إلى تقصيره في مديح الرسول (صلى الله عليه وسلم)
بقوله (١) :

هذا ثنائي وإن قصرت فيه قلبي
عذره ، وأين السها من كف مستلم
عيهات أبلغ بالأشعار مدحتيه
وإن سلكت سبيل القالسة القسدم
ماذا عسى أن يقول المادحون وقد
أثنى عليه بفضل منزل الكلم

وهنا يعترف الشاعر بتقصيره في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم)
وهذا أمر طبيعي ، لأن الشعراء جميعاً - ومن بينهم البارودي - لا قبيل
لهم بالإحاطة بشمائل الرسول (عليه الصلاة والسلام) العظيمة ، وصفاته

(١) المرجع السابق ص ٤٦٠

الحيدة ، وكل شئائه وصفاته عظيمة محمودة .

ولقد برر الشاعر تفسيره بحلو قدر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقسمه شأنه ، وأكد ذلك بهذا الاستفهام : (وأين السها من كف مستلم) وفيه - أيضا - تشبيه للتقريب فقط ، ثم يوعد تفسيره بقوله : (هيهات أبلغ ٠٠) وذكر أنه سلك طريق من تقدموا في هذا الضمار - فقط - ولعل في هذا اعترافا ضمنا بتأثر الشاعر في نظمه تلك القصيدة بالبحر الجوى وغيره ممن نظموا هجسي مدائح الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ولا يخفى أن في قوله : (ماذا عسى أن يقول المادحون) تظليلا لكسل ما يقوله الشعراء من ثناء على الرسول (صلى الله عليه وسلم) لوقوعه بثناء الله على نبيه (صلى الله عليه وسلم) وهذا ما يوعدده قوله : (٠٠) وقد أشغى عليه بفضل منزل الكلم) ولعله يلمح إلى قوله تعالى : (وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خُلِقْتَ عَظِيمٌ ^(١)) وغير ذلك من الآيات التي تدل على فضله الكبير ، ومنزلته العالمة .

إهداء القصيدة إلى الرسول :

أهدى البارودي قصيدته إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله ^(٢) :

فهاكها يارسول الله زاهرة

تهدى إلى النفس ربا الآسى والسجيم ^(٣)

وسمتها باسمك العالى فألبسها

ثوبيا من الفخر لا يبلى على القدم

غريبة في إसार البين لو أنسنت

بنظرة منك لا استغنت عن النسم

لم التزم نظم حبات البديع بهسا

إذ كان صوغ المعانى الضرملة ترمى

وإنما هي أبيات رجوت بهسا

نيل المعنى يوم تحيا بذة الوم ^(٤)

(١) القلم : ٠٤ (٢) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٤٦ وما بعدها .

(٣) الآسى : شجر ذو رائحة طيبة . البرم - بفتحين - ثم ركي الرائحة أيضا .

(٤) بذة الوم : المراد الوم المتفرقة .

كشعرت فيها عهد للممدوح فانتظمت
أحسن ينتشر ضيفا وينظم

يقدم البارودي قصيدته إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو في صلاة
مشرفة ، تهدي إلى النفس رائحة طيبة ، ومنظرا جميلا ، وخاصة أهد
تحمل اسم الرسول (عليه الصلاة والسلام) وكان ذلك سببا في تبهدها
ورفعة شأنها ، كما كان سببا في خلودها ، ومع أنها نزلت والشاعر في
المنفى إلا أنها لوحظت بنظرة من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لاستغنت
عن كل أنيس وجليس .

ولعل الشاعر يلح بقوله : (وسعتها باسمك العالي) إلى رسول
الرسول (صلى الله عليه وسلم) : * أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر (١) *
إذ سماها : كشف الغمة في مدح (سيد الأمة) كما سبق .

ويبدو أنه أراد بقوله : (لم ألتزم نظم حبات البديع بها) أنه لم
يجعلها بديعية من قصائد البديعيات التي ضمنت مدح الرسول (صلى الله
عليه وسلم) مع الإشارة إلى أنواع البديع (٢) ، لأن الشاعر لم يكن هدفه ذلك ،
بل كان صوغ المعاني الطيبة كل ما يرنو إليه ، راجيا نول شفاعة الرسول
(صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة .

ثم انتقل الشاعر إلى الحديث عن تسميه في أول القصيدة بقوله (٣) :

صدرتها بنسب عرف باطنه

عن غفة لم يشتها قول متهم

لم أتخذة جزافا بل سلكت به

في القول سلك أقوام ذوى قدم

تابعت كمبا وحسانا ولي بهما

في القول أسوة بر غير متهم

(١) انظر ص ١٢٠ من هذه الرسالة .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٣ وابيدها .

(٣) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٤٧ .

والشعر معروض ألباب عروج بسـ

ما تمقتسه بسد للآدب والحكم

نعم صدر الشاعر قصيدته بالنسيب ، ولكنه نسيب عف ، بعيد عن كل ما يشين ، كما أنه لم يكن بدعا في ذلك إذ سلك سلك السابقين ممن مدحوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومدلوا قصائدهم بالنسيب ، وخاصة كعب بن زهير وجمان بن ثابت ، ولا شك في أن الشعر معروض كبير ، يضم ما تخطه يد الآداب ، وما تنظمه عقول الشعراء .

ولا يخفى أن فكرة الشاعر واضحة ، وهو يعترف صراحة بمتابعة السابقين وإن كان لم يشعر إلى البصيرى صراحة فقد أشار إليه ضمنا في قوله (... أقوام نوى قدم) ، إلا أن الشاعر استخدم ألفاظا ليست شاعرية مثل (جزافا) و (سلك) .

ومع ما بين الشاعر علة الإتيان بالنسيب في أول القصيدة قال (١) :

فلا يلمنى على التشبيب ذو همت
فلبيل الروض مطبوع على التضم
وليس لى روضة الهوى بزهرتها
فى معروض القول إلا روضة الحرم
فهى التى تيمت قلبى وهمت بها
وجدنا وإن كنت عف النفس لم أهم
معاهد نقشت فى وجنى لها
أهدى الهوى أسطرا من عبرتى بدم (٢)

يطلب الشاعر أن لا يلومه أحد على بدء قصيدته بالنسيب ، فقد وضح علة ذلك ، كما يذكر أنه لا حيلة له في ذلك الأمر ، إذ الشاعر كلبيل السعوى لا بد أن يقف على كل شجرة ، ويتخفى على كل زهرة ، ثم يون أنه لم تكن له روضة إلا روضة الحرم ، تلك الروضة الشريفة التى تيمت قلبه ، فهام بها ، وأحبها

(١) المرجع السابق ص ٤٧ .

(٢) معاهد: جمع مهاد وهو المنزل الذى لا يزال القوم إذا بمدوا عنه رجموا إليه ، والمواد به هنا الأماكن المقدسة عند المسلمين .

حبا خفيها ، لأنها مغزول عظيمة ، وكم يكن شوقا إليها .

ويبدو أن الشاعر كان لديه إحساس بأن نسيبه سيكون موضع مناقشة
- كما سيأتي - ولذلك عمد إلى بيان دوافع الإتيان به ، ولا يخفى أن قوله :
(بلبل الروع مطبوع على النغم) يشير إلى شاعريته وتشبيه نفسه بالبلبل
الصداح ، ولكن لا أوافق على قوله : (ليس لي روضة ألهو بزهرتها) إذ أن
روضة الحرم تنزه عن اللهو وبخاصة من المسلمين - ولو قال الشاعر : (ليس
لي روضة أشدو بنضرتها) مثلا لكان أفضل .

ولقد أحسن الشاعر في قوله : (وإن كنت عف النفس لم أهم) بحسب
قوله : (فهي التي تيمت قلبي وجمت بها وجدا) فهو بمثابة الاحتياط
اللطيف الذي يوكد نزاهة الشاعر ، وغضه نفسه .

ولا يخفى أن في إسناده النقش إلى أيدي الهوى استمارة مكنية توحى
بشدة حبه تلك الأماكن الحبيبة إلى قلب كل مؤمن ، مهما تفاوت هذا الحساب ،
والتي يتطلع إلى زيارتها كل مسلم ، ومنهم الشاعر الذي قال (١) :

يا حادي الميس إن لفتني ألمسى

من قصده فاقترح ما شئت وأحنكهم

سر بالمطايا ولا ترفق فليس فتى

أولى بهذا السرى من سائق حطهم

ولا تخف ضلة وانظر فسوف تـسرى

نورا يريك مدب الذر في الأكـم (٢)

وكيف يخشى ضلالا من مؤم حمسى

(محمد) وهو مشكاة على علمهم

هذي بناي وحسبي أن أفوز بهـا

بنعمة الله قبيل الشيب والهـم

يجرد الشاعر من نفسه سائقا للابل ويخاطبه واعدة إياه أن يمطوبه
ما يشاء ، إذا بلغه أمله من الوصول إلى تلك الأماكن الطاهرة ، ثم يطلب

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٤٧ وما بعدها .

(٢) الذر : - بتشديد الذال مفتوحة - صفار النمل .

منه السير بمره إلى تلك الأماكن دون رفق لُويطه ، لأن هذا مفسر
عظيم إلى أماكن عظيمة ، وذلك يتطلب سائقا لا يخشى أن يضل الطريق ،
وكيف يضل الطريق ، وأمامه نور عظيم يستطيع أن يرى بواسطته أدق الأشياء ،
إنه نور النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) الذي سوف يحظى بزيارته ، وهذه
هي أمنيته التي يود الفوز بها - بفضل الله - قبل أن يحل بينه وبينها
بسبب الشيخوخة .

والملاحظ أن الشاعر يسلك سلك الشعراء السابقين ، في مخاطبته
حادي الميمس ، ولقد سبقه البوصيري في ذلك عندما قال : (وأطسرب
الميمس حادي الميمس . . . (١)) وكان يمكنه أن يخاطب قبطان سفينة ، أو
قائد طائرة ، مثلا ولكنه أراد متبعي السابقين كما صرح قبل ذلك .

وهيما يكن من شيء ، فإن الشاعر يحب تلك الأماكن الطاهرة جدا كسيراء ،
يدل على ذلك أنها أمه : (إن يلفتني أمل) كما أنه يأمر الحادي بمره
السير على أن يخطيه كل ما يحبه .

ولا يخفى أن في قوله : (نورايريك مدب الذرفي الاكم) إشارة
لطيفة إلى عظم نور النبي (عليه الصلاة والسلام) ثم يوعد ذلك بهذا الاستفهام
التمجيب الذي يشير البهمة ، ويقوى العزيمة : (وكيف يخشى هلالا مسسن
يووم حس ٠٠ محمد ٠٠) .

إن أمل الشاعر في الله تعالى كبير ، ولذلك يقول : (٢)

ومن يكن راجيا مولا نال بسـ

ما لم ينله بفضل الجد والهـم

فاسجد له واقرب تبلغ بطاعتسه

ما شئت في الدهر من جاه ومن عظم

(١) انظر ص ٢١٤ من هذه الرسالة .

(٢) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٤٨ .

هو للملك الذي ذلت لصنعه
أهل الصانع من عباده ومن لهم^(١)
يحيى البرايا إذا حان المهاد كما
يحيى النبات بشوئ بوب من الفيسم

يبين البارودي أن ما يتناهى عن الحصول، لأن الله قادر على كل شيء، وهو لم يرح سواء، ومن رجا مولا نال ما تشاءه، بفضل الله لا بفضل الجهد والهم، والشاعر بذلك لا يقلل من قيمة الجهد والهم العالمية، وإنما يريد أن يبين أن الجهد سبب من الأسباب التي تحقق المطلوب، إذا أراد الله حصوله، وإلا فلا، فالموصول كله على الله، ولذلك أمر بالسجود له، والاقتراب منه، بالطاعة التي هي أساس النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة (فاسجد له واقتراب تبلغ بطاعته ٠٠ مائت ٠٠)، ثم يبين الشاعر أن قدرة الله فسوق كل قدرة، وهي التي ذلت لعظمتها أقوى الأمم والقبائل: (هو الطيبك الذي ذلت لصنعه ٠٠).

ولا يخفى ما في البيت الأول من عبارة صادقة تحت على إفراد الله تعالى بالرجاء والدعاء، كما لا يخفى اقتباس الشاعر قوله: (فاسجد له واقتراب ٠٠٠٠) من قوله تعالى: (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ^(٢)) وفي ذلك دليل على الطريق الصحيح الموصل إلى رضا الله سبحانه وتعالى.

ولعل في قوله: (أهل الصانع) تلميحا إلى قوله تعالى عن قوم همد (عليه السلام): "وَتَتَّخِذُونَ صَانِعَ لَكُمْ تَخْلُدُونَ"^(٣) وما يقوى ذلك أنه ذكر همد: (أهل الصانع) عاد وإرم، وفي ذكر ذلك إشارة إلى أنه نظر إلى البصيري، الذي أشار إليهم من قبله. في قوله عن آيات اللفسوآن الكريم: (وهي تخبرنا عن المهاد وعن عاد وعن إرم^(٤)).

(١) الصانع جمع صنيع، والمراد به المصنوع.

(٢) المعلق / ١٩. (٣) الشعراء / ١٢٩.

(٤) انظر ص ١٦٠ من هذه الرسالة.

وفي البيت الأخير إشارة لطيفة إلى أن إحياء تلك المموتى أمر ممكن ،
وشبهه بإحياء النبات إذا نزل عليه الماء ، وهذا أمر مشاهد محسوس ، فالشاعر
شبهه حالة بحالة ، ووضع التمثيل وأكدته ، بالحسوس المشاهدة .

ولما كان يوم القيامة يوماً شديداً الهول ، عظيم الوجع ، لجأ الشاعر
إلى ربه قائلاً (١) :

يا غافر الذنب والألباب حائرة

فسي الحشر والنار ترمى النور يا لغزير

حاشا لفضلك وهو المستعان به

أن لا تمن طي ذى خلعة عسى

إني استشفع بالمحطى وكفى

به شفيعاً لدى الأحوال والقسم

فاقبل رجائي فما لي من الود به

سواك في كل ما أخشاه من قسم (٢)

يتضرع الشاعر إلى الله تعالى ، طالباً غفران ذنبه ، لأنه (غافر الذنب)

وحاشا لفضله أن لا يمن طي ذى عيوب ، فيسترها ، وأن لا يتفضل على

ذى كروب فيفرجها ، كما توصل بالنبى (صلى الله عليه وسلم) راجياً شفاعته .

ولعل الشاعر يشير بقوله : (والألباب حائرة في الحشر والنار) إلى

موقف الناس يوم القيامة ، يصمم للذهول ، ويفشاهم الكرب ، من شدة الزحام ، وقرب

الشمس من الرؤس ، وغزارة المرق ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : " وَتَوَى النَّاسَ

سَكَارَى وَمَاهُمْ بِسَكَارَى ۝ الآية (٣) " وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " تدنى

الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كققدار ميل فيكون الناس على قدر

أعمالهم في المرق ۝ الآية (٤) . "

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٤٨ .

(٢) فقم : بضم ففتح - أصله بضم فسكون - اللحن والمواد ذنوبه .

(٣) الحج : ٢ .

(٤) صحيح مسلم ج ٥ ص ٧١٥ .

ولا يخفى أن الشاعر يشير إلى شفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة عندما يقول كل نبي: نفسي نفسي، ويقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنا لها، أنا لها، كما سبق (١).

ولقد ألح الشاعر في عقربان ذنوبه، ثم عاد يوعد ذلك بقوله: (فاقربل رجائي ٠٠) وإن كان قوله: (فإلى من ألوذ به صواك ٠٠) فلأخوذاً من قول المبرصيري (يا أكرم الرسل مالي من ألوذ به صواك ٠٠) (٢) إلا أن المبرصيري يخاطب به الرسول (صلى الله عليه وسلم) * وللهاودوي يتلجج به ربه (سبحانه وتعالى) .

ثم انتقل الشاعر إلى ختام قصيدته بقوله (٣):

وَصَلِّ رَبِّي عَلَى الْمُخْتَارِ مَا طَلَمْتَ
شمس النهار ولاحت أنجم الظلم
والآل والصحب والأَنْصَارِ مِنْ تَبَسَّوْا
هداه واعترفوا بالصهد والذم
والهنن على عهدك الماني بمثفورة
تحسو خطاياها في بدو وختنتم

لقد ختم الشاعر قصيدته كما ختمها سابقوه، بالصلاة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صلاة دائمة بدوام طلوع الشمس في النهار، وظهور النجوم في الليل، كما طلب الصلاة على آل والصحب والأَنْصَارِ .

ولا يخفى ما في ذكره لفظ النهار بمد لفظ الشمس، وذكره لفظ الظلم بمد أنجم، من إطناب محبب في المدح، كما أن ذكره لفظ الأَنْصَارِ بمد لفظ الصحب من قبيل ذكر الخاص بمد العام، ولعله أراد مكافأة الأَنْصَارِ

(١) انظر ص ١٢١ من الرسالة .

(٢) المرجع السابق ٢٠٨ .

(٣) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٤٨ .

على ما قدموه للإسلام والمسلمين في بدء الدعوة من نصرة ففكروهم مرتين ، إلا
أن ذكره (الذم) بعد (المهد) حشو ، ويبدو أنه ذكره للقافية .

وسهيا يكن من شيء ، فقه ختم الشاعر قصيدته بتواضع لله تبارك وتعالى
عندما طلب منه مفسرة نحو ذنوبه ، ولكنه أثار أن يعبر بما يدل طسسي
خضوع وخشوع لله فقال : (جدد الماني) ليكون ذلك مهرا لقبول الدعاء ،
وتلبية الرجاء ، وبخاصة أنه أضاف لفظ (جدد) إلى الضمير المائد طسسي
الله جل جلاله ، وفي ذلك تشريف أي تشريف ، ثم أتى بما يدل على حسن
الختم بقوله : (في بدء ومختتم) ، وهذا ما يعرف عند علماء البلاغة بحسن
الختم ، وهو لون لطيف من المحسنات الابداعية .

وعندما انتهيت من دراسة (كشف الغمة) وتحليلها ، رأيت إتاما للفائدة
أن أشير إلى أثرها ، وهذا ما سنراه في الفصل الآتي إن شاء الله .



الفصل الثالث

أثر معارضة البارودي

لعلنى بعد عرض قصيدة البارودي - كشف الغمة فى منح سيد الأسيمة - دراسة وتحليلاً ، أكون أول من كشف اللثام عنها ، وما يقوى ذلك قول بعض الكتاب : " إنها - كشف الغمة - إحدى غرر البارودي ، وهى على أهميتها ما تزال مجهولة من كثير من أدبائنا ونقادنا المعاصرين ، على كثرة ما تلوولوا من دراسات فى أدب البارودي (١) .

وما لا شك فيه أن تلك القصيدة معارضة من معارضات برودة البوصيرى فى العصر الحديث، إذ نسجت على وزنها، وروبيها، وغرضها . ولا يقدر فى عدها معارضة للبردة لأنها زادت عليها فى بعض الأفكار ، أو أخذت طابعا غير طابع البردة من ناحية ترتيب أفكارها، تبعاً لسيرة ابن هشام ، كما صرح الشاعر بذلك فى مقدمتها ، إذ لم يشترط أحد من النقاد فى المعارضة ألا تزيد القصيدة اللاحقة على القصيدة السابقة فى عدد الأبيات أو أن تأخذ نمطها من أوله إلى آخره ، وإلا كان ذلك تقليداً مميماً ، يصيب الأدب بالمقم والجمود .

ولقد أكد كثير من النقاد والكتاب أن قصيدة البارودي معارضة لسيرة البوصيرى (٢) ، ولا يقدر فى ذلك قول الدكتور زكى مبارك : " إنه لم يتأكد من أن البارودي روى إلى معارضة البوصيرى (٣) ، لأن الدكتور زكى كما قال عنه أحد الكتاب : يشك فى كل شىء (٤) .

(١) الدكتور سمد الدين الجيزاوى : هدية مجلة منبر الإسلام ، السنة (٢٥) العدد (٣) ص ٨١ .

(٢) انظر : دائرة المعارف الإسلامية المجلد الخامس ص ٤٦ ومحمود سامى البارودي (للحديث) ص ٧٢ ، والمعارضة فى شعر شوقي ص ٨٥ ، والبارودي رائد الشعر الحديث ص ٤٩ ، والشعر فى العصر الحاضر وأثر البارودي فيه ص ٦١ ، والدكتور سمد الدين الجيزاوى : الطحمة فى الشعر العربى ص ٢٨ طبعة دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٦٧ ، وفاروق خورشيد (بالاشتراك مع غيره) : محمد فى

الأدب المعاصر ص ١٠٥ المكتب الفنى للنشر بمصر سنة ١٩٥٦ .

(٣) الموازنة بين الشعراء ص ١٩٥ بتصرف . (٤) الدكتور / عهد الحبيب طه : النصوص

الأهمية فى العصر الحديث ص ٥٢ طبعة المعادة بمصر سنة ١٩٧١ .

كما لا ينفي المعارضة أن البارودي لم يشير إلى البوصيري عندما أشار إلى متابعه كعبا وحسان في مدحهما الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (١) :

تابعت كعبا وحسانا ولي بهما

في القول أسوة بر غيرتهم

لأنه إذا لم يشير صراحة إلى البوصيري فقد أشار ضمنا هدمًا فكسر أن قصيدته لم تتضمن أنواع البديع بقوله (٢) :

لم ألتزم نظم حبات البديع بها

إذ كان صوغ المعاني الفرملتزمي

إذ من المعلوم أن القصائد التي نظمت فيها أنواع البديع هي (البديعيات) وقد سبق الإشارة إلى أن بعض أصحابها نظروا في نظمها إلى بردة البوصيري (٣) ، ومن إشارة البارودي إليها نعلم أنه قرأها وفهم سياقها ، فصرفه عنها ثقلها بأنواع البديع ، فاتجه إلى الأصل - وهو البردة - ولكنه حينما اتجه إليه ، لم يقف معه في كل خطواته ، كيف ؟ وهو شاعر كبير ، وباعت النهضة الشعرية في مصر الحديث ، فلماذا إذن أن يخالف الأصل أية مخالفة حتى يأتي بجديد وتظهر فيه ملامح شخصيته .

وبالرغم من كل ذلك فإننا أرجح أن البارودي قرأ بردة البوصيري ، ولعل ما يؤيد ذلك أنه تبع البوصيري في بعض أفكاره التي يعد هو أبو هذرتها ، ومن ذلك توصله إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) باشتراكه معه في الاسم بقوله (٤) :

فإن لي ذمة منه بتسميتي

محمدًا وهو أوفى الخلق بالذم

(١) كشف الخمة في مدح سيد الأمة ص ٤٧ .

(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٣) انظر ص ٢٣٧ من هذه الرسالة .

(٤) المرجع السابق ص ٢٠٤ .

فتبعه فيه البارودي وتصرف فيه تصرفاً قليلاً بقوله (١):

أم كيف يخذلني من بعد خصميتي

باسم له في سماء العرش حصرتي

أضفت إلى ذلك تصرفه في قول البوصيري (٢):

خدمته بمدح أستقيـل بــــه

ذئوب عسر ضعى فى الثمر والخدم

إذ قال بعد إضافة يسيرة (٣):

خدمته بمدحى فاعظوت طسى

هام السماك وصار السمـد من خدى

ولصل مما يقوى فكرة قراءة البارودي بردة البوصيري ، أننى عرت طسى

أبيات نسبت إليه ولم تنشر فى ديوانه ، يقرظ فيها تشطير الشيخ عبد القادر

الرافعى للهمزية (٤) - والهمزية هى قصيدة البوصيري كما سبق - وقال

فى ذلك التقريظ (٥):

ألا إن خير القول ما كان حائزاً

مدى السبق فى مدح النبى محمد

وأبدع ما سار الرواة بذكــــره

قصائد حبر من (أبوصير) أمجد

وأجمعها للقول همزية مــــت

هرونقها ما بين نسر وفــــوقه

فقلد (عبد القادر) الشهم جيدها

بحلوة تشطير كدر منضــــد

تسلسل فى أثنائها مثل ما جرت

جداول فى أثناء روض مــــورد

(١) كشف الخمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٦ .

(٢) انظر ص ٢٠٠ من هذه الرسالة . (٣) كشف الخمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٦ .

(٤) سبق التصريف به فى هامش ص ٢٤١ من هذه الرسالة .

(٥) نيل المراد فى تشطير الهمزية والبردة وبانت سعاد ص ١٢٦ .

فيشعري له إذ نال أفضل رتبة
بمسدح رسول بالكتاب مؤيد
ولا زال ملحوظا بيمين عابسة
يروح بها في خير حال وختلوي

ويبدو أن هذا التقرُّب كان لتشطير الرافض للمهزية قبل أن يخطو
البردة - أيضا - ويضمها في كتاب واحد أطلق عليه : (نيل المراد فسي
تشطير المهزية والبردة وبانت سعاد) .

ولا يقتضج في الاستشهاد بهذه الأبيات عدم ورودها في ديوانه ؛ لأن
شعره لم يطبع كله هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ذكر أحد النقاد - فسي
يبحث على عن البارودي - أنه عثر على أبيات للشاعر لم يسبق نشرها فسي أثناء
استعانتة ببعض أفراد أسرة البارودي عند إعداد ذلك البحث العلمي (١) .

وليس من المحقول أن يقرأ البارودي همزة البوصيري وقرظها لمشطرها ؛
ولا يقرأ البردة مع أنها أكثر منها شيوعا وأوسع انتشارا .

على أن الذي لا شك فيه أن البارودي عارض كثيرا من الشعراء السابقين
في قصائدهم مثل : أبو قواس والمتنبى وغيرهما (٢) وهذا يبين إمكان ممارسته
البوصيري إن لم يوجد .

مقن نظم البارودي قصيدته ؟

لم يذكر الشاعر تاريخا لهذه القصيدة ؛ ولكن الراجح أنه نظمها وهو فسي
المنفى - سرنديب - وهذا ما صرح به بعض الكتاب (٣) ؛ ولعل ما يقوى ذلك
قول الشاعر (٤) :

-
- (١) محمود سامي البارودي (للحديدي) ص ١٦٢ و ١٧١ .
(٢) البارودي رائد الشعر الحديث ص ١٤٦ ، والشعر في العصر الحاضر وأثر البارودي
فيه ص ٨١ وما بعدها ، والموازنة بين الشعراء ص ٣١٤ وما بعدها .
(٣) البارودي رائد الشعر الحديث ص ٩٣ ، محمود سامي البارودي (للحديدي) ص ١٧٢ .
(٤) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٥ وهامشها .

تكا من تنى خلوب لوربيت بهيسا
فناكب الأرض لم تثبت على قدم
فى بلدة مثل جوف الميرلست أرى
فيها سوى ألم تحنو على ضم

إذ أشار كاتب الشاعر بنى صنيه الأخيرة - ياقوت المرسى - إلى أن الشاعر
أراد بقوله : (فى بلدة مثل جوف المير ٠٠) سونديب ، إذ كان أغلب أهلها
يوزيين ، ولا شك فى أن كاتب الشاعر أقرب الناس إليه ، وقد صحح النسخة
المطبوعة قبل طبعها على نسخة الشاعر بعد أن قرئت عليه ، وطلبها بحضرة
التعليقات كما ذكر الكاتب نفسه (١) .

أضف إلى ذلك ما قاله - كاتب الشاعر أيضا - عند قول البارودى (٢) :

فمن يرد على نفسى لباتهيسا
أو من يجير نوادى من يد السقم
المراد باللبانة : الحاجة ، وأراد بها الشاعر عودته إلى وطنه المحبوب
مصر ، وقد نال بغيته ، فماد إليه فى ٦ من جمادى الأولى سنة ٣١٧ هـ .
ولعل ما يوعد ذلك أيضا قول الشاعر مخاطبا الرسول (صلى الله عليه
وسلم) (٣) :

تالله ما عاقتى من حيكم شجن ٠٠ لكننى موثق فى ريقة السلم
فالشاعر يوضح أن الذى منعه من الذهاب إلى مدينة الرسول (صلى الله
عليه وسلم) هو أنه (موثق ٠٠) أى مقيد الحوية فى منفاه .
ومما يوحى بأن البارودى نظم (كشف الغمة) نفسى منفساء ، بالإضافة إلى

(١) المرجع السابق هامش ص ٤٨ .

(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤ وهامشها .

(٣) المرجع السابق ص ٤٥ .

ما قبلت قوله عن تلك القصيدة (١)

وسبها باسمك العالى فألبسها
ثوباً من الفخر لا يبلى على القدم
غريبة في إسمار اليمين لو أنسنت
بنظرة منك لا ستفتت عن النسيم

أثأثر البارودي في قصيدته (كشف النعمة في مدح سيد الأئمة) -

بمعارضة سقاي الدرويش والتميمية أم لا ؟

يبدو لي أن البارودي لم يتأثر في قصيدته بمعارضة الدرويش
ولعل ما يقوى ذلك اختلاف قصيدتيهما في الأفكار وطرق التعبير عديداً
بالإضافة إلى اختلافهما في عدد الأبيات .

كما أنه لم يتأثر في قصيدته بقصيدة عائشة التيمورية؛ لأنها نشرت قصيدتها
عندما كان البارودي في المنفى؛ إذ أن ديوانها طبع الطبعة الأولى
بالطبعة المامرية الشرقية بمصر سنة ١٣٠٢ هـ (١٨٨٥ م) (٢) وكان الشاعر
في ذلك الوقت قد أمضى في منفاه ما يقرب من ثلاث سنوات؛ إذ نفى - كما
سبق - سنة ١٨٨٢ وعاد إلى وطنه سنة ١٩٠٠ م (٣) ، ولعل ما يبرهن ذلك
اختلاف القصيدتين في كثير من الأغراض وطرق معالجتها بالإضافة إلى
اختلافهما في عدد الأبيات أيضاً .

ومهما يكن من شيء فإن قصيدة البارودي تعد من أولى القصائد الإسلامية
في العصر الحديث - إن لم تكن هي الأولى - وبخاصة في طولها ، وتعدد
أفكارها وتوحيدها ، ولعل الذي ساعد على ذلك أن الشاعر قد نظمها على
نسق أفكار سيرة ابن هشام كما صرح هو بذلك في مقدمته إياها ، إلا أن هذا
الترتيب كان سبباً من الأسباب التي جعلت القصيدة أشبه بالسرد التاريخي
في معظم أبياتها ، ولذا قال عنها بعض الكتاب (٤) . . . ولا نقول فسي

(١) المرجع السابق ص ٤٦ وما بعدها . (٢) ومعارضتها في ص ٤٤ من طبعة هذا

الديوان . (٣) انظر ص ٣٤٣ وما بعدها من هذه الرسالة .

(٤) محمد في الأدب المعاصر ص ١٠٥ .

القصيدة - كشف النعمة - أكثر من أنها (وصف) لحيمة (محمد) حسن مولده إلى قرب أن يموت - في تمس على صنيحين ليهله - للبارودي - :
أحدهما : لابن هشام في السيرة ، والآخر : للبوخيري في (الكواكب
الدرية) أي البردة ، وتأثر البارودي بالأول تاريخيا ، وتأثر بالثاني فنيما ،
ويمن الرجلين كان رب السيف والقلم يصول ويجول .

أما الحقيقة التاريخية : يعلم الدارسون أنها أكثر غناء . . . لدى ابن
هشام . . . وأما الحقيقة الفنية : فلم تبرز بالصورة التي كان ينبغي أن يفسد
عليها البارودي . . . فهي في غير مستواه . . .

ويؤكد هذا القول كاتب آخر بقوله : (والترتيب الذي سار عليه البارودي
ليس ميزة فنية ، فقد قيد انطلاقه وعواطفه ووجدانه ، وحدد فنيته في إطار
مرسوم ، ففترت الماطفة الشعرية في أكثر القصيدة ، وأصبحت منظومة
تاريخية ، كتلك المنظومات التي تعرف بالمتون . . .)^(١)

أضف إلى ذلك السرد التاريخي ما اشتطت عليه القصيدة من اللحناسا
ومبارات غير شموية مثل : (وحينما) - حملت بالمصطفى . . . (وند) أشي
الوضع . . . (فبينما) هو يري البهم . . . (وقال) عه . . . (وحين) أدرك
من الأربعين . . . (هذا) وقد فرض الله الصلاة . . .

ولا شك في أن مثل هذه المبارات أولى بها أن تكون في قصة نثرية
لا في قصيدة شموية ، ويخاضع عند شاعر كالبارودي ، بما جعل بعض الكتاب
يقول عه : هو (. . . يحكى قصة ، ويستخدم عبارات القصة اللازمة (فحينما . . . وحين)
إنه يرسم البعد الزمني ويحدده ، كما يفعل القاص ، أو كان ينبغي أن يفعل
لأنه (ينظم) سيرة ، ولم يحاول أن يفعل بسيرة . . .)^(٢)

وأقول - إنصافا للحقيقة - إن حرارة الماطفة لم تنطفئ في القصيدة كلها
وإنما كانت تشتمل جذوتها عندما يناجي الشاعر ربه ، أو يتشوق إلى زيارة

(١) محمود سامي البارودي (للحديدي) ص ١٧٣

(٢) محمد في الأدب المعاصر ص ١٠٩

الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو يصف ما أئمنه من الخطوب ، وما عني به من الآلام والظلم ، ويظهر ذلك واضحا في قوله سنجبا ربه (جل وعلا)^(١) :

يا مالك الملك هب لي منك مفسرة
تحو ذنوبي غداة الخوف والنسبم

واضن على بلطف منك يعصمني
زيغ النهي يوم أخذ المواعظ الكظم

وقوله مخاطبا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ^(٢) :

تالله ما عاتقني عن حيكم شجسمن

لكنني موثق في ريقة السلم

فهبل إلى زورة يحيا القواد بهيها

ذريمة أبتفيتها قبل مخترمسي

البارودي لم يقتصر على سيرة ابن هشام :

إن قصيدة (كشف الغمة في مدح سيد الأمة) تدل على أن البارودي لم يقتصر على سيرة ابن هشام ، وإنما قرأ غيرها من كتب السيرة ، ويؤكد ذلك أنه أشار إلى وقوف حماة من على وجه الفار ، كما نصح المنكبوت خبوطه على باب الفار أيضا ، عندما كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) مهاجرا ^(٣) ، ولم يرد ذلك في سيرة ابن هشام التي صرح الشاعر بأنه سيضمنها قصيدته ^(٤) ، وزيادته على ما فيها يشير إلى ثقافته الإسلامية التي اكتسبها من اطلاعه ، وقراءته بعض كتب السيرة الأخرى ^(٥) ، ولعلها تشير أيضا إلى أن البارودي قرأ بردة البوصيري ، إذ صرح البوصيري في برده بذكر الحسنات والمنكبوت في تلك المناسبة بقوله ^(٦) :

ظنوا الحمام وظنوا المنكبوت على

خير البرية لم تمنح ولم تحم

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٤٥ (٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق ص ٢١ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق ص ٢ .

(٥) الروض الأنف ج ٢ ص ٤ وطبقات ابن سعد ج ١ ق ١ ص ١٥٤ .

(٦) انظر ص ١٤٥ من هذه الرسالة .

وإذا تأملت قصيدة البارودي - كشف الغمة - وجدتها تشير - أيضا -
إلى أن الشاعر قد ترك بعض الأفكار والحوادث دون الإشارة إليها مثل :
١- وفاة والد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو في بطن أمه (١) نعم ذكر
البارودي أن الرسول ولد يتيما في قوله (٢) :
وأرضته ولم تياس حليلة من . . قول المراضع إن البوم في اليتيم
ولكن ذلك لا يكفي ، وكان في إمكان الشاعر استغلال تلك الفكرة لشعير
إلى عناية الله بنبيه من قديم ، ولعل في قوله تعالى : " أَلَمْ يَجْعَلْ
يَتِيمًا فَآوَى (٣) " ما يوعد تلك الفكرة .

٢- وفاة والدة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو ما زال طفلا صغيرا وكسابت
فرصة للشاعر يشير فيها إلى ما حل بالرسول من أحداث ومدي وقع ذلك
على نفسه (٤) .

٣- كفالة جده عبد المطلب ، وعنايته به ما يقرب من سنتين ، ثم وفاته ، وأتم
ذلك في الرسول (صلى الله عليه وسلم) (٥) .

٤- تردد الرسول على غار حراء قبل نزول الوحي ، واحتكائه فيه الليالى
ذوات العدد ، وخلوته في ذلك المكان الموحش (٦) .

٥- لحظة نزول الوحي بقوله تعالى : (اقرأ) (٧) ، وما هو جدير بالذكر أن
بعض الشعراء أشار إلى ذلك إشارة لطيفة وضمهم الشاعر : عبد الله
شمس الدين (٨) الذي يقول قصيدة طويلة ومنها (٩) :
صلى عليه الله نورا هاديا

متعبدا في غاره لم يسأم

-
- (١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٧١ . (٢) كشف الغمة في مدح سيد الأقطاب ص ٧
(٣) الضحى / ٦ . (٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٧٩ .
(٥) المرجع السابق ج ١ ص ١٨٠ . (٦) المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٢ وما بعدها .
(٧) الملق / ١ . (٨) عبد الله شمس الدين شاعر مصري توفي سنة ١٢٧٧ .
(٩) مجلة الشبان الصليبي سنة (٤٩) العدد (٣) ص ١٨ وهذه القصيدة آخر قصائد
الشاعر قبيل وفاته .

هو مان ، تضرع للمسالمة
في تومسه شتاق عوجده خمسه
يارب ، يارب إلهك تظلمت
روحى ، وحبك مستشار فى دمى
حقى أتى الروح الأمين يضمه
ضما على رهبوتيه المتبسم
اقرا نبى الله ، اقرا وابته
وذكر ربك يانبى ترنم
اقرا وربك ملهم - سبحانه -
قد علم الإنسان ما لم يعلم

وإذا كانت هذه القصيدة ليست من معارضات البردة ، فهناك بعض
الشعراء الذين أشاروا إلى ذلك فى معارضاتهم - كما سيأتى (١) .

٦- موقف السيدة خديجة عندما رجع الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى المنزل
خائفا - بعد نزول الوحي - ولما قص عليها ما رأى طمأنته - قائلة :
له " أبشر يا ابن عم واثبت " (٢) وكان يمكن الشاعر أن يتحدث عن
ذلك بينا فنة السيدة خديجة وحسن تصرفها ، ولمح إلى سادات اليوم
ليتملن منها - كما فعل بعض الشعراء - كما سيأتى (٣) .

٧- موقف الرسول عندما ذهب جماعة من قريش إلى عمه أبى طالب تطالبه بأن
يمنح ابن أخيه من سبب آلهم ، ولما طالبه أبوطالب بذلك قال الرسول
" يا عم - والله لو وضمو الشمس فى يمنى ، والقمر فى يسارى على أن أترك
هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته " فلما رأى أبوطالب ذلك
منه قال له : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت (٤) . وكان فى إمكان

(١) انظر ص ٥١٨ من هذه الرسالة .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٥ .

(٣) انظر ص ٢٢٠ من هذه الرسالة .

(٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٨ .

الشاعر أن يتحدث عن ذلك بيننا تمسك الرسول بالحق مهما كلفه .
٨- أثر وفاة السيدة خديجة (رضي الله عنها) وهي التي كانت تقف بجانب الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتناصره بنفسها وبأهلها ، وتتحمل معه الأذى .

وكذلك أثر وفاة أبي طالب ، وهو الذي كان يقف بجانب الرسول مدافعاً عنه ، ولقد كان لوفاة السيدة خديجة وأبي طالب أثر عظيم في نفس الرسول (صلى الله عليه وسلم) . إذ حزن عليهما حزناً شديداً بل لقبه سمي العام الذي توفيا فيه (عام الحزن) كما أن قرشيها لم تتل من الرسول إلا بعد وفاتهما (١) .

٩- بناء مسجد (قباء) (٢) الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى :
" لَسَجْدٌ أَتَى عَلَى الْتَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ . . . الآية (٣) " .
والجدير بالذكر أن الشاعر أحمد محرم (٤) أشار إلى ذلك المسجد فسي قصيدة طويلة ، ومنها مخاطباً الرسول (٥) :
يا حياة النفوس جئت (قبياء)

جيئة الروح تيمت المقبوراً

ارفع المسجد المبارك واصنع

للبرايا صنيعك المشكوراً

مقل بمضم النفوس وبأبى

أن يجعل الهوى بها أو يجورا

أوصها بالصلاة فهي علاج

أو سياج يذود عنها الشروراً

١- بعض الصحابة الذين كانت لهم مواقف عظيمة ومنهم :

أ- القداد بن عمرو (٦) الذي قال للرسول (صلى الله عليه وسلم) قبيل

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٥ وما بعدها . (٢) قباء : (يضم ففتح) موضع قريب من المدينة .

(٣) التوبة / ١٠٨ . (٤) أحمد محرم شاعر مصري توفي سنة ١٩٤٥

(٥) أحمد محرم : ديوان مجد الإسلام تصحيح محمد الجيوش . ص ١٥ مطبعة المدني بصر سنة ١٩٦٣ .

(٦) هو: القداد بن عمرو بن مالك صحابي جليل توفي في خلافة عثمان بن عفان

سنة ٥٢٣ .

غزوة بدر * يا رسول الله : أمض لما أراك الله ، فتحن منك . (١)
ولقد أشار الشاعر أحمد محرم إليه في قصيدة طويلة منها : (٢)

ما أصدق المقداد حين يقولها
حري ، ويمض القول نار تلقح
أنا وراءك يا (محمد) نبتفسى
ما الله يعطى المتقين ويمنح

ب- الحباب بن المنذر (٣) ، الذي أشار على الرسول (صلى الله عليه وسلم) قبيل غزوة بدر بتغيير المكان وردم الآبار القريبة من المشركين ، ووجد الرسول في ذلك الرأي خيرا ولذلك نزل عن رأية ووافق عليه (٤) ، ولقد أشار إلى هذا الموقف الشاعر أحمد محرم ، في قصيدة طويلة منها (٥) :

مكر الحباب بهم قفوه ما همم
والمكر في بعض المواطن أنجح

ج- نعم الأشجعي (٦) الذي أتى الرسول (صلى الله عليه وسلم) يطلب منه أن يأمره يمشي ، يفعله ضد اليهود والأحزاب - لأنه أسلم سرا - في غزوة الخندق ، ثم قال له الرسول : خذلها ما استطعت إنما الحرب خدعة ، فقام نعم بخدعة فوق صفوف اليهود والمنافقين (٧) وما أحسن قول (أحمد محرم) وهو يشير إلى ذلك : (٨)

أقبل نعم هداك ريك ساريا
وكفى بريك ذي الجلالة هاديا

-
- (١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٥٣ . (٢) ديوان مجد الإسلام ص ٣٩ .
(٣) هو الحباب بن المنذر بن الجصم الأنصاري صاحب جليل توفي في خلافة عمر
ابن الخطاب نحو سنة ٥٢٠ هـ . (٤) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٥٩ وما بعدها .
(٥) ديوان مجد الإسلام ص ٤٠ . (٦) هو : نعم بن مسعود بن عامر الأشجعي
صاحب جيل توفي في خلافة عثمان بن : ، نحو سنة ٥٣٠ هـ .
(٧) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٨٢ .
(٨) ديوان مجد الإسلام ص ١٦١ .

جئت النبي ، فقلت : إني مسلم
من أشجع لم يدركني ملبيا
موني بما أحببت في القوم الألسي
نوهوا الرشاد لكن لأمرك وأمرها

ولا شك فسي أن هذه المواقف من هو الأمانة الحابة كانت
تمتحن التوبة إليها ، والإشادة بها ، إذ هي دليل على قوة
إيمانهم ، وصدق اعتقادهم ، وجميل تضحياتهم في سبيل ربهم .

١- وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) (١) وأثرها في أصحابه ، وبخاصة
عربين الخطاب الذي لم يصدق ذلك - أول الأمر (٢) - والجدير بالذكر
أن (أحمد حرم) أشار إلى بعض ذلك بقوله (٣) :

مات الرسول المجتبي ، مات الذي

أحيا نفوس الناس وحسى رسائم

مات الرسول فكل أفنى طبع

أسفا عليه - وكل جو قاتم

... طامت لصرعه عقول رجح

ووهت قوى مشدودة وعزائم (٤)

... صلى عليك الله ، إن قضاه

حتم ، وإن زعم المزامع حالم

وإذا كنت قد بينت بعض الأفكار التي وردت في سيرة ابن هشام
وأغلبها البارودي في قصيدته ، فإنني سأشير إلى بعض الأفكار التي
تحدث عنها البارودي بإيجاز ، وكان الأولى به أن يظن في الحديث عنها
لما لها من أهمية كبيرة ، ومن ذلك :

-
- (١) توفي الرسول (علي التراجيح) في يوم الإثنين ١٣ من ربيع الأول سنة ١١هـ .
 - (٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٠٣ وما بعدها .
 - (٣) ديوان مجد الإسلام ص ٤٥٠ .
 - (٤) لفظ (لصرعه) غير مناسب للمقام .

أ - حديثه عن المسجد النبوي الذي أشار إليه في بيت واحد ثم أردفه
ببيت آخر، تحدث فيه عن (بلال) - مؤذن الرسول ، وكان الأولى
بالبارودي أن يشير إلى اشتراك الرسول (صلى الله عليه وسلم)
في بناء ذلك المسجد وحمله التراب بنفسه وفي ذلك دعوة إلى
التعلون، وعدم الاغترار بالمنصب مهما علت ، ولعل هذا ما أشار
إليه الشاعر (أحمد محرم) بقوله (١) :

المسجد الثاني يقام بيشر ب

ومحمد البانسي يجده ويحمل

هذا رسول الله في أصحابه

لا يشتكى عطيا ولا يتمسك

يأتي ويذهب بينهم ، فلتهم

بالترب يفضي وجهه ويكسمل

أين هذا من قول البارودي (٢) :

ثم ابتغى سيد الكونين مسجده

بنيان عز فأضحى قائم الدسم

واختص فيه بلالا بالأذان وما

يلفسي نظير له في نبرة النفس

ولمك تلاحظ أنه أشار إلى بلال - بأن الرسول اختصه بالأذان لحسن

صوته ، وهذا تحليل جميل ، وأجمل منه لو أشار - أيضا - إلى تحطه التعذيب

في سبيل عقيدته ، وهذا ما أشار إليه أحمد محرم بقوله (٣) :

أذن (بلال) لك الولاية لم تتح

لسواك إذ تدعو الجموع فتقبل

الله ألبمك الكرامة واصطفسي

لك ما يحب المؤمن المتوكل

(١) ديوان مجد الإسلام ص ٢٢ .

(٢) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٤ .

(٣) ديوان مجد الإسلام ص ٢٥ .

يا طول ما عذبت فيه ، فلم تصل
تهنئى التى لبتنى الفؤاة الميل
أحد إلهك ، ما كذبت ، وما لمن
يرجو النجاة على سواه بمسئل

أين هذا من قول البارودى الذى خلا من التحليق والبياع ، ومع ذلك
فالشاعران البارودى ومحمود قد قصرا فى بيان أهمية المسجد من كونه :
مكانا للمبادة ، ومحكمة للقضاء ، ومقرا للقيادة العامة لجيش المسلمين ،
ومدرسة لتعليم أمور الدين ، وغير ذلك .

والجدير بالذكر أن بعض الشعراء الذين عارضوا بردة البصيرى - بمد
شوقى - قد أشاروا إلى مثل ذلك - كما سيأتى - إشارة للبارودى فكانت
فى بيتين اثنين وهما : (١)
هكذا وقد فرغ الله الصلاة على

عباده وهداهم واضح اللقمة

فسارعوا نحو دين الله وانتصبوا

إلى العبادة لا يألون من سأم

إن إشارة البارودى إلى الصلاة مبتورة ، وكان الأولى به أن يشير إلى
أهمية الصلاة ، وكيف أنها تصل العبد بربه ، كما أنها تنهى عن الفحشاء
والمنكر ، وغير ذلك من الفوائد المظيمة التى أشار إلى بعضها شاعر النسبى
الشيخ الخطيب (٢) فى قوله (٣) :

إن الصلاة بها الصلات عقيقة

وبها يكون من الصلاء نجاكاً (٤)

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ١٨٠ (٢) سيأتى التصريف به فى ص ٦٣٩ من
هذه الرسالة

(٣) محمد خليل الخطيب : وحى الحديث ص ٧ وما بعدها (لم يدون عليه
اسم السليمة) وطبع سنة ١٩٥٩ .

(٤) الصلاة : النار .

وإذا بليت من الزمان بشسدة
فأفزع لها تفزع بها بلواكسا
هي قرة العينين ، جالية الرضا
هي في الخطوب للعالم الكا ضاكا
وهما دین الله ، باب فتوحه
وطريق جنته ، سر هناكسا
وأجل ما يدینك من مولاكسا
ويحط عنك ولو يجم خطاكسا
هي طهرة وصحة وساحة
ورياضة ووجاهة وساكسا
ريحان أرواح ، متابع فكورة
إشراق أنوار ضيا ، نھاكسا
تدعو إلى خير الخلال وإنھسا
لمن الفواحسن كلها تھاكسا
فاسكن بها قلبا ، وسكن قالبا
قبا تناجی خیر من نجاكسا
واخرج بها غیرا ، وقل متبئلا
إياك نمید ونا إياكسا

ج- وإذا كانت شخصية البارودي العسكرية قد ظهرت في قصيدته
كشفا للفتنة وخاصة عندما أشار إلى غزوات الرسول (صلى الله عليه
وسلم) وكثير من سراياه ، فإنه لم يبين الحكمة من توجيه هذه
السرايا ، وخاصة أن بعض الناس ينظر إليها على أنها ضرب
من قطع الطريق ، مع العلم أن تلك السرايا يرجع سببها كما
ذكر بحضر الكتاب (١) إلى :

أ- إشمار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضارمين حولها بأن
المسلمين أقويا ، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم ، ذلك الضعف

(١) الشيخ محمد الخزالي : فقه السيرة ص ١٩٢ بصرف مطبعة دار الشعب بمرسنة ١٩٧٢

الذى مكن قريشا فى مكة من صادرة عقائدهم وحرىاتهم ، واقتصاب
ديارهم وأموالهم ، ومن حق المسلمين أن يمنوا بهذه المظاهرات المسكوية
على ضآلة شأنها .

آ- إنذار ترويش عقى طيشها ، فقد حاربت الإسلام ولا تزال تحاربه
وكلت بالمسلمين فى مكة ، ثم ظلت ماضية فى غيرها ، لا تسمح لأحد
من أهل مكة بالدخول فى دين الله .

فى كشف الغمة تقليد وتجديد :

ولا يخفى أن قصيدة البارودى قد اشتملت على ما يؤكد تقليده الشعراء
السابقين ولكنه لم يقف عند ذلك التقليد ، بل أضاف جديدا أملاه عصره
ومن ذلك: تنبيه أن تحمل القطاة رسائل أشواقه إلى أحبائه ، وفى هذا تقليد
ظاهر للسابقين ، إذ كانوا يتعنون ذلك ، بل إن منهم من تنفى أن يستمير
جناح ذلك الطائر ليطير به إلى أحبائه ، ومن هؤلاء: الميلاس بن الأحنف الذى
يقول (١) :

بكيت إلى سرب القطاجين مرسى فقلت : وضى بالبكا جدير
أسرب القطائل من ممر جناحه لعلنى إلى من قد هويت أطير (٢)
أما ما قاله البارودى فهو (٣) :

ليت القلا حين سارت غدوة حملت
عنى رسائل أشواقى إلى أىضم
مرت علينا خماصا وهى قارصة
مر المواصف لا تلوى على أى
لا تدرك العين منها حين تلحها
إلا مثلا كلسع البرق فى النائم
كأنها أحرف بوقية نومضت
بالسلك فانتشرت فى السهل والملم

(١) الميلاس بن الأحنف : ديوانه ص ٧٣ وما بعدها مطبعة الجواثب بالقسطنطينية سنة ٢٩٨ هـ
وبلاحظ أننى وجدت هذه الأبيات ضمن قصيدة طويلة فى ديوان قيس بن الملوح - أيضا - ص
٣٣ . المطبعة العامة المشانية بمصر سنة ١٣٠٩ . (٢) فى بعض الروايات (هل من ميمير ٠٠)
(٣) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤ وما بعدها .

فالشاعر إلى جانب تنهية أن تحمل القطة رسالته إلى لحيته ، شبه مرورها
بسرعة بمر الرياح ، ولمع البرق ، وهذا تشبيه قديم ، إلا أنه أضاف جديدا
عندما شبهها - القطة - وهي تسرع - أيضا - بأحرف برقية (تلغرافية)
قد حملتها الأسلاك . ولا شك في أن ذلك التشبيه أثرا من آثار صرير
البارودي ، ولعل هذا ما أشار إليه بعض الكتاب بقوله عنه (١) : .. كأن يصور
نفسه وميئته ووطنه تصويرا صادقا ، ومن تمام هذا الصدق فيه شعوره الدقيق
بمصره ، لا بأحداثه فحسب ، بل أيضا بمختراته ، وكان يجربها في تشبيهاته
واستماراته كقوله في النزل :

وسرت بجسدي كبريات حسنه

فمن المروق به ملوك تخير (٢)

أنف إلى ذلك - أيضا - أن في القصيدة دلالة على انتقال الشعر المرص
في صر من مرحلة العناية بالمحسنات البديعية التي كانت تحشر حشرا ، فتفصل
اللفظ ، وتمهد الأسلوب - الانتقال من تلك المرحلة - إلى مرحلة التخرير من البديع
إلا ما جاء فهو الخاطر ، مع جزالة الألفاظ ، ومثانة الأسلوب - غالبا - وهذا
ظاهر بوضوح في ثنايا القصيدة .

ولعل من أهم آثار قصيدة البارودي (كشف الخمة) - بالإضافة إلى ما سبق -
أنها تدل على وجود الملحمة (٣) في الشعر المرص ، وتورد بذلك على من زعم أن
الشعر المرص خلو من الملاحم (٤) .

وإذا تأملنا سبوات الملحمة كما ذكرها بعض النقاد ، عندما قالوا : إن الملحمة
تتاز بأنها : (٥)

- ١- تشتمل قصتها على حوادث خطيرة تدور في المادة حول بطل عظيم .
- ٢- تكون لفتها فخمة ، رفيعة الأسلوب ، ومن وزن قوى متين - والمصلحة عبادة
وزن واحد لا تخرج عنه .

(١) الأدب المرص المعاصر في صر صفحة ٩١ . (٢) ديوان البارودي ج ٢ ص ٧٤ .
(٣) هي قصيدة طويلة تسرد الوقائع والحوادث على سبيل القصة ، وتصف أعمال أبطال عظام ،
كما تصف الحروب وغير ذلك . . . انظر : الملحمة في الشعر المرص ص ٧ وما بعدها .
وتاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٥٥ ، وأحمد أمين (بالاشتراك مع غيره) : التوجيه
الأدبي ص ١٨٩ ، المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٩٤٩ . (٤) الدكتور : محمد نجيب هلال :
الأدب المقارن ص ١٤٩ . طبعة دار نهضة مصر للطبعة الثالثة سنة ١٩٧٣ ، والملحمة
في الشعر المرص ص ٢٠ . (٥) التوجيه الأدبي ص ١٨٩ وما بعدها .

٣- تشتمل أكثر الملاحم على حوادث خارجة عن المألوف ، ويكون أمثلها مزيجاً من الأبطال العظام ، ومن الآلهة أحياناً ، الذين يشتركون في الوقائع وينصرون فريقاً على فريقين . . .

إذا تأملنا هذه المميزات ثم تأملنا قصيدة البارودي وجدناها قد اشتملت على أكثر صفات الملحمة ، كالإشادة بالبطولة الإسلامية متمثلة في كفاح النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وأتباعه ضد المتصدين لإحياء دعوته ، والناهضين لهذا الدين الإسلامي ، مع ذكر تأييد الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم) . كما أن وزنها قوى ، ورويها واحد ، ولا يضيرها أن خلت من تصوير صراع بين آلهة لأن ذلك ما تأباه المقيدة الإسلامية ، كما أن بعض النقاد ذكروا أن هذه الصفة لوحت من الصفات الضرورية للملاحم (١) .

وقد أشار بعض النقاد إلى هذا الأثر بقوله : " وما بلغت النظر في شعرنا الحديث شيوع الملاحم والمطولات ، وأول من بدأ العظمى سولات ذات الطابع الإسلامي في العصر الحديث هو : محمود سالي البارودي - فقصيد أنشأ قصيدة كبرى بلغت سبعة وأربعين وأربعمائة بيت بمنوان (كشف الفسفة في مدح سيد الأمة) ، وهي على وزن وروي قصيدة البردة المشهورة للهويصيري ، ووضعها السيرة النبوية أيضاً ، إلا أن البارودي قد شرح وحصل وضمن قصيدته معارف أكثر مما تضمنته قصيدة الهويصيري . . . (٢) .

بل إن بعض الكتاب قد أكد ذلك الأثر وزيادة بقوله : " ولا نشك في أن هذه الملحمة هي التي أوحى إلى حافظ إبراهيم أن ينظم مطولته عن عسر ابن الخطاب (رضي الله عنه) (٣) . . . كما أوحى إلى أحمد مكرم ملحمة (أوليازمه)

(١) المرجع السابق ص ١٩٠ .

(٢) الملحمة في الشعر العربي ص ٣٨ .

(٣) مطلع تلك المطولة :

حسب القوافي وحسبي حين أقيمتها

أنى إلى ساحة (الفاروق) أهديتها

انظر ديوان حافظ ج ١ ص ٣٩ وما بعدها .

في السيرة النبوية (١) ... وجد الحلیم المصري في بکريته (٢) ...
جد المطلب في طوخته (٣) ... وأيضاً استخاض بها شوق كما استخاض ببردته
الأبوصيري في قصيدته (ريم على القاع بين اللبان والملمس (٤)) .

وإذا صح ما قاله هذا الكاتب ، فإنه يشير في النفس تملؤلاً وخصاصة
حول شوق ، لأن قصيدته من معارضات البردة - أصبح تأثر شوق فمسي
نظمه (نهج البردة) ببردة البوصيري فصب ، أم بها وغيرها ؟

وهذا ما سنراه في الباب الرابع إن شاء الله .



.....
(١) وأول تلك الملحمة :

أماً الأرض يا محمد نورا .. واغمر الناس حكمة والدهورا

انظر ديوان مجد الإسلام ص ٣٠

(٢) عبد الحلیم المصري شاعر مصري في العصر الحديث توفي سنة ١٩٢٢ م وكريته : نسبة
إلى أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) ، وظلمها :

أفضى أبا بكر عليهم قوافيسا .. وأمطر لسان حكمة ومانيبا

انظر : عبد الحلیم المصري : بکريته المصري ص ٧ مطبعة مدرسة بني سويف الضاعفة سنة
١٩١٩ (٣) سيأتي التحريف بعبد المطلب عند الحديث عن معارضته ص ٥٧٧ من

هذه الرسالة ، وطوخته : نسبة إلى علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) وأولها :

أرى ابن الأرض أصفرها مقاما .. فهل جعل النجوم بها مراما

انظر ديوان عبد المطلب ص ٢٣٠ (٤) البارودي رائد الشعر الحديث ص ١٤٩

الاسم

معارضة شوقي

الفصل الأول : شوق من مولده إلى وفاته

الفصل الثاني : دراسة وتحليل
نهج البردة

الفصل الثالث : قيمة معارضة
شوقي

الفصل الأول

شوقي من مولده إلى وفاته

بعدما تحدثت عن قصيدة البارودي - كشف النخلة في مدح سيد الأمة - وتناولتها بالدراسة والتحليل، ثم بينت أثرها، سأحدث - هنا - عن (نهج البردة) لشوقي.

وشوقي هو: أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي، ولد في القاهرة سنة ١٨٦٨ (١) ، وقيل: سنة ١٨٧٠ (٢) وهذا هو الراجح (٣).

وما هو جدير بالذكر أن نسب شوقي ينتهي - من جهة أبيه - إلى الأكراد فالمرب، وإلى الأتراك من جهة أمه، إلا أن في نسبه عرقاً جركسياً من جهة جدته لأبيه، وعرقاً يونانياً من جهة جدته لأمه.

ومما يكن من شيء فالشاعر مصري المولد والنشأ والإقامة، ولذلك فحدثت عن مصر قائلاً: - إنها بلادي، وهي منسحق وسهادي، وقسوة أجدادي، وولي بها ولدان (علي وحسين ثم أمينة بعد ذلك) وولي نفسي ثراها أب وجدان، وبعض هذا تحب إلى الرجال الأوطان (٤).

ولقد نشأ الشاعر في كنف والده الذي كان يحمل أمناً للجوارك المصرية وكان في رغب من الميضي، ولما بلغ شوقي سن الرابعة أدخله أبوه مكتسب

(١) المنبى وشوقي وإبارت الشعر ص ٢٩، الإسلام في شعر شوقي ص ٤، الرافعي وحى القلم ج ٢ ص ٣٤٧ بتعليق محمد سعيد المريان مطبعة الاستقامة بصر - الطبعة الثالثة سنة ١٩٥١.

(٢) الدكتور طاهر حسن: أحمد شوقي ص ٨، طبعة دار الكتاب العربي بصر سنة ١٩٦٩ - الدكتور طه وادي مختارات من شعر أمير الشعراء أحمد شوقي ص ٩٥، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٢.

(٣) لأنه موافق ما في شهادة الميلاد: انظر أحمد شوقي تمام ص ٩، وكذلك موافق ما في شهادة الليسانس التي نالها من باريس في الحقوق. انظر مختارات من شعر أمير الشعراء ص ٩٥.

(٤) الدكتور: محمد صبري: الشوقيات المجهولة ص وما بعدها، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٦١.

الشيخ صالح ثم أدخله المدرسة الابتدائية ، فالثانوية ، وكان متفوقا فسي
دراسته على الرغم من صغر سنه .

وبعدما انتهى من دراسته في المرحلة الثانوية ، دخل مدرسة الحقوق
وكتب بها سنتين ، ثم التحق بقسم الترجمة الذي أنشئ في المدرسة نفسها
وكتب به عامين أيضا ، ولما نال الإجازة أرسله الخديوي توفيق في بعثته
إلى فرنسا لكي يدرس الحقوق والآداب الفرنسية ، فسافر سنة ١٨٨٧ ، وقضى
في فرنسا أربع سنوات نال خلالها إجازة الحقوق ، ثم عاد إلى مصر سنة
١٨٩١ ، بعد أن تشبع ذوقه وعقله بحضارة الفرنسيين ، وثقافتهم ، وأدبهم ،
وكان يتقن في ذلك الوقت ثلاث لغات ، هي : العربية والتركية
والفرنسية .

ولقد ألحقه الخديوي بحاشيته ، وكان يكلفه ببعض المهام الرسمية ، ومن
ذلك أنه أوفده لتمثيل مصر في مؤتمر المستشرقين المنعقد (بجنيف) سنة
١٨٩٤ ، والجدير بالذكر أنه أنشد في ذلك المؤتمر قصيدته التي مطلعها (١) :

همت الفلك واحتواها الماء . . . وحداها بمن ثقل الرجاء

وانتهز فرصة وجوده في تلك البلاد الجميلة ، فتنقل بين مدنها متمتعا
بمناظرها الرائحة ، ثم غادرها بعد انتهاء المؤتمر إلى (بلجيكا) فسزار
بعض مدنها الكبرى ، ورجع إلى وطنه وعمله .

وصار شوقي شاعر القصر ، وأطلق عليه شاعر المميز ، وقد تخفى بذلك
في قوله (٢) :

شاعر العزيز وما . . . بالقليل ذا اللقب

ثم تدرج في عدة مناصب حتى تولى رئاسة (القلم الإفونجى) .

ولما مات الخديوي توفيق ، وتولى المرش بعده ابنه الخديوي عباس زاد
في إكرام شوقي وتقريبه ، فجعله أئيس مجلسه ، ورفيق رحلته ، فوق أنه شاعره ،

(١) الشوفيات ج ١ ص ١ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٨ .

فأصبح سموع الكلمة ، مجاب الرجا ، يقصده ذوو الحاجات ، فكان لا يرد طالبا .

نفس شوقى :

وعندما اشتملت الحرب المالية الأولى سنة ١٩١٤ - وكان الخديوى عباس
يصطاف وحده فى بلاد الترك - خلمه الإنجليز ، ونصوه من الرجوع إلى مصر
- بحجة أنه تركى الهوى ، راض عما فعله الأتراك من انضمامهم فى الحروب
إلى صفوف الألمان أعداء الإنجليز (١) - كما اضطهدهوا كثيرا من الوطنيين
وشردوا المقربين إلى الخديوى عباس ومنهم شاعره (شوقى) فأبعد عن مصر
سنة ١٩١٥ بعد أن اختار (برشلونة) ببلاد الأندلس مستقرا له (٢) ، وهناك
عانى شدة الضربة والآسها ، والوحدة ووحشتها ، ولكن نفيه كان أحسن حالا
من نفس البارودى ، إذ كانت مدته خمس سنوات تقريبا ، كما أن بسلاطه
الأندلس أحسن حالا من (سرنديب) إذ كانت بها الآثار المصرية والإسلامية (٣) ،
بالإضافة إلى أن الشاعر قد صحب معه أولاده وزوجته وهذا يخفف أثر
الضربة ، ولوحة الجحد ، أما البارودى فكان - كما سبق - وحيدا فى منفاه
الذى استمر ما يقرب من سبعة عشر عاما . (٤)

ولعل ما يروى راحة شوقى فى منفاه بضمف الشىء قوله : " ثم كفت
على قراخ كتب الأدب المرسى فى غير أوقات النزهة ، ومشاهدة السموات
فأستوعب منها ما لم أكن قد أستوعبته ، وطالمتها كلها حتى أئاد أقول : إنه
ليس فى الأدب المرسى ، كتاب لكبار الأدباء ، لم أستوعبه فى خلال السنين
الخمس التى عشتها بأسيانها . . . وقد ساعدتنى فى ذلك طبيعة الجسر
اللطيف الذى يشبه جو الإسكندرية ، وجمال المناظر التى تحاكي الآستانسة
فى رشاقتها ونظامها ، وهذا إلى أخلاق الأهالى التى تميل إلى الأخلاق
الشرقية المصرية ، مما جعل بنى وبينهم ألفة حسنة شمعت لئلاها بأنى بيوت
أبناء وطن واحد ، لا سيما أن هناك من العائلات الراقية من تفتخر
بأنها من أصل عربى ، وتتسبب إلى بنى أمية . . . فى هذا الجو ونفسى ذاك

(١) المتنبى وشوقى وإهارة الشعر ص ٤٠ .

(٢) أحمد شوقى ص ٩٨ ومابعدها .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٩ ومابعدها .

(٤) انظر ص ٣٤٣ ومابعدها من هذه الرسالة .

الوسط نشأت نشأة أخرى في الأدب النوبسي ، واستأنفت دراستي له يمناية
واهتمام ، وشغرت على رياضة الذهن في ثمرات القرائح العربية مشهورها
ومنظومها ، فحصلت عنها على ثروة لم أفتز بها من قبل . . . (١)

ولقد بدأ شوقي يعطى أولاده دروسا في اللغة العربية . . . ثم شرع
في تعلم اللغة الأسبانية ، وقد تعلمها فعلا ، ولكن نطقه لها لم يكن
سليما (٢) .

وسع أن جورأسبانيا كان قريبا من جو الإسكندرية - كما قال شوقي -
إلا أنه أحس بلوعة البعد عن مصر وأهلها ، واشتد شوقه إليها وإلى نيلها .
ولذلك بحث إلى شاعر النيل (حافظ إبراهيم) بأبيات ثلاثة يقول فيها (٣) :

يا ساكني مصر أنا لا نزال على
عهد الوفاء وإن غننا مقيمنا
هلا يحتم لنا من ما نهركم
شيئا نيل به أحشاء صاديننا
كل المناهل بعد النيل آسنة
ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

عودة شوقي إلى مصر :

ومهما يكن من شيء فلقد ظل شوقي في بلاد الأندلس حتى سمح له
بالمودة في نهاية سنة ١٩١٩ (٤) ، ففرح فرحا كبيرا ، ولعل ما يؤكد ذلك
أنه عندما وصل إلى أرض الوطن سنة ١٩٢٠ حياه بقصيدة طويلة ومنها
قوله : (٥)

-
- (١) طاهر الطناحي : صور وظلال من حياة شوقي وحافظ ص ٨٦ بتصرف مطبعة دار
النهال سنة ١٩٦٧ .
(٢) أحمد شوقي ص ١٠٢ .
(٣) ديوان حافظ ص ١ ص ١٣٦ .
(٤) أحمد شوقي ص ١١٥ .
(٥) الشوقيات ج ١ ص ٥٦ .

وياوطنى لقيشك بعد يــــأس
كأنسى قد لقيت بك الشبابا
وكل مسافر سيؤوب يومــــا
إذا رزق السلامة والإيابا

ولقد كان في استقبال شوقي عدد كبير من الناس وطى رأسهم كثير من
الشعراء والأدباء ، فانفعل انفعالا شديدا ، وتأثر تأثرا كبيرا ، وهو يسمع
ويرى هذا القبح من الشاعر فأحس أنه يخلق من جديد .

عاد شوقي ولم يمد أميره ، فوجد باب القصر مغلقا أمامه ، كما وجد
أن مصر قد تخيرت ، وأن الثورة الوطنية قد شبت ، وأن الحركة القومية
قد اندثقت ولانتهى في حاجة إلى الصوت القوي الذي ينطق باسمها ، ويمبر
عن قضاياها ، ويصور آمالها ، فتحول شوقي من شاعر الأمير إلى شاعر الشعب ،
فصور آماله وآلامه ، ومن ذلك حديثه عن الدستور في قوله (١) :

تطالب بالحق في أمة ••• جري دمها دونه وانتشر
ولم تغتخر بأساطيلها ••• ولكن بدستورها تفتخر

وحديثه عن الجلاء (٢) :

والله ما دون الجلاء يومه ••• يوم تسميه الكنانة عيدا

والجدير بالذكر أن الشاعر لم يتحدث عن مصر وحدها ، كيف والوطن المصري
جسم واحد ، فكان يخلق هنا وهناك ، ويصل صوت البلبل إلى كل بيت عربي ،
ويفرح تارة بخير يتحقق ، ويبكى تارة أخرى إذا ألم خطب ، أو نزل بلاء ، ومن
ذلك قصيدته في نكبة دمشق التي مطلعها (٣) :

سلام من صبا (بردى) أرقى ••• ودمع لا يكفكف يا دمشق (٤)

(١) المرجع السابق ج ١ ص ١٦٥

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٢٧

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٨٨

(٤) (بردى) : بفتحين مع القصر - نهر يمر بدمشق .

تكريم شوقسى :

ولقد تجلت عبقرية شوقسى بمدى عودته من المنفى ، وطلع على الناس بعينها
أنضج أفكاره ، وأصفى قريحته ، وأقوى شاعريته - ولعل ذلك بسبب كثرة مشاهدته
وزيادة تجاربه ، ووفرة اطلاعه على الآداب الشرقية والغربية كما سيأتى - ولمع
نجمه ، لا فى سماء مصر وحدها ، بل فى سماء الوطن العربي كله ، ولذلك
اكتفت كلمة البلاد العربية ، على أنه أمير شعرائها ، ولم يكتفوا بترديد هجسها
صيحات متفرقة فى بلدان المروية ، بل سجلوها فى إجماع رائع على لسان
وفودهم التى اجتمعت بالقاهرة سنة ١٩٢٧ ، وأعطوا زعامة شوقسى الشمرية ، وبهايمته
أميرا على الشعراء (١) ، ووقف حافظ إبراهيم يملن ذلك بقوله (٢) :

أمير القوافى قد أتيت بها يمينا

وهذى وفود الشرق قد بايمت بحى

وفاته :

وظل شوقسى - بعد مهايمته أميرا على الشعراء - يتخفى على قوشارة
الشمى حتى صعدت روحه إلى بارئها فى سنة ١٩٣٢ (٣) :

آثاره :

ولقد ترك شوقسى ثروة أدبية قيمة منها :

١- ديوانه الشوقيات (أربعة أجزاء) .

٢- ديوانه دول العرب وعظماؤهم الإسلام .

٣- أسواق الذهب (شعر) .

(١) أحمد شوقسى ص ١٥٨ وما بعدها ، حسين شوقسى : أبى شوقسى
ص ١٤٤ وما بعدها . مكتبة النهضة المصرية بمصر سنة ١٩٤٧

(٢) ديوانه ج ١ ص ٨٥ .

(٣) أحمد شوقسى ص ١٩٣ .

٤ - مسرحيات شعبية مثل : صرع كليوباترة ، وجنون ليلي ، وقمبيز ،
وعلى بك الكبير ، وحجرة ، والسبت هدى ، وغيرها .
٥ - مسرحيات شعبية مثل : أميرة الأندلس ، ولاديباس ، وورقة الآمر -
وغیرها (١) .

شاعريته :

كان شوقي شاعرا رحب الأفق ، واسع التصرف مخصب الشاعرية ، تصرف
فسي جميع فنون الشعر ، وأتى فيها بالمعجب المعجب ، ولقد عارض كبر
شعراء العربية في أروع قصائدهم ، فما كبا خياله ، ولا وهن نسجه ، ولا سقط
معناه ، أضف إلى ذلك ظهور شخصيته قوية في شعره ، الذي تلمس فيه روحه
وحسره وثقافته الواسعة ، وخياله المحلق ، وموسيقاه العذبة .

وشاعرية شوقي مدينة في صقلها بمدرة أمور منها :

كثرة قراءته شعر السابقين ، وحفظه الجيد منه وبخاصة روائع البحري وأبي
تمام والمنتبى والشريف الرضى وأبي فراس وغيرهم ، بالإضافة إلى ثقافته
الواسعة ، وبخاصة العربية والفرنسية (٢) ، وكثرة رحلاته وأسفاره إلى البلاد الأوروبية
وغيرها مثل بلجيكا ، وفرنسا ، والأندلس ، ولبنان ، وسورية ، ولا شك فسي
أن تلك الرحلات هيأت له الاطلاع على مشاهد جميلة ، ومناظر رائحة ،
وسعت خياله ، ونمت مواهبه ، كما أن عناصر جنسه - عربي ، كردي ، تركي
شركسي ، يوناني - تؤذن - كما قال بعض الكتاب - منذ أول الأمر بأن
سيكون شاعرا كبيرا ، وبخاصة أنه يجمع بين الجنسين العربي واليوناني ، اللذين
يشتهران من قديم بالشعر والشاعرية (٣) ، أضف إلى ذلك أنه أعين على الشعر
بفراغه له أربما وأربعين سنة ، غير مشترك العمل ، ولا منقسم الخاطر ، طس
سمة في الرزق ، وسطة في الجاه ، وعلو في المنزلة (٤) ، ولا تنسى تأثره

(١) انظر : مختارات من شعر أمير الشعراء ، أحمد شوقي ص ٩٨ وابعدها .

(٢) الأدب العربي المعاصر في مصر ص ١١٤ .

(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٤) وحى القلم ج ٣ ص ٣٥١ .

في أول أمره بأستاذة البارودي ، وكأنما كان هديته إلى وطنه ، إذ تمثل
طريقته تمثلا دقيقا ، وكأنما أشرب روحه . . . فإذا هو كأستاذة يطك نصيحة
اللغة وزمام التعبير بها ملكا لم يتم لشاعر في عصره ، وكأنما سخرت له قيثارة
الشمر العربي ليستخرج منها أروع الأنغام حيناً ، وأعذبها حيناً آخر .^(١)
ولم يقف عند ذلك الحد بل حاول أن يفوق أستاذة ، " وأن يحوز نصيب
المهوق في الشمر التمثيلي ، فأخذ ينشر مسرحياته . . . وذلك عرب هذا
الفن الجديد لأول مرة في تاريخ شمرنا الحديث . . . " ^(٢) ، ما جمل
بعض الكتاب بقوله : ^(٣) :

" هذا هو الرجل الذي يخيل إلى أن مصر اختارته دون أهلها
جميعا لتضع فيه روحها المتكلم ، فأوجبت له ما لم توجب لغيره ، وأعطته
بما لم يتفق لسواه ، ووهبته من القدرة والتكين وأسباب الرياسة وخصائصها . . .
فأصبحت مصر به سيدة العالم العربي في الشمر . . . "

وإذا كان شمره قبل نفسه قد قيد بقيود القصر الذي كان يمشي
فيه ، والخديوي الذي كان تابعا له ، فإن شمره بعد نفسه قد تحرر من
كل قيد فأضحى قوى الصوت ، وطويل النفس ، شجي النغم ، صادق العاطفة ،
معبرا عن آمال الشعب ^(٤) .

هذا عن شمره بجماعة ، أما عن شمره الديني ^(٥) - بخاتمة - فسهل
الأسلوب ، واضح المعاني ، يتألف من قصائد ومقطعات ، وأبيات منتسبة
اقتضاهما المقام ، ودعا إليها تشعب النهج في بعض القصائد ^(٦) ، وبعض أفكار
هذا اللون من الشمر تدور حول مناجاته ربه ، وتضرعه إليه ^(٧) :

(١) البارودي رائد الشمر الحديث ص ١٧١ . (٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٣) وحى القلم ج ٣ ص ٣٤٤ بتصرف . (٤) الأدب العربي المعاصر في مصر

ص ١١٧ بتصرف .

(٥) أفرد الحديث عن شمر شوقي الديني لصكته بموضوع الرسالة .

(٦) الدين والأخلاق في شعر شوقي ص ٢٧ .

(٧) الشوقيات ج ١ ص ٢٢٤ .

سبحانك اللهم خير معلّم
علمت بالقلم القرون الأولى
أخرجت هذا العقل من ظلماته
وهديته النور المبين سبيلا
وإيمانه بقضائه وقدره (١) :

سبحان من لا عز إلا عزه
يقتى ولم يك ملكه ليزولا
لا تستطيع النفس في ملكوته
إلا رضا بقضائه وقبولا
وسليمه بأن الموت نهاية كل حي ، وإشارته إلى أن بعد الموت
بيتنا (٢) :

منة الله في العباد وأمير
ناطق عن بقائه لن يردا
وإلى الله ترجع النفس يومنا
صدق الله والتبريون وميسرنا

ومن شعره الديني : مدائح النبوة ، التي بلغت أوسع قصائد تقريبنا
بإضافة إلى بعض الأبيات التي وردت في ديوانه (دول العرب وعظماء الإسلام) (٣)
وفي بعض القصائد الأخرى مثل مرحبا بالهائل (٤) ،
فالقصيدة الأولى بلغت أبياتها تسعة (تسمين بيتنا بعنوان (ذكرى المولد)
ومطلعها (٥) :
به هجر يقيمسه . . . كالأجفنيك يعلسه (٦)

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٢١٥ . (٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٢٤ .
(٣) انظر ، أحمد شوقي : دول العرب وعظماء الإسلام ص ٢٢ وما بعدها مطبعة - مصر
سنة ١٩٢٣ . (٤) الشوقيات ج ١ ص ٢٣١ وما بعدها .
(٥) أحمد شوقي : كرمة ابن هاني ، نشر توفيق الرفاعي ص ٧ وما بعدها مطبعة المعاهد
بمصر سنة ١٩٢٣ . (٦) في الشوقيات ج ٢ ص ١٧٠ (به سحر . .) ويلاحظ أن أبيات
الفضل هي المذكورة فقط في الشوقيات .

ومنها في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) (١) :

تبارك من به أسرى . . . وجعل الله كرمه
يريه بيته الأخصى . . . وظلمه وملمه

والقصيدة الثانية ، بلغت أبياتها واحداً وسبعين بيتاً ، وحوانها (ذكرى
المولد) ومطلعها (٢) :

سلموا قلبي غداة سلاوتابا . . . لعل على الجمال له عابا

ومنها في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) (٣) :

أبا الزهراء قد جاوزت قدرى بمدحك بيد أن لي انتسابا
فما عرف البلاقة ذوبيسان إذا لم يتخذك له كتابا
مدحت المالكين فزدت قدرا فحين مدحتك اقتدت السحابا

والقصيدة الثالثة : حوانها (الهزيمة النبوية) وبلغ عدد أبياتها واحداً وثلاثين
وهائة بيت ومطلعها (٤) :

ولد الهدى فالكائنات ضياء

وفم الزمان تسم وثيا

ومنها في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) (٥) :

يامن له الأخلاق ما تهوى الملا

منها وما يتمشق الكبراء

لو لم تقم ديننا ، لقامت وحدها

دينا تضيء بنوره الأنساء

وأما القصيدة الرابعة : فهي (نهج البردة) التي عارض بها شوقي برودة
البوصيري ، وهي التي سأقف معها بالدراسة والتحليل في الفصل الثاني إن شاء
الله تعالى .

(١) كرمة ابن هاني ، ص ٧٤ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٦٢ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٢٣ .

(٤) الشوقيات ج ١ ص ٥٩ .

(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٢١ .

الفصل الثاني

دراسة وتحليل : نهج البردة

لقد تحدثت عن حياة شوقي وشاعريته ، ثم ألقيت الضوء على شعره بحماسة ، وشعره الديني بخاصة ، وذكرت أن من شعره الديني مدائح النبوة التي بلغ عدد قصائدها أربع قصائد تقريبا ، بالإضافة إلى بعض الأبيات المشهورة في قصائد أخرى من نظومة في مناسبات مختلفة .

وإذا كنت قد تحدثت عن ثلاث قصائد من هذه القصائد الأربع ، فسوف أتحدث هنا عن القصيدة الرابعة وهي (نهج البردة) التي بلغ عدد أبياتها تسعين ومائة بيت ، ولا يخفى أنني أفردت الحديث عنها لأنها من معارضات بردة البوصيري ، إذ هو من بحر البسيط ، وروياها مكمورة ، وأفكارها تدور حول مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

سبب نظمها :

ولقد نظم شوقي هذه القصيدة بمناسبة عودة الخديوي عباس حلمي الثاني من الأراضي الحجازية بعد أداءه فريضة الحج ، وقد أهداها الشاعر إلى الخديوي قائلا :

" الملوك المعظم مولانا الحاج عباس حلمي الثاني .
" مولاي " - رأى الله لهذا العبد الخاضع ، شاعر بيتك الكريم أن يمشى بنور العلم الفرد للمنفور له (البوصيري) صاحب القصيدة الشهيرة (بالبردة) في مدح خير الأنام (عليه الصلاة والسلام) ، فنظمت هذه الكلمة التي أسأل الله ، وأرجو من رسوله قبولها ، وجعلها يامولاي لحجرتك المسبورة (تذكارها - ١٣٢٧) كلما تناقل الناس أخبارها " - " عبدكم شوقي (١) .

وقد تفضل مولانا الأستاذ الأكبر - شيخ الجامع الأزهر - الشيخ

(١) كريمة ابن طائي ، ص ٣٢٠ .

سلم البشرى^(١) ، فتكفل بشرحها للناس ، فدخلت البركة على أبياتها
من كل مكان ، وحسن قبولها من الملك نهاية الإبداع والإحسان^(٢) .

هذا هو سبب نظم شوقي (نهج البردة) وتاريخ ذلك النظم كما
ذكره الشاعر نفسه ، إلا أن بعض الكتاب ذكروا أن الشاعر قد نظم تلك القصيدة
لتكون بمثابة اعتذار لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بسبب هروبه من أداء
فريضة الحج مع الخديوي عباس ، الذي خرج لحج بيت الله الحرام وصحبه
معه ، ولكنه كان يخشى كثيرا من متاعب الطريق وركوب الإبل والسير في صحارى
العرب ، كما أنه كان يعلم أن الخديوي لن يقبل عذره إذا اعتذر إليه ، فتظاهر
بالرضا والاستعداد للسفر معه ، ولما وصل ركب الخديوي إلى مدينة (بنها)
- عاصمة محافظة القليوبية الآن - انفلت منه واختبأ في دار صديق له
بها ، وأخذ الخديوي يبحث عنه ، فلم يحضر عليه ، ولم يعرف مكانه ، فواصل
الركب سيره إلى الأراضى الحجازية ، ولكن الشاعر نظم على فعلته^(٣) .

وبهذا الرأي وجهه ، ولعل ما يقويه أن الشاعر لم يشر في قصيدته
إلى الخديوي عباس ، ولو بهيت ولحده ، ولو كان - الذي دفعه إلى نظمها
هو حج الخديوي لهناه فيها بالحج ، أو أشار إليه ، كما فعل نفسه
قصيدته (إلى عرفات) ومظلمها^(٤) :

إلى (عرفات) الله يا ابن محمد

عليك سلام الله في عرفات^(٥)

(١) هو الشيخ سليم بن أبي فراج بن سليم البشرى - تعلم بالأزهر ، وتدرج في عدة
مناصب إلى أن تولى مشيخة الجامع الأزهر ، توفي سنة ١٩١٧ (الأعلام ج ٢ ص
١٨٠) . وقد اطلعت على شرحه (نهج البردة) الذي أطلق عليه (توضيح
النهج) ويقع في مائة صفحة من الحجم المتوسط تقريبا ، وتوجد نسخة منه في
قصر الثقافة بطنطا ، وليس عليه اسم المطبعة ولا سنة الطبع وهو شرح مبسوط ،
سهل الصبارة ، لطيف الإشارة وقد انتفعت به ، وزدت عليه ما تطلبه القيام
من دراسة وتحليل وموازنة ، وقد شكك الدكتور زكي مارك في نسبة هذا الشرح
للشيخ سليم ونسبه إلى ابنه الشيخ (عبد العزيز البشرى المتوفى سنة ١٩٤٣) -

الموازنة بين الشعراء ص ١٨٢ . (٢) الدين والأخلاق في شعر شوقي ص ٣٢ .
(٣) أحمد التاجي : (أحمد شوقي) - قصص أبطال العرب - ص ١٢ وما بعدها
مطبعة الحلبي (غير مؤرخ) . (٤) عرفات : المراد الجبل الذي يقف عليه
الحسجاج على مقربة من مكة - ابن محمد : المراد به الخديوي عباس .

ومهما يكن من شيء، فلقد بدأ الشاعر قصيدته (نسيج السجدة) بقوله (١) :

رسم على القاع بين البان والملم
أحمل سفك دمي في الأشهر الحرم (٢)
رعى القضاء بعيني جؤدر أسدا
ياساكن القاع أدرك ساكن الأجم (٣)
لما رنا حدثتني النفس قاطمة
يا وضح جنبك بالسهم المصيب رمي (٤)
جحدتها ، وكمت السهم في كبدي
جرح الأعبة عندي غير ذي السهم

بدأ شوقي قصيدته بنقل تقليدي ، أشار فيه إلى أن محبوبته قد أحلت سفك دمه في الأشهر الحرم - التي كان محرما فيها القتال ، صونسا للدماء - عندما وجهت سهام عينيها إليه .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين جمال محبوبته الذي أسره ، فشبها بأول الأمر بالرهم ، ثم شهبها - ثانيا بالجوهر دلالة على جمال عينيها ، واتساعها ، ويبدو أنه قصد من وراء ذلك التشبيه تأكيد جمال محبوبته والمخالاة فيه ، حتى يرفق به غيره ، فلا يلومه ولا يعذله ، ولعل ما يؤكد ذلك قوله : (رعى القضاء) فما دام الأمر أمر القضاء فلا مجال للمعدل وللوم .

وعجيب أمر هذا الشاعر الذي شبه نفسه بالأسد ، ثم يستجد بولسه البقرة الوحشية (يسا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم) ، ولعل المراد هنا أنه يطلب - باستمطاف - نظرة حب وعطف من محبوبته ، ولذلك قال :

(لما رنا حدثتني النفس . .)

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٠ .
(٢) رسم : أصله (رغم) فخفف بقلب الهمزة ياء ، وهي الظبي الخالص البياض . القاع : الأرض السهلة السطوثة .
(٣) جؤدر : ولد البقرة الوحشية .
(٤) رنا : - بفتح أوله - أم النظر مع سكون الطرف .

ولقد أدامت محبته نظرها إليه ، فأسرته ، واستولت على لبه ، بكل
أصابت كده ، إلا أن المحب من شرطه الكتمان ، ولذلك جعد شوق جراحه
وكتم آلامه - (جعدتها ، وكتمت السهم في كبدى ٠٠) ثم أتى بحكمة
صادقة ، وقول يجرى مجرى العسل في عالم المحبين (جرح الأحياء عندي غير
ذى ألم) ويبدو أنه نظر في ذلك إلى الشطر الثاني من قول المتنبي (١) :

إن كان سرهم ما قال حاسداً : (فما لجرح إذا أرضا كوا لم)

ومع أن الفاظ الشاعر سهلة ، وبهارته واضحة ، إلا أنني أرى أن قوله :
(يا صبح جنبك ٠٠) غير مناسب للمقام ، إذ لا معنى لإصابة (الجنب) نفس
مقام الحب ، وكذلك لا معنى لإصابة (الكبد) في المقام نفسه ، فلا الجنب
ولا الكبد محلان للحب والتألم بسببه - حتى لو كان ذلك على سبيل المجاز
ولو آمنه الشاعر ذلك إلى (القلب) لكان أولى ، كما أن لفظ (رنا ٠٠) أتى
به شوق إشارة إلى أن (محبته قد أدامت نظرها إليه) ولا أدري ذلك
مدح أم ذم ، لأن دوام النظر يوحي بعدم الحياء .

ويبدو أن الشاعر قد جرد من نفسه شخصاً يقف معه فقال له (٢) :

رزقت أسح ما في الناس من خلق

إذا رزقت الناس المذرف في الشيم

يا لئى في هواه ، والمهوى قسدر

لو شفاك الوجد لم تعذل ولم تلم (٣)

لقد انطقك أدنا غير زاهية

وب منتصت والقلب في صمم (٤)

ولما قال شوقي : (جرح الأحياء عندي غير ذى ألم) ، كان في هذا

(١) ديوانه (بشرح المكبري) ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٠ .

(٣) شفاك الوجد : أنحل جسمك .

(٤) انتصت : سكنت سكوت صمت .

القول تصريح بحبه ، فتوقع الشاعر أن يلومه اللائمون على هذا الحب فهدد
لذلك بقوله : (رزقت أسح ما نى الناس من خلق ..) فإذا كان من طبعك
التماس الأعداء للناس فقد رزقت خلقا كريما .

ويبدو أن ذلك القول لم يصرف اللائم عن لومه ، فقال الشاعر : (يالائى
فى هواه ..) الذى قدره الله على ، لو ذقت طعم الهوى ، وأضناك الجوى
ما لحنى ذلك اللوم ، الذى لا أثر له عندى ، لأننى سمعته بأذنى ، وانصرفت
عنه بقللى .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (رزقت ..) حضا على الاتصاف بتلك
الصفة ، وإذا كان قد نظر فى قوله : (يالائى فى هواه ..) إلى قول
البوصيرى : (يالائى فى الهوى العذرى معذرة ..) فإنه قد أشار إشارة لطيفة
إلى أنه لا مسئولية له عن هذا الحب ، لأن (الهوى قدر) ، كما أنه نظر
فى قوله : (لقد أثلتك أذنا ..) إلى قول البوصيرى : (محضنى النصح
لكن لست أسمعه ..) وإن كان قد أتى بحكمة صادقة فى قوله : (ورب منتصت
والقلب فى صم) ، ولا يخفى أثر الطباق فى قوله : (منتصت وصم) إذ أشار
الحس ، وحرك النفس .

ثم خاطب الشاعر محسونه بقوله (١) :

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبدا

أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فم (٢)

أفديك ألنا ولا ألو الخيال فدى

أغواك بالبخل من أغراء بالكسرم (٣)

سرى فصادف جرحا داما فأصا

ورب فضل على المشاق للحلم (٤)

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٠ وما بعدها .

(٢) الناعس : الوسنان .

(٣) أغر : المراد به هنا التقصير والضعف .

(٤) أسا الجرح يأسوه : داواه .

يخاطب الشاعر محبوبته ، مضميا لها السلامة من الهوى حتى لا ينالها ما
نال من النصب والأرق ، ثم جعل نفسه ندا لها ، بل ولخيالها ، ثم أشار
إلى أن محبوبته بخيلة ، لأنها لا تزوره ، أما خيالها فكريم ، لأنه يزوره ، وبأسو
جراح قلبه التي أدامها غيباب محبوبته عنه ، وشوقه إليها .

ولا يخفى ما في الأبيات من دلالة على عناية الشاعر بمحبوبته مشبلا :
(٠٠ لا ذقت الهوى أبدا ٠٠) و (أفديك ألفا ولا آلو الخيال فدى ٠٠) ، كما
أن في الأبيات ما يدل على أثر الحب في نفس الشاعر وحاله ، مثل : (أسهرت
مضناك ٠٠) و (صادف جرحا دائما فأسا ٠٠) .

ولقد اشتغلت الأبيات على بعض المحسنات البديعية مثل : (الطباق)
بين قوله : (أسهرت) وقوله : (فم) ولا يخفى أثره في بيان حالة الشاعر
وحرصه على راحة محبوبته ، ومثل التكرار والطاق في قوله : (أغراك بالخسل
من أغراه بالكرم) وفي ذلك بيان ما عليه محبوبته من تمتع ، وهو محبوب بالنسبة
للنساء ، أما طيفها فيزوره كثيرا ، ولا أدري كيف يأسو ذلك الطيف جرح الشاعر ،
وكان حقه أن يزيده شوقا إلى محبوبته ، فتزداد آلامه ، وتشتد فله ، مشبلا
عمر بن أبي ربيعة الذي يقول (١) :

إن طيف الخيال حين الما

هناج لى ذكره وأحدث هجا

ولكن يبدو أن هناك بعض المحبين الذين يتسلون بطيف محبوباتهم ،
ويرون أن ذلك الطيف يخفف عنهم نباريح الهوى ، ولواعج البعد .
ولذلك قال الشاعر : (ورب فضل على العشاق للحلم) ولعل في تصديره
بلفظ (رب) ما يدل على قلة ذلك النوع من العشاق .
ويبدو أن الشاعر كان يحب أكثر من واحدة ، ويشير إلى ذلك قوله (٢) :

(١) ديوانه ص ٥٢٢ .

(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٤١ .

- من الموائس باننا بالرسي وقفا
اللاعيات بروحي ه السافحات لعمى (١)
السافرات كأمثال البدو ضحى
يفرون شمس الضحى بالخلى والعصم (٢)
القائلات بأجفان بها سقم
وللمنية أسباب من السقم
العائرات بالسباب الرجال وسما
أقلن من عنترات الدل فى الرسم (٣)
الضربات خدودا أسفرت وجلست
عن فتنة تعلم الأكباد للضرم

إن هذه المحبوبة كانت مع ترائبها من المتبخترات فى مشيتها ه القائلات
بجمالهن ه اللاتى لعين بروج الشاعر ه سفكن دمه ه وكانت وجوههن كالبدور ه
بل إن الشمس كانت تغير من جمالهن ه كما كانت أجفانهن مؤثرات ه ويقع
حبهن فى قلوب الرجال ه وخذودهن حمر ه ولا يسلم من يراها من الفتنة بها ه
وإذا تأملت هذه الأبيات وجدتها تشير إلى جمال هؤلاء المحبوبات ه
وهجيب أمر شوقى فى حبهن ه والملاحظ أنه بالغ فى وصف محاسنهن ه وبسبب
أنه نسى أن القصيدة فى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولا يلوق أن تصدر
بمثل هذا الوصف ه كما أشير إلى ذلك فى شرحنا لشرحنا ومنهم ابن حجة الحموى (٤)

- (١) الموائس : جمع مائسة - وهى المتبخترة ه السافحات : السافكات ه
(٢) السافرات : جمع سافرة ويقال أسفرت المرأة إذا كشفت عن وجهها ه الحلى :
بفتح الحاء وسكون اللام - ما تتزين به المرأة من مصوغ المعادن وكريم
الأحجار ه العصم - بكسر ففتح جمع عصمة - أى القلادة ه
(٣) العائرات : جمع عائرة - من العثرة وهى الزلة والسقطة والمراد الواقعات
حبهن فى قلوب الرجال ه الدل : بفتح الدال - قريب المعنى من
الهدى وهما من السكنة والوقار فى الهيئة والمنظر والشامل وغير ذلك ه
(٤) خزائنة الأدب ص ٤١ ، حيث يقول : " إن الفزل الذى يصدر به المديح النبوى
يتميم على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب ه وطرخ محاسن المرء والتفزل
فى ثقل الأرداف ه ودقة الخصر ه وبياض الساق وحمرة الخد ه وما أشبه ذلك "

وسبها يكن من شيء فقله : (من المواضع باننا بالرئيس وقتنا ٠٠) يشير
إلى حسن قوامهن ، ولطافة قدودهن ، إلا أن قوله : (المانحات دمسي)
- وإن دل على مدى أثرهن في قلب الشاعر - يشير من أول وهلة إلى
شراستهن .

ويبدو أن الشاعر نسي أن البدور لا تكون إلا في الليل ، عندما قال :
(كأمثال البدور ضحى ٠٠) ، وأما قوله : (يخرن شمس الضحى بالحلسي
والمصم) فيشير إلى جمالهن المجلوب ، ولو كان جمالهن طبعيا لما احتجن
إلى (الحلى والمصم) غالبا .

ولعل ما يؤكد ذلك قوله : (الضويات خدودها أسفرت وجلت ٠٠) إذ ذلك
يشير إلى أنهن يخرن من خدودهن بما يصفه من ساحيق وغيرها مثلا ، وهذا
المعنى ما يفهم من تعبير الشاعر باسم الفاعل (المضمرات ٠٠) ، أضف إلى ذلك
أن قوله : (العائرات بألباب الرجال ٠٠) يشير إلى كثرة انكشافهن على
الرجال ، ويبدو أن الشاعر يصف وصفات القصور ، لآريات الخدود (١) وقد
أعجب بعض الكتاب بتلك الأوصاف ، ومنهم الدكتور زكي مبارك الذي قال عنها :
وهذه القطعة من البيان المشرق الجميل ، وأستطع منها قوله : (العائرات
بألباب الرجال ٠٠) فقد جعلهن يمشين على القلوب فيمشرن بقلب بحد قلب
وإن لم يسلمن من عثرات الدلال ، وعن يتمخطن في الضحى وعند الأصيل (١)
ولكن وجهة هو مولوها .

ولم يكف شوقى بذلك الوصف بل أضاف إليه قوله (٧) :

الحاملات لواء الحسن مختلفا

أشكاله وهو فرد فير منقسم

من بيضاء أو سمرًا زينتنا

للعين والحسن في الآرام كالصم (٨)

(١) الموازنة بين السمرات ص ١٩٣ ، بتصوف

(٧) الشوقيات ج ١ ص ٢٤١ .

(٨) الآرام : جمع رثم . المصم : جمع أصم وهو طافية (المصمة) - بضم العين -
وهي بياض اليديين ، والمصما : من المعز - البيضاء - الذراعين وسائرهما أسود
أو أحمر .

يرعن للبصر السامى ، ومن عجب

(١) إذا أشرن أشرن الليث بالعمم

وضمت خدى وقسمت الفؤاد ريسى

(٢) يرتعن فى كثر منه وفى أكرم

إنهن جميلات ، مع اختلاف أوصافهن ، وتعدد أشكالهن ، ومن عجيب
أبرهن أنهن يفزغن إذا نظر إليهن أحد ، وإذا أشرن إلى الليث أسرته ،
ما جعل الشاعر يستسلم لهن ، ويفتح قلبه لهن كلهن ، يرتعن فيه كما
يحببن .

ولا يخفى أن فوقوله : (الحاملات لواء الحسن) تشخيصا للحسن ، كما
أن فى حطهن لواء ، كناية لطيفة تشير إلى شدة حسنهن .

ولقد بين شوقى الإجمال فى قوله : (مختلفا أشكاله) بقوله : (من
كل بيضاء) ، وفى قوله : (يرعن للبصر السامى) إشارة إلى حياشيهن
وخفرهن ، كما قال بعض الكتاب (٣) ، ولا يخفى ما فى قوله : (إذا أشرن أشرن
الليث بالعمم) من شدة تأثيره ، القاتات ولمله يقصد بالليث نفسه ، ويقويه
قوله السابق : (رعى القضاء بمعنى جود رأسا) ولقد اشتملت تلك العبارة على
جناس ناقص بين قوله (أشرن وأسرن) وفيه إشارة بالإضافة إلى ما سبق - إلى
سرعة التأثير ، وضف ذلك الأسد الذى يؤسر بإشارة أصعب ، وما يؤكد ذلك
الضعف قول الشاعر : (وضمت خدى) لأن ذلك كناية عن الاستسلام
والخضوع .

ثم عاد الشاعر إلى مخاطبة محبوبته الأولى بقوله : (٤)

يا بنت ذى اللبد المحمى جانبه

(٥) ألقاك فى الشاب أم ألقاك فى الأطم

(١) يرعن : بضم اليا - وفتح الراء - يخفن .

(٢) الكثر : - بضم تين - جمع كئاس - بكسر ففتح - وهو مستقر الظباء فى الشجر .

(٣) الموازنة بين الشعراء ص ١٩٣ .

(٤) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٢ .

(٥) اللبد : بكسر اللام مشددة وفتح الباء - جمع لبدة وهى الشعر المتراب بين كتفى

الأسد .

ما كنت أطمح حتى من سكنته
أن المنى والنابا ضرب الخيم (١)
من أنبت الفصن من صمامة ذكر
وأخرج الريم من ضوطاة قسوم
بيوتى وينك من سر القنا حبيب
ومثهاقة عذرة المصم
لم أغش مفناك إلا فى ضون كسرى
مفناك أهدد للمشتاق من إرم (٢)

يخاطب الشاعر محبوبته ومدح أبائها بشجاعته وقوة بأسه ، ثم يسألها :
أيلقاها فى الناب - سكن الأسود مثل أبيها - أم يلقاها فى القصر - حيث
تسزل الفاتنات من أمثالها - ؟ ويبدو أنه ذهب للقاءها فى بيوتها ، ولكنه
رأى هولا وخزما ، لقد رأى أن ضاه - محبوبته - وسبب منيته فى ذلك المسكن
فأبوها شهم جرى يحس الديار وضونها ، فإذا دخل ذلك البيت ورآه -
أبوها ، فإن نهايته محتومة ، ولذلك تمجج من صنع الله الذى خلق من
الشهامة والجرأة والقوة - (الصمامة الذكر) - ، ولينا ورقة (الفصن) - يسأل
من أخرج الريم من الأسود ، ثم صرح لها بأن زيارتها قد حال دونها أمران :
الأول : ما أقامه أبوها من حراسة شديدة ، وحماية منيمة حول البيت .
الثانى : غفلة التى تزجره وتتساه عن ذلك ، ثم أكد بأنه لم ير منزلها إلا فى
الحلم ، ووجده أهدد للمشتاق من مدينة إرم .

وإذا تأملت قوله : (يابنت ذى اللبد) وجدته كناية عن الأسود ، وصنف
بها الشاعر والد محبوبته ، كما أن قوله : (أم ألقاك فى الأطم) يدل على أن
بيت محبوبته حصن منيع ، ولا يخفى ما فى جمعه بين (المنى والنابا) .

(١) : عن : - بفتح الميم وفتح النون مع تشديدها - ظهوره مضرب
الخيم : المكان الذى تقام فيه الخيمة .
(٢) لم أغش مفناك : لم آت منزلك ، وسمى مفنى : لأنه غشى به أهله .

من دلالة قوية على بعمده عن محبوبته ، وعدم القرب من منزلها ، لأن فسى
قربه منيته .

ولقد أكد الشاعر قوة أبيها ، ومضاً ، عزمه فشبهه بالسيف (صمامة ذكر)
كما شبه محبوبته بالحصن في الليونة والرقّة ، ثم زاد ذلك تأكيداً ، فشبهه
أباًها - مرة ثانية - بالأسد الشديد الشهوة إلى اللحم ، وشبه محبوبته
بالرهم ، ولا يخفى أن في البيت دلالة على قدرة الله .

وأحسن الشاعر عندما قرّب بعمده عن محبوبته بأمرين : شدة الحراس
وعفته وكنت أود أن يقدم عفته على الحراس .

ولعله أراد أن يبين بعمد ديار محبوبته فذكر أنها أبعد من إرم .

النفس والدنيا :

وانتقل الشاعر إلى تحذير نفسه - من مكر الدنيا بعمد يأسه من وصل
محبوبته فقال (١) :

يا نفس دنياك تخفى كل ميكية

(٢) وإن بدا لك منها حسن ميتم

ففى بتقواك فاهما كلما ضحككت

(٣) كما يفض أذى الرقشاء بالثرم

مخلومة منذ كان الناس خاطومة

من أول الدهر لم تروم ولم تشم

يفنى الزمان ويبقى من إسامتها

جرح بآدم بيكى منه فسى الأدم

يصط الشاعر نفسه ، ويحذرهما من حب الدنيا ، والانخداع يزخر فيها ، ولا سبيل
إلى التغلب عليها إلا بتقوى الله (سبحانه وتعالى) لأنها فتنة ، وما زال الناس

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٢ .

(٢) ميتم : المراد الابتسام أو محله وهو الثمر .

(٣) أذى الرقشاء : سمها ، الثرم : كسر السن من أصلها .

يرغبونها - أكثر ما يجب - ويركنون إليها ، ولذلك فتنتهم ، وأغرتهم بحبها ،
وجع أنها لا تدوم ، إلا أن إسماها لا تنتهي ، ولذلك فإن آدم (عليه السلام)
- وهو أول الناس خلقا - لن ينسى مكرها ، وخذاعها ، إلى آخر الزمان .

ولعل الشاعر أراد أن يشير إلى حقارة الدنيا ، فأضافها إلى ضمير
النفس في قوله : (يانفس دنياك ٠٠) ، ولا يخفى أن في قوله : (تخفى
كل مبيكة وإن بدالك منها حسن بهتم) استمارة مكنية ، توحى بتشخيص الدنيا
ومدى تفننها في غرورها وخذاعها .

كما أن في قوله : (فحى بتقواك فاهها كلما ضحكت) استمارة مكنية أيضا ،
أكدت الاستمارة المكنية السابقة ، كما بينت الطريق في علاج خداع الدنيا ،
التي شبهها الشاعر بالحية في قوله : (كما يخض أذى الرقشاء بالثوم) وفي
هذا التشبيه إيضاح وبيان المعنوي عن طريق أمر حسي ، وزاد الشاعر تشبيها
آخر يوضح حالة الدنيا ومدى الإقبال عليها ، فشبها بحروس جبيلة غسرت
الناس بجمالها ، فهم دائما يخطبونها ، وهي أيضا تخطبهم بزخرفها ، وهي
مستورة في ذلك الحال لم يمت لها ابن ، ولم تفقد لنفسها زوجا (مخلوبة منذ
كان الناس خاطبة ٠٠) .

وفي البيت الأخير إشارة إلى شدة حصية الدنيا ، وعظم بلائها (يغنى
الزمان ويبقى من إسماها ٠٠) كما فيه إشارة إلى قصة آدم (عليه السلام) حينما
أغواه إبليس بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ليكون من الخالدين في الدنيا
(جرح بآدم يبكي منه في الأدم) .

ويراد شوق وعظ نفسه بقوله (٢)

لا تحفلي بجناها أو جنائتها

الموت بالزهر مثل الموت بالفحم (٣)

(١) قصص الأنبياء ج ١ ص ١ وما بعدها .

(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٣ .

(٣) لا تحفلي : لا تهتمى ولا تكترثى - جناها : بفتح الجيم - ما يجتنى من الشجر
أو يقطف من الثمر والمراد : عطاؤها ، جنائتها : المراد ما يقع فيها من البلاء .

كم نائم لا يراها وهي ساهرة
لسولا الأمانى والأحلام لم ينم
طورا تمدك في نغمى وعافية
وتارة في قرار البؤس والجسم
كم ضللتك ومن تحجب بصيرته
إن يلقى صابا يرد أو علقما يسم (١)

يقول الشاعر لنفسه : لا تكترى بالدنيا سواء أقتك بمطاء ، أو ببلاء ،
فإنها إلى انتهاء ، وكم من الناس قد ركنوا إليها ، واطمأنوا بها ، وشغلتوا
عما يجرى فيها من العبر والمعظات ، وهي تتفنن في خداعهم ، وتسهر
على الكيد لهم ، ولولا أنها تخدعهم بالأمانى الكاذبة والأحلام الخادعة
ما ناموا ، وعجيب أمر هذه الدنيا التي تارة يكون الإنسان فيها صحيحا ممانى،
وتارة يصبح في ضروب من الشقاء والألم ، وكثيرا ما ضللتك الدنيا وفتنتك ، ومن
فتنته ، تغلب عقله فلا يستطيع تمييز الحلو من المر ، أو الضار من النافع .

إن قول الشاعر : (لا تحفلى بجناها أو جنايتها) يشير إلى عدم
الاهتمام بما يقع في هذه الدنيا من عطاء يسر ، أو بلاء يحزن ، وأحسن الشاعر
عندما جمع بين لفظي : (جناها وجنايتها) - بينهما جناس شبيه بالمشتق -
فلمس قرب اتحاد حروفهما يدل على قرب التلازم بينهما في تلك الحياة .

وأضاف الشاعر اللفظين (جناها وجنايتها) إلى ضمير يمود على الدنيا
لوقوعهما فيها .

ولعل قول شوقي (الموت بالزهر مثل الموت بالفحم) يوعد الفكسرة
السابقة ، بصورة حسية ، فالموت اختناقا بسبب شدة أريج الزهر ، كالمسوت
اختناقا بسبب شدة دخان الفحم ، فالنتيجة واحدة ، والفرق بينهما لا قيمة له ،
ولا يخفى أن قول الشاعر : (كم نائم لا يراها وهي ساهرة) يدل على كثرة
من يفتن بزخرف هذه الحياة ، ويفضل عن صائبيها ، كما أن الطباق بين قوله :
(نائم ساهرة) قد جذب الانتباه ، وبين قفلة من يخدع بالدنيا .

(١) الصاب : جمع صابة شجر مر . الملقم : الحنظل .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يوضح عدم استقرار الدنيا على حال فقال : (طورا
تسدك في نهمي وعافية ٠٠) ولا يخفى أن في إيراد الفعل (تمد) إلى ضمير
يعمود عليها مجازا علقيا يوحى بالتشخيص ، كما أن المقابلة بين قوله : (نهمي
وعافية) وقوله : (البؤس والجسم) تؤكد أن التقلب والتغيير من شيمة تلك الحياة
وهذا يتطلب عدم الانخداع بها ، والاطمئنان إليها .

ثم يخاطب الشاعر نفسه ويومئها في قوله : (كم ضللتك) أي فتنتك
الدنيا كثيرا ، ثم بين أثر تلك الفتنة ، بأنها - الدنيا - تسلب عقل من
فتنته ، وتجمله (إن يلق صابا يرد أو طعما يسم) .

ثم تحسر الشاعر على نفسه بقوله (١) :

يا ويلتاه لنفسى راعها ودهما

(٢) مسودة الصحف في مبيضة اللحم

ركضتها في مريح الممصيات وما

(٣) أخذت من حمية الطاعات للتخم

هامت على أثر اللذات تطلبها

والنفس إن يدعها داعى الصباتهم

يبدو أن الشاعر فتن بالدنيا كثيرا ، ولذلك تفجع على نفسه عندما وجد
الشيب قد حل - وهو ينذر بدنو الأجل غالبا - وصحيفة علمه قد اسودت بسبب
كثرة السامى التي اقترفها ، واللذات التي غب منها .

إن حسرة الشاعر على نفسه كبيرة ، يشير إليها قوله : (يا ويلتاه لنفسى ٠٠)
ويؤكد هذه الحسرة تلك الكناية التي في قوله : (مسودة الصحف) فهي كناية
عن كثرة الذنوب ، ويبيدها تأكيدا تلك الكناية التي في قوله : (مبيضة اللحم)

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٣ .

(٢) دها : الأصل دهاها أي أصابها .

(٣) ركضتها أصل الركض تحريك الرجل ، ويقال ركضت الفرس يركض إذا استحثته ليمدوه
والدمراد هنا مجرود إطلاق النفس وإرسالها في طريق الفوايسنة ،
مريح : خصيب .

فهو كناية عن الشيب ، ولا يخفى أثر الطباق الذي بين قوله : (مسودة
وببضة) فهو يشير إلى التناقض الكبير بين الأمرين ، وفي ذلك زيادة التفجع
على هذه النفس .

وإذا تأملت قوله : (ركضتها في مريح الممصيات ٠٠) وجدته قد اشتمل
على استعارة مكنية إذ شبه نفسه بالفوس تشبيها مضرا في النفس ، وفي ذلك
إشارة إلى كثرة استرسال تلك النفس في الماصي ، وعدم احتماؤها من شدة
المواقب بطاعة الله ، ويؤكد الشاعر ذلك بقوله : (هامت على أثر اللسنك
تطلبها ٠٠) إذ في إسناد الفعل إلى ضمير النفس مجاز عبقري ، ويوحى
بتشخيصها ، وحين مدى حرصها على تلك اللذات ، ثم أتى الشاعر بحكمة
صادقة في قوله : (والنفس إن يدعها داعي الصباتهم) وفي ذلك بيان
طبيعة النفس البشرية ، وهو متأثر في ذلك بالبصيرى - كما سيأتى نفس
باب الموازنة .

وما هو جدير بالذكر أن بعض الكتاب قال : " إن الشاعر قد زاد هاء السكت
بمد كلمة (ويلتا) فهي حالة الوصل ، والمشهور أنها لا تزد إلا في الوقف (١) " .
ولكني وجدت أن علماء اللغة قالوا : قد يمد الوصل حكم الوقف وذلك
قليل في الكلام كثير في الشعر (٢) .

علاج النفس :

ثم أشار الشاعر إلى بعض ما يصلح النفس ، ويشفيها من دائها فقال (٣) :

صلاح أمرك للأخلاق مرجعهم

فقوم النفس بالأخلاق تستقم

والنفس من هيرها في خير عافية

والنفس من شرها في مروع وهم

(١) الإسلام في شعر شوقي ص ١٢٥

(٢) منار السالك ج ٢ ص ٣٥٩

(٣) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٣

تطفى إذا مكنت من لسدة وهسوى
طفسى الجياد إذا عنت على الشكم

إن صلاح النفس في تسكها بالأخلاق الحسنة ، والصفات الحميدة ، فإذا
تسكت بذلك فإن الخير يحميها ، والمافية تحيط بها ، أما إذا مالت إلى
الأخلاق السيئة ، والصفات الذميمة ، فإن الهلاك نهايتها ، والخسران مآلها
وهي إذا تكنت من الهوى طفت وفتت ، كما يطفى الجواد إذا عنت على اللجام .

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (صلاح أمرك ..) بيان قيمة الأخلاق
الحسنة ، ويؤكد ذلك تكرار لفظ الأخلاق ، كما يزيد ذلك تأكيداً لتقديم الجسار
والمجورود على متملقه في قوله : (للأخلاق مرجعه) والأصل (مرجعه للأخلاق)
وهي ذلك اهتمام بالمقدم والصناية به لأهميته .

ولقد كرر الشاعر (لفظ .. النفس) أكثر من مرة - في تلك الأبيات فمجر بالمشهور
محل الضمير ، ولعل ذلك للاهتمام بأمرها ، والصناية بشأنها ، ولا يخفى ما فسى
البيت الثاني من مقابلة بين شطبيه - تقريباً - وفي ذلك إشارة إلى قيمة الأخلاق
الحسنة ، وعاقبة الأخلاق السيئة ، وبيان ما يهود على النفس من تسكها
بهذه أو تلك .

وفي البيت الأخير بيان تحكم النفس وطفئانها إذا تكنت من هواها ، وأحسن
الشاعر هدماً وضح مدى ذلك الطفئان بتشبيهه بطفئان الجياد إذا عنت
على اللجام ، فليس من السهل تخلصه منها ، أو السيطرة عليها ، وفي ذلك
بيان الأمر المعنوي بأمر محسوس لتوضيحه وتقريره .

غفران الله ، وشفاة رسول الله :

عندما رأى الشاعر كثرة ذنوبه ، لم ييأس من رحمة الله ، ولكنه تقدم
وقال (١) :

إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل
في الله يجعلني في خير مصمم

(١) المشوقيات ج ١ ص ٢٤٤ .

ألقى رجائي إذا عز المجير على
مفسج الكرب في الدارين والشهم
إذا خفضت جناح الذل أسأله
عز الشفاعة لم أسأل سوى أسأله
وإن تقوى ذو تقوى بصالحه
قدمت بين يديه عبدة النسيم

يبين شوقى أن أمله كبير فى غو الله ورحمته - مهما عظم ذنبه وأن
رجائه فى شفاعة رسول الله عظيم ، مهما كثرت خطاياها .
وإذا تأملت قول الشاعر : (إن جل ذنوبى عن الغفران) وجدته
يبين أنه من شدة حسرتة على نفسه التى أقوتت فى المصاحف ، تخيل
أن ذنبه إن جلت عن الغفران فى الظاهر لمظمها وكثرتها - ولعل ما يوحى
بذلك اختيار الشاعر لفظ (إن) الذى يشير إلى الشك بعض الشيء بخلاف
(إذا) مثلاً إن كان ذلك كذلك فله أمل كبير فى رحمة الله ، ويبدو أن الشاعر
من شدة حزنه نسى أن جواب الشرط جملة اسمية فيجب اقترانه بالفاء () ولمسل
قوله : (فى خير مستصم) يبين ويؤكد عظم أمله فى الله .

فى البيت الثانى يشير الشاعر إلى شفاعة رسول الله (صلى الله عليه
وسلم) لأنه عفرج الكرب فى الدنيا ، بإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وفى
الآخرة بالشفاعة المظى فى يوم المحشر العظيم ، ولذلك يبين الشاعر أنه
عندما يسأله الشفاعة فى ذلك الوقت سيكون سؤاله يسيراً ، (لم أسأل سوى
أمر) ؛ إذ ماذا يكون شوقى فى ذلك المدد العظيم الذى ستشمله شفاعة
رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى ذلك اليوم بإذن الله تعالى .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (إذا خفضت جناح الذل) كناية
لطيفة تشير إلى تواضع الشاعر وانكساره ، وتقوى ذلك قوله : (وإن تقدم ذو
تقوى بصالحه) ، إذا تقدم الناس بأعمالهم فليس له ما يقدمه إلا (عبدة
النعم) ، ويبدو أن الشاعر نسى أن الندم فى ذلك الوقت لا يفيد .

وواصل الشاعر مدح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله (١):

لزمت باب أمير الأنبياء —————
يمسك بفتح باب الله يفتسم (٢)
فكسل فضل وإحسان وعارفة —————
ما بين مستلم منه وملتزم (٣)
طلقت من مدحه حبلا أعزبسه
في يوم لا عز بالأنساب واللحم
يزرى قويض زهيرا حين أمده —————
ولا يقاس إلى جودي تدي هرم

يبين شوقى أنه توسل برسول الله (صلى الله عليه وسلم) لكانت —————
المعظمة عند الله ، كما أنه مفتاح يوصل إلى رحمة الله ومغفرته - وأن الله
قد أجرى على يديه كل فضل وإحسان ومصروف ، ثم ذكر الشاعر أنه بمدحه
رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أصبح ذا صلة به تنفصه يوم القيمة —————
لا عز بالأحساب ولا بالأنساب ولا بالقرابة ، أضف إلى ذلك أنه حين مدح
الرسول (صلى الله عليه وسلم) فأمدحه مدح زهير هرما ، ولا يقاس جود الشاعر -
الذي حصل عليه بسبب مدحه الرسول - بصطاً زهير - الذي حصل عليه
بسبب مدحه هرما - فهناك فرقى كبير بين المدوحين .

وإذا تأملت قول الشاعر : (لزمت باب أمير الأنبياء ٠٠) وجدته يشير
إلى دوام توسله إلى الله برسوله (صلى الله عليه وسلم) إلا أن لفظ (أمير)
لا يليق بمقام الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ويبدو أن الشاعر متأثر في بعض
ألفاظه ببيئة القصور التي كان يعيش فيها مع الخديوي وغيره .

كما بين شوقى أن من يتبع الرسول (صلى الله عليه وسلم) يفتح لأنه
يوصله إلى رحمة الله وفضله ، كما أن الله قد أجرى على يديه كل خير .

(١) الشوقيات : ج ١ ص ٢٤٤ . (٢) أمير الأنبياء : المراد : الرسول (صلى الله عليه وسلم)

(٣) عارفة : المراد مصروف .

ولا يخفى أن البيت الثاني بيان وتوضيح وتعليل للبيت الأول .

وإذا كان الشاعر قد بين ما عاد عليه من مدحه الرسل بقوله : (علقت
من مدحه حبلا أعزبه ٠٠) فإنه قد ذكر أن شعره - حين يمدح الرسول
(صلى الله عليه وسلم) - يفوق شعر زهير حين يمدح حربا ، وأخف إلى ذلك
كثرة جوده بالنسبة إلى ندى هدم ، وكل هذا يبين فضل الرسول وكرمه
(صلى الله عليه وسلم) .

والفاظ الشاعر واضحة سهلة إلا أن التمييز بقوله : (باب الله) لا يليق
بالقمام ، كما أن لفظ (مستلم) غير مستعمل في معناه ، لأنك تقول : استلمت
الحجر أي لسته بالقبلة أو باليد ، ولا شك في أن مراد الشاعر هنا غـسـير
ذلك ، ويبدو أنه تأثر في ذلك بقول البوصيري : (٠٠) إلا استلمت الندى
من خير مستلم (وهذا - أيضا - خطأ كما سبق (١) .

واستمر شوقي في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (٢) :

محمد صفوة الباري ورحمته

وصفية الله من خلق ومن نسم

وصاحب الحوض يوم الرسل سائلة

متى الورود وجبريل الأمين ظي (٣)

سناؤه وسناه الشمس طالصة

فالجرم في فلك والضوء في ظم (٤)

إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صفوة الله من خلقه أجمعين ، وهو
البحوث رحمة للعالمين ، وهو صاحب الحوض المورود يوم القيامة ، كما استشهد
على المنزلة . رفيع المكانة

(١) انظر ص ١٥١ من هذه الرسالة .

(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٤ .

(٣) سبقت الإشارة إلى الحوض في هامش ص ١٦٨ من هذه الرسالة .

(٤) سناؤه : رفحته ، سناه : نوره . الجرم : المراد الجسم - فلك - بفتحين - المراد

مكان الملم : المراد العالم .

ولا يخفى أن في قوله : (محمد صفوة الباري ورحمته ٠٠) إشارة إلى عظم مكانة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ويؤكد ذلك قوله : (وفيه الله من خلق ومن نسم) ، ولعل الشاعر أتى بالظاهر محل الضم في قوله : (وفيه الله) وكان أصله (وفيه) لتأكيد فضل الرسول والاستلذان بذكر الله (سبحانه وتعالى) إلا أن ذكر لفظ (من نسم) بعد لفظ (من خلق) يعد حشواً ، ويبدو أن الشاعر أتى به للوزن .

وفي البيت الثاني إشارة إلى حوض الرسول (صلى الله عليه وسلم) يسمى القيامة ، وما هو جدير بالذكر أن لكل نبي حوضاً لقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " إن لكل نبي حوضاً وإنهم يتباهون أيهم أكثر وارداً ، وإنى أرجو أن أكون أكثرهم وارداً " ، ولهذا لم يوفق الشاعر في قوله : (يوم الرسل سائلسة متى الورد) ، أضف إلى ذلك أنه قد أخطأ في قوله : (وجبريل الأمين ظمي) لأن الملائكة - ومنهم جبريل عليه السلام - لا يأكلون ولا يشربون ^(١) ، فكيف ينسب شوقي الظم إلى جبريل ؟ ، والمجيب أن يفسر بعض الكتاب معنى كلمة (ظمي) بأنه متلف على الشفاعة إشفاقاً على الناس ^(٢) ولم يذكر ما يؤيد ذلك .

ثم أشار الشاعر إلى علو مكانة - الرسول (صلى الله عليه وسلم) ورفعة شأنه بقوله : (سناؤه وسناه الشمس طالمة) إنه يشبه : علو مكانة الرسول ومدى اتساعها بالشمس إذا كانت طالمة ، ولا شك في أن الرسول أفضل من ذلك إلا أن الشاعر أتى بهذا التشبيه للتقريب ، ولا يخفى أثر الجناس الذي في قوله : (سناؤه وسناه) إذ أشار إلى جمع الرسول بين الرفعة والنور أي الهداية ، وأكد ذلك بقوله : (فالجرم في فلك والضوء في علم) أي أن الجسم في مكانه ، ولكن هدايته منتشرة ففسس العالم كله .

(١) انظر شرح البيجوري على الجوهرة ج ٢ ص ١٠٩ .

(٢) الإسلام في شعر شوقي هامس ص ٦٣ .

نَسْبُ الرَّسُولِ :

وأشار شوقي إلى نسب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : (١)
قد أخطأ النجم ما نالت أبوته
من سوادة ياذخ في مظهرهم
نموا إليه فزادوا في السورى شرفا
ورب أصل لفرع في الفخار نسي
حواه في سبحات الظهر قبلهم
نوران قلما مقام الصلب والرحم

إن النجم على ارتفاعه لم يدرك ما أدركه آباء الرسول وأصوله من السيادة
والشرف الذى اكتسبوه من نسبتهم وانتسابهم إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم)
إذ كرمه الله ، فخلق نوره ثم أناض عليه من نوره ، فكان نورا على نور .

ولا شك فى أن الشاعر يشيد بنسب الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى
قوله : (قد أخطأ النجم ٠٠) ، وأحسن عندما عبر (بما) التى تفيد التخصيم
والتعظيم ، وذلك فى قوله : (ما نالت أبوته ٠٠) ثم وضع ما أجله فى المبسرة
السابقة بقوله : (من سوادة ياذخ ٠٠) ، وهذا من قبيل الإطناب الذى يكون
محبوا فى معرض المدح .

وإذا كان المؤلف والمحمود أن يشرف الفرع بأصله ، فقد أحسن الشاعر
عندما خالف ذلك المحمود ، وذهب إلى أن آباء الرسول وأصوله هم الذين
شرفوا بانتسابهم إليه (صلى الله عليه وسلم) وذلك فى قوله : (نموا إليه
فزادوا فى السورى شرفا ٠٠) ولا شك فى أن ذلك يؤكد فضل الرسول وطومنزلة
التي جمعت الشاعر يشير إلى بعضها مخالفا للمحمود ، ولما كان شرف الأصل
يفرعه يكون نادرا حسن من الشاعر أن يقول : (ورب أصل لفرع فى الفخار نسي) .

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٥ .

ويدو أن الشاعر قد تأثر في نظمه بفكرة من ذهبوا إلى سبق النور
المحمدي (١) فقال : (حواء في سبحات الطهر قبلهم ٠٠) .

وإذا كان الله قد أكرم نبيه قبل خلقه فأفاض عليه من نوره ، فلقده أكرمه
ببيان علاقته وصفاته في الكتب المابقة قبل وجوده أيضا ، ولذلك (٢) :

لما رآه بحيرا قال : نعرفه

بما حفظنا من الأسماء والميسم

يشير شوق في ذلك البيت إلى قصة بحيرا عندما رأى الرسول (صلى
الله عليه وسلم) وهو مع عمه أبي طالب في طريقه إلى الشام (٣) .

ثم أشار الشاعر إلى ذهاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى ظرحراء ،
قبل نزول الوحي بقوله (٤) :

سائل حراء وروح القدس هل علما

مصون سر عن الإدراك فكتم

كم جيئة وذهاب شرفت بهما

بطحاء مكة في الإصباح والفصم

ووحشة لابن عبد الله بينهم

أشبه من الأنس بالأجباب والحشم

يسامر الوحي فيها قبل مهبطه

ومن يشر بهي الخير يتسم (٥)

لقد اختار الرسول (صلى الله عليه وسلم) ظرحراء ليعتبد فيه قبل نزول
الوحي ، وهذا الاختيار كان لمر عظيم لا يملكه أحد إلا الله ، ولو سألت

(١) انظر ص ١٢٤ من هذه الرسالة .

(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٥

(٣) انظر ص ٣٦٦ من هذه الرسالة .

(٤) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٥ .

(٥) مهبطه : المراد هبوطه . يشر : يضم أوله وفتح ما قبل آخره .

الفاروجبريل (عليه السلام) عن ذلك السر ما علما عنه شيئا ، كما أن بطحسا
مكة قد شرفت بسير الرسول (صلى الله عليه وسلم) عليها ، عندما كان يذهب
إلى الفار ، وإن كان في وحشة عن الناس ، لكنه كان في أنس رب الناس
(جل جلاله) إذ كان يشمر بأن هداية الله تحوطه ، وعنايته ترقاه .

وإذا تأملت قوله : (سائل حراء روح القدس . .) وجدتته يشير إلى أن
الشاعر قد جرد من نفسه شخصا وأمره بأن يسأل (حراء روح القدس) ولمسل
لفظ (سائل) يوحى بتكرار السؤال ، والإضافة في قوله : (مصون سر) من
إضافة الصفة إلى الموصوف ، ولعل ذلك يوحى بأن هذا السر لم يعلم به
أحد صهما كان شأنه ، وهو كذا لفظ (منكم) وإن كان في هذا اللفظ
خطأ لغوي - كما سبق - (١) .

ولا يخفى أن قول الشاعر (كم جيئة وذهاب . .) يوحى بكثرة ذهاب الرسول
(صلى الله عليه وسلم) إلى غار حراء ورجوعه منه إلى بيته ، ما يدل على طول
مدة تعبد الرسول قبل الرسالة ، ولعل الطباق بين قوله : (الإصباح والضم)
يوحى بالمواظبة على ذلك .

وإذا تأملت الطباق بين قوله : (وحشة . .) والأنس) أدركت مدى ما عاناه
الرسول (صلى الله عليه وسلم) من وحشته عن الناس ، ولكنه كان يأنس بوجه
الذي هو خير أنيس ، إلا أن لفظ (أشهى) غير مناسب لل مقام .

وإن كان قول الشاعر : (يسامر الوحي فيها قبل مهجده . .) يشير إلى
شوق الرسول إلى جبريل (عليه السلام) ، فإن قوله : (ومن يبشر بصبي الخبير
يتم) حكمة صادقة توحى بأن للخبير دلائل تظهر آثارها على صاحبه .

ثم أشار شوقي إلى بعض معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كما
أشار إلى بعض الإرهاصات في قوله (٢) :

لما دعا الصبح يستسقون من ظمأ

فاضت يدها من التسنيم بالسنيم (٣)

(١) انظر ص ٨٨ من هذه الرسالة .

(٢) الشوقيات - ج ١ ص ٢٤٥ وما بعدها .

(٣) التسنيم : ماء بالجنة يجري فوق الغرف ، والمراد هنا الماء المذنب مطلقا .

وظلته فصارت تستظل به
غمامة جذبتها خيرة الدير
محبة لرسول الله أشبهها
قمائد الدير والرهبان في القم (١)
إن الشائل إن رقت يكاد بهها
يفرى الجراد ويفرى كل ذي نسم

ذكر الشاعر - في البيت الأول - قصة الصحابة عندما لم يجدوا ماءً ، وشكوا ذلك إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فوضع يده في إناء ، ففاض الماء وشربوا جميعاً - كما سبق (٢) - .

وفي البيت الثاني يشير إلى قصة الغمامة التي كانت تستظل على الرسول (صلى الله عليه وسلم) ورآها بعض الرهبان فحذروا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأحبوه لما علموا عنه من صفاته وشمايله - أنه الرسول الذي أشارت إليه الكتب السماوية التي كانت بين أيديهم (٣) .

وإذا تأملت قول الشاعر : (. . فاضت يدها . .) وجده يشير إلى كثرة الماء الذي فاض من يد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، إلا أن الشاعر أمنتد الفيض إلى يدى الرسول وقد ذكرت الأحاديث - كما سبق - ما يفهم منه أنها أن الرسول وضع يدا واحدة ، ولعل قوله : (من التنسيم بالنسم) يشير إلى عذوة ذلك الماء ، لأنه في الأصل ماء بالجنة .

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (وظلته فصارت تستظل به . .) ما يشير إلى فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ الغمامة التي أتت لتظل الرسول صارت تستظل به بالرسول (صلى الله عليه وسلم) لأنها صارت في ركابه الشريف فعاليها شرف من شرفه المظهم ، أما قوله : (غمامة جذبتها خيرة الدير) فيقول عنه بعض الكتاب : * لا توافقه على أن أجود المطر هو الذي جذب السحاب لأنه لا مطر يغير سحاب ، وكان الصواب أن يقلب التعبير فيقول : إن الغمامة

(١) قمائد جمع قميدة ، وقمائد الدير ملازموه من متسكة النصارى .

(٢) انظر ص ٢٦٣ من هذه الرسالة .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٥ .

حملت أجود المطر (١) .

ولعل في قول الشاعر : (إن الشاغل إن رقت . .) دعوة صريحة إلى
حسن الأخلاق ؛ لأن الأخلاق الحسنة (يكاد بها يفرى الجواد ويفرى كل
قوى نهم) ولا يخفى أن في تكرار الفعل (يفرى) والطباق بين (الجواد وكل
ذى نهم) ، في هذين الأمرين - مما يؤكد أثر حسن الخلق ، وإن كان
في المهارة شيء من المبالغة فقد خففها لفظ (يكاد) .

نزل الوحي :

ولقد أشار شوقي إلى نزول الوحي أول مرة بقوله (٢) :

ونودي الورأ ، تعالى الله قائلها

لم تتصل قبل من قبلت له يفرى

هناك أذن للرحمن فأستلأت

أسماع مكة من قدسية النهم (٣)

فلا تسل عن قريش كيف حيرتها

وكيف نفرتها في السهل والطم

تعالى عن عظيم قد ألم بههم

رمى المشايخ والولدان باللم

لقد نزل الوحي أول ما نزل بقوله تعالى : (اقرأ) ، ثم أمر الرسول

بدعوة الناس إلى توحيد الله ، وكان لتلك الدعوة صداها العظيم في مكة ،

ولذلك أصيبت قريش بالحيرة ، بل أصابها من الجنون .

ولا يخفى أن الشاعر قد عبر بالفعل المبني للمجهول في قوله : (ونودي

اقرأ) لمحرفة المضادى (جلى جلاله) ، ثم عظمة الشاعر بقوله : (تعالى الله

قائلها) ، وبمسئ أن ذلك الأمر لم يسبق نزوله إلى أحد قبل الرسول

(صلى الله عليه وسلم) بقوله : (لم تتصل قبل . .) ولعل في ذلك إشارة إلى

(١) الإسلام في شعر شوقي ص ٥٨ .

(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٦ . (٣) أذن للرحمن - بيتنا - الفعل للمجهول - المراد

أعني إلى توحيد الله ، قدسية النهم : المراد الصوت المنزه عن التطرب .

تكرم الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين مدى جهر الرسول بالدعوة وإعلانها فقال :
(هناك أذن للرحمن . .) لقد جهر الرسول بالدعوة إلى توحيد الله حتى
لقد (امتلأت أسطاح مكة . .) فضلا عن أهلها ، إلا أن قريشا قد أصيبت
بالحيرة ، وخرت من هذه الدعوة ، لأنها تدعوهم إلى ترك عبادة الأصنام
والأوثان ، وتحثهم على عبادة إله واحد ، ولذلك عجبوا كيف يجعل محمد
الآلهة لها واحدا ، إلا أن قول الشاعر : (قدسية النظم) غير ملائم
المقام ؛ لأن المقام يقتضى (قدسية الكلم) مثلا أما (قدسية النظم) فتشير
إلى النفخة البعيدة عن التطريب والمنزهة عن إيقاع الأصوات ، وما لهذا مكان
هنا ، في ذلك المقام .

وإذا كان قول الشاعر : (فلا تسل عن قريش . .) يفيد عدم جدوى السؤال
لأن إجابتها واضحة ، فإن قوله : (كيف حيرتها . .) يشير إلى عظم تلك الحيرة
كما أن قوله : (وكيف نفرتها . .) يوضح موقفها من تلك الدعوة ، ولا يخفى
أن الطباق في قوله : (السهل والصلب) يدل على نفرة قريش في كل مكان .

ولعل قول الشاعر : (تساطروا عن عظيم . .) يشير إلى قوله تعالى : (عَمَّ
يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ) (١) ، وإذا كان في قوله : (. . رعى المشايخ والولدان
بالملم) كناية عن دهشتهم العظيمة التي شملت الصغير والكبير منهم ، فإن لفظ
(المشايخ) غير لائق للتعبير عن رخصه من شاعر كشوقي

ولقد كان موقف قريش من دعوة الرسول موقفا غريبا ولذلك قال لهم شوقي (٢) :

يا جاهلين على الهادي ودعوته

همل تجهلون مكان الصادق العلم

لقبحوه أمين القوم في صفر

وما الأيسين على قول بمتهم

فاق البدور ، وفاق الأنبياء فكهم

بالخلق والخلق من حسن ومن عظم (٣)

(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٦

(١) النبأ / ٢٥١

(٣) الخلق - الأولى - بفتح الخاء - والثانية بضمها .

الضغث الشاعر إليهم وأخذ يؤنبهم، لأنهم يخفوا على الرسول ودعوتهم فاتهموه بالكذب • مع أنهم - قبل الرسالة - كانوا يلقبونه (الأمين) وكيف يكون أجنبنا ثم يرضى بالكذب • ولقد جمع بين حسن الصورة • وطهارة السريرة • وعظمت السيرة (صلى الله عليه وسلم) •

وإذا تأملت قول الشاعر : (يا جاهلين ••) وجدته قد ناداهم بما ينهى به البصير، لأنهم يمدوا عن كل خلق حسن بينهم على الرسول وإعراجهم عن دعوتهم • كما أن لفظ (جاهلين) يشير إلى أن تصرفهم مهين على الجهل والظلم والبغى • ثم ويختم بقوله : (هل تجهلون مكان الصادق الملم) ولا شك في أنهم لا يجهلون ذلك • فلاستفهام إنكارى • وإذا كان الشاعر قد وضع قرشا بقوله : (يا جاهلين ••) فإنه قد مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنه الهادى وهو الصادق الملم •

وأقام الشاعر البرهان على كذب هؤلاء القوم وظلمهم بقوله : (لقتوه أمسى القوم في صخر) ثم أتى بكلمة يؤكد بها فكرته فقال : (وما الأمين على قولهم) وفي البيت طباق بين قوله (أمين • منهم) ولعل الشاعر أتى بهذه ليدل على استحالة اجتماعها (الأمانة والانتهاك) في شخص واحد •

ثم بين الشاعر أنه لا موضع لاستنكار هؤلاء بمعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فالله قد اصطفاه كما أنه قد جمع له كل الصفات الحسنة • والأخلاق المكرمة • فلقد (فاق البدور) في حسن خلقه • كما (فاق الأنبياء) في عظم خلقه • ولا يخفى أن فسى البيت الأخير لفا ونشرا مرتبا في قوله : (البدور • الأنبياء • الخلق والخلق) الحسن • المعظم) ولعله يشير إلى فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) من كل ناحية : الخليفة بفتح الخاء - والخليفة - بضمها •

القرآن الكريم :

وأشار شوقي إلى معجزة القرآن الكريم بقوله (١) :

جاء النبيون بالآيات فانصروست
وجئتوا بحكيم غير منصروست (٢)

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٦ (٢) حكيم : المراد به القرآن الكريم من قوله تعالى : " بين القرآن الحكيم " يس / ٥١ • ٢

يا أفصح الناقلين الضاد قاطبة

(١) حديثك الشهد عند الذائق الفهم

حليت من عطل جيد البيان بسـ

(٢) فسي كل منتصر في حسن منتظم

بكل قول كريم أنت قائله

تحیی القلوب ، وتحی بیت الهم

يمدح الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأنه أفصح من نطق بالمرية ، وأن حديثه حلو كالشهد ، يحس حلاوته من يتذوق البيان ، بل إن بلاغته ذلك الحديث قد زادت البيان المرص مثلا في نثر له جمال الشمسه كما كان لهذا الحديث أثر كبير في غذاء القلوب ، وتثقيف العقول .

وإذا تأملت قول الشاعر : (يا أفصح الناقلين الضاد قاطبة . .) وجدته ينادي الرسول (صلى الله عليه وسلم) نداء يشمر برفعة المكانة وعلو المنزلة كما أن في قوله : (أفصح) نكتة لطيفة وهي الإشارة إلى ما عرف عن المرص من أنهم أهل فصاحة وبيان ، ولكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان أفصحهم جميعا ، وهذا ما يشير إليه أفضل التفضيل ، وأحسن الشاعر عندما شبه حديث الرسول بالشهد في الحلاوة والمذوبة ، وفي هذا تشبيه الممنوى بالمحموس لتأكيد بيان أثره ، ولا يخفى أن حديث الرسول أعظم من ذلك .

وأراد الشاعر أن يوضح أثر حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال : (حليت من عطل جيد البيان . .) ولا يخفى أن في العبارة استعارة مكنية إذ شبه الشاعر البيان بالمرأة الحسناء التي رمز لها بالجيد ، فكأن حديث الرسول زاد البيان المرص جمالا على جماله ، وعذوبة فوق عذوبته ، ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين فضل حديث الرسول على النثر وعلى الشعر ، فأتى بهذا التلميح في قوله : (منتصر ومنتظم) .

ولقد أكد الشاعر فكرته السابقة في البيت الأخير وخاصة في الشطر الثاني

(١) الضاد : المراد اللفظة المرية .

(٢) عطل : عطلت المرأة عطلا إذا لم يكن عليها حلي .

بقوله : (تحيي القلوب ، وتحيي ميت الهم) ، ولا يخفى أن في العبارة مجازاً ،
فإحياء القلوب مجاز عن تأثيرها ، كما أن إحياء الهم مجاز عن إتمام العمل من قائلها ،
ولا شك في أن تكرار القمل (تحيي) يؤكد أثر ذلك الحديث ، كما أن الطباق
في قوله : (تحيي وميت) يبين مدى ما بلغه ذلك الحديث من تأثير كبير .

مولد الرسول :

ثم أشار الشاعر إلى مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (١) :

سرت بشائر بالهادى ومولده

فى الشرق والغرب مسرى النور فى الظلم

تخافت مهج الطافين من عـ

وطيرت أنفس الباغين من عـ

رسمت لها شرف الإيوان فانصدعت

من صدمة الحق لا من صدمة القـ

لقد سرت البشارة بمولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى الشرق والغرب

مؤذنة بشرق النور الذى سيمحو الظلم ، ويظهر العدل الذى سيدفع الظلم

ولذلك أدرك الظالمون من الغرب والمجم أن نهايتهم قد آن وقتها ، فدخل

الغرب قلوبهم ، بل إن شرف إيوان كسرى قد انصدعت من قوة الحق ، لا من

ضربة المـ

وإذا تأملت قول الشاعر : (سرت بشائر بالهادى ومولده) وجدت أن فسى

إسناد القمل (سرى) إلى (البشائر) مجازاً عقلياً ، يوحى بتشخيص تلك البشائر

وفى ذلك تعظيم لها ولما تحمله من أخبار مسارة ، ولا يخفى أن فى قول الشاعر

(فى الشرق والغرب) طباقاً يشير إلى انتشار تلك البشائر فى كل البقاع

كما أن فى قوله : (مسرى النور فى الظلم) بيان سرعة مسرى تلك البشائر

وأثرها ، ويؤكد ذلك هذا الطباق الذى بين قوله : (النور والظلم) ، فكما

أن النور يسرى بسرعة ، ويظهر بوضوح فى الظلم ويقضى عليه - أيضاً - كذلك

تلك البشائر انتشرت بسرعة (تخافت مهج الطافين .. وطيرت أنفس الباغين ..) ولا يخفى

(١) الشرقيات ج ١ ص ٢٤٧ .

(٢) القدم : - بضمين - جمع قدوم : اسم آلة مصروقة .

أن بين قوله : (عرب وعجم) طباقا يشير إلى عموم أثر تلك البشائر ، كما أن بين قوله : (طاغين وياغين) جناسا ناقصا يبين نوع بعض من أثرت فيهم تلك البشائر ولعل الشاعر أراد أن يوضح أن بشائر المولد الشريف لم تؤثر في الإنسان فحسب بل أثرت في الجماد أيضا فقال : (رمت لها شرف الإيوان ٠٠) وأكد ذلك بقوله : (من صدفة الحق ، لا من صدفة القدم) .

ولا يخفى أن الشاعر قد نهج في ذلك الحديث نهج السابقين وخاصة البوصيري - كما سيأتي - أضف إلى ذلك أن ذلك الحديث يشير إلى أنه لم يرتب أفكاره ترتيبا زمنيا - إذ مدح الرسول - ثم تحدث عن نسبه ، ومثله بعض معجزاته وفصاحته ، ثم تحدث عن مولده !!! وكان من الأفضل الحديث عن مولده قبل ذلك كله .

حالة المالم قبيل بعثة الرسول :

ثم بين شوقي حالة المالم قبيل بعثة الرسول بقوله (١) :

أتيت والناس فوضى لا تربهم
إلا على صنم قد هام في صنم
والأرض ملوثة جورا مسخرة
لكل طاغية في الخلق محتكم
سيطر الفرس يفي فسي رعيتهم
وقبصر الروم من كبر أصمهم
يمدبان عباد الله فسي شبهم
ومذبحان كما ضحيت بالفنم
والخلق يفتك أقوامهم بأضعفهم
كالثيث بالبهيم أو كالحوت بالبلم

يخاطب الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلا : كان الناس قبيل بعثتك في جهالة جهلاء ، وضلالة عمياء ، فالفوضى حالهم ، والأصنام

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٢

آلهتهم ، والظلم ديدنهم ، والبغى شمارهم ، والكبر رداؤهم ، وتحكم الحكام
في رعيتهم ، فسكوا الدماء ، وتكلموا بالأبرياء ، كما فتك الأقوياء بالضعفاء .

وإذا تأملت قول الشاعر : (أتيت والناس فوضى ٠٠) أدركت أن الفاسد
قد انتشرت ، وأن المقول قد ألتفت ولا أدل على ذلك من الإخبار عن
الناس بقوله : (فوضى) وما يؤكد هذا الأمر قوله : (لا تمرا إلا على عنس
قد هام في صنم) فالمقصود بالصنم الأول ذلك الإنسان الذي ألقى عقله
وتنازل عن كرامته فميد صنما لا يضر ولا ينفع .

إن المقول هو الحارس الأمين على حرية الناس وأمنهم ، فإذا ما ألقى
الناس عقولهم كان ذلك تمهيدا لانتشار الظلم ، ولذلك أحسن شوقي عندما
قال : (والأرض ملوثة جورا ٠٠) بمد قوله السابق : (أتيت والناس فوضى ٠٠٠)
وهي هذا إشارة لطيفة إلى قيمة العقل الناضج ، والفكر السديد .

ثم خص الشاعر بالذكر كلا من كسرى فارس ، وقبصر الروم ، لظهور بغى
الأول ، وكبر الثاني ، وما ترتب على ذلك حتى بلغ بهما الأمر إلى أنهما :
(بمدهان عباد الله ٠٠) دون ذنب ارتكبه ، أو جرم فعلوه ، بل بلغت
بهما القسوة إلى أنهما (يذبحان ٠٠) عباد الله كما تذبح الشياه (١) .

وأحسن شوقي في قوله مخاطبا الرسول : (٠٠ كما ضحيت بالنفم ٠٠)
ولعل في ذلك إشارة لطيفة إلى فعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي
ينبع من الشريعة السمحة وفعل هذين الحاكمين الظالمين الذي ينبع من شريعة
الغاب ، وبكر الذئاب .

ولا شك في أن هناك فرقا كبيرا من الذابح والمذبوح والهدف من
الذبح في كل من أشار إليهم شوقي .

ولعل الشاعر خص دولتي الفرس والروم بالذكر ، لأنهما كانتا من أقوى
الدول في ذلك الوقت ، كما كانتا أشد من غيرهما علاقة بالعرب ، وأقرب
من سواهما جواريا لجزيرة العرب التي بعث فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ثم أشار شوقي إلى أن الأقوياء - بعامة - كانوا يفتكون بالضعفاء
كما يفتك الأسد بولد الضأن ، أو كما يلتهم الحوت صفار السمك .

ولا يخفى أن حديث الشاعر عن حالة العالم قبيل بعثة الرسول يوحسد
ما ذكرته - سابقا - من عدم ترتيب أفكاره ترتيبا زمنيا على حسب وقوعها .

الإسراء والمعراج :

ثم أشار الشاعر إلى معجزة الإسراء والمعراج بادئا بالإسراء - في قوله (١) :

أمرى بك الله ليلا إذ ملائكة
والرسل في المسجد الأقصى على قدم
لما خلرت به التفوا بسيدهم
كالشهب بالبدر أو الجند بالماسم
صلى وراءك منهم كل ذي خطير
ومن يغزبجيب الله يأتهم

يخاطب الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلا : يا رسول الله : لقد
أمرى بك الله ليلا إلى المسجد الأقصى ، وكان في استقبالك عدد من الملائكة
والرسل ، فلما خللت بذلك المسجد التفوا حولك ثم صلوا وراءك .

ويلاحظ أن الشاعر أراد أن يصور حفاوة الملائكة والرسل برسول الله فقال :
(إذ ملائكة والرسل . . على قدم) فهم قاثون مطأبون لاستقباله ، وعندما
هل بذلك المكان (التفوا بسيدهم) وهذه صورة أخرى للحفاوة إذ صورهم
الشاعر يلتفون حول الرسول التفافا كالتفاف النجوم حول البدر . ولا يخفى أن
الشاعر شبه الرسل بالشهب كما شبه الرسول بالبدر ، ثم شبه ذلك الالتفاف تشبيها
آخر بأنه كالتفاف الجند حول الملم .

ولعل الشاعر أراد أن يبين فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) فالتفت من

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٧ .

من الخطاب (خطرت) إلى الضميمة (سيدهم) ولعله أتى بهذا اللفظ ناظرا إلى قول الرسول: (أنا سيد ولد آدم) .

وإذا تأملت قوله : (صلى وراءك همهم كل ذي خطر) . وجدت أنه يشير إلى حفاوة أخرى ، وتفضيل آخر ، وهو أن هؤلاء الرسل على عظم خطرتهم ، ورفعة شأنهم ، جعلوا الرسول إمامهم ، لأن الصلاة خلفه شرف كبير .

ثم أتى الشاعر بحكمة صادقة في قوله : (ومن يفر بحبيب الله يأتهم) ولا يخفى أن هذه العبارة تحت على الانتقام بالرسول (صلى الله عليه وسلم) واتخاذة قدوة ، ولعل العبارة قد خانت الشاعر فوقع فيها نوع من القلب والأصل (ومن يأتهم برسول الله يفر) .

ثم أشار الشاعر إلى المعراج بقوله (١) :

جبت السماوات أو ما فوقهن بهم
على منسورة درية اللجم (٢)
ركوبة لك من عز ومن شرف
لا في الجياد ولا في الأيتن الرسم
مشيئة الخالي البارى ومنعته
وقدرة الله فوق الشك والتهم
حتى بلغت سما لا يطار لها
على جناح ولا يصى على قدم
وقبل كل نبي عهد وتبته
ويا محمد هذا المرض فاستلم

نظمت السماوات كلها - سما - بعد سماء - بل طوت فوقها مارا بهؤلاء الأنبياء ، وأنت على البراق الذي لا تشبهه الجياد الكريمة ، ولا الأيتن المظبية ،

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٨ .

(٢) منسورة درية اللجم : المراد البراق .

فتبارك من خلق فأبدع به فقد رتبته ليست محل الشك أو الرهبة ، ولقد ذلك أنك بلغت مكانا طيبا ، لا يمكن أن يبلغه نبي مرسل ولا ملك مقرب ، ولا يستطيع ذو جناح الوصول إليه ، ولا يتمكن ذو قدم من الحصول عليه .

ولا يخفى ما فنى قول الشاعر : (جبت السموات أو ما فوقهن بهم) .
من إشارة لطيفة إلى مرور الرسول (صلى الله عليه وسلم) على بعض الأنبياء ففى السموات - كما أشارت إلى ذلك كثير من الأحاديث - إلا أن الشاعر ذكر أن الرسول عرج إلى السموات فوق البراق عندما كفى به بقوله : (على منسورة درية اللجم) ثم صرح عنه بعض التصريح فى قوله : (ركوبة لك من عز ومن شرف) . والصحيح أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) صعد إلى السموات على المصراع ، لا على البراق ^(١) . كما أن قوله : (ركوبة لك) . توحى بسان البراق خاتم الرسول ، ولكن الحقيقة أن الأنبياء كانوا يركبونه قبل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ^(٢) ، ولا يخفى أن لفظ (ركوبة) غير لائق بالمقام .

ولما كان أمر الإسراء والمصراع خارقا للمادة وفوق تفكير العقل البشرى فقد أحسن شوقي عندما قال : (مشيئة الخالق البارئ) . ثم أكد تلك الفكرة بحكمة صادقة فى قوله : (وقدرة الله فوق الشك والنهم) .

وإذا تأملت قول الشاعر : (حتى بلغت سماء لا يطار لها) . وهو تسمه يشير إلى أن الرسول قد ارتفع إلى مكان لا يستطيع أحد أن يرتفع إليه مهما كان شأنه ثم أكد فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : (وقيل - أى بلسان الحال - كل نبي عند رتبته) فى السماء التى هو فيها ، أما أنت يا محمد فارفع واقرب : (يا محمد هذا المرعى فاستلم) ولا يخفى أن فى تلك العبارة كناية تشير إلى رفعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وزيادة فضله على بقية الرسل . ثم أشار شوقي إلى أن الله قد أخبر رسوله ببعض الأمور الغيبية بقوله ^(٣) :

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٤٣ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ج ٥ ص ٢٠ وما بعدها وص ٤٠ .
(٣) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٨ .

خططت للدين والدنيا علومهما
ياقارىء اللوح بسل يالاس القلم
أحطت بينهما بالمر وانكشفت
لك الخزائن من علم ومن حكم
ضائف القرب ما قلدت من من
بلا عداد وما طوقت من نهم

يشير الشاعر إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد علم الناس أمور دينهم ودنياهم ، وذلك من فضل الله الذى علمه ما لم يكن يعلم ، بل أنعم عليه بنعم لا تعد ولا تحصى .

وإذا تأملت قول شوقى : (خططت للدين ٠٠) وجدته قد اشتمل على كناية لطيفة تشير إلى أن الرسول قد علم الناس أمور دينهم ودنياهم ، كما أن قوله : (يا قارىء اللوح ، بل يالاس القلم) قد اشتمل - أيضا - على كناية تدل على أن الله قد أطلع نبيه على بعض الشيبات ، ولا يخفى أن قوله : (أحطت بينهما بالمر ٠٠) تأكيد للفكرة السابقة ، كما أن قوله : (وضائف القرب ٠٠) يوعد فضل الله على رسوله ، ويتكيسه ، وزيادة نعمة عليه .

هجرة الرسول :

وانتقل شوقى إلى الحديث عن هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله^(١) :
سل صبة الشرك حول الفار سائسة
لولا مطاردة المختار لم نهم
هل أبصروا الأثر الضاء أم سمعوا
همس التسابيح والقرآن من أسم؟
هل تثل نسج المنكبت لهيم
كالناب والحائحات الزغب كالرخم؟

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٨ وابعدها .

فأدبروا ووجوه الأرض تلمعنهم
كباطل من جلال الحق منهم
لولا يد الله بالجارين ما سلمنا
وعينه حول ركن الدين لم يقم (١)
تواريا يجناح الله واستسرا
ومن يضم جناح الله لا يضم (٢)

جرد الشاعر من نفسه شخصا يخاطبه بقوله : سل أهل الشرك الذين كانوا حول غار ثور يبحثون عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لماذا رجموا خائبين ولم يدخلوا الغار ؟ أروا النور الرضاء داخل الغار فخشوا الاقتراب منه ، أم عواهم ؟ أسموا تسبيح الرسول وقراحه القرآن فتلكهم الرعب ، أم صموا عنه ؟ أم خيل إليهم نسج المنكبوت الواهن غابا منيعا ، والحمام السوادح رخما يتخطفهم ، فمنهم كل ذلك من دخول الغار ، ورجموا خائبين .

وإذا تأملت قول الشاعر : (سل عيبة الشرك حول الغار سائسة) وجدت فيه استمارة مكنية ، لا يخفى أثرها في تشبيه هؤلاء المشركين بالأنعام كما أن لفظ (مطاردة ٠٠) يوحي بما عاناه الرسول (صلى الله عليه وسلم) من هؤلاء المشركين .

ويبدو أن الشاعر أراد التهمك بهؤلاء المشركين فأتى بهذه الأسئسة : (هل أبصروا ؟ أم سمعوا ؟) (وهل تمثل نسج المنكبوت ؟) ولكن السؤال الأول كان حقه أن يكون بالهمزة لوجود مما دلها (أم) كما هو معلوم عند علماء البلاغة ، إلا إذا أراد الشاعر الإضراب (٣) .

ولقد أجاد الشاعر حينما أشار إلى رجوع هؤلاء المشركين خائبين بقوله : (فأدبروا ٠٠) ثم أتى باستمارة مكنية لطيفة بينت أن اللعنات كانت

(١) الجارين : الرسول وأبى بكر .
(٢) جناح الله : المراد لطفه وستره - يضم - الأولى - بفتح الياء ضم الضاد وتشديد

الميم مضمومة - أما الثانية فهي يضم ففتح فكسر ومناها ظاهرا .

(٣) التخليص في علوم البلاغة ص ١٥٦ .

تصب عليهم من كل جانب (ووجه الأرض تلمنهم ٠٠) ثم أكد هزيمتهم
بهذا التشبيه اللطيف: (كباطل من جلال الحق منهزم) .

إن غاية الله كانت ترضى رسوله ووعايته كانت تشملته . وهذا ما أشار
إليه شوقي بقوله : (لولا يد الله بالجارين ما سلما ٠٠) ثم أكد ذلك بقوله :
(ثواريا بجناح الله واستترا ٠٠) وأتى بحكمة صادقة في قوله : (ومن يضم
جناح الله لا يضم) وهي تشير إلى أهمية لطف الله وستره ، ولا شك في أن
في ذلك حثا على طلب رضا الله ، حتى يكون الطالب في حفظ الله
وكنفه .

توسل الشاعر إلى الرسول :

ثم توسل الشاعر إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) باشتراكه معه في
الاسم وذلك في قوله : (١)

يا أحمد الخير لي جاء بتسميتي

وكيف لا يتسامى بالرسول سي ؟

يشير الشاعر إلى أن من حقه أن يفخر بالانتساب إلى الرسول (صلى
الله عليه وسلم) باشتراكه معه في الاسم ، ثم يسأل : (كيف لا يتسامى بالرسول
سي) ، وشوقي في هذا ناظر إلى البوصيري - كمنسا سيأتى في باب
الموازنة -

فضل البوصيري وردته :

ويعترف شوقي بفضل البوصيري وردته بقوله (٢) :

المادحون وأرباب الهوى تبجح

لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم (٣)

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٣) الفيحاء : المراد المظبية .

مديحه فيك حب خالص وهوى
صادق الحب يملأ صادق الكلم
الله يشهد أنى لا أعارضه
من ذا يعارض صوب المعارض المرم
وإنما أنا بعض الفايظين ومن
يفهيط وليك لا يذم ولا يلم
هذا مقام من الرحمن مقتبس
ترسى مهائته سبحانه بالبيكم (١)

يشير الشاعر إلى أن من مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بحمد
البوصيرى قد تأثر في مدحه بالبوصيرى ويردته ، ثم ذكر أن مدح البوصيرى
كان أساسه الحب الخالص لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأشار إلى أنه
لم يقصد معارضة البوصيرى بقصيدته (نهج البردة) - وإن وجدت شروط
المعارضة - وإنما هو بعض الفايظين ، ثم ذكر أن مدح الرسول أمر عظيم
لا سبيل إلى الإجادة فيه إلا بمدد من الله .

وإذا تأملت قوله : (المادحون وأرباب الهوى تبع) وجدتته يشير
إلى أن كثيرا من المادحين يمل كل المادحين الذين أتوا بحمد البوصيرى -
قد تأثروا في مدائحهم بمصاحب البردة ، ثم أكد ذلك بلفظ (تبع) لأنه
صدره ، وأخبر به ، للمبالغة ، ثم وصف شوق البردة بكونها (الفيحاء ذى
القدم) وهذه شهادة عظيمة للبردة .

ولا يخفى أن قول شوقى : (مديحه فيك حب خالص وهوى) بيان سبب
إجادة البوصيرى في مديحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو الحب الخالص
وأكد ذلك بحكمة صادقة في قوله : (صادق الحب يملأ صادق الكلم) .

وينفى شوقى أنه عارض البوصيرى بقوله : (الله يشهد أنى لا أعارضه)
ثم ظل لذلك النفي بقوله : (من ذا يعارض صوب المعارض المرم) ونفى ذلك

(١) سبحانه : هو سبحانه وإل أحد فصحاء العرب الذين يضرب بهم
المثل في الفصاحة .

القول اعتراف صريح ببلوغ البصيرى فى مدائحه مبلغا كبيرا ، وإجادته فيها
إجادة حسنة .

وإذا تأملت قول الشاعر : (وإنما أنا بعض الغابطين) وجدته يشير
إلى تواضع الشاعر الذى جعله بمثابة تقديم المذر حتى لا يكون هدفا
للنقد مثلا ، ويؤيد ذلك قوله : (ومن يغبط وليك لا يذم ولا يلم) وهو
حكمة صادقة تجرى مجرى المثل .

ثم أشار الشاعر إلى عظيم مكانة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ورفعة
شأنه ، بقوله : (هذا مقام من الرحمن) فأشار بذلك إلى أنه لا يستطيع
أحد مها كان فصيحاً أن يحيط بشمائل الرسول الكريمة كلها بل إن الإشارة
إلى بعضها تحتاج إلى توفيق من الله .

مدح الرسول :

وانتقل شوقى إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (١) :

البدر دونك فى حسن وفى شرف
والبحر دونك فى خير وفى كرم
شم الجبال إذا طاولتها انخفضت
والأنجم الزهرما واسمتها نسيم (٢)
واللهك دونك بأما عد وثبتهم
إذا مشيت إلى شاكى السلاح كى
تهفو إليك - وإن أدميت حبثها
فى الحرب - أئفدة الأبطال والبيهم (٣)
حبة الله ألقاها - وهيتهم
على (ابن آمنة) فى كل مصطدم
كأن وجهك تحت النقع بدر دجى
يضى * ملتثما أو غير ملتثم

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٩ وما بعدها . (٢) واسمتها : ناستها فى الحسن والرفعة
نسم : تغليبها . (٣) حبثها : المراد سويداء القلوب .

بدر تطلع في بدر ففترتـــــــــــــــه

كفيرة النصر تجلوداجي الظلم

يمدح الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأنه : أحسن من البدر، وأكرم من البحر، وأثبت من شم الجبال ، وأعظم ارتفاعاً وضياءً من النجوم ، وأشد بأساً من الأسد ، ثم ذكر أن الرسول محبوب حتى من أعدائه الذين أعجبوا بهبطوته وشجاعته .

وإذا تأملت قوله : (شم الجبال إذا طاولتها انخفضت) . وجدته يشير إلى ثبات الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويؤكد ذلك لفظ (شم) والتصيير بلفظ الجمع في (الجبال) كما أن قوله : (انخفضت) كناية عن ظهورها قصيرة بالنسبة إلى ارتفاع قدر الرسول ، وطوشأته . ولا يخفى أن الإضافة هنا من إضافة الصفة إلى الموصوف زيادة في التأكيد .

وكذلك قوله : (لو الأنجم الزهر ما واستها نسم) يدل على ارتفاع مكانة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وشدة ضوئه ، وعظيم هدايته ، أضف إلى ذلك أن قوله : (والليل دونك بأساً) . يدل على شجاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وشدة بأسه ، وأحسن الشاعر عند تقييد شدة بأس الأسد بقوله : (عد وشبهته) إذ في تلك الحالة يكون الأسد أشد بأساً ، ومع ذلك يكون هذا البأس الشديد أقل من بأس الرسول (إذا مشى إلى شاكي السلاح كهي) .

ثم أشار الشاعر إلى أن شجاعة الرسول وطولته كانتا سببا في حسب الأعداء إياه على الرغم من أنه يصيب قلوبهم بضرته ، وذلك في قوله : (تهفؤ إليك - وإن أدمنت حبتها في الحرب - أفئدة الأبطال :) . وبين شوقى أن تلك المحبة قد ألقاها الله (على ابن أمية) وهو الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا أنني أرى أن ذكر اسم والدة الرسول هنا غير مناسب للمقام ، أضف إلى ذلك أن الإنسان ينسب إلى والده لا إلى والدته .

أما قول الشاعر : (كأن وجهك تحت النقع بدروحي) فهو كما قال أحد الكتاب (١) : تصحير للبطولة في أعلى درجاتها ، لأنه وصف وجه النبى

(١) الإسلام في شعر شوقى ص ٦٠ .

بالإشراق والاستبشار والتطلق حيث تعبس الرجوه وتكفيهره ، ولمله نظر إلى
قول العتبي (١) :

تصربك الأبطال كلص هزيمة

ووجهك وضاح وتفرك باسم

ولا يخفى أثر الطهارة في قوله : (ملتما وغير ملتتم) فهو يدل على
أن وجه الرسول مشرق دائما ، كما أن قوله : (بدر تطلع في بدر) يلمح
إلى انتصار الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه في غزوة (بدر) ولا يخفى
أن بين قوله : (بدر بدر) جناسا ، ألقى على الألفاظ نورا على نور ، وأكد
الشاعر إشراق وجه الرسول بقوله : (غوته كفرة النصر تجلوداجي الظلم) ولا يخفى
أن في الكلام تشبيها لطيفا ، واستعارة مكنية جميلة ، ساعد كل ذلك على
بيان الفكرة وتوضيحها ، إلا أن ذكر لفظ (الظلم) بعد لفظ (دجسى)
بعد حشوا ، ولعل الشاعر أتى به للقافية .

وواصل شوقى مدح الرسول بقوله (٢) :

ذكرت باليتم في القرآن تكمية

وتيمية اللؤلؤ المكنون في اليتم

الله قسم بين الناس رزقهم

وأنت خيرت في الأرزاق والقسم

إن قلت في الأمر لا أو قلت فيه نعم

فخيرة الله في لا منك أو نعم

أخوك عيسى دعائنا فقام له

وأنت أحييت أجيالا من الرسم

والجهل موت ، فإن أوتيت مجسزة

فأبعث من الجهل أو فأبعث من الرجم

مدح الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بصفات تبين فضل الله عليه ،

(٢) الشواهد ج ١ ص ٢٥٠

(١) ديواننا ج ٢ ص ٣٠٠

ومنها : أن الله أشار إلى بئمة في القرآن الكريم ، وأن الله خيرته في مقدار رزقه ، كما أعطاه عقلا رشيدا ، وأيا سديدا إلى جانب عصته ، وأحيى على يديه كثيرا من الناس بإخراجهم من ظلمات الضلال والجهل إلى نور الهداية والعلم .

وإذا تأملت قوله : (ذكرت باليتم في القرآن تكريمة) وجدته يشير إلى قوله تعالى : " أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى " (١) ، ثم بين الشاعر أن هذا الذكر يدل على تفرد الرسول (صلى الله عليه وسلم) في صفاته ، وأتى بما يوضح ذلك فقال : (وقمة اللوطية المكون في اليتيم) .

ولا يخفى أن قوله : (الله قسم بين الناس رزقهم) يدل على قدرة الله وإرادته ، ولكنه جعل ذلك القول تمهيدا لقوله : (وأنت خيرت في الأرزاق والقسم) ، ولعله يلح بذلك إلى ما ورد عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) : أن الله تعالى قد عرض عليه أن يجعله (بطحا مكة ذهابا) ، فأبى وقال : لا يارب ولكن أشبع يوما ٠٠ وأجوع يوما - كما سبق (٢) - ولا شك في أن ذلك يدل على عظم مكانة الرسول عند ربه (جل جلاله) .

أما قوله : (إن قلت في الأمر لا أوقلت فيه نعم ٠٠) فيدل على كمال عقله ، وصحة رأيه ، ومحد نظره ، وتوفيق الله إياه .

ثم أشار شوقي بقوله : (أخوك عيسى دعا ميتا فقام له) إلى أن الأنبياء كلهم أخوة - وهذا ما أشار إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) (٣) - كما أنه يلح بقوله : (دعامتا ٠٠) إلى معجزة رسول الله عيسى (عليه السلام) وهي إحياء الموتى بإذن الله ، كما صح بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : " وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ " الآية (٤) .

(١) الضحى / ٦ .

(٢) انظر ص ١١٨ من هذه الرسالة .

(٣) المرجع السابق ص ٢٩٦ .

(٤) آل عمران / ٤٩ .

ولعل الشاعر مهد بقوله : (أخوك عيسى) ليعين فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : (وأنت أحييت أجيالا من الرمم) ، ولا يخفى أن في العبارة استعارة تصريحية تمجيدية ، رفعت شأن العلم وأكدت قيمته ، وأشارت إلى أن الجهل موت ، وهذا ما صرح به الشاعر في قوله : (والجهل موت) ففي هذه العبارة تشبيهه بليغ ، لا يخفى أثره في التشفيع على الجهل والتفير منه ، ولذلك قال الشاعر مجردا من نفسه شخصا يخاطبه - : (فإن أوتيت معجزة ، فابحث من الجهل ، أو فابحث من الرجم) ويصح أن يكون الخطاب للرسول ، ويكون قوله : (فإن أوتيت) للتحقيق ، كما تقول لابنك : إن كنت ابني فافعل كذا ، ويكون الأمر في قوله : (فابحث) بمعنى الخير ^(١) ، والرأي الأول أرجح ، لأنه يوجه كلامه لكل من يتأتى له الخطاب : إذا كنت تريد فعل شيء يشبه المعجزة ، فهو تعليم الجاهل ، وذلك لأنه يماثل بحث الميت ، ولا يخفى أن في عبارة الشاعر استعارة تؤكد نتيجة الجهل وعواقبه .

الحرب في الإسلام :

ثم تحدث شوقي عن الحرب في الإسلام بقوله : ^(١)

قالوا غزوت ورسل الله يا بمشوا

لقتل نفس ولا جأء والسفك دم

جهل وتضليل أحلام وسفطمة

فتحت بالسيف بمد الفتح بالقلم ^(٢)

لما أتى لك غوا كل ذي حسب

تقتل السيف بالجهال والعمم

والشر إن تلقه بالخير نقت به

ذرط وإن تلقه بالشر ينحسم

في هذه الأبيات يشير الشاعر إلى فرية اقتراها بعض أعداء الإسلام قائلين : إن الإسلام

(١) توضيح النهج ص ٨٥ .

(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٥١ .

(٣) سفطمة : المراد بها : إلياس الباطل ثوب الحق .

قد انتشر بحد السيف^(١) ، وهم في هذا مفترون .

وإذا تأملت قول الشاعر : (قالوا غزوت ورسل الله ما بحثوا لقتل نفس .) وجده
يشير إلى تلك الغزوة ، إلا أنه لم يشير إلى صفة هؤلاء القائلين إلا المشهورتهم
بما افتروه وإنما لتحقير شأنهم ، وعدم الاكتراث بهم .

ولعلمت طيبهم زعمهم ، وسفه رأيهم ، بقوله : (جهل وتخلييل أحلام وسفسطة .)
فبين في تلك الصبارة عدة أمور منها : إن الذي دغمهم إلى تلك الغزوة هو جهلهم
بوقائع التاريخ ، أو تجاهلهم إياها ، وإن هدغهم من وراء هذه الشبهة تتلويح
المقول عن فهم حقائق الأمور ، وهذا يلبسون الباطل ثوب الحق ، ولكن
الشاعر قد كشف عن الحقيقة بقوله مخاطباً الرسول (صلى الله عليه وسلم) : (فتحت
بالسيف بعد الفتح بالقلم .) ، وفي هذا القول كناية عن لطيفتان ، تشيران إلى أن
الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يستعمل السيف ، ولم يخض غاراته إلا بعد ما
دعا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأوذى هو ومن معه ، وهذا ما يشير
إليه التاريخ الصحيح الذي يشهد بأن الرسول مكث في مكة ثلاث عشرة سنة تقريباً
يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، متحملاً هو وأصحابه كل غت وأذى من
الكفار ، ولم يقف أمامهم بسيف ، ولم يكرههم حتى يكونوا مؤمنين .

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (لما أتى لك غوا كل ذي حسب .) غسطة
هؤلاء الذين أسلموا ولم يكونوا من ذوي الحسب ، وكانوا فقراء ، بل كانوا عبيداً
مثل بلال بن رباح الحبشي وغيره ، إلا إذا أراد الشاعر (بذوى الحسب) أصحاب
المقول ، - فالعقل كما يقال خير حسب - فيكون كلامه حينئذ لا غبار عليه ، وإن
كان فيه كلفة ، أنصف إلى ذلك أنه إذا صح تسليط السيف على الجهال -
الذالعين - في قوله : (تكفل السيف بالجهال والعم) فكيف سلط على (العم)
كما قال الشاعر ؟ ويبدو أنه أتى بلفظ (العم) للقافية .

ولقد أتى الشاعر بحكمة صادقة استخلصها من واقع هذا العالم المادي السذي

(١) حياة محمد ص ٥٧٧ - العقاد ما يزال عن الإسلام ص ١٢٩ وما بعدها - طبعة
دار الهلال سنة ١٩٦٦ ، والمقصد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه
ص ٢١١ وما بعدها - طبعة دار القلم سنة ١٩٦٦ .

لا تحترم فيه غير القوة ، ولا يوبأب فيه إلا طاحيا للصولة ، تأمل ذلك في قوله :
 (والشراين تلقه بالخير ضقت به ذرعا ٠٠) ولعل الشاعر يميل إلى مصاطة السبئية
 بالسبئية كما قال الله تعالى : **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ٠٠** الآية (١) ؛ لأن من الناس
 من إذا دفتت بالتي أحسن سيئاتهم ظنوا ضمفلكه ، وانتبهشوا عرضك ولحمسك
 فهو لا . يعاملون بقانون : (**فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى
 عَلَيْكُمْ ٠٠** الآية) (١) إذ في ذلك حمم طصهم ، وهذا ما أشار إليه عوقسى
 بقوله : (٠٠ وإن تلقه بالشر ينحسم) .

ويبدو أنه أتى بلفظ (الشر) مريدا به (القوة) على سهيل المشاكلة (٢) ، ولا
 يخفى أثرها في بيان المحللة بالمثل ، فيرجح الممتدى خشية أن يقلص منه ،

ثم جرد الشاعر من نفسه شخصا يقول له (٣) :

سبل المسيحية الفراء كم شرسيت

بالصاب من شهوات الظالم الظلم (٤)

طريدة الشرك يوفد بها ويوسمها

في كل حين قتالا ماطح الحسدم

لولا حماة عبوالنصرتم

بالسيف ما انتصمت بالرفق والرحم

لولا مكان ليمسى عند مرسله

وحرمة وجهت للرج في القسدم

لمر البدن الطهر الشريف على

لوحين لم يخش موثبه ولم يجسم

جبل المسيح وذاق الصلب ثنائسه

إن المقاب بقدر الذنب والجسدم

أخوالنبي وروح الله فسي نسسزل

فوق السماء ودين العرش محترم (٥)

(١) البقرة : ١٩٤ (٢) هي : ذكر الشيء بلفظ غيره ، لوقوه في صحيفه ٠٠ انظر

التلخيص في علوم البلاغة ص ٢٥٦ وما بعدها .

(٣) الرشقيات ج ١ ص ٢٥١ وما بعدها .

(٤) الظلم : يفتح فكسره الهائج النائر . (٥) روح الله : أي روح منه ، لأنه نفخة من

أمره قال تعالى **فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ٠٠** الآية ، التحريم ١٢/ .

يبين الشاعر مدى ما لحق بالمسيحية وأهلها - من ظلم وتشريد - فكسسه
ما يدعيه بعض الأدعياء من أنها نشرت بالسلم لا بالحرب كإسلام .

وإذا تأملت قول شوقي : (سل المسيحية الفراء) وجمده نزل المسيحية
مغزلة من يمال وجيبه وفي ذلك مجاز لا يخفى أثره في توجيه السؤال إليهما
مباشرة حتى تضبك عما لحقهما وأهلها من أذى واضطهاد ويؤكد ذلك قوله :
(كم شهت بالصاب من شهوات الظالم) ولعل العبارة تشير إلى كسرة
ما وقع بالمسيحيين من ظلم وكيد وتشريد^(١) ، وهذا ما وضعه الشاعر بقوله
(طريدة الشرك يوفديها ويوسمها) .

ثم يبين شوقي كيف دافع المسيحيون عن المسيحية وحملوا السلاح نسي
وجه الظالمين بقوله : (لولا حمة لها هبوا لنصرتها بالسيف) وفي ذلك
رد حاسم على من زعم أن القتال صاحب الإسلام فحسب ، أما المسيحية فهي
دين سلام ، ولم يعمل أهلها السلاح في وجه أحد ، يريد من وراء ذلك
تفضيل المسيحية على الإسلام ، وتفضيل رسول الله عيسى (عليه السلام) على
رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ويؤكد ذلك ما نقله أحد الكتاب
من أحد هؤلاء المفتريين إذ قال : " ٠٠ " ففرق بين أحدهما بفرض بقوة السلاح
قانون الحاكم الأعلى الذي لا محيص عنه (يقصد رسول الله محمد) ، وآخر
يجتنب ناسه بقوة الحب : حب الأرب الجامع الشامل المعطوف (يقصد رسول
الله عيسى)^(٢) ، وقال آخر : " ٠٠ " إلا أن الرسول - محمداً - مما دام قد
أمسك أن يكون مسامحا ، وما دام قد ذهب إلى أن ينتصر للحق بالأفتيال الخفي
والعرب المشفونة . . . فقد طبع نفسه ودينه بطابع الضعف البشري والفتاة . . .^(٣)

إن مثل هذا الفتاء ، وذلك الهراس ، هما اللذان دفعا الشاعر للحديديت
عن المسيحية حتى يقرع الحجة بالحجة ، والتاريخ خير شاهد على مدى ما اتصف
بم الرسول (صلى الله عليه وسلم) من تصامح ، ولنفس معنى ذلك أن نبي الله

(١) الموسوعة التبصرة ص ٨٩٩ وما بعدها .

(٢) الدكتور / حلمي مرزوق : شوقي وقضايا العصر والحضارة ص ١١٨ طبعة دار
المعارف بمصر سنة ١٩٧٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٦ .

عيسى لم يكن كذلك ، بل إنه كان كذلك أيضا ، ولكن الظلم هو الظلم .

وأراد الشاعر أن يبين ما دبره الظالمون لعيسى (عليه السلام) فقال : (لولا
مكان لعيسى عند مرسله . . لسمر البدن الطهر الشريف على لوحين . .) فما
الذي فعله نبي الله (عيسى) حتى يدبر له ذلك ؟ إنه لم يفعل شيئا
سوى أمره الناس بحبادة الله وحده ، ولعلك تلاحظ أن عبارة الشاعر تدل على
احترامه لنبي الله (عيسى) ، ولم لا يكون ذلك وهو مسلم ، وإسلامه يأمره بالإيمان برسل
الله جميعا : " لَا تَفْرِقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ . . الآية " (١) وهذا الإيمان بهم
يتطلب احترامهم .

ولقد أراد الظالمون صلب نبي الله عيسى (عليه السلام) فكان الله حفظه
وعذا ما أشار إليه شوقي بقوله : (جل المسيح وذاق الصليب شائته) ، وفي ذلك دلالة
على أن الشاعر متمسك بقول الله : " وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ " . . الآية (٢) .
ولما كان المكر السيء لا يحيق إلا بأهله كانت هذه الحكمة صادقة : (إن المقاب
يقدر الذنب والجرم) ، ولا يخفى أنها بمثابة الزجر لمن تسول له نفسه الاعتداء على
غيره ، لأن عين الله لا تنام .

وفي البيت الأخير يؤكد الشاعر أن عيسى (عليه السلام) أخو محمد (صلى
الله عليه وسلم) أي في الرسالة ، فلا معنى للتعصب لأحدهما ضد الآخر ،
ثم أكد رفع عيسى (عليه السلام) ، فقال : (. . روح الله في نزل فوق السما)

إن حديث الشاعر عن المسيحية ، وما عاناه أهلها من تشريد وتعذيب
يدل على ثقافته التاريخية ، ولعله أول من أشار إلى العرب في الإسلام مفسدا
مزاعم الأفاكين - كما سمأسي -

ثم خاطب شوقي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله (٣) :

علمتهم كل شيء يجهلون به

حتى القتال وما فيه من الدم

(٢) النساء / ١٥٢

(١) البقرة / ٢٨٥

(٣) الشوقيات ج ١ ص ٢٥٢

دعوتهم لجهاد فيه سواد دهم
والحرب أسى نظام الكون والأصم
لولا لم نر للدولت في زمن
ما طان من عمد أو قسر من دعم
تلك الشواهد تشيرى كل آونة
في الأصر الفزلا في الأصر الدشم
بالأسى ما لت عروش ما عتلت سر
لولا القذا ثقلم تلم ولم تضم
أشباع عيسى أعد وا كل قاصمة
ولم نعد سوى حالات منقصم

يبين الشاعر أن رسول الله قد علم المسلمين كل شيء وحتى قوانين الحرب ،
وما فيها من الصمود ، ودعاهم إلى الجهاد دفاعا عن الدين والنفس والوطن .
ثم ذكر الشاعر أنه لولا الجهاد ما رأينا دولا ذات حضارة ، وأخرى
اندثرت حضارتها لضغفها ، واعتداء المعتدين عليها .

وإذا تأملت قول الشاعر : (علمتهم كل شيء) وجدته يشير إلى اهتمام
الرسول بكل ما ينفع أمته ، إلا أن قوله : (يجهلون به) بعد قوله : (علمتهم كل
شيء) يمدح حسوا ، لأنه كيف يعلمهم كل شيء إذا لم يكونوا جاهلين به ! ، وفي
قوله : (حتى القتال وما فيه من الدم) تأكيد يذكر الخاعر بعد المام ، وذلك
للإهتمام بشأنه ، وفيه - أيضا - تلميح إلى ما كان يوصى به الرسول (صلى الله
عليه وسلم) أصحابه عند القتال مثل قوله : " لا تملوا ، ولا تغدروا ، ولا تقتلوا
وليدا .. (1) ."

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (دعوتهم لجهاد فيه سواد دهم) بيان
لفائدة الجهاد ، حتى لا يطمع في المسلمين ظالم ، أو يتجور عليهم ظالم ، ثم
أن بحكمة صادقة ألفتها ظروف المصير ، وذلك في قوله : (والعرب أس نظام الكسبون
والأم) ولعله يريد بلفظ (الحرب) القوة ثم أكد تلك الفكرة بقوله : (لولا لم نر

(1) زاد المعاد في هدى خير العباد ج ٢ ص ٦٤ وما بعدنا .

للدولت في زمن ٠٠) غلولا القوة لم نر دولة تقدمت وأخرى هوت حضارتها لضعفها
 وفي قوله: (ما طال من عهد أوتز من دعم) كناية لطيفة عما يستقيم به نظام العالمك
 ويرتفع به شأن الأمم ، وهذا كله مشاهد (في الأعرس الفرلا في الأعرس الدهم)
 ولا يخفى أن في المباراة طهالما بين قوله : (الفر والدهم) أكد الفكرة ووضحها
 إذ التقدم مشاهد في عصر الملم أكثر من مشاهدته في عصر الجمل .

ولعل الشاعر يحتج المسلمين على أن يكونوا أقوى ، فقال : (بالأمس
 ما لتعروش ٠٠) ثم بيّن قبضة القوة المادية بقوله : (لولا القذائف لم تلم ولم دهم)
 وهذا هو المشاهد في عالم اليوم ، ثم أكد تلك الفكرة بقوله : (أشياح عيسى أمدوا كل
 قاصدة ٠٠) أي أن القوة المادية هي التي مكنت الصليبيين في التحكم في أجزاء كثيرة
 من العالم ، وكم حاربوا دولا ، وأوقدوا نارا للحرب ، وهم الذين يتباهون بأنهم
 أهل سلم وسلام ، وحب ووثام ، ولم يستطع أحد أن يوجههم بغير طرمونا به ، من أنسلا
 (لم نعد سوى حالات منقسم) للدفاع عن أنفسنا ، لا للاعتداء على غيرنا .

وأراد الشاعر أن يصف أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وبين شجاعتهم
 فقال (١) :

مهما دعيت إلى المهبجاء قمت لها
 ترمى بأسد ويرى الله بالرجيم
 على لوائك منهم كل منقسم
 لله مستقتل ، في الله محسزم (٢)
 مسح للقاء الله مضطرم
 شوقا على سابع كالبرق مضطرم
 لو عادت الدغر يهضى نقلة ترمى
 بعزمه في رجال الدغر لم يرمى
 بيض مغاليل من فعل العروب بهم
 من أسيف الله لا الهديفة الخدم

(١) الوهقيات ج ١ ص ٢٥٢ .

(٢) على لوائك : المراد تحت لوائك .

كم فس التراب إذا فتحت عن رجل
من مات بالجهاد أو من مات بالقسم
لولا مواهب في معنى الأنام لـ
تفاوت الناس في الأقدار والقيم

بخاطب شوقى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلا : حينما تدعى إلى الحسب
يارسول الله - تلبى النداء مع جنود شجمان ، وأبطال ذوي بأس شديد ، يجاهدون
فى سبيل الله ، ويشوقون إلى الشهادة ، ويجادهم نشيطة مسرعة ، وسيوفهم لامة
قائمة ، ثلثت من الحرب .

وإذا تأملت قوله : (صهما دعيت إلى الهيجا قتلتها .) وجده أنتى بالقل
(دعيت) بئيا للمجهول ، وفى ذلك إشارة لطيفة إلى أن الرسول (صلى الله عليه
وسلم) لم يدع إلى الحرب ، بل كان هو الذى يدعى إليها ، ويجير على خوضها
لا لشيء ، إلا لأنه يحب السلام ، فإذا لم يجد مفرًا من القتال كان كما قال الشاعر :
(قتلتها ترى بأسد ويرى الله بالرجم) خرج إلى القتال وهو على أم استمداد
لها ، بجنوده الشجمان ، ولا يخفى أن فى قوله : (ترى) كناية عن ندبه إياهم
للجهاد ، كما أن فى قوله : (بأسد) تشبيها لطيفا يدل على قوة الصحابة وشجاعتهم ،
ولما كان الرسول يحارب أعوان الكفر ، وإخوان الشيطان أحسن الشاعر فى قوله : (ويرى
الله بالرجم) لأن الرجوم لا يرى بها إلا الشياطين ، وفى هذا التفسير يشبه
الشاعر الكفار بالشياطين لأنهم يصدون عن سبيل الله ، ولعل الشاعر يقصد تشبيه
روح الصحابة بالرجم فيكون فى الكلام استمارة مكنية توحى بمهارة الصحابة وقدرتهم
على إصابة الأعداء .

ثم أكد شوقى قوة هؤلاء الصحابة وشجاعتهم فقال : (على لوائك منهم كبل
منقم .) لأنه يصفهم بأنهم تحت لواء رسول الله - فنعم اللواء ونعم صاحبهم -
وهم ينقمون لله ، ويجاهدون فى سبيل الله ، وكل منهم : (مسيح للقاء الله
مضطرم شوقا .) إلى الاستشهاد فى سبيل الله ، ولذلك يقاثنى (على سابع كالبرق مضطرم)
فإذا كان الجندى كما قال الشاعر : (مسيح ومضطرم) وفرسه : (سابع ومضاميم) بل
(كالبرق) فإن هذا يدل دلالة كبيرة على صدق النية فى الجهاد ، وقوة المزمومة
ويؤكد ذلك تلك الاستمارة المكنية فى قول الشاعر : (لوصادف الدهر يضى نقلة .)
ويتبدد تأكيدا تشبيه المزم بالسهم - بطامع العظاء والنقود فى كل .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين أن هؤلاء الجنود قد جموا كل ما يحقق لهم النصر على أعدائهم ، فأشار إلى سيفوفهم بقوله : (بيض مفاليل) ويجوز أن يكون هذا الوصف لهم فشبهم بالسيف لإزهاق نفوس الأعداء فيكون من قبيل التشبيبه البليغ ، (مغاليل) ترشيح للتشبيه بالسيف ، وأحسن عندما قال : (من أسيف الله لا الهندية الخدم ، لأن هذا يدل على مائة تلك السيوف ، إذ صنع اللسمة يفوق صنع البشر ؛ لأنه خالق القسوى والقدر .

وإذا تأملت قوله : (كم في التراب إذا فتشت عن رجل من طك بالصهد . .) وجدته يشير إلى كثرة استشهاد هؤلاء الصحابة ، لأنهم طهروا الله على الجهاد حتى الاستشهاد ، فصدقوا في عهدهم ولعل الشاعر نظر في ذلك إلى قوله تعالى : **مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ . . الآية (١) .** إلا أن قوله : (كم في التراب) غير مناسب للمقام ، ولو قال (كم في الجنان . .) لكان أولى ، ألم يسمع قول الله تعالى : **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحياءٌ عند ربهم يُرزقون . . الآية (٢)﴾**

ثم أشار الشاعر إلى تفاوت الناس في المنازل تبعاً لتفاوتهم في الأقدار والقيم بقوله : (لولا ما هبني بعض الأنام لما تفاوت الناس . .) وفي ذلك إشارة إلى أن أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم ينالوا تلك الدرجات العالية إلا بصدقهم مع الله ، وجهادهم في سبيل الله ، وهذا يدفع الناس إلى التسابق إلى ما يرضى الله ، لكن ينالوا أعظم الثواب من الله تعالى .

إن ألفاظ الشاعر مناسبة للفكرة مثل : (الهبيط ، أسد ، الرجم ، لوائك مضتم ، مضارم ، بيض ، مفاليل ، الخدم) ، ولا يخفى أن الشاعر أتى ببعض المحسنات البديهة التي لا يخفى أثرها في توضيح الفكرة ، مثل التكرار في (مضطرم) و (الدهر) و (مات) .
الشريعة الإسلامية :

ثم تحدث شوقي عن الشريعة الإسلامية فقال (٢) :

(١) الأحزاب / ٢٣ . (٢) آل عمران / ١٦٩ - ١٧١ .

(٣) الشوقيات ج ١ ص ٢٥٣ وما بعدها .

شريعة لك فجرت العقول بهما
عن زاخر بصنوف الملم طططم (١)
يلوح حول سنا التوحيد جوهرها
كالحلل للميفأ وكالوشى للملكم
فراء حامت عليها أنفس ونهسى
ومن يجد سلماً من حكمة بهم
نور السبيل يماس العالمون بهما
تكتلت بشباب الدهر والهيم
يجرى الزمان وأحكام الزمان على
حكم لها نافذ في الخلق مرتسم
لما اعطت دولة الإسلام واتصفت
مشيت مما لكه في نورها التسم
وطئت أمة بالتقربنا زليمة
رعى القياصر بعد الشاء والنم

يبين الشاعر أن الشريعة الإسلامية شريعة العقل والحكمة ، وإذا كان جوهرها
التوحيد ، فإن الملم هو زينتها ، ولذلك سلمت بها العقول النيرة ، واستمافتها
النفوس المهدية ، كما أنها تهدي إلى أحسن السبل ، وأحكامها صالحة لكل
زمان ومكان ، وتسمى بأصحابها إلى الملا .

وإذا تأطمت قول الشاعر : (شريعة لك) وجدت لفظ (شريعة) نكرة
منونة ولعل ذلك إشارة إلى تعظيمها ، كما أن لفظ (لك) يفيد اختصاص الرسول
بها ، لأنها نزلت عليه وقوله : (فجرت العقول بهما) يبين أثرها الكبير في العقول ،
ومخاصة ، لأنها كشفت عن (زاخر بصنوف الملم طططم) ولا يخفى ما في قوله : (زاخر)
- صفة لموصوف محذوف وهو البحر - من استمارة تصريحية أشارت إلى سمة تلك
الملم ، وفزارة تلك المعارف التي أتت بها تلك الشريعة .

وإذا كان لب هذه الشريعة هو (التوحيد) فإن الملم حوله : (كالحلل للميف
أو كالوشى للملم) ولا يخفى ما في التشبيهين من إيضاح وبيان منزلة الملم بالنسبة إلى
السى

(١) عن : بمعنى (من) .

تلك الشريعة • ثم بين الشاعر مدى إقبال الناس على تلك الشريعة فقال : (غسراء
حامت عليها أنفسي ونهني ٠٠) ففي هذه العبارة استمارة مكنية ، ولم يلم ذكر النهي
بمد الأنفسي إشارة إلى تأشير الشريعة الكبير في النفوس والحقول معا • وأكد
تلك الفكرة بحكمة صادقة تجرى مجرى المثل في قوله : (ومن يجد سلسلا من حكمة
يحيي) • وفي ذلك حث على الإقبال على كل ما ينفع •

إن هذه الشريعة تبيّر الطريق لمن يهتدي بهديها • فهي (نور السبيل يساس
العالمون بها) بل إنها (تكفلت بشباب الدهر والبهيم) ولا يخفى ما في هذه
العبارة من كناية لطيفة عن أول الزمان وآخره أو عن حالتي إقباله وإدباره • وهي
تؤكد صلاحها لكل زمان ومكان • وهذا ما ذكره الشاعر صراحة في قوله : (يجرى الزمان
وأحكام الزمان على حكم لها نافذ ٠٠) ولا يخفى أن في قوله : (يجرى الزمان) مجازا
مرسلا ، والأصل (يجرى أهل الزمان) كما أن الشاعر عبر بالمظهر موضع الضمير في قوله :
(وأحكام الزمان) وكان حقه (وأحكامه) ولمل ذلك للمناية بأمر الزمان الذي يتغير
فيه كل شيء • ومع ذلك لم تتغير أحكام الشريعة الإسلامية وهذا يدل على أن الله
جعلها صالحة لكل زمان ومكان • كما يدل على عظيم علمه جل جلاله •

ولقد أراد الشاعر بيان أثر تلك الشريعة فقال : (لما اعتلت دولة الإسلام واتسعت
وزاد ذلك بيانا وتأكيدا بقوله : (مشمت مالكه في نورها التم) ويبدو أن الشاعر قد
فك الإدغام في قوله : (التم) للثقافية • وكان أصله (التام) •

وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد أثارت للمالك طريقها • فإنها جعلت من المرب
أهل البدو الضماف • جعلت منهم سادة على ملك كسرى وقيصر : (وطمت أمسة
بالتفخر نازلة ربي القياصر ٠٠) وهكذا تغير حال المرب الذين كانوا يرمعون (الشناء
والنعم) وأصبحوا سادة وقادة بفضل الشريعة الإسلامية •

ولم يقف أمر الشريعة عند ذلك الحد • بل أشار الشاعر إلى صفات أخرى
يقوله (١) :

كم شيد المصلحون الماطون بها
في الشرق والضرب ملكا باذخ المعظم

للملم والمدل والتمدين ما عزموا
من الأمور وما شدوا من الحزم
سرطان ما فتحوا الدنيا لملتهم
وأنهلوا الناس من سلعاها الشيم
ساروا عليها هداة الناس فمن بهم
إلى الفلاح طريق واضح المظم
لا يهدم الدهر ركننا شاد عدلهم
وحائط البقي إن تلمسه ينهدم
نالوا السعادة في الدارين واجتمعتوا
على عيم من الرضوان مقتسم

يذكر شوقي أن من أثر الشريعة الإسلامية أنها كانت سببا في إقامة ملك عظيم
على يد المصلحين الذين تمسكوا بها في كل مكان ، وكان أساس هذا الملك العظيم
والصمد ، كما كانت سببا في فتح كثير من بلاد العالم ، التي ذاق أهلها
حلاوتها ، وهدتهم إلى طريق الفلاح والنجاح .

وإذا تأملت قوله : (كم شيد المصلحون العاطون بها . .) وجدته يدل على
كثرة ما شيده هؤلاء المصلحون ، وأحسن الشاعر عندما وصفهم بأنهم : (العاطون
بها) ثم أتى ببطبات يدل على الصوم والشمول في قوله : (في الشرق والغرب) وهذا
يوكد أثر الشريعة المسحة التي أقام المصلحون بسببها : (ملكا باذخ العظم) .

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (للملم والمدل والتمدين ما عزموا من الأمور)
بياننا لأهم الأسس التي أقام عليها هؤلاء المصلحون ذلك الملك العظيم ، مما
جمل الناس يمججون بتلك الشريعة الإسلامية ، ويقبلون على النهل (من سلعاها
الشيم) وفي هذه العبارة مجاز لا يخفى أثره في بيان حسن تلك الشريعة والإشارة
إلى عظمة أحكامها التي تجذب الناس إليها .

ولقد أكد الشاعر الفكرة السابقة بقوله : (ساروا عليها هداة الناس . .) فهذا
يدل على أن جزءا من تمسك بهذه الشريعة وسار عليها ، وأخذ بأحكامها ، حاله
كونه داعيا الناس إليها ، أن يحظى بطريق (إلى الفلاح . . واضح العظم) .

ولعل قول الشاعر : (لا يهدم الدهر ركننا شاد عدلهم) يشير إلى قوة أسس وأحكام تلك الشريعة ، ولا يخفى أن في إسناد الفعل يهدم إلى (الدهر) مجازاً مرسلًا يوحي بتشخيص الدهر وبيان أثره - كما أن في قوله : (ركننا شاد عدلهم) استعارة مكنية توحى بمطابقة ذلك البناء الذي أسس على أحكام تلك الشريعة ومنها العدل ، وأى بحكمة صادقة تؤكد وهن البناء الذي يقوم على الظلم فسق قوله : (وحائط البنى إن تلصق ينهدم) وفي تلك العبارة استعارة مكنية ، كما أن قوله : (تلصق) يوحي بشدة ضعف ذلك البناء الذي ينهدم عندما تلصق ، والبيت الأخيريين جزء من يوصل بأحكام الشريعة الإسلامية ، كما يدعوا الناس إلى العمل بسبيلها في ذلك نيل (السعادة في الدارين) ويصعد وأن الشاعر أراد أن يشير إلى أن الداعي إلى الخير له ثواب عظيم ، مثل ثواب من يفتل ذلك الخير ، فقال : (واجتمعوا على عييم من الرضوان مقتسم) .
ثم بين شوقه أن الدين الإسلامي ليس شريعة فحسب ، بل شريعة وحضارة فقال (١) :

دع عنك روما وآثينا وما حوتما
كل البيوات في بغداد والتوم (٢)
وخل كسرى وإيوانا يدل به
هو على أشر النيران والأيم (٣)
واترك رعميس ، إن الملك مظهره
في نهضة العدل ، لا في نهضة الهرم (٤)

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٤ وما بعدها .
(٢) روما : مدينة إيطالية ، يطلق عليها (المدينة الخالدة) وهي مركز ثقافي وفني وديني منذ عهد طويل ، وبها - الفاتيكان - مقر البابوية - انظر الموسوعة الميسرة ص ٨٩٨ ، آثينا : مدينة تاريخية زعيمة الحضارة والديمقراطية في العالم الإغريقي القديم ، كما أنها خاصة بلاد اليونان ، وهي مركز ثقافي وديني وبها مقبر - الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية ، انظر المرجع السابق ص ٥٢٠ ، بغداد : مدينة عراقية كانت خاصة للدولة العباسية وركزها في العلم والحضارة مشهور غير منكور . السوم : جمع تومة وهي الحبة من الفضة تُعمل على شكل الدرة .
(٣) الأيم : المراد الدخان . (٤) رعميس : اسم بعض الخرافة - حكام مصر القدماء - ويطلق على طائفة من حكام المصريين ١٩٠٠ - ٢٠٠٠ : انظر الموسوعة الميسرة ص ٨٢٩ . السهرم : المراد أهرامات مصر ، وهي كثيرة وأشهرها الأهرامات الثلاثة التي توجد بالجيزة - إحدى محافظات جمهورية مصر العربية - وهي التي بناها قدماء *

يشيد الشاعر بحضارة بغداد التي كانت أعظم وأكمل، وأكثرها قوى من حضارة روما وأثينا وفارس ومصر، إنسانية ونهوضاً
وإذا تأملت قوله : (٥٥ كل اليواقيت في بغداد ٥٥) وجدته يشير إلى حضارة بغداد التي كانت طمعة للخلافة الإسلامية في عهد الدولة العباسية ، كما أن قوله :
(واخل كسرى وإيوانا ٥٥) يشير إلى حضارة بلاد فارس التي ذهب روائها ، واندثرت معالمها ، لأنها لم تكن قائمة على أساس متين ، وآية ذلك ، أن إيوان كسرى (٥٥ هوى على أثر النيران ٥٥) ولعل الشاعر يقصد بالغيران تلك النار التي أطلقت يوم مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما سبق .

ولا يخفى أن في قوله : (وأترك رعسيين ٥٥) إشارة إلى حضارة مصر الفرعونية ، ولقد أتى الشاعر بحكمة صادقة في قوله : (إن الملك مظهره في نهضة المدل لا في نهضة الهرم) وهو في هذه العبارة يبين أن المدل أساس الملك ، وأن الحضارة لا ينهض بناؤها ولا يقوى صرحها إلا إذا قامت على أساس متين من الأخلاق العظيمة والصفات الحميدة ، والتي تنهض بالنفوس ، وتتقى القلوب ، وليست النهضة فسي هزم يشيد ، أو في مصنع يقام ، مع الظلم المنتشر ، أو الخلق السيء أو النفس الأتارة بالمؤء ، ويبدو أن الشاعر يعد الحضارة كل الحضارة فيما كانت قائمة على أسس مضمونة بجانب الأسس المادية ، لأنها هي التي تبقى ، أما الحضارة التي تقوم على الناحية المادية فحسب ، فهي لا تلبث أن تنهار ، ولذلك قال (١) :

دار الشرائع روما كلما ذكـرت

دار السلام لها ألفت يد السلام (٢)

ما ضارعتها بيانا عند ملتـام

ولا حكمتها قضا عند مختـام

ولا احتوت في طراز من قياصرها

على رشيد ومأمون ومختـام (٣)

من الذين إذا سارت كتابهم

تصرفوا بحدود الأرض والتخـام

= المصريين والذين منهم (رعسيين) الذي أشار إليه الشاعر ، وهو لم يقصده بعينه بل يقصد ملوك مصر القداماء بحامه . (١) الشوقيات ج ١ ص ٢٥٥ وما بعدها .

(٢) دار السلام : اسم من أسماء (بغداد) .

(٣) رشيد / المراد هارون الرشيد ، أحد الخلفاء العباسيين ، بلغت الدولة العباسية أوجها في عهده توفي سنة ١٩٣ هـ . مأمون : المراد عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، خليفة عباسي توفي سنة ٢١٨ هـ . مختصم : المراد أبو إسحاق محمد المختصم ابن هارون الرشيد ، خليفة عباسي توفي سنة ٢٢٢ هـ .

ويجلسون إلى علم ومعرفة
فلا يمدّ السون نسي عقل ولا فهم
يطأطن العلماء الهام إن نهضوا
من هيئة العلم لا من هيئة الحكم
وسمطرون فما بالأرض من محمل
ولا بمن بات فوق الأرض من عسدم

يبين الشاعر فضل دار السلام - وهي عاصمة الخلافة الإسلامية في عهد المباسين
كما سبق - فيقول : إذا كانت روما قد عرفت بعظم قوانينها ، وفصاحة شمرائها ،
وقوة ملوكها ، فإن دار السلام قد فاقتها في كل ذلك .

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (دار الشرائع روما) إشارة إلى ما عرفت به
روما قديماً من شهرتها في وضع القوانين ، إلا أن قوله : (كلما ذكرت دار السلام
لها) (٥٥) يبين فضل دار السلام على روما ، ويؤكد ذلك تلك الاستمارة المكنية نسي
قوله : (ألفت يد المسلم) إذ توحى بالتسليم لها بالفضل .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يوضح ما أجطه في البيت الأول فقال : (ما ضارعتها
بيانا) (٥٥) وفي هذه العبارة تصريح بكثرة وفصاحة الخطباء والشعراء في بغداد
ولعل الشاعر يشير بقوله : (عند طام) إلى ما عرف عن الرومانيين أنهم كانوا
إذا نزل بهم أمر عظيم نفروا إلى بعض الأماكن المأهولة للاستماع إلى الخطباء والشعراء ،
كما كان الخطباء يخطبون أمام القضاة في المحاكم (١) .

ثم أشار الشاعر إلى فضل آخر لدار السلام بقوله : (ولا حكتها قضاء عند مختصم)
يقول : إن روما لم تضارع دار السلام في قضائها وهذا حق لأن دار السلام
كانت تحكم بين الناس بشريعة الله ، أما روما فكانت تحكم بقوانين وضعها الناس ، وفوق
كبيرين شريعة الله وقانون البشرية بل إن شريعة الله أجلى من أن يقاس بها
غيرها .

أما قوله : (ولا احتوت في طراز من قياصرها) فهو إشارة إلى فضل الخلفاء
المسلمين في دار السلام على قياصرة روما ، وأشار الشاعر إلى (رشيد ومأمون ومختصم)

(١) التوجيه الأدبي ص ٤٥ وما بعدها .

لأن الحضارة الإسلامية في عهدهم قد بلغت عظمتها ، ويبدو أن الشاعر ذكرهم على سبيل المثال لا الحصر بدليل قوله : (من الذين إذا سارت كتابهم تصرفوا) . وفي ذلك إشارة إلى كثرة جيوشهم ، وشجاعة أبطالهم .

ثم ذكر شوقي أن الخلفاء المسلمين قد جمعوا إلى شجاعتهم وقوتهم ، تواضعهم للعلم والمعرفة بقوله : (ويجلسون إلى علم ومعرفة) . فكانوا علماء فقهاء ، بكل كانوا : (لا يدانون في عقل ولا فهم) حتى إن الملما احترامهم وأجلوهم (من هيئة العلم لا من هيئة الحكم) ولا يخفى أن في قوله : (يطاق الملما الهام إن نجوا) كناية عن تواضع الملما للحكام ، إلا أن لفظ (يطاق) لا يناسب مقام الملما .

وانتقل الشاعر إلى الحديث عن كرم هؤلاء الحكام بقوله : (ويمطرون فما بالأرض من محل) . ولا يخفى أن في تلك العبارة استعارة مكنية تشير إلى غزارة عطاء الخلفاء وشموله ، ويؤكد ذلك قوله : (ولا يمن بات فوق الأرض من عدم) .

والملاحظ أن الشاعر قد رفع مكانة الخلفاء المسلمين وخاصة من ذكر أسماهم ، كما أشار إلى علمهم وكرمهم ، ويبدو أنه نسي أن المأمون - كما ذكرت كثير من الكتب هو مؤيد فكرة خلق القرآن الكريم ، ولم أؤدى في عهده من الملما الذين رفضوا ذلك كما نهج المعتصم نهجه بعد وفاته (١) .

ثم أشار شوقي إلى فضل بعض الخلفاء المسلمين بقوله (٢) :

خلاف الله جلوا عن موازنة

فلا تحس أملك الوري بهم (٣)

من في البرية كالفاروق معد لسة؟

وكابن عبد المنيز الخاشع الخم (٤)

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٥ ، عبد الحليم الجندی : أحمد بن حنبل ج ٤٤٥ ص ٤٦٣

وما بعدها - مطالب الأهرام التجارية بمصر سنة ١٩٧٠ .

(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٥٦ .

(٣) أملاك : جمع ملك (بفتح فكسر) معروف .

(٤) الفاروق : المراد به عمر بن الخطاب - ابن عبد المنيز هو : عمر بن عبد المنيز بن مروان

أحد خلفاء بني أمية ، عرف بورعه وتقواه ، توفي سنة ١٠٦ هـ انظر مروج الذهب ج ٢

ص ١٤٣ وما بعدها .

وكالإمام إذا ما فنى مزه حـ

بمصح نبي مقسم القوم مزه حم

الزاهر المذب في علم وفي أدب

والناصر المذب في حرب وفي سلم

يشيد الشاعر بمكانة خلفاء المؤمنين ، المتأخرين مثل الرشيد والمأمون والمعتصم ،
والمقدمين مثل: عربين الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز والإمام علي (رضی الله عنهم
جميعاً) .

وإذا تأملت قوله : (خلايف الله جلوا عن موازنة) وجده يشير إلى رفعة
هؤلاء الخلفاء ، ولعل ما يؤكد ذلك أنه أضاف (خلايف) إلى لفظ الجلالة
فانكسب المضاف من المضاف إليه التشريف والتكريم ، ثم زاد ذلك تأكيداً بقوله :
(جلوا عن موازنة) فالشاعر يجعلهم عن الموازنة بأحد مهما كان شأنه ولذلك قال :
(فلا تقيس أملاك الوري بهم) .

ولا يخفى أن الشاعر يشيد بمدل أمير المؤمنين عربين الخطاب (رضی الله عنه)
في قوله : (من في البرية كالفاروق معدلة) بل إنه يستعمل أن يجد من يشابهه
في عدله ، ويؤكد ذلك هذا الاستفهام الدال على البعد .

كما أشاد الشاعر بشدة وروع الخليفة عمر بن عبد العزيز ، ولعله أتى به بعد
ابن الخطاب مع بعده عنه في الزمن لشبهه في وروعه ، بالإضافة إلى اتحادهما في الاسم
ثم انتقل شوقه إلى الإشادة بأمر المؤمنين علي بن أبي طالب الذي أوتي الفصاحة
والبيان فإذا خطب في جمع انفض ذلك الجمع والدموع تملأ عينيه من شدة التأسيير
ولا يخفى ما في تكرار لفظ : (مزدحم) من بيان قوة تأثير الإمام ، وكيف لا يؤثر
وهو (الزاهر المذب في علم وفي أدب) ولا يخفى ما في العبارة من عموم ، مسرده
إلى صانعيه ~~اليس~~ قوله : (علم وأدب) ثم أكد الشاعر فضل الإمام بقوله :
(والناصر المذب في حرب وفي سلم) ، ولا يخفى أيضاً - أثر الطباق في قوله
(حرب وسلم) إذ يبين عظمة الإمام وشجاعته في كل أموره .
ثم أشار الشاعر إلى خليفة آخر بقوله : (1)

أوثابن عفان والقرآن في يده
يحنو عليه كما تحنو على الفطم
ويجمع الآي ترتيباً وينظمها
عقداً بجيد اللبالي غير منقسم
جرحان في كبد الإسلام ما التأمأ
جرح الشهيد وجرح بالكتاب دمسى

يتحدث شوقي عن بعض مآثر أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وخص بالذكر منهما ملازمته للقرآن الكريم وجمعه .

وإذا تأملت قوله : (والقرآن في يده يحنو عليه كما تحنو على الفطم) وجدته قد اشتمل على تشبيه يبين مدى ملازمته للقرآن الكريم ، كما أن في قوله : (ويجمع الآي ترتيباً وينظمها عقداً) إشارة لطيفة إلى ما روى أنه جمع القرآن الكريم في نسخ موحدة ووزع بعضها على الأوصار ، ولا يخفى أن في قوله : (بجيد اللبالي غير منقسم) استمارة مكنية أكدت أثر ذلك الجمع .

ولعله أراد بقوله : (جرحان في كبد الإسلام ما التأمأ) الإشارة إلى مقتل عثمان (رض الله عنه) ، وهذا ما صرح به قوله : (جرح الشهيد وجرح بالكتاب دمسى) ، (فجرح الشهيد) إشارة إلى مقتله ، (وجرح بالكتاب) إشارة إلى ما روى أنه هدم ما قتل كان يقرأ القرآن في صحف كان أمامه أو في حجره فسال الدم عليه (١) ، وأصل العبارة (جرح دمسى به الكتاب) نقلت للمبالغة ولللقافية .

ولا يخفى أن البيت قد اشتمل على استمارة مكنية في قوله : (كبد الإسلام) وهي تشير إلى مفزلة أمير المؤمنين عثمان في الإسلام من جهة ومن جهة ثانية تبين أن إصابته كانت قاتلة ، ولذلك استشهد بسببها ، أنزف إلى ذلك أن الشاعر قد أتى في البيت - أيضاً - بمحسن بديعي هو التوشيح ، ولا يخفى أثره في لغت الذم ، وشهد الانتباه .

ثم تحدث شوقي عن أبي بكر الصديق (رض الله عنه) بقوله (٢) :

(١) طبقات ابن سعد ج ٣ ص ١٥١ وما بعدها .

(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٥٦ وما بعدها .

وما بلاءُ أبي بكرٍ بعثهم

بمعد الجلائل في الأفعال والخدم

بالحزم والمزم حاط الدين في محن

أضلت الحلم من كهيل ومحتلم

وحدن بالراشد الفاروق عن رشيد

في الموت وهو يقين غير منبههم

يجادل القوم مستلا مهنته

في أعظم الرسل قدرا وكيف لم يدم

لا تمذلوله إذا طاف الدهول به

مات الحبيب فضل الصب عن رفسهم

إن بلاءُ أبي بكرٍ في إعزاز كلمة الدين ونصرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا يشك فيه أحد، ولقد ثبت في وقت المحن التي تاهت منها عقول الراشدين وتحيرت من شدتها أفكار المفكرين .

وإذا تأملت قوله : (وما بلاءُ أبي بكرٍ بعثهم) وجدتته يشير إلى ما قام به

أبو بكرٍ من أعمال سجلها له التاريخ ، وحفظتها له الأجيال ، فهو أول من آمن بالرسول من الرجال ، وصاحبه في الفار ، وأيد الرسول ونصره بنفسه وماله ، وغير ذلك كثير ، ولذلك حسم قول الشاعر : (بمعد الجلائل في الأفعال والخدم) .

ويبدو أن الشاعر أراد بيان بعض تلك الأفعال فقال : (بالحزم والمزم حاط

الدين في محن . .) ففي هذه العبارة يشير شوقي إلى موقف أبي بكرٍ العظيم من حروب الردة التي حارب فيها كل من خرج عن تعاليم الإسلام ، ولعل الجناس الناقص في قول الشاعر (الحزم والمزم) يبين قوة أبي بكرٍ في تلك الحروب ويومئذ ذلك قوله : " والله لو وضعوني عمال بغير كانوا يومئذ به إلى رسول الله لقاتلتهم عليه . . (١) ."

أضفت إلى ذلك أن قوله : (حاط الدين) يدل على نهايته بأمر الدين وخاصة

في أشد الأوقات وأصعبها التي (أضلت الحلم من كهيل ومحتلم) وفي هذه العبارة

(١) محمد الخضري : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ١٧٣ وما بعدها مطبوعة

الاستقامة بصر سنة ١٣٧٠ هـ

كناية عن شدة تلك المحن كما أن بين لفظي (كهل ومحتلم) طباقا أفاد عموم
وشمول تلك المحن التي أثرت في الكبير والصغير .

وانتفى الشاعر إلى الحديث عن محنة أخرى ثبت فيها أبو بكر ولم يثبت أمامها
أقوى الناس عقلا ، وذلك في قوله : (وجدن بالراشد الفاروق عن رشد في الموت)
إنه يشير إلى موقف عربين الخطاب من وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ أسرع
إلى سيفه وتوعد من يقول إن الرسول قد مات (يجادل القوم ستلا مهنده نسي
أعظم الرسل) . كما أن قول الشاعر : (كيف لم يدم) يدل على الفراطة
ولكن أبا بكر عندما حضر وكشف عن وجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ووجده قد
مات ، خرج إلى الناس ، قائلا : " من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن
كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت (١) " ثم قرأ قول الله تعالى : " وَمَا مُحَمَّدٌ
إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ . . . الآية (٢) " .

ويشير الشاعر إلى التماس المذر لعربين الخطاب بقوله : (لا تعذلسوه
إذا طاف الذهول به) ، ثم علل سبب عدم اللوم بقوله : (مات الحبيب فضل الصب
من رقم) ولا يخفى أن في قوله : (مات الحبيب) تصجيلا لمحبة الرسول (صلى الله
عليه وسلم) كما أن لفظ (فضل) يوحي بشدة تأثر عربين الخطاب ، بوفاة الرسول
(صلى الله عليه وسلم) ودخول الفاء على ذلك اللفظ يوحي بسرعة ذلك التأثير إلا أن
لفظ (الصب) هنا غير مناسب للمقام ، ولو قال : (الحب لم يكسر الحاء - شمسلا
لكان أفضل .

الصلاة والسلام على رسول الله :

ولقد دعا الشاعر به قائلا : (٣)

يارب صل وسلم ما أردت على

نزير عرشك خير الرسل كلهم

محيي الليالي صلاة لا يقطعها

إلا بدمع من الإشفاق منجس

(٢) آل عمران / ١٤٤

(١) حياة محمد ص ٥٠٥ وما بعدها .

(٣) السموات ج ١ ص ٢٥٧ .

سبحا لك جنح الليل محتملا
ضرا من السهد أو ضرا من الورم
رضية نفسه لا تشتكى سأمًا
وما مع الحب إن أخلصت من سأم

يدعو شوقي ربه ويطلب منه (جل جلاله) أن يصلى ويسلم على خير رسله
الذى يحيى الليل بالصلاة والتسبيح ، دون علل أو كلل .

ولا يخفى أن الشاعر قد جمع الصلاة والسلام على رسول الله (صلى الله عليه
وسلم) فى قوله : (يارب صل وسلم) وهو فى هذا قد زاد على كل من سبقه
من أصحاب معارضات بردة البوصيرى ، إذ ذكروا الصلاة فحسب ، إلا الدوريش
الذى طلبهما أيضا ، فهو الذى سبق الشاعر فى ذلك (١) .

وإذا كان الشاعر قد أشار إلى الرسول (صلى الله عليه ولم) بقوله : (خير
الرسل كلمهم) فإن قوله : (نزيل) غير مناسب للمقام .

ولا يخفى أن فى قوله : (محبى الليالى صلاة لا يقطعها) إشارة إلى
تهجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد سبق البوصيرى إلى ذلك (٢) إلا أن الشاعر
قد زاد على البوصيرى الإشارة إلى بناء الرسول (صلى الله عليه وسلم) من خشبة
ربه ، والإشارة - أيضا - إلى تسبيح الرسول ، ولعله فى هذا ناظر إلى قوله
تعالى : " وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا " (٣) .

وفى قوله : (محتملا ضرا من السهد أو ضرا من الورم) إشارة إلى طول قيام
الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصبره دون سأم : (رضية نفسه لا تشتكى سأمًا) .

ولقد أتى شوقي بحكمة صادقة فى قوله : (وما مع الحب إن أخلصت من سأم)
وندى ذلك إشارة لطيفة إلى أثر الإخلاص فى الحب .

ثم واصل الشاعر التضريح إلى الله بقوله : (٤)

(١) انظر ص ٣٠٦ من هذه الرسالة . (٢) المرجع السابق ص ٢١٤ .

(٣) الإنسان / ٢٦٦ . (٤) الشوقيات ج ١ ص ٢٥٢ وما بعدها .

وصل ربي على آل له نخب
جملت فيهم لسوا البيت والحرم
بهجر الوجوه ، ووجه الدهر ذو حلك
شم الأنوف ، وأنف الحادثات حسي
وأهد خير صلاة منك أريسة
في الصبح ، صحبتهم مرمجة الحرم
الراكبين إذا نادى النبي بهم
ما هال من جلل واشتد من عهم
الصابرين ونفوس الأرض واجفة
الضاحكين إلى الأخطار والقهم

يطلب شوقى من الله تعالى أن يصلى على آل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) - المعروفين بالكرم والشجاعة - وعلى أريسة من أصحابه الذين وقفوا بجانبه في أشد الأوقات وأصعبها ، صابرين ، راضين ، ولمله يقصد (أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي) رضى الله عنهم جميعا .

ولا يخفى أن الشاعر وصف آل البيت بأنهم : (نخب ، . . . وفيهم لوا البيت والحرم) وفي ذلك إشارة إلى رفعتهم ، وعظم مكانتهم ، وهذا ما أكده بقوله : (بهجر الوجوه ووجه الدهر ذو حلك) وفي العبارة كناية عن كرمهم ومخاصمة في وقت الشدة ، كما في العبارة استعارة مكنية وضحت أثر الدهر ، ثم وصفهم بأنهم : (شم الأنوف ، وأنف الحادثات حسي) ، ولا يخفى أن في العبارة كناية عن شجاعتهم وشدة بأسهم ، وكناية عن اشتداد الخطب واستفحال الأمر بإضافة إلى استعارة مكنية أوجت بتشخيص الحادثات وبيان عظمها .

ولقد أشار الشاعر إلى فضل بعض الصحابة ، وبين رفعة شأنهم بقوله : (صحبتهم مرمجة الحرم) كما بين شجاعتهم بقوله : (الراكبين إذا نادى النبي بهم) وفي ذلك كناية لا يخفى أثرها في تأكيد قوتهم وطاعتهم رسول الله ، وأنف إلى ذلك أنه وصفهم بقوله : (الصابرين ونفوس الأرض واجفة) ، والمباراة توحي بتشخيص الأرض ، وتشير إلى ثبات هؤلاء الصحابة وصبرهم ، ورضاهم بقداء الله وقدره .

التوسل برسول الله :

ولقد توجه شوقى إلى ربه بالدعاء قائلا : (١)

يا رب هبت شعوب من منتهى
واستيقظت أمم من رقدة العدم
سعد ونحس وملك أنت مالكه
تدبسل من نعم فيه ومن نقم
رأى قضاؤك فينا رأى حكمته
أكرم بوجوهك من قاض ومنتقم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا
ولا تزد قومه خسفا ولا تبسم
يا رب أحسنت بدء المسلمين بسه
فتمم الفضل وانح حسن مختتم

يدعو الشاعر ربه بأن يلطف بالمسلمين، ويخلصهم من الأغلال وقيود الضعف
لينهضوا من كبوتهم، كما نهضت كثير من الشعوب .

ولا يخفى أن فى قوله : (هبت شعوب من منتهى ، واستيقظت أمم) استمارة
تصريحية بينت حال تلك الأمم التى تصاب بالاستعمار والتأخر، كما أن فى قوله : (سعد
ونحس) طباقا يشير إلى قدرة الله ، وأكد ذلك بقوله : (وملك أنت مالكه عندبيل
من نعم فيه ومن نقم) وفى العبارة طباقى فى قوله : (نعم ونقم) يوعد التكسرة
السابقة .

وإذا تأملت قوله : (رأى قضاؤك فينا رأى حكمته) وجدتته يشير إلى الرضا
بفضاء الله لأنه هو الذى يتصرف فى ملكه بحكمة لا يعلمها إلا هو (جل جلاله) .

أما قوله : (فالطف لأجل رسول العالمين بنا) فيشير إلى توسله إلى
الله تعالى برسوله (صلى الله عليه وسلم) لكن يلطف بنا ولا يحكم فينا ظالمنا

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٨ .

أومستبدا ، ولا يزد قوم الرسول (على الله عليه وسلم) (خمساً ٠٠) ولحسن
هذا يشير إشارة واضحة إلى أن الشاعر يتشفع للمسلمين جميعاً بالإضافة إلى
تشفعه لنفسه ، وهذه حسنة من حسناته التي سبق إليها ، إلا أن كلمة (لأجل)
ليست شعرية ، وإن كانت عربية ، فهي أشبه بالعامية .

ثم . ختم الشاعر قصيدته بقوله : (يارب أحسنت بدو المسلمين به ٠٠٠٠)
ويبدو أنه يشير إلى سبق النور المحمدي - كما سبق - ومهما يكن من شيء ، فهو
يطلب من الله أن : (يتم الفضل ٠٠) على المسلمين جميعاً بحسن الختام ،
ولا يخفى ما في قوله : (وأمنح حسن مختتم) من إشارة بدعية لطيفة إلى حسن
الختام .

وبعد ما انتهيت من دراسة (نهج البردة) وتحليلها ،
سوف أشير إلى قيمتها في الفصل التالي
إن شاء الله .



الفصل الثالث

قصيدة معارضة شوقي

لقد وقفت مع قصيدة (نهج البردة) متاولا أفكارها بالدراسة والتحليل ،
وسوف أبين قيمتها ، ومدى ما أضافته من أفكار إلى المدائح النبوية .

وما لا شك فيه أن تلك القصيدة معارضة من معارضات البردة ، إذ توافرت
فيها شروط المعارضة ، من اتحاد الوزن والروي والخرص ، ولا يقنعني ذلك
ما ذكره أحد الكتاب بقوله : " ولم يدع شوقي لقصيدته أنها معارضة لبردة البوصيري
بل اعترف أنها محاكاة واحتذاء واقتران ، وشتان ميسا بين المعارضة والاحتذاء ، لأن
المعارضة تحمل دعوى التحدى والتفوق وإدراك ما عجز عنه الأول ، أو على الأقل
تتضمن دعوى المناظرة والمسامحة والمساواة ، أما الاحتذاء فلا يحمل إلا التابعية
والمشابهة والاقتران ، وفي هذا معنى التلمذة والإقرار بتفوق المتبوع ، وسواء
أكان اعتراف شوقي باحتذاء البوصيري حقيقة أم لونا من الكياسة والمجاملة ، فإنه
قد أكد ذلك مرات :

أولا : في تسمية قصيدته بنهج البردة ، وفي هذه التسمية نفسها
غناء ومقنع ، لأن النهج : الطريق الواضح ، ووجه فلان نهج فلان
أي سلك سبيله .

ثانيا : في قوله بكتاب إهدائها إلى الخديوي : " رأى الله لهيذا
المبد الخاضع شاعر بيتك الكريم أن يمشى بنور الملم المفسره
المغفور له البوصيري - صاحب القصيدة المشهورة بالبردة - في مدح
خير الأنام ، عليه الصلاة والسلام فنظمت هذه الكلمة التي أسأل
الله ، وأرجو من رسوله قبولها " .

ثالثا : قوله في القصيدة نفسها :

الله يشهد أني لا أعارضه

من ذا يعارض صوب المعارض المرم؟

وإنما أنا بعض الغابطين ومن

يفسبط عليك لا يذم ولا يلم

فهو يشهد الله أنه لم يقصد معارضة ، لأنها فوق طاقته ، ويؤكد هذا بقوله : إنه لا أحد يستطيع أن يمارض السحاب الهتون ، أو يحاكي بقدرته المطر الخزير ، وكأنما لم يجد في هذا الاعتراض ما ينفي عنه النزوع إلى المعارضة فمقب عليه بأنه أحد الذين يفسطون البوصيري . . (١) .

ولا يخفى أن في هذا القول ما يدل على أن صاحبه يمد فنن شبيـهـه شروط المعارضة التحدي ، وهذا ما لم يقله أحد . بل إن التحدي دافع من الدوافع التي تدعو إلى المعارضة - كما أشرت إلى ذلك سابقا - (٢) .

أما من جهة تسمية القصيدة بنهج البردة لا بمعارضة البردة ، فهنا قول يشير إلى أن ما لم يشترط أحد من النقاد على الشاعر المعارضة أن يسمى قصيدته (معارضة كذا) ، بل إن ذلك الكاتب نفسه يقول : " ولا شك - في - أن برمدة البوصيري راقت كثيرا من الشعراء ، فحاكوها وعارضوها . . (٣) " ثم ذكر بعض الشعراء الذين فعلوا ذلك ، ولم أجد أحدا منهم سعى قصيدته بمعارضة البردة ، أضف إلى ذلك أن الشاعر عارض البحتري في سنيته ، كما عارض شعراء آخرين في قصائدهم - كما سبق - فما رأيت سعى إحدى تلك القصائد بمعارضة كذا .

وأما من جهة ما قاله شوقي من أنه لم يعارض البوصيري ، فهذا النفي ليس على إطلاقه ، بل هو نفي المعارضة القائمة على التحدي ، والراجح أن الشاعر عارض البردة بدافع الإعجاب ، وهذا ما أشار إليه أحد الكتاب بقوله : " نستطيع أن نقول . . إن نهج البردة لم يفته من خصائص المعارضة إلا إرادة الخلبة والسبق فهذه نفيها شوقي . . (٤) " .

(١) الإسلام في شعر شوقي ص ٤٢ باختصار .

(٢) انظر ص ٢٥٧ من هذه الرسالة .

(٣) الإسلام في شعر شوقي ص ٣٨ .

(٤) الدين والأخلاق في شعر شوقي ص ٣٦ ، المعارضة في شعر شوقي ص ٧ (١٩٠١) .

وسبما يكن من شئ ، فإن نهج البردة معارضة لبردة البوصيري ، وهو كسد ذلك كثير من النقاد ^(١) ، وهذا ليس بقریب على شوقي إذ كان كما قال أحد الكتاب : " ٠٠ كالجواد المتيق الكرم ينافس حتى ظله ، فعارض المتقدمين بشعره كأنه منهم ، ونافس المعاصرين ليجعلهم كأنهم ليسوا معه ، ونافس ذاته ليجعل شوقي أشمر من شوقي . . . (٢) " .

ويبدو أن الشاعر قرأ قصيدة التيمورية التي عارضت بها بردة البوصيري وما يشير إلى ذلك لفظاً شارحاً إلى معجزة نبع الماء من بين أصابع الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : ^(٣)

لما دعا الصحب يستسقون من ظمأ
فاضت يدها من التصنيم بالسقم
وقد سبقته التيمورية إلى الحديث عن ذلك بقولها ^(٤) :

فكم ينبع زلال فاض من يمينه
أروى الأوام وأسقى منه كل ظمى

والراجح أنه قرأ قصيدة البارودي (كشف الخمة في مدح سيد الأمة) -
ويبدو أنه اقتبس منها بعض العبارات ونظر إلى بعضها تضمنته من معان فحشاً
قال البارودي في وصف الرسول (صلى الله عليه وسلم) : ^(٥)
سبح روحى ، وسجنى حكمة ، وندى
سماحة ، وقرى عاف ، وورى ظمى

-
- (١) انظر : الدكتور ماهر حسن : شوقي شعره الإسلامى ص ١٠٨ طبعة دار المعارف
بمصر سنة ١٩٥٧ ، والبارودي رائد الشعر الحديث ص ١٤٩ ، والأدب العربى
المعاصر فى مصر ص ١١٢ والمعارضة فى شعر شوقي ص ١٧٢ ، ومحمد فسى
الأدب المعاصر ص ١٣٢ ، والدكتور شوقي ضيف : شوقي شاعر العصر الحديث
ص ٧٤ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٣ .
- (٢) وحى القلم ج ٣ ص ٣٤٤ وما بعدها .
(٣) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٥ .
(٤) حليلة الطراز ص ٢٧٠ .
(٥) كشف الخمة فى مدح سيد الأمة ص ٥ .

فقال شوقي مشيراً إلى معنى البارودي في الجملة الأولى (١) :

يسامر الوحي فيها قبيل مهبطه
ومن يبشر بهي الخير يتسم

وفندما قال البارودي (٢) :

وهم المسطفي بدرا فلاح له
بدر من النصر جلى ظلمة الوغم

قال شوقي (٣) :

بدر تطلع في بدر فخرته
كفيرة النصر تجلوا جى الظلم

وواضح ما بين القولين من توافق ، وإن تصرف شوقي في قوله بمسفي
التصرف أضف إلى ذلك أن البارودي قال في علو نسب الرسول (صلى الله عليه وسلم)
وطهارة آباءه (٤) :

نسور تنقل في الأكوام ساطمه

تنقل البدر من صلب إلى رحم

فقال شوقي في الفكرة نفسها (٥) :

صاه في سبحات الطهر قبلهم

نوران قاما مقام الصلب والرحم

ولا يخفى أن مثل ذلك يدل على أن الشاعر قد تأثر في قصيدته
بقصيدة البارودي ، ولا يقدح في ذلك أنه تصرف فيما أخذه ، لأن هذا
هو المتوقع من أي شاعر يأخذ من غيره ، ولحل هذا يؤكد ما قاله أحد النقاد
وهو يتحدث عن قصيدة البارودي بقوله : (" ولا شك في أن هذه الطحمة

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٥ .

(٢) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٧ .

(٣) الشوقيات ج ١ ص ٢٥٠ .

(٤) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٦ .

(٥) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٥ .

— كشف القصة في مدح سيد الأمة — على التي أوجت إلى حافظ إبراهيم
أن ينظم مطولته عن عمر ٠٠ وأيضا استنساخ بها شوقي كما استنسخ بسيرة
الأبوصيري في ميمته: " رسم على القاع بين الهان والملم " (١).

إن تأثر شوقي في شعره بالبارودي ليس غريبا ، فلقد أشار إليه كثير
من الكتاب . ومن ذلك قول أحد النقاد : " كل من يقرأ — شعر — شوقي
يحس الصلة القوية بينه وبين البارودي ، ثم بينه وبين شعراء العرب " (٢) .
" وتأن القدر سائق البارودي ليكون رائد الطريق لشوقي ، فلم يلبث حسين
فتح عينيه على الوجود الفني أن رأى مصباحه يضيء ، فسار على هدى يسميه
واحتذى على أمثلته ونماذجه ، وتخرج شوقي في شجرة وهلى ديوانه ، فلم ينحرف
إلى بدعييات ولا إلى مهالفات ، بل اتخذ مذهب أستاذه في صب قوالبه
وضحت تراكيبه " (٣) .

وليس معنى ذلك أن شخصية شوقي لم تظهر في قصيدته (نهج البردة)
أو أنه قلد السابقين فحسب ، لا . لقد ظهرت شخصيته بوضوح في تلك
القصيدة ، وما يدل على ذلك نسيبه الذي بدأها به ، وإن كان قد نهج
فيه نهج السابقين إلا أنه أظن فيه إطنابا كبيرا لا يلوق بقصيدة يمدح فيها
الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولعل مثل هذا هو الذي جعل بعض
الكتاب يقول عنه : إنه مزدهج الشخصية (٤) ، وإن كان — الراجح — أنه ليس
كذلك لأنه إنسان كبيره من البشر تعرض له مغريات التمتع واللهو ، فكسان
يرى الأوانس في القصور التي كان يحل بها بالقرب من الخديوى ، وشاهد
الوصيفات وهن في أبهى صورة ، وأجمل هيئة ، فيصف ما شاهده ، سواء
عن لوحة وحب ، أم عن صنعة مثقفة ، ليست نابضة من قلبه بل نابضة
من نفسه — كما قال ذلك أحد أصحابه (٥) ، ويبدو أن مثل ذلك هو الذي

(١) البارودي رائد الشعر الحديث . ص ١٤٦ .

(٢) شكيب أرسلان : شوقي أو صداقة أربعين سنة ص ١٤٠ . مطبعة الحلبي بصر
سنة ١٩٢٦ .

(٣) شوقي شاعر العصر الحديث ص ٤٣ .

(٤) مقدمة ديوان الشوقيات بقلم الدكتور / محمد حسين هيكل ص ٨ ، وما بعدها . وانظر
رائد الإسلام في شعر شوقي ص ١١ وما بعدها .

(٥) أحمد محفوظ : حياة شوقي ص ١١٥ مطبعة مصر (غير مؤرخ) .

جمله يقول نهي نهج البردة : (من الموانس يانا ٠٠) و (اللامعات بروحى ،
السامحات دوى) و (والمعافواك كأمثال البدر) و (القاتلات بأجفان
بها سقم ٠٠) و (العائزات بألباب الرجال ٠٠) و (المشرمات خدودها أسفرت)
و (الحاملات لواء الحسن مختلفا ٠٠) وغير ذلك مما يشير إلى تأثيره في نظمته
بما عرض له من مغريات اللهب في بيئته المترفة ، وحياته المنحمة ، في قصر
الخدوى ، كما تأثر - أيضا - بما يمرض له من دواعي الإنابة والزهد

وإصل هذا هو الذي جمله يقول في نهج البردة (١) :

إن جبل ذنبي عن الشفران لي أمل

في الله يجعلني في خير محتهم

بل لعله هو الذي جمله يوصي بأن يكتب على قبره بيتان من نهج
البردة (٧) ، ثانيهما البيت السابق وأولهما :

يا أحمد الخير لي جناه ينسبني

وكيف لا يتساق بالرسول سمي (٢)

وظهرت شخصيته أيضا في استعماله بعض الألفاظ التي كان يسميها وهو
يصل بها شية الخديوى مثل : (للبصر السامى) و (لزمت بابا بيبير ٠٠) و (نزل
عرشك ٠٠) و (قدسية النغم) وغير ذلك كثير ، منتشر في ثنايا القصيدة
وبما يؤكد ذلك قول الأستاذ العقاد : " ولعله - شوقى - لم ينس البلاط
وهو يصف السماء ومنازل (التشريفات) فيها ، فقال في مدح النبي (صلى الله
عليه وسلم) :

وقيل كل نبى عند ربهته ٠٠ ويا محمد هذا المرشى فاستلم (٤)

وإذا تأملت قصيدة شوقى - نهج البردة - وجدت انفعال أفكارها
واقتراب بعضها ، ثم معاودتها بحد أن ظن القارىء أن الشاعر قد مضى
إلى هدف جديد بعيد ، فعلا : أشاد بنسب الرسول وأبوته ، ولم يعقب

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٤

(٢) صور وظلال من حياة شوقى وحافظ ص ١٤

(٣) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٤

(٤) شعراء مصر وميثانهم في الجيل الماضى ص ١٤٦ وما بعدها

على هذا بما يقتضيه سير الزمن وترايط الحوادث، فيتحدث عن مولده وما صاحبه من مشائر وخوارق، بل عقب عليه بمفسر النبي إلى الشام... ثم انتقل من هذا إلى تهتل النبي بخار حراء، ثم تحدث عن بعض معجزاته، ثم عاد إلى غار حراء... ثم عاد إلى أبوة النبي وإلى مولده... (١)

إن عدم ترتيب أنكار القصيدة يشير سؤالا: أيرجع ذلك إلى ما كان في طبيعة شوقي من أنه - كما قال عنه ولده - كان سريع الثقلب كالحبسط (٢) أو أنه - كما قال عنه أحد أصحابه - كان في أخلاقه الطل، فهو طسول قلق لا يستقر (٣)، أم أن عاطفته لم تكن صادقة في مدحها، لأن مقام مدح الرسول مقام عال كما قال هو (٤):

هذا مقام من الرحمن مقبوس

ترى مهابته سبحانه بالهكس

وكيف يده الرحمن، وهو - كما قال عنه أحد أصحابه - قد نظم كل قصائده الدينية ومن بينها نهج البردة وهو في ظل شهابه وفي إبان عيشه ولهوه، وكلفه بالخمرة واختلاف إلى ملاعب اللهو (٥)، بل كان لا ينصوم ولا يصلى لاعتلال صحته، وألمح أن يعجز مع عباس الثاني لإرهاق أعصابه، مع يسر الرحلة، وسهولتها... (٦) والمجيب أن يقول ذلك الكاتب بعد ذلك مباشرة:

"ولكنه كان عميق الإيمان، عمقا تغفل في جميع كيانه، كان لا يذكر اسم الله مجردا قط، بل كان يتبعه بلفظي (سبحانه وتعالى) ولم يذكر اسم النبي مجردا البتة، بل كان يصلو وسلم عليه دائما، وما مرت معه فلي طريستق

(١) الإسلام في شعر شوقي ص ١١٦ باختصار.

(٢) أبي شوقي ص ١٠.

(٣) حياة شوقي ص ٥٧.

(٤) الشوقيات ج ١٠ ص ٢٤٦.

(٥) حياة شوقي ص ١١٤.

(٦) المرجع السابق ص ٨٤.

وصادفتنا جنازة محمولة إلا وقف تعظيما لها .. وصف ابنه حسينا لحديثه
عن الدين حديثا فيه غرارة الصبا .. (١) .. أقول أكران بمسفس ذلك
كذلك، أم أن نهج البردة كانت أول قصيدة يمدح فيها رسول الله (صلى الله
عليه وسلم) فلم تكن تجربته الشعرية قد تهيأت للنظم في هذا المضمار
فاعتمد على تقليد من سبقه مضيئا إليه ما أوجت به شاعريته وما أمله عليه
بيئته، ولعل هذا هو الصحيح، ويؤكد أن الشاعر قد أحسن أيضا إحسان
في همزته التي مدح بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) والتي تعد من أحسن
قصائده في المدائح النبوية (٢)، فكانت تجربته الشعرية في هذا المضمار قد
نشجت، ويؤكد ذلك أنه خالف همزية البوصيري - التي قيل: إنه قد عارضها -
في كسب من النواحي (٣).

وهما يكن من شيء فلم تخل نهج البردة من لطائف منها: إنها
تدل على أن ناظمها يكاد يكون أول من أشار إلى مراحل الوحي الأولي
عندما قال (٤):

ونودي اقرأ تعالى الله قائلهما

لم تتصل قبل من قبيلت له بقم

وتدل أيضا على أنه يكاد يكون أول من وصف حالة الناس قبل البهثة
المحمدية، وصور ما انتشر بينهم من فساد في الحكم والأخلاق بقوله (٥):

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم

إلا على صنم قد نعام في صنم

والأرض ملوثة جورا مسخرة

يكل طاغية في الخلق محتكم

-
- (١) المرجع السابق الصفحة نفسها .
 - (٢) النصوص الأدبية في العصر الحديث ص ١٢٥ وما بعدها .
 - (٣) المرجع السابق ص ١٢٦ وما بعدها .
 - (٤) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٦ .
 - (٥) المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٧ .

ضبطت الفرس يهوى نور عينيه
وقبض الروم من كبر أعم عم
يهدبان عباد الله في شبهه
ويذبحان كما ضحيت بالفنم
والخلق يفتك أقواهم بأضفهم
كاللث بالبهيم أو كالحوث بالهلم

وكت أود أن يشير الشاعر عقب ذلك إلى أثر الشريعة الإسلامية -
التي جاء بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) - في أخلاق الناس إذ عيسدوا
آلها واحدا ، وتركوا عبادة الأصنام ، وانتشر بينهم الحب والوفاء ، وكان الرسول
يشار أصحابه ، ولم يستهد برأيه ، كما عطف الفنى على الفقير ، وساعد القوى
الضعيف ، وأصبح الناس إخوانا متحابين .

ولكن الشاعر ذكر بعد وصف حالة الناس قبيل البعثة ، الحديث عن
الإسراء والمعراج ، وبعد ذلك بما يقرب من ستين بيتا ، تحدث عن الشريعة
الإسلامية بقوله : (١)

شريعة لك فجرت العقول بهيها
عن زاخر يصفو العلم ملقظ
يلوح حول سنا التوحيد جوهريها
كالخلى للديف أو كمالوشى للعلم
غراء حامت عليها أنفوس وهي
ومن يجده سلما من حكمة يختم
نور السبيل يماس العالمون بهيها
تكفلت بشباب الدهر والهيم
يجرى الزمان وأحكام الزمان على
حكم لها نافذ في الخلق برتم

(١) المرجع السابق ، ج ١ ص ٢٥٣ .

لما اغلقت دولة الإسلام واتسمت
مشت مما لك في نورها التسم
وعلمت أمة بالتفسر نازلة
رعى القياصر بمد الشاه والنعم

ولا يخفى أن الشاعر لو ذكر هذا القول الجميل ، بعدما بين انتشار
الظلم والفساد ، لكان أفضل .

وتدل نهج البردة - أيضا - على أن ناظمها يكاد يكون أول من أشار
إلى فصاحة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وحسن بيانه ، وأثر ذلك في البيان
الصرح ، بقوله (١) :

يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة
حديثك الشهد عند الذائق الفهم
حليت من عطل جيد البيان به
في كل منتشر في حسن منتظم
بكل قول كريم أنت قائله
تحبي القلوب وتحبي ميت الهمم

كما تدل أيضا على أنه يكاد يكون أول من توعد على مزاعم بعض أعداء
الإسلام الذين زعموا أن الإسلام قد انتشر بالسيف ، وقد تلك المزاعم
بالحجج القاطمة ، والبراهين الساطمة بقوله (٢) :

قائلي : غزوت ورسل الله ما بمشوا
لقتل نفس ولا جاءوا بسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة
فتحت بالسيف بمد الفتح بالقلم
لما أتى لك عذوا كل ذي حسب
تكفل السيف بالجهال والمصم

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٧ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢٥١ .

كما أنه راعى من زعم أن المسيحية انتشرت دون قتال ، بقوله (١) :
سبل المسيحية الفراء كم شربت
بالباب من شهوات الظالم الخلم
طريدة الشرك يؤذيها ويوسمها
فى كل عين قتالا ساطح الحسدم
لولا حفاة لها هبوا لنصرتهمها
بالسيف ما انتفمت بالرفق والرحم

وبين إيذاء أعداء المسيحية لرسول الله عيسى . (عليه السلام) بقوله (٢) :
لولا مكان لعيسى عند مرسله
وحرمة وجهت للروح فى القسدم
لستر البدن الطهر الشريف على
لوحين لم يخش مؤذيه ولم يجسم
جبل المسيح وذائق الصلب شائسه
إن المقاب بقدر الذنب والجسم

أضف إلى ذلك أنها تدل أيضا على أن (شوقى) يكاد يكون أول من
أشاد بخصائص الإسلام ، ونوه بحضارته ، ووازن بين الفكر الإنسانى على
مدى أربعة عشر قرنا ، وبين ما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) من شريعة
سامية ، بقوله (٣) :

كم شيد المصلحون العاملون بهما
فى الشرق والغرب ملكا بانح المظم
للعلم والعدل والتمدين ما عزصوا
من الأمور وما شعدوا من الحسزم

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٢) المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٤ .

دع عنك روما وأثينا وما حوتسنا
كل اليونانية في بغداد والنم
و دخل كسرى وإوانا يدل به
هوى على أثر النيران والأيسم
واترك روميس ، إن الملك مظهره
في نهضة المدل لاني نهضة الهرم
دار الشرائع روما كلما ذكسرت
دار السلام لها أقت يد السلام

ولحل إشارة شوقى إلى أثر الشريعة الإسلامية كانت من أصداء الوهى
الدينى العام الذى أثمرته دعوة جمال الدين ومحمد عبده وغيرهما ممن
قام ببيان مزايا الإسلام ، والدعوة إلى العمل بأحكامه ، والرجوع إلى
تشريعاته ، وبذ التشريعات التى قذف بها إلينا الغرب. (١)

محمد . . فلعل نهج البردة - بما اشتملت عليه من أفكار جديدة ،
قد فتحت المجال ، ولقت الأذهان إلى أفكار أخرى جديدة أشار إليها الشعراء
الذين عارضوا بردة البوصيرى بعد شوقى ، وهذا ما سنراه فى الساب
التالى إن شاء الله .

(١) الدكتور / محمد الدين الجيزاوى : أصداء الدين فى الشعر الحديث ص ٤٨ بتصرف
مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥٦ .



معارضات السبودة بعد شوقى

الفصل الأول : عرض موجز لمعارضات
السبودة .
(بعد شوقى)

الفصل الثانى : أثر معارضات السبودة
(بعد شوقى)



الباب الخامس

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

الفصل الأول

عرض موجز لمعارضات البردة (بعد شوقي)

بمدا تحدثت عن معارضة شوقي ، وبينت قيمتها ، سوف أذكر في هذا الفصل بعض معارضات البردة بعد شوقي ، وسأعرض كل معارضة عرضاً سريعاً ، بينما أهم ما اشتملت عليه من أفكار وخاصة الأفكار الجديدة التي لم يتناولها أصحاب المعارضات من قبله ، أو تناولوها ولكن بإيجاز .

ولقد أتجهت في ترتيب هذه المعارضات اتجاهاً أساسه : تقديم المعارضة على حسب تاريخ نظمها إن وجد ، فإن لم يوجد فعلى حسب تاريخ طبعها إن ذكر ، فإن لم يذكر فعلى تاريخ طبع الديوان الذي اشتمل عليها ، وإلا فعلى تاريخ وفاة ناظمها ، كما مهدت لكل معارضة بإشارة موجزة إلى حياة ناظمها .

المعارضة الأولى : (ظل البردة) :

يبدو أن أولى معارضات البردة بعد شوقي معارضة (عبد المطلب) وهو : محمد بن عبد المطلب بن واصل بن بكر ، ولد سنة ١٨٧١^(١) ، وقيل سنة ١٨٧٤^(٢) في (باصونة) - إحدى قرى مركز جرجا ، التابع لمحافظة سوهاج - .

ولقد ولد الشاعر ونشأ في بيئة دينية ، إذ كان والده ، مثقفاً ، متصوفاً ، تعقد حلقات الذكر في منزله ، وفي خلالها يلقى على الناس الدروس الدينية ، ولقد حظى ابنه - مع صغر سنه - بالاستماع إلى بعض تلك الدروس ، ويبدو أن

(١) الأعلام ج ٧ ص ١٢٥ مقدمة ديوانه ص ١١١ وما بعدها ،

(٢) في الأدب الحديث ج ٢ ص ٣٧١ .

الوالد حرص على أن يحفظ ابنه القرآن الكريم ، ولذلك أرسله إلى كتاب القرية ولم يلبث أن حفظ القرآن الكريم ، ودرس بعض الأحاديث النبوية والأحكام الفقهية ، مما أهله للجلوس مكان والده يصط الناس — وهو ما زال في المقصد الثاني من حياته — فأعجب به بعض أصدقاء والده وأشاروا عليه بإلحاق ولده بالأزهر الشريف ، ووافق الوالد ، وفي صر أقبل الشاعر على دروس الملم ، والتزود بكتوب من المعارف الأدبية ، وظل على ذلك حتى التحق بدار الملم سنة ١٨٩٢ ، بعد أن أصبحت لديه ثروة من غير القوافي ، وجيد النثر فمكته كل ذلك من النظم في كثير من الأغراض الشعرية ، وقال إعجاب أساتذته وزملائه .

وعندما تخرج في دار الملم سنة ١٨٩٦ عين مدرسا بالمدارس الابتدائية بسوهاج ثم نقل إلى المدارس الثانوية ، ثم أختير مدرسا بالقضاء الشرعي ، واستمر على ذلك حتى أختير مدرسا بدار الملم سنة ١٩٢١ ، وانتدب للتدريس في تخصص اللغة العربية بالأزهر سنة ١٩٢٨ ، وظل ينفع الناس بملمه وطرهم بشعره ، حتى أتاه اليقين سنة ١٩٣١ (١) .

آثاره :

- توفي بعد المطلب بعد أن ترك ثروة أدبية منها : (٢)
- ١- ديوان شعره (طبع بعد وفاته) .
 - ٢- تاريخ أدب اللغة العربية — ثلاثة أجزاء (مخطوط) .
 - ٣- كتاب الجولتين في آداب الدولتين — الأمورية والعباسية — (مخطوط)
 - ٤- إعجاز القرآن (مخطوط) .
 - ٥- رواية (الزبابة) (مخطوط) .
 - ٦- رواية (ليلي الحفيفة) (مخطوط) .

(١) شعراء مصر وميئاتهم في الجيل الماضي ص ٣٤ وما بعدها وأحمد الإسكندري (بالاشتراك مع غيره) المنتخب من أدب العرب ج ١ هامش ص ٩٦ — مطابع دار الكتاب العربي بصر سنة ١٩٥٤ .

(٢) الأعلام ج ٧ ص ١٢٥ .

شاعريته :

كان الشيخ محمد عبد المطلب شاعرا مطبوعا ، قال الشعر في كل أغراضه - تقريبا - ومنازل شعره بمائة نسجه ، وإحكام قوافيه ، وإن كان بدويا فسي خياله ومخانيه وألفاظه - غالبا - حتى لقب بالشاعر البدوي^(١) ، ولعل مرد ذلك إلى تسكته بعرويته ، وبغيرته الشديدة عليها .

ولم يخل شعره من تلك الملاحظة إلا فسي بعض القصائد ، مثل قصيدته (ظل البردة) - تقريبا - وهي التي مدح فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) معارضا بها برودة البوصيري ، إذ هي من بحر البسيط ، ورويتها ميم مكسورة ، وغرضها مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، والملاحظ أن الشاعر لم يشمر إلى ذلك ، كما أشار شوقي وغيره ممن تأثروا في مدحهم بالبردة ، ويندوانسه اكتفى بدلالة اسم القصيدة (ظل البردة) على تأثره في نظمها بالبردة .

وهيما يكن من شيء ، فإن قصيدة (ظل البردة) تعد من القصائد الطوال إذ يبلغ عدد أبياتها ثلاثة وعشرين ومائة بيت ، ولم تعرف سنة نظمها ، ولا سنة طبع ديوان الشاعر الذي اشتمل عليها بالتحديد ، إلا أن مقدمة ديوانه تشير إلى أن الديوان طبع سنة ١٩٣٢ بمد وفاة الشاعر سنة ١٩٣١^(٢) ، وعلى الرغم من أن (شوقي) قد توفي سنة ١٩٣٢ ، فإنني قدمت الحديث عن قصيدة (نهج البردة) ، لأنه نظمها سنة ١٩١٠ - كما سبق .

والراجع أن عبد المطلب نظم قصيدته (ظل البردة) بعد قصيدة شوقي - (نهج البردة) لولعل ما يؤكد ذلك قول أحد الكتاب عن مجيئ المطلب : " . . . لقد نهج منهج من سبقه ، وتبع مدحة الأبوصيري ، ونهج البردة لشوقي ، فكتب قصيدة سماها (ظل البردة) ولكنها تقل عن السابقتين . . . " ^(٣) .

(١) المنتخب من أدب العرب ج ١ هامش ص ٩٦ .

(٢) انظر مقدمة الديوان ص ٦ وما بعدها .

(٣) صحيفة دار العلوم - السنة الثالثة ، العدد الثاني (أكتوبر سنة ١٩٣٦) ص ٨٧٣ .

وقول كاتب آخر : " . . . وله - عبد المطلب - في سيد المرسلين قصيدة
سماها (ظل البردة) ، ولملحه تبع شوقي حين نظم (نهج البردة) فأبى إلا أن
يحاكى بردة البوصيري مثله وهذا ميدانه ، وليس ميدان شوقي . . . (١) " . . .
ولم يتخل محمد المطلب عن نهج العابقين ، ولذلك بدأ قصيدته (ظل
البردة) بنزل تقليدي يقع في حوالى خمسة أبيات ، وأولها قوله (٢) :

أغرى بك الشوق بمد الشيب والهزم
سارطوى البيد من (نجد) إلى الهزم
ياسارى الطيف يجتاب الظلام إلى
جفن مع النجم لم يهدأ ولم ينم

يبين عبد المطلب أن الذى حرك شوقه إلى أحبابه هو خيالهم الذى قطع
النظام من (نجد) إلى (مصر) على الرغم من حلول الشيب به ، وطحنه فى السن .
وإذا تأملت قوله : (ياسارى الطيف . . .) وجدت النداء يدل على الاستعطاف
وخاصة أنه لم تتم عينه ، ولم يهدأ جفنه من حين رؤياه ، ولا يخفى أثر الجناس
فى لفظى : (الهزم) إذ فيه إشارة إلى شدة الشوق مع كبر السن وعدم المكان .
ويواصل الشاعر وصف حالته ، وبيان شدة لوعته بقوله (٣) :

يابرق مالك لا تحكى جوى كبسدى
إذا تألفت ليلا فى نديهم
ويا صبا روجى روجى فقد ذهب

بها النوى بمد عهد البان والملم (٤)

إنه يخاطب البرق الذى لم ينقل لوعته قلبه ، وحرقة كبده من شدة حبه ، وعندما
ظهر ليلا عند أحبابه ، كما يخاطب الريح ويطلب منها أن تهب برائحتها الطيبة

(١) فى الأدب الحديث ج ٢ ص ٤١٣ .

(٢) ديوانه ص : ٢٥٧ .

(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٤) روجى - الأولى - بفتح الراء وكسر الواو مشددة - أدخلى الراحة على روجى - الثانية
بضم الراء والمراد نفسى . النوى : الوجه الذى ينمو فى الساق من قرب أو بعد وهسى
مؤنثة لاغير .

التي حملتها عند هبوبها من ناحية أحبائه، لترد إليه روحه التي ضاقت بسبب بصرها
عن أحبائها .

ولا يخفى أن الشاعر قد نزل الهرق منزلة من يعقل عندما ناداه بقوله : (يابرق ٠٠)
وأيا نزل الصبا منزلة من يحقل فناداها بقوله : (وياصبا ٠٠) ثم أمرها بقوله : (روجي)
وهذا شأن المحبين ، الذين أضناهم الحب ، وأرقهم الشوق ، ويؤكد ذلك قوله :
(لا تحكي جوى كبدى ٠٠) ، بالإضافة إلى المجاز المقل في قوله : (ذهبست
بها النوى ٠٠) ، إذ يبين شدة ما يعانيه بسبب بعده عن أحبائه الذين يسكنون
(البان والملم) ، ويبدو أنه نثر في ذلك إلى قول البوصيري : (ولا أرقست
لذكر البان والملم) .

ومهما يكن من شيء ، فإن الشاعر يواصل حديثه عن لوعته بسبب فراقه أحبائه
ثم يبين أسفه بسبب تلك الخطوب التي فوقت الحرب ، فذهب عزتهم ، وفقسوا
مكانتهم ، بقوله (١) :

لله أيام كنا ، والنموذج لنا

يجرى القضاء بما شئنا على الأمم

إذ يرفع الله بالدين الحنيف لنا

على الذرا - دولة خفاقة الملم

ولا يخفى ما في قول الشاعر : (لله أيام كنا ٠٠) من أسف شديد على
ذلك (الوجود) الذي كان (لنا) معشر المسلمين ، إلا أن في قوله :
(يجرى القضاء بما شئنا على الأمم) مبالغة غير محبوبة ، لأن القضاء يجرى
على حسب تقدير الله ومشيئته ، لا (بما شئنا) وإن أتى بما أحببنا فهو
من تقدير الله أيضا .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين أثر الدين فقال : (إذ يرفع الله بالدين
الحنيف لنا ٠٠ دولة) ، كما أن قوله : (على الذرا) يشير إلى ما ناله المسلمون
من رفعة بسبب الدين الحنيف ، ويؤكد ذلك تلك الكناية التي في قوله : (خفاقة الملم)

إذ أشارت إلى عزة تلك الدولة وعظم شأنها ،
ثم أشار الشاعر إلى أن الذي بنى مجد المسلمين هو الرسول (صلى الله
عليه وسلم) بقوله (١) :

مجد بناء السني قاض الوجود به
نورا له قامت الدنيا من العدم
طه أبو القاسم البهوت من مضر
إلى البرية من عرب ومن عجم (٢)

ولا يخفى أن قوله : (. . . نورا له قامت الدنيا من العدم) مأخوذ من قول
البيهقي : (لولاه لم تخرج الدنيا من العدم) ، كما أن الشاعر قد نهج
نهج التيمورية في ذكر لفظ (طه) على أنه اسم من أسماء الرسول (صلى الله
عليه وسلم) (٣) .

وتجدث عن حالة العالم قبيل بحشة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (٤) :

ولو تشرى قلبه ا لدنيا وما لقيت
من الهلا ء وماذاقت من النقم
والناس ضلال قفر في سارحها
عيم من السرح أو عقل من الضنم
ضلوا سوا النهي فاستمسكوا عمها
بكل جهل من الأشوا منجسذم

ولقد حل الهلا بالناس ، الذين ضلوا وشاموا في كل سبيل ، ولم يتمسكوا
إلا بأهوائهم القانية ، وشهواتهم الزائلة .

وأحسن الشاعر عندما شبه الناس في ذلك الوقت بالضم الضالة أو الأبل
التي تسرح في مراعيها ، لأنهم قد (٥)

-
- (١) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٢) أبو القاسم : كنية الرسول (صلى الله عليه وسلم) - مضر - بضم ففتح - أحد أجداد
الرسول . (صلى الله عليه وسلم)
(٣) انظر ص ٢١٦ من هذه الرسالة .
(٤) ديوانه ص ٢٥٧ . (٥) المرجع السابق ص ٢٥٨ .

تفسروا شيئا في الكفر وانقسموا
شقي نباءا وما يخزي من القسم
هذه ا عن الحق بالأفلاك في عمه
وذلك بالنار عن نور الجلال عسى
وذا يوه من لا يستجيب لــــه
من ناطق بشر أو صامت صنم

لقد انقسموا في معتقداتهم ، فمنهم من يعبد النجوم والكواكب ، ومنهم
من يعبد النار ، ومنهم من يعبد بشرا ، أو يسمونه حجرا ، ولا يخفى أن
الشاعر بذلك قد شرح ما أجمله شوقي في قوله : (أتيت والناس فوضى) (١)
ثم يشير الشاعر إلى بعض الصفات السيئة التي انتشرت بين الناس في
ذلك الوقت بقوله (٢) :

قبائل وشعوب لا يعطفهم
إخاء صدق ولا قومي من الرحم
وسوءة وطوك حال بينهم
ما جال بين سباع الجوارح والنعم

إن أواخر المحبة والصدقة قد فقدت بين الناس ، فلا عطف بينهم ، ولا
صدق في الإخاء ، ولا صلة رحم ، كما أن الملوك في قصورهم العالية يتضمون
بمالذ وطاب ، أما الرعية فهي في بؤس شديد ، ولا يخفى ما في قوله : (ما حال
بين سباع الجوارح والنعم) من إشارة لطيفة إلى ما عليه الملوك من نهيب حقسوق
رعيتهم ، وسعدهم عنهم .

ويواصل الشاعر حديثه عن معاملة الملوك لرعيتهم ، ذاكرا أن الملوك
لا تهم لهم إلا الجلوس على كرسي العرش والتعظيم في المناسة فونتقلوا الجهل
والظلم ، والأحقاد والبغضاء (٣) .

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٧ .

(٢) ديوانه ص ٢٥٨ .

(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .

ثم انتقل إلى الحديث عن قريش وأثرها بقوله (١) :

لولا قريش سقى الله الوجود بهيما

غوثا من الأمن في غيث من الديم

قوم إذا ابتدر الناس الملا نهضوا

في زاخر من تليد المجد ملتطم

هم خيرة الله مذ كانوا وصفوته

وجيرة الله فازوا منه بالذمم

يشير عبد المطلب إلى أن قريشا كانت سببا في انتشار الأمن ، وكثرة الخير ولا يخفى ما في قوله : (قوم إذا ابتدر الناس الملا نهضوا) من إشارة إلى رخصة شأن هذه القبيلة من زمن قديم ، ويؤكد ذلك قوله (هم خيرة الله مذ كانوا وصفوته) ، ولعل الشاعر يلح بذلك إلى قيامهم بأمر البيت الحرام ، ويقوى ذلك قوله : (وجيرة الله) ويبدو أنه يشير أيضا إلى قوله تعالى : **لَا يَلْفَافُ قُرَيْشٌ إِيَّانَهُمْ** . . . الآيات (٧) .

وفصل ما أجمله في الحديث عن قريش بقوله (٢) :

ياموثل الناس والأيام واجفنة

بأهلها ، وسحير الهأس في حدم

وعصمة الناس إن ضاق القضاء بهم

فأهوا إلى موثل منكم ومعتصم

فقريش محل إكرام الناس وبخاصة عند الشدائد ، وهي ملاذهم الذي إليه

يلجأون ، وهم يحتصمون .

ولا يخفى أن الشاعر كرر لفظ الناس فوضع الظاهر موضع المضمرة ، ولعل نسي

ذلك إشارة إلى تأكيد فضل قريش على الناس .

ثم ذكر أن من فضل قريش على الناس أن ظهر فيها الرسول (صلى الله

عليه وسلم بقوله : (٣)

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٢) قريش / ١ - ٤ .

(٣) ديوانه ص ٢٥٩ .

(٤) المرجع السابق للصفحة نفسها .

تصوب المجد من أعلى ذواتكم
نورا أطل على الآفاق من شمس

ولا يخفى أنه عبر عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالنور إشارة لطيفة إلى قوله تعالى : " قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ " . (١)

وأشار عبد المطلب إلى أن والدة الرسول ذات الظهر والحصم قد حملت به ، وأن الله تعالى قد سواه بصورة في أحسن صورة ، وزكاه بأفضل الآداب والحكمة ، وإذا كان قد ولد يتيما فإن الله قد آواه . (٧)

ويبدو أن الشاعر لم يتأثر في نظم قصيدته بالبوصيري والتميمية وشوقى فحسب ، بل تأثر في ذلك بالبارودي أيضا (٢) يدل على ذلك إشارته إلى الخير الذي هم السببه حليلة السمديّة عندما أرضعت الرسول بقوله : (٤)

واستقبل الدهر بالنمى مراضعة
إلى هوازن يجرى القيث بالنم
يا سعد حتى بنى سعد بما صنعت
فقاتهم ، وانشر البشرى بحبيهم
خير المراضع من أم القرى رجعت
أما لأكرم مكفول ومطمئنتم

ويشير عبد المطلب إلى خلوة الرسول في غار حراء ، يؤمسه جلال اللبس في وحدته ، وظل على ذلك حتى نزل عليه الوحي بقوله (٥) :

مستأنسا بجلال الله يشهدده

في الضار بين خشوع البيد والأكم
حتى تبين أعلام النبوة فيه
مما قد رأى ثم لم يرتب ولم يهيم

(١) المائدة / ١٥ .

(٧) ديوانه ص ٢٥٩ .

(٢) كشف الخمة في مدح سيد الأمة ص ٧ .

(٤) ديوانه ص ٢٦٠ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٦١ .

أوحى إليه كما أوحى إلى رسل
من قبله بالهدى والملة القيم
بالنور بالحق بالمرقان أرسله الله
به الذي علم الإنسان بالقلم

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (الذي علم الإنسان بالقلم) إشارة لطيفة
إلى أن أول ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى : " اقرأ باسم ربك الذي
خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم
علم الإنسان ما لم يعلم (١) ، وما هو جدير بالذكر أن (عوقى) أشار إلى
ذلك بقوله : (ونودي اقرأ ٥٠) (٧)

وذكر الشاعر أن بعض الكفار عندما أخبرهم الرسول بأمر دعوته ، زلزلت
أقدامهم ، وطاشت عقولهم ، وإذا كان هذا الأمر قد أشار إليه البوصيري (٢)
والبارودي (٤) ، وشوقي (٥) فإن الشاعر قد زاد عليهم بيان معاملة الرسول
لهؤلاء الناس بقوله (٧) :

يحنو عليهم وإن صدوا يحلمهم
رفق الولي وبر السهيد الخندم (٨)
وكم طفوا لم يقابلهم بما صنعوا
قلب تخلق عن المدوان والأضم
ومن يقد مثله قوما أحطهم
منه بمنزلة الأبناء والحشم

إن هؤلاء الكفار كانوا يظلمون في القول للرسول (صلى الله عليه وسلم) ومع
ذلك كان يحنو عليهم ، ويرفق بهم ويحلمهم بالحسنى ، بل كان ينزلهم منزلة

-
- (١) الملق ١-٥٥
(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٦ (٣) انظر ص ١٨٠ من هذه الرسالة .
(٤) المرجع السابق ص ٢٧٧ (٥) المرجع السابق ص ٥٢١
(٦) فايوانه ص ٢٦١
(٧) الخندم : المراد السح النفس عند الخطاء .

أبنائه وحشمه ، ففرق كبير بين خلق الأتبياء وطيش السفهاء ،
وانتقل الشاعر إلى الإشارة إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يدعو
هو هؤلاء القوم وتحدثهم بالقرآن الكريم الذي هجزوا عن الإتيان بمثله (١) :

ثم أشار إلى أن بعض العقلاء الذين أثار الله قلوبهم قد أسلموا بقوله :
إلا فريقاً جلاً نور اليقين لهم

عن ظلمة الشك بالعرفان والفهم
وذكر منهم : السيدة خديجة ، والإمام علي بن أبي طالب وأبا بكر الصديق
(رضي الله عنهم) ، وأشار إلى أن هؤلاء الثلاثة قد أُحرزوا قصب السبق ،
لأنهم أول من أسلموا ، ثم وصف أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنهم
أبطال شجعان (٢) ،

وأشار عبد المطلب بعد ذلك إلى مؤامرة قريش على الرسول (صلى الله
عليه وسلم) ولكن الله تعالى قد حفظه وأمره بالهجرة ، كما تحدث عن الغار
الذي دخله الرسول وصحبه ، ولم ينس أن يشير إلى الحمام والمنكسوت
وما كان لهما من دور كبير في تضليل الكفار (٣) .

وأحسن عندما ذكر أن ورق الربا قد بكت لبيكا البيت والحرم عندما
هاجر الرسول إلى المدينة في قوله (٤) :

لما نحا (يلرب) أهتز الحصى وكفى

ورق الربا لبيكا البيت والحرم .

كما أشار إلى جهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو وأصحابه بقوله (٥) :

تأذن الله أن تخشى كتائبه

منازل الشرك في نجد وفي تهيم

وشيمت البيض فاهتز الحجاز لها

واستنت الخيل في شوق إلى اللجم

-
- (١) المرجع السابق ص ٢٦٢ . (٦) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق ص ٢٦٣ . (٧) المرجع السابق الصفحة نفسها .

ثم وصف جيش الرسول بأن جنوده قد أسلموا أنفسهم لله ، ولذلك خاضوا
كثيرا من الممارك بسيفهم القلائع ، ودرعهم القوية ، وخص بالذكر يوم
بدر فقال عنه (١) :

يوم بنى الله أركان الحنيف به

على دعائم عز غير منهدم

صفت سما الليلي منذ ليته

على الأيام فلم تنظم ولم تنفس

ولا يخفى ما في قوله : (صفت سما الليلي ٠٠) من كناية لطيفة بينت أثر
انتصار المسلمين في غزوة بدر .

ثم يخاطب الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله (٢) :

يا قائد الجيش يسمي تحت رايته

من عسكر الله جند غير منهدم

إن كان جبريل من (أركان حربك) في

(بدر) فحمزة والكرار في الحشم (٣)

في آلك الضر منذ كانوا وهم بشعر

ما في الملائك من أيد ومن كسرم

ويأبيا سقى الدنيا بملته

روق الحضارة من سلسالها الشيم

يبين عهد المطلب أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يقود الجيش، ويرتب صفوفه
كما أن صحابته (عسكر الله) قد حفظهم الله فأيسدهم بنصره ، وقد استعمل الشاعر
لفظة الجيش الحديث في قوله : (أركان حربك) ، وهو يلح بقوله : (إن كان
جبريل ٠٠) إلى اشتراك الملائكة في غزوة بدر مع المسلمين ضد الكفار (٤) .

(١) المرجع السابق ص ٢٦٤ .

(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٣) الكرار : المراد به علي بن أبي طالب .

(٤) انظر طبقات ابن سعد ج ٢ ق ١ ص ٩ وما بعدها .

ولعل عبد المطلب نظر في بيته الأخير إلى قول شوقي عن الشريعة الإسلامية وحضارة الصلحين (٠٠) وأنهلوا الناس من سلسالها الشيم (١).

والملاحظ أن قصيدة الشاعر قد انتهت بنهاية غير منتظرة ، وبدوان بعض أبياتها قد فقد ، وما يعير الدهشة أن ينظم الشاعر قصيدة في (علمي ابن أبي طالب) - وهي المعروفة بالملوية - بلغت أبياتها سبعة وثلاثمائة بيت (٢) .
وينظم في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) قصيدتين الأولى بلغت أبياتها اثني عشر بيتا ومطلعها (٣) :

إليك أجمل المرسلين مدائح

توافيك ما غنى على الأيك صائح

والثانية - وهي ظل البردة - بلغت أبياتها ثلاثة وعشرين ومائة بيت - كما سبق - أو كان المنتظر أن تزيد مدائح الرسول على مدائح غيره ، ولمل هذا مما يقوى فكرة فقدان بعض الأبيات من قصيدة (ظل البردة) كما سبق ،

وهما يكن من شيء فإن قصيدة عبد المطلب (ظل البردة) تشير إلى تقليده وتجديده ، فأما تقليده ، فظاهر في بدئه القصيدة بالفضل ، وفي حديثه عن مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفي إشارته إلى الخير الذي عم السيد فحليمة السعدية بسبب إرضاعها الرسول ، وفي حديثه عن القرآن ونصاحته ، ووصفه صحابة رسول الله ، وحديثه عن هجرة الرسول وإشارته إلى النار والحمام والعنكبوت وغير ذلك من الأفكار التي تشير إلى تأثر الشاعر في قصيدته بالبوصيري والتيمورية والهارودي وشوقي - كما سبق - وأما تجديده فواضح في إضافته ببعض الأفكار الجديدة مثل : أسفه على تفكك العرب ، وذهاب قوتهم ، وإشارته إلى حسن معاملة الرسول (صلى الله عليه وسلم) للكفار المماندين ، ومقابلة غلظتهم وأذا هم بالصغ واللين ، وذكره فضل قريش ورفعة شأنهم من قديم الزمان وللمحبة إلى نزول جبريل (عليه السلام) ومعهم بعض الملائكة في غزوة بدر ، أضف إلى ذلك أن الشاعر قد فصل بعض الأفكار التي أجملها من سبقه ، مثل حديثه عن حالة المالم قبيل بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٥٤ .

(٢) ديوانه ص ٢٣٠ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ص ٥٢ .

المعارضة الثانية : (معارضة الحملوى)

بعدها أشرت إشارة سريعة إلى معارضة عبد المطلب، سأحدث هنا
عن المعارضة الثانية وهي معارضة الحملوى .
والحملوى هو : أحمد بن محمد بن أحمد الحملوى (١) ، ينتهي نسبه
إلى السيدة فاطمة الزهراء (رضي الله عنها) كما أشار إلى ذلك في بعض
قصائده بقوله (٢) :

وإن لي نسبا ينسب لفاطمة
بنت النبي ، ونعم الأم زهراء
فكيف لا أرتجى جدى ونصرتيه
والجهد إن عزت منه أبناء

ولقد ولد الحملوى سنة ١٢٥٦ هـ ام ، بقرية (منية حمل) - إحدى قرى
محافظة الشرقية - وترى في حجر والده ، الذي أرسله - عندما شب - إلى
كتاب القرية - فتعلم مبادئ القراءة والكتابة ثم حفظ القرآن الكريم ، وتلقى
كثيرا من العلوم الشرعية والأدبية عن أفضل عصره ، وواصل تعلمه حتى دخل
مدرسة دار العلوم التي شرف بعلومها ، مما جعله يقبل على الدراسة بينهم
وشوق حتى نال إجازة التدريس سنة ١٢٨٨ م ، ثم عين مدرسا بالمدارس الابتدائية
بوزارة المعارف ، ثم مدرسا بدار العلوم حتى سنة ١٢٩٢ هـ ، إذ ترك مهنة
التدريس ، واشتغل بالمحاماة في المحاكم الشرعية ، وفي أثناء عمله أقبل
على التحضير لنيل شهادة العالمية من الأزهر ، فقال بغيته ، وكان بذلك
أول من جمع بين العالمية وإجازة التدريس من دار العلوم ، ثم قام بتدريس
التاريخ لطلاب الأزهر الشريف ، حتى سنة ١٩٢٨ هـ ، إذ ترك العمل مؤثرا
الراحة لكبر سنه حتى توفي سنة ١٩٣٢ . (٣)

(١) الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٢٧ وما بعدها ، وقدمه كتابه هذا العرف في فن الصرف

(٢) ديوانه أخرجه من أصوله (مصطفى السقا) ج ١ ص ٣٥ الطبعة الثانية ، مطبعة
الخليج بمصر سنة ١٩٥٨ .

(٣) هذا العرف ص ٦ وما بعدها .

آثاره :

لقد مات الحملاوي بعد أن ترك نخبة متنازة من تلامذته مثل : الشيخ عبد العزيز جاويش المتوفى سنة ١٩٢٦، والشيخ أحمد الإسكندري المتوفى سنة ١٩٣٨، وغيرهما من رجال العلم ورواد الأدب، أضف إلى ذلك بعض المؤلفات القيمة مثل :

- * شذا العرف في فن الصرف .
- * وزهر الربيع في المعاني والبيان والبديح .
- * ومورد الصفا في سيرة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) .
- * ودبوانسه يشم شمسه .
- * وقولعه التأيد في عقائد التوحيد (١)

شاعريته :

إذا قرأت شعر الشيخ الحملاوي ، وجدت معظمه في مناجاة الله سبحانه وتعالى ، وطلب مغفرته ، ومدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وآل بيته ، ومدح بعض العلماء وخاصة الإمام الشافعي (رض الله عنه) .

وشعره بحامة - يمتاز بسهولة الفاظه ووضوح معانيه ، ويظهر ذلك واضحا في قصيدته التي مدح فيها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعارض بها بسردة البوصيري وقد بلغت أبياتها ستة وسبعين بيتا تقريبا * وذكر بعض الكتاب أن اسم تلك القصيدة (منهاج البردة) ، وقد نظمها الشاعر ونسب في طريقه إلى الحج (٢)

وإذا صح ذلك القول ، كان تاريخ نظم هذه القصيدة سنة ١٣٢١ هـ ، وهو العام الذي حج فيه الشاعر (٣) أو سنة ١٣٢١ هـ وهو العام الذي أدى فيه الصورة (٤) :

وسهما يكن من شئ ، فإنني لم أجد للقصيدة اسما في ديوان الشاعر ، بل صدرت بالمبارة : وقال يمدح المصطفى صلى الله عليه وسلم (٥) .

(١) المرجع السابق ص ١٥ وما بعدها . (٢) الدائع النبوية ص ٢٠٤ .

(٣) ديوان الحملاوي ج ١ ص ٧٧ .

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ١٢٥ .

(٥) المرجع السابق ج ١ ص ١٣٨ .

ولقد نهج فيها نهج الهيصري في بردته ، ولم يخالفه إلا في مظلّمها ،
إذ لم يبدأها بالهنزل ، بل بدأها بمناجاة خالقه ، والابتهاال إلى رازقسه ،
يطلب رحمته ، ويرجو مغفرته ، ويضع في قبول توبته ، ودوام ستره بقوله (١) :

يلظفر الذنب من جوده ومن كرم

وقابل التوب من جان ومجترم

وسبل الستر إحسانا ومرحمة

على المصاة بغيض الفضل والكرم

اقبل متابى واغفر ما جنته يمدى

واستر عيوسى ، وباعدنى عن التهم

ويستر الشاعر في مناجاة ربه ، طالبا منه (جل جلاله) أن يطهر نفسه
وجوارحه من كل سوء فيقول (٢) :

وخلص النفس من ضحى ومن غمير

واغسل فوادى من ظلم ومن ظلم

ومن يفضلك منى كل جارحة

عن الماصى وعن داء وعن سقم

وعافنى واعف عنى كلما خطرت

خواطير الضى فى صحوى وفى حلى

ثم يعلن الشاعر أسفه ، وتندمه على تفريطه في جنب الله ، بقوله (٣) :

يارب إن كنت قد فرطت فى صفرى

فإننى اليوم قد أفرطت فى الندم

ضيمت عمرى فى لهو وفى لمب

وفى ارتكاب المصاهى غير محتشم

وكت فى غفلة عن كل موعظة

كأن سمى عن الوعظ فى صمم

(١) المرجع السابق ج ١ الصفحة نفسها .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٢٦ .

(٣) المرجع السابق ج ١ الصفحة نفسها .

ودرك الشاعر أن عفو الله كبير ، فلم يقتط ولم يبأس ، بل رجا أن يشمله
لأنه مؤمن ، ويدوم على شكر الله وذكره ، وقراءة القرآن ، كما أنه يحب الرسول
(صلى الله عليه وسلم) ، فيقول (١) :

يارب عفوك للماصين متبــــــــــــــــع

وسحر جودك مورود لكل ظمى
فاجعل بفضلك حسن العفو يشملنى
واغسل ذنوبى وما ألت من لم
فإن قلبى بالتوحيد متلــــــــــــــــى
والشكر دأبى وآى الذكر من كلنى
وديدنى هية المولى وخشيته
وعن حقوقك لم أقفل ولم أنم
وحب غير الورى عندى وعترته
وصحبه فرض عين قد سرى بدمى

ولا يخفى ما فى قوله : (فرض عين ٠٠) من تأكيد حبه للرسول (صلى
الله عليه وسلم) إلا أن هذه العبارة عبارة نقهية بيدو أن الشاعر اكتسبها
من دراسته فى الأزهر - كما سبق -

ويؤكد الشيخ الحملاوى أن ما سبق ذكره - من توحيد الله وذكره وحسب
الرسول وآل بيته - هو كل معتقده الذى يدخره ليوم الحساب ، فإن قبله
الله فقد تحقق حسن ظنه ، وإن رده فقد عظم ندمه ، واشتد حزنه على ما فرط
منه ، ولكنه يطمح فى عفو الله ، وبى شفاعة رسول الله ، فيقول (٢) :

هذا اعتقادى وهذا كل مدخرى

لموقف أنت فيه جامع الأمم

فإن قبلت فهذا حسن معتقدى

وإن رددت عرضى زلة القدم

(١) المرجع السابق ج ١ ص ١٣٩ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٠ .

لكن لي أملا في العفو يطمئني

وفس شفاعة خير العرب والمجم

ولا يخفى أن الشاعر بقوله : (وفس شفاعة خير العرب والمجم) قد عرج على مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ثم واصل مدحه بقوله (١) :

محمد سيد الكونين من نطقت

له الجبال وحيته بخير فسم

ولا يخفى أن قوله : (محمد سيد الكونين) مأخوذ من قول البوصيري :
(محمد سيد الكونين والثقلين) (٢) ، ولعله يشير بقوله : (.. من نطقت
له الجبال) إلى تسليم الحجر على الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما سبق (٣) ،
ثم يتحدث عن معجازه (صلى الله عليه وسلم) بقوله (٤) :

ومن دنا فنادى من حظيرته

كقاب قوسين أو أدنى مع العظم

والجدير بالذكر أن الشيخ الحملاوي لم يشر إلى إسرائء الرسول (صلى الله
عليه وسلم) ، بل ذكر المعراج فحسب وأشار إلى أن الله قد أكرم نبيه (صلى
الله عليه وسلم) في تلك الليلة بأشياء لا يعلمها إلا هو ، بقوله (٥) :

وكان ما كان مما ليس يعلمه

سوى المهيمن والمختار في القدم

ثم يمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأن الله قد جعله وكمّله بقوله (٦) :

سبحان من يصفات الفضل جعله

فقال أعلى الملا في الخلق والشيم

-
- (١) المرجع السابق ج ١ الصفحة نفسها . (٢) انظر ص ١٢٠ من هذه الرسالة .
(٣) المرجع السابق ص ٣٢٥
(٤) ديوانه ج ١ ص ١٤٠ .
(٥) المرجع السابق ج ١ الصفحة نفسها .
(٦) المرجع السابق ج ١ الصفحة نفسها .

السيد المصطفى المختار من مضر

ذخر الساكين مثلي واسع الكرم

ويؤكد حبه للرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (١) :

انى أرى حبه دينا ومعتقدا

وحب عترته ذخرى ومعتقى

كما مدحه (صلى الله عليه وسلم) بأنه خير من سجد لله ، وأن نوره قد

أضاء الظلمات ، وأنه خير مرسل للخلق كلهم بقوله (٢) :

ياخير من سجدت لله جهته

وقام للحق إجلالا على قسدم

ومن أضاء الدياجى نور فترته

فانشق صبح الهدى فى الحل والحرم

وإذا كان بعض الشعراء ممن عارضوا البردة قبله قد بينوا حالة الناس

قبيل بحثه (صلى الله عليه وسلم) - كما سبق - فإنه قد أشار إلى ذلك أيضا

ولكنه أضاف جديدا بقوله (٣) :

أتيت والناس فى غى وفى عمه

مثل السوائم من بهم ومن نعم

وعاكفون على الأوثان ديدنهم

وأد البنات ولو فى الأشهر الحرم

فلا يخفى أن الشاعر على إيجازه قد ذكر جديدا وهو (وأد البنات)

تلك المادة القبيحة التى كانت منتشرة قبل الإسلام ، والجدير بالذكر أنه

لم يشر إليها أحد ممن عارض البردة قبل الشاعر .

ثم يتحدث الشيخ الحملاوى عن القرآن الكريم ، إلا أنه تابع البوصيرى

فى حديثه عن القرآن ، بل أخذ منه شطرا بأكمله فى قوله : (٤)

آياته محكمات كلها عبر . (قديمة صفة الموصوف بالقدم)

(١) المرجع السابق ج ١ الصفحة نفسها . (٢) المرجع السابق ج ١ الصفحة نفسها وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٤١ . (٤) المرجع السابق ج ١ الصفحة نفسها و ص ١٦٠ من هذه الرسالة .

ويبدو أنه نظر إلى محارضة الدرويش ومخاصة عندما بين حال الكفر
عندما بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (١) :

والكفريات على حال يساء به

والعلم بالحق بشراء على العلم

فقال الشيخ الحملاوى (٢) :

فأدبر الشرك في ذل وفي ضحوة

وأصبح النور يعلو أرفع القمم

ولا يخفى ما بين القولين من صلة وإن تصرف الحملاوى في قوله تصرفاً

حسناً .

ويصف الشاعر صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالشجاعة والإقدام
وشرف دينهم ، فكان الميز قائدهم ، والنصر رائدهم ، ولذلك لم يستكينوا
ولم يذموا ، وكيف يستكينوا والرسول يرشدهم ، إلا أنه أخذ شطراً من
البهوصيرى أيضاً في البيت الأول من قوله (٣) :

غر الوجوه بها ليل غطارفة

(من كل قوم إلى لحم المدا قوم) (٤)

فما استكانوا لأعداء ولا وهنوا

بل استعانوا بصدق القصد والهمم

فالميز قائدهم ، والنصر رائدهم

في كل أمر به إعزاز دينهم

والمصطفى صفوة الخلق يرشدهم

إلى المحالي بحسن الفصل والكلم

ثم يشير الحملاوى إلى سبق النور المحمدى - كما سبق - بقوله (٥) :

(١) ديوان الدرويش ص ٢٥٧ .

(٢) ديوان الحملاوى ج ١ ص ١٤١ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٢ .

(٤) ص ١٨٠ من هذه الرسالة .

(٥) ديوان الحملاوى ج ١ ص ١٤٢ .

باسمها قبل خلق الكون من أزل
وكان آدم في الصلصال لم يقم

وواصل توسله بالرسول (صلى الله عليه وسلم) راجيا شفاعته يوم القيامة
لأنه أحق بذلك ، إنه هو من ذوى الأرحام بقوله (١) :

وكن لذنبى شفيما أخذا بيدي

يوم الصناد ، يانى من ذوى الرحم

وبين موقف الناس يوم الحشر ، واضطرابهم فى الموقف العظيم ، وخاصة
عندما تنشر الصحف ، إلا أنه ينظر إلى بردة البوصيرى فيأخذ شطرا من
البيت الثانى فى قوله (٢) :

إذا الصيوب بدت ، والصحف قد نشرت

فى موقف بجميع الخلق مزدحم

وماجت الناس من خوف ومن فزع

(إذا الكريم تجلى باسم منتقم) (٣)

بل إنه يتوسل إلى الرسول بتسميته باسمه ، فيأخذ بيت البوصيرى ، ولم
يزد عليه شيئا إلا أنه وضع اسمه مكان اسمه ، وقال (٤) :

(فإن لى ذمة منه يتسميتى)

بأحمد وهو أوفى الخلق بالذم) (٥)

وأخيرا يختم الشاعر قصيدته ، بإهداء مدحه إلى الرسول (صلى الله
عليه وسلم) ، ثم يشير إلى قلة ذلك المديح ، بل يعلن عجزه عن مدح
الرسول من بعدما مدحه الله بقوله : (٦) (وَإِنَّكَ لَمَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) فيقول (٧) :

مدحته ، وكانى حين أمده حسه

أهديت للبحر قطرات من الدير

لا أستطيع ولا غيرى مدا تحسه

من بعدما قد أتى فى (نون والقلم)

-
- (١) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٢ . (٢) المرجع السابق ج ١ الصفحة نفسها .
(٣) انظر ص ٢٠٨ من هذه الرسالة . (٤) ديوان الحلالوى ج ١ ص ١٤٢ .
(٥) انظر ص ٢٠٤ من هذه الرسالة . (٦) القلم / ٤ .
(٧) ديوان الحلالوى ج ١ ص ١٤٢ .

ولا يخفى أن الشاعر قد أحسن في جعل مديحه هدية إلى الرسول
بخلاف البوصيري الذي جعله (خدمة له) عندما قال : (خدمته بجمع أستقبل
به ...) (١) ،

ولعل الحملوى نظر في البيت الثاني ، إلى قول الدرويش (٢) :
فترك مدحى له مدح ، وهمل قلمى
ونوى في الوصف تحكى (ن والقلم)

ثم يطلب الشاعر من الله تعالى أن يصل على الرسول (صلى الله عليه
وسلم) وآله وصحبه وأتباعه بقوله (٣) :

صلى إله عليه كل آونة
ما أطرب الورق بالآلحان والنخم
والآل والصحب والأتباع قلاطبة
في كل مبتداً منى ومختتم

وبعد هذا العرض السريع لتلك الممارسة يمكنى أن أقول : إن هذه
الممارسة قد قلت أفكارها ، وضاعت أغراضها ، ولم تشمل على أفكار جديدة
سوى الإشارة إلى (وأد البنات) ، بالإضافة إلى أن مظلماً لم يبدأ بالفضل
بل بدى بالتضرع إلى الله (سبحانه وتعالى) .

وإذا كان الشاعر لم يشير إلى تأثيره في نظمها إلى البوصيري ، فإن
فيها دلالة قوية على نظره إلى البردة وإلى محاضرة الدرويش - كما سبق .

المفارقة الثالثة : (النفحة الأحمدية في مدح خير البرية)

بعدما تحدثت عن الممارسة الثانية للشيخ الحملوى ، سأحدثكم عن
الممارسة الثالثة وهي : (النفحة الأحمدية في مدح خير البرية) وقد نظمها
الشيخ : أحمد فهس محمد ، المولود في الجيزة سنة ١٨٩٦ ، ونشأ كما ينشأ

(١) انظر ص ٢٠٠ من هذه الرسالة .

(٢) ديوان الدرويش ص ٢٥٢ .

(٣) ديوان الحملوى ج ١ ص ١٤٣ .

أمثاله في ذلك الوقت ، فتعلم مهادى القراءة والكتابة ، ثم حفظ القرآن الكريم ودخل المدرسة الابتدائية ، وواصل دراسته حتى التحق بمدرسة القضاء الشرعى ، وتخرج فيها ، ليشغل وظيفة محام شرعى ، وظل يمارس تلك الوظيفة إلى أن توفى سنة ١٩٢٥ (١) .

آثاره :

توفى الشيخ أحمد فهى وتروك بعض المؤلفات والقصائد مثل :

- ١- ذكرى الإمام الشافعى .
- ٢- آية النظيم ترد عن آى الذكر الحكيم .
- ٣- النفحة الأحمدية فى مدح خير البرية .
- ٤- ربحانة الرسول : الإمام الحسين .
- ٥- الزهراء فى مدح خاتم الأنبياء .
- ٦- الدررة المصمما فى مدح خاتم الأنبياء .
- ٧- تاريخ كريمة الدارين (السيدة نفيسة) . (٧)

وغير ذلك من المؤلفات والقصائد التى تشير إلى أنه قد شغف بالمدائح النبوية ، وبآل بيت الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ويبدو أنه تأثر فى نظمه كثيرا بالإمام الهوسيرى ، فنظم قصيدة عارض بها همزته ومظلمها : (٣)

أى فخر يضم ذاك الثناء

تتسامى بنظمه الشمراء

كما عارض أيضا برد تمهيدته - : (النفحة الأحمدية فى مدح خير البرية) وقد نظمها فى سنة ١٣٥٢ هـ ، وعدد أبياتها ثلاثة وستون وثلاثمائة بيت تقريباً ، ولقد تأثر فى نظمها (بنهج البردة) لشوقى أيضا ، ولعل ما يؤكده ذلك أنسه خالف الهوسيرى و (شوقى) فى مظلميتها فقال (٤) :

-
- (١) هذه المعلومات من أحد أفراد عائلة الشاعر بعد وفاته .
 - (٢) انظر أحمد فهى محمد : كريمة الدارين ص ١٢٢ مطبعة حجازى بمصر سنة ١٣٧١ هـ .
 - (٣) أحمد فهى محمد / الزهراء فى مدح خاتم الأنبياء ص ٢ مطبعة حجازى بمصر سنة ١٣٧٠ هـ .
 - (٤) أحمد فهى محمد : النفحة الأحمدية فى مدح خير البرية ص ٤ مطبعة حجازى بمصر سنة ١٣٦٨ هـ .

دع ذكر ريم وذكرى البان والملسم
وانهض لذكر ربيع الناس والحرم
واذكر حدیثا عن المختار مشرقه
منور بین وضاه ومبتسم
وهذب النفس بالذكري وآيتهما
فإنها الآية الكبرى لمختسم
وأيقظ القلب بالقرآن تقسره
فإنه الحررة الوثقى لمختسم

فهو يدعو إلى ترك النزل ، ويحث على الإقبال على حديث رسول
الله (صلى الله عليه وسلم) وعلى تهذيب النفس ، وإيقاظ القلب بالقرآن الكريم ،
ولا يخفى أنه يشير بقوله : (دع ذكر ريم) إلى قول شوقي : (ريم على القاع ٠٠)
كما يشير بقوله : (وذكرى البان والملسم ٠٠) إلى قول الهوصيري : (٠٠ ولا أرقت
لذكر البان والعلم ٠)

(١) ثم يحذر من شوى النفس وخداعها فيقول :

فالنفس أمارة بالسوء ما تركت
وإن تصنها لست الخير من أمم
تضى على أثر اللذات هائمة
وتسلك السوء في رغب وفي نهيم

ولا يخفى أنه نظر في الشطر الأول من البيت الثاني إلى قول شوقي : (هامت
على أثر اللذات تطلبها ٠٠) (٢) ، ثم يملن ندمه وأسفه على تفريطه ، ومقارنته
الذنوب ، مبينا أن النفاق قد عز ، وأن الصدق قد قل ، وأن الناس قد فسدت
أخلاقهم ، ثم يأمر مخاطبه بقوله (٣) :

فكن على حذر ممن تصاحبه
ولا يفرنك منه شر مبتسم

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٣
(٣) النخبة الأحمدية ص ٥٠

تقاطع الناس من حقد ومن حسد
وقطموا شجنة الإحسان والرحم
فلا زيارة بين القوم خالصة
ولا وفاء ولو كانوا نوى رحم
وإذا كانت هذه الفكرة تبدو جديدة إلا أنه نظر نبي البيت الأخير
إلى قول عبد المطلب (١) :

قبائل وشموبلا يمطفهم
إخاء صدق ولا قرى من الرحم
ثم يبين أن الدين يدعو إلى الوحدة ، وأسف لاتحاد بلاد الغرب
وانقسام بلاد الشرق بقوله (٢) :

الدين يأمر بالإيلاف شيمته
وحبذا عصمة الإسلام في اللحم
والله يأمر بالإحسان منقبضة
منه وينهى عن العوراء في الكلم
... فيأسى وشمل الغرب ملتئم
والشرق يفضى بشمل غير ملتئم
ويا أسى بانقسام الرأي فملتئم
ويا سرورا برأى غير منقسم
ويدعو إلى الوحدة ، ونهد عوامل الشر والاختلاف فيقول (٣) :

فوطدوا إخواني في الدين وحدتكم
فوحدة الدين حبل غير منقسم
ولا تجعلوا الهوى ظهرا إنه درج
إلى القطيعة والهضاء والأضم

(١) ديوان عبد المطلب ص ٢٥٨ .

(٢) النسخة الأحمدية ص ٥٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٦ .

ونصح بالتمسك بكتاب الله ، وسنة رسول الله ، ثم يعرج على مدح الرسول فيقول (١) :

واستتمكوا بكتاب الله واتبعوا

سكدي النبي فمن يتبعه لا يضر

محمد الشافع المختار منبتهم

عمت مآثره في العرب والمجتم

وخاتم الرسل خير الخلق كلهم

ورحة الله في الدارين والتميم

ثم يصف الرسول بأنه صاحب الحوض المورود يوم القيامة ، وأنه قد فاق الرسل في الخلق ، وفائق الهدى في الرغمة والمظنة ، كما أنه قد كملت صفاته ، وهظمت شأله ، وأنه لم يرد سائلا قط ، ولم يمنّ بما أعطاه ، وسمح ذلك كان كبير الصوم ، ولا يخفى أنه نظر إلى قول البوصيري (وشد من منقب أحشائه وطوى (٠٠) فقال (٧) :

وشد أحشائه والبطن من سغب

وماعه النفس عن مسترفه النهيم

كما نظير إلى قوله : (وراودته الجبال الشم من ذهب) (٠٠) فقال ولكن بتصرف حسن ، وتمبير جميل (٨) :

ولو أرباد أحال الله أجبلهم

تبرا فنا مال عن زهد وعن شم

رأى عبودية الرحمن مفخرة

عن أن يرى ملكا في باذخ المظم

فخر الرسالة أغناه وأقنمهم

تجسرى بحكم لها في الكون مرتسم

ويمض الشاعر في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) مشيرا إلى أنه لم

(١) المرجع السابق ص ٦٠

(٢) المرجع السابق ص ٨٠

(٣) المرجع السابق ص ٩٠

يضجف أمام الشدائد، ولم يثنه إيذاء الكفار عن مواصلة دعوته ، كما بين أن كل الأنبياء قد أودوا ، وأن غذا الإيذاء بمثابة اختبار لهؤلاء الأختيار فقال (١) :

لم يحتفل بالذى لاقاه فى غنت

من العداة ، وإن كانوا ذوى وغم

كل النبیین عانوا فى حياتهم

والله يمتحن الأختيار من قسدم

ثم يشير إلى ما نزل ببعض الأنبياء مثل يونس وآدم وأيوب فيقول (٢) :

من قبل يونس ناجى ربه فنجاه

ما دهاه وما وافاه من نحم

وقبله آدم ، اغواه شائسه

فحل فى الأرض بعد الخلد والطم

ثم اجتباه وولاه خالفتسه

فى أرضه وحداه بارى النسم

أيوب ناداه من ضر فأنقذه

ما به وحماه شرة الحطم

ولا يخفى أنه يشير إلى قصة يونس (عليه السلام) عندما نجاه الله من الفرق ثم أخرجه من بطن الحوت الذى التقمه (٣) ، كما يشير إلى قصة آدم (عليه السلام) عندما وسوس إليه الشيطان فأكل من الشجرة التى نهى عن الأكل منها ، ثم تاب الله عليه (٤) ، ويتحدث عن قصة أيوب (عليه السلام) مع المرض الذى عافاه الله منه (٥) ويستمر الشاعر فى الحديث عن الأنبياء فيذكر نبى الله إبراهيم (عليه السلام) الذى ألقى فى النار، ثم نجاه الله من الحرق وجعلها بردا وسلاما عليه (٦) ، إلى أن يتحدث عن

(١) المرجع السابق ص ١٠٠ .

(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٣) قصص الأنبياء ج ١ ص ٢٨٦ وما بعدها .

(٤) الموجع السابق ج ١ ص ١٢ وما بعدها .

(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٣١٠ وما بعدها .

(٦) المرجع السابق ج ١ ص ١٨١ وما بعدها .

مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (١)
أنما من مولده برا ومكرمة
وقه أضاء فجاج الأرض من ظلم
والكون يزداد إشراقا وبهجة
من ساطع بضياء الله منسجم
ونهج نهج السابقين فيشير إلى تصدع الإيوان ، وخمود النصارى ،
وغير ذلك مما سبق الحديث عنه .

ثم يذكر أن المسيح (عليه السلام) قد بشر بالرسول (عليه الصلاة
والسلام) فقال (٢) :

بشرى المسيح به من قبل بعثته
ضوان دعوته من آخف القدم

ولا يخفى أنه نظر في ذلك إلى قول البارودي (٣) :

فذاك دعوة إبراهيم خالقه

وسر ما قاله عيسى من القدم

ويشير إلى قصة بحيرا ، وتظليل الغمامة ، وحنين الجذع ، وتسيب
الحصى ، وسجود الأشجار ، وغير ذلك مما أشار إليه الهوصيري في برده ، ومسند
عازبه من بعد ما لهوصيري وقيل صاحب النفحة الأحمدية .

ثم يتحدث عن تعبد الرسول في غار حراء ، ونزول الوحي فيقول (٤) :

سائل حراء ، وجبريل الأمين به

ليعلمك بسر غير منهمم

ولا يخفى أنه نظر في ذلك إلى قول شوقي : (سائل حراء روح
القدس) (٥) .

-
- (١) النفحة الأحمدية ص ١١ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢ .
(٣) كشف الغممة في مدح سيد الأمة ص ٥ .
(٤) النفحة الأحمدية ص ١٤ .
(٥) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٥ .

كما نظر إلى قول عبد المطلب : (٠٠ أرسله الله الذي علم الإنسان بالقلم) (١) فقال : (٢)

وقد أهابه جبريل يدهسه
بذكر من علم الإنسان بالقلم

وهو كمنظره إلى شوق بقوله :

ناداه باقراً كلام الله تفقهه
وقد وهى القلب ما لم يتصل بغم

إلا أنه يشير إلى قصة ذهابه إلى (ورقة بن نوفل) ، الذي طأته
بأنه سيكون نبياً ، كما يشير إلى موقف السيدة خديجة التي طأنت الرسول
فقال : (٣) :

وحين وافى إلى ابن نوفل سكمت
منه الجوارح في ربح وفي سلم
لما اطمأن له زالت مخاوفه
وكان في رده ما شد في الصنم
ومن خديجة ما قد زاد عزيمته
فيحمل الكل أو يسخو على الرحم

والجدير بالذكر أن هذه الفكرة لم يشر إليها أحد من الشعراء الذين
عارضوا البردة قبله ، ثم يستمر الشاعر في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم)
فيذكر أنه متمف بأحسن الصفات مثل : الرفق والإحسان والصدق والمقو والحلم
والصبر

ثم يتحدث عن القرآن الكريم فيما يقرب من خمسة وعشرين بيتاً ، ولكنه لم يخرج
في حديثه عن السابقين ، بل قد استعان بكتير من عباراتهم مثل قوله

-
- (١) ديوان عبد المطلب ص ٢٦١ .
(٢) النفاحة الأحمدية ص ١٥ .
(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .

عن آيات القرآن الكريم (١) :

محكمات فما فيهن من شبهه

مفصلات فما ييقين من وهم

فلا يخفى أنه نظر إلى قول الهوصيري : (محكمات فما تيقين من شبه ٠٠) (٢)

ثم يشير إلى حالة الناس عندما بحث الرسول (صلى الله عليه وسلم) (٣)

أتى النبي وفوض الأمر ضارينة

والناس تخنع للشيطان والصنم

والأرض قد ملئت جورا ومظلمة

من كل طاغية بالمسف محتدم

إن تأثره في ذلك بشوق ظاهر إلا أنه أحسن عندما بين أثر

رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد القول السابق مباشرة فقال : (٤)

ف نشرت في بقاع الأرض الوبوسة

من المدالة في حزم وفي نظم

وأشرقت من سنا التوحيد أنشودة

وغشى الشرك في أثوابه الدهم

من شرعة فجر الأبواب زاخرها

وتابخته بمنهبل ومنسجم

ثم يتحدث عن الإسراء والمصراع ولكنه لم يزد عن سبقه شيئا ، بل قد تابع

(شوقي) في قوله (٥) :

جبت السموات أو ما فوقهن بهم

على صورة دريعة اللجم

ركوبة لك من عز ومن شرف

لا في الجياد ولا في الأيوق الرسم

(١) المرجع السابق ص ١٧٠

(٢) انظر ص ١٦٢ من هذه الرسالة .

(٣) النفحة الأحمدية ص ٢٠ .

(٤) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٥) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٨ .

نقال هو (١) :

جاء السموات والأبراج مرتقيها
على البراق ، وسر الله في اللجم
ركوبة من بديع الله مستهمها
في سقمها العز ، لا في الأينق الرسم

فلا يخفى أن الشاعر قد أخذ ألقاظ شوقي كلها تقريبا ، كما تابعه
في عروج الرسول على البراق وقد ذكرت - سابقا - أن هذا غير صحيح (٧) .
ويشير الشيخ أحمد فهمي إلى هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)
ولكنه نظر إلى من سبقوه فقال (٨) :

سل عن قريش دعاة الشرك إذ نهضوا
إلى مطاردة المختار في زمم
ولا يخفى أنه من قول شوقي - مع تصرف قليل - (٩) :
سل عصبة الشرك حول الفار سائمة
لولا مطاردة المختار لم تسم
وكذلك قوله (١٠) :

فأجمعوا أمرهم في دار نذوتهم
في قتله ، وتناجوا في دجى الدسم
من قول البارودي بتصرف أيضا : (١١)
فاستجمعت عصبا في دار نذوتها
تبخى به الشر من حقد ومن أضرم
ثم يذكر الشاعر أن الله قد أخبر رسوله بموامة المشركين ، كما أمره بالهجرة

(١) النسخة الأحمدية ص ٢٢ .

(٢) انظر ص ٥٣١ من هذه الرسالة .

(٣) النسخة الأحمدية ص ٢٣ .

(٤) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٨ .

(٥) النسخة الأحمدية ص ٢٣ .

(٦) كشف الثمة ص ١ .

ولكنه دخل النار حتى تياس قريش من اللحاق به ، والشاعر متأثر في ذلك
كله بشوقى، فإذا قال شوقى (١) :

لولا يندالله بالجارين ما سلمنا

وهينه حول ركن الدين لم يقم

قال الشاعر بتصريف قليل أيضا (٧) :

يد من الله قد مدت لصفوته

لولا رعايته للدين لم يقم

ثم يشير إلى عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول (٢) :

يا لائى فى هوى المختار محذرة

فلو سلكت سبيل الوجد لم تلم

دع عنك لومى فائى عنك فى شغل

يحبطه ووجدى غير منكم

ولا يخفى أن الشاعر قد نظر إلى قول الهوصيرى : (يا لائى فى الهوى

المحذرى محذرة . . .) (٤) .

كما لا يخفى أن فى لفظ (منكم) خطأ لقويا - كما سبق - (٥)

وأشار إلى دعوة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) بقوله (٦) :

قد قام يدعو لدين الله فى خلق

من الدماثة والإحسان فى الكلم

وما يجادل إلا بالذى حسن

من البيان وفى لين وفى رحمة

وإن رأى منهم فى القول مجهلة

وائى بحلم ورد الضيظ فى كظم

-
- (١) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٩ .
 - (٢) النسخة الأحمدية ص ٢٥ .
 - (٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .
 - (٤) انظر ص ٩٣ من هذه الرسالة .
 - (٥) المرجع السابق ص ٨٨ .
 - (٦) النسخة الأحمدية ص ٢٦ .

ثم يشير إلى جهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيذكر شجاعته وموقف
قريش منه ولكنه ينظر إلى قول شوقي (بالأمس مالت عروش) (١) ويقول (٢) :

بالأمس مادت عروش من وطائدها

ووطدت سرر في غايصة الدعس

وهين أن سبب الحرب هو مقابلة الشر بالشر فيقول :

فلا غرابة في غزو وممـــــــترك

فالشر إن تلقه بالشر ينصم

ولا يخفى أن الشطر الثاني مأخوذ من قول شوقي (٣) :

والشر إن تلقه بالخير ضقت به

ذرها وإن تلقه بالشر ينصم

ثم يمدح صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنهم شجعان ، باعوا
أنفسهم لله ، وبأنهم صائمون عن اللذات ، قائلون في الأسفار ، صابرون
في البأساء ، ولكنه ينظر إلى قول البوصيري : (وصل حينئذ وصل بدرنا وصل
أحدا - -) (٤) ، فيقول : (٥)

فصل حينئذ إذا ما شئت أو أحدا

ويوم بدر وسائل كل مصطلم

ثم يبين بعض مزايا الإسلام الذي انتشر بسرعة على أيدي هؤلاء
الصحابة الأبطال فيقول (٦) :

سرفان ما انتقحوا الأقطار واهتبلوا

نمهيضة الفتح والإسلام في نصم

•• وشيدوا قبة بالعدل قد وسمت

بجسيم الله لم تثلم ولم تصم

-
- (١) الشوقيات ج ١ ص ٢٥٢ •
 - (٢) النفحة الأحمدية ص ٢٨ •
 - (٣) الشوقيات ج ١ ص ٢٥١ •
 - (٤) انظر ص ١٨٨ من هذه الرسالة •
 - (٥) النفحة الأحمدية ص ٣٠ •
 - (٦) المرجع السابق ص ٣٤ •

حرية القول مرفوع اللوا لهيها
كل سواسية في نصفة الحكم
لا فرق بين أمير طاب محتسده
و سوقة في حدود الله والحرم
وشير إلى أن حضارة الإسلام قائمة على أسس قوية، وصفات حسنة،
كالعدل والوفاء بالعهود والصدق فيقول :

رسمين في رسمه يشدو بمدلهم
وقبة العدل فانت قلة الهرم
وما عرفنا لهم خلفا ولا كذبسا
ولا عهدودهم مخفورة الذمم

ولا يخفى أنه نظر في البيت الأول إلى قول شوقي (١) :

واترك رسمين إن الطسك مظهره

في نهضة العدل لا في نهضة الهرم
ولكنه تصرف فيه تصرفا حسنا إذ بين مدى تمسك هؤلاء الصحابة
بالعدل حتى إن رسمين وهو نفس رسمه يشدو به ؟

ويتحدث عن الدين الذي كان سببا في نشر الثقافة وانتشار العلم
في كثير من البلاد ، التي أصبحت كمبة يقصدنا كل من أراد أن يتعلم
فيقول (٢) :

فالدين ألزم للأرواح ما عظمست

والدين داعية الأرواح للعظم

تزهو خواضهم بالعلم طلبتهم

وأصبحت كمبة البلدان والأمم

(دار السلام) بأهل النبع مشرقسة

و (مصر) تتبصها في فوضها المم

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٥٥ .

(٢) النبعة الأحمدية ص ٣٥ .

وما أعارض في مدحى ومالكى
يتيمة البردة الزهراء في نعم
فانى ناعل من فيض صاحبها
وما أفاض من الآيات والحكم
وتلك منزلة تسمو بأيتها
إلى مقام من الإحسان مزدهم
ولا يخفى أن الشاعر ينفي معارضة البردة التي سببها الفحوى ، لانفسى
المعارضة مطلقا ، لأنها واضحة ، ولكن بسبب الإعجاب .
وأخيرا يناجى الشاعر ربه ، متوسلا بالرسول (صلى الله عليه وسلم)
فيقول (١) :

فيا الهى بخير الخلق تنقذنا
من الضلال بنور العلم والحكم
وهدب لنا رحمة واسلك بنا رشدا
وجد بحفوك فى فيض وفقى كرم
يارب صل وسلم ما زنا قمر
على النبي مدى الأفلاك والنجم
وصل رب على الآل الألى شرفوا
بجاه طه وحق الله والحبرم
وصحه الشر ثم التابعين لهم
والمسلمين بفيض ضك منسجم
ثم يدعو الله بأن يخلص بلاد الشرق من كل سوء ، ولعله يقصد به
الاستعمار وأعوانه ، وأن يجمع قلوب المسلمين ، ويوفقهم ، ويجمع كلمتهم فيقول (٢) :
وواتنا بملك الأمر نملكه
وأيقظ الشرق من نوم ومن وهم

(١) المرجع السابق ص ٤١ .
(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .

المحاضرة الرابعة : " نظام البرودة " أو " ذكرى محمد "

بمدا تحدثت عن محاضرة : (النخبة الأحمدية في مدح خير البرية)
للشيخ أحمد فهى محمد ، سأحدث عن محاضرة : (نظام البرودة) للشاعر
باكثير .

وعو : الشاعر القصصى : على أحمد باكثير ، ولد في حضرموت سنة
١٩١٠ ونشأ مع والده التاجر، الذى كان يجوب البلاد العربية وغيرها ففى
تجارة محمود بخيراتها إلى وطنه (حضرموت) ، وأخيرا استقر به المقام فى
إحدى جزر أندونيسيا وتسمى (سورابايا) وكان معه ابنه (على) الذى كان
حينئذ فى الثامنة من عمره ، ومع ذلك كان يساعد أباه فى حرفته ، ويقضى
وقته فى قراءة كتب الأدب ، ولعل الذى دفعه إلى ذلك أنه قد حفظ قسما
من القرآن الكريم على بعض شيخ حضرموت كما تلقى أصول اللغة العربية
هناك أيضا ، فكان كل ذلك سببا فى تنمية موهبته الأدبية مما جعله يكمل
حفظ القرآن الكريم ، ويقبل على كتب العرب ودواوين شعرائهم ، أضف
إلى ذلك أنه أتقن اللغة الإنجليزية .

ولقد تزوج الشاعر - هاشم قرير العمون إلا أن القدر فجعه فى زوجته
، فحزن عليها حزنا شديدا ، دفعه إلى ترك موطنه الجديد ، ورحل إلى
الحجاز سنة ١٩٢٢ ، وبعد سنتين رحل إلى القاهرة ، ثم التحق بكلية الآداب
فسم اللغة الإنجليزية ، وكان دائم البحث فى كتب الأدب ، كما كان يشارك
فى كثير من المناسبات بشعره حتى ظهر فى الأوساط الأدبية وكان ما زال
طالبا فى الكلية ، التى تخرج فيها سنة ١٩٢٨ ، ثم عمل مدرسا بإحدى
المدارس الثانوية فى المنصورة سنة ١٩٤٠ ، ولكنه لم يقطع صلته بالقاهرة
بل كان دائم الاتصال بأدبائها وشعرائها ، ثم قوى ذلك الاتصال عندما
نقل إلى القاهرة ، ولكنه ترك التدريس سنة ١٩٥٥ ، وعمل بوزارة الثقافة
بعد أربعة عشر عاما قضاها مدرسا ، ثم عين مديرا للمكتب الفنى للرقابة على
المصنفات ، إلى أن توفى سنة ١٩٦٩ م .

آثاره :

ولقد ترك الشاعر كثيرا من المؤلفات الأدبية من بينها خمس قصص

واحدى وثلاثين مسرحية مطبوعة - ومنها :
وا إسلاماه ، وسيرة شجاع ، وحرب البسوس - بالإضافة إلى ما يقرب
من ثلاث عشرة قصة ومسرحية ممددة للطبع (١) .

شاعريته :

ولقد كان باكثير شاعرا مجيدا ، حلو العبارة ، سهل الألفاظ
سار في شعره على النهج العربي ، إلا أنه قد قطع شوطا كبيرا في الشعر
المطلق الحديث ، ويبدو أنه اضطر إليه كما يفهم من قوله : " إن أحمد
الأساتذة الأجانب قال في دروس الجامعة ، إنه لا وجود في لغتكم العربية
لهذا الفن - يقصد الشعر المرسل - ولا يمكن أن ينجح ، فاعتزمت عليه
قائلا : أما إنه لا وجود له فهذا صحيح ، لأن لكل أمة تقاليدها الفنية
وكان من تقاليد الشعر العربي التزام القافية ، ولكن ليس هناك ما يحول دون
إيجاده في اللغة العربية ، فمن لغة طيبة ، تتسع لكل شكل من أشكال
الأدب والشعر ، فأعرض عني ، وشمرت بأن علي أن اتحدى هذا التمسك
وأدحضه بالبرهان العملي .. " (٢)

وإذا صح ذلك القول من الشاعر ، فإنني كنت أود أن لا يملك هذا
الطريق ، لأنه يخالف طبيعة الشعر العربي ، وهو كما قال : " لكل أمة
تقاليدها الفنية .. " وبخاصة أن الذي تحداه كان أستاذا أجنيا ، ولعله
أراد بذلك أن يصرفه نحو وغيره من الشعراء العرب عن لغتهم العربية ، والشعر
العربي الأصيل .

وهما يكن من شيء فإن للشاعر شعرا قد نظمه على النهج العربي
الأصيل - الموزون المقفى - ومنه قصيدته التي سماها (ذكرى محمد ، أو نظام
البردة) وقد بلغت أبياتها ستة وخمسين ومائتي بيت (٣) ، وهي المعارضة

(١) علي أحمد باكثير : فن المسرحية ص ٥ وما بعدها الطبعة الثانية بمطبعة المصرفة
بمصر سنة ١٩٦٤ - من أدباء الإسلام المعاصرين ص ٩٠ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ص ١١١ .
(٣) نظام البردة ص ٣ وما بعدها مطبعة الشباب بمصر سنة ١٣٥٢ هـ .

التي سأحدث عنها ، وقد نظمها الشاعر نفس شهر رجب سنة ١٢٥٢ هـ ، وطبعها
في السنة نفسها ، ولكن في شهر ذي الحجة ،

ويبدو أنه كان يعاني كثيرا من الهموم والمتاعب ، كما يفهم من مطلع
تلك القصيدة وهو (١) :

يا نجمة الأمل المنشى بالألم

كوسى دليلسى في حلولك الظلم

في ليلة من ليالى القر حالكة

صغابة بصدى الأرواح والديسم

فهو يخاطب نجمة أطمه التي ظهرت أمامه في تلك الليلة ، ذات الظلام
الشديد ، والبرد القارس ، ويطلب منها أن ترشده إلى ما يزيل حيرته ، ويكشف
غمته ، ويستمر في بيان حالته النفسية ، التي جعلته يرتاب في نفسه ، ويأسف
على حال العرب الذى تغير ، إذ تقاسمت بلادهم دول الغرب الذين يريدون
هدم الدين ، فيقول (٢) :

أرنبو إلى (يعرب) والدهر يعرضها

رواية الهوس بمد المز والنعم

تقاسمتها شحوب الغرب تدغمها

إلى المهلك سوق الشاء والنعم

وأرمق (الدين) والأعداء توممه

فتكا يضاف إلى أدوائه الفقم

ويتعجب الشاعر من أن الدين يحارب في داره وبين القائمين على أمره ،

ثم يتعسر على شبابه الذى ولى ، دون أن يحقق فيه آماله وأهدافه
فيقول (٣) :

وبع الشباب وقد نعدت أوائله

والحوض دونى وإنى لا أزال ظمى

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق ص ٤ .

(خمس وعشرون) لم أدرك بها غرضا
مرت على مرور الطيف في الحلم
ياويلتاه أأبغى أن أسود إذا
ولي الشباب وما فيه من الصرم
هيميات هيميات إن الشيب مجبنة
تصد عما يريد المجد من قسم

ولا يخفى أنه في قوله : (ياويلتاه) قد أتى بها السكت في حالة
الوصل ، كما فعل شوقي (١) .

ثم انتهى الشاعر إلى الانتقال من هذا المكان الذي ركبه في نفسه
المهموم ، إلى مكان آخر ، لعله يجد فيه ما يزيل همه ، فيقول مجردا من نفسه
شخصيا يخاطبه (٢) :

فاجمع متاعك واركب ظهري ساجحة
هول تسير بلا رحل ولا لجم
تجرب فتبصر بالأشياء مديونة
كأن ضهرنا في إثر ضهرهم
تطوى البلاد كما مر المومخ في
لح بمختلف الأعصار والأسم
حتى إذا وجدت عينك نفسك في
رسوع (طيبة) ذات المنهل الشيم
فيم (المسجد الميون) في أدب
بقلمب مذكر في شعرهم

إن الشاعر يتوجه إلى المدينة المنورة ، ولقد أحسن حينما صور صرعة فرسه
وطيها البلاد بالمومخ الذي يشير في مدة قصيرة إلى كثير من الأزمات
والأمكنة ، ثم بين أنه سيتوجه إلى المسجد النبوي في أدب ، ويكمل نصحه

(١) انظر ص ٥١٠ من هذه الرسالة .

(٢) نظام البودة ص ٤٤ .

في قوله : (١)

وأعد إلى (الروضة) الفنا فحسبها
خير الخلائق من عرب ومن عجم
قل السلام على فخر الوجود ، على
خير النبيين ، طه المفرد الملم
واستجل سيرته قدام روضته
بحر الكمال ، بلائخ ولا وهم

ولا يخفى أن ألفاظ الشاعر سهلة إلا أن لفظ (قدام) - وإن كان عربياً -

غير شمرى .

ومهما يكن من شيء فإنه يجمل روضة الرسول (صلى الله عليه وسلم) هدفه
لكي يسلم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صاحب السيرة الحسنة ، والقدوة
الطيبة ، والجامع لكل صفات الكمال بلا شك أو تردد .

ثم ينتقل إلى بيان وظيفة المسجد على عهد رسول الله (صلى الله عليه
وسلم) بقوله (٢) :

كان الرسول لنا يطل هدايته
على الأنام بلا عى ولا لسم
كان الرسول هنا يلقي نصائحه
فيطربون لها أشجى من النغم
كان يقضى لنا بين الورى حكماً
أكرم بأحمد من قاض ومن حكم
وكان من ههنا يزجى كائنه
لنصرة الدين من أصحابه البهم
ويستشيرهم في المشكلات به

وفيه يستقبل المافين بالنم

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٢) المرجع السابق ص ٥٥ .

وفيه يلقي وقود الناس آتية
من كل صوب يشخر منه متسهم
وفيه يهت بالذكري رسائله
ورسله لملوك العرب والمجتم
هنا ثوى رجل الدنيا وواحد
هنا ثوى خير من يسمي على قدم

وهكذا أشار الشاعر إلى وظيفة المسجد في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) إشارة جامعة، فهو مدرسة للتعليم ، ومحكمة للقضاة ، ومركز لقيادة الجيش ، و (مجلس للشعب) تحل فيه مشاكل الأمة ، وهو مثل (وزارة الشؤون الاجتماعية) ، توزع فيه العطايا على الفقراء ، والمحتاجين ، أضف إلى ذلك أنه كان منزلا لضيافة الوفود التي تأتي من كل مكان ، كما كان (توفارة الخارجية) تخرج منه رسائل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى ملوك رؤساء الأمم ، يدعواهم فيها إلى الإسلام .

والجدير بالذكر أنه لم يشر أحد من عارض البردة قبل (باكثير) إلى تلك الناحية الجليلة ، إلا أن قوله عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) : (هنا ثوى رجل الدنيا وواحد) ليس مناسبا للمقام .

بالإضافة إلى ما يوهمه من وصف ينزه عنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . ولقد انتقل الشاعر بحد حديثه عن دفن رسول الله في هذا المكان الطاهر ، إلى الحديث عن مولده الشريف ، وفي هذا دلالة على أنه لم يرتب أفكاره ترتيبا زمنيا ، والجدير بالذكر أنه لم يتحدث عن تصدع الإيوان وغيره من الأحداث التي أشار إليها سابقوه ، وإنما قال (١) :

جاءت به الدرة العصماء (آمنة)

فأشرق الكون من أنواره المصم

واهتز أهل السموات الملا طربا

بمنقذ الكون بما فيه من أثم

(١) المرجع السابق ص ٦٠

•• وسبحت ربها الأعلى الملائك حسن

شكر وشمر بما حصى الظلم والظلم

ثم يتحدث الشاعر عن نشأة الرسول ، ويبين أن الله قد حفظه من دنس
الجاهلية ، فلم يسجد لصنم ، ولم يشرب خمرًا ، بل عرف بكل خلق حسن ، كان
سببها في إعجاب السيدة خديجة به ، وزواجها منه ، ويشير الشاعر إلى
حوقها من الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ طمأنته عندما نزل عليه الوحي
أول مرة ، وإذا كان الشاعر قد سبق بتلك الفكرة ، فلقد أضاف إليها الإشارة
إلى أن تعليم الفتيات ينهض بالإسلام ، فقال (١) :

كذلك لن ينهض الإسلام من ضمسة

حتى نرى (غيده) ينهض بالعلم

كيف النهوض وشق من جوارحك

عضو أشل ، وشق غير محتزم

ولا شك في أن المرأة المسلمة التي تعلمت أمور دينها تستطيع أن تنشىء

أجيالًا ، متفهمين في دينهم ،

ويبدو أن الشاعر أتى بتلك الفكرة بعد حديثه عن السيدة خديجة
لتكون مثالا يحتذى ، إذ اختارت الرسول زوجًا لحسن خلقه ، لا لمال ولا لغيره
وعندما بحث ساعدته بحالها ، كما صدقته حين كذب الناس ، وصبرت معه
على الشدائد .

وينقل باكثير إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنه طلق الوجه ،

يعفو عن ظلمه ، ويقبل العذرة ، كما كان شجاعًا في الحروب ، ثابت الجأش في الميدان
كريمًا يعطي ولا يمن ، زاهدًا يطوى الليالي ولا يتبرم .

ثم يقف أمام شبهة أثارها أعداء الإسلام ، وهي كثرة نساء الرسول (صلى

الله عليه وسلم) فرد عليهم رداً مقنعا قائما على الخجة والبرهان ، مبينا لهم أن
الرسول لم يتزوجهن لشهوة ، إذ لو كان كذلك لاختارهن شابات لا مسنات ، وإنما

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .

الذى دفعه إلى ذلك كله، إما خدمة الدين، وتوطيد الصلات بينه وبين أصحابه مثل: زواجه بالسيدة عائشة (١) والسيدة حفصة (٢)، وإما إنسانيته ورحمته مثل: زواجه بالسيدة سلمة (٣)، والسيدة: سودة بنت زمعة (٤) إذ مات زوجها ولم يكن لهما من يمسولهما فتزوجهما الرسول من أجل ذلك.

والجدير بالذكر أن الشاعر لم يمتنع من أشار إلى تلك الفكرة، ولعل حوادث العصر هي التي دفعت به إلى ذلك عندما أثرت تلك الشبهة (٥) ولذلك يقول (٦):

وما تزوج نسما كي يلد بهيما
إذن لما اختار من يحبون للهيم
لكنه كان يرجو أن يتم بهيمه
نشر الهداية في الأقوام باللسوم
كما تزوج من بعض ليكلمهم
ومن تنفس برسول الله لم تثم

ثم أشار الشاعر إلى حالة الناس قبل بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبين أن حكمة الله اقتضت إرسال الرسول (صلى الله عليه وسلم) في ذلك الوقت ليوضح طريق الخير للناس، ويرشدهم إليه، عن طريق القرآن الكريم، ذلك الكتاب الهادي، والمعجزة الخالدة - ولم يخرج في ذلك كله عن سابقه.

ثم انتقل إلى فريضة انتشار الإسلام بالسيف، فذكر أن الحرب لستم تشع إلا للدفاع عن الدين وأمنه، وفي مناقضة الظلم والظالمين، فقال (٧):

- (١) هي السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق توفيت سنة ٥٧ هـ، وقيل غير ذلك (أسد الغابة ج ٧ ص ١٩٢).
- (٢) هي السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب، توفيت سنة ٤١ هـ وقيل غير ذلك (المرجع السابق ج ٧ ص ٦٧).
- (٣) سبق التعريف بها في فاصح ص ٧٦ من هذه الرسالة.
- (٤) هي السيدة: سودة بنت زمعة بن قيس توفيت في آخر خلافة عمر بن الخطاب بمصر سنة ٢٢ هـ (أسد الغابة ج ٧ ص ١٥٨).
- (٥) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٧ وما بعدها، والدكتور أحمد الحوفي: لما زاد د النبي زوجاته ص ٣ وما بعدها مطابيح الأهرام بمصر سنة ١٢٧٤.
- (٦) نظام البردة ص ٧. (٧) المرجع السابق ص ١٠.

لم يشرع الحرب إلا في مدافعة
عن دعوة الحق ، أو في كفا مهتم

والجدير بالذكر أن الشاعر قد سبق في ذلك بشوقه الذي قال في ذلك
فأجاد (١) ، ولقد بين أن الدين يدعو إلى العلم ، والأخلاق المالية ، والمهنة
والساواة بين الناس ، ثم تحدث عن الطهارة ، والصلاة وغيرها من أركان
الإسلام ، فقال (٧) :

يسرى (الطهارة) من أسى شمائره
لا يقبل الله نسك الأغير الدم
وفي (الصلاة) فاجاة تطهر من
نفس الصلى وتوحيها لدى البهيم
وفي (الزكاة) دواء لا مثيل لــــه
لكشف ما حاق بالدنيا من الأزم
أما (الصيام) فترويض النفوس على
حمل الشدائد في صير بلا يرم
وكم جلا الطب من أسراره عجبا
يزيل ما عى عنه الطب من سقم
و (الحج) موسم للمسلمين بــــه
تنجو قواعم ليضحوا قادة الأمم
وكم به من دروس جد نافعة

لو أن آذانهم خلوم الصمم
ولا يخفى أن الشاعر قد أحسن في تلك الإشارة اللطيفة إلى بعض أركان
الإسلام ، وبخاصة أنه لم يسبقه إلى ذلك أحد من الشعراء المعارضين .

ثم يشير بالكثير إلى أن من فضائل الإسلام أنه سوى بين الرجال
والنساء في الحقوق والفرائض الدينية ، اللهم إلا ما تقضيه الطبيعة من مخالفة
ومن ذلك أنه كلف الرجل بالقيام بأمر بيته ، والإنفاق على زوجته ، ولو كانت

(٧) نظام البردة ص ١٠ وما بعدها .

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٥١ .

أموالها لا تحصى ، وذكر أيضا أن وظيفة المرأة الحقيقية تكون في بيتها ، إذ
تتولى بأمور زوجها وأولادها ، وأشار إلى أن من عزيمت الإسلام أيضا أنه أطلق
حرية المرأة في التصرف في مالها بالبيع أو غيره ، مبينا أن نسوة (فرنسا)
لم يحصلن على تلك الحقوق حتى بعد الثورة التي قامت من أجل تحقيق المساواة^(١)
بل إن نساء أوروبا كن كمنع البيت^(٢) ، يقول الشاعر^(٣) :

ساوى النساء حقوقا بالرجال سوى

ما يقتضيه اختلاف الخلق والشم

•• يرى (أنوثتها) أرقى فضائلها

فلا تذللها بأهوان ولا تسم

تكون آمة في البيت ناهية

تمنى بتربية الأولاد بالرحم

هذى وظيفتها الفطرية ارتسمت

ففى سنة الله قبل اللوح والقلم

تكون في مالها طلقا مخلصة

حتى التصرف في بيع ونى سلم

فمثل نساء (فرنسا) هل حصلن على

حق التصرف بعد (الثورة) المم

وهل تذكر (أوروبا) زمان ترى

نساءها كمنع البيت والمجم

ولعل الشاعر بذلك يرد على بعض أعداء الإسلام الذين قال بعضهم :
" إن الإسلام ناجح كمقيدة ودين ، ولكنه فاشل كظام اجتماعى ، فقد وضعت
قوانينه لتناسب الجزيرة العربية ، فى القرن السابع الميلادى ، ولكنه مع
ذلك أبدى لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنسانى ، إنسه
يحرم المرأة من كل حقوقها ، ويمتبرها أخط من الرجل ، وإنه يبيع الشرق
وإنه دين متعصب متطرف يبيع لأتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم فى المقيدة

(١) انظر : الدكتور أبو الفتح رضوان بالاشتراك مع غيره : أصول العالم الحديث ص ١١٢

مطابع مؤسسة روز اليوسف بمصر سنة ١٩٧٦ • (٢) حياة محمد ص ٣٤٦

(٣) نظام البردة ص ١١

أسرى حرب رقيقاً ، ويكره كل من لا يحتقد برسالة " محمد " - صلى الله عليه وسلم -
ويجمل من أتباعه جماعة من أنصاف المهج المحيين للحروب ، والذين لا تتسع
صدورهم لأى تصامح .. (١) ، ولا يخفى ما فى ذلك القول من جهل بأحكام
الإسلام وأخلاق المسلمين - وخاصة الصحابة - وحسن معاملتهم ، ولا يخفى
أيضاً أن الرق كان منتشرًا قبل الإسلام (٢) ، وللإسلام فضل كبير فى الصل
على القضاء عليه ، وفى الحث على إكرام الصبيد ، ولذلك قال الشاعر بمد قوله
السابق مباشرة (٣) :

وسق (للرق) ما يقضى عليه على
مدى الزمان مع التدرج والملم
حاط (الموالى) بالحسنى ومالمهم
كالملكين مع التخفيف فى الجرم
سقى (الكتاب) لإطلاق الأسارى كما
دعا ورغب فى الاعتاق للنسب
وسق فى فك أسرى الحرب فديتهم
بالمال أو عتقهم بالعتق والكسرم

إن الشاعر يشير فى تلك الأبيات إلى بعض الوسائل التى تقضى
على الرق فى الإسلام ، ومن ذلك أن الإسلام قد أوجب على من يقتل مؤمناً
خطأً عتق رقبة مؤمنة ، يقول الله تعالى : " وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ
وَدِيَّةٌ مَسْلُومَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهَا .. الآية (٤) " وكذلك على من يحنث فى يمينه ، يقول الله
تعالى فى بيان كفارة اليمين : " .. نَكَارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ
مَا تُطْعَمُونَ أَوْ كَسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ .. الآية (٥) " وكذلك على من
يظاهر من زوجته ثم يعود لما قال ، يقول الله تعالى : " وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ
نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ .. الآية (٦) " بل لقد شرع الإسلام

- (١) الاتجاهات الوطنية ج ١ ص ٢٤٠ ، ج ٢ ص ١٤٨ .
(٢) الدكتور أحمد الحوفى : ساحة الإسلام ص ٢٠٥ وما بعدها مطابع شركة الإعلانات
الشرقية بمصر سنة ١٩٦٣ ، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢٠ وما بعدها ، ما يقال
عن الإسلام ص ١٤٥ وما بعدها . (٣) نظام البردة ص ١١ .
(٤) النساء / ٩٢ (٥) المائدة / ٨٩ .
(٦) المجادلة / ٣ .

إخراج الزكاة لتحرير الرقاب يقول الله تعالى : " ٠٠ " وفي الرقاب والغارمين ٠٠
الآية (١) ٠٠

وشير الشاعر بقوله : (حاط الوالى بالحسنى وعاملهم ٠٠) إلى مثل
قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو يحث على حسن معاملة الأرقاء والخدم :
" إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه
ما يأكل وليلبسه ما يلبس ، ولا تكلفوهم ما ينفلجهم فإن كلفتموهم فأعينوهم (٧) "

كما يشير بقوله : (رغب في الاعتقاد للنعم) إلى أن الإسلام رقب نفسي
إعتاق العبيد ، ومن ذلك قول الله تعالى : " وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَبْضَةُ ، فَسَبِّحْ
رَبَّكَ ٠٠ (٢) " وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " أيما رجل أعتق اسراً
سلباً ، استغفد الله بكل عضوه عضموا ضمن النار (٧) "

ولم يزل يقول : (ومن في فك أسرى الحرب فيديتهم ٠٠) إلى قوله تعالى
عن أسرى الحرب : " ٠٠ فَأَمَّا مَنَّا بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاءُ ٠٠ الآية (٥) :
ولعل ذلك البيان الواضح يقطع تلك الألسنة الكاذبة التي لم يعلم منها
الإسلام الحنيف ، ولم يعلم منها نبي الإسلام (صلى الله عليه وسلم) .
ومن تلك المفتريات ما أشار إليها الشاعر بقوله : (٧)

و (محنة الإفك) برهان يدل على

صدق النبي ، وينفي مآثر التهم (٧)

- | | | | |
|-----|---|-----|------------------------|
| (١) | التوبة / ٦٠ | (٧) | صحیح البخاری ج ٨ ص ١٩ |
| (٢) | البلد / ١٢ ، ١٣ | (٤) | صحیح البخاری ج ٣ ص ١٨٨ |
| (٥) | محمد / ٤ | (٦) | نظام البردة ص ١٢ |
| (٧) | المراد (محنة الإفك) ما عرف (بحديث الإفك) ويتلخص في اتهام السيدة عائشة زوج الرسول (صلى الله عليه وسلم) بخيانته ، لأنها تخلفت عن الصلوة مع وكيل الرسول (صلى الله عليه وسلم) العائد من غزوة بني المصطلق ، إذ كانت تقضى حاجتها ، فسار القوم ظناً منهم أنها في هودجها ولما رجعت إلى مكان المسلمين لم تجدهم ، فقامت مكانها ، عسى أن يهود من يأخذها ، ولكن أحد الصحابة كان قد تأخر عن الركب أيضاً ، عندما رآها استرجع فاستيقظت ، وركبت بحيره إلى المدينة ، فلما رأى المنافقون ذلك أرادوا أن يكيدوا للرسول (صلى الله عليه وسلم) باتهامهم السيدة عائشة بخيانته ، وتبهمهم في ذلك بعض المؤمنين ، ولكن الله برأها ، وأنزل في حقها قرآناً يتلى ، انظر : سورة النور / ١١-١٩ ، وحياة محمد ص ٣٥ وأول ما بعدها . | | |

لله فيها - وطه في تهلبله -

من هولها - حكم تمحو على الفهم

لو كان من قلبه هذا الكتاب

قضى زمانا طويلا وشغوا في فهم

يمذب الشك قلبا منه مثلثا

بالحب والظهور مفيارا على الحسرم

ولا يخفى أن الشاعر أشار إلى أن حديث الإفك يدل على أن القرآن الكريم من عند الله ، لا من عند رسول الله ، إذ لو كان من عنده لما استمر مسددة حزينا مهجوما على ما أشيع - كذبا وزورا - عن السيدة عائشة ، هو وبعض صحابته ، ولكن الله كشف كرمه ، وأزال غمته ، وبغزول الوحى ببراعة السيدة عائشة ، التي أشار إليها الشاعر بقوله (١) :

حتى أتى الوحى بالآيات معلنة

براعة الظاهر ذات القدس والمعصم

زوج النبي ، ابنة الصديق صاحبه

خير الورى بمد خير الخلق كلهم

فأشرقت أوجه الأصحاب من فرج

وجللت أوجه الأعداء بالسخيم

ولا يخفى ما في البيت الأخير من بيان أثر تلك البراعة في نفوس الصحابة الذين كانوا في هم كبير ، وأثرها - أيضا - في هؤلاء الأعداء أصحاب النفوس الخبيثة .

ويواصل الشاعر حديثه عن المنافقين الذين كانوا يكيدون للإسلام وللرسول (صلى الله عليه وسلم) ولكن الله حفظهما من كل سوء ، ثم يخرج على الحديث عن وقوع السحر لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيقول (٢) :

ويستحيل وقوع السحر فيه كما

روى الرواة بلا فقد ولا فهم

(١) ظل البردة ص ١٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣ .

دست عليهم فراحوا يلهبون بها
والله يخسر عنهم زلة القدم
وكم لأعداء دين الله من بسدع
قد ألصقوها به ثارا لملكهم

يشير الشاعر إلى ما روى عن السيدة عائشة - رضی الله عنها - أنها قالت
سحر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رجلٌ من بني زريق يقال له : لبيد بن الأعمى
٥٥ الحديث (١) . وبين أن هذا زعم مفترى على الرسول، وضحه أعداء الإسلام
الذي قضى على دولة أصنامهم ، ومعتقداتهم الباطلة ، والجدير بالذكر أن العلماء
قد انقسموا حول هذا الأمر إلى قسمين بعضهم يمنع وقوعه ، وبعضهم يجيزه
حينما أن ذلك لا يتعارض مع العصمة (٢) .

والجدير بالذكر أيضا أن الشاعر لم يسبق في الإشارة إلى تلك الأفكار بأحد من
الشعراء المعارضين . ثم يظهر بالكثير أسفه على تحول الأمة الإسلامية من قوة
إلى ضعف وما ذلك إلا لأنها أخذت بظواهر الأعمال وتركته جوهرها ، فيقول
- مخاطبا - الرسول (صلى الله عليه وسلم) - عن الأمة الإسلامية إنها (٣) :

حائكك ففى صور الأعمال تتبهمها
وما اقتدت بك فى عزم ولا همم
ولا كمال ولا صدق ولا خلص
ولا اجتهاد ولا عز ولا شمم

ويبدو أنه أراد أن يفصل ما أجمله في البيت الأول ، فذكر أن المسلمين
لا يقرن القرآن ويفهمون معانيه ، بل يتلون به خيرا تدبر ، وإذا رأيتهم وهم
يتلون أو يستمعون إليه ، خيل إليك أنه يتلى على قوم سكارى لا يتأثرون ، أو على
أموات لا يسمعون ، فيقول (٤)

ولا تقوم إلى القرآن تقروه
إلا أمالى بالألحان والرسم
كأنما أنزلت آى الكتاب لكسى
تتلى على شرب راح أو على رجس

(١) صحيح البخارى ج ٧ ص ١٧٦ ، ج ٨ ص ١٤٣ (٢) زاد المعاد ج ٣ ص ١٠٤

(٣) نظام البردة ص ١٢ . (٤) المرجع السابق الصفحة نفسها .

وذكر أيضا أن فريقا من المسلمين قد أعجبوا بحضارة الغرب ، فاتجهوا إليها تاركين تراثهم الرائع ، وحضارتهم التي شهد الغرب بعظمتها (١) ، فيقول (٢) :

وأوا (أوريا) فراحوا يكفرون - على

جهل - يدينهم الموروث والشيم

وأنكروا مجد آباء لهم شهدت

لها فحول رجال الحرب بالقدم

وما لذلك غير الضعف من سبب

فالضعف أصل جميع اليأس والفقم

ويتضح إلى الله تعالى لكى يعمنا برحمته ، لأن الغرب مستيقظ ، أما الشرق فنائم ، كما أن العرب في غفلة عن الخطر الذي يهددهم ، بل يحادى بعضهم بعضا ، والعدو يتربص بهم ، فيقول (٣) :

يارب رحماك إن الغرب منتبسه

والشرق مشغل بالنوم والسام

والعرب في غفلة عما يهددها

لم تعتبر بليالي بؤسها الدهم

ياويحها تتعادي والمدو على

أبوابها يرقب الأحداث عن كشم

ويؤكد الشاعر تضرعه ، مينا أنه يكون سعيدا إذا سعدت أمته ، ويكون شقيا إذا ذلت ، ويتوسل إلى الله برسوله (صلى الله عليه وسلم) والقرآن الكريم قائلا : (٤)

يارب يا صاحب العرش العظيم ومن

تحى الإرادة منه دارس الرسم

بما بعثت به خير الأنام أجر

يارب أمته من صفة الصم

(١) الاتجاهات الوطنية ج ٢ ص ٢٠٩ ، ٢١٤ و ٢٦٩ وطبعها .

(٢) نظام البردة ج ١٤٠ .

(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٤) المرجع السابق الصفحة نفسها .

•• فظهر الكون ما فيه من رجس
ومن فسوق ومن ظلم ومن أزم
فلا دواء له ما يكابده
إلا هداية خير الرسل كلهم

ثم يرجو من الله أن لا يحرمه من شفاعته النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ولا
من الشرب من حوضه ، ثم يدعو (جل جلاله) طالبا مغفرته له ولوالديه
ووالدته وزوجته وغيرهم فيقول (١) :

واغفر ذنوب أبي فضلا ووالدتي
وزوجتي وذوي قباي والرحم
وصل أزكى صلاة منك دائمة
على الرسول ، رسول الرحمة القسم

والجدير بالذكر أن الشاعر لم يسبق بمن طلب مغفرة ذنوب أبيه وأمه
وزوجته بالتفصيل مثله ،

ويطلب من الله (سبحانه وتعالى) الرضا عن صحابة الرسول (صلى الله
عليه وسلم) وخاصة أبي بكر والظروف عمر ، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب
وهو في ذلك ناظر إلى شوقي في نهجه (٢) .

وأخيرا يختم الشاعر قصيدته بقوله : (٣)

واختم بمسك يفتح على
(محمد) خير بيد ، ومختم

ما أوض البرق في الظلماء من إضم

وما عطا الريم بين البان والحلم

ولا يخفى أنه يشير بالشطر الأول من البيت الثاني إلى بردة البوصيري
التي نظر إليها في بعض أفكاره ، كما يشير بالشطر الثاني إلى نهج البردة
لشوقي التي نظر إليها - أيضا - في بعض أفكاره .

(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٥٦

(١) نظام البردة ص ١٥

(٣) نظام البردة ص ١٥

ومعد ذلك المرض أرى أن ممارسة باكثر - نظام البردة - قد تناولت أفكارا كثيرة لم يتعرض لها من سبقه من أصحاب معارضات البردة ، مثل : بيان رسالة المسجد ، وحثه على تعليم المرأة ، وبيان أن الإسلام قد أنصفها بإعطائها حقوقا لم نحصل عليها المرأة الأوروبية التي تتباني بالحضارة والتقدم ، كما تحدث عن بعض أركان الإسلام مبينا بعض فوائدها ، أضاف إلى ذلك أنه قد رد على بعض المفتريات التي افتراها أعداء الإسلام مثل : تعدد زوجات الرسول (صلى الله عليه وسلم) وموقف الإسلام من الرق ، وما شرعه للقضاء عليه وحديث الإفك ، بالإضافة إلى تناوله الأفكار التي تناولها سابقوه ، وأحسن نسي تناولها ، وطريقة الحديث عنها مثل : حديثه عن مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وغير ذلك مما سبق الحديث عنه .

(المعارضة الخامسة) " قُرْبَتِي "

وأما المعارضة الخامسة فهي معارضة الشاعر : محمود محمد جبر - المعروف بشاعر آل البيت ، وقد ولد في مخافة - إحدى بلاد محافظة المنيا - سنة ١٩٠٦ ، وعندما شب ذهب إلى كتاب القرية حيث تعلم مجادى القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم ، ثم انتقل إلى المدارس الابتدائية فالثانوية إلى أن حصل على شهادة (البكالوريا) فعمل بالصحافة مدة ، ثم عمل بوزارة الأوقاف التي لم يستمر فيها طويلا ، إذ نقل إلى وزارة الزراعة للعمل بها ثم عمل موظفا بالسكة الحديدية ومنها أحيل إلى المعاش ، ولا زال يشهد بقصائده ، وخاصة في المناسبات الدينية .

ولقد كان الشاعر كثير القراءة في كتب العرب ودواوين شعرائهم ، فنمت موهبته ، وترنم بكثير من القصائد ، ولكنه قصرها على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وآل بيته ، وكان ذلك سببا في لقبه (شاعر آل البيت) .

والجدير بالذكر أن الشاعر قد زار كثيرا من الدول الإسلامية والحريية ، مثل : الكويت والحجاز ، وسوريا ، ولبنان ، وفلسطين سنة ١٩٤٨ ، وكان يلقي قصائده في تلك البلاد وخاصة في المناسبات الدينية .

كما نشرت لسه المجلات المصرية وغيرها تيرا من القصائد مثل:
مجلة منبر الإسلام ، ومجلة السلم ، ومجلة لواء الإسلام ، ومجلة الوعي الإسلامي .
وشعره يمتاز بسهولة لفظه ، ولطف معناه ، وإن كان خاليا من عمق الفكرة
ترى ذلك واضحاً في ديوانه (شاعر آل البيت) ، وديوانه (مزايير الإيمان) (١)
وأيضاً في قصيدته : (قُربى) - أو نهج جديد للبردة - وهى التى طرأ
بها بردة البوصيرى ، ولغ عدد أبياتها تسعة وخمسين ومائة بيت ، وقد نظمها
الشاعر فى سنة ١٩٤٢ (٢) ،
ولقد بدأها بالفؤل على عادة معظم الشعراء العرب فى بدء قصائدهم (٣)
فقال (٤) :

ورقاً (مكة) بين البان والملم
ناحت فأذكت بقلبي لاجع الضرم
هاتى نواحك يا ورقاً إن لنا
فيما تتوحين محبوا من النسم
قد هجت شوقى فما لى راج يسحرنى
هب النسائم يسرى من روى (سلم)

ولا يخفى أن الشاعر يبين أن ورقاً مكة قد ألهمت شوقه ، كما أن النسائم
الذى هب من جهة (روى سلم) قد ملك ليه ، وماله لا يكون كذلك وقلبه مشتاق
إلى أرض الحبيب الذى أفصح عنه بقوله (٥) :

-
- (١) كل هذه المعلومات من الشاعر نفسه .
(٢) طبعت تلك القصيدة فى كتيب بمطابع دارالكتاب العربى بمصر سنة ١٩٤٢ .
انظر : ديوانه (شاعر آل البيت) ص ٢١١ طبعة دارالطبعة القومية
بمصر سنة ١٩٥٦ .
(٣) ولقد وضع الشاعر تلك القصيدة فى ديوان (شاعر آل البيت) ص ٢٤
وما بعدها - إلا أنه حذى منها أبياتاً كثيرة وجعل مطلعها :

صلى عليك إلهى بارئ النسم
يا بصك النور فى الأكوان من قدم

- (٤) قُربى ص ٢١ .
(٥) المرجع السابق الصفحة نفسها .

يا رول (مكة) هل أبقى النسيم على
خطو الرسول .. بروحي موضع القدم
ولم يملك إلا أن ييوج بذلك الحب ، ويملن ذلك الشوق بقوله : (١)
ياسيد الرسل ما بالشوق عنك غنى
ولا الحنين ولا جرحى بملثم
ماذا يطهر قلب الصب من درن
إلا هيام يراعى الحق والذمم
ثم يتحدث عن مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (٢) :

درجت تحبو على أرض قد اكتسبت
منك الطهارة والتهديس من قدم
صوامح الطير حامت حول أيكتهما
ترجى إلى الروض لحن الصادح الرثم

وأخذ يبين الأحداث التي وقعت في ذلك اليوم من تصدع الإيوان ، وانطفاء
النيران ، وغير ذلك مما تحدث عنه سابقوه من طارضا البردة ، كما تحدث عن حالة
المالم قبل مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقبيل بحثه ، فالظلم منتشره
والفساد مملن ، ولما بحث (صلى الله عليه وسلم) كشف الله به الضمة ، وهدى على
يديه الأمة (٣) :

ثم أشار إلى بعض ما لاقاه الرسول من أذى واضطهاد ، واختار الحديث
عن ذهاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى أهل الطائف ليدعوهم إلى الإيمان
بعد أن اشتد به إيذاء كفار مكة .. فقال (٤) :

إن أنسى يوما سرت منتملا
حصاة (مكة) نحو (الطائف) الأم
وحصبتك من الفلجان شردمة
حتى دميت بروحي ما جرى ودمسى

-
- (١) المرجع السابق ص ٢٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٣ وما بعدها .
(٣) المرجع السابق ص ٢٥ .
(٤) المرجع السابق الصفة نفسها .

• • • وثقت ثمة ربي أنت أظم يسي

فاكشف عن السمع إن القوم في صم

إن الشاعر يلجح إلى إيذاء أهل الطائف للرسول (صلى الله عليه وسلم)
إذ سلطوا عليه سفهاءهم ، فرموه بالحجارة ، وأدموا قدمه (صلى الله عليه وسلم) ،
والجدير بالذكر أن الشاعر لم يسبقه أحد من عارض البردة إلى الإشارة إلى
تلك الفكرة ، وفي البيت الثالث يشير إلى دعاء الرسول (صلى الله عليه وسلم)
: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، الخ) (١) ثم أشار إلى أخلاق الرسول
(صلى الله عليه وسلم) التي يصجز عن حصرها ووصفها الواصفون مهما أوتوا من
فصاحة وبيان ، كما أشار إلى شجاعته وخاصة في غزوتي بدر وأحد .

ويبين الشاعر أننا لو اتبعنا شرع الله لارتفع شأننا بقوله : (٢)

لو أننا يارسول الله غايته

ما قد شرعت لسدنا سائر الأمم

ثم يذكر جهاد الصحابة وشجاعتهم التي مكنتهم من حرب الفرس والروم
ونشر الإسلام في كثير من البلاد ، كما يبين أنهم اتصفوا بالصفات الحسنة
والمبادئ الكريمة ، فيقول (٣) :

قوم أثاروا على الأعجم واقتحموا

أبواب (فارس) فانظر أي شتحم

وملكوا الشام والأمصار وافتتحوا

ملك القياصر بالوخادة الرسم

العدل والحلم والإنفاق ديدنهم

والصدق في القول والتحفيظ للهمم

الله والشرع والقرآن رائدهم

ومن يلد بحدود الله يعتصم

ويشير إلى بعض معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثل انشقاق القمر

(١) انظر حياة محمد ص ١٨٧ وما بعدها .

(٢) قريتي ٢٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٨ .

ومعجزة شاة أم معبد، التي در لبنها على الرغم من هزالها ، عندما حلبها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو في طريقه من مكة - مهاجرا - إلى المدينة ، ويختم تلك الإشارة بقوله (١) :

يا أم معبد من يلق الرسول يجد
من رحمة الله ألوانا من الكرم

ثم ينتقل إلى الحديث عن المصراع - مع أنه وقع قبل الهجرة على الصحيح - ولكنه لم يقف عند طريقة إشارة السابقين إلى تلك المعجزة ، بل زاد على ذلك بيان إمكان حدوثها وكأنه يريد بذلك على من ينكرها فيقول (٢) :

مصراجه صلوات الله تكلّمه

وقوة الله شىء ، بالغ العظم

والكهرباء أليست كشف تجرّبه

تلقى الضياء على أسرارهم

آيات مولاى ترى كل آفة

سبحان من علم الإنسان بالقلم

أيومنون بذر سوف يهلكهم

ويكفرون بربى بارى النسم

ويشير إلى أن بعض هؤلاء المنكرين قد اخترعوا الذرة ، واستخدموها فى الدمار والخراب بقوله (٣) :

يا رب يا رب إن القوم قد فجروا

وفجروا الذر للإضرار والحرم

والأمر أمرك فإهلكهم بما صنعوا

وانقذ عبادك من حثف ومخترم

ويشكو إلى الله تعالى عدم تعاون الناس وتماطفهم فيقول (٤) :

(١) المرجع السابق ص ٢٩٠

(٢) المرجع السابق ص ٣١٠

(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها

(٤) المرجع السابق ص ٣٢٠

الله لو أننا سرنا توأزرنا . . . روح من الحمد لا روح من البرم
الله لو أننا كنا سواسية . . . لم ندع إلا إلى عدل ونحتكم
الله الله لو هيت جحافلنا . . . لنصرة الشرق لم نجنح إلى القسم
وصار أمر الهدى شورى وألقتنا

عهد نبريه من دون ما قسم
الله الله كان المسلمون إذن
بين السماكين لا في وصمة السـ
ياسيدي لى شكاتى أنت تعلمها

وذا حنينى وذا جرحى وذا ألمى
ويبدو أن الشاعر نسى ترتيب أفكاره - زمنيا - ولذلك يقول (١) :
عد بنى إلى الفار والمختار من منزل

عن الخلائق يجلو صفحة الظلم
ثم بين الفرق بين معاملة الرسول للكفار ومعاملتهم إياه فيقول (٢) :
قد كنت أكبرهم قلبا وأرحمهم
وكننت منقدهم من وهدة الصدم
فما لهم حين أزجبت الهدى انقلبوا

وحاربوا الدين دين الحق والقيم
ويمدح الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مبينا بعض صفاته الكريمة
ثم يعترف بمجزئه عن الإحاطة بمناقب الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول (٣) :
قال الرواة كثيرا فى مناقبه

ماذا أقول ، وماذا يبتغى قلمى
.. المجزى عجزى فما يسموله أحد

من ذاك يستطيع أن يرقى إلى النجم
المجزى عجزى فمن ذا يستطيع إذن
حصر المكارم والأخلاق والشيم

(١) قرئى ص ٢٤٠ . (٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق ص ٣٥ وما بعدها .

المعجز عجزى ولى فى المعجز مفخرة
أنى عيت هنا فى ساحة البهم
ياسيدى لم أجد فى القول شائبة
تشوق الغليل وترنى بغية النهم
ويخاطب الرسول (صلى الله عليه وسلم) مبينا أنه يحبه حبا شديدا بقوله (١) :
ياسيدى هل أحب الناس سيدهم
كما أحبك لا .. والحق مله فى
أقسمت بالقلب ما بالقلب غيركمو
الحب ياسيدى .. يجرى هنا بدمى

ويستمر الشاعر فى بيان حبه للرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى يتحدث عن
نسبه الشريف ، وأنه من قبيلة ربيعة القدر ، عظيمة الشأن ، وأنه قد زادها شرقا
فيقول (٢) :

من يستطع يا رسول الله يشبهكم
فى دوحه المجد أو فى دولة الشيم
من يا رسول الهدى يجرى يلاحقكم
وأنت فيما نرى فى قمة القمم
ثم يجرى من نفسه شخصا ينصحه قائلا (٣) :
أخرج من القلب أضفانا تلونه
واغسل ثيابك واهجر صجة المهكم
أقبل على الله واسلك نهج من وصلوا
يجبهم لرسول الله واعتصم
سر نحو روضه زحفا إن انقطعت
بك الوسائل تنم كل مفتتم
ويبين قيمة حب الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى القلب والنفس والروح
بل والكون فيقول (٤) :

(١) المرجع السابق ص ٣٧

(٢) المرجع السابق ص ٣٨

(٣) المرجع السابق ص ٣٩

(٤) قرنتى ص ٤٠

ما قيمة القلب قلبا لست تمكنه
أليس كالحجر الجلود من وهم
ما قيمة النفس لولا ما يخالجها
من حياها وهي عنك الممر لم ترم
ما قيمة الروح لولا ما يطهرها
وأنت وحدك طهر الروح من قدم
ما قيمة الكون لولا نور طلمته

أقسمت بالنور أن أسمى إلى (الرقم) (١)

ويواصل الشاعر مدح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأنه فرد في أخلاقه
ومنزلته ، إلى أن يصف ذلك اليوم الذي قبض فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
إذ كان يوما شديدا وقع على المسلمين ، بل على الأرض والسما ، والجناد والحيوان
فيقول (٢) :

في حيرة من دموع الأرض هل فرج
أن قد سمعت به أم تلك من أزم
أما السماء فلا أدري أها ظلمها
غيث على القبر أم فيض من الألم
ما للمدينة كان البشر يطؤها
فأصبحت في وجوه غيرة الأدم
وهذه الطير لم تبج مطارحها
ماذا دهاها وحول الحى لم تحم

ولا يخفى ما في الأبيات من عبارات مؤثرة مثل : (دموع الأرض ، من أزم ، غيث
على القبر ، فيض من الألم ، فأصبحت في وجوه غيرة الأدم ، ماذا دهاها) ، إنها
عبارات توحى بأن أمرا عظيما قد حدث ، وتشير إلى أن خطبا أليما قد وقع ، ولقد
أحسن الشاعر في اختيارها ، إذ ليس هناك أفضل من رسول الله ، وليس هناك
عزیز نبكى على موته مثل رسول الله ، والجدير بالذكر أنه لم يسبق بمثله ذلك التفصيل
ويصتوف الشاعر بتقصيره في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ثم

(١) الرقم - بفتحيتين فسكون - جبل بمكة .

(٢) قرنتى ص ٤١ .

يشير إلى تأثيره في نظم قصيدته بالهوصيري فيقول (١) :

إلى (الهوصيري) أحنى الهمام محترفا
بالفضل والسبق في مدح وملتزم
تقريباً (قريباً) يا أخى في الحب أرسلها
إلى الحبيب فهل يرضيه متمسك؟
أزجيتها درة يكفى بها شرفاً
ذكر النبي بقلب مخلص وغمم
عيني تقربها إن قال قائلها
يارب صل على المختار في القدم

وأخيراً يختم الشاعر قصيدته بالتضرع إلى الله تعالى أن يصل على الرسول
(صلى الله عليه وسلم) وعترته ، وأن يقبل شمره ومدحه فيهم ، وأن يبسط
له حج بيت الحرام فيقول (٢) :

يارب صل على (طه) وعترته
واقبل قريضه ، وتبلى زورة الحرم
محمد أنت نور النور في غسق
وأنت ياسيدي بدئي ومختتمتي

ومحمد ، فلئن ضاقت أغراض تلك الممارسة ، وقلت أفكارنا ، لم نخجل
من جديد إلى جانب التقليد ، مثل الإشارة إلى إيذاء الرسول في الطائف
وبيان سمة صدره ، وكبير حلمه وعفوه ، بالإضافة إلى الرد على من ينكروا
معراج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وتفصيله أثر وفاة الرسول (صلى
الله عليه وسلم) .

(١) المرجع السابق ص ٤٢٠

(٢) المرجع السابق ص ٤٣٠

المعارضة السادسة : ((بشرى المشاقين ببلوغ سيد المرسلين))

وأما المعارضة السادسة فهي معارضة الشيخ: محمد خليل الخطيب ،
الملقب بشاعر النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولقد ولد في (نيدة) - إحدى
قرى مركز إخميم بمحافظة سوهاج - سنة ١٩٠٩ هـ ، ونشأ حيث ولد ، وعندما
شب دخل كتاب القرية فحفظ القرآن الكريم بعدما تعلم مبادئ القراءة والكتابة
ثم التحق بمعهد أسبوط الديني ، ومنه انتقل إلى القسم العالي بالقاهرة
بعد حصوله على الشهادة الثانوية الأزهرية - وكان من أوائل الناجحين فيها ،
ثم حصل على الشهادة العالمية سنة ١٣٥٠ هـ ، كما حصل على شهادة
التخصص في اللغة العربية سنة ١٣٥٤ هـ ، ثم حصل على شهادة العالمية
سنة ١٩٣٦ م .

واقدم عمل مدرساً بمعهد طنطا الديني حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٩٧٤
ولا يزال يُدرّس العلم حسبة لله ، وينفع الناس بندواته ومحاضراته الأسبوعية
بمسجد المحافظة بمدينة طنطا .

شاعريته :

نظم الشيخ الخطيب الشعر وهو صغير ، ثم ازدادت شاعريته
بازدياد ثقافته العربية والدينية ، إلا أنه قد قصر نظمه على مدح النبي
(صلى الله عليه وسلم) وآل بيته ، ولعل بيئته كان لها أثر كبير في ذلك الاتجاه
إذ كان والده (رحمه الله) حافظاً لكتاب الله ، عالماً بفقهاء الناس في أمور
دينهم .

مؤلفاته :

- وللشيخ الخطيب مؤلفات كثيرة منها :
- ١- إتحاف الأنام بخطب رسول الإسلام .
 - ٢- القصص الحق .
 - ٣- روضات الخطيب .

- ٤- رباعيات الخطيب .
 - ٥- كشف الغطاء في شرح حكم سيدى أحمد بن عطاء .
 - ٦- غاية المطالب في شرح ديوان أبى طالب .
 - ٧- نقاية التصوف وشرحها .
 - ٨- التراجم المهمة للأثرحة الأئمة .
 - ٩- الكافية الكبرى .
 - ١٠- بشرى العاشقين ببلوغ سيد المرسلين (١) .
- وهى التى عارض بها بردة البوصيرى ، وهى من أطول معارضات البردة فى العصر الحديث - إن لم تكن أطولها - إذ بلغ عدد أبياتها ثلاثمائة وستين وخمسمائة بيت تقريبا ، وقد نظمها فى سنة ١٣٦٧ هـ (٢) .
- وهى نغمة نبوية ، كما قال الشيخ وهو يهديها إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

يا سيد الخلق يا نور الوجود ومن
أولاك مولاك ما أولاك من عظم
أهديك (بشرى) وبيا بشرى الألى عشقوا
خير الأنام فنالوا أحب حبهم
.. نظمها ويقينى أن فضلك
أمدنى بمحانيها وبالكل
فأقبل هدية منسوب لكم وك
أشعاره أصبحت نورا على علم
والجدير بالذكر أن الشيخ لم يبدأ قصيدته بالفتل ، بل بدأها بمطلع رآه فى
نومه كما قال : " رأيت مظلما - بشرى العاشقين - فى المنام ، فكان بشرى
تحققت بزيارة خير الأنام ، وقد منحت إلى يده الكريمة (صلى الله عليه وسلم)
فى سنة - بكسر السين - مرتين ، فأهوت إليها بنفسى مرتين (٣) ."

(١) هذه المعلومات من الشيخ نفسه .
(٢) بشرى العاشقين ص ٤٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٢ .

وصها يكن من شيء فإن مطلع تلك القصيدة قد اشتمل على بشري
يتمناها كل مسلم ونفى (١) :

بشري لنا معشر العشاق من قدم
فقد بلغنا إمام العرب والمجم
وأفضل الخلق في خلق وفي خلق
عليه أثنى إله الخلق بالمظم

وشير الشيخ إلى أن الله قد صلى على الرسول (صلى الله عليه وسلم)
وكذلك ملائكته بقوله (٢) :

عليه صلى ، كذا صلت ملائكة
وعمره خصه الرحمن بالقسم
وبالصلاة مع التسليم تكرومة
الله ألزم من ألقى يد السلم
ومن يصلى عليه مرة فله
عشر من الله ذي الآلاء والكرم

ولا يخفى أن قوله : (عليه صلى) يشير إلى قول الله تعالى : *
إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا* (٣)
وهذا ما أكد به البيت الثاني ، كما أن قوله : (وعمره خصه الرحمن بالقسم)
يلح إلى قوله تعالى : * لَمَمَّزَكَ إِنْسَهُمْ لَقِيَ سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ * (٤) ، ونفى
البيت الثالث إشارة إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) * من صلى علي واحدة
صلى الله عليه عشرا * (٥) .

ولا شك في أن ذلك كله يبين عظم منزلة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
عند ربه (سبحانه وتعالى) . ثم تحدث الشيخ عن حالة العالم قبل بعثته
(صلى الله عليه وسلم) فذكر أن الظلم كان منتشرا ، بالإضافة إلى عبادة الأصنام

(١) المرجع السابق ص ٣ . (٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٣) الأحزاب / ٥٦ .

(٤) الحجر / ٧٢ .

(٥) صحيح مسلم ج ٢ ص ١٧ (طبعة دار التحرير) .

وشرب الخمر ، ووأد البنات ، وإذا كان قد سبق بمن أشار إلى تلك الأفكار فإنه قد زاد أنكاراً أخرى مثل حمل الإمام على البغاء ، ومثل تأخير الأشهر الحرم ، وهو ما عرف بالنسيء - فقال : (١)

وربما حملوا بعض الإمام على

بيع العفاف برذول من القيم

والبعض يسطو على بعض فلا سلم

غير الحرام ، وغير الأرح الحرام

وربما نسئوها إذ تمن لهم

فيها مصالح قدعوهم لسفك دم

ولا يخفى أن البيت الأول يلح إلى قوله تعالى : " وَلَا تُكْرَهُوا
فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبِّئُكُمْ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا " الآية (١) .
كما أن البيت الثالث يشير إلى قوله تعالى : " إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي نَفْسِ
الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا " الآية (٢) .

ولقد بين الشيخ الخطيب تحكم ملوك الفرس والروم في رعيتهم ، وانشار
الظلم بينهم ، ثم انتقل إلى الحديث عن العرب فذكر أن منهم رجلاً
يتصفون بالكرم وحفظ الجوار ، إلا أن أحسنهم هو رسول الله (صلى الله عليه
وسلم) بقوله (٤) :

وإن أحسنهم رأياً وأعظمهم

نفساً وأكرمهم في البدن والختم

محمد صفوة الباري ورحمته

والذخر والنعمة الكبرى على النسم

ويبدو أن الشيخ قد نظر إلى نهج البردة لشوقي ، لأن الشطر الأول
من البيت الثاني هو من قول شوقي (٥) :

محمد صفوة الباري ورحمته . . . وخية الله من خلق ومن نسم

(١) بشرى الماشقين ص ٤ وما بعدها .

(٢) التوبة / ٣٢٧ .

(٣) النور / ٣٣ .

(٤) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٤ .

(٥) بشرى الماشقين ص ٥ .

ومهما يكن من شيء فقد انتقل إلى الحديث عن مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (١) :

يا ليلة ولد المهدي الأمين بيها
تالله ما ليلة تحكيك في المظم
بك الحبيب أتى ، أعظم بحقدمه
أكرم به فهو خير الخلق كلهم
ما زال من ظاهر يهدى لظاهرة
تبي بدا ملكا في صورة النسيم

ثم يذكر بعض الأحداث التي تحدث عنها معارضو البردة قبله ثم تصدح الإيوان وغير ذلك ، كما تحدث عن الخير الذي عم السيدة حليلة السمديّة بسبب إرضاعها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأشار إلى شق صدره (صلى الله عليه وسلم) .

وإذا كان الشيخ قد سبق بمن أشار إلى تلك الأفكار ، فإنه قد أشار إلى فكرة جديدة لم يتحدث عنها من سبقه وهي وفاة والد الرسول وهو في بطن أمه ، ووفاته والدته وهو في السادسة من عمره فقال (٢) :

وأم غير الوي وافي الحمام ، وهل
ينجو من الموت غير الواحد الحكم
إن كان حين قضت في سن السادسة
فإن والده قد مات في الرحم
ووالداه من التكرم حسبهم
أن أنجها خير من يعشى على قدم
وأن أصلهما سام وأمرهما

يوم الجزاء لرب واسع الكرم
ويبدو أن الشيخ يشير بقوله : " . . . وأمرهما . . . يوم الجزاء لرب واسع الكرم " إلى اختلاف العلماء في مصير أبوي الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أهما ناجيان لأنهما من أهل الفترة أم لا ؟ (٣)

(١) بشرى الماشقين ص ٥٥ (٢) المرجع السابق ص ٨٠

(٣) شرح البيهقوي على الجوزة ج ١ ص ٢٦

ثم أشار إلى كقالة جده عبد المطلب إياه ، وحفاوته به ، وكالة عمه
أبي طالب بعد وفاة جده بتوله (١) :

وجده شبيبة عاد الكليل له

ولم يشب بأداة بالغ السرام (٢)

•• وقد أناط به شيخ الأباطح من

بعد الوفاة فكان البرذا الرحم (٣)

كما تحدث عن بعض صفات الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وأشار إلى بعض
ماليه من قومه من الأذى ، وألح إلى تعذيب بعض أصحابه مثل بلال وغيره
ما دفع الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى أن يأمر أصحابه بالهجرة إلى
الحشة ، لأنه كان يتوسم في ملكها الخير فيقول (٤) :

وحيثما وصلوها واصلوا ملكا

كأنه ملك في العدل والرحم

فجاوروا خير جار عنده أضوا

دينا ودنيا ولم يلحقأذى بهم

وذكر أن قريشا قد قاطمت الرسول وأصحابه ثلاث سنوات يصهد قطعوه
على أنفسهم في الصحيفة التي أنظمت في الأرض إلا (ياصنك اللهم) والجدير بالذكر
أن البارودي قد أشار إلى ذلك في معارضته (٥) :

ثم تكلم الشيخ على الإسراء والصراج فأشار إلى ما أشار إليه سابقوه ،
من عارضوا البردة ، ولكنه قد زاد بعض الأفكار مثل تأخر جبريل عن الرسول
وهو في السماء ، قائلا له (صلى الله عليه وسلم) : إلى هنا ينتهي مقامى ولو تقدمت
لاحتزقت ، نجد ذلك في قوله (٦) :

-
- (١) بشرى العاشقين ص ٩٠
 - (٢) شبيبة : عبد المطلب ، الرام / المطف •
 - (٣) شيخ الأباطح : أبو طالب •
 - (٤) بشرى العاشقين ص ٩٠
 - (٥) كشف الغمة ص ١٥
 - (٦) بشرى العاشقين ص ١٤

وفد تأخر جبريل هتفت به
أيترك الخل من يهواه في زام
نقاس : ذا موضى ، لو قدر أنملة
جاوزته كت بالأنوار ذا عدم

وزاد أيضا الإشارة إلى فرض خمسين صلاة ثم خفت إلى أن صارت خصا
في المصل، وخصين نسي الأجر والثواب بقوله (١) :

وقد غدت بكبير من مراجمة
خصا لدى فعلها خصين في القيم

ثم رد على من أنكر الإسراء والمعراج بقوله (٢) :

تبنا لمن أنكر الإسراء وهو يسرى
كم طائرات تجوز الصرت في الرسم
ولا غواية في حشر الكرام لــــه
مستقبلين فليسوا من ذوى المدم

وأمر ممرجه لا يُمد فيه على

غير الذى قلبه بالبعد عنه رصى

وذكر الشيخ أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أخبر الناس بأمر
إسرائه، فالسميد من صدقه، والشقى من كذبه ، ثم انتقل إلى الحديث عن
الهجرة، فبين ما اتفق عليه المشركون من قتل الرسول ولكن الله حفظه، وأمره
بالهجرة فخرج من بيته وهو يقرأ (يس)، ثم ذهب إلى أبي بكر فذهبوا سويا
إلى الفار، فجاءت حمامتان ، ووقفنا على باب الفار ، كما نسج المنكوب خيوطه ،
ثم أشار إلى قصة سراقه ، وقصة أم معبد ، واستقبال أهل المدينة له (صلى
الله عليه وسلم) بالبشر والتكبير قائلين (٣) :

الله أكبر هذا النور نورنا

الله أكبر شكرا وحب النعم

(٢) المرجع السابق ص ١٠٦

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٠

وانتقل إلى مدح أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) فوصفهم بأنهم
أعزة في توأصهم ، شجعان في حروبهم ، باعوا نفوسهم لله (١) :

ومن يبيع نفسه لله فاز بما
بينيه منه بداريه من النعم
حازوا رضاه ، وعنه قد رضوا وهم
أحبابه وله أعظم بحبهم

وإذا كانت تلك الأفكار قد أشار إليها معارضو البردة قبل الشيخ الخطيب
فإنه قد زاد على من سبقه الوصية باحترام الصحابة وعدم الخوض فيما جرى
بينهم من الحروب ، ولعله يقصد بذلك ما جرى بين علي بن أبي طالب ومعاوية
ابن أبي سفيان (٢) من حرب ، فقال (٤) :

إياك إياك خوضا في شجارهم
فكلهم ذوا اجتماع للثواب نسي
هم شيدوا الدين بل هم بلفوه فمن
رماحو ضرب الإسلام في الدعم
إن سالوا بعضهم أو حاربوا فهم
لله ما فعلوا ، والحكم للحكم
فاحفظ لسانك واحذر أن تحركه
بما يجرك في داريك للندم

ثم أشار إلى القرآن الكريم ، فوصفه بأنه معجزة لا يستطيع الإنس والجنس
أن يأتوا بمثله ، إذ مماثبه لا تحد ، ولا يمل قارئه ، أضف إلى ذلك أن الله
قد حفظه من التبديل والتحريف ويوصى بتلاوته والتمسك به بقوله (٥) :

فمل إليه وعنه لا تمل أبدا
ورؤ نفسك من سلساله الشيم

(١) المرجع السابق ص ٢٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢ .

(٣) طبقات ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٢١ .

(٤) بشرى الهاشقين ص ٢٤ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٥ .

•• من يتخذها إماماً فإمامه له هدى

ومن يدع أمره في النار ينفقهم

ويتحدث عن فصاحة الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي تشهد بها سنته
المطهرة ، ويشير إلى أنها تلى القرآن في المترلة كما أنها فصلت مجلته ،
بقوله (١) :

يا أفصح الناس من بدو وحاضرة

لقد حببت بيانا جامع الكلم

الله أكبر إن الذكر منزلة

أولى ، وقولك يتلو الذكر في المعظم

فصلت بالسنة الفراء مجلته

فكان أدنى الجنى من كف مستلم

ويتحدث عن الشريعة الإسلامية التي ساوت بين الناس ، ولو أن المسلمين
طبقوا أحكامها لعصمتهم من الزلل ، وتقتضهم شر الفتن والمحن ، فيقول (٢) :

والطمة السمحة الفراء جئت بها

نورا من الله يجلو داجي القم

الناس أجمع في أحكامها شرع

فدو الثراء كرب الخلة المدم

عمت وتمت فلوان الورى أخذوا

بحكمها لفدوا في أوثق المصم

هي الدواء لدا الكون أجمعه

والله ما غيرها يشفي من الوصم

إن الدواء عليم الداء قسدره

فيه الشفاء لدا الفرد والأمم

وينتقل إلى الحديث عن سياسة الرسول (صلى الله عليه وسلم) الحكيمه
التي كانت سببا في جمع المسلمين بعد تفرقهم - ولعله يشير بذلك إلى

(١) المرجع السابق ص ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧ .

المواخاة بين المهاجرين والأنصار - فيقول (١) :
يا أكل الخلق من كل العقول إذا

له أضيفت غدت في غيبة الصدم

لو لم يكن منك إلا أن نظمهم منو

بعد التفرق نظم الخط بالقلم

فشد بعضهم بعضا فلو وقصت

شكاة بعض شكا كل من الألسن

وبين أننا لو اقتدينا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) لحدت مشاكلنا ،

وانتشر العدل بيننا ، فيقول (٢) :

ولو مشى العصر في منهاجه لرأى

حل المشاكل ميسورا بخير دم

وعه نور عدل السلم فانتشمت

غيايب الحرب والإجحاف والظلم

وستمر في بيان حسن معاملة الرسول ، من إحسانه إلى المؤمن ، ومن

عفوه عن الظالم ، ومن لينه في غير ضعف ، وشدته في غير عنف ، فكل ذلك

كان سببا في تحويل الأعداء إلى أصدقاء ، والبغضاء إلى محبة .

ويشير الشيخ إلى معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيذكر منها

معجزات كثيرة مثل : حنين الجذع ، وتسليم الأشجار والأحجار ، وانشقاق القمر ،

وإذا كانت هذه المعجزات قد أشار إليها بعض معارضى البردة قبل الشيخ

فإنه زاد عليهم بعض المعجزات الأخرى مثل : تكثير الطعام القليل ، حتى

أكل منه رجال كثير (٣) . وحلبه الشاة الهزيلة (٤) ، وإخبار الذئب عن تبيته

(صلى الله عليه وسلم) (٥) وكلام الشاة المسمومة له (٦) ، وغير ذلك كثير ، بل إن الشيخ

(١) المرجع السابق ص ٢٨ .

(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٣) طبقات ابن سعد ج ١ ق ١ ص ١١٢ .

(٤) المرجع السابق ج ١ ق ١ ص ١١٨ ، (ولمعه الشاة غير شاة أم معبد)

(٥) المرجع السابق ج ١ ق ١ ص ١١٤ .

(٦) المرجع السابق ج ١ ق ١ ص ١١٣ .

قد عد كل فعل الرسول معجزة فقال (١) :

من يتنقى عد آى المصطفى الملم

وكله آية ، فى الفعل ، فى الكلم

فى الوصل فى الهجر فى ضيق وفى سمة

فى الأخذ فى الرد ، فى حرب وفى سلم

فى المفوفى الأخذ ، فى حلم وفى غضب

فى الزهد ، فى الجود فى الإيثار ، بالذم

وانفرد الشيخ بالحديث عن اليهود ، فذكر أنهم كانوا يقتلون الأنبياء ،

ويتعاملون بالربا ، وغير ذلك فى قوله (٢) :

إن اليهود وقانا الله شرهم

فى اللوم قد بلغوا الأقصى من الرقم

كم استطالوا على من أرسلوا سفها

وقتلوهم ، وكم آذوا لربهم

بالمصطفى استفتحوا من قبل مبحثه

وسمده جحدوا المعروف كابنهم

المجل قد عبدوا ، والنزور قد شهدوا

والله قد جحدوا ، خاسوا بصهدهم

كم للربا أكلوا ، كم للبخا فعلوا

لم ينف بعضهم بعضا عن الجبرم

ولا يخفى أن البيت الثانى يشير إلى قوله تعالى : " ذَلِك بِأَنَّهُمْ
كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِخَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ " (٣)

كما أن البيت الثالث يلمح إلى مثل قوله تعالى : " وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ

يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ " الآية (٤) والبيت

الرابع يشير إلى مثل قوله تعالى : " وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمْ

(١) بشرى العاشقين ص ٢٩٠

(٢) المرجع السابق ص ٣٢ وما بعدها

(٣) البقره / ٦١

(٤) المرجع السابق ص ٨٧

الْمَجْلَلِ مِنْ بَعْدِهِ ٠٠ آيَةٌ (١) .

كما يلح البيت الخامس إلى قوله تعالى : " وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَلْبَسُهُمِ السُّحُوتَ ٠٠ آيَةٌ (٧) " ، وقوله تعالى : " كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ٠٠ آيَةٌ (٣) " .

ومهما يكن من شيء ، فإنه انتهز فرصة حديثه عن الربا ، فذكر أنه يفتك بمال الإنسان ، بل أشار إلى أن الله يحارب اثنين : من يتعامل بالربا ، ومن يحارب أولياء الله فقال (٤) :

من خال أن الربا يربو الثراء به
غز تخيل أن الشحم في روم (٥)
تراه يربو ولكن في نهايته
بالمال يفتك فتك الليث بالفتم
ما حارب الله غير اثنين : رب ربا
ومن لأحبابه آذى ولم يجـم

ولا يخفى أن البيت الثالث يشير إلى قول الله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ٠٠ آيَةٌ (٧) " ، وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديث القدسي الذي يرويه عن الله (عز وجل) : " من عادى وليا فقد آذنته بالحرب - الحديث (٧) " .

ثم يتحدث عن زوجات الرسول (صلى الله عليه وسلم) وسر تعددهن ، وإذا كان (باكير) قد سبق الشيخ في الحديث عن ذلك (٨) فإن حديثه كان موجزاً أما الشيخ فقد فصل تلك الفكرة ، وأغرس الألسنة ، بحججه القوية ، وبرايمه الساطعة ، فقال (٩) :

-
- | | |
|--|----------------------------|
| (١) المرجع السابق / ٦٢ | (٧) المائدة / ٦٢ |
| (٢) المرجع السابق / ٢٩٠ | (٤) بشرى الماشقين ص ٢٤٠ |
| (٥) غير (بكسر الفين) الذي لم يجرب الأمور فيسهل خداعه . | |
| (٦) البقرة / ٢٧٨ ، ٢٧٩ | (٧) صحيح البخاري ج ٨ ص ١٣١ |
| (٨) انظر ص ٦٢ من هذه الرسالة | (٩) بشرى الماشقين ص ٣٥ |

لله أزواجه اللاتي شرغن به
ونلن ما لم تتل أنثى من العظم
قد ضمن رسول الله في كفاف
ومن يضم رسول الله لا يضم
أنس لوحشته ، عون لدعوتيه
بث لشريعته ، أمن من السام
أحواله ذكرت ، آدابه نشرت
أحكامه نقلت للناس كالحكم
ما يمنح الفيد أن يعلمن من رجل
علمن من عادة من غير محتشم

يبين الشيخ في تلك الأبيات أن زوجات الرسول كان لهن فضل كبير
في تعليم الناس أمور دينهم - ولعله يقصد بذلك السيدة عائشة بخاصة
إذ روت عن الرسول أحاديث كثيرة - ومخاصة في تعليم النساء الأمور الدينية
الخاصة بهن .

ثم ينتقل إلى الرد على ما يشيره أعداء الإسلام من شبه حول تمسده
زوجات الرسول فيقول : (١)

قد جاز حسين عا ما وهو مقتصر
على خديجة ذات الحزم والكرم
وما ابتغى غيرها حتى قضت كرمها
وحسن عهد وإحسانا على قدم
لو أنه لا بتغى الأبتكار مثل دمسى
دون الأياى الألى أدنى إلى هرم
لكه الدين يفتى أن يؤيده
ومن يقل فيه لا ينطح سوى الهرم

نعم لو كان زواج الرسول من أجل الشهوة كما يزعم الزاعمون ، فلماذا
اقتصر أول أمره على زواج السيدة خديجة ولم يتزوج غيرها إلى أن ماتت

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .

وكان سنه إذ ذاك خمسين عاما ، أضف إلى ذلك أن من تزوجهن بمسد
وفاة السيدة خديجة كان أغلبهن سنات ثيبات أرامل ، والذي يتزوج لشهوة
يختار الجميلات اللاتي لم يتزوجن من قبل ، فما رد هؤلاء الأفاكسين
على تلك الحجة ، بل لماذا لم يتحدثوا عن الأنبياء السابقين ، إذ كان
منهم من تزوج مائة وأكثر من ذلك ، كما قيل عن نبي الله داود (١) ونبي الله
سليمان (٢) (عليهما السلام) ، وهذا ما أشار إليه الشيخ في قوله : (٣)

كم نال داود من أنثى ، وكم ملكت
يدا سليمان من ريم ومن عصم

كما بين حكمة زواجه (صلى الله عليه وسلم) (٤) :

وليس منهن إلا من تزوجها

لحكمة لم تكن تخفى على فهم

مكافئا أهلها ، أو عاقدا صلة

بقومها ، أولها مرعية الحريم

أو نادما عادة في قومه رسخت

والهدم بالفعل فوق الهدم بالكلم

كزنبه والذي ينس إليه هـ سوى

فيها على رأسه يهوى إلى الحطم

لم يهوها عادة عذراء خالصة

فكيف والنزج محبوب إليه نسي

الله زوجها مختارة ففضى

على الصرة في أنثى دعيم

إنه يلح بقوله : (مكافئا أهلها) إلى زواج الرسول (صلى الله عليه وسلم)

بمأثمة وحفصة (٥) ، بقوله : (أو عاقدا صلة بقومها) إلى زواجه

(١) انظر قصص الأنبياء ج ٢ ص ٢٧٨ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٠٧ .

(٣) بشرى الماشقين ص ٢٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٦ .

(٥) سبق الحدِيثُ مَعْنَهُمَا فِي ص ٦٧٦ مِنْ عِنْدِهِ الرِّسَالَةُ .

بميمونة (١) وصفية (٧) ، وبقوله : (أولها مرعية الحرم) إلى زواجه بسودة
وأم سلمة (٨) ، كما أشار بقوله : (أوهادما عادة ٠٠) إلى زواجه بزینب بنت
جحش (٤) لا بطلال عادة التبنی التي كانت منتشرة عند العرب ، وكان الرسول
(صلى الله عليه وسلم) قد تزوجها المتبناه زيد بن حارثة ، ويشير الشاعر بقوله :
(الله زوجها مختارة ٠٠) إلى قوله تعالى : " فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا
زَوَّجْنَاكُمَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ
وَطَرًا ٠٠ الآية (٥) . "

كما يشير بقوله : (لم يهوها عادة عذراء خالية ٠٠) إلى ما ذكره
المستشرقون الكاذبون ، أن الرسول تزوج زيد وهو غائب فاستقبلته زينب
فوقع فيها في قلبه شيء لجمالها ، فقال : " سبحان مقلب القلوب ٠٠ " (٧) وقد كذبوا
فيما قالوا ، لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو الذي زوج زينب لزيد ، وعلى
ابنة عمته ، وربيت بحينه ورعايته ، فكانت معرفته بها قوية (٨) ، ولو أراد لها
لنفسه زوجة ما ضمه أحد ، ولكنها الافتراءات الخبيثة ، والادعاءات الكاذبة ، لمن
الله من افتراها .

والجدير بالذكر أن الحديث عن السيدة زينب بنت جحش لم يشر إليه أحد
من عارض البردة قبل الشيخ ، كما أشار إلى فكرة جديدة أيضا في قوله (٨) :
وقد منجن نكاح الغير تكملة
لقدر عن وقدر السيد الفخم (٩)

-
- (١) هي السيدة : ميمونة بنت الحرث الهلالية ، توفيت سنة ٥١ هـ ، وقيل : غير ذلك (أسد الغابة ج ٧ ص ٢٧٤) .
 - (٢) هي السيدة : صفية بنت حيي بن أخطب قونية ، سنة ٣٦ هـ ، وقيل : غير ذلك (المرجع السابق ج ٧ ص ١٧١) .
 - (٣) سبق الحديث عنهما في ص ٦٢١ من هذه الرسالة .
 - (٤) عن السيدة / زينب بنت جحش الأسدية توفيت سنة ٢٠ هـ (المرجع السابق ج ٧ ص ١٢٥) .
 - (٥) الأحزاب / ٢٧ .
 - (٦) حياة محمد ص ٣١٥ وما بعدها .
 - (٧) المرجع السابق ص ٣٢٢ .
 - (٨) بشرى الماشقين ص ٣٦ .
 - (٩) يلاحظ أن دخول (أل) على لفظ (غير) هنا غير فصيح .

ما كان إيذاؤه منكم وليس لكم
زواج أزواجه فلتحذروا نفسى

وحقهن كحق الأم مفتـرض

وإن تزوجن فالزوجات كالخدم

إن الشيخ يشير في تلك الآيات إلى منع زوجات الرسول من الزواج
من أحد من بعده ؛ لأن منزلتهن بمنزلة الأم ، ولعله يشير بقوله : (ما
كان إيذاؤه ..) إلى قوله تعالى : " وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ
وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا .. الآية (١) " ولعل بقوله : (وحقهن
كحق الأم ..) إلى قوله تعالى : " النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ
وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ .. الآية (٢) " ثم انقل الشيخ إلى الإشارة إلى فـكـرة
جديدة أيضا في قوله (٣) :

زوا أحل بمدل فوق واحدة

من الحلال إلى الإحل لسألزم

من زوجة أوسره سئمت

أو أنها عقت أو كان ذا ظم (٤)

إن لم يبح غيرها إن كان متقيا

لا قى عتاء وإلا مال للجرم

ومن يملهن إن يكثرن في عدد

عن الذكور وقد أودى الوفى بهم

إنه يرد على من عاب على الإسلام بإباحته للمسلم أن يتزوج بأكثر من واحدة
إلى أربح، فأشار إلى أن ذلك موقوف على المدل بينهم ، ولعله يشير بذلك
إلى قوله تعالى : " فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَمْدِلُوا فَوَاحِدَةً .. الآية (٥) " .

(١) الأحزاب / ٥٣ .

(٢) المرجع السابق / ٦ .

(٣) بشرى عاشقين ص ٣٧ .

(٤) ذا ظم : صاحب الشهوة الشديدة

(٥) النساء / ٣ .

ولقد أحسن الشيخ عندما أشار إلى أن التمدد مع المدل لا خيار عليه وخاصة في وقت الضرورة مثل : إذا مرضت الزوجة بمرض ، لا تأمل السبر منه ، ولا تستطيع معه القيام بحقوق الزوج ، أو تدبير شؤون المنزل ، فهبل من المرأة أن يطلقها زوجها ، وهي في حاجة قصوى إلى الرعاية ، أضف إلى ذلك أنها لو كانت فقيرة وليس لها عائل فاذا تصنع ؟ أليس من الإنصاف أن يعقبا الزوج في عيتمه ويتزوج عليها بمن ترى بيته ، وتمصه من الرزل ، وتكفل له الذرية ، وهذا ما أشار إليه الشيخ بقوله : (من زوجة أمت) .

كما أشار بقوله : (أو أنها عقت) إلى أن التمدد جائز - مع المدل إذا عقت الزوجة ، واشتاق الرجل إلى ولد يسهج حياته ، فاذا يصنع ؟ أيلق زوجته التي لا ذنب لها في المقم - وقد تكون ممدمة ولا عائل لها - أم يسكها ويتزوج بأخرى ؟ أعتقد أن من الإنصاف والوفاء أن يسك الرجل زوجته ويتزوج بأخرى ، وأما قوله : (أو كان ذا ظم . .) فيشير به إلى سبب آخر يجيز التمدد - مع المدل - وهو إذا كان الزوج شديد الشهوة إلى الجاع وزوجته لها طاقة محدودة ، فاذا لم يتزوج بأخرى ، فإما أن يلجأ إلى الحرام ، وإما أن يلحق الضرر زوجته ، وإما أن يلحقه ضرر إذا كان ذا روح وثقوى ، وإلا سلام لا يرضى بالضرر لأحد ، وكذلك قوله : (ومن يطلهن . .) فيه إشارة لطيفة تبيح التمدد وهي ساذا تصنع الشابات إذا مات كثير من الشباب في الحرب ؟ أم من الإنصاف أن نتركهن للصبث والفجور أم يباح التمدد ؟ إن أي منصف لو تدبر حكمة التمدد ، ما وسعه إلا أن يقول: رضيت بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) نبيا رسولا .

لقد طالج الشيخ الفكرة علاجا بحاسا ، وأضيف - الباحث - أن التمدد كان قبل الإسلام ، ولم يحرم في شريعة من الشرائع الإلهية (١) ، وقد ذكرت سابقا أن بعض الأنبياء كان متزوجا بأكثر من واحدة (٢) ، ومن فضائل الإسلام أنه أجاز التمدد ولكن مع المدل .

إن الله سبحانه وتعالى قد شرع الزواج لأنه سكن ومودة، قال تعالى: **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً . . . الآية (٣)** .

(١) سماحة الإسلام ص ١ وما بعدها ، حقائق الإسلام ص ١٦٩ وما بعدها .

(٢) انظر ص ٦٥٢ من هذه الرسالة . (٣) الروم / ٢١ .

فإذا لم توجد الألفة والمحبة بين الزوجين، ووجد الشقاق وعز الوفاق بينهما ،
أوليس من العدل أن يتفرقا بالحسنى ؟ ومن أجل ذلك شرع الإسلام
الطلاق ، وهذا ما أشار إليه الشيخ بقوله (١) :

وما الطلاق إذا عز الوفاق سوى

إحدى فضائل هذا الدين والحكم

والجنة البيت فيه العطف من سكن

والنار بيت خلا من فيه عن رام

إلا أن الإسلام قد حرص كل الحرص على التوفيق بين الزوجين فحث
على محاولة الإصلاح بينهما بقوله تعالى : " وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا
حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ ۝ الآية (٢) "

ثم انتقل الشيخ إلى الحديث عن الرق في الإسلام فذكر أنه كان
منتشرا في كثير من البلاد قبل بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وأن الإسلام
قد رغب في المتق ، فقال (٣) :

والرق في كل صقع كان منتشرا

وكم لمن رقى في ذا العهد من خدم

كم حبيب الله في عتق الركاب وكم

أغرى لتكرم بالإنعام والكـ

والجدير بالذكر أن الشاعر (باكثير) قد سبق الشيخ إلى تلك الفكرة ، كما
سبقه هو - وغيره أيضا (٤) - من عرض البردة قبله إلى الحديث عن الحرب
في الإسلام التي قال عنها (٥) :

إن الألى زعموا أن الحنيفة قد

نشرت بالسيف هم في غاية الوهم

الحق بان فمن يبخ الهدى فله

ومن يشأ غيره في النار ينحطم

(١) بشرى الماشقين ص ٢٧ .

(٢) النساء / ٣٥ .

(٣) بشرى الماشقين ص ٢٨ .

(٤) انظر الشوقيات ج ١ ص ٢٥١ ، ونظام البردة ص ١٠ .

(٥) بشرى الماشقين ص ٣٩ .

لقيت في عشرة فيهم جهرت بهما
والصحب ما لا يحد الوصف من ألسن

ولا يخفى أن في البيت الثاني إشارة إلى قوله : " وَقَلِّ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ
فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ " الآية (١) كما في البيت الثالث تلميح
إلى أن الرسول قد مكث في مكة عشر سنوات يدعو الناس إلى الإسلام
بالحسنى ، ومع ذلك لقي هو وأصحابه من مشركي مكة كل أذى وتعذيب
أفلا يدل كل ذلك على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف كما يزعم الزاعمون؟

ثم انتقل الشيخ إلى بيان الطريق الموصل إلى رضا الله سبحانه
وتعالى ، فنظم بعض النصائح التي قد حث عليها الدين - ولعل الذي دفعه
إلى ذلك كثرة أتباعه ومريديه = إذ هو منتسب إلى السادة الشاذلية - ومن
ذلك قوله : (١)

ياناشد الوصل خذ وصف الطريقه
وجدت فيها عسى تدنو من الحكم
أمسك فؤادك إلا عن تذكرة
ومبتك النزم وجد بالدمع مثل دم

ولا يخفى أن البيت الثاني يلح إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم)
" . . . أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك ، وأبك على خطيئتك " (٢) ثم
ينصح الشيخ بصدق النزم على طاعة الله ، والاستقامة على الطريق القويم ، والصدق
في المعاملة ، وإخلاص الوجه لله ، وحث على ملازمة العبادة القائمة على العلم
والإخلاص لأهميتهما فيقول (٣) :

واعبده بالعلم والإخلاص إنهما
روح العبادة من فعل ومن كلم
ويتجه إلى التحذير من النفس كما فعل البوصيري (٤) - ولكن بتصريف

-
- (١) الكهف : ٥٦٩ .
(٢) بشرى المشائقين ص ٤٠ .
(٣) انظر ص ١٠٩ من هذه الرسالة .
(٤) بشرى المشائقين ص ٤٠ .
(٥) انظر ص ١٠٦ من هذه الرسالة .

جميل - فيقول (١) :

وخالف النفس واحذر مكرها أبدا
فقد تدمس وحي السم في الدسم
وأعطاها حظها المشروح تقويمه
على المسير ، وإن تحسمه ينحسم
ثم يحذر من الدنيا وفتنتها - كما فعل شوقي (٢) - فيقول مع تصرفه
تصرفا طيبا (٣) :

ولا تفرنك الدنيا ومهجتها
فإنها والذي فيها إلى عدم
هي المتاع قليلا فانيا ، أبه
تبيع حظك في الأخرى من النعم ؟
ويذكر أن علاج قسوة القلب هو التأمل في القبور ومن فيها فيقول (٤) :

وإن قسا القلب فالأجداد موعظة
بها ترى وتهسى عبرة الندم
إذا تأملت من فيها فلست ترى
مفرقا بين صيد الناس والخدم
وينتقل إلى بيان علو مكانة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ورفعة شأنه
ولملمه نظر إلى قول البوصيري (٥) :

دع ما ادعته النصارى في نبيهم
واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

فقال (٦) :

إذا تعديت وصف الواحد الحكم
فصف بما شئت رب الحكم والحكم

-
- (١) بشرى الماشقين ص ٤٠ .
 - (٢) انظر الشوقيات ج ١ ص ٢٤٢ .
 - (٣) بشرى الماشقين ص ٤١ .
 - (٤) المرجع السابق الصفحة نفسها .
 - (٥) انظر ص ١٢٦ من هذه الرسالة .
 - (٦) بشرى الماشقين ص ٤٢ .

ولو جمعت بنى الإنسان مبتغيها
وصف النبي وما فيه من الشيم
.. وحاولوا مدحه ما كان ما يلتموا
إلا خيال السها في الماء في الظلم
و يشير إلى شفاعته (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة ، يوم يتزاحم الناس
وتقترب الشمس من الرؤوس فيقول (١) :
سبحان من خص يوم العرض أحسنه
بمروض جاه وفضل ينادخ سنم
تزاحم الناس ، جم الذعر ، عم أذى
سال الحميم إلى أن صار كاللجم
وازدادت الشمس حرا صاهرا وغدت
من الرؤوس كقاب القوس في الكشم
وقد تنوا من الأواء منصرفا
إلى الحساب ولو يفضى إلى الحطم
ثم يشير إلى ذهاب الناس إلى الأنبياء كي يشفصوا لهم ، فيقول
كل منهم : نفسى نفسى إلا الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول : أنا لها أنا لها ،
كما ورد في حديث الشفاعة (٢) ، وهذا ما أشار إليه الشيخ بقوله (٣) :
فكلهم قال نفسى مبديا أسفنا
إلى الذى رتموه دونه قدمسى
وإذ بنوا من إمام الرسل شافصهم
أجاب : إنى بيها الموعود من قدم
وراج يسجد تحت العرش يحمد من
له المحامد حمدا جبل عن نسيم
فنودى ارفع وقل يسمع وسلن تتسل
واشفع تشفع فأنت الحب ذو الهمم

(١) المرجع السابق ص ٤٣ .

(٢) انظر ص ٢٠٩ من هذه الرسالة .

(٣) بشرى الماشقين ص ٤٣ .

وأيدوا شرعه تأييده تجسداً
فتحا ونصراً وتأييداً من الحكم

وسين أن المحب الحقيقي هو الذى يؤدى الفرائض ولا يضيفها ، كما
يؤدى النوازل أيضاً فيقول (١) :

ليس المحب الذى يلقى أوامر من
أحبه ومتى يحسه يقتحم
بل المحب الذى يقضى نواظله
قضاءً مفروضه والنهى لم يرم

ويتوسل إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) باشتراكه معه فى الاسم
كما فعل ذلك بعض معارضى البردة قبله (٢) ، إلا أنه زاد عليهم ما يؤكد جبه
إن سمي أولاده بأسماء الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول (٣) :

محمد قد دعانى والذى معه
أدعو بنى ، أرجى حسن فعلهم
محمد ، مصطفى ، محمود ، أحمد ، لى
فسلى ، وكلهمو باسم الرسول سمي
وما دعانا لذا إلا الوداد ... ، وأن

نلقى بينك أمنا يوم مزدحم
ثم يختم قصيدته بالبشرى التى بدأها بها ، طالباً المغفرة لشيء
وتلاميذه ، ولمن أحبه ، ولين قلده ، كما يدعو الله ، طالباً منه (سبحانه وتعالى)
الصلاة والسلام على رسول الله وشيئته فيقول (٤) :

بشرى لنا معشر المشاق من قدم
فقد بلغنا إمام العرب والعجم
ياربنا بخطيب الأنبياء أنسل

ابن الخطيب رضا غير منجز

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها • (٢) انظر ص ٢٠٤ من هذه الرسالة ،
وكشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٦ ، المشوقيات ج ١ ص ٢٤٦ ، النفحة الأحمدية

ص ٣٨ وديوان الحملوى ج ١ ص ١٤٣ ، قهنتى ص ٤٢ •

(٣) بشرى الماشقين ص ٤٨ • (٤) المرجع السابق ص ٤٩ •

واقفر لأشياخه والتابعين ومن
أحبه أو قتلاه وأرافن بهم
وعس رب على دله وشيمته
سلما وألنا حسن مختتم

محمد : فإن معارضة (بشرى العاشقين) قد فاقت كل المعارضات التي
سبقتها في عدد الأبيات ، كما اشتركت معها في بعض الأفكار ، وزادت عليها
في أفكار أخرى مثل : الإشارة إلى وفاة والد الرسول ، والرسول في بطن أمه ،
ووفاة والدته وهو ابن ست سنوات ، وكفالة جده ، عبد المطلب إياه ، ثم كفالة عمه
أبي طالب ، والنهي عن الخوض فيما جرى بين بعض الصحابة من حروب ، والحديث
عن اليهود وما اتصفوا به من غدر وتبجح ، أضف إلى ذلك الدفاع عن بعض الشبهات
التي أثارها أعداء الإسلام مثل : تعدد الزوجات في الإسلام ، ومشروعية الطلاق ،
كما زاد الشيخ بيان الطريق إلى الله والحث على أداء الفرائض والتوافل .

المعارضة السابعة : (السميدية في مدح خير البرية)

وأما المعارضة السابعة فهي معارضة الشاعر : محمد السميد عبد القادر برج
المولود سنة ١٩٢٣ في (نواج) - إحدى قرى مركز طنطا بمحافظة الغربية -
ولقد نشأ في قريته ، ولما نما جسمه دخل الكتاب فتعلم مبادئ القراءة
والكتابة ، ثم حفظ القرآن الكريم ، ثم التحق بمعهد طنطا الديني ، ولما أكمل
المرحلة الثانوية ، دخل كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر سنة ١٩٤٤ ، وتخريج
فيها سنة ١٩٤٨ ثم التحق بمعهد التربية العالي بالإسكندرية سنة ١٩٥٠ ، وعمل
مدرسا بالمدارس الابتدائية فالاعدادية ، ثم الثانوية إلى أن عينه توجه قسم سنة ١٩٦٨
شاعريته :

ولقد نظم الشعر وهو طالب في التعليم الثانوي ، ساعده على ذلك حفظه
كثيرا من قصائد الشعراء العرب وخاصة شوقي وحافظ ، والجدير بالذكر أنه
قال في كل أغراض الشعر تريبا (١) ، ولما اتصل بشيخه الشيخ محمد خليل الخطيب

(١) هذه المعلومات من الشاعر نفسه .

صاحب الممارسة السادسة - قصر شعره على مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم)
وأول قصيدة مدح فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) هي قصيدته المحمدية
التي ما زالت مخطوطة عنده ومطالمتها :

محمد نعمة من وأهب النعم

محمد سيد الكونين من تقدم

وهي على نهج قصيدة البوصيري التي تسمى المحمدية أيضا ومطالمتها (١) :

محمد أشرف الأعراب والمجسم

محمد خير من يمشى على قدم

وعندما أعطاه شيخه قصيدة (بشرى الماشقين) وثأرنا فكر في إنشاء

قصيدة على نهج البردة (٢) ، فكانت معارضته (السعيدية في مدح خير البرية)
التي نظمها سنة ١٩٦٩م ، وبلغ عدد أبياتها ثمانية عشر وخمسة بيت شعريا ، والجدير
 بالذكر أيضا أنه قد تأثر في نظمها بقصيدة الشيخ الخطيب ، كما يرجع إليه الفضل
 في تسميتها باعتراف ناظمها نفسه . (٣)

ولقد بدأها الشاعر بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله فقال (٤) :

الحمد لله رب العرش والقلم

من أرسل الرسل بالآيات والحكم

ثم الصلاة على من نور طلعت منه

أبهى من البدر في داج من الظلم

محمد خير خلق الله قاطبة

وأفضل الناس من عرب ومن عجم

ثم أشار إلى فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحسن خلقه ، وغزير

علمه ، وبين عجزه عن مدحه مدحا يليق بمقامه الكبير فقال (٥) :

ففضل طه محيط ليس يحصره

شط فكيف يوفى قدره كلنى ؟

-
- (١) ديوان البوصيري ص ٢٢٦ .
(٢) محمد السعيد بوج : السعيدية في مدح خير البرية ص ٥ مطبعة السطح الكبرى
بطنطا سنة ١٩٧٠ .
(٣) المرجع السابق ص ٧ .
(٤) المرجع السابق ص ٩ .
(٥) المرجع السابق ص ٩ .

ويشير إلى حالة العالم قبل مولده (صلى الله عليه وسلم) ولكنه لم يبرزه على ما قاله معارضو البردة قبله ، فالظلم منتشر ، والناس يمجدون الأصنام ، وشربون الخمر ، ويقتصر الروم وكسرى فارس كل منهما يتحكم في رعيته ، وظل الحال على ذلك حتى ظهر نور النبي (صلى الله عليه وسلم) فانقشع الظلم ، وهذا ما أشار إليه الشاعر بقوله (١) :

حتى أتى خير خلق الله قاطبة

فأشرق الفجر يمحو حلقة العتم

وزلزل البنى واندكت معالمه

والظلم صار جريحا بادي الألم

كما ذكر أن إيوان كسرى قد تصدع ، وأن دولة الروم قد دالت ، وأن ساوة قد غاضت بحيرتها ، وغير ذلك من الأحداث التي أشار إليها معارضو البردة قبل الشاعر إلا أنه زاد الإشارة إلى خيبة أبرهة ، الذي أتى ليهدم الكعبة في العام الذي ولد فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال (٢) :

في عام مولده قد خاب أبرهة

وأشرب الذل في كأس من الندم

ثم أشار إلى شق صدر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو صغير فقال (٣) :

قد شق ربي صدر الطهر في صفر

فاعجب لشق بلا نصل ولا ألم

وأردح الله فيه حكمة وتقوى

فصدر أحمد كنز العلم والحكم

فيه السماحة في أحلى مظاهرها

وفى حناياه علم البدء والختم

يستمر الشاعر في الإشارة إلى فضل الله على رسوله ثم يتحدث عن نشأته وأخلاقه

فيقول (٤) :

(١) المرجع السابق ص ١٢

(٢) المرجع السابق ص ١٣

(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها

(٤) المرجع السابق ص ١٤

قد شب عفا تقيا ظاهرا ورعا
موشحا بسنا الأخلاق والحصم
.. عفا أمينا نقي القلب متصفيا
بالصير والحلم والإحسان والكرم

وينظر إلى قول شوقي : (١)

خططت للدين والدنيا علومهما
ياقارىء اللوح بل يالامس القلم
فيخطب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد أن أخذ الشطر الأول ، قائلا (٢) :
خططت للدين والدنيا علومهما

ياذروة المجد بل يا قمة الشمم
ويواصل مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيشير إلى صبره وعفوه وشجاعته
وكرمه ، ثم ينظر إلى قول البوصيري : (فبلغ العلم فيه أنه بشر) (٣) فيأخذه
ويقول (٤) :

فبلغ الملقب أنه بشر
وأنه بلسم شاف لذي سقم
وينتقل إلى الحديث عن الإسراء والمعراج ، ولكنه ينظر إلى سابقه من أصحاب
المعارضات - وخاصة شوقي - فيقول (٥) :

أسرى به الله والأملأك تخدمه
والله يرعاه من حرم إلى حرم
حتى أتى المسجد الأقصى فشرفه
والرسل قد وقفوا في موكب فخم
ثم ينظر إلى قول الشيخ الخطيب (٦) :

وذئ آخر جبريل هفتت به
أيترك الخل من يهبواه في زأم

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٨ .

(٢) السعيدية ص ١٥ .

(٣) انظر ص ١٢٩ من هذه الرسالة .

(٤) السعيدية ص ١٥ .

(٥) المرجع السابق ص ١٢ .

(٦) بشرى الماشقين ص ١٤ .

فقال ذا مضمي لو قدر أنطلة
جاوزته كنت بالأنوار ذا عدم

فيقول (١) :

جبريل فوق ضفاف النور منتظر
يقول هذا مكان دونه قدمي
كل له عند رب العرش منزلة
فإن علاها بنور الحق ينمدم
ويبدو أنه قصّر عن شيخه ، وخاصة أن الشيخ قد أشار إلى الخلة وهي
تقتضى المصاحبة .

ثم يشبه ر إلى هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيتحدث عن مؤامرة
قريش على قتل الرسول ، ولكن الله يأمره بالهجرة ، فيخرج من بيته والكفار يحيطون
به ولكنهم (٢) :

لم يبصروا المصطفى ، فالله يحرسه
ومن يكن في رحاب الله لم يضم
كما يتحدث عن الفار ، والحمامتين ، والصنكوت ، ويشير إلى قصة سراقسة ،
واستقبال أهل المدينة للرسول (صلى الله عليه وسلم) بالبشر والتكبير (٣)

ويشرب هزها شوق لرؤيته
فرددت مرجيا ياكاشف الطسم
والمسن الحال قد صاحت مهللة
الله أكبر دالت دولة الصنم
ولا يخفى أن الشاعر قد نظر في بيته إلى قول الشيخ الخطيب (٤) :
وحيثما أبصروا خير الورى هتفوا
الله أكبر هذا كاشف الطسم

(١) السמידية ص ١٧٠

(٢) المرجع السابق ص ١٩٠

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٠

(٤) بشرى العاشقين ص ٢٠٠

ولكنه تصرف فيما نظر إليه تصرفا حسنا ، كما هو واضح .
ثم أشار الشاعر إلى أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فمدحهم بالشجاعة
والثبات والكرم (١) :

هم الجبال ثباتا ، والبحر ندى

هم البدور سنا أعظم بضوئهم

.. كم جاهدوا في سبيل الله فانتصروا

إن الجهاد طريق النصر من قدم

كما ذكر أنهم رهبان بالليل وقوسان في النهار ، باعوا أنفسهم في سبيل الله ،
.. واستمر في مدحهم حتى انتقل إلى الحديث عن موقف الرسول (صلى الله عليه
وسلم) من أهل مكة عند ما فتحها وغنا عنهم قائلا (٢) :

ماذا تظنون أني فاعل بكم ؟

قالوا : أخ يأسر الأعداء بالرأى

فقلت ما قاله الصديق ، فانطلقوا

فأنتم اليوم أحرار بلا جرم

لله أنت فكم أحسنت محتسبا

إلى الأعدى وهذا منتهى الكرم

ولا يخفى أن الشاعر يشير بقوله : (فقلت ما قاله الصديق ..) إلى قول

الله تعالى على لسان نبيه يوسف (عليه السلام) عند ما قال لإخوته : " .. لَا تَتْرِبْ
عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ " (٣) .

ثم تحدث عن القرآن الكريم فذكر أن آياته منفصلة ، ولا يستطيع أحد أن
يعارضها ، كما حث على تلاوته بقوله (٤) :

إذا أردت غنى الدنيا وضرتها

فروّ نفسك من سلساله الشريم

والجدير بالذكر أن الشطر الثاني هو من قول الشيخ الخطيب (٥) :

(١) السعيدية ص ٢١ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢ .

(٣) يوسف / ٩٢ .

(٤) السعيدية ص ٢٣ .

(٥) بشرى الماشقين ص ٢٥ .

فعل إليه وعنه لا تحمل أبسندا
ورؤ نفسك من سلساله الشيمم

ويشير إلى سنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) مبينا فصاعته (عليه
الصلاة والسلام) فيقول (١):

يا أفصح الناس بأديهم وحاضرتهم
أعطاك ربك قولا جامع الكلم
فصّلت ما في كتاب الله من درر
بالقول والفعل والتوجيه والحكم

ولا يخفى أن الشاعر قد نظر إلى قول شيخه (٢):

يا أفصح الناس من بسودو وحاضرة
لقد حييت بيانا جامع الكلم

ويتحدث عن الدين الإسلامي الحنيف، مشيرا إلى أنه يحث على العدل
والصدق والبر، والحب، والرحمة، وأنه جعل الناس سواسية، لا فضل بينهم
إلا بالتقوى، ويبين أن في اتباع الدين علاجا للمشاكل، ورفعة وسوددا (٣):
فالدین تریاق ما فی الکنون من علل

والدين يشفى عضال الداء والسقم
لو طبق الناس رأي الدين لا ملكتوا
أزمة المجد واقتادوا سنا النجم

وينتقل إلى الحديث عن معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيشير إلى
أنها كثيرة لا حصر لها بقوله (٤):

كم معجزات لخير الخلق قاطبة
فاقت نجوم السماء في المد والرقم

(١) السعيدية ص ٢٤ •

(٢) بشرى الماشقين ص ٢٦ •

(٣) السعيدية ص ٢٥ •

(٤) المرجع السابق الصفحة نفسها •

ثم يذكر منها ، تسليم الأحجار والأشجار ، وحنين الجذع ، وانشقاق القمر ،
وتظليل الخمامة ، وغير ذلك مما أشار إليه معارضو البردة قبهاء .

ويتكلم على الحرب في الإسلام ، ويبين كذب من يقول إن الإسلام
قد انتشر بحد السيف ، ويشير إلى أن الحرب شرعت لحماية الدين وصيانة
العرض ، ورد الظلم ، بقوله (١) :

فالحرب قد شرعت تحمي الديانة من

ظلم وتضح عتاك المرض والحرم

ثم يتحدث عن شفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة ،
ويذكر أيضا ذهاب الناس إلى الأنبياء طالبين منهم أن يتشفعوا لهم ، ولكن
كل واحد منهم يقول : نفسي نفسي ، إلا محمدا (صلى الله عليه وسلم) فيطلب
من الله الشفاعة فيشفعه الله ، وينيله سؤله (٢) :

فقال أحمد ما يبغي ولا عجب

فإنه حبر رب واسع الكرم

ثم يتوسل بالرسول (صلى الله عليه وسلم) كيشفع له يوم القيامة بقوله : (٣)
فكن شفيعي يوم الحشر يا أملئ

نفسى يدك لواء الحمد والكرم

ولا يخفى أن في قوله : (نفى يدك لواء الحمد) إشارة إلى قول
الرسول : " .. وبیدی لواء الحمد ولا فخر .. " (٤)

ثم يتضرع إلى الله (سبحانه وتعالى) طالبا عفراؤه ذنبه ، وذنب
المسلمين (٥) :

فاغفر ذنوبى يارب الورى كرمنا

بجاه أحمد يا وهاب للنعم

(١) المرجع السابق ص ٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٩ .

(٤) انظر ص ١٢٠ من هذه الرسالة .

(٥) السعيدية ص ٢٦ .

واقصر ذنوب جميع المسلمين بهم
أتباع طه إمام العرب والمجم
ويختم قصيدته بالصلاة والسلام على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (١) :
رباه صل وسلم كل ثانيــــــــــــــــة
على الشفيح، وهبنا حسن مختستم

وبعد ...

فإن معارضة (الصحفية) على الرغم من طولها، قد قلت
أفكارها الجديدة، كما ظهر فيها تأثير ناظمها بأصحاب معارضة البردة
الذين سبقوه، وخاصة الشيخ الخطيب.

وهما يكن من شيء، فإن معارضة البردة في المصر
الحديث كثيرة، وليس في الإمكان حصرها والحديث عنها
كلها.

ولذلك اكتفيت بذكر إحدى عشرة معارضة ظهرت
فيها آثار قيمة سأشير إليها في الفصل التالي ٠٠ إن شاء الله

~~~~~

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠.

## الفصل الثاني

### أثر معارضات البردة بعد شوقي

بعدما وقفت - في الفصل السابق - مع بعض معارضات البردة بمسد شوقي ، وبينت أهم الأفكار الجديدة التي قد اشتملت عليها ، يمكن أن أشير - في هذا الفصل - إلى أهم آثار تلك المعارضات التي تلخص فيما يأتي :

١- إنها تشير إلى أن معظم ناظميها قد تأثروا في نظمهم إياها بنظروف مصر ، ولذلك لم يبدأوها بالفتل ، وإذا كان بعضهم - وهو قليل - قد بدأها بالفتل ، فإن أبيات غزلهم كانت لا تتعدى أصابع اليد ، بالإضافة إلى أن ذلك الفتل قد يحد عن الأوصاف المادية والتشبيهات الحسية وترى ذلك واضحا في معارضة عبد المطلب<sup>(١)</sup> ، ومعارضة باكثير<sup>(٢)</sup> ، ومعارضة محمود جبر<sup>(٣)</sup> ، وإذا قارنت بين غزل شوقي في نهجه ، وغزل هؤلاء في معارضاتهم ، وجدت غزلهم في إشارة خفيفة ، وبهارة عفيفة ، أما غزل شوقي فقد استغرق أربعين بيتا ، بالإضافة إلى ما اشتمل عليه من تشبيهات لا يصح ذكرها في قصيدة يمدح فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولذلك لم يرض صاحب (النفحة الأحمدية) عن هذا المسلك فقال في مطلع قصيدته<sup>(٤)</sup> :

دع فكري ريم وذكرى البان والحلم

وانهض لذكر ربيع الناس والحرم

ويبدو أن الشيخ الخطيب أراد أن يلجئ طلب صاحب النفحة الأحمدية فقال في مطلع معارضته<sup>(٥)</sup> :

بشرى لنا معشر المشاق من قادم

فقد بلغنا إمام العرب والمعجم

- 
- (١) ديوانه ص ٢٥٧  
(٢) نظام البردة ص ٢٢  
(٣) قرنتي ص ٢١  
(٤) النفحة الأحمدية ص ٤  
(٥) بشرى العاشقين ص ٢

ويأتى صاحب ( السعيدية ) فيبدأ معارضته بمطالع أشبه بمطالع العتسوم  
إلا أنه أحسن حالا من بدأها بالفضل فيقول: (١)

الحمد لله رب العرش والقلم

من أرسل الرسل بالآيات والحكم

٢- إنها تؤكد ما ذكرته سابقاً من وجود الملحمة في الشعر العربي (٢):

ومخاطبة بمد أن بلغت قصيدة (الخطيب) ثلاثة وستين وخمسة مائة بيست  
تقريباً ، بل يمكن أن نستخرج من معارضات البردة قبل شوق ومعه  
( ملحمة عربية ) بحذف الأفكار المكررة ، ونهم الأفكار الجديدة من  
كل قصيدة (٣) ، فتصبح لدينا قصيدة واحدة من بحر واحد وقافية  
واحدة ، \* وليس بشرط - كما قال بعض الكتاب - أن تأتي مطابقة لسا  
توارثه الناس من ملاحم إغريقية ورومانية ، فإن لكل شعب طابعه الخاص  
الذي يميز عمله من عمل غيره من الشعوب الأخرى (٤) \* .

٣- إنها قد فندت كثيراً من الشبهات التي أثارها أعداء الإسلام ، وإذا كان

شوق قد أشار في نهجه إلى شبهة انتشار الإسلام بالسيف ، وكشف  
زيفها ، كما أشار إلى حضارة الإسلام ، فإن أصحاب معارضات السهدة  
من بعده ، قد أكدوا ما ذكره ، وفضلوا ما أجمله (٥) ، وزادوا عليه :

أ - الرد على شبهة تعدد زوجات الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) مع  
بيان الحكمة من هذا التعدد ، بالإضافة إلى الإشارة إلى تحريم زواج  
زوجات الرسول من أحد من بعده (٦)

ب - الرد على شبهة تعدد الزوجات في الإسلام ، وبيان الحكمة من  
ذلك ، والإشارة إلى أن التعدد كان موجوداً في الشرائع السابقة  
ولم تحرمه أي شريعة ، ولما جاء الإسلام أكد جوازه مع المعدل

(١) السعيدية ص ٩ . (٢) انظر ص ٤٨٣ من هذه الرسالة .

(٣) الملحمة في الشعر العربي ص ٤ .

(٤) مجلة الثقافة ص ٧٣ من العدد (٣٦) سنة ١٩٧٦ .

(٥) الشوقيات ج ١ ص ٢٥١ ، ونظام البردة ص ١٠ وشري العاشقين ص ٣٩ .

(٦) نظام البردة ص ٧ ، وشري العاشقين ص ٣٦ .

بين الزوجات<sup>(١)</sup> ، ثم حدده بأربع نسوة فحسب ، والإشارة إلى حقوق المرأة في الإسلام<sup>(٢)</sup> .

ج - الرد على شبهة مشروعية الطلاق في الإسلام<sup>(٣)</sup> ، مع بيان الهدف منه ، ومتى يتقدم الزوج عليه .

د - الرد على شبهة وجود الرق في الإسلام ، ببيان أنه كان موجودا في الأمم السابقة ، ولإسلام الفضل في العمل على القضاء عليه ، بما شرعه من كفارات وغيرها<sup>(٤)</sup> .

هـ - الرد على منكرى الإسراء والمعراج<sup>(٥)</sup> .

٤ - إن معارضات البردة بحد شوقي - بالإضافة إلى معارضاتها قبل شوقي قد ساعدت على البحث في كتب اللغة ومماجمها التماسا للقوافي - وخاصة إذا كانت القصيدة طويلة النفس - فأحيت بذلك ألفاظا كادت تزهد ، كما ظهرت فيها ممان جديدة اقتبست من القرآن الكريم والسنة النبوية<sup>(٦)</sup> .

٥ - إنها قد أفادت الأدب العربي ، نموا واتساعا ، وتجديدا وابتداعا ، وأضافت إليه ثروة رائعة من بديع الخيال ، وجزالة الأسلوب ، وسمو التعبير ، وإذا كانت تلك المعارضات قد ظهر في بعضها السرد التاريخي ، أو ضعف العبارة ، فلعل ابن خلدون كان يشير إلى سبب ذلك بقوله : " . . . ولهذا كان الشعر في الإلهيات والنبويات قليلا الإجابة في الغالب ولا يحذق فيه إلا الفحول ، لأن ممانها متداولة بين الجمهور ، فتصير مبتذلة لذلك . . . " <sup>(٧)</sup> وطلق أحد الكتاب على ذلك بقوله : " وهذا صادق في كثير من الشعر الديني والعلمي ،

(١) بشرى الماشقين ص ٣٧ (٢) نظام البردة ص ١١

(٣) بشرى الماشقين ص ٣٧

(٤) نظام البردة ص ١١ وبشرى الماشقين ص ٣٨ :

(٥) قرنتي ص ٣١ وبشرى الماشقين ص ١٦

(٦) انظر ص ٢٥٧ وما بعدها و ص ٥٢١ من هذه الرسالة .

(٧) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٠

لأن حقائق الدين وحقائق العلم غير متقارفة ، فلا يجد الشاعر فيها مجالاً للمبالغة والتوسع ، وغيرهما ، مما يقوم عليه الشعر ، ويتفاوت فيه الشعراء . . . والدينيات حقائق لا يبدل فيها الشعر ولا يغير ، والنبويات . . . لا مجال فيها للمبالغة والإغراق . . . لأن الموضوع الذي يتناوله الشاعر في النبويات : السيرة والمدح ، والسيرة تاريخ وعلم ، والمدح النبوي أوصاف تليها المحبة ، ولكنها مقيدة . . . (١) ، وأرى أن ذلك القول صحيح ، ولكنه مع ذلك لا يمنع من إجادة الشاعر في عبارته ، وإبداعه في طريقة تناوله لفكرته .

٦- وهما يكن من شيء ، فإن تلك المعارضات لم تخل من أفكار جديدة . . . ، وعبارات فريدة ، وطاقمة جياشة ، تدل على أن بعض المعارضات الشعرية ( بعامية ) ومعارضات البردة - بخاصة - ليست كلها انفعالا ذهنيًا يدل على التقليد والمحاكاة - فحسب - ولا ينبىء عن أصالة ومقدرة ، تدفع الشاعر إلى تسجيل خواطره بعد اتباع وترسم ، كما يشير إلى ذلك الدكتور أحمد زكي أبو شادي بقوله : " ليس تعدد معارضة الشعراء من الفن الصحيح في شيء ، بل هو محض صناعة ، والشعر قبل كل شيء ، طائفة فكرية عميقة الجذور ، لا يهيج سطحى زائف . . . (٢) " .

ولقد فات صاحب هذا الرأي - كما قال بعض الكتاب - أن يعلم أن من المعارضات ما يمدد الشاعر فيها إلى التسابق الأدبي ، وليثبت تفوقه الشعري دون أن يمس الموضوع صداه الوجداني ، أو يفيض به إحساسه الداخلي ، فيلجأ إلى الاصطياد الذهني محاولاً إثبات براعته ، وهذا الضرب من المعارضة يصدق عليه حكم الدكتور حين يصفه بمحض الصناعة ذات البهيج سطحى الزائف .

أما المعارضة التي تأتي عن طريق هيام الشاعر بموضوع القصيدة وإحساسه الصادق بتياراتها الوجدانية ، وخضوعه العاطفي لمعانيها المتصلة بأيمانته ومثله ، فذلك معارضة تجد روافدها الصافية من أعين

(١) طراز البردة ج ١ ص ٥ وما بعدها بتصريف .

(٢) مجلة أدبي ج ٢ ص ٢١٤ سنة ١٩٣٦ .



موارد النفس ، والشاعر حين يندفع إلى النظم في ميدان إنما يستمد وقوده من جيشان عاطفته ، وحرارة شموه ، فهو حينئذ ينقل عن موج يتلاطم في صهه بأصدق التيارات ، وكأن القصيدة التي يحاول معارضتها كانت لشدة لصوقها يقبضه مفتاحاً أداره الشاعر في صهه فانفج عن ساحات ظمرة الأيها ، رائحة الأضواء ، وهذا ما كان من أكثر معارضى بردة البوصيرى<sup>(١)</sup> ، إذ أن جبهه الصادق ، لنبي الإسلام كان يتوقد في جوانحهم توقداً يتطلب التنفيس ، وقد رأوا في قصيدة البوصيرى طريقاً يقود إلى التعبير عن هذه المولف المتأججة فسلكوه ، وأرضوا بذلك حاجة وجدانية قاهرة ، حين تخففوا بالتعبير الشمري عن بعض ما يحملون من جذوات الحنين ...<sup>(٢)</sup> مما يدل على أن معظم هذه المعارضات معارضات أصيلة لا تعتمد التليق الذهني ، وإنما هي حين قلب يتحدث وإحساس يفيض ، وإن تفاوت ذاك الحنين وذلك الإحساس .

٧ - إنها بما اشتطت عليه من أفكار جديدة - انفردت بها كل معارضة - تقريباً - دون غيرها<sup>(٣)</sup> - تدل على أن المعارضة في ذاتها لا تتنافى مع الأصالة ، \* ولا تسلب الشاعر عنصر الذاتية - كما قال بعض الكتاب - لأن الأصالة والذاتية لا تعنى تفرد الإنسان بعمله وانقطاعه عن كل من سبقه أو صاحبه ، ولكن تعنى الانبثاق من ذات الشاعر وذات الشاعر كذات كل إنسان مرتبطة تمام الاتباط بمجرى الحياة من حولها ، متأثرة كل التأثر بجميع ما يقع أمامها من صور ومشاهدات<sup>(٤)</sup> . ولذلك أشار ابن رشيقي إلى أن \* اتكالك الشاعر على السرقة بلادة وعجز وتركه كل معنى سبق إليه جهل ، ولكن المختار له . . . أوسط الحالات<sup>(٥)</sup> . وما يؤكده ذلك أننا رأينا البارودي قد انفرد بالإشارة التفصيلية إلى غزوات الرسول وسراياه<sup>(٦)</sup> ، وكذلك انفرد شوقي بسبقه إلى الحديث عن جهاد رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) مفقداً شبهة انتشار الإسلام

(١) انظر كشف الغمة ص ٤٦ ، والشوقيات ج ١ ص ٢٤٤ ، والنفحة الأحمدية ص ٢٥ ،

قربتي ص ٣٧ ، بشرى الماشقين ص ٤٨ .

(٢) النصوص الأدبية في العصر الحديث ص ١١٣ . (٣) انظر ص ٥٧١ ، ٥٨٩ ، ٦٣٠ ، ٦٦٢

من هذه الرسالة . (٤) المعارضة في شعر شوقي ص ٤١ . (٥) العمدة ج ١ ص ٢٨١ .

(٦) انظر كشف الغمة ص ٢٥ وما بعدها .

بالسيف ، وانفرد كذلك يسبقه إلى الحديث عن الحضارة الإسلامية (١) ، كما انفرد بالكثير بالحديث عن رسالة المسجد ، وسبق إلى تنفيد مزاعم أعداء الإسلام حول تعدد زوجات الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، وحول الرق في الإسلام ، أضاف إلى ذلك بيانه ما أعطاه الإسلام للمرأة من حقوق لم تحصل عليها المرأة الأوروبية ، التي تفتخر بالحضارة والمدنية (٢) وانفرد الشيخ الخطيب بتنفيذ شبهة جواز تعدد الزوجات في الإسلام ومشروعية الطلاق في الإسلام ، وبيان الطريق إلى الله (٣) .

وليس معنى ذلك أن كل معارضات البردة في المصالح الحديث قد بلغت حد الجودة والاتقان ، بل منها ما غلب عليه التقليد والمطابقة مثل معارضة ( السعيدية ) التي تابع فيها صاحبها معارضة ( بشرى العاشقين ) - لشيخه الشيخ الخطيب - بخاصة ، وغيرها بحامة ، ومنها ما ظهر فيها ضعف المبرارة ، وقلة الأفكار مثل : معارضة الدرويش والتميمية ، وهذا يؤكد أن المعارضة في نفسها لا تغني عن القصيدة الرديئة شيئاً ، كما لا تغني من القصيدة الجيدة شيئاً (٤) .

٨ - إنها - بتناولها ما اشتملت عليه من الأفكار ، وما تضمنته من الممانسي بالتفصيل والإجمال ، وغير ذلك - ترد على من قال : " إن المعارضة لون من ألوان السرقة ، بيد أنها تتناز عن السرقة حين يراد بها أخذ اللفظ والتعبير فحسب ، أما مطلق السرقة فهو صادق على المعارضة (٥) . ولا يخفى أن ما يؤكد بُعد معارضات البردة عن السرقة أن معظم ناظميها - إن لم يكن كلهم - قد أشاروا إلى تأثيرها ببردة البوصيري وغيرها من معارضاتها (٦) وهذه الإشارة تنفي السرقة عن أصحابها لقول بعض النقاد إن السرقة : " انتحال عمل الغير مع تجاهل صاحبه (٧) . "

(١) انشقيات ج ١ ص ٢٥١ وما بعدها . (٢) نظام البردة ص ٥ ١١٤٧٤ .

(٣) بشرى العاشقين ص ١٦ ، ٣٧ ، ٤٠٤ . (٤) الأخلاق في شعر شوقي ص ٣٧ .

(٥) المعارضة في شعر شوقي ص ٣١ .

(٦) انظر ص ٣٠٥ ، ٥٣٤ ، ٦١٢ ، ٦٢٨ من هذه الرسالة .

(٧) السوفات الأدبية ص ٢٧ .

ولعل ذلك يشير إلى أن السرقة لا تكون إلا إذا أخذ الشاعر لفظ أو معنى من سبقه ، ولم يضيف شيئا من عنده ، وتجاهل الشاعر الذى أخذ منه ، وهذا ما أشار إليه أحد الكتاب بقوله : " إن السرقة الأدبية لا تكون سرقة حقيقية إلا إذا سطا الأديب أو الشاعر على صياغة شاعر من الشعراء ، وعلى خياله ، وانتحل شخصيته فى تعبيره الذى يميزه عن سواه مع الأخذ من معناه أو لفظه ، أما أخذ المعنى مجردا أو صوغه صياغة فنية أخرى يبت فيها الشاعر روحه ، وطبعها بطابعه فليس ذلك بسرقة . . (١) "

أما القول بأن ( مطلق السرقة يصدق على المعارضة ) فهذا مردود بقول حسان بن ثابت (٢) :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا

بل لا يوافق ضميرهم شعرى

فهو ينفى السرقة عن نفسه ، مع أنه قد عارض وناقض - كما سبق (٣) -

ما يدل على أن المعارضة عنده تختلف عن السرقة .

وإذا كان أبو هلال (٤) : قد عدَّ المعارضة والسرقة شيئا واحدا وأطلق عليه اسم ( الأخذ ) ، فإنه قد ذكر أن الأخذ ضرورى للشاعر ، وأنه ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول معانى من تقدمهم ، والصب على قوالب من سبقهم ، بشرط أن يكسوها لفظا من عنده ، ويبرزها فى معرض يظهر فيها تأليفه وإخراجه ، فيزيد حسنيتها (٥) ، ، بالإضافة إلى أن بعض النقاد قد ذكر أنه ليس بمسروق ما يشترك فيه الناس من المعانى (٦) وإنما تقع السرقة فى المعانى الخاصة التى ابتدعها منشئها ، ولم تستفص بتداولها (٧) .

(١) صور وظلال من حياة شوقي وحافظ ص ٥١ . (٢) ديوانه ص ١٧٤ .

(٣) انظر ص ٢٥٠ من هذه الرسالة . (٤) هو : أبو هلال العسكري من علماء

النقد والبلاغة توفى سنة ٣٩٥ هـ . (٥) أبو هلال : الصناعتين بتحقيق محمد أبى الفضل

والبجاوى ص ١٩٦ طبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة ١٩٥٢ (٦) اتجاهات

النقد الأدبى العربى ص ٢١١ (٧) على الجرجاني : الوساطة بين المتنبى وخصومه بتحقيق

محمد أبى الفضل والبجاوى ص ١٨٩ مطبعة - الحلبي بمصر سنة ١٩٦٦ .

وليس بخاف أن معظم المعاني التي وردت في البردة قد استفاضت وشاعت ، وأصبحت متداولة .

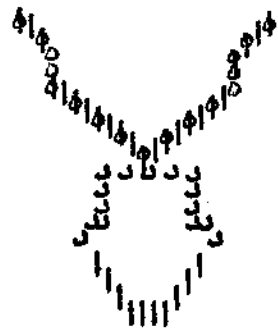
٩ - إنها تشير إلى أن معارضات البردة بخاصة، والمعارضات في الشعر العربي بعامة - بما فيها من اتحاد الوزن والقافية والفرس - تيسر مهمة الناقد في مجال الموازنة ، وتساعد على الوصول إلى الحكم الصحيح أو القريب منه ، وذلك لأن الموازنة بين شاعر وآخر - كما يقول بعض الكتاب - كثيرا ما تصاب بالتمثر ، أو بالطعن فيها ، بحجة أن هذا الشاعر لم يحسن ، لأنه قد صعب على نفسه ونظم في بحر لا ينظم فيه كثير من الشعراء ، أو سار على قافية غريبة ، تحتاج إلى مقدرة لا تأتي إلا للفحول من الشعراء ، وذلك الشاعر قد أحسن ، لأنه قال في غرض مطروق ، واختار قافية سهلة (١) .

وكل هذا لا يتأتى إذا كانت الموازنة بين قصيدتين - أو أكثر - من بحر واحد ، وقافية واحدة ، وغرض واحد ، كما أن مجال الموازنة يكون أسهل ، ويكون الحكم إلى الصواب أقرب ، ولعل ما يؤكده ذلك قول الأمدى (٢) : " . . . فإن كنت - إدام الله سلامتكم - من يفضل سهل الكلام وقريبه ، ويوثر صحة السبك ، وحسن العبارة ، وحلو اللفظ ، وكثرة الماء والرونق ، فالبحر أشعر عندك ضرورة ، وإن كنت تميل إلى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالفضول والفكرة ، ولا تلوى على غير ذلك ، فأبو تمام عندك أشعر لا محالة ، فأما أنا فليست أضح بتفضيل أحدهما على الآخر ، ولكني أوازن بين قصيدة وقصيدة من شعرهما إذا اتفقت في الوزن والقافية وإعراب القافية ، وبين معنى ومعنى ، ثم أقول : أيهما أشعر في تلك القصيدة ، وفي ذلك المعنى . . . (٣) " .

- 
- (١) المعارضة في شعر شوقي ص ٥١ بتصرف .  
(٢) هو أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدى من علماء النقد والبلاغة توفى سنة ٣٧٠ هـ أو سنة ٣٧١ هـ .  
(٣) الأمدى : الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري - تحقيق السيد صفير ص ٥ ومابعدها النبعة الثانية بمطبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢ .

ويبدو أن ذلك الاتجاه هو الذى جعل الدكتور زكى مبارك عند موازنته " بين القصائد المشهورة التى جرت مجرى المعارضة والمحاكاة .. " يقول : " ولهذا البحث أهمية كبيرة ؛ لأنه سيكفنا من دراسة عرائس الشعر دراسة منظمة دقيقة ، وسيرينا كيف تتناول العقول ، وكيف تتسابق القرائح .. " (١) ولهذا كله أفردت بابا للموازنة بين البردة ومعارضتها فى العصر الحديث لئلا نرى إلى أى مدى استطاع الشاعر المعارض - بكسر الراء - أن يتناول فكرة الشاعر المعارض - بفتح الراء - ولنعمرف أصاغها صياغة فنية أخرى يبت فيها روحه ، وطبعمها بطابعه لى تتسق مع ذوقه ، وتتفق مع إحساسه ، أم قصر فى تناولها - وعجز عن الإنفاقة إليها ؟

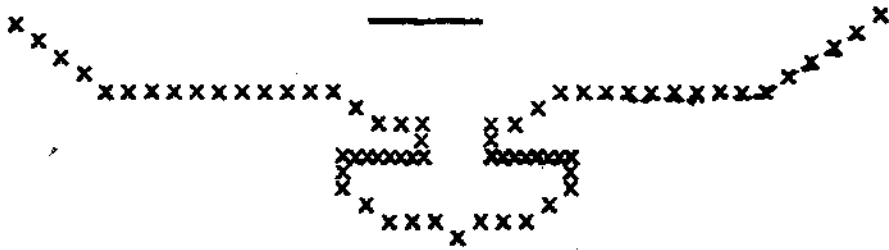
وهذا ما سنراه فى الباب التالى إن شاء الله ..



(١) الموازنة بين الشعراء ص ١٠٦



الموازنة  
بين  
البردة ومعارضاتها  
في  
المصر الحديث



بعد هذا العرض الطويل لسيرة الهوصيرى  
ومعارضاتها فى العصر الحديث ، رأيت  
أن أتبع ذلك بموازنة بينهما ، حتى نمتسرف  
إلى أى مدى تأثر اللاحق فى معارضته بمن  
سبقه ، ولغرى أقلد سابقه دون زيادة أو نقصان  
أم قلده فى بعض الأفكار ، ووجدت فى أخرى .

وإذا كان للشاعر السابق فضل سبق ، فليس معنى ذلك أن يجرد  
الشاعر الذى تلاه ومعارضه من كل منقبة ومأثرة ، بل يجب النظر فى قصيدتى  
الشاعرين ، فإذا زاد المتأخر فى معانيه وأخيلته ، أو حاز شرفا بأسلوبه  
وصياغته ، كان له من الفضل مثل ما كان للشاعر المتقدم ، بل هو - كما قال  
ابن رشيق - أولى به من مبتدعه (١) ، أما إذا ساء الشاعر المعارض أو قصر  
عنه حكم عليه بالقصور والتأخر وعدم القدرة على مجازاة الشاعر الذى سبقه .

وليس كل هدفى من هذه الموازنة هو تفضيل شاعر على آخر أو تفضيل  
نص على نص ، فهذا ليس يلائم دائما ، إذ النقد الأدبى يكون توضيحا كما  
يكون ترجيحا ، وربما كان التوضيح والوصف أجدى على الباحث والأدبى ، فليس  
يخلو شاعر من ميزة تفضله عن نظيره مهما تكن قيمتها .

وأعلن بادى الأمر أننى سأوازن بين بردة الهوصيرى ومعارضتى البارودى  
وشوقى فحسب وذلك لما للبارودى وشوقى من منزلة كبيرة بين النقاد ، وفى مجالس  
الأدب ، ولأن معظم من عارض البردة بعدهما قد نظر إليهما فى كثير من  
الأفكار ، وليس معنى ذلك أن غيرهما لم يزيدها شيئا عليهما ، بل قد أضافوا  
جديدا ، أشرت إليه فيما سبق (٢) .

كما أبين - أيضا - أن موازنتى ليست قاطعة فى نتائجها ، إذ لكل إنسان  
وجهته ، ولكل باحث رأيه ، وسجال النقد فسح ، وقد يوافقنى القارى ، وقد يخالفنى

(١) المحمدية ج ٢ ص ٢٩٠ . (٢) انظر : ص ٥٨٩ ، ص ٦١٣ ، ص ٦٣٠

ص ٦٦٢ من هذه الرسالة .

فالمشارب تختلف ، والأذواق تتنوع ، وبخاصة إذا تقاربت أوجه التماثل بسين  
القصديتين أو الشاعرين ، إذ كثيرا ما يبلغ الكلام في الحسن مبلغا يملك  
مجامع القلوب ، وإذا حاول الناقد التعبير عن هذا المجال ، استمضى عليه  
البيان .

ولعل ما يؤكده ذلك ما روى أن إسحاق الموصلي (١) قال : " قال لى  
المنتصم : أخبرني عن معرفة النظم وبينها لى ، فقلت : إن من الأشياء أشياء  
تحيط بها المعرفة ، ولا تؤدبها الصفة " (٢) ، كما أنه قد مثل عن شمرين مقاربين  
وقيل له : اختر أحدهما ، ولما اختار أحدهما ، قيل له : من أين فضلت هذا  
على هذا ، وعما مقاربان ؟ فقال : لوتفاوتنا لأمكنى التبيين ، ولكهما تقاربا  
وفضلت هذا بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان (٣) .

ومن هنا يتضح أن منهاج الموازنة ليس سهلا ، وأنه يستدعى كثرة الدرية  
وطول الملاسة ، حتى يكون الحكم أقرب إلى الصحة ، بعيدا عن الغيبة واللوكنس ،  
ولعل ما يؤكده ذلك قول بعض النقاد : " إن الموازنة هي أدق ألوان النقد  
وأدعاهما إلى التفكير ، وأحوجها إلى سلامة الذوق والسليقة ، وقوة الملاحظة . (٤) "  
كما أشار بعض النقاد - أيضا - إلى خطورها ، مبينا بعض ما يجب أن يتحلى  
به الناقد ، فقال : " إن الموازنة نوع من القضاء ، والناقد كالقاضي فكما يجب  
على الحكم أن يتره نفسه عن جميع الأغراض حين يتقدم للحكم بين الناس ، كذلك  
يجب على الناقد أن يبرىء نفسه من جميع الأغراض حين يتقدم للموازنة بين  
الشعراء . . . (٥) " ثم قال : " . . . فإذا أردت أن توازن بين شاعرين ، فامتحن  
نفسك قبل ذلك ، فإن رأيت في نفسك الميل لتفضيل أحدهما على الآخر  
لسبب لا تسيطر عليه الحاسة الفنية ، فاعلم أنك في ترجيحك منهم ظنين . . .  
وإن رأيت نصرة الأدب ، والحق تغلب على جميع ما لك من النوازع ، وأنت نفسى

- 
- (١) هو : أبو محمد إسحاق بن إبراهيم الموصلي - من أشهر ندماء الخلفاء ، وكان عالما  
بالأشعار ، توفي سنة ٢٢٥ هـ .  
(٢) الموازنة القسم الأول ج ٣ ص ٤١٤ .  
(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها بتصريف .  
(٤) على الجبلاطى ( بالاشتراك مع غيره ) الذوق والبلاغ ص ١٠٤ - مطبعة الجهاد  
بأسبوط ( غير مؤرخ ) .  
(٥) الموازنة بين الشعراء ص ٣٣ وما بعدها .



نفسك القدرة على مقاومة ما يحترضك من التقاليد . . . فتقدم إلى الموازنة ، وحق  
أن الرغبة في نصرته الحق حليفة الفوز المبين (١) .

كما ذكر بعض القواعد التي يجب أن يلتزمها الناقد بالنسبة لمن سيوازن  
بينهما فقال (٢) :

- ١- يجب أن يذكر الناقد حياة من يوازن بينهما بالتفصيل ، وأن يثبت  
ما أحاط بهما من مختلف الظروف وعلى الأخص إذا مرت حياتهما  
في غمرة من الثورات الدينية أو فتنة من الثورات السياسية .
- ٢- ويجب أن يذكر الحالة الصحية لكل شاعر ، له صرف ما قد يعرض  
لمزاجه من الاعتدال ، وأن يقدر السن التي قيل فيها ما يريد  
وزنه ونقده .
- ٣- ويجب أن يحدد الصفات التي اشترك فيها من يوازن بينهما ، والصفات  
التي انفرد بها كل واحد منهم .
- ٤- وأن يدقق النظر في تمييز المعاني المبتدعة التي لم يسبق إليها -  
من المعاني السبوقية ، وبين كيف تناول الشاعر المعنى الذي سبق  
إليه ، وكيف هدبه ، وكيف بسطه .
- ٥- وأن يمد ما برز فيه الشاعر من المطالع والمقاطع ، وما أجاد أخذه  
وما ابتكره ، وما انفرد به ، فقد يبتكر الشاعر المعنى ثم يخلب عليه حين  
يقصر في تأديته ، وقد يبتكر المعنى ثم ينفرد به حين يلبس  
الغاية في الأداء .
- ٦- وأن يبين أسباب السبق ، وأسباب التخلف ، وأن يحد ما لكل شاعر  
من المعاني الموضعية التي اقتضاها زمانه ومكانه ، والمعاني الإنسانية  
التي تصلح لجميع الناس ، مع تباين الأمكنة واختلاف العصور .

(١) المرجع السابق ص ٢٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٢ وما بعدها بتصرف .

ولا يخفى أننى قد أشرت إلى حياة كل من البوصيرى (١) ، والبشارودى (٢) ،  
وشوقى (٣) ، وسوق أوازن بين قصائدكم من ناحية ما يأتى :

- |                       |                          |
|-----------------------|--------------------------|
| (١) بناء القصيدة •    | (٦) الأفكار وترتيبها •   |
| (٢) الوحدة المضمومة • | (٤) العاطفة ومدى صدقها • |
| (٥) الخيال •          | (٧) الأسلوب •            |

(١) بناء القصيدة :

والمراد ببناء القصيدة - كما قال بعض النقاد : " التخطيط الهندسى  
والنسق الفنى لتلك البنية الفنية ، بحيث تبدو بناً واضح المعالم ، بارز السمات  
متكامل الأطراف ، وتتوالى أجزاؤها فى تسلسل طبعى ، وتترابط ، بشكل محكم  
ترابطاً مبنياً على التداعى والتناسب لاعلى القصر والاختصاص (٤) " .

وفى تلك الناحية يعرض النقاد لكثير من المسائل ومن أهمها :

- أ - مطلع القصيدة •
- ب - التخلص من المطلع إلى الخرض •
- ج - الخاتمة •

وقبل الحديث عن تلك المسائل أحب أن أشير إشارة سريعة إلى مدى  
توفيق البوصيرى فى اختياره وزن قصيدته البردة ، ولقد سبق أن ذكرت أن هذه  
القصيدة من بحر البسيط الذى وزنه ( مستعملن فاعلن ) ويدخله الخسب  
فيصبح ( مستعملن فاعلن ) (٥) ، ويبدو أن البوصيرى قد وفق فى اختيار هذا

- 
- (١) انظر ص ٤٤ وما بعدها من هذه الرسالة •
  - (٢) المرجع السابق ص ٢٢٧ وما بعدها •
  - (٣) المرجع السابق ص ٤٨٧ وما بعدها •
  - (٤) الدكتور عبد الرحمن شميب : فى النقد الأدبى الحديث ص ٣٠٠ وما بعدها  
بتصرف - مطبعة دار التأليف بمصر سنة ١٩٦٨ •
  - (٥) انظر ص ٨٠ من هذه الرسالة •

البحر الذي يلائم حالة الشجن والحزين ، ويؤكد ذلك قول بعض النقاد : إن بحر البسيط يتفق مع الشجن والتذمر والعنين .. (١) " كما أنه : " يتصف بطواعيته لظاهرة الإنشاد ، وخاصة الإنشاد الديني ، إذ وزنه يعطى التمسح والانسحاب والإيقاع الذي يعطى النفس حالة من حالات السمو والصفاء .. (٢) " ، ويبدو أن انبساط الحركات في عوذه وضربه - إذا غننا - مما ساعد على هذا .. (٣) .

وإذا كان لهذا البحر كل هذه السمات ، فلا شك في أن للبوصيري فضلا كبيرا في اختياره ، أما ما يقال (٤) من أنه قد تأثر في نظمه البردة بقصيدة ابن الفارض التي مطلعها (٥) :

همل نار ليلى بدت ليلا بنى سلم  
أم بارق لاج نسي الزوايا فالعلم

بحجة اشتراك الشاعرين في : إشارة إلى ( ندى سلم ، وهبوب الريحاح وإيضاح البرق .. ) وغير ذلك بالإضافة إلى تشابه الفكرة ، وكثير من الألفاظ - نسي قول ابن الفارض (٦) :

يا لئما لا معنى في حبيبهم منها  
كف الملام ، فلو أحببت لم تلم

وقول البوصيري : (٧) :

يا لئى في الهوى العذرى معذرة  
متى إليك ولو أنصفت لم تلمس  
ولكن بعض الكتاب ذكر أن ذلك من باب توارد الخواطر (٨) ، ويبدو أن ذلك

- 
- (١) مجلة الشهر العدد الثاني ص ٨٤ سنة ١٩٧٦ .
  - (٢) الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي (بالاشتراك مع غيره) : من روائع الأدب العربي ص ٩٢ مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٩٧٤ .
  - (٣) مجلة الشهر العدد الثاني ص ٨٤ .
  - (٤) المدائح النبوية ص ١٨٣ ، والمعارضة في شعر شوقي ص ٢٢٠ وما بعدها .
  - (٥) ابن الفارض : ديوانه ص ٣٤ وما بعدها .
  - (٦) المرجع السابق ص ٣٥ .
  - (٧) انظر ص ١٢ من هذه الرسالة .
  - (٨) الإمام البوصيري ص ٥٤ وهرزاز البردة ج ١ ص ٤٦ .

صحيح ، لأننى وجدت أن تلك الأماكن التى قد أشار إليها كل من ابن الفارض  
والهوصيرى قد أشار إليها غيرهما من سبقهما من الشعراء ، وهذا يدل على  
أن هذه الإشارة كانت مألوفة عند كثير من الشعراء ، ومنهم البحرى الذى  
يقول (١) :

نشدتك الله من برق على إضـم  
لما سقيت جتوب الحزن فاللمم

ويقول أيضا (٧) :

أحلفتى سلمى بكاطمة اسلمـا  
وتحلما أن الجوى ما هجتمـا

فقد أشار إلى ( إضم ، والملم ، وكاطمة ) ، كما ذكر البرق أيضا ، بل  
لقد أشار إلى لوم المذال فى قوله (٢) :

قلت للائم فى الحب: أفـق

ولا تهسون طعم شيء لم تذوق

ومعلوم أن البحرى قد سبق كلا من ابن الفارض والهوصيرى فى تلك  
الإشارة ، ولعل مثل هذا يرجح رأى من قال: إن التشابه بين مطلق ابن الفارض  
والهوصيرى من باب توارد الخواطره أضف إلى ذلك أن عدد أبيات قصيدة  
ابن الفارض ثمانية عشر بيتا ، وموضوعها الحب الإلهى .

أما قصيدة الهوصيرى فأبياتها: ستون ومائة بيت، وموضوعها المديح النبوى .  
ومهما يكن من شيء فإن الهوصيرى قد سبق كلا من البارودى وشوقسى  
فى اختياره بحر البسيط ، الذى نظم عليه قصيدته البردة ، وله الفضل فى  
هذا الاختيار لمناسبة البحر لموضوع القصيدة كما سبق .

وأبدأ فى الحديث عن المسائل التى يحرض لها النقاد عند حديثهم عن  
بناء القصيدة وهى :

أ - مطلع القصيدة :

والمراد بمطلع القصيدة أول بيت فيها ، ولقد علق النقاد عليه أهمية

(٧) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٨ .

(١) ديوانه ج ٢ ص ١٦٨ .

(٧) المرجع السابق ج ١ ص ٢٠٨ .

كبيرة، إذ رأوا أن المطلع الجيد هو الضمان القوي لشدة الأسماع، وجذب النفوس إلى القصيدة، وربط النفس بها ربطا محكما، ولعل هذا هو السبب الذي جعل الشاعر العربي القديم يفتح قصيدته بالفزل، لما له في النفس من أثر قوي يجعلها تهفو إليه وتنصت له (١).

وما يؤكد اهتمام النقاد بمطلع القصيدة أنهم وضعوا أمارات للمطلع الجيد، وذكروا منها: أن يكون واضحا بينا لا غموض فيه، ولا ليس في معناه ولا صعوبة في فهم مرماه (٢)، وألا يكون محقدا التركيب، مضطرب الأسلوب، وأن يكون متساوي الأطراف من حيث البنى والمعنى، فلا يكون شطره الأول مرتفعا والآخر منخفضا متخلفا (٣)، كما أوجبوا فيه أن يكون بعيدا عن كل ما يبعث في النفس التشاؤم والتطير ..

أضف إلى ذلك أنهم استحسنا من المطالع ما كان مرآة تكشف الغرض الذي سيق له القصيدة، وقدل على التجربة التي انغفلت بها النفس، واندفعت بوحى منها، ويطلقون على ذلك براعة الاستهلال (٤)، والشاعر الحاذق يجتهد في تحمين الاستهلال والتخلص ويعددهما الخاتمة إذ هي المواقف التي تستمطف الأسماع الحضور، وتستميلهم إلى الإحفاء... (٥).

وإذا كان هذا هو موقف بعض النقاد من (مطلع القصيدة) فسوف أذكر مطلع كل من البوصيري والهارودي وشوقي - على ذلك الترتيب لنعلم إلى أي مدى أحسن أصحابها، ومن منهم أكثر من صاحبه حسنا فيها، وهي:

• أمن تذكر جيران بذي سلم

مزجت دما جرى من قلة بدم

• يرائد البرق يم دائرة الملم

واحد الفمام إلى حي بذي سلم

• ريم على القاع بين الهان والملم

أحل سؤك دعي في الأشهر الحرم

(١) في النقد الأدبي الحديث ص ٣٠١. (٢) المرجع السابق الصفحة نفسها.  
(٣) خزائن الأدب ص ٢. (٤) في النقد الأدبي الحديث ص ٣٠٢.  
(٥) الوساطة ص ٤٨.

لقد اشتركت تلك المظالم في الإشارة إلى بعض الأماكن المربية (ذى سلم،  
دارة العلم، البان، العلم) وهذه الإشارة محض تقليد للسابقين.

وإذا صح ما ذهب إليه بعض الكتاب من أن هذه الأماكن "رموز للمعاني  
الدينية، وهي عاطفة إنسانية عميقة، صادقة، أصيلة، يعبر بها الشاعر عن  
شوقه للنبي، وحبه لجناب خالقه، فيرى ببصره وقلبه إلى الأرض التي اختارها  
البارئ، موطننا لتجوتته ورسالته، الأرض التي جعلها الله تعالى منزلاً للشريعة والقرآن،  
منزلاً للمعدل والتسامح، والتعاطف، والمعاني الإنسانية الرفيعة (١) .. إنها الأرض  
التي يتطلع الشعراء إليها ناشدين الراحة النفسية، والمتعة الروحية، إلى  
جوار بيت ربهم ونبيهم بعد أن حرموا لذة العيش، ومثقتة في عصر اضطرت أموره  
وقامت سائرته .. (٢) .."

أقول إذا صح هذا فإنه يكون مقبولاً بالنسبة إلى البوصيري نظراً لظروف  
عصره الذي كثرت فيه الحروب، بالإضافة إلى ظروف مرضه الذي نظم السيرة  
بسببه - كما سبق - ويكون مقبولاً - أيضاً - بالنسبة إلى البارودي نظراً  
لظروفه القاسية مثل نفيه عن بلده وأهله، ويؤكد ذلك تمنييه زيارة الأماكن  
القدسة في قوله: (٣)

فهل إلى زهرة يحيا الفؤاد بها  
ذريعة أبتغيها قبل مخترمي  
.. هذى ضاي وحسي أن أفوز بها  
بنعمة الله قبل الشيب والسهرم

أما شوقي فهذا بعيد كل البعد عنه، ويؤكد ذلك أنه وقت نظم القصيدة  
كان في رغبة من العيش كما أتاحت له فرصة الذهاب إلى الأماكن المقدسة مع  
الخدوي ولكن عرّب كما سبق - مما يشير إلى أن الذي دفعه إلى ذكر  
تلك الأماكن إنما هو تقليد البوصيري (٤)، ما جعل بعض النقاد يقول عن

(١) الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي عن ٢٨٢ وما بعدها بتصرف.

(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها.

(٣) كشف الغمة عن ٤٥ وما بعدها.

(٤) الإسلام في شعر شوقي عن ١٢١.

ذلك المطلق : " إنه من صميم شعر الاحتراف (١) . "

ولم يكتف شوقي بالتقليد بل أوغل فيه مؤثرا الإغراب في تمبيره ، فذكر  
أن محبوبه ( أحل سفك دمه في الأشهر الحرم ) فهو بذكره ( الأشهر الحرم )  
يشير إلى مدى ما بلغه ذلك المحبوب من تمد وظلم ، لأن إراقة الدم نفسى  
تلك الأشهر محرمة ، وفات شوقى أن تلك الحرمة قد نسخت (٢) هذا من جهة ،  
ومن جهة ثانية فإن فهم المراد من تلك الإشارة يحتاج إلى ثقافة دينية ، قد  
لا توجد عند كثيرين .

ولقد خالف شوقى ما شرطه النقاد لحسن المطلق ، إذ جعلوا من شروطه  
- بالإضافة إلى ما سبق - المبالغة في انتقاء كلماته وجملته ، وحدها عما يشينها  
من الوجهة البلاغية - وسلامتها ما تنفر منه النفس وتنتطير به ( كالقتل والموت  
والدم (٣) ) . . . وفي مطلع شوقى تجد لفظ ( السفك ) يليه لفظ ( الدم ) ثم  
الثقل من الطباق بين : ( أحل ، والحرم ) .

وبعد ذلك كله يبدو أن الشاعر نظر في مطلقه إلى قول ابن الفارض (٤) :

طوعا لقاض أتى في حكمة عجيبا

أفتى بسفك دمي في الحل والحرم

وأين مطلع شوقى في نهجه من مطلقه في حمزته (٥) :

ولد الهدى فالكائنات ضياء

وفيم الزمان تبسم وثناء

تأمل تلك الألفاظ الموحية الجميلة : ( الهدى ، وضياء ، وتبسم ، وثناء )

تجدتها كلها ألفاظا تتشوق النفس إليها ، ويتلهف القلب عليها .

أما مطلع البوصيري : فقد اشتمل على استفهام يشير إلى إحساس ، ويحرك

الوجدان ، كما عبر عن أحبابه بلفظ ( جيران ) إشارة إلى قربهم وحقوقهم ، ولذلك

(١) الدكتور محمد كامل حسين الشعر العربي والدوق المعاصر ص ٥٢ مؤسسة دار الشعب

بمصر سنة ١٩٧٦ .

(٢) انظر ص ١٨٤ من هذه الرسالة .

(٣) المتنبي وشوقى وإمارة الشعر ص ١٥٤ .

(٤) ديوانه ص ٣٥ . (٥) الشوقيات ج ١ ص ٢١ .

منج دمه بدمه لأجلهم ، ولا يخفى ما فى تعبيره من جمال ، لولا ذكره لفظ  
( الدم ) الذى تج الأذن سماعه ، بالإضافة إلى الحشو فى كلمة ( من مقلّة ) .

ومع كل هذا أين مطلع برودة البوصيرى من مطلع همزته : (١)

كيف ترقى رقيبك الأنبياء

يا سماء ما طاولتها سماء

تأمل هذا الاستفهام الدال على البعد ، بل الدال على الاستحالة  
وانظر إلى الجناس فى قوله : ( ترقى رقيبك ) تجد الرقعة وعلو الشأن ، ويؤكد  
ذلك قوله : ( يا سماء ما طاولتها سماء ) .

أما مطلع البارودى : فيبدو أنه فاق مطلع صاحبيه ، لاشتماله على ألفاظ  
موجبة مثل : ( رائد والبرق والشام ) ، ومعه عن الألفاظ التى تتجها النفس  
مثل التى ذكر بعضها البوصيرى من قبله ، وشوقى من بعده .

إن البارودى قد قلده ، ولكنه لم يقف عند التقليد وقوفا تاما ، ولمسه  
قرأ قول بعض النقاد : " إن حسن الافتتاح ، داعية الانشراح ، ومطيبة  
النجاح " . والشعر قفل أوله مفتاحه ، وينهى للشاعر أن يجود ابتداء شعره  
فإنه أول ما يقرع السمع ، وه يستدل على ما عنده من أول ودلة " . وليجعل  
حلوا سهلا ، ونحما جزلا " (٢) . فعمل على أن يكون مطلعهم جيدا المبارة  
حلوا الإشارة ، مما جعلنى أرجح حسن مطلعهم ، ولبه مطلع البوصيرى ، ثم مطلع  
شوقى .

### ب- حسن التخلص :

ذهب بعض النقاد إلى أنه خروج الشاعر من مطلع قصيدته ، ودخوله  
فى غرضه بلطف ورفق ، وتحايله فى ربط المطلع بالعرض ربطا لا تكلف فيه ، بحيث  
لا يشعر السامع بالانتقال المفاجئ ، أو يحس بفجوة بين الفرضين (٣) ، وهذا

(١) ديوانه ص ١ .

(٢) العمدة ج ١ ص ٢١٧ وطبعها .

(٣) فى النقد الأدبى الحديث ص ٢٠٤ بتصرف .



الضابط يقصر عن التخلص على الانتقال من المطلق ، ولكن الأولى أن يكون  
عاما يشمل كما قال بعض النقاد الانتقال من فكرة إلى فكرة بمناسبة ظاهرة  
ويقابله الاقتضاب (١) ، قال ابن رشيق : " وأولى الشعر بأن يسمى تخلصا ما تخلص  
فيه الشاعر من معنى إلى معنى (٢) " .

ولعل سر الإعجاب بالتخلص الحسن أنه نوع من دقة الحبكة، وحسن  
الترايط، حتى تسير القصيدة في تسلسل يشبع العقل، ويرضى النفس ، ولا تشمر  
بالانفكاث والخرابة (٣) ،

وإذا نظرنا إلى الهويصيرى في برده وجدناه أثر حسن التخلص عندما  
قال في محاوره المذول (٤) بعد اعترافه بحبه الذي أنكره طويلا :

إني اتهمت نصيح الشيب في عذلي

والشيب أبعد في نصح عن التهم

فكان هذا بمثابة التمهيد للانتقال إلى الحديث عن النفس في قوله :

فإن أمارتي بالسوء ما اتعظت

من جهلها بنذير الشيب والهم

وكذلك عندما أراد الانتقال من الحديث عن النفس إلى مدح الرسول ( صلى

الله عليه وسلم ) مهده لذلك بقوله :

ولا تزودت قبل الموت نافلة

ولم أصل سوى فرض ولم أصم

ولعل ذلك التمهيد يكون سببا في أن السامع لا يشمر بفجوة بين حديثه

عن النفس ومدحه الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) بقوله :

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلىسى

أن اشتكت قدماه الضر من يوم

(١) الموازنة بين الشعراء ص ٢٠٧ بتصرف .

(٢) المحمدية ج ١ ص ٢٣٧ .

(٣) في النقد الأدبي الحديث ص ٢٠٥ .

(٤) الموازنة بين الشعراء ص ٢٠٦ .

فالبوصيري لم ينتقل من النسيب إلى مدح الرسول مباشرة ، بل انتقل من النسيب إلى الحديث عن النفس ، ثم انتقل من ذلك إلى مدح الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، وهذا ما أشار إليه بعض النقاد بقوله : " إذا لاحظنا أنه - البوصيري - تخلص من النسيب إلى المدح ، فإن هذا التخلص غير مقبول ، أما إذا لاحظنا أنه تخلص من النسيب إلى حساب النفس ، ثم إلى مدح الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، فإننا نخفر له هذه الإطالة ، لأنها في غرض من أغراضه الأساسية ، وهو الدعوة إلى تهذيب النفس وتطهير الوجدان (١) . "

وإذا كان البوصيري قد آثر حسن التخلص في الانتقال من بعض أفكاره ، فإنه قد اقتضب عندما أراد الانتقال من الإشارة إلى بعض معجزات الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) إلى الحديث عن القرآن الكريم فقال :

دعني ووصفي آيات له ظهرت

ظهر نار القرى ليلا على علم

ويبدو أنه أراد بذلك أن ينهج نهج السابقين (٢) الذين كانوا إذا أرادوا الانتقال من فكرة إلى أخرى يقولون : ( دع ذا ) و ( عد عن ذا ) ويأخذون فيما يريدون ، أو يأتون بإن الشددة ابتداءً للكلام الذي يقصدونه (٣) إلا أن جل انتقالاته كانت تقوم على أساس حسن التخلص .

وكذلك آثر البارودي حسن التخلص ، إذ عندما تحدث عن سرعة القطاة وأراد الانتقال إلى مدح الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) قال :

لبت القطا حين سارت غدوة حملت

عني رسائل أشواقى إلى إضم

.. لا شيء يسبقها إلا إذا اعتقلت

بنانتي في مديح المصطفى قلمى

فالسامع والقارىء لا يشعران بالانفكاك أو الخرابة بين الفكرتين ، ولذلك قال بعض النقاد عن ذلك التخلص : " وهذا تخلص مستطع مقبول .. (٤) . "

(١) المرجع السابق ص ٢١٠ بتصرف .

(٢) انظر ص ١٥٨ من هذه الرسالة .

(٣) الصمدية ج ١ ص ٢٣٩ .

(٤) الموازنة بين الضمراء ص ٢١١ .

والجدير بالذكر أن البارودي كان يقتضب أحيانا مثل قوله عن الرسول  
( صلى الله عليه وسلم ) :

هذا الذي عصم الله الأنسام به

من كل هول من الأهوال مخترم

ثم أشار بعد ذلك مباشرة إلى بحشته ( صلى الله عليه وسلم ) بقوله :

وحسين أدرك سن الأرحمين وما

من قلبه مبلغ للعلم والحكم

كما اقتضب في انتقاله من الحديث عن ليلة الإسراء والمعراج بقوله :

فاقت جميع الليالي فهي زائرة

بحسبها كزهور الغار في العلم

إلى الحديث عن فرض الصلاة بقوله :

هذا وقد فرض الله الصلاة على

عباده وهداهم واضح اللقمة

وأيا يظهر اقتضابه عند انتقاله من الحديث عن المواجهة بين المهاجرين

والأنصار بقوله :

وأصبح الناس إخوانا وهم

فضل من الله أحياءهم من المدم

إلى الحديث عن فرض الجهاد بقوله :

هذا وقد فرض الله الجهاد على

رسوله ليبت الدين في الأمم

أما شوقي : فقد آثر الاقتضاب ، وخاصة عندما انتقل فجأة من المنزل

إلى الحديث عن الدنيا وخطوبها ، والنفس وقلتها ، تأمل حديثه إلى محبوبته :

لم أغش مفاك إلا في غضون كرى

مفناك أبعد للمشتاق من إرم

ثم تأمل كيف انتقل فجأة إلى الحديث عن الدنيا بقوله :

يا نفس دنياك تخفى كل حكمة

وإن بدا لك منها حسن متمسم

ولذلك يقول بعض النقاد عنه : " إنا لنراه صدف عن التخلص وأبصر  
الاقتضاب ، فانتقل فجأة من ذلك النسب الموقر المشرق إلى الحديث عما تضرر  
الدنيا من المبكيات ، وما تجن من ظلمات الخطوب .. (١) ."

واقضب أيضا في انتقاله من حديثه عن فساد أخلاق الناس قبل بعثته  
( صلى الله عليه وسلم ) بقوله :

والخلق يفتك أقوام بأضعفهم

كالليث بالبهيم أو كالحوث بالهلم

إلى حديثه عن الإسراء والدمعاج مباشرة بقوله :

أسرى بك الله ليلا إذ ملأك

والرسل في المسجد الأقصى على قدم

وغير ذلك كثير في قصيدته ، مما جعل بعض النقاد يقول عنه : " وإذا كان

هناك مأخذ على شوقي ، فإن أشد ما يؤخذ عليه في قصيدته - نهج البردة -  
هو الاقتضاب في معانيها .. (٢) ."

### ج - الخاتمة :

وهي - كما يفهم من لفظها لأول وهلة - آخر القصيدة ، بل  
هي كما قال ابن رشيق : " قاعدة القصيدة ، وآخر ما يبقى منها في الأسماع (٣) "  
كما أنها آخر ما يربط السامع بالقصيدة ويجذبه إليها ، وربما كان في حسنها ما  
يحمل الناس على تتبعها والهيام بها ، ولذلك عنى النقاد بها عناية كسيرة  
ووضعوا لحسنها بعض الإشارات ، ومن ذلك قول بعضهم : " وأحسن ما تختم  
به القصيدة ما يشعر السامع بالنهاية والختام ، بحيث لا يبقى في انتظار شئ ،  
ولا يظل مقربا شيئا ، وما كان مع ذلك منسجما مع الخوض الذي سبقت له القصيدة  
بحيث لا يكون غريبا عنها ، أو نائرا منها .. (٤) ."

(١) المرجع السابق ص ٢١٤ .

(٢) مجلة لواء الإسلام ص ٢٩ - العدد الثامن من السنة الثالثة سنة ١٩٥٠ م .

(٣) الحمدة ج ١ ص ٢٣٩ .

(٤) في النقد الأدبي الحديث ص ٣٠٥ بتصرف .

وإذا نظرنا إلى خاتمة البردة ، وجدنا البوصيري قد ختمها بالصلاة  
الدائمة على رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، إذ قال مقصرا إلى الله  
سبحانه وتعالى :

وأذن لسحب صلاة منك دائمة

على النبي بضميل وضجيم

ما رنحت عذبات البان ربح صبا

وأطرب العيس حادي العيس بالنخم

وأما خاتمة كشف الضمة فقد ختمها البارودي - بحمد الصلاة الدائمة على  
رسول الله - بالتضرع إلى الله سبحانه وتعالى ، وطلب مغفرته جل وعلا بقوله :

واضن على عبدك العاني بمفسرة

تحو خطاياي في بد \* ومختتم

وأما خاتمة نهج البردة ، فقد ختمها شوقي بالتضرع إلى الله سبحانه وتعالى ،  
وراجيا حسن الختام للمسلمين ببركة الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) الذي أحسن الله  
حال المسلمين به ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور ، فقال :

يارب أحسنت بد \* المسلمين بسـ

فستم الفضل وانح حسن مختتم

وأرى أن ختام شوقي أفضل من ختام صاحبيه ، لاشتغاله على ما يشتمر  
بحسن الختام في قوله : ( حسن مختتم ) ، ولا شغاله على دعاء يتم المسلمين جميعا  
ولا شغاله إلى فضل الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، وأخيرا لهدته بتلك الكلمة  
الطيبة ، والدعاء الصادق ( يارب ) كل ذلك في بيت واحد .

أما ختام البوصيري فلم يشتمل على ما يشتمر بحسن الختام ، بل ولا على  
ختام القسيمة نفسها ، ولذلك سهل على من أتى بعده أن يزيد عليها أبياتا  
أولها - كما سبق - (١) :

ثم الرضا عن أبي بكر وعن عسر

وهن على وعن عثمان ذي الكرم

(١) انظر ص ٢١٦ من هذه الرسالة .

وإذا قرأتها بعد نهاية البردة خيل للسامع أنها منصلة بها ، وأنها  
منها ، أضف إلى ذلك أن ختامه في بيتين ، والبيت الثاني قد توغلت ألفاظه  
في البداوة والتقليد .

وأما ختام البارودي فقد اشتمل على حسن الختام أيضا في قوله : ( في بدء  
ومختم ) ، كما اشتمل على ما يشعر بتواضعه لله سبحانه وتعالى في قوله : ( عبدك  
الغاني ) ، بالإضافة إلى طلبه المغفرة ، إلا أنه قد طلبها لنفسه ، فهو دعاء  
له وحده ، ولعل ظروف نظمه القصيدة هي التي دفعت إلى ذلك .

ومهما يكن من شيء ، فإنني أرجح حسن ختام شوقي ، قال البارودي فالهوسيري  
وإذا كان ابن رشيقي قد قال : " وقد كره الحذاق من الشعراء ختم القصيدة  
بالدعاء ، لأنه من عمل أهل الضعف والملوك ، فإنهم يشتهون ذلك . . . (١) " .  
فأقول : إن دعاء ملك الملوك أولى وأوجب ، وهو - جل وعلا - عن دعائنا غنى .

## ٢- الأفكار وترتيبها :

إذا نظرنا إلى الأفكار التي اشتملت عليها البردة ، وجدناها لم تخرج  
عن : النسيب ، والتحذير من النفس وهواها ، ومدح الرسول ( صلى الله عليه  
وسلم ) ثم مولده ، ثم معجزاته ، ثم شرف القرآن الكريم ، فالإسراء والمعراج ، ثم  
جهاد الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) والإشادة ببطولة أصحابه ، ثم التوسل  
برسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى .

وأما قصيدة البارودي : فقد أشارت إلى ما اشتملت عليه البردة ، وزادت  
عليها بعض الأفكار الأخرى مثل : رضاع الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ورعيته  
الغنم ، واشتغاله بالتجارة ، وزواجه بالسيدة خديجة ، ووضع الحجر الأسود ،  
والهجرة إلى الحبشة ، وقصة الأراشسي ، وفرض الصلاة ، وقصة سراقه ، والمؤاخاة  
بين المهاجرين والأنصار ، وبناء المسجد النبوي ، بالإضافة إلى ذكر غزوات  
الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) وسراياه كلها تقريبا .

وأما نهج البردة : فلم تشتمل على أكثر مما اشتملت عليه البردة إلا  
زيادتها الحديث عن قرية انتشار الإسلام بالسيف ، والإشادة بالشريعة

(١) الحمدة ج ١ ص ٢٤١ .

الإسلامية ، وحضارة المسلمين .

هذا من ناحية أفكار كل قصيدة ، أما من ناحية ترتيبها ، فالبردة - كما قال أحد الكتاب - مستقيمة النهج ، بينة المعالم ، قاصدة السير ، تأخذ على حسب تتابع المراحل ، ووفق مواقع الأحداث في سلسلة الزمان - غالباً - وكلما خلصت من مرحلة تقدمت إلى التي تليها تباعاً . ولهذا يجد القارىء كأنه معها في رحلة شائقة ممتعة ، لا يتخلل السير فيها غف ولا توقف ، ولا مفاجأة ولا اضطراب (١) .

وليس معنى ذلك أن البردة قد خلت من تقديم فكرة - كان حقها التأخير - على أخرى - كان حقها التقديم - إذ وقع فيها هذا الأمر .

ولعل مما يوهك ذلك أن البوصيري قد مدح الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) حتى وصل إلى مدح التراب الذي دفن فيه ( صلى الله عليه وسلم ) ، ثم يفاجئنا بالحدِيث عن مولده ، كل ذلك في قوله :

لا طيب يمدل تراباً ضم أعظمه

طوبى لمنشق منه وملثتم

أبان مولده عن طيب عنصره

يا طيب مبتدأ منه ومختتم

وأما كشف الغمة : فتمتاز بترتيب أفكارها ، وتسلسل حوادثها . حسب وقوعها ، ولعل سبب ذلك الترتيب يرجع إلى تشييد الشاعر بسيرة ابن هشام كما ذكر - سابقاً - ، " إلا أن مسزية الترتيب التي انفرد بها كانت باباً لفقد الشعر في أكرم القصيدة (٧) . . . وخاصة عند سرد الحوادث ، ولم يخلب فيها الشعر إلا عند الوصف ، وعند مناجاة الوجدان (٨) .

وأما قصيدة : شوقى ( نهج البردة ) : فلا يبدو أن لها طريقاً مرسومة ، ولا محالاً معروفة - حتى قال عنها بعض الكتاب - . . . كأنها في مجموعها

(١) الدين والأخلاق في شعر شوقى ص ٣٩ .

(٧) الموازنة بين الشعراء ص ٢٠٢ وما بعدها .

(٨) المرجع السابق ص ٢٠٦ بتصرف .

الأشياء البهيمية ، يهبط بها من الخارج سياج جامع محيطه ، ولكن لا يكسده  
يوهلف بين مفرداتها من الداخل نط من وحدة الفكرة ، أو تماسك النطق  
أو تساوق الحوادث ، فإذا القارىء معها أبداً فى قلقه ، وتوجس وعناء ، فما  
يكاد يعضى معها وهو يظن أن ستتعاقب الحوادث ، ويسلم السابق منها إلىسى  
اللاحق ، حتى تنقلب به راجمة ، لتلم شمتاء ، أو تتم نقصاً ، أو تذكر ضيماً  
أو تكرر ماضياً . . . . (١) .

ولعل مما يوهك ذلك حديثه عن تعبد الرسول ( صلى الله عليه وسلم )  
فى غار حراء قبل بعثته :

سائل حراء وروح القدس هل علما

مصون سر عن الإدراك ضككم

كم جيئة وذهاب شرفت بهمـ

بطحاء مكة فى الإصباح والقسم

ووحشة لابن عبد الله بينهمـ

أشهب من الأنس بالأحباب والحشم

بسامر الوحي فيها قبل مهبطه

ومن يبشر بسيسى الخير يتسم

ثم ينتقل إلى الحديث عن بعض معجزات الرسول ( صلى الله عليه وسلم )  
بقوله :

لما دعا الصحب يستسقون من ظمأ

فاضت يداه من التسليم بالسقم

وظللكه فصارت تستظل بسـ

فماسة جذبتها خيمرة الديسم

محبة لرسول الله أشر بهمـ

قماكد المدير والرهبان فى القسم

إن الشائل إن رقت يكاد بهمـ

يفرى الجماد ويفرى كل ذى نسـ

(١) الدين والأخلاق فى شعر شوقي ع ٤٠٠ بتصرف



ثم يناجئته بمودته إلى الحديث عن نزول الوحي مرة بقوله تعالى: ( اقرأ ) ، وموقف قريش من الدعوة فيقول :

ونودي اقرأ تعالى الله قائلها  
لم تتصل قبل من قبلت له بغم  
هناك أذن للرحمن فامتثلات  
أسماع مكة من قدسية النفس  
فلا تسل عن قريش كيف حيرتها  
وكيف نفرتها في السهل والطم

ثم يمدح الرسول ( على الله عليه وسلم ) ، ويتحدث عن القرآن الكريم ، ثم يعود إلى مدح الرسول بالفصاحة والبيان ، ثم يتحدث عن مولده وما صاحبه من حوادث ،

ولا يخفى أن ذلك يشير إلى أن القصيدة خليط من الصعاني، وأشتات من المخاطر ، مما جعل بعض الكتاب يقول : " وهذا يدل على اضطراب الفكرة العامة لدى شوقي وغموض الروية أمام فكره ، وتذبذب المشاعر والانفعالات ، كما يدل على انحدام التجربة لديه ... (١) " ، ويبدو أن ذلك الاضطراب هو الذي جعل شكيب أرسلان (٢) يقول : " ولو استشارني شوقي في هذه المعارضة لهيئته عنها ... (٣) " .

ولقد ذهب بعض الكتاب إلى أن عدم ترتيب أفكارها يرجع إلى " أنها لم تولد في سبحة واحدة من سبحات الإلهام ، ولا نظم عقدها ، وأكل خلقها ، وسويت صورتها ، في لحظة واحدة من إشراقات الوحي ، ودفعات الفيض ، بل نظمت على فترات متقطعة ، وفي لحظات متباعدة ، ففصل الزمن بين تسلسلها ، وقطع بين ارتباطها ، فخرمت الترتيب التاريخي ، والانتظام المنسق ... (٤) " .

- 
- (١) المعارضة في شعر شوقي ص ٢٢٩ بتصرف .
  - (٢) هو شكيب بن حمود بن حسن أرسلان ، أديب عربي ، توفي سنة ١٩٤٦ ( الأعلام ج ٢ ص ٢٥١ ) .
  - (٣) شوقي أو صداقة أربعين سنة ص ٢٠٧ .
  - (٤) مجلة لواء الإسلام ص ٢٥ وما بعدها ، العدد السابع من السنة الرابعة سنة ١٣٧٠ هجرية .

ومهما يكن من شيء ، فإن البارودي قد رتب أفكاره في كشف الغمسة ،  
أكثر من ترتيب البوصيري إياها في البردة ، وشوقى في نهجها .

هذا عن ترتيب الأفكار ، أما عن طريقة معالجتها ، فلم تأخذ شكلا واحدا  
فمثلا : تناول الشعراء الثلاثة فكرة الحديث عن هجرة الرسول ( صلى الله عليه  
وسلم ) ، ولكنهم لم يشيروا إلا إلى مشهد الفار والرسول بداخله وهذه الصديق  
وعلى باب المنكبوت والحمام ، فقال البوصيري :

وما حوى الفار من خير ومن كرم

وكل طرف من الكفار عنه عسى

فالصديق في الفار والصديق لم يرما

وهم يقولون ما بالفار من أرم

ظنوا الحمام وظنوا المنكبوت على

خير البرية لم تسج ولم تحم

وقاية الله أغت عن مضاعفة

من الدروع وعن عال من الأطم

ولا يخفى أن الشاعر قد اكتفى بالمعنى الشائع ، والقصة المعروفة ، فالنبي  
وصاحبه في الفار ، والكفار عندما ذهبوا إلى الفار ، ووجدوا خيوط المنكبوت  
مضوجة على باب ، والحمام ها دي في عشه أمامه ، ظنوا أنهما على باب الفار  
من زمن بعيد ، ثم أتى بقول حكيم يدل على السر في نجات الرسول وصحبه ،  
وهو عناية الله التي أغت عن الدروع القوية ، والحصون الحصينة .  
وقال البارودي :

وجاء الوحي إذ أنا بهجرته

فيم الفار بالصديق في الفهم

ثم يتحدث عن الحمامتين في ثمانية أبيات تقريبا بقوله :

فما استقر به حتى تسواه

من الحمام زوج بارع الزنم

بني به عشه واحئلته سكا

ياوى إليه غداة الريح والرهم

إفان ما جمع المقدار بينهما  
إلا لسر بصدر الفار مكتم  
كلاهما ديدبان نوق مرصاة  
يرعى المسالك من بعه ولم ينم  
إن حن هذا غراما أودعا طربا  
باسم الهديل أجابت تلك بالنخم  
يخالها من يراها وهي جائمة  
في وكرها كرة طساء من آدم  
إن رفرقت سكت ظلا وإن هبطت  
روت غليل الصدى من حائر شيم  
مرقومة الجيد من مسك وظليمة  
مخضوبة الساق والكفين بالعنم  
كأنما شرعت في قاني سرب  
من آدمي فخذت محمرة القدم

ففي هذه الأبيات يشير البارودي إلى صوت الحمامتين الجميل ، وإلى  
بنائهما عشا على باب الفار ، كما يشير إلى أن القدر هو الذي جمع بين هذين  
الإثنين لسر يطمه الله ، وشبههما بحارسين رواهيان المسالك من بُعد ، بالإضافة  
إلى هجرهما النوم ، ويفنيان باسم الهديل ، ثم شبه إحداهما بكرة من البطد  
طساء ، محلقة الجيد ، مخضوبة الساق والكفين باللون الأحمر ، كأنما شرعت فسي  
دموعه الحمراء ،

ثم انتقل إلى الحديث عن المنكبوت وخيوطه فقال :

وسجف المنكبوت الفار محتفيا  
بخيمة حاكها من أهدع الخيم  
قد شد أطنايها فاستحكمت ورست  
بالأرض لكتها قامت بلا دعائم  
كأنها سايرى حاكه لبيق  
بأرض سايسور في بحرودة العجم

وأرت فم النار عن عين تلم به  
فصار يحكى خفا وجه ملتئم

فياله من ستار دونه قمر  
يجلو البصائر من ظلم ومن ظلم

فظل فيه رسول الله ممتكنا  
كالدرد في البحر أو كالشمس في الغمم  
إن خيوط المنكوت تشبه الخيمة المتينة النسيج ، كما أنها سدت  
وجه النار فأشبهه وجه الملتئم ، ثم تعجب البارودي من هذا الستار السدي  
دونه قمر، وهو الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أو هو كالدرد في البحر، أو كالشمس  
وراء السحاب.

ثم قال :

حتى إذا سكن الإرجاف واحترقت  
أكباد قوم بنار اليأس والوفغم

أوحى الرسول بإعداد الرحيل إلى  
من عنده السر من خل ومن عشم

وسار بعد ثلاث من مهاجرتهم

يوم طيبة مأوى كل معتصم

إنه يبين أن الرسول لم يخرج من النار إلا بعد أن يشك الكفار من  
وجوده ، بل لقد احترقت أكبادهم غيظا وغما ، وأمر بإعداد الرحلة ، ثم خرج  
من النار - بعد ما مكث فيه ثلاثة أيام تقريبا قاصدا المدينة المنورة بنوره .

ونكدا وقف البارودي طويلا مع ذلك المشهد الرائع (١) ، ولم يعر عليه سريعا

كما مر البوصيري من قبله ، ولا كما مر شوقي من بعده ، إذ قال :

سل عصبة الشرك حول النار سائمة

لولا مطاردة المختار لم تسم

هل أبصروا الأثر الوضوء أم سمعوا

همس التسابيح والقرآن من أم

(١) انظر ص ٣٩٣ وما بعدها من هذه الرسالة .

وهل تمثل نسج المنكوت لهم  
كالغاب والحائثات الزغب كالرخم  
فأدبروا ووجوه الأرض تلمنهم  
كماطل من جلال الحق ضهرهم  
لولا يد الله بالجارين ما سلمنا  
وعينه حول ركن الدين لم يقم  
نواريا بجناح الله واستترا  
ومن يضم جناح الله لا يضم

لقد سخر شوقي من المشركين الذين كانوا يبحثون عن الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) حول الخار فشبهم بالساعة، ثم أشار إلى معنى الكلم الطيب، الذي يسمونه ، والنور الوضوء الذي يرونه ، ولكنهم يعجزون عن الوصول إلى مصدره ، أو ذلك إذ تحيل إليهم أن نسج المنكوت غاب كئيف ، كما أن الحمام النواذع تمثل أمامهم طائرا جارحا، ولما يشعوا من الوصول إلى هدفهم ، رجعوا إلى ديارهم مهزومين كما يهزم الحق الباطل ، أضف إلى ذلك أن وجوه الأرض كانت تلغظهم ، ثم أشار شوقي إلى أن عناية الله هي التي حفظت الرسول وصحبه ، لأنها كانت مع الله ، ومن كان مع الله ، كان الله معه .

وهكذا مر شوقي على المشهد بسرعة ، لكن مروره لم يخل من روعة التشبيه الجميل ، والاستعارة اللطيفة (١) .

محد : فلقد اضطررت إلى الوقوف مع تلك الفكرة طويلا لأوضح أن الشعراء الثلاثة كانوا يتناولون فكرة واحدة ، ولكن تناولهم لها يختلف وضوحا وخفا ، وقوة وضمنا ، وحقيقة وخيالا (٢) .

وليس معنى ذلك أن ذلك كان ديدنهم في كل الأفكار ، لا ، بل كانوا أحيانا - يتناولون بعضها بخير زيادة تذكروا ، ومن ذلك تقربهم إلى الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) باشتراكهم معه في الاسم ، فقال البوصيري :  
فإن لي ذمة منه بتسميتي

محمدا وهو أوفى الخلق بالذم

(١) المرجع السابق ص ٢٢٢ وما بعدها . (٢) الموازنة بين الشعراء ص ٢٠ وما بعدها .

وقال البارودي :

أم كيف يخذلسني من بعد تسميتي  
باسم له نى سما العرش محترم<sup>(١)</sup>

وقال شوقي :

يا أحمد الخير له جسامه بتسميتي  
وكيف لا ينسام بالرسول مسمى

ولا يخفى أن البوصيري هو صاحب الفكرة ، وقد تحمته البارودي ، ولحقهما شوقي<sup>(٢)</sup> .

### ٢- الوحدة العضوية :

يراد بالوحدة العضوية : اندماج عناصر القصيدة ، واتحاد أجزائها ، وحبكة صياغتها ، وتتمثل صياغتها ، بحيث تبدو كلا مجما لا أجزاء ، معددة ، وحيث لا يمكن أن تحذف شيئا موجودا فيها أو تضيف شيئا غير موجود ، كما لا يمكن أن تقدم متأخرا ، أو تؤخر مقدما ، وتبقى القصيدة بخير خلل<sup>(٣)</sup> .

ولعل تلك التسمية تشير إلى تشبيه القصيدة بالإنسان في تلاحم أعضائه وتسميقها في خلقته تسميقا منظما ، بديعا ، بحيث لا يمكن أن تهنى له وسامة خلقته ، واعتدال تكوينه ، إن نقص أو اختل عضو من تلك الأعضاء<sup>(٤)</sup> ، وهذا ما أشار إليه كبير من النقاد القدامى والمحدثين<sup>(٥)</sup> ، ومن ذلك ما ذكره ابن رشيق عن الحائمي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ " ٠٠ " فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمضى انفصل واحد عن الآخر ، وبإينه في صحصصة التركيب قادر الجسم ذاعاثة تخون محاسنه ، وتعنى معالم جماله " ٠٠<sup>(٦)</sup> .

(١) انظر ص ٤٥٤ من هذه الرسالة .

(٢) الموازنة بين الشعراء ص ٢٠١ .

(٣) اتجاهات النقد الأدبي العربي ص ٢٥٥ بتصرف .

(٤) في النقد الأدبي الحديث ص ٣٠٧ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٠٨ وما بعدها .

(٦) الصلوة ج ٢ ص ١١٧ .

وقول العقاد : " . . . فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي ، يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ، ولا يخفى عنه غيره في موضعه ، إلا كما تفنى الأذن عن العين ، أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة . . . " (١) .

وإذا كان بعض النقاد قد جعل من شروط الوحدة العضوية نفسى القصيدة أن تتناول فكرة واحدة ، أو غرضا واحدا (٢) فهل معنى ذلك أن البردة وكشف الغمة ونهج البردة قد دخلت كلها من الوحدة العضوية ، لأنها قد اشتملت على كثير من الأفكار يجمعها غرض واحد ، وهو مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) - كما سبق - (٣) .

ويبدو أن ذلك الاتجاه ليس محل إجماع النقاد ، إذ ذهب بعضهم إلى أن تعدد أفكار القصيدة لا يتعارض مطلقا مع وحدتها ، وتربطها . . . . .  
تربطها متينا محكما ، لأن وحدة القصيدة قائمة على أساس من تربط الأجزاء فكريا بعضها ببعض . . . . . (٤)

أخف إلى ذلك أن الشاعر يتصور عمله وحدة متلاحمة الأجزاء ، يسلم الواحد منها إلى صاحبه ، ويتقدم الواحد منها على أخيه لعلة نفسية ، وسبب نفي (٥) .

ولعل ما يؤكد ذلك قول ابن طباطبا المتوفى سنة ٢٢٢ هـ : " . . . يجب أن تكون القصيدة كلها كلمة واحدة ، في اشتباه أولها بآخرها : نسجا وحسنا وفصاحة . . . ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعانسي خروجا لطيفا (٦) . . . بالطف تخلص ، وأحسن حكاية ، بلا انفصال للمعنى الثانى عما قبله ، بل يكون متصلا به ، وصمتزجا معه . . . " (٧) .

- 
- (١) عباس العقاد والمازنى : الديوان في النقد والأدب ج ٢ ص ٤٥ وما بعدها مطبعة مصر سنة ١٩٢١ . (٢) الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي : وحدة القصيدة في الشعر العربي ص ٥٥ ، ٦٩ مطبعة المنيرة بصر سنة ١٩٥٢ .  
(٣) انظر ص ٨١ وما بعدها من هذه الرسالة .  
(٤) في النقد الأدبي الحديث ص ٣١١ بتصرف .  
(٥) المرجع السابق ص ٣١٢ .  
(٦) ابن طباطبا : عيار الشعر - تحقيق طه الحاجرى ومحمد سلام - ص ١٢٤ المكتبة التجارية بصر سنة ١٩٥٦ .  
(٧) المرجع السابق ص ٦ .

وعلى هذا تكون الوحدة الموضوعية قد وجدت في البردة وكشف الغمسة  
وضيح البردة، وإن **تفاضلت** قسوة، وضمنا، إذ هي في كشف الغمسة أقوى  
منها في البردة ونهجها، كما سبق بيان ذلك عند الحديث على ترتيب أفكار  
تلك القصائد (١).

ولقد ذهب بعض الشعراء إلى اشتراط الوحدة الفنية في القصيدة  
لا وحدة الغرض والموضوع، وهذا ما نسبته بعض النقاد إلى الشاعر الزهاوي  
المتوفى سنة ١٩٢٦، عندما ذكر أنه - الزهاوي - قال: " من الشعراء  
المصريين من لا يجوز أن تشتمل القصيدة على مطالب مختلفة، كأنه يفضل  
أن تكون الروضة قد أنبتت شكلا واحدا من الزهر، ولكني لا أرى رأيه، وأى  
لوم على من أطال قصيدته، وجملها في مطالب مختلفة، تربط بعضها ببعض  
مناسبات بينها ٠٠٠ فيتفتح القارئ أو السامع بألوان مختلفة من الأدب فـ  
القصيدة الواحدة، نعم إن الشاعر إذا بدأ يصف شيئا وجب عليه أن يستوفى  
ذلك الوصف، ثم ينتقل إلى غيره، وكذلك إذا شرع يروي قصة وجب عليها ألا يخرج  
من الموضوع إلا بحد إعطائه حقه ٠٠ (٢) وذكر أنه قال أيضا: " وهنالك  
شيء يستحقه الذين تشبهت أدمغتهم بالأدب الغربي، هو وجوب أن تكون  
القصيدة الواحدة خاصة بفكرة واحدة، أو وصفا لشيء واحد، من غير خروج إلى  
غير الموضوع، وهذا ليس من الشعر نفس أصله، بل تابع للأذواق، ولطريقة  
الشاعر في شعره، ولا ينوع الشاعر المبرز في العربية الموضوع في كل قصيدة،  
فكثيرا ما يحصر شعره في القصيدة الواحدة في موضوع واحد، وإذا نوع الموضوع  
فهو يتسلل إلى الثاني بنسبة ومدد فصله من الأول، مريدا بذلك أن تكون  
قصيدته كالمروضة الخنا، محتوية على مختلف الأزهار، وهذا أقرب إلى الطبيعة،  
وليس فيه ما يؤخذ عليه غير كونه ينافي ما يفعله شعراء الغرب، ولكل أمة سياق  
ونزعة ليست لأختها (٣).

وأرى أن ذلك الرأي لا غار عليه ما دام الشاعر سينتقل من فكرة إلى أخرى  
بينهما مناسبة، ويوفى كل فكرة حقه، وتتدرج هذه الأفكار كلها تحت غرض واحد،

(١) انظر ص ٦٩٦ من هذه الرسالة • (٢) وحدة القصيدة في الشعر العربي ص ٢٢ •

(٣) المرجع السابق ص ٢٢ •



وهذا ما أكده العقاد بقوله : " إن القصيدة تكون كلا واحدا ، ذا موضوع تنحصر فيه الأغراض ، ولا تفتن حتى ينتهي موداها وتفرغ جوانبها وأطرافها جميعا ، وذلك إذ اطال نفس الشاعر ، واستقصى معناه ، واسترسل فيه . . . (١) " كما ذكر بعض النقاد " أن الوحدة المطلوبة في الشعر إنما هي الوحدة الفنية لا الوحدة العضوية ، وتلك الوحدة الفنية تتكامل القصيدة ، وتدب فيها الحياة (٢) . "

#### ٤ - العاطفة :

والمراد بالعاطفة في فن الشعر هي تلك الحالة التي تشبع فيها نفس الشاعر بموضوع أو فكرة أو مشاعرة ، وتؤثر فيه تأثيرا يدفعه إلى التعبير عن مشاعره ، والإعراب عما يجول بخواطره (٣) .

وللعاطفة أهميتها في النص الأدبي ، إذ هي عنصر من أهم عناصره وبها يتميز الأدب الصادق من الأدب الزائف ، فأما الأدب الصادق فيكون تعبيرا عن عاطفة قوية ، تجيش بنفس الأديب ، وأما الأدب الزائف فهو أدب - خدمت عاطفة صاحبه ، ويحتاج إلى الصدق الشعوري (٤) .

وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن عاطفة البوصيري وصاحبه ، أكانت صادقة عندما نظموا قصائدهم الثلاث أم غير صادقة ؟

لا يخفى أننا لو تأملنا حياة الشعراء الثلاثة لوجدنا أنهم يشتركون في صفات كثيرة منها : إيمانهم بالله ورسوله ، وإعجابهم ببطولة الرسول وأصحابه وكفاحهم ضد المشركين ، ولا شك في أن مثل هذه الصفات تحرك العاطفة وتشير الإحساس ، إلا أن عاطفتهم تفاوتت - قوة وضعفا - في قصائدهم لصفات انفرد بها كل واحد منهم عن الآخر .

(١) عباس العقاد : ابن الرومي - حياته من شعره ، ص ٢١٦ المطبعة التجارية  
بمصر سنة ١٩٥٠ .

(٢) اتجاهات النقد الأدبي العربي ص ٢٦٦ .

(٣) الدكتور محمد خفاجي : دراسات في النقد العربي الحديث ومذاهبه ج ٢ ص ٣

بتصرف - دار الطباعة المحمدية بمصر ( غير مؤرخ ) .

(٤) الإسلام في شعر شوقي ص ١١٢ بتصرف .

فالبوصيري - في برده - أقوى من طاجية الطائفة - في قصيدته هما -  
- ولعل مرد ذلك إلى ظروف إنشائه القصيدة ، إذ كان - كما قيل - مريضاً  
يثقله الداء ، وتضنيه الملة ، فنظم البردة لعلها تكون وسيلة إلى إبرائه ،  
وسبباً في شفاؤه (١) ، أضف إلى ذلك تأثيره بما وقع في عصره من حروب  
صليبية ، وفتن واضطرابات ، من شأنها أن توقد العاطفة ، وتلهب المشاعر  
ولذلك يقول بعض الكتاب : " إن تتابع الويلات يوقد العاطفة الدينية ، ويجعل  
الناس يلجأون إلى ربهم ، ويتوسلون بنبيهم ، (صلى الله عليه وسلم) يبتغون  
النجاة .. (٢) "

أضف إلى ذلك حفظه القرآن الكريم ، بل لقد أنشأ كتاباً - بضم  
الكاف - يحفظ فيه القرآن نظراً لشدة فقره ، كما انتسب إلى السادة  
الشاذلية على يد أبي العباس المرسي ، ولا شك في أن كل هذه الأمور  
كان لها أثر كبير في صهر عاطفة البوصيري ، وإثارة مشاعره ، ولعل مما يشير  
إلى ذلك تلك الزفرات الحارة في قوله :

واستفرغ الدمع من عيين قد امتلأت  
من المحارم والنرم حمية الندم  
وخالف النفس والشيطان واعصهما  
وإن هما محصنك النصح فاتهم  
ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً  
نأنت تعرف كيد الخصم والحكم  
أستغفر الله من قول بلا عمل  
لقد نسبت به نسلاً لذي عقم

وإنما كان من مظاهر قوة العاطفة - كما قال بعض النقاد - " أنها  
تهيج في نفوس القراء أصداء لها .. (٣) " ، فمن ذا الذي يقرأ قول البوصيري :  
أطمعت غنى الصبا في الحاليتين وما  
حصلت إلا على الآثام والندم

(١) انظر ص ٦٩ من هذه الرسالة .

(٢) شوقي شعره الإسلام ص ١٨٢ .

(٣) الإسلام في شعر شوقي ص ١١٤ .

فياخسارة نفس في تجارتها  
لم تشتت الدين بالدنيا ولم تسم

أقول من ذا الذى يقرأ ذلك القول ، ولم تتأثر نفسه ، ولم تخجل  
جوارحه ، ولم يشرب الندم إلى قلبه ، ولم يقبل على طاعة ربه ، بل من ذا الذى  
يقرأ قوله :

يانفس لا تقنطى من زلّة عظمت

إن الكبائر فى الفجران كاللحم

لعل رحمة ربى حين يقسمها

تأتى على حسب المصيان فى القسم

أقول من ذا الذى يقرأ ذلك القول ، ولم يطمع فى رحمة الله ، ولم  
يأمل أن ينال مغفرته ، إن هذا كله دليل على قوة عاطفة الشاعر فى قصيدته  
ومما يؤكد ذلك هذا العدد الكبير من الناس الذى يقبل عليها قراءة وحفظا .  
والجدير بالذكر أنه لا يلزم من قوة العاطفة أن تكون نائرة مضطربة  
كما يشمر بذلك لفظ (قوة) ، بل قد يكون الأدب هادئا رزينا . ومع ذلك  
يحمل قارئه على الإرتباط به ، وهذا ما أشار إليه بعض النقاد ، وأكد به بقوله :  
" إن المقصود من قوة العاطفة . . . قدرة النص على إيقاظ نفس قارئه أو سامعه (١) "

ولعل هذا هو الذى دفع المسئولين فى وزارة الثقافة والإعلام إلى إقامة  
ما أسماه ( أسبوع البوصيرى ) إذ أنشد بعض الفنانين كثيرا من شعر البوصيرى  
فى المدائح النبوية ، وبخاصة من البردة ، ولقد شاهدت تلك الأمسية كثيرا من الناس  
وأعجبوا بها مع اختلاف ثقافتهم (٢) .

وكذلك كانت عاطفة البارودى قوية فى قصيدته ( كشف الخمة ) ، ولعل  
ذلك يرجع إلى شدة شبه الأسباب والدوافع التى دفعتها إلى إنشاء هذه  
القصيدة بالأسباب التى دفعت البوصيرى إلى إنشاء قصيدته .

كأن البارودى - عندما نظم قصيدته - منقيا ، تساوره آلام الفريسة ،

(١) فى النقد الأدبى الحديث ص ١٤٥ ، ١٤٧ .

(٢) انظر صحيفة الأهرام المصرية الصادرة فى ٧٧/٩/٩ ص ٣ ، ص ١١ وصحيفة

الأخبار المصرية الصادرة فى ١٦٧٧/٩/٤ ص ١ .

ومرارة الوحشة وتحزنى نفسه قسوة النفى ، وقد شاقه الأهل والأحباب ، وأخذت  
بله الديار والأوطان ، ولكن لا معين ولا نصير ، وانقطعت أسباب الأمل ،  
واصطلحت عليه الخطوب ، وتزاحمت لديه الكرب فأكب على إنشاء هذه القصيدة  
وقصد بها أن تكون ضراعة إلى ذى الجلال والإكرام ، ليكشف بها غصته ، ويزيل  
بسببها كربته ، ويذهب محنته (١) .

ولقد جرد الشاعر من ماله وألقابه ، ونفى من دياره ، وترك أهله  
وخلانه ، وماتت زوجته ، كما فقد بعض أولاده ، وبعض أصدقائه ، فحزن  
عليهم حزنا شديدا ، كان سببا في مرضه الذى اشتد به ، ولا يخفى أن كل  
هذه الأمور من شأنها أن تقوى الماطفة ، وهو كذا ذلك بعض النقاد بقوله: "موت  
المزيب ، والمرض القسوى ، والحرب الصدمية ، والمدو القالمة .." والصاحب  
المنافق ، والخسارة الفادحة ، وغير ذلك مما من شأنه أن يحدث في النفس  
ندوبا عميقة الغور ، تهيج المشاعر ، وتدفعها إلى القول والتنفيس  
عن آلامها ، والتعبير عن همومها ، تعبيرا فيه من صدق الإحساس ما يهبه  
القوة ، ويضحه الخلود (٢) .  
ولعل قول البارودي :

تكا بدنى خطوب لورميت بهيسا  
ضالك الأرض لم تثبت على قدم  
في بلدة مثل جوف الصير لست أرى  
فيها سوى أم تخنو على صقم  
لا أستقر بها إلا على قلمسقى  
ولا ألد بها إلا على ألسم  
إذا تلفت حولي لم أجد أنسرا  
إلا خيالي ، ولم أسمع سوى كلبي  
فمن يرد على نفسى لانتبهيسا  
أو من يجير فؤادي من يد السقم

(١) الشعر في العصر الحاضر وأثر البارودي فيه ص ٨٠ ٩٠

(٢) في النقد الأدبي الحديث ص ١٢٧ وما بعدها بتصريف .

أقول لعل ذلك القول يوضح ما في نفس الشاعر من جراحات ، وما نسي  
قلبه من هموم ، بل إنه ليؤكد ذلك بقوله :

إني وإن مال بي دهرى وجرج بسى  
ضم أشاط على جمر النوى أدي  
لثابت الصهد لم يحلل قوى أطمسى  
يأس ولم تخط بي نى سلوة قدمى  
لم يترك الدهر لى ما أستعين به  
على التجمل إلا ساعدى ونمى

إن عاطفة الشاعر قوية في قصيدته بحامة ، ولا ينانى ذلك أنهمها  
ضجفت في بعضها بسبب نظمها على نسق سيرة ابن هشام ، إذ لم تلبث أن  
ظهرت قوية في تضرعه إلى ربه في مثل قوله :

شكوت بشى إلى ربي لينصفنى

من كل بساغ عتيد الجور أو همكم

أضف إلى ذلك : أن استمرار - قوة - الماطفة صعب في الملاحم  
الطويلة (١) . كما قال بعض النقاد ، ويؤكد ذلك قول بعض الكتاب : " وإذا كانت  
درجة حدتها - الماطفة - تختلف من مقطع إلى آخر .. فإن هذا الاختلاف  
لا يشمر القارىء بأن الماطفة تتوارى أو تفيض .. " (٢) .

ولعل مما ساعد على قوة عاطفة البارودى في قصيدته أنه نظمها نسي  
كهولته وغزبه - بعد أن مرت فترة شبابيه بما كان فيها من لهو والشباب إذا  
صح ما أشار إليه بعض الكتاب (٣) ، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الشاعر يخطبها  
الجمعة في بعض مساجده ضفاه ، ويعلم الناس القرآن الكريم ، واللغة العربية  
- كما سبق - (٤) .

(١) دراسات في النقد العربي الحديث شوذاهيه ج ٢ ص ٣٨ .

(٢) الإسلام في شعر شوقي ص ١١٤ .

(٣) مقدمة ديوان البارودى ج ١ ص ١٨ ، والبارودى رائد الشعر الحديث ص ١٨٣ .

(٤) انظر ص ٢٤٤ من هذه الرسالة .

أما شوقي فكان الضعف غالبا على عاطفته في نهجه ، ولعل ذلك يرجع إلى مناسبة نظم تلك القصيدة ، إذ نظمها كما قال : ( تذكارا لحج الخديوي ) ، وهذه مناسبة طيبة ، إلا أنها لا توجب العاطفة ، ولا تلهب الإحساس ، بخلاف ما لو كان شوقي نفسه هو الذي أدى الحج ، أضف إلى كل هذا ظروف أخرى أحاطت بالشاعر من شأنها أن تقلل من قوة عاطفته ومنها : هروبه من الخديوي عندما خرج معه للحج ، ما دعا ابنه إلى أن يقول عنه : " ألم يكن أبي أنانيا عندما تخلى عن الخديوي حين سافر سموه إلى الحجاز ليؤدي فريضة الحج ؟ (١) " فمن ذا الذي تتاح له تلك الفرصة الطيبة ، ثم يهرب منها ولا ينتهزها .

أضف إلى ذلك أن الشاعر نظم تلك القصيدة وهو في ريمان شبابه ، وكان كما قال عنه أحد أصحابه : " عرفته ولم يكن يشرب من الخمر إلا كأسين عقب انقلابه إلى داره في الثانية صباحا .. (٢) " وكان ذلك في آخر أيام حياته ، أما قبل ذلك فكان " يشرب ثلاثين كأسا في اليوم الواحد .. (٣) " ، ويؤكد ذلك بقوله : " ومن المستغرب أن شاعرنا - شوقي - نظم كل قصائده الدينية ، ومن بينها البردة وهو في ظل شبابه ، وفي إبان عبثه ولهيهوه وكلفه بالخمرة ، واختلافه إلى ملاعب اللهو .. (٤) " .

ولعل هذا هو الذي دعا الدكتور زكي مبارك إلى أن يقول : " .. وأين شوقي من البوصيري ؟ لقد كان البوصيري من أئمة الصوفية ، أما شوقي فقد كان حين نظم قصيدته من رجال البلاط ، وكان يحسن أن يقول :

رمضان وليّ هاتها ياساقسى

مشاققة تسمى إلى مشتاق (٥)

كما أشار بعض الكتاب إلى مثل ذلك مؤكدا ضعف عاطفة شوقي في المدائح النبوية بحامه ، فقال : " .. وقد أطلت النظر في المدائح النبوية وأطلت التفكير في مسالك الشعراء فيها ، وقد اهتمت إلى أن هذه المدائح

(١) أبي شوقي ص ١١٠ .  
(٢) المرجع السابق ص ٢١٦ و ٢٢٣ .  
(٣) المرجع السابق ص ١١٤ .  
(٤) الموازنة بين الشعراء ص ٢١٥ ، والشوقيات ج ٢ ص ٦٢ .  
(٥) حياة شوقي ص ٣٠ .

ترجع إلى منبهين أساسيين :

فمنها مدائح مصدرها العاطفة الصادقة ، المشبوبة ، القوية ، الدافضة ،  
وآية ذلك نوما تحسن فيها من الطبع والصدق ، وقوة الانفعال ، وجيشان  
المشاعر ، وترك النفس على سجيئتها ، ومن أمراء هذا اللون من المدائح  
••• البوصيري •••

ومنها مدائح مصدرها العقل ، وفي هذا اللون تتجلى الصنعة  
والتكلف ، كما نراه في مسالك الشعراء الذين اتخذوا من المديح وسيلة  
لإظهار براعتهم في النظم ، وأبعد من ذلك في التكلف ، وكسذب  
العاطفة ، أن تتخذ هذه المدائح وسيلة لتحمية فنون المديح ••• ومن  
أبطال هذا الفن صفي الدين الحلبي وابن حجة الحموي .

كما أنى أحد من هذا النوع - المدائح التي مصدرها العقل - هذا  
الشعر الذي ••• يفقد الروح الدينية الخالصة العميقة ، وكثير من قصائد  
المديح من هذا القبيل ، ومن ذلك مدائح شوقي ، وهذا الرأي يشاركني فيه  
كل ذواق للشعر ، وكل ذي إحساس صادق بمواطن الصدق والتزييف في المواضع  
كما أنه يريحنا من خبط النقاد والكاتبين ، فقد أرادوا أن يوثقوا بين انكباب شوقي  
على الملاهي واللذات ، وأخذه منها بالنصيف الموفور ، وبين قوله في مدح الرسول  
وفي الأغراض الدينية بحامة ، فقال قائل : إن ذلك من ازدواج الشخصية ••• وقال  
آخرون : إن شوقي قال هذه القصائد بعد أن ودع طيبات الحياة ، وتقدمت  
به السن ، وهذا فيما أعتقد جهل بالتاريخ ، فما أعرف أن الشاعر تخلى عن طيبات  
الحياة ، وأعرف أن بعض هذه القصائد قالها وهو يخذى شاعريته بالمصطفى  
والكبير .

ولست أستبعد أن يتوب المذنب ••• ولكن شعر شوقي ••• لا يدل على  
أن الرجل - شوقي - متدين ، وإنما كان شاعرا كبيرا يمجده بطلا عظيما ••• (١)

(١) مجلة الأزهر - المجلد ٢٢ ج ٤٤٣ سنة ١٢٨٠ ص ٢٦٦  
بتصرف

وليس معنى ذلك أن قصيدة شوقي - نهج البردة - قد خلت كل أبياتها من العاطفة القوية ، كلا ، إنك تحس بتلك العاطفة القوية في ندم الشاعر بخاصة ، ولعل ذلك هو ما أشار إليه بعض النقاد بقوله : " ومن هنا منحته له - لشوقي - الفرصة ليؤفر تلك الزفرة الحارة ، ويرى بذلك الندم الموجع الذي يذيب لفائف القلوب ، وانظر كيف يقول :

إن جل ذنبي عن الشفران لي أمل

في الله يجعلني في خير محتصم

وكان شوقي أوفر الناس إحساسا بخطر ذنبه ، وكرم ربه ، حين قال :

وإن تقدم ذو تقوى بمالحة

قدمت بسين يديه عبرة الندم (١)

٥ - الخيال :

وهو - كما قال بعض النقاد : " القوة التي تنفث في الأدب الحياة والحركة ، وتحدثه بالصور الوفيرة المصجمة لإحساس الأديب ومشاعره ، والتي تساعدنا على الإحساس بالتجربة الأدبية التي مر بها الفنان .

وهو عامل مهم من عوامل الإثارة الفنية ؛ لأنه عدة الأديب في تجسيم انفعالاته وتجسيد مشاعره . . . ولكنه ليس زينة كزينة الحلى والرياش ، وإن من أخطر الأشياء على الأديب أن يستعمله وشيا وتطريزا لأدبه ، وأن يصبح كالأصداف التي تغز البصر بغيرها دون أن تفضي إلى رمز أو دلالة توحيها (٢) .

وتبدو صور الخيال في النص الأدبي في التشبيه ، والاستمارة والكناية (٣) ، وغير ذلك من الفنون البيانية والهديمية التي ليست غرضا في ذاتها ، ولكنها وسائل لتلك الإثارة النفسية ، ومدعاة لتلك الانطلاقات الفطرية ، ومظاهر مختلفة لانطباعات المواقف المختلفة في نفس الأديب . . . (٤) .

(١) الموازنة بين الشعراء ص ٢١٦ .

(٢) في النقد الأدبي الحديث ص ١٧٢ وما بعدها بتصرف .

(٣) دراسات في النقد العربي الحديث ومذاهبه ج ٣ ص ٤٤ .

(٤) في النقد الأدبي الحديث ص ١٧٨ .



ولا يخفى أن الصورة الخيالية الحية هي المظهر الصادق لانفعال الأديب وأما قدرته الفنية ، وموهبته الأدبية ، ومصدر ذلك كله نفس الأديب ، تلك النفس التي تميزت عن غيرها من النفوس بقدرتها على الحل والتركيب ، واختران المراثيات والمسموعات وغيرها من المحسوسات<sup>(١)</sup> . . . التي تجعل الشاعر يعقد الموازنات والمقارنات والمشابهات بين الأشياء التي لا تتصور عقولنا غير الشاعرة وجود صلة بينهما<sup>(٢)</sup> . . .

وإذا تأملنا برودة البوصيري وجدناها قد اشتملت على صور متعددة للخيال الموحى ، فهو مثلا عند حديثه عن النفس وقف معها وقفة الخبير بأحوالها ، الحلیم بأسرارها ، تأمل كيف أشار إلى رعونتها ، وشدة نفاها بقوله :  
من لي يسرد جماع من غوايتها  
كما يرد جصاح الخيل باللجم

لقد أتى بتشبيه محسوس ، واختاره من الواقع الملموس ، ليؤكد فيه فكرته ، ويرسم صورة واضحة لتلك النفس الأمارة بالسوء ، ولا يخفى أن النفس كما يقول عبد القاهر :  
تطمئن في التشبيه والتشليل إلى الحسى والضرورى والمألوف<sup>(٣)</sup> ،  
ثم تأمل كيف بين الطيرين الصحيح لمعاملة تلك النفس عندما شبهها بالطفل في قوله :

والنفس كالطفل إن تهمله شبعلسى

حسب الرضاع وإن تهطمه ينفظم

كما أنه عند حديثه عن مولد الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) أشار إلى تصدع إيوان كسرى ، كما أشار إلى تفرق أصحاب كسرى في تشبيه جميل في قوله :  
وبات إيوان كسرى وهو منصدع

كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم

والملاحظ أن تشبيهاته - غالبا - واضحة سهلة محسوسة ، مثل : تشبيه آيات القرآن وممانيتها الكثيرة بموج البحر في قوله : ( لها معان كموج البحر في مدد ) وتشبيه الرسول في ليله الإسراء بالبدر ، في قوله : ( سرى البدر في داج

(١) المرجع السابق ص ٢٧٦ . (٢) الدكتور محمد السعدى فرهود : قضايا النقد

الأدبي الحديث ص ١٤٠ مطبعة زهران بمصر سنة ١٩٦٨ .

(٣) أسرار البلاغة ج ٢ ص ١٠٢ .

من الظلم) ، وتشبيهه نفسه عندما اكتسبت بعض المعاصي بالهدى في قوله :  
( كأننى بهما ندى من النسم ) وغير ذلك كثير .

ولم تقل روعة استماراته وكناياته عن روعة تشبيهاته ، تأمل مثلا تلك  
الاستعارة اللطيفة في قوله : ( ظلمت سنة من أحيا الظلام ٠٠ ) إنه يسبين  
أن من ترك سنة الرسول كان ظالما لنفسه ، وهذا حق ٠٠ ثم يوضح أثر قيام  
الليل ، كما يشير إلى عظمة التمسك بالدين الحنيف والقرآن الكريم في قوله :  
( فالمستمكنون به مستمكنون بحبل غير منقسم ) ، وقوله : ( لقد ظفـرت  
بحبل الله فاعتصم ) وهذا قليل من كثير منتشر في البردة .

وأما قصيدة البارودي - كشف الخفة - فقد امتلأت بالخيال الرائع  
والتصوير الجميل ، تأمل كيف شبه الشاعر سرعة مرور القطاة في قوله : ( ٠٠ كلعج  
البرق في الظلم ) ، وفي قوله : ( كأنها أحرف برقية نبضت ٠٠ ) ، كما بين أنسر  
الحقد في قوله : ( والحدق كالنار ٠٠ ) ، ولا يخفى إبداع البارودي في تصويره  
عجزة الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) وحديثه عن الحمام والعنكبوت - كما سبق (١) -  
أضف إلى ذلك عذا التشبيه الجميل الموحى ، وتلك الصورة الرائعة في قوله :

كأنما البيض بالأيدي صوالجسة

يلصن في ساحة الهيجا بالقم

وتلك الكناية الموحية في وصفه جيش المسلمين بأنه : ( عرهم ينسف  
الأرض الفضا ٠٠ ) وقوله : ( بيض أساورة ) ، أضف إلى ذلك هذا التشبيه  
الرائع وتلك الصورة الجميلة في قوله يصف خيل المسلمين :

كأن أفنا بها في الكسر الويسة

على سفين لأمر الريح مرتسم

وتشبيهه رماحهم بقوله :

كأنه أرقم في رأسه حمسة

يستل كيد الأعادي بابتة الرقم

( ١ ) إذ حرمها من ثواب فعل السنة التي تركها .

( ٢ ) انظر ص ٢٦٢ وما بعدها من هذه الرسالة .

وكذلك شوقى فى نهج البردة قد أبدع فى خياله ، تأمل كيف أشار  
إلى طغيان النفس بقوله :

تطغى إذا مكنت من لذة وهوى

طغى الجياد إذا عضت على الشكم

كما أشار إلى تحكم الأقوياء فى الضعفاء وظلمهم إياهم قبل البحثة  
بقوله :

والخلق يفتك أقوامهم بأضعفهم

كالليث بالبهيم أو كالحوت بالهلم

وشبه استقبال الأنبياء رسول الله ليلة الإسراء والتفافهم حوله

بقوله : ( كالشهب بالبدرا أو كالجند بالعلم ) ،

ولا تخفى روعة ذلك التشبيه البليغ فى قوله : ( والجهل موت ) وتلك

الاستمارة الجميلة فى قوله : ( .. وأنت أحييت أجيالا من الرمم ) وفى قوله :

( نبت شعوب من ضيتها .. ) بالإضافة إلى خياله الرائع عند حديثه عن

شجرة الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) - كما سبق (١) -

إن كل ما ذكرته من التشبيهات والاستعارات والكنايات عند البوصيرى

والهارودى وشوقى ، ما هو إلا أمثلة فحسب ، وليست على سبيل الحصر ، والقصائد

الثلاث مليئة بالخيال - وقد أشرت إليه بالتفصيل عند تحليل كل منها - وصوره

فى الخالب صور جزئية ، والشعراء الثلاثة متقاربون فيها .

إلا أننى أرى أن الشعراء الثلاثة قد اشتركوا فى وصف الرسول ( صلى

الله عليه وسلم ) ومدحه بكثير من الأوصاف المتداولة ، كتشبيهه ( صلى الله عليه

وسلم ) بالبحر ، والبدرا والأسد وغير ذلك ما أشار إليه البوصيرى فى مثل

قوله :

كالزعر فى ترف والبدرا فى شرف

والبحر فى كرم ، والدهر فى نعم

(١) المرجع السابق ص ٥٢٢ وما بعدنا .

ومما ذكره البارودي في مثل قوله : ( ٠٠ أنوار غوته كالبدري في البهيم )  
وقوله : ( ٠٠ كالدر في البحر أو كالشمس في النجم ) ، وما ذكره شوقي في مثل قوله  
مخاطبا الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) :

البدري دونك في حسن وفي شرف

والبحر دونك في خير وفي كرم

نعم إن شوقي جعل حسن البدر أقل من حسن الرسول ورفقته ، كما  
جعل البحر أقل من الرسول في الكرم ، ولكن هذا لا يضح من أن هذه  
التشبيهات - التي سبق ذكرها - شائعة اللفظ والمعنى وليس فيها جديد ، وإذا  
كان بعض النقاد قد قال : " ٠٠ لا سبيل للاستغناء عنها ، لأنها تتضمن فضائل  
وأوصاف خالدة ، فالحجاجة والكرم ، وعلو المنزلة ، والجمال ، محاسن لا يختص  
بها جيل دون جيل ، ولا يرضى عنها قبيل دون قبيل ، فالتناس قد يمهم وحديثهم  
في الإعجاب بها سواء ، وسيظل شأنهم كذلك فيما تقدر ، أما تشبيه أصحابها  
بالأسد والثريا والقمر وأمثالها فلا ضير فيه ، مادنا نرى الأسد أشجع  
المخلوقات ، والبحر أغزر الأشياء مادة ، والسحاب أعمها فيضا ، والنجم أعلاها  
مكانا ، والقمر أجملها - في تقديرنا - وجهها ، وأوسعها ضياء ، ولم ترشدنا  
الحياة حتى اليوم إلى ما يفوق تلك الأشياء في خصائصها ، أو ما يماثلها . (١) "

أقول إذا كان بعض النقاد قال ذلك ، فإنني كنت أود أن لا يقتصر الشبها  
على تلك الأوصاف ؛ لأن الاقتصار والتجسس على تلك الألفاظ والمعاني البجطة  
المشتركة عيب ، والتزامها في أغلب المدائح ٠٠ إساءة للشاعر والشعر كما قال  
بعض النقاد (٢) .

ولعل شوقي قد فاق صاحبيه عندما جعل حسن الرسول أكثر من حسن  
البدري ، وكرمه أوسع من كرم البحر - كما سبق - فتصرف في التشبيه بعض التصرف  
الحسن الذي أخرجه من الجسمود بعض الشيء

(١) المتنبي وشوقي ص ٢٦٤

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٤

٦ - الأسلوب :

والمراد بالأسلوب الألفاظ والعبارات وطريقة التأليف بينهما، ليمبر بهما الأديب عن أفكاره ، ويفصح بها عما يجول في نفسه من المواطف والانفعالات ، وليست اللغة وسيلة من وسائل التعبير عن أفكار الإنسان وهواطفه فحسب بل إن اللغة الحية ، تتضمن إلى جانب ذلك خصائص جمالية ، تستروحها النفس ، وتطمئن إليها الأذن ، ولغتنا العربية غنية بأسباب هذا الجمال (١) إذ أن التركيب الموسيقي أصل من أصولها ، ولا ينفصل عن تقسيم مخارجها ، ولا عن تقسيم أبواب الكلمات فيها - فأصبح لها - كما قال العقاد - : من الشعر الموزون نعم مستقل بإيقاعه عن سائر الفنون التي يستند إليها الشعر في كثير من اللغات ، فلا حاجة بالشعر العربي إلى إيقاع الرقص الذي يصاحب إنشاد الشعر في اللغات الأخرى ، لأن أعمار تلك اللغات تستمير الحركة المنتظمة من دقات الأقدام وحركات الأجسام . . . (٢) .

ومهما يكن من شيء ، فإن الحديث عن الأسلوب يتطلب البحث في المفردات ومدى سلامتها ونماحتها ، ومناسبتها للمقام ، والعبارة وما بهما من موسيقى وما تضمنته من وفاء وانسجام ، ومدى مناسبتها للتجربة التي تمسب عنها - وما فيها من ظلال وإيحائات توتج لها النفس بالإضافة إلى بيان ما في الأسلوب من عنات وقصور ، أو غموض واضطراب .

وبعد دراسة قصيدة كل من البوصيري والهارودي وشوقي - فيما سبق - أستطيع أن أقول : إن ألفاظها بحامة جيدة ، جامعة للرقعة والجزالة ، والسهولة والطلاوة ، وهذا يظهر بوضوح عند الوقوف على ما وضعه بعض النقاد من مقاييس يقيسون بها الكلمة المستعملة في الأساليب الأدبية (٣) بعد مراعاة ما قرره علماء البلاغة في فصاحة الكلمة - من خلوصها من تنافر الحروف ، والفراصة ، ومخالفة القياس (٤) - ومن ذلك :

- (١) في النقد الأدبي الحديث ص ١٦٨ .
- (٢) العقاد : اللغة الشاعرة ص ٣١ وما بعدها مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٠ .
- (٣) في النقد الأدبي الحديث ص ١٦٨ .
- (٤) التلخيص ص ٢٤ وما بعدها .

أ - الدقة :

أى دقة الكلمة فى أداء المصنف الذى يريد الشاعر ، أو الأدبى سببه وذلك لأن الكلمات برغم ما قد يبدو فيها من ترادف ، يكون بعضها لعل على إحساس الشاعر من بعض<sup>(١)</sup> ، وهذا واضح فى أغلب الكلمات بالقصائد الثلاث ، فمثلا فى قول البوصيرى عن آيات القرآن الكريم :

ما حوريت قط إلا عاد من حرب

أعدى الأعداى إليها ملقى السلم

نجد أن كلمة ( حوريت ) تشير إلى ما كانت تلاقيه تلك الآيات من عنت المشركين والوقوف فى سبيلها بكل ما يمكنهم ، ولكنها سرعان ما تتمكن من شفاف قلوبهم ، فيحسون بروعتها ، ويصترفون بجلالها وشرفها .  
ونجد مشى ذلك فى قول البارودى :

وكان ذا رمد فارتد ذا بصير

بنفثة أبرأت عينيه من روم

إنه يشير إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه - عندما أعابه رمد فى غزوة خيبر ، ولما طلبه الرسول ليعطيه الراية ، قال له الصحابة : إن به رمسدا فتغلى الرسول فى عينه فبرئت ، وأراد البارودى أن يبين مصجزة الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) فى ذلك الأمر ، فقال : ( بنفثة ) ألا ترى أن فى ذلك اللفظ النكرة إشارة إلى سرعة الشفاء بسبب هذه النفثة الصغيرة .

وفى قصيدة شوقى أيضا ما يدل على دقة ألفاظه ومن ذلك قوله :

لا يهدم الدهر رقا شاد عدلهم

وحائظ البغى إن تلمسه ينهدم

فالشاعر يشير إلى قوة أسس الشريعة الإسلامية التى بنى عليها المسلمون حضارتهم ومنها العدل ، ثم ذكر أن البناء الذى يقوم على العدل لا يستطيع الدهر هدمه ، أما حائظ الظلم فمهما كانت قوته ، ( إن تلمسه ينهدم ) ، ولا يخفى أن لفظ ( تلمسه ) يدل دلالة قوية على ضعف ذلك البناء ولا شك فى أن الشاعر قد أحسن فى اختياره ذلك اللفظ ليصبر عن فكرته .

(١) فى النقد الأدبى الحديث ص ٢٠٠ .

ب - الإيحاء :

وممناه قدرة الكلمة على أن تشير جملة انفعالات قوية جميلة إلى جانب ما توديه من معنى - كما قال بعض النقاد - لأن بعض الكلمات تتحمل شحنة عاطفية غامرة ، تستشفيها منها النفس إلى جانب ما يفهم منها الفكر<sup>(١)</sup> ، ومن ذلك قول البوصيري : ( يارب واجمل رجائي غير منكس . ) وقول البارودي : ( وصل رب على المختار . ) وقول شوقي : ( يارب أحسنت بعدد المسلمين به . ) فالشمر الثلاثة ذكروا لفظ ( رب ) ، وهو يشير إلى الاعتراف بالربوبية ، ويوحى بالخضوع والخشوع لله ، بالإنيابة إلى حسن الظن به سبحانه وتعالى ، لأنه هو الذي ربانا ، وعطف علينا ، وأحسن إلينا .

ج - التكرير :

ولا يخفى أن الكلمة إذا تكررت في البيت الواحد مثلا تعد حشوا إذا لم يكن لذلك التكرير فائدة كالتأكيد والتشويق وغير ذلك ، وهذا ما نراه في قول البوصيري : ( ظنوا الحمام وظنوا المنكبوت . ) إذ كرر لفظ ( ظنوا ) تأكيدا للسخرية من تفكير هؤلاء الكفار والاستهزاء بهم كما كرر البارودي الفعل ( يحيى ) في قوله :

يحيى البرايا إذا حان المهاد كما

يحيى النبات بشوئوب من الديم

لبيان قدرة الله تعالى ، وتأکید وقوع البعث يوم القيامة ، كما كرر

شوقي لفظ ( النفس ) في قوله :

والنفس من خيرها في خير عاقبة

والنفس من شرها في مرتع وخم

ولا يخفى أن الشاعر كرر ذلك اللفظ للاهتمام بأمر النفس ، والمناية بشأنها ،

وبيان خطرهما .

(١) المرجع السابق ص ٢٠١ .

د - الكلمات غير الشعرية :

ويراد بها تلك الكلمات التي لم تجر عادة الشعراء باستعمالها ، إما لأنها مبتدلة في الشعر ، وقد خلصت قصائد الشعراء الثلاثة من هذه الكلمات إلا بعض الألفاظ القليلة في قصيدة البوصيري مثل لفظ : ( • مضرتها • ) وفي قصيدة البارودي مثل لفظ : ( • حينما • • حين • • حينما • ) كما سبق <sup>(١)</sup> وبعض الكلمات في قصيدة شوقي مثل كلمة : ( • ركوبة • • لأجل • • والمشايخ • ) .

وإما لغلبة استعمالها على السنة أخرى - غير السنة الأدباء - مثل قول البوصيري : ( • هَدَى من النعم ) ، ومثل قول البارودي : ( • • ممتصر لنيل ما فاتته بالهدى للحرم ) ، وقوله ( • • طاف بالبيت سبحا • • ) ومثل قول شوقي : ( • ضحيت بالضم ) لأن مثل هذه الألفاظ يظلب استعمالها عند الفقهاء • .

وإذا كانت هذه بعض المقاييس التي وضعها بعض النقاد لقياس الكلمة المستعملة في الأساليب الأدبية ، فإنهم قد وضعوا بعض المقاييس للجمل والتراكيب ، بعد مراعاة فصاحة الكلام عند علماء البلاغة - من خلوصه من ضعف التأليف ، وتنافس الكلمات ، والتعميد مع فصاحتها <sup>(٢)</sup> - ومن تلك المقاييس • .

أ - الوضوح : والمراد به انكشاف المعنى وسهولة فهم المراد بغير غموض أو التواء ، لأن الكلام الفاضل ، يصرف الأذن عن متابعتها ، والنفس عن سلبه ، بخلاف الكلام السهل الواضح ، فإنه يهز النفس ، ويشير خاطر ، ويحرك الفؤاد <sup>(٣)</sup> ، ولا يكون الكلام واضحاً - كما قال بعض النقاد - إلا إذا كانت كلماته مختارة متقاة ، واضحة الدلالة ، مفهومة المعنى <sup>(٤)</sup> . وهذا ظاهر بوضوح في قصيدة كل من

(١) انظر ص ٤٧٢ من هذه الرسالة •

(٢) التلخيص ص ٢٦ وما بعدها •

(٣) في النقد الأدبي الحديث ص ٢٠٦ بتصرف •

(٤) المرجع السابق ص ٢٠٧ •



البوصيري وصاحبيه ، إلا في بعض الأبيات وهذا قليل ، مثل  
قول البوصيرى مخاطبا الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) : ( ٠٠ ) ومن  
علومك علم اللوح والقلم ) ، ومثل قول شوقي : ( يا قارئ اللوح  
بل يلامس القلم ) .

ب- ملاحظة الألفاظ للمعاني : والمراد من ذلك أن يكون الأسلوب مجانسا  
المعاني ، موافقا للأفكار ، بحيث تُدرك منه سعادة قائله وسروره ،  
أو شقاؤه وحزنه (١) ، وهذا ما يؤكد قول البوصيرى :

أستغفر الله من قول بلا عمل

لقد نسبت به نسلا لذي عقم

أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به

وما استقمتم فما قولى لك استقم

ولا تزودت قبل الموت نافلة

ولم أصل سوى فرض ولم أصم

إن هو في معرض الندم ، ومجال الحسرة ، على عدم عطسه  
بعلمه ، وتزوده لآخرته ، وألفاظه كما تراها مناسبة لفكرته . وتسرى  
مثل ذلك في قول البارودي : ( شكوت بشئ إلى ربى لينصفنى ٠٠ )  
وفى قوله : ( أبكاني الدهر ٠٠ ) وقوله : ( لم أذع غيرك فيما نابنى  
فغنى ٠٠ ) فالشاعر يتضرع إلى الله لينصفه مما أسابه ، وينجيه مما  
وقع فيه ، ولذلك اختار الألفاظ كلها ضراعة وأسى . وتسرى  
مثل ذلك في قول شوقي :

ألقى رجائى إذا عز المجير على

مفج الكرب فى الدارين والقسم

إذا خففت جناح الذل أسأله

عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم

(١) المرجع السابق ص ٢٠٨ باختصار وتصرف .

وإن تقدم ذو تقوى بصالحه  
قدمت بين يديه عبرة النادم

فالشاعر يمتدح بذي به ، ويطن في عقور به ، وشفاة رسوله ، ولا يخفى  
أن الفاظه تشمر بأسفه وندمه .

ج- تجميل الأسلوب : والمراد بذلك تزيينه بشيء من الحلوى على أن تكون  
طبيعية غير متكلفة ولا مجتلبة اجتلابا يثقل الألفاظ ، ويذهب  
جمالها ، ويجعل المعنى غامضا (١) ، كما في قول النوصيري مخاطبا  
الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) :  
خفضت كل مقام بالإضافة إذ

نوديت بالرفح مثل المفرد العلم

إذ أثقل بيته بالتورية التي أذهبت المعنى وجعلته غامضا  
إلا أن هذا كان نادرا في قصيدته التي كان أسلوبه غالبا سهلا  
صمتا فيها ، تأمل قوله :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد

وينكر الفم طعم الماء من سقم

تجد التفسير الجميل ، والمناسبة الرائعة ، ولذلك كان البيت  
قولا جزلا ، يجري مجرى المثل ، وترى مثل ذلك في قول البارودي  
وهو يصف سيوف المسلمين وخيولهم :

لح السيوف وتصهار الخيول به

كأبرق والرعد في معدود قسزم

فتجد البيت رائعا وزاده روعة هذا اللف والنشر المرتسب ،  
وعذا قليل من كثير ظاهرا في قصيدته ، كما أحسن شوقي نسي  
قوله ، وهو يتحدث عن مولد الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) :

سرت بشائر بالمهادى ومولسده

في الشرق والضرب مسرى النحر في الظلم

(١) المرجع السابق ص ٢١٢ بتصرف .

فبيت الشاعر جميل ، وزاده جمالا ، هذا الطباق الذي دل على المصوم  
والشمول ، في قوله: ( الشرق والغرب ) .

إن قصيدة كل من البوصيري والهارودي وشوقي قد اشتملت على ألفاظ  
قوية ، وعبارات جيدة ، وأساليب رائحة ، كما تضمنت بعض الألفاظ المقتبسة  
من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة - وأسلوبهما أبلغ الأساليب - مثل  
قول البوصيري : ( إن أمارتى بالسوء ما أتمظت - أقسمت بالقمر المنشق ) ، آيات  
حق من الرحمن محدثة ، من قباب قوسين ، إن له قلبا إذا نامت العينان لم  
ينم ، وراودته الجبال الشم من ذهب ، محمد سيد الكونين (٠٠) .

ومثل قول الهارودي : ( فذاك دعوة إبراهيم خالقه ، وسر ما قاله عيسى  
٠٠٠ - فاسجد له واقترِب - يا غافر الذنب ، والبيت : ( ولاح من جسمهما  
نور أضأء لها ) ، والبيت : ( هو النبي الذي لولاه ما قبلت ) (٠٠) .

ومثل قول شوقي : ( ونودي اقرأ ، أسرى بك الله ليلا - ٠٠ - فسى  
المسجد الأقصى - إذا خففت جناح الذل - وصاحب الحوض - لما دعا  
الصحب يستسقون من ظمأ ٠٠ - يا أفصح الناطقين الضاد - محيى الليالي ) (٠٠)  
ولا يخفى أنني قد بينت الآيات والأحاديث التي تلح إليها ههنا ،  
العبارات في أثناء دراسة وتحليل القصائد الثلاث .

وليس معنى ذلك أن هذه القصائد قد خلت من الهنات ، كلا ، لقد  
وقع فيها بعضها ولكنها قليلة ، لا تفض من شأنها ، أو تحط من قدرها ، وقد  
أشرت إليها في أماكنها في أثناء تحليل تلك القصائد - أيضا - ومنها على  
سبيل المثال :

فك البوصيري إدغام الفحل ( كف ) عند إسناده إلى ألف الاثنين في قوله:  
( فما لصينيك إن قلت ألقنا همتا ) والصحيح ( كفا ) (١) وإتيان الشمرات الثلاثة  
بلفظ ( منكم ) على أنه مطاوع ( كم ) ، ولم يرد ذلك في معاجم اللفظة الموثوق  
بها (٢) وذلك في قول البوصيري : ( أحسب الصب أن الحب منكم ) (٠٠) ، وفي

(١) انظر ص ٨٧ من هذه الرسالة .

(٢) المرجع السابق ص ٨٨ .

قول البارودي : ( ٠٠ سامع الرسل قولا غير منكم ) ، وفي قول شوقي : ( صون  
سر عن الإدراك منكم ) .

كما اشترك البوصيري والبارودي في إدخال واو الحال على الجملة  
الفعلية التي قبلها ماض مسبق بنفسه<sup>(١)</sup> ، فقال البوصيري : ( ما سامني الدهر  
٠٠ إلا ونلت ) ، وقال البارودي : ( ما مريوم إلا وقلده ٠٠ ) وهذا خلاف المشهور  
عند علماء اللغة ، والمشهور : ( إلا نلت ) و ( إلا قلده ) .

ولم يأت شوقي بالفاء في جواب الشرط مع أنه جملة اسمية في قوله : ( إن  
جل ذنبي عن الغفران لي أمل ٠٠ ) والصواب ( فلي أمل ) ، كما فك إدغام كلمة  
التم - بتشديد الميم - في قوله : ( مشيت ممالكة في ثورها التتم ) .

أضف إلى ذلك أن الصواب قد جانبه في قوله : ( ٠٠ وجبريل الأمين  
ظني ) إذ الملائكة لا تأكل ولا تشرب ، وجبريل ( عليه السلام ) من أفضلهم  
فكيف يظن ؟

إن مثل هذه الهينات لا تنقل من عظمة القوائد الثلاث ، وخاصة أنها  
ملئمة بالأقوال الجزلة التي لمعت ثوب الحكمة ، وجرت مجرى المثل ، ومن ذلك  
في البردة : ( والحب يحترض اللذات بالألم ، إن المحب عن العذال في صمم  
والشيب أبعد في نصح عن التهم ، إن الطعام يقوى شهوة النهم ، والبيت ( والنفس  
كالطفل ٠٠ ) ، إن الهوى ما تولى يسم أو يسم ، إن الضرورة لا تعدو على العصم ،  
إن الحيا ينبت الأزهار في الأكف ، إن الكباثر في الغفران كاللحم ) .

وفي كشف الغمة : ( والكف في المجد لا يستام بالقيم ، وفي الأبعاد  
ما يثنى عن الرحم ، والبيت : ( ومن أراد به الرحمن مكرمة ٠٠ ) والبيت : ( لا يسلم  
القلب ٠٠ ) ، والبيت ( والحقد كالنار ٠٠ ) ، والبيت : ( لا يبصر الحق من جهل  
أحاط به ٠٠ ) ، والبيت : ( كل امرئ واجد ما قدمت يده ٠٠ ) ، والبيت : ( والخير  
والشر في الدنيا مكافأة ٠٠ ) ، والبيت ( من أنكر التميم لم يأنس بصحبته ٠٠ ) وكذلك  
قوله : ( ونصرة الحق شأن المرء ذي الهمم ، وكم نغم تفتعن نعم ، ونعم المون

(١) المرجع السابق ص ١٥١ .

في القحم ، وتتل برء بلا سقم ، واليأس في الفعل غير اليأس في الكلم ، ولذة النفس لا تأتي بلا ألم ، من يلزم الصبر يستحسن عواقبه ، وهل رأيت حساما غير مثلم ، من يركب الغنى لا تحمد عواقبه ، وفي الخيانة مدعاة إلى النقم ، وعلو النفس بالهم ، والشكر في كل حال كافل التعم .

وفي نهج البردة : ( جرح الأجابة عندي غير ذي ألم ، ورب منتصت والقلب في صم ، والنفس إن يدعها داعي الصبا نهم ، والبيت : ( صلاح أمرك للأخلاق مرجعه . . . ) ، والبيت : ( والنفس من غيرها . . . ) ، ورب أصل لفرع في الفخار نبي ، ومن يبشر بسيمى الخير يتسم ، وما الأمين على قول بمتهم ، وقسرة الله فوق الشك والتهم ، ومن يضم جناح الله لا يضم ، وكيف لا يتسامى بالرسول سمي ، وصادق الحب يملئ صادق الكلم ، وقيمة اللؤلؤ المكون في اليتيم ، إن العقاب يقدر الذنب والجرم ، وحائط البغي إن تلمسه ينهدم ، وما مع الحب إن أخلصت من سام ) .

ولا يخفى أن هذه الحكم ، قليل من كثير قد اشتملت عليها القوائد الثلاث وإن غلا بعضها من العمق ، فإنها قد تداخلت في نسج القوائد المذكورة وجاءت مربوطة بشكرتها ، وموصولة بموضوعها ، بحيث لا يشعر القاري بغوايتها بل يبصر بأنها جزء من الفكرة ، وهذا مكانه ، أو دليل على صدق الرأي ، وهذا بيانه ، فهي بذلك قد أتت طبيعية بخير تكلف ، وإن اقتبس كل من البوصيري والبارودي وشوقي بعضها من شعر السابقين ، فإنها قد امتزجت بأرواحهم وخواطهم ، وبدت كأنها من تجاربهم ، ولا شك في أن بعضها يرجع إلى التجارب التي مر بها كل منهم في حياته .

وبعد هذه الموازنة أرى أن بردة البوصيري قد فاقت قصيدتي البارودي ، وشوقي ، وخاصة في صدق العاطفة ، ولعل شيخ الصروسة (1) كان يشير إلى ذلك عندما قال : " . . . وطالما عارض الناس ببردة البوصيري في القديم وفي الحديث ، بمئات ومئات من المنظومات ، ولكن الصين

---

(1) هو : أحمد زكي ( باشا ) ، أديب مصري توفي سنة ١٩٣٤ ( الأعلام ج ١ ص ١٢٢ ) .

بقى لهذه البردة وحدها إلى الآن . . (١) ، ويؤكد ذلك قول الدكتور  
زكي مبارك (٢) : " إن البوصيري قد سما في المدائح النبوية سما لسم  
يوفى إلى محشاه في سائر شعره ، وهذا أثر لصدق العاطفية ،  
بخلاف صاحبه - البارودي وشوقي - فإن شعرهما في هذا السلب دون  
ما يعرف الناس لهما من الشعر البليغ ، وصدق شوقي حين قال :

المادحون وأرباب الهوى تبسح

لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم

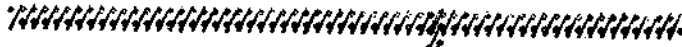
مديحه فيك حب خالص وهوى

وصادق الحب يملى صادق الكلام

وما شأه كل من شيخ العروبة وعض النقاد، وأمير الشعراء بفضل  
البردة ، وصدق عاطفة ناظمها، تنهسي الموازنة بين بردة البوصيري  
ومعارضاتها في العصر الحديث، ولم يبق من رسالتي إلا خاتمتها ، وما  
تضمنته من نتائج ومقترحات ، سأحدث عنها في الصفحات الآتية  
إن شاء الله .

---

(١) مجلة أبولو عدد ديسمبر سنة ١٩٢٢ ص ٢٨٥ .  
(٢) الموازنة بين الشعراء ص ٢٢٥ يتصرف .



وحد . . .

فلقد كان خلق  
الرسول العظيم  
مصدر إلهام الشعراء  
الذين مدحوه ( صلى  
الله عليه وسلم ) ، فسي  
بدء بحثه ، مشيبل  
أبى طالبه إلا أن  
هذه المدائح كانت  
أشبه بمدائح ملوك  
ورؤساء القبايل ،  
إذ أنصبت على  
المدح بالكفر  
والشجاعة  
والمسروة .

ولم يحض زمن طويل حتى أدخل الشمراء في مدائحهم النبوية  
الإشادة بالدين الإسلامي ، والإشارة إلى تماليمه السخية ، وكتساب  
الله الكريم ، ومن هؤلاء الشمراء : الأغشى ، والناخبة الجمدى ، وكعب  
ابن زهير ، بالإضافة إلى حسان بن ثابت الذي زاد على سابقة دفعه  
عن الدين ، كما نافع عن الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) .

ولما لحق الرسول بالرفيق الأعلى كان من الطبعي أن يزيد هؤلاء الشمراء  
- على ما سبق من أنكار - رثاء الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، وأن يشيروا  
إلى ما أحابهم من حزن بسبب فراق الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) إياهم ، ومن  
هؤلاء : حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ، وغيرهما .

وعندما قتل الإمام علي بن أبي طالب ( كرم الله وجهه ) ومن بعده  
ابنه الإمام الحسين ( رضى الله عنه ) اشتد حزن الشمراء على ما حل بسأل  
بيت الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) فكانوا يمدحون الرسول وآل بيته ، ثم  
يكشفون عن مساوي أعدائهم ، معلنين سخطهم عليهم ، على الرغم مما تعرض  
له بعضهم من بطش وتمذيب ، ومن هؤلاء الشمراء : الفرزدق والكميت ودعبل  
وأبي فراس والشريف الرضى ومهيار .

واستمر الحال على ذلك إلى أن شنت الحروب الصليبية على البلاد  
الحرية والإسلامية ، فظهر بعض الشمراء الذين فتحوا أبوابا جديدة نسي  
المدائح النبوية مثل الحديث عن مولد الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) وما صاحبه  
من أحداث ، مثل الحديث عن معجزاته ( صلى الله عليه وسلم ) ، وكان من هؤلاء  
الشمراء : المرصرى ، والبوصيرى .

وإذا كان عصر البوصيرى قد ملئ بالحروب الخارجية ، فقد ملئ أيضا بالفتن  
الداخلية ، التي ظهر أثرها في أخلاق الناس وخاصة الموظفين ، فكانوا  
ينهبون الأموال ، ويقبلون الرشوة ، مما جعل البوصيرى يكشف عن مساوئهم ،  
فكادوا له كيدا أبعد بسببه عن عمله ، وفتح كتابا يحلم فيه الأطفال ، ثم  
انتسب إلى السادة الشاذلية على يد أبي العباس المرسي ، وترك مدح الوزراء



والأمراء ، وأخذ يمدح خاتم الأنبياء ( صلى الله عليه وسلم ) بقصائد كثيرة ،  
ومنهما قصيدته البردة ، التي اشتملت على أفكار متعددة يجمعها غرض واحد  
وعو مدح الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) إلا أن البوصيري قد أجاد فيها  
إجادة كبيرة ، جعلت لها أثرا كبيرا في كثير من النواحي كالتأليف والتصنيف  
بالإضافة إلى أثرها الكبير في الشعراء الذين عارضوها .

وإذا كانت من دوافع المعارضة في الشعر العربي بحامة : الاستعانة  
والتحدى والإعجاب ، فإن الذي دفع بعض شعراء العصر الحديث إلى معارضة  
البردة هو الإعجاب غالبا .

ولقد كانت معارضة البردة في العصر الحديث مرآة تعكس عليها  
حالة الشعر في ذلك العصر ، ففي معارضة الدرويش والتميمية كثرت المحسنات  
الهديمية التي زادت الألفاظ ثقلا على ثقل - وخاصة في معارضة الدرويش -  
بالإضافة إلى غرض المعاني ، وضيق الأفكار .

أما في معارضة الهارودي فقد طرأ عليها ما طرأ على الشعر في ذلك  
الوقت على يد الهارودي من قوة اللفظ، وجزالة العبارة ، وشدة السبك ، والحلية  
الهديمية التي أنت عفا بخير تكلف ، أضف إلى ذلك كثرة أبياتها، وتعدد  
أفكارها ، وطول نفسها ، حتى كادت تجمع سيرة الرسول ( صلى الله عليه وسلم )  
كلها نظما ، فكانت بذلك دليلا قويا على إمكان وجود الملاحم والمطولات في  
الشعر العربي ، ولم يقلل من شأنها ضعف عاطفة الشاعر في بعضها فكسارها  
إذ ظهرت قوة في بعضها الآخر .

وأما معارضة شوقي فتح حسن لفظها، ورهبة بيانها ، استطاع الشاعر  
أن يجدد في بعض أفكارها - بالإضافة إلى الأفكار التقليدية - إذ أشار  
إلى فرية انتشار الإسلام بالسيف وفند زيفها كما أشاد بحضارة الإسلام ،  
فتفتح بذلك الباب لمن عارض البردة من بعده مثل : ( محمد عبد المطلب  
والشيخ الحلاوي ، وعلى باكثير ، وأحمد فهمي محمد ، وحمود جبر ، والشيخ  
الخطيب ومحمد السعيد بروج ) ، إذ جدد بعضهم - على تفاوت في ذلك  
التجديد - في بعض الأفكار مثل : الإشارة إلى تعدد زوجات الرسول ( صلى  
الله عليه وسلم ) وكشف زيف الأفاكين من أعداء الدين ، كما أشاروا إلى موقف

الإسلام من الرق والطلاق ، وغير ذلك من الأفكار الجديدة التي دفعت إليها أحداث العصر ، إلى جانب إشارتهم إلى الأفكار السابقة مثل مولد الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ومجزاته .

ولا يخفى أثر البردة في ذلك كله ، إذ كانت آية من آيات الفن ونجما بازقا في سما الإبداع ، تفافت كل معارضاتها ، ومن بينها معارضة البارودي وشوقي وخاصة في صدق العاطفة التي جعلتها من الأدب الحسي الذي لا يموت بموت صاحبه ، بل يظل مشرقا وضاء على مسير القرون والأجيال .

### النتائج :

لقد تمت رسالتي - بحمد الله تعالى - ولا أحب أن أتحدث عن احتقالي بها ، وبلائي فيها ، ولا أريد أن أطيل الحديث عنها ، فهي تتحدث عن نفسها بنفسها ويكفي أن أشير إلى بعض النتائج التي أطمأن إليها قلبي وهي :

١- تكاد رسالتي تكون أول رسالة دكتوراه تتحدث عن المدائح النبوية من نشأتها حتى عصرنا هذا في سلسلة متصلة الحلقات ، متواليبة العصر .

٢- تعد أول رسالة دكتوراه تعرضت للبردة بالدراسة والتحليل ، وإن سبقت ببعض الشروح فإنها لم تسبق بالتحليل .

٣- تعد أول رسالة دكتوراه في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر قد تعرضت للشعر الصوفي ، مثلا في البردة ومعارضاتها ، على أساس أن المدائح النبوية لون من ألوان الشعر الصوفي .

٤- أكدت أن الإسلام لا يكره الشعر لكونه شعرا ، ولكنه يكره الشعر المشتمل على الكذب أو البهانة المقوتة ، والذي بعد عن الأخلاق

الكريمة ، وإلى هذا اللون من الشعر أشار القرآن الكريم ضددا بقائله  
في قوله تعالى : " وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي  
كُلِّ وَادٍ يَبْهيمُونَ . وَأَنْهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (١) " كما أشار إليه  
الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : لأن يمتلى \* جوف أحدكم تمحسا  
بؤبه - يفسده - خير له من أن يمتلى \* شعرا (٢) .

أما ذلك الشعر الذي يدعو إلى الفضائل ، وينهى عن الرذائل  
ويدافع عن الدين فالإسلام يحبه ، وآية ذلك أنه قد استثنى قائله من  
الحكم السابق بقوله تعالى : " إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا  
اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ  
يَنْقَلِبُونَ (٣) " .

وهوكد ذلك أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد سمعه  
من حسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، ولعله هو الذي أشار إليه  
بقوله : " إن من الشعر حكمة .. " (٤) .

٥ - بينت رسالتى أن مسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كانت ومازالت منبها  
فياضا للشعراء ، والكتاب يستمدون منها أحسن الفكر ، وأصدق العبر .

٦ - أثبتت أن فى البردة أثرا للصفوية ، وردت بذلك على من زعم أن البردة  
لا يوجد فيها أى أنسر للصفوية .

٧ - بينت إمكان روى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وذلك بالأحاديث النبوية  
الصحيحة ، وببعض الروايات التاريخية عن بعض الصحابة ، وشهادة بعض  
الملماء الأحياء الذين شرفوا بتلك الروايات .

(١) الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٦ .

(٢) صحيح مسلم ج ٥ ص ١١٣ وما بعدها .

(٣) الشعراء / ٢٢٧ .

(٤) صحيح البخارى ج ٨ ص ٤٦٤ وما بعدها ، والحمدة ج ١ ص ٢٧ وما بعدها .

٨ - نفت ما نسب إلى الإمام البوصيري من أنه عجز عن إكمال بهيئت  
من أبيات البردة ، وأكملها الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، إذ لم يثبت  
ذلك عن الإمام البوصيري في المراجع الثقة ، ولو ثبت لقطب  
بعدم صحته لقوله تعالى عن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) : " وَمَا عَلَّمْنَاهُ  
الشِّمْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ " الآية (١) .

٩ - بينت خطأ من ذهب إلى أن البوصيري قد أخطأ في استعمال بعض  
الألفاظ التي لم ترد في كتب اللغة المعتمدة ، مثل لفظ ( انظلم ) ؛  
إذ ورد هذا اللفظ في لسان العرب .

١٠ - بينت خطأ من زعم أن " الجهال التي عرضت أن تكون ذهباً  
للرسول ( صلى الله عليه وسلم ) من مهالقات الصوفية ، إذ ثبتت  
ذلك بأحاديث صحيحة وروايات متعددة .

١١ - كشفت رسالتي - عن كثير من معارضات البردة في المصنوع  
الحديث .

١٢ - ترجمت لبعض الشعراء المحدثين الذين لم يترجم لهم أحد من قبل  
مثل : الشيخ أحمد نهمي محمد ، وشاعر آل البيت الشيخ محصو جبر ، وشاعر  
النبي الحبيب الشيخ محمد خليل الخطيب والشاعر محمد السعيد  
برج وغيرهم .

١٣ - بينت أن المعارضات باب كسير في الأدب العربي ساعد على نموه ،  
وزيادة الثروة الأدبية .

١٤ - أثبتت أن المعارضات ليست كلها غشالية من المواطف ، وليست كلها  
مبنية على التقليد والجمود ، بل منها ما هو كذلك ومنها ما ظهرت  
فيها العاطفة الصادقة ، والأفكار الجديدة التي دعت إليها ظروف العصر  
وهذا واضح في معارضات البردة التي لم يكتب أصحابها بحدج الرسول

(١) يس / ٦٩ ، وتفسير القرآن العظيم ج ٦ ص ٥٧٤ وما بعدها .

( صلى الله عليه وسلم ) بل أضافوا إلى ذلك الدفاع عن الإسلام  
وتفنيد مزاعم المستشرقين ، ودحض أكاذيبهم وانقراضهم على  
الإسلام والرسول ( صلى الله عليه وسلم ) كذبا وزورا .

١٥- أثبتت أن البردة من الأدب العربي الحق الذي لم يمت بموت  
صاحبه ، بل شاعت وذاعت ، ويكفيها فخرا أنها ذات أسلوب  
بلاغي عظيم على الرغم من إنشائها في عصر اتسم بالخمود والجمود ،  
ويكفيها فخرا أنها تُرجمت إلى كثير من اللغات كالفرنسية والإنجليزية  
والإيطالية وغيرها ، ويكفيها فخرا أنها انتشرت في البلاد العربية  
والإسلامية والأوروبية ، ويكفيها فخرا أنه قد حفظها كثير من الناس  
واهتموا بها اهتماما كبيرا لم تحظ به قصيدة أخرى في  
الأدب العربي .

١٦- بينت أن وجود الملاحم والمطولات في الأدب العربي ممكن ،  
وردت بذلك على من زعم أن الأدب العربي عاجز عن مثل هذا  
اللون .

### المقترحات :

- وحد تلك النتائج التي ذكرتها أشجيرة إلى بعض  
المقترحات التي أرجو تحقيقها وهي :
- ١- أوجه نظر السادة الباحثين في الأدب العربي إلى أن في شمس  
أبو سيرى الاجتماعي مجالا خصبا للدراسة والبحث .
  - ٢- أوصي القائمين على أمر الثقافة الأدبية ، والمهتمين بالترك العربي ،  
بفتح معارضات البردة ، وخاصة المعارضات التي ليس لأصحابها  
دواوين شمرية تحفظ فيها ، خشية الضياع مثل معارضة الشاعر  
على باكثير ، ومعارضة الشيخ الخطيب ، كما أن معارضة الهاوودي كادت

تقرض ، وكلها - بخير شك - تصائد قيمة تعد من التراث الأدبي  
الرفيع الذي يجب حفظه .

٣ - أوجه نظر مؤلفي الكتب الأدبية المقررة على المدارس والمعاهد  
إلى أن في المدائح النبوية بعمامة وفي البودة ومعارضاتها فسي  
المصر الحديث بخاصة مقطوعات قيمة تستحق أن تقر على الطلاب  
لما اشتملت عليه من أساليب رفيعة ، وحكم رائحة ، ولما تدعو إليه  
من أخلاق عالية .

٤ - أوجه نظر المشرفين على وسائل الإعلام - ونحن في دولة العلم  
وإيمان - إلى أن في البودة ومعارضاتها مقطوعات تصلح للإنشاد  
فتمكنا من التخلص من الأغاني الخليصة التي تسد الأخلاق كما  
يُجذب الناس - بموسيقاها الرائحة ، ووقتها الجميل - إلى معرفة  
سيرة الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) لتكون نبواً يهتدى به في  
تلك الحياة .

ولما مما يؤكد ذلك بعض الأبيات التي تشهد من نهج  
البودة ، بالإضافة إلى أهمية البوصيري التي أقامتها وزارة الثقافة  
والإعلام منذ أربعة أشهر تقريباً .

٥ - أوجه نظر المهتمين بالثقافة الأدبية إلى ضرورة إعداد  
سجل يشير إلى حياة الشعراء المحدثين - ليكون مرجعاً  
سهلاً ويسيراً أمام الباحثين والدارسين .

" تم بحمد الله ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء الله  
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين "



مصادر البحث

\*\*\*\*\*

- ١ - إبراهيم الهاجوري (الشيخ) : عاشية الهاجوري على البردة ، الطبعة الرابعة ، مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٩٥١ .
- ٢ - إبراهيم الهاجوري (الشيخ) : شي الهيجوري على الجوعرة ، دار مطابع الشعب بمصر سنة ١٩٦١ .
- ٣ - إبراهيم عبده (الدكتور) : بالاشتراك مع غيره - الموسوعة الذهبية ج ١ مطابع المنبع بمصر سنة ١٩٦٤ .
- ٤ - إبراهيم المدوني (الدكتور) : السرب والتتار ، مطابع دار القلم بمصر سنة ١٩٦٣ .
- ٥ - إبراهيم عوضين : المعارضة في شعر شوقي " رسالتنا جستير " بمئذنة كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر تحت رقم ٤٨٢ .
- ٦ - أبو بكر بن حجة الحموي : خزانة الأدب وعاية الأرب ، المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٩٥٤ .
- ٧ - أبو الفتوح رشوان (الدكتور) : بالاشتراك مع غيره - أمون العالم الحديث مطابع مؤسسة روز اليوسف بمصر سنة ١٩٧٦ .
- ٨ - أبو عادل المسري : الصناعتين ، بتحقيق أبي الفضل والهياوي دار إحياء التراث العربية بمصر سنة ١٩٤٦ .
- ٩ - أحمد الإسكندري : بالاشتراك مع غيره - الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ، المطبعة السلفية بمصر سنة ١٩٦٤ .
- ١٠ - " " : بالاشتراك مع غيره - المنص في تاريخ الأدب العربي ج ١ المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٩٣٦ .
- ١١ - " " : بالاشتراك مع غيره - المنتخب من أدب العرب ، ج ١ مطابع دار التراث العربي بمصر سنة ١٩٥٤ .

- ١٢- أحمد أميس : بالاشتراك مع غيره - التوجيه الأدبي ،  
المنبعة الأميرية بمصر سنة ١٩٤٦ .
- ١٣- أحمد التاجي : أحمد سوقي ، منبعة الحلبي بمصر  
( غير مؤن ) .
- ١٤- أحمد تيمور : الآثار النبوية ، النبعة الثانية ، مطابع  
دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٦٦ .
- ١٥- أحمد بن حجر المسقلاني : الدرر الثامنة في أعيان المائة الثامنة ،  
ج١ ، ج٢ ، ج٣ ، بتحقيق الشيخ  
محمد جاد الحق ، منبعة المدني بمصر  
سنة ١٩٦٧ .
- ١٦- أحمد بن حجر الهيتمي : شى الهمزية ، وبهامشه حاشية الشيخ  
محمد الحفنى على الهمزية ، المنبعة  
الهمزية المصرية سنة ١٢٠٦ هـ .
- ١٧- أحمد حسن كحيل ( الدكتور ) : دراسات عربية ، منبعة السمادة بمصر  
سنة ١٩٦٩ .
- ١٨- أحمد بن الحسين ( المتنبى ) : ديوانه بتسليق الدكتور : عبد الوهاب  
عزام ، منبعة لجنة التأليف والترجمة  
بمصر سنة ١٩٤٤ ، وطبعة ثانية  
بمصر سنة ١٩٨٧ هـ .
- ١٩- أحمد العمون ( الشيخ ) : ديوان الشاعر النالم ج١ ، بتحقيق  
مصطفى السقا منبعة الحلبي بمصر  
سنة ١٩٥٧ .
- ٢٠- " " ( الشيخ ) : زهر الربيع في المعاني والبيان والهدى  
النبعة السابعة منبعة الحلبي بمصر  
سنة ١٩٧١ .
- ٢١- " " " : شدا الحرف في فن الصرف - النبعة  
التاسعة عشرة ، منبعة الحلبي بمصر  
سنة ١٩٧٢ .



- ٢٢- أحمد بن حنبل (الإمام) : المسند ج ١ ، ج ٢ ، بتحقيق الدكتور :  
محمد عاصم طبعته دار الاعتماد بمصر  
سنة ١٤٧١ هـ ، ج ١ ، بسني الشيخ أحمد  
شكر طبعته دار المنار بمصر سنة  
١٤٤٦ .
- ٢٣- أحمد الحوفي (الدكتور) : الفلاسفة في الأدب ج ١ مكتبة نهضة مصر  
سنة ١٤٤١ .
- ٢٤- " " " : الإسكندرية في سمر شوقي ، مطابع شركة  
الإعانات الشرقية بمصر سنة ١٤٦٢ .
- ٢٥- " " " : سماحة الإسكندرية ، مطابع شركة الإعانات  
الشرقية بمصر سنة ١٤١٣ .
- ٢٦- " " " : لماد أعدد النبي زوجاته ، مطابع الأسماء  
التجارية بمصر سنة ١٤١٤ .
- ٢٧- أحمد بن خليل : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، بتحليل  
الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد  
مطبعة المسادة بمصر سنة ١٤٤٨ .
- ٢٨- أحمد الشايب : تاريخ النقائز في الشعر العربي مقبلة  
النهضة المصرية . غير مؤرخ .
- ٢٩- " " " : أصون النقد الأدبي ، الطبعة الثانية  
مطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٤٤٢ .
- ٣٠- أحمد الشراصي (الدكتور) : رشيد رضا صاحب المنار ، مطابع الأسماء  
التجارية بمصر سنة ١٤٧٠ .
- ٣١- " " " : الدين والمجتمع : الطبعة العربية بمصر  
سنة ١٤٧٠ .
- ٣٢- " " " : الشاعر سليل السمطين ، لم يدون عليه اسم  
المنشأة وحق سنة ١٤٧٢ .
- ٣٣- أحمد شوقي : دول العرب وعظماء الإسكندرية ، مطبعة  
مصر سنة ١٤٢٢ .

- ٢٤ - أحمد شوقسى : ديوانه " السوفيات " ج ١ ، ج ٢ ، ج ٣  
المتبة التجارية الكبرى بمصر سنة  
٠ ١٩٤٨
- ٢٥ - أحمد بن عبد الحلیم العراني ( ابن تيمية )  
عقيدة أسس السنة والجماعة بتعليق عبد  
الرزاق عفيفى دار الطباعة المحمدية بمصر  
غير مؤرخ
- ٢٦ - أحمد بن عبد الله الأصهبانى ( أبو نسيم )  
دلائل النبوة ، الطبعة الثانية ، حيدر  
آباد الدكن ، من منشورات وزارة المعارف  
العثمانية سنة ١٩٥٠
- ٢٧ - أحمد بن عبد الوهاب النويرى  
نهاية الأرب فى فنون الأدب ، السفر  
الثام الطبعة الأولى ، مطبعة دار الكتب  
المصرية سنة ١٩٣١
- ٢٨ - أحمد عزت عبد الكريم  
تاريخ التعليم فى عصر محمد على ج ١ ،  
مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٢٨
- ٢٩ - أحمد عطية الله  
القاموس الأساسى ، المجلد الأول ، مكتبة  
النهضة المصرية سنة ١٩١٢
- ٤٠ - " " " "  
دائرة المعارف الحديثة ، مكتبة الأنجلو  
المصرية سنة ١٩٥١
- ٤١ - أحمد بن على المقرئزى  
المقفى ج ١ ، مخطوط بدار الكتب المصرية  
تحت رقم ٢٧٢ تاريخ
- ٤٢ - " " " "  
السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسمين  
الأول والثانى بتحقيق محمد مصطفى زيادة  
مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٤
- ٤٣ - " " " "  
سنة ١٩٢٦ ، والقسم الثالث ، مطبعة لجنة  
التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٩٢٦
- إفائة الأمة بنسخت الفحة ( أو تاريخ  
الجماعات فى مصر ) مطبعة دار ابن الوليد  
بمصر سنة ١٩٥١

- ٤٤ - أحمد بن علي المفريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار  
دار التحرير للطباعة والنشر بمصر سنة  
١٩٦٧ .
- ٤٥ - " " " " : فضل آل البيت ، تحقيق محمد عاشور  
دار الاعتصام بمصر سنة ١٩٧٣ .
- ٤٦ - أحمد عوف ( الدكتور ) : الأزهر في الفعالم ، مطبعة الأزهر  
بمصر سنة ١٩٧٠ .
- ٤٧ - أحمد فهى محمد ( الشيخ ) : النفحة الأحمدية في مدح خير البرية  
مطبعة حجازى بمصر سنة ١٣٦٨ هـ .
- ٤٨ - " " " " : الزهراء في مدح خاتم الأنبياء ، مطبعة  
حجازى بمصر سنة ١٣٧٠ هـ .
- ٤٩ - " " " " : كريمة الدارين ، مطبعة حجازى بمصر  
سنة ١٣٧١ هـ .
- ٥٠ - أحمد محفوظ : حياة شوق ، مطبعة مصر - غير مؤرخ
- ٥١ - أحمد حجاب ( الشيخ ) : العظة والاعتبار ، مطابع الأهرام  
التجارية بمصر سنة ١٩٦٩ .
- ٥٢ - أحمد بن محمد القسرى : الصباح النبوي ، الطبعة المراجعة  
الطبعة الأميرية بمصر سنة ١٩٢٨ .
- ٥٣ - أحمد محمد موسى ( الدكتور ) : الصبح البديع ، دار الكتاب العربى  
للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٦٩ .
- ٥٤ - أحمد محرم : ديوان مجد الإسلام ، ( أو الإلياذة  
الإسلامية ) بتصحيح محمد الجيوشى  
مكتبة دار الصروة بمصر سنة ١٩٦٣ .
- ٥٥ - إسماعيل بن عمر بن كثير ( الإمام ) : البداية والنهاية ج ١٣ ، مطبعة دار  
السمادة بمصر سنة ١٣٥٨ هـ .
- ٥٦ - " " " " : السيرة النبوية ج ١ ، بتحقيق مصطفى  
عبد الواحد ، مطبعة الحلبي بمصر  
سنة ١٩٦٤ .

- ٥٧ - إسماعيل بن عمر بن كبير (الإمام) : قصص الأنبياء بتحقيق مصطفى عبد  
الواحد ، مطبعة دار التأليف بمصر  
سنة ١٩٦٨ •
- ٥٨ - " " " " : تفسير القرآن العظيم ، بتحقيق عبد  
المنيز غنيم بالاشتراك مع غيره مطبعة  
دار الشعب بمصر سنة ١٩٧١ •
- ٥٩ - إسماعيل بن القاسم القسالي : الأمل ج ١ الهيئة المصرية العامة  
للكتاب بمصر سنة ١٩٧٥ •
- ٦٠ - أمين محمود خطاب : الإتحافات الإلهية ، لم يدون عليه  
اسم المطبعة وطبع سنة ١٣٧٣ هـ
- ٦١ - أوسين حجير : ديوانه ، بتحقيق الدكتور محمد نجيم ،  
دار صادر ببيروت سنة ١٩٦٥ •
- ٦٢ - بدوي طيوانسة (الدكتور) : السرقات الأدبية ، مكتبة نهضة مصر  
سنة ١٩٥٦ •
- ٦٣ - " " " : دراسات في نقد الأدب العربي ، مكتبة  
الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٥ •
- ٦٤ - توفيق الراقصي : كرمة ابن هاني ، مطبعة المعاهد بمصر  
سنة ١٩٦٣ •
- ٦٥ - جرجي زيدان : تاريخ مصر الحديث ج ١ مطبعة  
المقتطف بمصر سنة ١٨٨٩ •
- ٦٦ - " " : تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ مطبعة الهلال  
بمصر سنة ١٩٥٢
- ٦٧ - " " : تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ، ج ٤  
مطبعة دار الهلال بمصر سنة ١٩٢٦  
وج ٣ طبعة سنة ١٩٣٥ •
- ٦٨ - جمال الدين الشيال (الدكتور) : تاريخ مصر الإسلامية ج ٢ دار المعارف بمصر  
سنة ١٩٦٧ •
- ٦٩ - حاجي خليفة : كشف الظنون ، مطبعة العالم بمصر سنة  
١٣١١ هـ •

- ٧٠ - الحارث بن سعيد الحداني ( أبو فراس ) : ديوانه بشرح نخلة قفاط مكتبة الشروق  
بيروت سنة ١٩١٠ .
- ٧١ - حافظ إبراهيم : ديوانه بتحقيق أحمد أمين بالاشتراك مع غيره ، مطبعة دار الكتب المصرية سنة  
١٩٢٧ .
- ٧٢ - حامد الأشقر : شرف الدين البوصيري ( الشاعر المصري ) مطبعة  
المنيرة بمصر سنة ١٣٧٥ هـ .
- ٧٣ - حامد حفني داود ( الدكتور ) : تاريخ الأدب الحديث ، دار الطباعة المحمدية  
بمصر سنة ١٩٦٧ .
- ٧٤ - حامد محمد النوايس ( الدكتور ) : بين الطب والإسلام ، دار الكتاب العربي للطباعة  
والنشر بمصر سنة ١٩٦٧ .
- ٧٥ - حسان بن ثابت : ديوانه بشرح عبد الرحمن البرقوقي ، المطبعة  
الرحمانية ، بمصر سنة ١٩٢٩ .
- ٧٦ - الحسن بن بشر الآمدي : الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، بتحقيق  
السيد صقر ، الطبعة الثانية - دار المعارف  
بمصر سنة ١٩٧٢ .
- ٧٧ - حسن الحسزاي ( الشيخ ) : التفحات الشاذلية بشرح البردة البوصيري سنة  
ج ٣ ، لم يدون عليه اسم المطبعة وطبع سنة  
١٢٩٧ هـ .
- ٧٨ - الحسن بن رشيق : العمدة بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين  
عبد الحميد ، طبعة دار الجيل ببيروت سنة  
١٩٧٢ .
- ٧٩ - الحسن بن محمد الكوهن : جامع التراجم العملية في طبقات السادات  
الشاذلية المكتبة الفاسية بمصر سنة  
١٣٤٧ هـ .
- ٨٠ - حسن المرعفي ( الشيخ ) : الوسيلة الأدبية للملوم العربية ج ٢ ، مطبعة  
المدارس الملكية بمصر سنة ١٢٩٢ هـ .
- ٨١ - حسنين محمد مخلوف ( الشيخ ) : شذرات من معجزات وخصائص الرسول مطابيح  
الأهوام التجارية بمصر سنة ١٩٧٠ .

- ٨٢ - حسين شوقي : أبي شوقي ، مكتبة النهضة المصرية سنة  
١٩٤٧ .
- ٨٣ - حسين مظلوم : رياض البردة ، المطبعة المحمودية بمصر  
غير مؤرخ
- ٨٤ - حلمي علي مرزوق ( الدكتور ) : شوقي وقضايا المصروالخطارة ، دار  
المعارف بمصر سنة ١٩٧٦ .
- ٨٥ - خندج بن حجر ( امرؤ القيس ) : ديوانه بشرح السندوي ، مطبعة  
الاستقامة بمصر سنة ١٩٣٠ .
- ٨٦ - خالد الأزهرى ( الشيخ ) : شرح التصريح على التوضيح ، دار إحياء  
الكتب العربية بمصر غير مؤرخ .
- ٨٧ - خليل بن أيك الصفدى : الوافى بالوفيات ج٢ المطبعة الهاشمية  
بدمشق سنة ١٩٥٣ .
- ٨٨ - خير الدين الزركلىسى : الأعلام الطهمة الأولى المطبعة العربية  
بمصر سنة ١٩٢٧ . والطهمة الثانية  
بمطبعة كوستانتونوس وشركاه بمصر سنة  
١٩٥٤ .
- ٨٩ - زكى مبارك ( الدكتور ) : الموازنة بين الشمراء ، مطبعة الحلبي بمصر  
سنة ١٩٣٦ .
- ٩٠ - " " " : المدائح النبوية ، دار الكاتب العربى للطباعة  
والنشر بمصر سنة ١٩٦٧ .
- ٩١ - زهير بن أبى سلمىسى : ديوانه بشرح أحمد الشيبانى مطبعة دار  
الكتب المصرية سنة ١٩٤٤ .
- ٩٢ - زهير بن محمد المهلبى : ديوانه المطبعة المحمودية بمصر سنسنة  
١٣١٥ هـ .
- ( الهباء زهير )
- ٩٣ - زينب فسواز : الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور ، المطبعة  
الأميرية بمصر سنة ١٣١٣ هـ .
- ٩٤ - سعد الدين الجيزاوى : أصداء الدين فى الشعر الحديث ، مكتبة  
نهضة مصر سنة ١٩٥٦ .

- ٩٥ - سعد الدين الجيزاوي (الدكتور) : الملحمة في الشعر العربي ، دار الكاتب  
العربي ، للطباعة والنشر بمصر سنة  
١٩٦٧ .
- ٩٦ - سميد الخوري الشرتوني : أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد  
ج ٢ مطبعة مرسلو اليسوعية بيروت سنة  
١٨٨٩ .
- ٩٧ - سميد عاشور (الدكتور) : الحركة الطليبية ، ج ١ مطبعة لجنة  
البيان العربي بمصر سنة ١٩٦٣ .
- ٩٨ - " " " : ثورة شب دار النهضة العربية بمصر  
سنة ١٩٦٤ .
- ٩٩ - " " " : العيد الهدوي ، مطبعة دار مصر  
للطباعة سنة ١٩٦٦ .
- ١٠٠ - سليم الهشري (الشيخ) : توضيح النهج غير مؤن ولم يدون عليه  
اسم الطبعة .
- ١٠١ - سليمان بن الأشعث (الإمام أبو داود) : سننه ج ٢ بتعليق الشيخ أحمد سعد  
علي مطبعة الحلبي بمصر سنة  
١٩٥٢ .
- ١٠٢ - سليمان الأغاسي (الدكتور) : الأدب المعاصر في العالم العربي مطبعة  
الكتاب الحديث بمصر ، غير مؤن .
- ١٠٣ - السيد إبراهيم حقي : تفسير الشدة في تخميس البردة ، مطبعة  
الخيرية بهنداد سنة ١٩٦٨ .
- ١٠٤ - سيد سابق (الشيخ) : فقه السنة ج ٤ مطبعة النموذجية بمصر  
غير مؤن .
- ١٠٥ - السيد علي الدرويش : ديوانه بإشراف مصطفى النجاري طبع  
سنة ١٢٧١ هـ ولم يدون عليه اسم  
المطبعة .
- ١٠٦ - السيد مرتضى الحسيني : تاج الصروس ج ٣ ، ج ٥ ، ج ٨ ، ج ٩  
المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦ هـ .

- ١٠٧- شهبان محمد اسماعيل (الدكتور) : من خصائص الرسول وشماله ج ١ ،  
مطبعة الحسين الجديدة بمصر سنة  
١٣٩٧ هـ .
- ١٠٨- شكيب أرسلان : شوقي (أو عداقة أرمين سنة ) مطبعة  
القاهرة سنة ١٩٢٦ .
- ١٠٩- شوقي ضيف (الدكتور) : شوقي شاعر العصر الحديث دار المعارف  
بمصر سنة ١٩٥٢ .
- ١١٠- " " " : الأدب العربي المعاصر في مصر ، دار  
المعارف بمصر سنة ١٩٦١ .
- ١١١- " " " : تاريخ الأدب العربي ، مصر الإسلامي دار  
المعارف بمصر سنة ١٩٦٣ .
- ١١٢- " " " : البارودي رائد الشعر الحديث دار المعارف  
بمصر سنة ١٩٦٤ .
- ١١٣- " " " : البلاغة تطور وتاريخ دار المعارف بمصر  
سنة ١٩٦٥ .
- ١١٤- " " " : تاريخ الأدب العربي ، مصر الجاهلي  
دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١ .
- ١١٥- " " " : التطور والتجديد في الشعر الأُموي طبعة  
دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣ .
- ١١٦- " " " : تاريخ الأدب العربي مصر المباسي الأول  
دار المعارف بمصر غير مؤرخ .
- ١١٧- صادق خطيب (الدكتور) : الشعر في مصر الحاضر وأثر البارودي فيه ،  
رسالة دكتوراه مكتبة كلية اللغة العربية بجامعة  
الأزهر تحت رقم ٨١٦٤ .
- ١١٨- طاهر الطناحي : صور وظلال من حياة شوقي وحافظ ، مطبعة  
دار الهلال بمصر سنة ١٩٦٧ .
- ١١٩- طه حسين (الدكتور) : من حديث الشعر والنثر مطبعة الصباوي  
بمصر سنة ١٩٢٦ .



- ١٢٠- طه حسين (الدكتور) : في الأدب الجاهلي ، دار المعارف  
بمصر سنة ١٩٤٧
- ١٢١- " " : بالاشتراك مع غيره - التوجيه الأدبي  
مطابع دار الكتاب العربي بمصر سنة  
١٩٥٣ .
- ١٢٢- طه وادي (الدكتور) : مختارات من شعر أمير الشعراء أحمد  
شوقى ، الهيئة المصرية العامة  
للكتاب . سنة ١٩٧٢ .
- ١٢٣- ظالم بن عمرو الدؤلى (أبو الأسود) : ديوانه بتحقيق عبد الكريم الدجيلى  
شركة النشر والطباعة ببغداد سنة  
١٩٥٤ .
- ١٢٤- عائشة الباعونية : مولد النبى - المطبعة الحنفيه بدمشق  
سنة ١٢٠١ هـ .
- ١٢٥- عائشة التيمورية : ديوانها حلية الطراز ، المطبعة العامرية  
الشرفية بمصر سنة ١٢٠٢ هـ وطبعة  
دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٥٢
- ١٢٦- العباس بن الأحنف : ديوانه مطبعة الجوائب بالقسطنطينية  
سنة ١٢٩٨ هـ .
- ١٢٧- عباس حسن : العتبي وشوق وإمارة الشعر ، دار المعارف  
بمصر سنة ١٩٧٣ .
- ١٢٨- عباس المقسباد : ابن الروسى ، المطبعة التجارية بمصر  
سنة ١٩٥٠ .
- ١٢٩- " " : اللغة الشاعرة ، مكتبة الأنجلو المصرية  
سنة ١٩٦٠ .
- ١٣٠- " " : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، دار  
القلم بمصر سنة ١٩٦٦ .
- ١٣١- " " : ما يقال عن الإسلام ، دار الهلال  
بمصر سنة ١٩٦٦ .

- ١٣٢- عباس الحفاد : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ،  
دار الهلال بمصر سنة ١٩٧٢ .
- ١٣٣- عبد الحسيب طه ( الدكتور ) : النصوص الأدبية في العصر الحديث ، مطبعة  
السعادة بمصر سنة ١٩٧١ .
- ١٣٤- عبد الحكيم حسان ( الدكتور ) : التصوف في الشعر العربي ، مكتبة  
الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٤ .
- ١٣٥- عبد الطيم الجندي : أحمد بن حنبل ، مطابيح الأهرام التجارية  
بمصر سنة ١٩٧٠ .
- ١٣٦- عبد الطيم المصري : بكرة المصري ، مطبعة مدرسة بني سويف  
الصناعية سنة ١٩١٩ .
- ١٣٧- عبد الحميد يونس ( الدكتور ) : بالاشتراك من غيره - دائرة المعارف  
الإسلامية ج٤ ، ج٥ ، ج٧ طبعة دار  
الشعب بمصر سنة ١٩٧١ .
- ١٣٨- عبد الحى بن المصايد : جذرات الذهب في أخبار من ذهب ج ٥ ،  
ج٧ مكتبة القدس بمصر سنة ١٣٥١ هـ .
- ١٣٩- عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، طبعة دار الشعب  
بمصر سنة ١٩٧٠ .
- ١٤٠- عبد الرحمن الرفاعي : عصر محمد علي مكتبة النهضة المصرية  
سنة ١٩٥١ .
- ١٤١- عبد الرحمن السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ج١  
مطبعة إدارة الوطن بمصر سنة ١٢٩٩ هـ .
- ١٤٢- " " " : المزهر ج١ ، مطبعة السعادة بمصر  
سنة ١٣٦٥ هـ .
- ١٤٣- عبد الرحمن شبيب ( الدكتور ) : في النقد الأدبي الحديث ، مطبعة دار  
التأليف بمصر سنة ١٩٦٨ .
- ١٤٤- عبد الرحمن الشيبانسي : تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على  
أسننة الناس من الحديث مطبعة صبيح  
بمصر سنة ١٩٦٣ .

- ١٤٥ - عبد الرحمن عبد الله السهيلي : الروض الأنف ج ١ ، ج ٢ مطبعة الجمالية  
بمصر سنة ١٩١٤ .
- ١٤٦ - عبد السلام سرخان (الدكتور) : قطوف من ثمار الأدب في الجاهليسة  
والإسلام ، القسم الثاني دار القومية  
العربية للطباعة بمصر سنة ١٩٧٢ .
- ١٤٨ - عبد المنز محمد : تشطير الجردة ، مطبعة دار الكتب المصرية  
سنة ١٩٣٤ .
- ١٤٩ - عبد المليم القبانسي : الهوسيري حياته وشعره ، دار المعارف بمصر  
سنة ١٩٦٨ .
- ١٥٠ - عبد القادر البندادي : خزانة الأدب وللبالاب لسان الصرب ج ١  
المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٢٩٩ هـ .
- ١٥١ - عبد القادر الرفاعي : نيل المراد في تشطير الهمزية والسبردة  
وبانت سعاد مطبعة الشرف بمصر سنة  
١٣٢٤ هـ .
- ١٥٢ - عبد القاهر الجرجاني (الإمام) : دلائل الإعجاز ، بتعليق الدكتور محمد  
خفاجي مكتبة القاهرة سنة ١٩٦٩ .
- ١٥٣ - " " " " : أسرار البلاغة بشرح الدكتور محمد خفاجي  
دار الطباعة المحمدية بمصر سنة ١٩٧٢ .
- ١٥٤ - عبد الكريم الخطيب : الأدب الصوفي في مفهوم جديد ، طبعة  
دار الثقافة العربية بمصر سنة ١٩٦٥ .
- ١٥٥ - " " " " : الجانب الإنساني في الأدب الصوفسي ،  
طبعة دار الثقافة العربية بمصر سنة  
١٩٦٦ .
- ١٥٦ - عبد الله بن عقيل : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، الشركة  
المصرية للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٧٦ .
- ١٥٧ - عبد الملك بن هشام : سيرة النبي بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين  
عبد الحميد ، طبعة دار التحرير بمصر  
سنة ١٣٨٣ هـ .

- ١٥٨- عبد الوهاب السبكي : معبد النعم ومبيد النقم ، دار الكتاب  
القروى بمصر سنة ١٣٦٧ هـ .
- ١٥٩- على بن أبى طالب (الإمام) : نهج البلاغة ، شرح الإطام محمسنده  
عبد ، وتحقيق محمد عاشور ومحمد  
المنسا ، طبعة دار الشعب بمصر  
سنة ١٩٦٨ .
- ١٦٠- على أحمد باكثير : نظام البردة ، مطبعة الشباب بمصر  
سنة ١٣٥٢ هـ .
- ١٦١- " " " : فن السرحية من خلال تجارب الشخصية  
مطبعة المعرفة بمصر سنة ١٩٦٤ .
- ١٦٢- على بن أحمد بن حزم : طوق الحمامة فى الألفه والألاف بتحقيق  
محمد عبد اللطيف بالاشتراك مع  
غيره ، مطبعة المدني بمصر سنة  
١٩٧٥ .
- ١٦٣- على بن بوهان الحلبي : إنسان الميون فى سيرة الأمين المأمون  
( السيرة الحلبية ) ج١ و٢ و٣ سيرة  
( دحلان ) المكتبة التجارية بمصر ،  
غير مؤرخ .
- ١٦٤- على الجنيدى (الدكتور) : تاريخ الأدب الجاهلى ج١ مكتبة الأنجلو  
المصرية سنة ١٩٦٩ .
- ١٦٥- على الجيسلاطى : بالاشتراك مع غيره - الذوق البلاغى ، مطبعة  
الجهاد بأسبوط غير مؤرخ .
- ١٦٦- " " : من أدباء الإسلام المحاصرين - مطابع  
الأهرام التجارية بمصر سنة ١٩٧٠ .
- ١٦٧- على بن الحسن السمودى : مروج الذهب بتحقيق الشيخ محمد محبى  
الدين عبد الحميد طبعة دار التحرير  
للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٦٦ .

- ١٦٨- علي بن الحسين الأصهباني : الأغاني ج ٥ ، ج ٨ ، ج ٩ طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر سنسنة ١٩٦٢ .
- ١٦٩- علي عاتق حسين (الدكتور) : الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤
- ١٧٠- " " " " : المديح النبوية في القرن الأول الهجري مطابع الأهرام التجارية بمصر سنسنة ١٩٦٨ .
- ١٧١- علي عبد العزيز الجرجاني (القاضي) : الوساطة بين المتبني وخصومه بتحقيق أبي الفضل والهاجوي - مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٩٦٦ .
- ١٧٢- علي مبارك : الخطط التوفيقية ج ٧ ، ج ٩ ، ج ١٠ المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣٠٥ هـ .
- ١٧٣- علي بن محمد بن الأثير : الكامل ج ٣ ، ج ٤ المطبعة الأزهرية ، بمصر سنة ١٣٠١ هـ .
- ١٧٤- " " " " : أسد النجابة في معرفة الصحابة بتحقيق محمد البنا - بالاشتراك مع غيره مدار الفشب بمصر سنة ١٩٧٥ .
- ١٧٥- علي محمد الحديدي (الدكتور) : محمود سامي البارودي ، دار الكائنات العربي للطباعة والنشر بمصر سنسنة ١٩٦٧ .
- ١٧٦- علي النجدي ناصف : الدين والأخلاق في شعر شوقي : مكتبة نهضة مصر سنسنة ١٩٦٤ .
- ١٧٧- عمر بن أبي ربيعة : ديوانه بشرح محمد المناني مطبعة السمادة بمصر سنسنة ١٣٣٥ هـ .
- ١٧٨- عمر الدسوقي : في الأدب الحديث ج ١ مطبعة الرسالة بمصر سنة ١٩٤٨ ج ٢ مطبعة دار الفكر العربي بمصر سنة ١٩٦١ .

- ١٧٩- عمير الدسوقي : محمود سامي البارودي ، دار المصارف  
بمصر سنة ١٩٥٣ .
- ١٨٠- عمر بن الفسارغ : ديوانه مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٩٥٣
- ١٨١- عيسى اسكندر المملوك : محارقات ( يا ليل الصب ) مطبعة الهلال  
بمصر سنة ١٩٦١ .
- ١٨٢- فاروق خورشيد : بالاشتراك مع غيره - محمد في الأدب  
المناصر ، المكتب الفني للنشر بمصر  
سنة ١٩٥٩ .
- ١٨٣- فتحي عثمان : الإمام الهوصيري ، مطابع الأهرام التجارية  
بمصر سنة ١٩٧٥ .
- ١٨٤- قيس بن الطنج : ديوانه ، المطبعة العامرة المثمانية بمصر  
سنة ١٣٠٩ هـ .
- ١٨٥- كامل السيد شامس : اللباب في العروض والقافية ، مطابع سجل  
المغرب بمصر سنة ١٩٧٦ .
- ١٨٦- كعب بن زهير : ديوانه بشرح السكوي ، مطبعة دار الكتب  
الصرية سنة ١٩٥٠ .
- ١٨٧- الكميث بن زيد الأسدي : القصائد الهاشميات ، ضبط محمد شاكسر  
الخياط ، مطبعة الموسوعات بمصر سنة  
١٣٢١ هـ .
- ١٨٨- لجنة من العلماء : المنتخب من السنة جا ١ مطابع الأهرام  
التجارية بمصر سنة ١٩٧١ .
- ١٨٩- ماهر حسن فهى (الدكتور) : أحمد شوقي مطبعة دار الكاتب المصري  
بمصر سنة ١٩٦٩ .
- ١٩٠- " " " " : شوقي : شعره الإصلاص ، دار المصارف  
بمصر سنة ١٩٥٧ .
- ١٩١- محمد بن أحمد بن إياس : تاريخ مصر ( بدائع الزهور في وقائع الدهور )  
جا ١ المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣١١ هـ
- ١٩٢- محمد بن أحمد بن طيهايا : عيار الشعر بتحقيق الحاج جري وسلام ، المكتبة  
التجارية بمصر سنة ١٩٥٦ .

- ١٩٣- محمد إساعيل إبراهيم : الأحاديث النبوية والمحدثون ، دار الفكر  
الحرى بمصر سنة ١٩٧٢ .
- ١٩٤- محمد بن إساعيل البخارى : صحيح البخارى طبعة دار الشعب بمصر  
سنة ١٩٦٨ .
- ١٩٥- محمد أمين : جغرافية مصر ، مطبعة وادى النيل بمصر  
سنة ١٢٩٦ هـ .
- ١٩٦- محمد بن بكر بن قيم الجوزية : زاد المعاد فى هدى خير المباد ج ١ ،  
ج ٢ ، ج ٣ المطبعة المصرية غير مؤرخ .
- ١٩٧- محمد بن الحسين الرضى : ديوان الشريف الرضى ، مؤسسة الأعلى  
للمطبوعات ببيروت ، غير مؤرخ .
- ١٩٨- محمد حسين هيكس (الدكتور) : حياة محمد ، الطبعة الخامسة مكتبة  
النهضة المصرية سنة ١٩٥٢ .
- ١٩٩- محمد حمودة عبد الرحمن : الدائح النبوية فى المصر الحاضر وأثرها  
فى الأدب ، رسالة ماجستير بمكتبة كلية  
اللغة العربية بجامعة الأزهر تحت  
رقم / ٤٣٤
- ٢٠٠- محمد الخضمرى : نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين مطبعة  
الاستقامة بمصر سنة ١٩٣٥ .
- ٢٠١- " " : محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ مطبعة  
الاستقامة بمصر سنة ١٣٧٠ هـ
- ٢٠٢- محمد بن الخطاب القرشى : جمهرة أشعار العرب ، المطبعة الخيرية  
بمصر سنة ١٣٣٠ هـ
- ٢٠٣- محمد خليل الخطيب (الشيخ) : غاية المطالب فى شرح ديوان أبى طالب  
مطبعة الشعراوى بطنطا سنة ١٩٥٠
- ٢٠٤- " " " " : بشرى المشاقين ببلوغ سيد المرسلين مطبعة  
الشعراوى بطنطا سنة ١٣٧٧ هـ .
- ٢٠٥- " " " " : وحى الحديث مطبعة الشعراوى بطنطا  
سنة ١٩٥٩ .

- ٢٠٦- محمد رشيد رضا ( الشيخ ) : تاريخ الأستاذ الإمام جآ مطبعة المنسار  
بمصر سنة ١٣٤٤ هـ .
- ٢٠٧- محمد رفعت : بالاشتراك مع غيره - تاريخ الإسلام ومصر  
الإسلامية ، دار القاهرة للطباعة بمصر  
سنة ١٩٥٧ .
- ٢٠٨- محمد زفلول سلام ( الدكتور ) : الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي ،  
مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية  
سنة ١٩٥٩ .
- ٢٠٩- محمد حسن محمد : الطبقات الكبرى ج ١ ، ج ٢ ، ج ٣ دار  
التحرير بمصر سنة ١٩٦٨ .
- ٢١٠- محمد السحدي فرهود ( الدكتور ) : قضايا النقد الأدبي الحديث مطبعة  
زهرا بمصر سنة ١٩٦٨ .
- ٢١١- " " " " : اتجاهات النقد الأدبي العربي ، دار  
الطباعة المحمدية بمصر سنة ١٩٧٠ .
- ٢١٢- محمد السعيد بسنج : الصحيدية في مدح خير البرية مطبعة  
المنار الكبرى بطنطا سنة ١٩٧٠ .
- ٢١٣- محمد بن سعيد البوصيري : ديوانه بتحقيق محمد سيد الكيلاني مطبعة  
العلبي بمصر سنة ١٩٥٥ .
- ٢١٤- " " " " : فن البردة عن طبعات ومنها مطبعة  
الشعري بمصر ، غير مؤرخة .
- ٢١٥- محمد بن سلام : طبقات فحول الشعراء ، المطبعة العمودية  
بمصر غير مؤرخ .
- ٢١٦- محمد بن سليمان الجزولي : دلائل الخيرات ، مكتبة القاهرة بمصر  
سنة ١٣٦٩ هـ .
- ٢١٧- محمد سيد الكيلاني : الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي  
في مصر والشام مكتبة مصر سنة ١٩٤٩ .
- ٢١٨- " " " " : مختار الشعر الجاهلي جآ مطبعة الحلبي  
بمصر سنة ١٩٧٠ .



- ٢١٩ - محمد بن شاكسر : قوات الوفيات ج٢ بتحقيق الشيخ محمد مجيب الدين عبد الحميد مكتبة النهضة بمصر سنة ١٩٥٤ .
- ٢٢٠ - محمد شفيق فرسان : بالاشتراك مع غيره - الموسوعة الميسرة ، مؤسسة فرانكلين بمصر سنة ١٩٦٥ .
- ٢٢١ - محمد صبرى ( الدكتور ) : الشوقيات المجهولة مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٦١ .
- ٢٢٢ - محمد طلعت حرب : تربية المرأة والحجاب ، مطبعة الترقى بمصر سنة ١٨٩٩ .
- ٢٢٣ - محمد بن الطيب الباقلاسى : إعجاز القرآن ، المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٩ هـ .
- ٢٢٤ - محمد بن عبد الباقي الزرقانى : شرح الزرقانى على المواهب اللدنية ج١ ، ج٥ المطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٢٥ هـ .
- ٢٢٥ - محمد بن عبد الرحمن القزوينى : التلخيص فى علوم البلاغة بشرح البرقوقى ، المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٦ .
- ٢٢٦ - محمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر الحديث المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٩٤٦ .
- ٢٢٧ - محمد عبد العزيز التجار : منار المسالك إلى أوضح المسالك ، مطبعة القبالة بمصر ، غير مؤرخ .
- ٢٢٨ - محمد عبد المننى حسن : أعلام من الشرق والغرب ، دار الفكر العربى بمصر سنة ١٩٤٩ .
- ٢٢٩ - محمد بن عبد الكريم الشهر ستانى : الملل والنحل على هامش كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج١ ، ج٢ مطبعة صبيح بمصر سنة ١٣٤٧ هـ .
- ٢٣٠ - محمد عبد المطلب : ديوانه بتصحيح إلبيارى بالاشتراك مع غيره مطبعة الاعتماد بمصر غير مؤرخ .
- ٢٣١ - محمد عبد المنعم خفاجى ( الدكتور ) : وحدة القصيدة فى الشعر العربى ، مطبعة المنيرة بمصر سنة ١٩٥٦ .

- ٢٢٢- محمد عبد المنعم خفاجي (الدكتور) : دراسات في التصوف الإسلامي ، دار  
الطباعة المحمدية بمصر - غير مؤمن .
- ٢٢٣- " " " " " " : دراسات في النقد العربي الحديث  
ومذا عمه ج ١ دار الطباعة المحمدية  
بمصر - غير مؤمن .
- ٢٢٤- " " " " " " : بالاشتراك مع غيره - من روائح الأدب  
العربي دار إحياء الكتب العربية  
بمصر سنة ١٩٧٤ .
- ٢٢٥- محمد بن عيسى الترمذي (الإمام) : سننه ج ٣ ، ج ٤ ، ج ٥ ، ج ٦ بشيخ  
عبد الرحمن عثمان مطبعة الفجالية  
الجديدة بمصر سنة ١٩٦٧ .
- ٢٢٦- محمد الخزالي (الشيخ) : فقه السيرة ، مطبعة دار الشعب  
بمصر سنة ١٩٧٢ .
- ٢٢٧- محمد غنيم هلال (الدكتور) : الحياة العاطفية بين المذنبية والصوفية  
مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٠ .
- ٢٢٨- " " " " " " : الأدب المقارن ، دار نهضة مصر للطباعة  
الثالثة سنة ١٩٧٣ .
- ٢٢٩- محمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين (الرابح  
عشر) ، المجلد الثاني مطبعة الواعظ  
بمصر سنة ١٩١١ .
- ٢٤٠- محمد كامل حسين (الدكتور) : العصر العربي والذوق المعاصر ، مؤسسة  
دار الشعب بمصر سنة ١٩٧٦ .
- ٢٤١- محمد كامل عبد العظيم : طراز البردة ج ١ مطبعة مصر سنة ١٩٥٧ .
- ٢٤٢- محمد كامل الفقي (الدكتور) : دراسات في الأدب العربي ، مطبعة  
هندي بمصر سنة ١٩٧٣ .
- ٢٤٣- " " " " " " : الأدب في العصر المملوكي ، الهيئة  
المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦ .

- ٢٤٤- محمد محمد حسين (الدكتور) : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر  
مكتبة الآداب بمصر سنة ١٣٨٢هـ
- ٢٤٥- محمد محمد الخزالي (الإمام) : منهاج المابدين بتعليق الشيخ محمد  
جابر مكتبة الجندی بمصر سنة ١٩٥٤
- ٢٤٦- " " " " : إحياء علوم الدين ج١٢هـ ج١٥ مطبعة  
دار الشعب بمصر سنة ١٩٦٨هـ
- ٢٤٧- " " " " : مدارج القدر في مدارج معرفة النفس  
مطبعة الاستقامة بمصر فيرمون
- ٢٤٨- محمد مختار : التوفيقات الإلهامية ، المطبعة الأميرية  
بمصر سنة ١٣١١هـ
- ٢٤٩- محمد مصطفى حلمي (الدكتور) : الحب الإلهي في التصوف الإسلامي  
دار القلم بمصر سنة ١٩٦٠هـ
- ٢٥٠- محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب ج٤هـ ، ج٩هـ ، ج١٥ المطبعة  
الأميرية بمصر سنة ١٣٠٠هـ
- ٢٥١- محمد بن موسى الديري : حياة الحيوان الكبرى ج١ دار التحريم  
بمصر سنة ١٩٦٥هـ
- ٢٥٢- محمد ناصر الدرعي : النور المحمدي طبع سنة ١٩٧٦ ولسم  
يدون عليه اسم المطبعة
- ٢٥٣- محمد بن يعقوب الفيروزبادي : القاومر المحيط ج٤ المطبعة الميمنية بمصر  
سنة ١٣١٩هـ
- ٢٥٤- محمود جبر : قوتی (أرنهج جدید للبردة) مطابع دار  
الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٤٦هـ
- ٢٥٥- " " : ديوان شاعر آل البيت مطبعة دار الطباعة  
القومية بمصر سنة ١٩٥٩هـ
- ٢٥٦- محمود حمدي الفلكي : المولد النبوي مطبعة الأزهر بمصر سنسنة  
١٩٦٩هـ
- ٢٥٧- محمود رزق سليم : الآداب المصرية من عهد الفاطميين إلى  
اليوم مطبعة صالح الدين بالإسكندرية  
سنة ١٩٣٨هـ

- ٢٥٨ - محمود سامي البارودي : كشف الشبهة في مدح سيد الأمة، مطبعة  
الجريدة بمصر سنة ١٢٢٧ هـ .
- ٢٥٩ - " " " : ديوانه ج ١ ، ج ٢ بتعليق علي الجسارم  
ومحمد معروف دار المعارف بمصر سنة  
١٩٧١ هـ بتعليق محمد معروف دار  
المعارف بمصر سنة ١٩٧٢ .
- ٢٦٠ - محمود شلتوت (الشيخ) : الفتاوى دار الشروق بمصر سنة ١٩٧٤ .
- ٢٦١ - محمود صفوت الساعاتي : ديوانه مطبعة المعارف بمصر سنة ١٩١١ .
- ٢٦٢ - مسلم بن الحجاج القشيري (الإمام) صحيح مسلم ، بشرح النووي ، وتحقيق  
عبد الله أبو زينة دار الشعب بمصر  
سنة ١٩٧١ .
- ٢٦٣ - مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم ج ٣ بضبط محمد سعيد الصريان  
مطبعة الاستقامة بمصر سنة ١٩٥١ .
- ٢٦٤ - منازي عامر : الترياق الصمدى بتحقيق محمد النجاتي سنة  
١٩٧٦ هـ ولم يدون عليه اسم المطبعة .
- ٢٦٥ - مهيار الديلمي : ديوانه ج ١ ، ج ٢ مطبعة دار الكتب المصرية  
سنة ١٩٣١ .
- ٢٦٦ - ميمون بن قيس : ديوان الأعشى الكبير بشرح الدكتور: محمد  
حسين ، مكتبة الآداب بمصر سنة ١٩٥٠ .
- ٢٦٧ - نجيب المقيسي : المستشرقون ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٧ .
- ٢٦٨ - نجيب محمد البهبهتي : تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث  
الهجري مطبعة دار الكتب المصرية سنة  
١٩٥٠ .
- ٢٦٩ - الهذليسون : ديوان الهذليين ، دار القومية للطباعة  
والنشر بمصر سنة ١٩٦٥ .
- ٢٧٠ - همام بن غالب : ديوان الفرزدق ج ١ بتعليق عبد الله الصاوي  
مطبعة الصاوي بمصر سنة ١٩٣٦ .

- ٢٧١ - ول ديورانت (الدكتور) : قصة الحضارة ج٢ المجلد الرابع ترجمته  
محمد بدران ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة  
والنشر بمصر سنة ١٩٥٥ .
- ٢٧٢ - الوليد بن عبيد : ديوان البحترى مطبعة الجوائب بالقسطنطينية  
سنة ١٣٠٠ هـ .
- ٢٧٣ - ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مطبعة السعادة بمصر  
سنة ١٩٠٦ .
- ٢٧٤ - " " : معجم الأدباء ج١١ مطبعة دار المأمون بمصر  
سنة ١٩٢٧ .
- ٢٧٥ - يحيى بن يوسف المصري : ديوان مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر تحت رقم  
٢٤٨١ المسماة .
- ٢٧٦ - يوسف البديع : عمدة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ، بتحقيق  
محمود مصطفى مطبعة القاهرة سنة ١٩٣٤ .
- ٢٧٧ - يوسف بن تخرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٢ ،  
ج٦ ، ج٧ مطبعة دار الكتب المصرية  
سنة ١٩٣٦ .
- ٢٧٨ - " " " " : المنهل الطافي والمستوفى بمحمد الوافي ج١  
ج٣ بتحقيق أحمد نجاتي ، مطبعة دار الكتب  
المصرية سنة ١٩٥٦ .
- ٢٧٩ - يوسف النبهانسي : المجموعة النبهانية ج٢ ، ج٤ المطبعة الأدبية  
ببيروت سنة ١٣٢٠ هـ .
- ٢٨٠ - " " : الشرف المومند آل محمد مطبعة الحلبي بمصر  
سنة ١٩٦١ .

بالإضافة إلى القرآن الكريم ، ومصر والدورسات مثل : مجلة الأزهر ،  
ومجلة منبر الإسلام ، ومجلة الشبان المسلمين ، ومجلة الرسالة ، ومجلة الثقافة  
ومجلة أبولو ، ومجلة أدبي ، ومجلة لواء الإسلام ، وصحيفة دار العلوم ، ومجلة  
الشعر ، وصحيفة الأخبار المصرية ، وصحيفة الأهرام المصرية .

فهرس الموضوعات

إهداء

شكر وتقدير

مقدمة : ( ١ - ٥ )

تمهيد : المدايح النبوية قبل بركة البوصيري ( ١ - ٦٥ )

- عادة الأمم في تكريم عظمائها - حالة النام قبيل بحثة الرسول (١)
- بحثة الرسول وموقف الناس منها (٢) نشأة المدائح النبوية (٣)
- أبو طالب يمدح الرسول (٤ - ٥) ، قصيدة الأعشى ، وموقف
- النقاد منها (٥ - ٨) ، قصيدة كعب بن زهير وأثرها (٨ - ١٠)
- مدايح حسان بن ثابت وأقسامها (١٠ - ١٣) ، قصيدة النابغة
- الجمدي (١٤) مدائح : العباس بن عبد المطلب ، عبد الله ابن
- رواحنة ، كعب بن مالك وغيرهم (١٥ - ١٧) ، شعراء مدحوا آل
- البيت : الفرزدق (١٨) الكميت (١٩) ، دعلج ، أبو فراس الحمداني
- (٢١) ، الشريف الرضي ، مهيار (٢٢) ، وفاة البرعي (٢٣) مدائح
- المصرى (٢٤) سطات مدائح الرسول من يوم نشأتها إلى القسطن
- الساين البهجرى (٢٤ - ٦٥)

الباب الأول

بسرده البوصيري (٢٦ - ٢٤٣)

الفصل الأول : البوصيري من مهده إلى لحدده ( ٢٧ - ٦٧ )

- أثر الإيمان في بيئته (٢٧) الحالة السياسية في عصر الخاعسر ،
- الحروب الصليبية ، موقعة حطين ، حالة مصر والشام قبل صلاح الدين
- ومعه (٢٨) ، البوصيري يشير إلى أسر لوليس التاسع (٣٠) نهاية
- الدولة الأيوبية وبداية الدولة المملوكية (٣١) موقعة عين جالوت
- (٣٢) البوصيري يشير إلى بعض منشآت قلاوون (٣٣) إشارة
- البوصيري إلى انتصار المسلمين في عكا (٣٤) . الحالة الاقتصادية
- (٣٤) سوء الحالة الاقتصادية ، فرض الضرائب ، انتشار

الرشوة (٣٥) إشارة البوصيري إلى سوء حالة الموظفين • الحالة الاجتماعية :  
تألف المجتمع من عناصر شتى ، طبقة الحكام (٣٦) طبقة الرعية ، طبقة  
أهل الذمة ، إشارة البوصيري إلى جدان المسلمين وغيرهم (٣٧) إشارة  
البوصيري إلى ظلم بعض القضاة ، وظلم أهل أسوان (٣٨) انتشار بعض  
الأمراض الاجتماعية (٣٩) الحالة الثقافية : عوامل نهضة الثقافة  
(٣٩-٤١) ، بعض الشعراء يهجرون الشعر (٤٢) نسب البوصيري  
(٤٣) مولده (٤٤-٤٦) أسرته (٤٧) نشأته وتعليمه (٤٨) من  
هو البوصيري الذي عرف بالتمصق في علم الحديث ، نصيب البوصيري  
من المعلوم العربية والدينية والميسرة النبوية (٥٠) شيوخه  
وتلاميذه ، عمله : كتابته شواهد القبور (٥١) مباشر فسي  
بليبس ، هجاءه الموظفين لسوء خلقهم (٥٢) فصله من عمله ،  
فتح كتابها في القاهرة ، شدة فقره (٥٣) ، رفضه وظيفة الحسبة ،  
عمله مباشرا بالمحلة الكبرى ، هجاءه الموظفين ، نقله إلى سغا (٥٤)  
تركه العمل في سغا ، وفتح الكتاب مرة ثانية في القاهرة ، انتدابه إلى  
السادة الشاذلية (٥٥) وفاته والاختلاف في زمانها ومكانها  
(٥٦-٥٨) صفاته وأخلاقه (٥٨) كثرة شكواه (٥٩) هجاءه  
(٦٠-٦١) شاعريته بأقسام مدائح : مدحه الأمراء (٦٢) مدحه  
الرمون ، سبب تفوقه في المدائح النبوية (٦٣-٦٥) بعض مدائحه  
(٦٦)

### الفصل الثاني : دراسة البردة وتحليلها (٦٨ - ٦١٧)

أصل كلمة البردة ، أول قصيدة سميت البردة (٦٨) إطلاق لفظ البردة  
على قصيدة البوصيري ، وسبب ذلك (٦٩) روميا البوصيري رسول الله  
وموقف بعض الكتاب منها : إنكار ثم إقرار (٧١) إنكار وإصرار - الرد  
على محقق الديوان (٧٢) تشويش (٧٤) رأى الباحث ، حكم روميا  
الرسول شرفا (٧٥) بعض من رأى الرسول من الصحابة وغيرهم (٧٦)  
حكم العلاج بالمدائح والممنويات (٧٧) شك محقق الديوان (٧٩)

أسماء أخرى للجرة ، وزنها - رويها عدد آياتها (٨٠) اختلاف رأى  
محقق الديوان وسببه ، أهم أفكار البردة (٨١) مطلعها ، نكتة  
الاستفهام بالهمزة (٨٣) من علامات الحب (٨٦) خطأ لنوى ،  
علامات أخرى للحب (٨٧) خطأ لنوى (٨٨) من لوازم الحب (٨٩)  
لوم واعتذار (٩٣) إرشاد وإعراض (٩٥) النفس الأمارة (٩٦)  
أقسام النفس عند الصوفية (٩٩) البحث عن مطلع (١٠٠) ، داء  
النفس ودوائها (١٠٢) خطأ لنوى (١٠٤) ملاحظة النفس  
عند الحمل الصالح (١٠٥) التحذير من الجوع والشبع المفرطين (١٠٨)  
التوبة (١٠٩) عصيان النفس والشيطان (١١٠) - القول بسلا  
عمل وأثره (١١٢) مدح الرسول (١١٤) من محجزات الرسول  
يوم الخندق (١١٦) - الرسول يرفض أن تكون الجبال له ذهباً  
من عوامل الإغراء في هذه الدنيا ، الرد على من زعم أن قصة الجبال  
التي عرضت على الرسول من مالهات المتصوفة (١١٧) زهد الرسول  
(١١٨) ، هوقف بعض الكتاب من قال إن الرسول هو صيب ذلك الوجود  
(١١٩) ، شفاعة الرسول ، حب الرسول (١٢١) أثر التمسك  
بالدين ، فضل الرسول (١٢٢) - النور المحمدي (١٢٤) حكم  
تفضيل بعض الأنبياء على بعض (١٢٥) المدح الضمى عنه (١٢٧)  
خطأ لنوى ١٢٨ - الرد على من زعم أن الرسول أكمل للبوصيري بيتها  
من الشعر (١٢٩) - مولد الرسول ١٣٤ - طهارة الرسول من سفاح  
الجاهلية - ١٣٥ - أحداث وقعت عند مولد الرسول ١٣٦ - الصرصري  
وسببه البوصيري في الإشارة إلى تلك الأحداث ١٣٨ ، قصة أبرهة  
(١٤١) غزوة حنين ١٤٢ - بعض محجزات الرسول (١٤٤) - شق  
المدر وانشقاق القمر ، هجرة الرسول (١٤٥) - النهي عن سب الدهر ،  
حكم التوسل (١٥٠) ، مقدمات الوحي (١٥١) الروييا الصالحة ١٥٢  
تنام عيناً الرسول ولا ينام قلبه ، النسوة لا تنال بالاكساب (١٥٣)  
بعض معجزات الرسول (١٥٥) - القرآن الكريم (١٥٧) الرد على  
من يقول القرآن معجز بالصرفة (١٦٥) ، وصف الرسول للقرآن (١٦٨)



فضل تلاوة القرآن (١٦٨) - الإسراء والمعراج (١٧٢) ، مدح  
المعراج (١٧٥) من أسباب المعراج (١٧٧) بشري للمسلمين (١٧٩)  
جهاد الرسول (١٨٠) أثر بعثته (١٨١) شجاعة الرسول  
وأصحابه (١٨٣) وصف جيش المسلمين (١٨٥) مدح الصحابة  
(١٨٨) موازنة (١٩٠) أثر نصرة الرسول (١٩٦) من فضل  
الله على رسوله (١٩٨) مدح الرسول (١٩٩) ندم وأمل (٢٠٠)  
خسارة من يفضل الدنيا على الدين (٢٠٢) الأمل في شجاعة الرسول  
(٢٠٣) في مدح الرسول غنى (٢٠٦) رجاء ودعاء (٢٠٨) عدم  
اليأس من رحمة الله (٢١١) تضرع إلى الله (٢١٦) الصلاة على  
رسول الله (٢١٤) أبيات زائدة (٢١٦)

أثر السيرة (٢١٨ - ٢٤٣)

الفصل الثالث:

فروق بين البردة وبانت سعاد (٢١٨) أثر البردة في الجواهر الشعبية  
(٢١٩) في القاهرة - قرائتها أمام الجنائز ، ومخالفة ذلك لمهدي  
الرسول (٢٢٠) في الإسكندرية ، في طنطا ، في الإذاعة ، المخالفة  
في الحفاوة بالبردة (٢٢١) أثر البردة في الدرس، أثرها في التأليف  
(٢٢٢) الرد على من أنكروا في البردة أثرها للمصوفية ، أساس الحساب  
المصوفي (٢٢٤) أهم أفراس الأدب المصوفي وسماته (٢٢٦) بيسان  
سمات الأدب المصوفي في البردة (٢٢٨) الإمام الفزالي سبو البوصيري  
في العناية بأمر النفس (٢٣١) أثر البردة في البديعيات (٢٣٣)  
بعض البديعيات (٢٣٥) قيمتها (٢٣٩) أثر البردة في الشعر  
والشعراء (٢٤٠) .

الباب الثاني

معارضة البردة في العصر الحديث - قبل شوقي (٢٣٥ - ٢٤٤)

المعارضة ودافعها (٢٤٥ - ٢٦٠)

الفصل الأول :

معنى المعارضة (٢٤٥) ، نعاتها وانتشارها في الشعر العربي - في

المصر الجاهلي (٢٤٦) في عصر صدر الإسلام (٢٥٠) في مصر  
الأموي (٢٥٢) في مصر المباسي، في مصر المملوكي (٢٥٣) في  
المصر العثماني (٢٥٤)، دوافع المعارضة: الإعجاب (٢٥٥) -  
التصدي (٢٥٧) ، الاستعانة (٢٥٨) التلمية (٢٦٠) .

### الفصل الثاني: العصر الحديث وأهم معالمه ( ٢٦١ - ٢٨٠ )

بدء العصر الحديث (٢٦١) المعالم السياسية : عزل مصر عن العالم،  
الجملة الفرنسية (٢٦٣) حكم محمد علي وأولاده (٢٦٤) الثورة  
المرابطية (٢٦٦) بعض المناضلين، وثورة ١٩١٩ (٢٦٧) شوقس  
يشير إلى اختلاف الأحزاب، ثورة ١٩٥٢ (٢٦٨) المعالم الاقتصادية :  
نكسة الزراعة والصناعة والتجارة (٢٧٠) إنشاء بعض المصانع والشركات  
وغير ذلك (٢٧١) المعالم الاجتماعية : طبقات المجتمع (٢٧٢) فرض  
الضرائب (٢٧٣) المرأة عند رفاة الطميطاوي وقاسم أمين وبعض  
الشعراء (٢٧٥) المعالم الثقافية : الأزهر - البحوث (٢٧٦)  
التعليم في عصر محمد علي وأبنائه، ظهور بعض الصحف (٢٧٧) حركة  
إحياء القديم، إنشاء بعض الجمعيات العلمية (٢٧٨) محاربة اللغة  
العربية، ظهور بعض المدارس الأدبية (٢٧٩) .

### الفصل الثالث: معارضا الدرويش والتمورية وأثرهما ( ٢٨١ - ٣٣٥ )

أ - معارضة الدرويش، نسب الشاعر، مولده، نشأته ٢٨١، شعره  
وفاته، آثاره (٢٨٢)، إعجابه بالبردة (٢٨٣) أهم أفكار  
معارضته، عدد أبياتها (٢٨٤) مدح الرسول (٢٨٦) مراجعته  
(٢٨٩)، مولده (٢٩١) نصاب لليهود والنصارى (٢٩٣) محمد  
وعيسى أخوان (٢٩٥) هجرة الرسول (٢٩٦) بعض أصحاب الرسول  
(٢٩٨) آل البيت (٣٠٠) مدح عباس الأول (٣٠٢)، مدح الرسول  
(٣٠٣) فضل البوصيري ومولده (٣٠٤) الختام (٣٠٦) .  
ب - معارضة التمورية . نسبها - مولدها (٣٠٧) - نشأتها  
زواجها (٣٠٨) آثارها، شعرها (٣٠٩) شعرها الديني (٣١١)

معارضتها ، عدد أبياتها ، مطلعها ( ٣١٥ ) مدح الرسول ، فضل  
القرآن ( ٣١٧ ) من أسماء الرسول ( ٣١٨ ) ندمها ( ٣٢١ )  
بعض معجزات الرسول ( ٣٢٣ ) اعتذارها لتقصيرها في مدح الرسول  
( ٣٢٤ ) النفس وعلاجيهما ( ٣٢٥ ) ريساء ودعاء ( ٣٢٨ ) ختام  
( ٣٢٩ ) أثر معارضة الدرويش والتجورية ( ٣٣٠ - ٣٣٤ )

### الباب الثالث

معارضة البارودي ( ٣٣٦ - ٤٨٥ )

### الفصل الأول : حياة البارودي : ( ٣٣٧ - ٣٤٨ )

نسب البارودي ، مولده ، نشأته ( ٣٣٧ ) ، دراسته المنزلية وغيرها  
( ٣٣٨ ) سفره إلى الآستانة ، عودته إلى مصر ( ٣٤١ ) اشتراكه  
في بعض الحروب ، بعض وظائفه ، عزله ( ٣٤٢ ) عودته إلى العمل  
نفيه إلى سرنديب ، وفاة زوجته ( ٣٤٣ ) وفاة بعض أصحابه ، مرضه ،  
عودته إلى مصر ( ٣٤٤ ) وفاته ، آثاره ( ٣٤٥ ) شاعريته  
وأسباب قوتها ( ٣٤٦ ) شعره الديني ( ٣٤٧ ) .

### الفصل الثاني : دراسة وتحليل " كشف الغمة في مدح سيد الأمة ( ٣٤٩ - ٤٦٥ )

مدائح البارودي النبهة ، عدد أبيات كشف الغمة ، مقدمتها ( ٣٤٩ )  
رسالة محقق الديوان إلى الباحث ، مطلع القصيدة ( ٣٥٠ ) زمن الشباب  
ولس ( ٣٥٣ ) الشاعر يشير إلى ما يكابده في منفاه ( ٣٥٤ ) وصف  
القطاة ( ٣٥٥ ) مدح الرسول ( ٣٥٦ ) دعوة إبراهيم وشري عيسى  
( ٣٥٧ ) نسب الرسول ( ٣٥٨ ) زواج عبد الله بآمنة ( ٣٦٠ )  
حمل آمنة بالرسول وولادته ( ٣٦١ ) مولده ، رضاعته وأثرها  
( ٣٦٢ ) شق الصدر ( ٣٦٥ ) قصة بحيرى ( ٣٦٦ ) الصناديق  
الأميين . عمله في تجارة خديجة ( ٣٦٨ ) ما رآه من مصر ( ٣٦٩ )  
زواج الرسول بالسيدة خديجة ( ٣٧٠ ) بناء الكعبة ( ٣٧١ ) وضع  
الحجر الأسود ( ٣٧٢ ) مقدمات البهشة ( ٣٧٥ ) بدء البهشية

بعض من أسلم (٣٧٦) الهجرة الأولى إلى الحبشة (٣٧٩) مقاطعة  
قرينش (٣٨١) قصة الطفيل بن عمرو قصة الأراشي (٣٨٢)  
بعض معجزات الرسول (٣٨٣) الإسراء والمصراع (٣٨٤) فسرغ  
المسألة (٣٨٦) إسلام بعض الأنصار (٣٨٧) موقف قرينش من  
بيعة الأنصار (٣٨٨) الرسول يأمر أصحابه بالمهجرة إلى  
المدينة (٣٨٩) وفاة قرينش (٣٩٠) جبريل يكشف المواظرة  
الأمر بالمهجرة ، في الفار (٣٩٣) الرسول يخرج من الفسار  
(٣٩٦) قصة أم ميمون (٣٩٧) قصة سراقمة (٣٩٨) وصول  
الرسول إلى المدينة (٤٠٠) بناء المسجد النبوي ، المؤاخسة  
بين المهاجرين والأنصار (٤٠١) فوجر الجهاد (٤٠٤) بعض  
السرايا والفتوات (٤٠٥) تحويل القبلة (٤٠٦) غزوة بدر وأثرها  
(٤٠٧) بعض الفتوات (٤١٠) بعض السرايا ، غزوة أحد وأثرها  
(٤١٦) رد عين قتادة (٤١٦) بعض الفتوات والسرايا (٤١٧) غزوة  
الخندي (٤١٩) الأحزاب (٤٢٠) بعض الفتوات (٤٢٢) غمزة  
خيبر (٤٢٣) الراية لملي (٤٢٤) عودة بعض مهاجري  
الحيضة (٤٢٧) عمرة القضاء ، سرية مؤتة (٤٢٨) فتح  
مكة (٤٢٩) جيش المسلمين (٤٣٠) عفو الرسول (٤٣٤) الرسول  
يشكر الله (٤٣٧) حنين (٤٣٨) الطائف - تبوك (٤٣٩) ببيعة  
السرايا وسبب نظمها (٤٤١) ، الهارودي ورواية الرسول (٤٤٦)  
النفس الأمانة (٤٤٧) الطمع في عفو الله (٤٥٠) مدح الرسول  
وأثره (٤٥٣) من نفعات الرسول (٤٥٥) إهداء القعيدة إلى  
الرسول (٤٥٧) سبب النسيب (٤٥٨) تضيح البيت وزينة  
الرسول (٤٦٠) التضرع إلى الله ، وطلب شفاعته رسول الله  
الختسام (٤٦١ - ٤٦٤)

(٤٦٦ - ٤٨٥)

الفصل الثالث: أثر معارضة الهارودي

أقصيدة الهارودي معارضة للبردة أم لا ؟ (٤٦٦) ، ما يثبت المعارضة  
(٤٦٧) زمن نظم تلك القصيدة (٤٦٩) أثار الهارودي بمعارضتي

الدرويش والجمهوريّة (٤٧١) ، مأخذ على الشاعر ، البارودي لسم  
يقتصر على سيرة ابن هشام (٤٧٣) ، البارودي ترك أفكاراً وردت  
في سيرة ابن هشام ولم يشتر إليها (٤٧٤) ، وقصر في أفكار ذكرها  
(٤٧٨) ، في القصيدة دليل على التقليد والتجديد (٤٨٢) ، مميزات  
الملحمة (٤٨٣) ، أثر قصيدة البارودي في ظهور بعض الطسولات  
(٤٨٥) .

### الهـاب الرابع

معارضة شوقي (٤٨٦ - ٥٧٥)

الفصل الأول : شوقي من مولده إلى وفاته (٤٨٧ - ٤٩٦)

نسب الشاعر ، مولده ، نشأته (٤٨٧) ، تعليمه ، سفره إلى  
فرنسا ، عودته إلى مصر ، عمله ٤٨٨ - نفيه ٤٨٩ ، عودته  
إلى مصر (٤٩٠) ، تكريم شوقي ، وفاته ، آثاره (٤٩٢) ،  
شاعريته ، عوامل نبوغه فيها (٤٩٣) ، شعره الديني (٤٩٤)

الفصل الثاني : دراسة وتحليل نهج البردة (٤٩٧ - ٥٦٣)

عدد أبيات نهج البردة ، سبب نظمها (٤٩٧) ، وتاريخه ، مطالعها  
(٤٩٩) ، صفات محبوبته (٥٠٣) ، النفس والدينا (٥٠٧) ، نسيم  
الشاعر على ما شرط منه (٥١٠) ، علاج النفس (٥١١) ، مخففة  
اللحم وشفاة رسوله (٥١٢) ، مدح الرسول وأثره (٥١٤) ، خطأ  
معنوي (٥١٦) ، نسب الرسول (٥١٧) ، الرسول في قمار حسراء  
قبيل البحثة (٥١٨) ، بعض محبذات الرسول (٥١٩) ، نزول الوحى  
أول مرة (٥٢١) ، السخرية من قريش (٥٢٢) ، القرآن الكريم (٥٢٣)  
بلاغة الرسول وأثرها (٥٢٤) ، مولد الرسول (٥٢٦) ، حالة المالم  
قبل بعثته (٥٢٧) ، الإسراء والمعراج (٥٢٩) ، تكريم الرسول (٥٣٠)  
هجرة الرسول ، التفكار حول الضار (٥٣٢) ، توسل الشاعر بالرسول  
فضل البوصيري وردته (٥٣٤) ، مدح الرسول (٥٣٦) ، الحروب فسي

الإسلام ، وانعزاق المستشرقين ( ٥٤٠ ) الحرب في الصحبة ( ٥٤٢ )  
مدح الرسول ( ٥٤٤ ) الشريعة الإسلامية وأثرها ( ٥٤٨ ) الحضارة  
الإسلامية وغيرها ( ٥٥٦ ) الخلفاء المسلمون وأثرهم ( ٥٥٥ ) الصلاة  
والسلام على رسول الله ( ٥٥٩ ) التضرع إلى الله ( ٥٦١ )  
الختام ( ٥٦٦ ) .

الفصل الثالث: قيمة معارضة شوقي ( ٥٦٤ - ٥٧٥ )

أشوقى بنفسى المعارضة مطلقاً أم لا ( ٥٦٤ ) ، نظره إلى التيمورية  
والبارودى ( ٥٦٦ ) شخصية شوقي فى قصيدته ( ٥٦٨ ) سبب  
عدم ترتيب أفكاره فى القصيدة ( ٥٧٠ ) ، ما فى نهج البردة من الطائف  
( ٥٧١ - ٥٧٥ ) .

الباب الخامس

معارضات البردة بعد شوقي ( ٥٧٦ - ٦٧٩ )

الفصل الأول: عشر موجز لمعارضات البردة بعد شوقي ( ٥٧٧ - ٦٧٠ )

أساس ترتيب تلك المعارضات ، المعارضة الأولى : ( ظل السبردة  
لمبدأ الطلب ) نسب الشاعر ، مولده ، نشأته ( ٥٧٧ ) تعليمه  
عمله ، وفاته ، آثاره ( ٥٧٨ ) شاعريته ، شعره الدينى ، عدد  
أبيات معارضته ، نظرة إلى نهج البردة ( ٥٧٩ ) مطلعها ( ٥٨٠ )  
أسفه على تفريق العرب ( ٥٨١ ) أثر الرسول ، الناس قبل الهجرت  
( ٥٨٢ ) ، قريش وأثرها ( ٥٨٤ ) نظره إلى من سبقه من أصحاب  
معارضات البردة ( ٥٨٥ ) نزول الوحى ، حلم الرسول مع القصار  
( ٥٨٦ ) بعض من أسلم ( ٥٨٧ ) جهاد الرسول وأصحابه ، يوم بدر  
( ٥٨٨ ) ما فى ظل البردة من تقليد وتجديد ( ٥٨٩ )  
المعارضة الثانية : ( معارضة الحملاوى ) نسب الشاعر ، مولده ، نشأته  
تعليمه ، عمله ، وفاته ، آثاره ( ٥٩٠ ) شاعريته ، شعره الدينى  
( ٥٩١ ) اسم المعارضة ، زمن نظمها ، عدد أبياتها ، تجديد

مطلبها (٥٩٢) التضرع إلى الله ، وطلب شفاعته رسول الله  
(٥٩٣) الممرج (٥٩٤) حب الرسول ، النامر قبل الممثلة  
(٥٩٥) نظره إلى من سبقه من أصحاب معارضات البردة ، مدح  
الرسول (٥٩٦) ، النور المحمدي ، الاعتراف بالتقدير (٥٩٧) .

المعارضة الثالثة : ( النفحة الأحمديّة في مدح خير البرية ) نسب  
ناظمها ، مولده ، نشأته ، (٥٩٨) وفاته ، آثاره (٥٩٩)  
عدد أبيات النفحة الأحمديّة ، وتاريخ نظمها ، نظره إلى البردة  
ونهجها (٦٠٠) النفس وهواها ، فساد الأخلاق (٦٠١)  
تفريق بلاد الشرق ، التفاريق بين الرسول ، إيذاء الأنبياء  
السابقين (٦٠٢) مولد الرسول ، نظره إلى البارودي ، في غبار  
عراق (٦٠٤) نظره إلى عبد المطلب وشوقه (٦٠٥) مع ورقة  
ابن نوفل والسيدة خديجة (٦٠٦) القرآن الكريم ، حالة الناس  
قبل البثثة ، أثر رسالة الرسول ، هجرة الرسول (٦٠٧)  
الدعوة إلى الله بالحسنى (٦٠٨) بيان سبب الحرب ، شجاعة  
الصحابية (٦٠٩) حضارة الإسلام ، فائدة الدين (٦١٠) توسله  
بالرسول ، فضل البوصيري وبردته (٦١١) دعاء ورجاء ، ختمه ،  
قيمة تلك المعارضة (٦١٢) -

المعارضة الرابعة : ( نظام البردة أو ذكرى محمد ) ناظمها ، مولده  
نشأته ، تعلمه ، هبله ، وفاته ، آثاره (٦١٤) شاعريته ،  
عدد أبيات معارضته (٦١٥) تاريخ نظمها ، مطلبها ، أسفة لتفريق  
العرب ، الندم على شبابها (٦١٦) توجيهه إلى المسجد النبوي  
(٦١٧) أمم الروضة الشريفة ، أثر المسجد النبوي (٦١٨)  
مولد الرسول (٦١٩) الإسلام وتعليم المرأة (٦٢٠) تمسك  
زوجات الرسول (٦٢١) الحرب في الإسلام ، بعض أركان الدين  
(٦٢٢) الناس سيواسية حقوق المرأة ، وظيفتها الفطرية (٦٢٣)  
الروي في الإسلام (٦٢٤) حديث إلفك (٦٢٥) براحة السيدة  
عائشة ، حديث السحر (٦٢٦) حال الأمة الإسلامية (٦٢٧)  
التضرع إلى الله ، إشارته إلى البردة ونهجها ، ختم أثرها (٦٢٩)

الممارسة الخامسة: (قربى) ناطقها ، مولده ، نشأته ، تعلمه ،  
عمله - شاعريته ، نشاطه (٦٣٠) ، عدد أبياتها ، تاريخ نسخ  
نظمها ، مطلعها (٦٣١) مولد الرسول ، ذهبه إلى الطائف  
(٦٣٢) الرد على منكرى المصراع ، استخدام الذرة في الدمار  
(٦٣٤) الصجز عن مدح الرسول (٦٣٥) حب الرسول (٦٣٦)  
وفاته ، وأثرها (٦٣٧) فضل البوصيري وبرهته ، ختام أثرها  
(٦٣٨) .

الممارسة السادسة: (بشرى الماشقين ببلوغ سيد المرسلين)  
نسب الشيخ الخطيب ، مولده ، نشأته ، تعلمه ، عملها  
شاعريته ، مؤلفاته (٦٣٩) عدد أبيات معارضته ، تاريخ  
نظمها ، (٦٤٠) مطلعها ، فضل الصلاة على رسول الله  
(٦٤١) حالة العالم قبل البعثة ، نظره إلى شوقي (٦٤٢)  
مولد الرسول ، وفاة والده ، ووالدته (٦٤٣) كفاية جده عبد  
المطلب وعنه أبي طالب ، الإسراء والمصراع والرد على من  
أنكرها (٦٤٤) الهجرة إلى المدينة (٦٤٥) فضل الصحابة  
والتحذير من الخوض فيهم ، فضل القرآن (٦٤٦) فصاحة الرسول ،  
فضل الشريعة الإسلامية (٦٤٧) المواشاة (٦٤٨) الحديث  
عن اليهود والربا (٦٤٩) ، تعدد زوجات الرسول ، بيان حكمته  
التعدد ، حرمة زواج أزواج الرسول من بعده (٦٥٠) جواز التعدد  
مع المدل إلى أرسخ (٦٥٤) الطلاق ، الرق ، الحرب فسي  
الإسلام (٦٥٦) الطريق إلى اللعنة العلم والإحسان  
(٦٥٧) مخالفة النفسه والحذر من الدنيا ، نظره إلى  
البوصيري (٦٥٨) شفاعته الرسول وروضه ، المحب الحقيقي  
يحافظ على الفروض والنوائيل (٦٥٩) التوصل بالرسول وتسمية  
بعض أولاده ببعض أسماء الرسول (٦٦١) ختام أثرها  
(٦٦٢)



المعارضة الصابغة : ( السعيدية في مدح خير البرية ) ناظمها ،  
مولده ، نشأته ، تعلمه ، علمه ، شاعريته ، عدد أبيات  
معارضته ، تاريخ نظمها ، فضل الشيخ الخطيب في تسميتها  
( ٦٦٣ ) مولد الرسول ، شق صدره ( ٦٦٤ ) نظره إلى من  
سبقه من أصحاب معارضات البردة ( ٦٦٥ ) مدح الرسول ( ٦٦٧ )  
القرآن الكريم ، فصاحة الرسول ( ٦٦٨ ) طلب شفاعته الرسول ، تضرع  
إلى الله ، ختام ، أثرها ( ٦٦٩ ) .

### الفصل الثاني : أشهر معارضات البردة بحمد شوقي ( ٦٧١ - ٦٧٩ )

فيها دلالة على إمكان وجود الملحمة في الشعر العربي ( ٦٧١ )  
فيها ردود قوية على مزاعم المستشرقين . ( ٦٧٢ ) ساعدت على  
البحث في كتب اللغة ، أفادت الأدب العربي نموا ( ٦٧٣ ) دلست  
على أن المعارضة ليست كلها تقليدا ( ٦٧٤ ) دلست على أن  
المعارضة في ذاتها لا تتنافى مع الأصالة ( ٦٧٥ ) آراء بعض  
النقاد في الصلة بين المعارضة والمعرفة ( ٦٧٦ ) تساعد على  
تحقيق العدل في الموازنة ( ٦٧٨ ) .

### المساب السباد من

### الموازنة بين البردة ومعارضاتها في العصر الحديث ( ٦٨٠-٧٨٨ )

الهدف من الموازنة ، الاقتصار على الموازنة بين البردة ومعارضتي  
الهارودي وشوقي ، وسبب ذلك ( ٦٨١ ) لكل كاتب نزع ( ٦٨٢ )  
صعوبة منهج الموازنة ، بعض شروط الموازنة ( ٦٨٣ ) بعض  
نقائص الموازنة ، ملامة بحر البسيط ( ٦٨٤ ) آثار البوصيري باب  
الفارض أم لا ، الآراء في ذلك ( ٦٨٥ ) مطلع القصيدة : معناة  
أهميته ( ٦٨٧ ) الموازنة بين مطالب الشعراء الثلاثة ( ٦٨٨ )  
حسن التخلص : معناه ، ( ٦٩٠ ) أهميته ( ٦٩١ ) نهج  
القدماء في الانتقال من فكرة إلى أخرى ( ٦٩٢ ) بيان حسن

- التخلص عند الشعراء الثلاثة (٦٩٣) الخاتمة: معناها  
أهميتها (٦٩٤) بيان حسن الخاتمة في القصائد الثلاث،  
الأنكار وترتيبها (٦٩٦) الوحدة العضوية: معناها،  
أهميتها، آراء النقاد (٧٠٤)  
(٧٠٥) أنسى القصائد الثلاث وحدة عضوية أم وحدة فنية  
الماطفة: معناها، أهميتها (٧٠٧) عاطفة البوصيري  
(٧٠٨) عاطفة البارودي (٧٠٩) عاطفة شوقي (٧١٢)  
الخيال: معناه، أهميته، صورته (٧١٤) خيال البوصيري  
(٧١٥) خيال البارودي (٧١٦) خيال شوقي (٧١٧) -  
الأسلوب: معناه: بضم مقاييس من الكلمة (٧١٩) الدقسة،  
الإيحاء - التكرير (٧٢٠) الكلمات غير الضميرية  
(٧٢٢) بضم مقاييس الجمل والتراكيب، الوضوح (٧٢٢) ملامة  
الألفاظ للمعاني (٧٢٣) جمال الأسلوب، أثر اقتباس الشعراء  
الثلاثة بضم الأمايب من القرآن والسنة (٧٢٥) بضم  
الأخطاء، بضم الحِكم (٧٢٦) الحكم بتفضيل البردة على  
معارضاتها بعامية ومعارضتي البارودي وشوقي بخاتمة (٧٢٧) .

الخاتمة: (٧٢٩)

النتائج: (٧٣٢)

المقترحات: (٧٣٥)

مصادر البحث: (٧٣٧ - ٧٥٩)

فهرس الموضوعات: (٧٦٠)

تصويب

| سطر | صفحة | الخطأ         | الصواب             |
|-----|------|---------------|--------------------|
| ٢٤  | ٤    | طبقات الشعراء | طبقات فنون الشعراء |